

صور تربوية وتطبيقات عملية

تأليف

محمد مسعد ياقوت

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين




بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إلى الذين اتخذوا رسول الله ـ ﷺ ـ قدوة لهم.

الذين يقرءون قول الله تعالى :

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٢١]

أهدي هذا الكتاب



اسم الكتـــــاب: السيرة النبوية

التـــــــأليف: د / محمد مسعد ياقوت

الصف التصويري: الندي للتجهيزات الفنية

عدد الصفحـــات: 640

عـــدد الطبعات: (الطبعة الأولى 2010)

التوزيع النشـــر : دار البشير للثقافة والعلوم

مصر - طنطا

تليفون : 0167467492 -0162836461

darelbasheer@hotmail.com

dar_elbasheer@yahoo.com

الإيداع القانوني : 2010/

الترقيـــم الدولي : I.S.B.N.978/977/ / /

1431 هـ

2010 م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

يا رسول الله، صلى الله عليك !

✍ **تسلمُ عليكَ البشريةُ وتقول :**

رأيتُ بك بدراً على الأرض ماشياً

ولم أر بدراً قطُّ يَمشي على الأرض

❋ ❋ ❋

علمْتنا كيف تنتفض الأخلاقُ من سطور الكتب إلى صفحات الحياة، فكنتَ قرآنًا يمشي على الأرض؛ جاء، ليتمم مكارم الأخلاق، فيَحيا ما مات منها، ويُجدِّدَ ما بَلي منها. بل كنتَ المعجزة الأخلاقية التي تتحرك بين الناس، إذْ اشتملت بين جوانحك جوامع الأخلاق الكريمة، والسجايا العظيمة، والشمائل السجيحة. ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]

❋ ❋ ❋

✍ **صلى الله عليك !**

المعجزة الأخلاقية تلك المتمثلة في شخصك الكريم، التي لم نرها في أي سيرة من سير العظماء عبر التاريخ، فإذا ما درسنا سيرة أحدهم رأينا التفوق في جانب والتقصير في جوانب، بيد أن سيرتك يا خاتم الأنبياء ـ صلى الله عليك ـ أبانت صفتي **" التكاملية "** و**" الشمولية "** .

✍ **التكاملية** من حيث كون كل خُلقٍ من أخلاقك قد بلغ الذروة في مجاله، فبلغت قمة الرحمة، وبلغت قمة العدل، وبلغت قمة العفو، وبلغت قمة الشجاعة ... علمًا أن الجمع بين قمم الأخلاق أمر أشبه المستحيل .

✍**والشموليةُ** ؛ من حيث اجتماع جماع الخير فيك ـ صلى الله عليك ـ؛ فنجد فيك كل خصلة كريمة، وكل خَلَّة طيبة، وكل صفة حميدة.

❋ ❋ ❋

✍ **صلى الله عليك !**

استطعتَ ـ على سبيل المثال ـ أن تضرب المثل الأعلى؛ كزوج ناجح تجمعُ بين الرحمة والعدل بين تسع نساء؛ فيهن البكر والثيب، والكبيرة والصغيرة، والمتعلمة والأُمية، والفقهية وغير الفقهية، والجميلة وغير الجميلة، والقرشية وغير القرشية، والخزاعية والكندية والكلابية، وابنة اليهودي وابنة النصراني، وابنة الحنيفي وابنة الوثني، وابن صديقك ـ كعائشة ـ وابن عدوك ـ كصفية .

استطعت ـ يا صاحب النسب الباهر ـ أن تقيم العدل والرحمة في بيتك الطاهر، رغم الاختلاف الشديد، والتباين الشاسع؛ في طباعهن وأصولهن وخلفياتهن الثقافية ـ رضي الله عنهن ـ .

❋ ❋ ❋

✍ **صلى الله عليك !**

رأينا في سيرتك الكريمة؛ مثالُ المصلح الاجتماعي؛ الذي تهفو إليه أفئدةُ المجتمع من حوله . يهرع الناسُ إليك تكشف عنهم كرباتهم . تصل الرحم، تحمل الكل، تقري الضيف، تُحسن الجوار، تفك العاني، تطلق الأسير، تضاحك المسن، تكفل اليتيم، تسعى على الأرمة، تصلح بين المتخاصمين، تعين على مصائب الأيام، تسعى في حاجات الإخوان، وفوق ذلك أكرم الناس، وأشجع الناس، وأحلم الناس، وأصدق الناس، وأفصح الناس، وأعلم الناس .

❋ ❋ ❋

رأينا في سيرتك الميمونة ـ وسُنتك المصونة ـ أنموذج الحاكم المسلم، القائد العادل، الشجاع الباسل، الفقيه السياسي، العالم الاجتماعي، المقاتل الهِبْرِزِيّ. ويكادُ الباحثُ يَجْزِمُ أنما السمةُ الغالبةُ على سيرتك بعد سمة النبوة؛ هي سمة الحُكم، والحُكم الرشيد؛ وسمة القيادة، والقيادة المؤمنة، وكليهما ـ الحُكم والقيادة ـ يستنيران بنور النبوة المعصومة.

وجعلتَ من سيرتك ـ يا عَلَم الهدى ـ باقة من المواقف التي تؤكد أن الدين والدولة صنوان، وأن العقيدة والشريعة أخوان، وأن الإيمان والحُكم؛ هما شعاعان من قبس واحد، بل من مشكاة واحدة، في كوة احدة .

❋ ❋ ❋

غابت سيرُ العظماء، وبقيت سيرتك، فهي سيرة النبي الخاتم، وهي سيرة المسلم الأول، والمصلح الأعظم، والحاكم الأعدل .

رأينا في سيرتك الأنموذج الأمثل للجماعة الدعوية الناجحة، والصورة الأكمل للدولة الإسلامية الناجعة .

✍ **صلى الله عليك !**

✍ **في سيرتك** ، المنهج القويم؛ لإعداد الرجل المسلم والمرأة المسلمة والطفل المسلم .

✍ **في سيرتك** ، المنهج السديد؛ لإعداد الأسرة المسلمة، والبيت المسلم، والعائلة المسلمة.

✍ **في سيرتك** ، المنهج الحكيم؛ لإعداد المجتمع المسلم، والشَعب المسلم، والأمة المسلمة .

✍ **في سيرتك** ، المنهج السليم؛ لإعداد الحكومة المسلمة، والدولة المسلمة، والتحالف الإسلامي.

✍ **في سيرتك** ، المنهج الحصيف؛ لإعداد الخلافة الإسلامية، والقانون الدولي الإسلامي، والحضارة الإسلامية الرائدة الظاهرة .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥] .

❋ ❋ ❋

ما أطيب سيرتك ! وما أطهرها تلك التي طهّرتْ نفوسنا، وأحيت قلوبنا، وحركت جوارحنا، وأرسلت هداها؛ تنثره، أراجيزَ وأزاهيرَ، هنا وهنالك وهناك، أرجوزة في التربية، وأرجوزة في الجندية، وأرجوزة في الحاكمية، وأراجيز وأراجيز ...

❋ ❋ ❋

صلى الله عليك، وجزاك الله عن البشرية خير الجزاء . قدر ما علمتها العلم والأخلاق والحضارة !

❋ ❋ ❋

محمد مسعد ياقوت

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

www.nabialrahma.com

yakoute@gmail.com

هاتف : ٠٠٢٠١٠٤٤٢٠٥٣٩

كُليمات

✍ **السيرة النبوية**، لا غنى عنها لفهم القرآن، ولا غنى عنها لفهم الحياة.

✍ **السيرة النبوية**، هي أدق ما كُتب عن إنسان : أعظمُ ترجمة، وأجملة قصة، وأصدق رواية، وأكرم تجربة، وأمثل أنموذج لدعوات النهضة في كل زمان ومكان .

✍ **السيرة تقول لك** ـ عمليًا ـ إن مع العسر يسرًا، لا تحزن إن الله معنا، النصر مع الصبر، العاقبة للمتقين، الدائرة على المجرمين، فسيكفيكهم الله، إنهم يمكرون، ويمكر اللهُ، والله خير الماكرين.

✍ **حدثنا رجلٌ إسباني قائلاً :** "لقد أسلمتُ لما قرأتُ السيرة النبوية".

✍ **السيرة تقول:** لا تتعجل النصر، فإن الثمرةَ لا تحلولي حتى تستوفي نضجها.

✍ **السيرة تقول:** إنما الـمَجد لأصحاب الهمم العالية، فلا تزال الهمم العالية تصبو إلى الفوز، حتى تجوز قصبات السبق .

إذا أردت أن تنسف آمالك فسلط عليها اليأس، فهو كفيل بتخريب كل شيء !

سترى في السيرة النبوية كيف تتجسد الحكمة في شخص، وتتحرك الأخلاقُ بين الناس رجالاً .

✍ **من الأمثال التي تنطق بها السيرة :** كن عضوًا في جماعة الأسود، ولا تكن قائدًا لجماعة النعام .

✍ الإخلاص وهو السر الوحيد وراء خلود الأعمال والتجارب .

✍ السمة الغالبة في مَن آمن وهاجر وجاهد هي التجرد ، والسمة الغالبة في مَن آوى ونصر وأنفق هي الإيثار، وكلاهما ـ أي التجرد والإيثار ـ هما الزراعان اللذان كان يبني بهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ.

✍ رأينا في السيرة رجالاً حول الرسول سقطوا وانقلبوا على أعقابهم .. كانت مشكلتهم التي كادت أن تجمع بينهم هي سوء فهمهم للإسلام .

✍ الجهد الذي بذله أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ للإسلام، يفوق الجهد الذي بذلته جماعة الصحابة قاطبةً.

✍ الضائع الهالك من هزمه عدوُه هزيمةً نفسية، أي هزيمة دون قتال !

✍ كثيرًا ما ننسى أن المعركة بين الحق والباطل، معركةٌ بين السماء والأرض !

✍ التائه الخائب من ترك الجماعة إلى الفرد، والحائر البائر من تردد بين الحق والباطل، والغبي الأحمق مَن فكر كثيرًا بين طريق مسدود وآخر ممهدٍ مورود، ولم أجد أضيع من رجل عاش منافحًا عن منهج كاسد، وزعيم فاسد.

✍ حياة الإنسان قصيرة جدًا ، لكنها تطول في ذاكرة البشرية بمقدار ما قدم للبشرية .

✍ إذا أحببت أن تتعلم القيادة فتعلم أولاً الجندية . فلم نر قائدًا ناجحًا إلا ونراه قبلُ كان جنديًا صالحًا .

✍ مهما قدمنا وبذلنا فنحن عيالٌ على الصحابة، فالعمل هو العمل، ولكن القلب غير القلب، والسعيدُ من جمع بين جنبيه فضائلَهم، وجسدها في سلوكه.

✍ أقلُ كتابٍ في السيرة كفيلٌ بهدم فكرة " **العلمانية** "، أي فصل الدين عن الدولة، فأنت في السيرة ترى الدينَ والدولةَ هما الإسلامَ بعينه.

✍ " **عالمية الإسلام**"، " **شمولية الإسلام** "، " **وسطية الإسلام**"، "**واقعية الإسلام** "... كلها دروس بديهية في السيرة النبوية.

✍ **محاور السيرة النبوية** : سيرة الفرد ثم سيرة الجماعة ثم سيرة الدولة.

✍ الأحداث الكبرى في السيرة؛ أربعةٌ ، لا يعدلها شيء : نزول الوحي، والهجرة، وبدر، وصلح الحديبية.

✍ الفرق بيننا وبين أي جماعة من البشر، أن سيرةَ قائدنا بكل تفاصيلها بين أيدينا، وسوانا لا يملك شيئًا سوى أساطيرَ عن رجل مصلوب ومعبود، أو بقرةٍ يترنح حولها البشر في ركوع وسجود، أو كوكبٍ، أو حجرٍ، أو فيلسوف مجهول.

✍ الذين يزرعون أقل بكثير من الذين يأكلون، غير أن فضل الزارع على الآكل كفضل الشمس على الأرض، فتأملْ فضلَ الصحابة على من سواهم .

✍ حبةُ الحنطة أنفع من حبة التفاح، فهذه من المكملات وتلك من الأساسيات، وهذا هو الفرق بين الدعوة الشاملة التي تنفع الناسَ عامة، والدعوة الناقصة التي

ينتفع بها طائفة؛ تلك التي تتزي بزي كاذب، وتركز على الشكل دون المضمون، ولو تعلم هذه الدعوات المختلة أن رائحة التفاح لا تسمن ولا تغني من جوع !

✍ حينما تدور رحى الحرب، ويلوذ المؤمنون بأستار الله؛ فإن النتائج المنطقية غالبًا ما تغيب في مثل هذه الحروب .

✍ إن اللبنة الأولى في مشروع إعادة المجد الإسلامي؛ يتمثل في ضرورة الفهم السليم للإسلام . فلن ينصر الإسلامَ مَن اختل فهمه فيه، ولن ينشر الإسلامَ مَن أخذ ببعض الكتاب وكفر ببعض، بل الناصرون هم الذين يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ، وفهموا الإسلام فهمًا شاملاً، منهجًا للحياة، ودستورًا حاكمًا، وشريعةً قائمة.

✍ النفوس الجبانة هي أكثر النفوسِ المتجرئة على الله . والمترفون لا يقيمون حضارة. وصنفان لا تُجدي معهما أحكامُ الله : المترددون والغافلون. فأحكام الله يجب أن تُأخذ بيدين: يدٌ جادة وثّابة، ويدٌ ذاكرة متدبرة : "**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** "

محمد مسعد ياقوت





القسم الأول

حول السيرة النبوية

فوائد دراسة السيرة النبوية

غزوة وسورة

✍ عن علي بن الحسين - رضي الله عنهما - أنه قال " **كنا نُعلَّم مغازي النبي - ﷺ - كما نُعلَّم السورة من القرآن** "[١].

✵ ✵ ✵

هذه مآثر آبائكم

✍ عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال:
"كان أبي يعلمنا المغازي، ويعدّها علينا، وسراياه، ويقول: يا بني، هذه مآثر آبائكم، فلا تضيعوا ذكرها"[٢].

الجنة في الآخرة ، والتمكين في الدنيا .

✍ قال الإمام الزهري : **" في علم المغازي علم الآخرة والدنيا"**[٣].

✵ ✵ ✵

يا طالب الثقافة، ويا طالب الفِكر، ويا طالب الأدب، ويا طالب العلم، ويا طالب التربية...

هلموا، هلموا جميعًا إلى مكان مليح، فيه ما تشتهون من كل نورٍ، في دروب الفنون، في الثقافة والفكر، في المعرفة والأدب، في التربية والسياسة، في الاقتصاد والتنمية !

هذا المكان بين دفتي كتاب، يقص من أنباء خير البرية، إنها السيرة النبوية، خير السير، وأعظم العبر، وأحسن القصص.

وقبل أن تطالع سيرة النبي - ﷺ - ؛ عليك أولاً أن تعرف قدر السيرة، وفوائدها الكثيرة، وهذه بعضها :

أولاً : فهم القرآن

فمن فوائد دراسة السيرة النبوية؛ أنها تساعدك على فهم كتاب الله تعالى، فقد نزل القرآنُ مُنجّمًا، تعقيبًا على الأحداث، أو تبيينًا لإشكال، أو ردًا على استفسار، أو تحليلاً

(١) انظر : ابن كثير : (السيرة):٢ / ٣٥٢ .
(٢) انظر : الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي : ٢/ ١٩٥ .
(٣) انظر : الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي : ٢/ ١٩٥ .

لموقف من مواقف السيرة، كما حدث في مواقع بدر وأُحد والأحزاب وتبوك، وكما حدث في صلح الحديبية، وحادث الإفك وغيرها من الحوادث والمشاهد . فقراءتك لهذه المواقف من السيرة تساعدك في فهم ملابسات الحدث، وخلفيات الموقف، وطبيعته من الناحية المكانية والزمانية .

ثانيًا : فهم السُّنّة :

فأحيانًا تَرِدُ مواقفُ السيرةِ في كُتب الحديث بشكل مقتضب جدًا، وأحيانًا يذكر أصحابُ المتون موقفًا أو موقفين في غزوة كاملة، الأمر الذي يدفع القارىء إلى مطالعة السيرة النبوية للوقوف على ملابسات الحدث وخلفياته وزمنه ومكانه، مما يعينه على فهم الحديث، واستيعاب بعض الأحاديث التي قد لا يرضى عنها العقل . (**نعوذ بالله من الزيغ والارتياب !**).

ثالثًا : فهم العقيدة الإسلامية :

ومن فوائد السيرة؛ أنها تساعد على فهم العقيدة الإسلامية؛ بطريقة عملية من خلال السلوك العملي للنبي -ﷺ- عبر مسيرته الحافلة بمواقف الإيمان والثبات في مواجهة المحن والإيذاء والمساومات . وفي المرحلة المكية تتجلى المعاني الكبرى لعقيدة التوحيد، وتظهر طريقة القرآن المكي في ملاحقة الشبهات العقدية التي يطرحها المشركون خلال هذه المرحلة، وفي ضوء هذا التنزيل نرى الحكمة النبوية كيف تدمغ هذه الشبهات، وتفند هذه الادّعاءات التي أثارها الوثنيون حول توحيد الألوهية، والبعث بعد الموت، والجنة والنار، والوحي والنبوة، وغيرها من المحاور العقدية العظمى، التي تناولتها السيرة النبوية بشكل جامع مانع .

✍ **وأقول دومًا :** إن السيرة النبوية هي أعظم المصادر في دراسة العقيدة الإسلامية بعد القرآن الكريم، فمن عزم على دراسة علم العقائد فعليه بالقرآن ثم السيرة ثم أبواب العقائد في كُتب السُنة ثم أمهات العقائد للعلماء الأعلام، ثم يقرأ بعد ذلك ما شاء !

رابعًا : التأسي بالنبي - ﷺ -

ومن فوائد دراسة السيرة أيضًا، أنها تساعدك على الاقتداء برسول الله - ﷺ -، إذ هي تبيْن لك أحواله، وتفصل لك أخلاقه .. مع أهله ، مع صحبه ، مع عدوه، تشرح لك سلوكه في سلمه وحربه . في حكمه وقضائه . في ضعفه وقوته . في مرضه وصحته.

وقد قال الله – تعالى – : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١]، ولن يتحقق التأسي إلا بمعرفة سيرة الـمُتأسَى به . .

خامسًا : مَحبة النبي – ﷺ – :

ومن فوائدها كذلك أنها تُزيد حبك للنبي – ﷺ –، وحبُه من الدين، وحبه من الإيمان، وقد قال الله – جل وعلا – : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة:٢٤]، وقد قال النبي – ﷺ – : « **لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** » [البخاري : ١٥، عن أنس] .

فإذا أردتَ أن تكون من محبيه فعليك بسيرته، وإذا أردت أن تعرف قدره فعليك بسيرته، فهي تلهب مشاعرك نحوه، وتوثق قلبك به، فعليك بإدمان النظر في السيرة حتى يكون النبي –ﷺ – أحب إليك من نفسك ووالدك وولدك والناس أجمعين، ولا تظنن أن هذا الحب يُدرك بالقراءة فقط، فالقراءة وعاء أجوف ما لم تملئه بالعمل .

سادسًا : محبة الصحابة وآل البيت – رضي الله عنهم –

فمن السيرة تعرف قدْرَ أبي بكر ، وبَلاءَ عمر ، وبذل عثمان، وشجاعة علي، وحلم معاوية، وصبر خباب، وثبات بلال، واجتماعية الطفيل، واقتصادية ثمامة، وكرم أبي أيوب، وفقه معاذ، وهمة ابن الجموح، وفدائية ابن جحش، وقرآنية ابن مسعود، وصدق أبي ذر، وأمانة أبي عبيدة، وعبقرية الحباب، وحفظ أبي هريرة، ودهاء عمرو، وخطابة سُهيل، وفروسية الزبير، وصمود سماك وأناقة دحية، ولباقة ابن حذافة، وذكاء سلمان، وغيرهم، من الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم جميعًا –، فضلاً عن فَضلِ أمهات المؤمنين، فمن السيرة تعرف سَبْقَ خديجة، وعِلْمَ عائشة، وفضل سَوْدة، وبركة جويرية، وغيرهن من أمهات المؤمنين – رضي الله عنهن جميعًا –، وترى في السيرة جهادَ الصحابيات؛ وقد ضربن المثل في التضحية والبذل من أجل دين الله، فستعرف

فيها: فضل سمية أيام مكة، وفضل أسماء يوم الهجرة، وفضل نسيبة بنت كعب يوم أُحد، وفضل غيرهن من الصحابيات الجليلات .

سابعًا : تحصيل المنهج النبوي في التربية

فدراسة السيرة؛ سياحةٌ روحية، تسمو بها النفوس، وتخشع لها القلوب، وتدمع فيها العيون، وتزكو بها الهمم، وتُشحذ فيها الأرواح والأجسام والعقول والجوارح . كما أن السيرة تُبيْن لك كيف أعدَّ رسولُ الله -ﷺ- جيل النصر المنشود، وكيف ساق عباد الأوثان إلى الحياة من جديد، وجعل منهم أعلامًا في الجهاد والفتوح، والحضارة والعلوم، والسياسة والفنون . فالسيرة ترسم لك معالم المنهج التربوي في الإسلام، وتشرح لك أهدف هذا المنهج ومقوماته ووسائله ونتائجه . وقد شهد أربابُ التربيةِ أن السيرةَ ذخيرةٌ في القيم التربوية، التي لم تجمعها سيرة إنسان مشى على وجه الأرض.

ثامنًا : ثقافة التكوين، إعداد الفرد المسلم، البيت المسلم ، المجتمع المسلم

السيرة منهج حياة، تصور لك النظام الشامل للإسلام، فمنها يتعرف المسلم على منهج التكوين الإسلامي، فيعرف كيف أعدَّ النبيُ -ﷺ- الفردَ المسلم، والبيتَ المسلم، والمجتمعَ المسلم، وكيف كانت بدايةُ الدعوةِ على حُر وعبد (**أبي بكر وبلال**)، ثم الأُسرة الإيمانية (**في دار الأرقم**)، والبيت المسلم (**كبيت أبي بكر**)، ثم المجتمع الإسلامي الجديد في المدينة المنورة، ثم الدولة الإسلامية التي هي نتيجة طبيعية للمجتمع المسلم، وكيف أقام هذه الدولة، وبنى مسجدها، ووحد صفها، وحرر سوقها، وجيش جيشها، وأمنَّ حدودها، وكتبَ دستورها، وعقد المواثيق مع جيرانها، وحارب أعدائها، ثم صالح وعقد هدنة، ثم راسل ملوك الدنيا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم مات وخيله تتجهز لغزو الرومان.

تاسعًا: الثقافة العسكرية، ومعرفة عوامل النصر وأسباب الهزيمة

فقد اشتملت السيرة على العديد من التجارب الحربية، والمفارقات العسكرية، والمشاهد القتالية، وأبانت لنا كيف انتصر المسلمون في بدر، وكيف انهزموا في أُحد، وكيف انكشف الحصار في الخندق، وأبانت جُبن اليهود، وخيانة اليهود، وعداوة اليهود، وأظهرت عناد الوثنيين، وتكبر الفرس، وإسراف الروم، وحمق كسرى، ودهاء

هرقل، وعدل النجاشي، وكذب مسيلمة، وهكذا، يتثقف المسلم في المجال الحربي، متعلمًا من هذه المشاهد أسباب الهزيمة، وعوامل النصر، ووسائل التحفيز، وطرق الردع، وخطط الحرب، وآلات الضرب، ومشاهد السرية والكتمان، ودراسة مشاهد الحصار، والحرب الاستباقية، والحرب الدفاعية، والحرب المعنوية، والسَرايا الاستخبراتية، وغيرها من الدروب الحربية.

عاشرًا : مدخل للعلوم الشرعية

ومن فوائدها، أنها تهيء طلاب العلم، وتجعل لهم سُلمًا للعلوم الشرعية الأخرى، بل نقول : إن السيرة هي أم العلوم الشرعية؛ ففيها الشرح التطبيقي للعقيدة الإسلامية، وفيها مظان الأحكام الشرعية ، وأصول الأخلاق النبوية، وهي صدر التاريخ الإسلامي، ومقدمة مهمة لدراسة علم الحديث، ودرسٌ أساسي لدراسة السياسية الشرعية وأصول الحُكم في الإسلام، ولا غنى لطلاب علوم الاقتصاد الإسلامي من دراسة السيرة لاسيما ما حدث من استقلال الدولة الإسلامية في المدينة عن الاقتصاد اليهودي.

حادي عشر: مطالعة الأدب الإسلامي

من فوائدها، أنها تحظيك نَهَلَهْ في الأدبين الجاهلي والإسلامي، فالعهد النبوي؛ عصرٌ ذهبيٌ في تاريخ الأدب، تنهل منه من الأدب الجاهلي الذي دار على ألسنة الصحابة وغيرهم، وتنهل منه من أشعار حسّان بن ثابت، وكَعب بن مالك، وعبدَ الله بن رواحة، ولبيد بن ربيعة، وغيرهم. وقد قال سعيد بن المُسيِّب: كان أبو بكر شاعراً، وعُمر شاعراً، وعليٌّ أشعرَ الثلاثة . .

وقد قال النبي -ﷺ- في عمرة القضاء ، عندما أنكر عمر بن الخطاب على عبد الله ابن رواحة قول الشعر في الحرم : " «**خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ**» [1].

وعن عائشة – رضي الله عنها – أَنَّ رَسُولَ اللهَّ –ﷺ– قَالَ « **اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ** ». فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ « **اهْجُهُمْ** ». فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ حَسَّانُ :

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٨٤)، عن أنس، وصححه الألباني .

قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ، ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ ، فَقَالَ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِى فَرْىَ الأَدِيمِ ... قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ لِحَسَّانَ « **إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لاَ يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ». وَقَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ – يَقُولُ « **هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى** » (١).

والقصائد التي نظمها حسان وغيرها من شعراء العهد النبوي، لن ترتشف من رحيقها إلا في أعجاز المواقف والمشاهد في سيرة النبي –ﷺ –، مثل تلك الأشعار التي قِيلت في يوم بدر، أو يوم أحد، أو التي قيلت في مناسبات اجتماعية أو مدح أو ذم .

ثاني عشر: وجبة ثقافية شهية:

فمن فوائدها، أنها تمنحك وجبة ثقافية دسمة؛ في عادات العرب الأُسرية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعقدية والعسكرية والسياسية . ستعرف فيها كيف كان الزواج في الجاهلية وكيف كان في الإسلام، كيف كانت المرأة في الجاهلية وكيف كانت في الإسلام، وكذا الميراث والحج والقتال وغيرها من الموضوعات التي تعلي من شأن الإسلام في نفسك.

كما أن هذه الوجبة هي مطيتك لفهم ثاقب لطبيعة المجتمع الإسلامي في المدينة بعد ذلك.

ثالث عشر: استلهام المستقبل:

فالسنن الربانية ثابتة لا تتغير، ولا تتبدل، ولا تتحول، ولا تحابي أحدًا . والسيرة ما هي إلا تأريخٌ لأعظم فترة مرت بها البشرية، فيها أعظم تجربة لبناء أمة هي خير أمة أخرجت للناس، فيه تجربةٌ لبناء دولة، هي أعظم دولة ظهرت على كوكب الأرض، فيها تجربةٌ لإنشاء حضارة؛ هي أعظم حضارة ظهرت على مر العصور.

وهذه الحصيلة الضخمة من الخبرات والتجارب التي حوتها السيرة لا غنى لذي عقل عنها فضلاً عن الحكام والعلماء والفلاسفة والمصلحين، فالسيرة بمثابة الكشاف الذي تَفهم به الحاضر وتستلهم منه المستقبل .

---

(١) مسلم : ٦٥٥٠ .

توصيات عملية

١ـ أخلص قصدك لله، ولا تقرأ إلا بنية .

٢ـ أن تستحضر في قلبك توقير النبي ـ ﷺ ـ وأنت تقرأ عنه، فقد أُمرنا بتوقيره، {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِّ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُّ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} الحجرات٣

٣ـ اجعل لنفسك وردًا من السيرة، فإذا ما انتهيت من كتاب فتحول إلى آخر، وهذا لتكون دومًا دائم الصلة بمصدر القدوة، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١].

٣ـ لابد أن تتمخض قراءتُك في كل مرة عن واجب عملي أو جانب تطبيقي تمارسه في حياتك العملية .

٤ـ اجعل أحداث السيرة وقصصها مادة أساسية في حديثك مع إخوانك وأهلك، فالمحاورة والماقشة حول موقف من مواقف السيرة؛ وسيلةُ إمتاع، وطريقةُ تربية، وبركةٌ في الفهم.



أتيت والناسُ فوضى ...!

جاء، والناسُ بين ساجدٍ لوثنٍ، وعابدٍ لبقـر، وخاضـع لبشر، في جهل مُظلم، وفقرٍ مـدقع، وغـرم مفظـع، ودم موجع، و رِقٍ غائر في العادات، وظُلم بائن للبنات، وفواحش مبثوثة في أرجاء الأرض، ومفاهيم مغلوطة صارت أصولاً راسخة في أذهان الناس،...،...، فلما كان كـل ذلـك؛ جاء الهدى، **محمدٌ** ﷺ !

***

السـؤال :

يا قارئي الكريم، ماذا قال قسٌ كبير جمعَ علوم الأديان بين جنبيه يصْفُ حالَ أهـل الأرض عشية البعثة المحمدية ؟

الجـواب :

✍ قال : الشيخ إبراهيم خليل أحمد (**القـس إبراهيم فيلـوبـوس سابقًا**)، في كتابه: محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ، ص :٤٧

"بينما كان العالم الشرقي والعالم الغربي بفلسفاتها العقيمة يعيش في دياجير ظـلام الفكر، وفساد العبادة، بزغ من مكة المكرمة في شخص محمد رسـول الله نـورٌ وضّـاء؛ أضاء على العالم فهداه إلى الإسلام".

التعليـق :

هكذا لخّص هذا الرجل ما دارت حوله الكتـب والدراسـات مـن إثبـات حقيقـة خروج النبي –ﷺ– إلى العالمين، في وقت بلغت فيه أمم الأرض **دركة** من الانحطاط لم تصل إليها من قبل، بل هي **دركات**، دركات في نواحٍ شـتى، في التخلـف العقـدي، والضمور الفكري، والتراجع الثقافي، والانحـلال الأَخلاقـي، والظلـم الاجتماعـي، والفساد السياسي.

***

العـرب :

بُعث النبيُ –ﷺ– والأرضُ تمر بساعة حرجة، فقد كانت البشرية تعـاني صـنوف الجهل والظلم .

أما العرب؛ - على ما فيهم من صفات الكرم، والفروسية والشجاعة، والذكاء، والقِيَافة، والفصاحة والنظافة - فكانوا يعبدون الأوثان، ويئدون البنات، ويرثون النساء كما يرثُ أحدهم الدابة، ويتكسبون من وراء الدعارة، وأنشأوا بيوتًا مخصصة لذلك، فضلاً عن عادات قبيحة أخرى تفشت فيهم؛ من نعرات عصبية، وحروب على توافه الأمور، وكانت فيهم حروب طوال على مدار عقود، هلكت فيها أجيالٌ.

أهمها :

١- حرب ابني قيلة : وهم الأوس والخزرج، وهي حرب بعاث، وكانت حتى بعثة الرسول - ﷺ - .

٢- وحرب ابنى وائل : بكر وتغلب (**وهي حرب البسوس**) على مدار أربعين سنة.

٣- وحرب ابنى بغيض : عبس وذبيان، في مجرى داحس وغبراء، كانت بينهم نحواً من أربعين سنة .

وهذه الثلاثة يسمونها الحروب الطوال .

وبين هذه الحروب الكبرى؛ لم يذكروا حرب الفجار، تلك التي كانت في مكة ! وفي الحَرم ! وفي الحُرم ! وذلك لحقراتها من حيث المدة وعدد القتلى مقارنةً بحروب بعاث والبسوس وداحس التي دارت رحاها عقودًا، وقُتل في سبيل هذه الحروب رجالٌ ورجالٌ ورجالٌ؛ ولكن في سبيل ناقة أو دون ذلك !

ومن ثم لك أن تتخيل حالة الهدوء التي عاشتها الجزيرة العربية بعد البعثة المحمدية.

لقد كانت جزيرة العرب تموج بالظلم والتخلف .. إلى أن أرسل الله برحمته محمدًا -ﷺ -

يقول الباحث الفرنسي "هنري ماسيه " في كتابه "الإسلام " :

"بفضل إصلاحات محمد [ﷺ] الدينية والسياسية - وهي إصلاحات موحدة بشكل أساسي- فإن العرب وعوا أنفسهم، وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى، ليعدّوا دخلوهم النهائي إلى تاريخ المدنية" [ص ٥٥] .

الرومــــان

أما أوربا فقد كانت في ظلام تحت ظلال الكنيسة، فكان الحُكم الكنسي المتعـصب؛ القائم على كراهية الآخر، الثائر على الأديان، القاتل للعلـم والمعرفـة، حيـثُ حُرّمـت القراءةُ والكتابةُ على عامة الناس، فضلاً عن تكبيل هؤلاء العامة بالحَجْر الفكري ضد أي مذهب مسيحي أو غير مسيحي يخـالف مـذهب الكنيـسة، ومـن ثـم تـم تحريّـق المعارضين بالنار، وتغريّق المخالفين في الماء.

وتزايدت المكوسُ و الإتاوات على كاهل الرعية؛ ومن ثم كثرت الثورات، وتنامت الفوضى .

وتفشى الانحلال الأخلاقي، وانتشرت كل ضروب العهر في الفئات الغنية .

مصـــــــر

وفي مصر، التي كانت تابعة لكنسية أوربا، قام (**قـيرس**) – عامـل الكنيـسة – في مصر على مدار عشر سنين؛ يفعل بالمصريين ما يشيبُ له الولدان، فقد أوقـد المحـارق للمخالفين، وسلط النيران على أجساد الأبرياء لإكراههم على اعتناق مذهب الكنيسة الحاكمة، وذكرت كتب التاريخ نماذجَ لوسائل التعذيب التـي مارسـها الرومـان عـلى المصريين، وأطنبوا في ذكرها، حتى شبهوها بمحاكم التفتيش التي كانت في الأندلس .

نعم .. لقد أكُرهت مصر على النصرانية .

يؤكد ذلك التاريخ والمؤرخون على اختلاف مرجعياتهم، وتأمل ما قالـه الباحـث الفرنسي " **جوستاف لوبون** ":

"ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية . ولكنها هبطـت بـذلك إلى حـضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي[١] ، وكان البؤس والشقاء مما كانـت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن. وكان أهل مـصر يقتتلـون ويتلاعنـون بفعـل تلـك الاختلافـات ، وكانـت مـصر التـي أكلتهـا الانقسامات الدينية ، وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقـد عـلى سـادتها الـروم . وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين " [٢].

---

(١) الصواب: الفتح الإسلامي .

(٢) حضارة العرب ، ٣٣٦.

وذاقت مصر المُر ألوانًا في حُكم أوربا المسيحية، من جباية وظلم، واضطهاد واستعباد، واستنزاف لثرواتها الطبيعية، لقد كانت مصر ضاحية زراعية تابعة لحُكّام أوربا، يُجبى إليهم منها ثمراتُ كلُ شيء .

ولعل الدراس لواقع الشعب المصري آنذاك، وما كانوا يكابدونه، يدرك لماذا تنفسوا الصعداء يوم نزلت مصرَ خيلُ المسلمين المحررين بقيادة الصحابي الجليل عمرو بن العاص ـ رضوان الله عليه ـ.

***

الفـــــرس

أما الفرس، فلن نعرّج على حضارتهم، فقد أكلتهم عبادة النار، وبالغوا في تقديس الأكاسرة حتى جعلوهم كالآلهة، وبمقدار هذه المبالغة أمعن الأكاسرة في ظلم الرعية، والإسراف الجنوني الذي يذهب بالألباب .

***

الصيـــــن

أما الحضارات والبلدان الأخرى، فلا يقل انحطاطها عن هذه التي ذكرناها في السطور الأخيرة، فالصين متهالكة في الوثنية حيث عبادة تمثال الفيلسوف **(جواتما بوذا)** وهو رجل يُحارب النسل وُلد سنة ٥٥٨ ق .م، ومتهالكة أيضًا في الرجعية الاجتماعية حيث العدون الصارخ ضد النساء، ذلك العدون المتولد من الفلسفة البوذية التي تدعو إلى هجر النسل. .

***

الهنـــــد

أما الهند، فهي أحط الأمم آنذاك، فقد استفحشت فيها الطبقية بصورة مريعة، وسادت بين أهلها الإباحية الجامحة، وبلغ من هوسهم الجنسي ـ كما حكى العلامة الهندي أبو الحسن الندوي ـ أن " **رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدن الرجال العراة، وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزءون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته، وينال فيها الفاجر بغيته ، وإذا كان هذا**

شأن البيوت التي رُفعت للعبادة والدين؛ فما ظن القارئ ببلاط الملوك وقصور الأغنياء ؟ ! " [١] .

والمضحك المبكي في هذه الحضارة الهندية ـ أيضًا ـ أن عدد الآلهة المعبودة في الهند في هذا القرن وصل إلى 330 مليون إله !!!

***

ضخامة المهمة

في هذا الوقت كان العالم في طريقه للانتحار الاجتماعي؛ فقد وصل الفساد في البر والبحر مبلغًا بشعًا، لقد كانت البشرية تتهالك نحو الزوال والدمار، كانت ـ بحق ـ في أحط دركاتها منذ بدء الخليقة .

وهذه الصورة التي عرّجنها عليها سريعًا، تفصح لك عن عِظم الجهد الذي بذله النبيُ – ﷺ – في تغيير هذا الواقع الـمُـر، وعن ضخامة التغيير الذي أحدثه الإسلامُ في العالم، وعن التضحيات التي قدمها المسلمون لبناء حضارة الإسلام وأستاذية الإسلام[٢] .

أستاذية العالم

لقد عرف العربُ لأول مرة الوحدة الحضارية، حيث جعل منهم الإسلامُ أمة، وجعل لهم دولة، وجعل لهم حضارة :

يقول الباحث الألماني "رودي بارت ":

"كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيشون فيها فسادًا. حتى أتى محمد ﷺ ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس"[٣] .

ويقول المؤرخ النصراني "فيليب حتى" :

" إذا نحن نظرنا إلى محمد ﷺ من خلال الأعمال التي حققها، فإن محمدًا الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد؛ يبدو لنا بكل وضوح؛ واحدًا من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ؛ لقد نشر دينًا هو الإسلام، وأسس دولة هي الخلافة،

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ٦٨ .

(٢) طالع كتابنا " **نبي الرحمة** "، فصل : رحمته في مجال التنوير والحضارة، ـ دار الخراز ، جدة .

(٣) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، ص ٢٠ .

ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية[١]. **وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر**"[٢] .

وكانت لمقومات الأمة الجديدة، والدولة العادلة، والحضارة الرشيدة؛ الأثر الفاعل الذي مكنَّ للمسلمين من التفوق الحضاري على الآخرين، الذي جعل أممَ الأرض تنظر للمسلمين بإجلال، وصار الناسُ يقتبسون النور من الحضارة الأستاذة، والدين المهيمن.

وامتد نور الأستاذية الإسلامية في ربوع الأرض، بل قامت حضارة أوربا الحديثة من مشكاة الحضارة الإسلامية، حتى قال الفيلسوف الفرنسي" **سان سيمون**" [١٧٦٠ـ ١٨٢٥] في كتابه " **علم الإنسان** ":

" **إن الدارس لبنيات الحضارات الإنسانية المختلفة، لا يمكنه أن يتنكر للدور الحضاري الخلاق الذي لعبه العرب والمسلمون في بناء النهضة العلمية لأوربا الحديثة** "[٣]

***

وهكذا، بالإسلام – وهو الحل الوحيد لمعضلات البشرية – ؛ وبه تحول **الإنسان**؛ من الجاهلية إلى الإسلام.

وبالإسلام انتقلت **الأسرة** والطفل والمرأة العربية من حمئة الظلم الاجتماعي إلى ظل العدل الإسلامي..

وبه انتقل **المجتمع** من الظلام إلى النور..

وتحول **العرب** من التخلف إلى التحضر .

وصارت لهم قيادة موحَّدة، وحكومة محكمة، ودولة ظاهرة.

واستخلفهم الله، وجعلهم خلفاء الأرض، يحكمون بين الناس بالعدل، فسادوا، وقادوا.

***

(١) الصواب : الأُمة الإسلامية ـ قلتُ : وهذا من طريقة وضع السم في العسل .

(٢) الإسلام منهج حياة ، ص٥٦ .

(٣) نقلاً عن رشدي فكار: نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع خلال القرن الرابع عشر الهجري ، ص ٣١ .

لكـــــــن :

فينا معاشِرُ لم يَبْنُوا لقومهمُ ... وإن بني قومُهم ما أَفْسدوا عادوا

***



اعقـد مقارنـة بـين حـضارات الـصين والهنـد والفـرس والرومان والإسلام في " **مجالات المـرأة والعلـم والأخـلاق** " وذلك في أبان العصر الإسلامي.





القسم الثاني

قبل البعثة

عراقة الأصل وشرف المحتد

اسمه الثلاثي : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي ...

تاريخ الميلاد : الاثنين ٢٠ أبريل ٥٧١م في عام مشهور عند العرب هو عام الفيل، في ١٢ ربيع الأول .

عائلته : بنو هاشم من أعرق عائلات الجزيرة العربية، ولهم دور كبير في خدمة حجاج بيت الله الحرام في مكة المكرمة ..

نسبه : يمتد نسب محمد – ﷺ – إلى عدنان وإبراهيم عليه السلام – باتفاق المؤرخين.

أمه : آمنة بنت وهب بن عبد مناف، ذكية، من أسرة عريقة، وقد كانت أفضل بنات عائلتها نسبًا وجمالاً .

أبوه : عبد الله، كان أحب أبناء عبد المطلب – زعيم مكة – على الإطلاق، كثيرًا ما قربه وضحى من أجله !

نشاطه الاجتماعي قبل البعثة : عضو مؤسس في حلف الفضول، ذلك الحلف الذي ما أُسس إلا لنصرة المظلومين وإغاثة المنكوبين .

مهنته : في صباه اشتغل برعي الغنم – كما كان موسى عليه السلام – وفي شبابه اشتغل بالتجارة، حيث عمل مديرًا لأعمال خديجة بنت خويلد، وهي سيدة أعمال عربية شريفة حسيبة.

هواياته : كان يعشق التفكر، وقد جعله بعد ذلك عبادة، حيث كان يصعد إلى غار حراء يتأمل ويفكر في الكون والحياة والإنسان، وقد جعل من ذلك وردًا سنويًا، حيث يصعد إلى الغار في شهر رمضان ، فيمكث يتحنث جل الشهر أو بعضه ، تمامًا كما كان يفعل سقراط، بيد أن الأخير كان يفرد يومًا بكامله للتفكر، سواءً كان هذا اليوم كل أسبوع أو كل شهر ..

المستوى التعليمي : لا يقرأ ولا يكتب .

أسماؤه : عُرف محمدٌ -ﷺ- بعشرات الأسماء، أهمها - بعد محمد - " **أحمد** " - ذلك الاسم الذي ذُكر في الإنجيل - ولقد قال النبي -ﷺ- في أحد الأحاديث : " **لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي (أي يُحشر الناس إثر بعثه)، وأنا العاقب**" والعاقب الذي ليس بعده نبي [(١)] .

الأخلاق والسلوك : قال الله تعالى فيه : {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} القلم ٤

الطول : كان رجلاً مربوعاً؛ ليس بالطويل البائن، ولا القصير.

الصورة : مليحًا وسيمًا، أبيض الوجه، أكحل العينين، أقرن الحاجبين، أمسح الصدغين، أسيل الخدين، مستقيم الأنف، بسام، ضحاك، لين الكف، عريض المنكبين، شديد سواد الشعر، أمسح الصدر والبطن، طيب الرائحة في حر القيظ، في صوته بحة جميلة، قال جابر بن سمرة في وصف النبي: كان " **أحسن من القمر**"[(٢)]، وقال خادمة أنس : " **لَمْ أَرَ بَعْدَهُ وَلَا قَبْلَهُ مِثْلَهُ** "[(٣)].

أعمال حربية : شارك النبي -ﷺ- في الدفاع عن مكة (**وهو ابن أربع عشرة سنة**)، وقد أرادت " **هوازن** " استباحة مكة، وكانت مشاركته مقصورة على جمع السهام لأعمامه .

أهم إنجازته الاجتماعية قبل البعثة :

- عضو مؤسس في حلف الفضول لنصرة المظلوم (**كان في سن العشرين تقريبًا يوم شارك فيه**) .

- نجح في إخماد حرب ضروس، كانت ممكن أن تحدث بين قبائل قريش، بسبب التصارع على شرف وضع الحجر الأسود في مكانه في حادث إعادة بناء الكعبة .

(**وكان في سن الخامسة والثلاثين يومها**)، وقد اختاره الناسُ ليكون حكمًا بينهم فيمن له الأحقية في وضع الحجر الأسود، بعدما دقوا في ذلك عِطْرَ مَنْشِمِ[(٤)] ، فأشار عليهم - في حكمة منقطعة النظير - أن يبسطوا له ردا ويضعوا الحجر عليه، ثم يحمله زعيم كل قبيلة من طرف، ويتولى بنفسه إعادة الحجر إلى الكعبة، فطابت النفوس بذلك ورضيت.

---

(١) البخاري :(٤٥١٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل : ٧، وصححه الألباني . (٣) البخاري - (٥٤٥٦) .

(٤) مَنْشِمُ امرأَةٌ من حِمْيَر وكانت تبيع الطيب فكانوا إذا تطيبوا بطيبِها اشتدَّت حربُهم فصارت مثلاً في الشرّ، [لسان العرب (١٢ / ٥٧٦)] .

شاب في ظلال الله

نشأ رسول الله – ﷺ – في كنف الله وحفظه؛ فلم يسجد لوثن، ولم يخضع لصنم، ولم يكذب ولم يخن، ولم يُرَ قط في موقف مريب، ولم يُؤثر عنه قول معيب. وسُمي في شبابه الصادق الأمين .

كان مَثَلٌ ونعم المثل للشاب الطاهر الحيي، العفيف..

حسيب نسيب

أما نسبه فأكرم قريش نسبًا، وأشرف العرب جِدًا، وأعظم الناس قدرًا، وهو القائل :

" إِنَّ اللهَّ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ ،وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ" [مسلم: ٤٢٢١، عن واثلة بن الأسقع] .

عليه الصلاة والسلام ! صفوة من صفوة، وكريم من كريم، وشريف من شريف، كأنما اختار نسبه اختيارًا !

يتيم عظيم

وُلد يتيمًا، وحضر منية أمه، رآها وهي تجود بنفسها في غربتها، وشارك في دفنها، وهو لا يزال في ربيعه السادس، وهكذا في سفرة واحدة؛ زار قبر أبيه ودفن أمه، وتجرع كأس اليتم، وعاش عيش البؤس، من فقر وفاقة، وكدح وحاجة، وهي نشأة كفيلة أن تقهر أي إنسان طبيعي، وأن تدمره تدميرًا، بيد أن عناية الله لا تغيب، فقد تكفله الله بالرعاية والتأديب، فأدبه فأحسن تأديبه .

عفيف منيف

لم يلتاث بلوثة الفحش، ولم يلتج في حمئة المجون؛ نشأ طاهرًا عفيفًا، نقيًا منيفًا، بيد أن الشبان في سنه تراودهم الشهاوات الجنسية، وتحتوشهم النزعات الفطرية، ولكن حفظ الله نبيه، فلم يثبت عنه أن عاقرًا خمرًا، أو هتك عرضًا، أو أكل حقًا .

لم تُكشف له عورة

كان العري منتشرًا في الجاهلية بين الرجال والنساء على حد سواء خاصة حول الكعبة، وكثيرًا ما تحدثت كتب التاريخ عن طواف فلان وفلان وفلان عرايا حول الكعبة، ورأي الكثير والكثير من وجهاء العرب قد تجردوا من ثيابهم في الحج.

أما رسول الله – ﷺ – فلم تُكشف له عورة !

ولم يُؤثر عنه أن طاف عريانًا .

ولم تذكر كتب التاريخ أن رسول الله – ﷺ – ارتكب سلوكًا مشينًا، ولا سيما في هذا الباب .

ومما يدل على حفظ الله له من هذه الأعمال الجاهلية ما رواه جَابِر بْنَ عَبْدِ اللَّهِ – حيث قال :

لَمَّا بُنِيَتْ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ – ﷺ – وَعَبَّاسٌ يَنْقُلانِ الْحِجَارَةَ ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ – ﷺ –: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ مِنْ الْحِجَارَةِ [فلما هم أن يفعل] خَرَّ إِلَى الْأَرْضِ ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ ! ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: **" إِزَارِي ! إِزَارِي ! فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَه"** [1] .

***



ـ احفظ طرفًا من الأحاديث النبوية الشريفة في الحض على العفة والحياء وغض البصر، طالع ـ على سبيل المثال ـ باب الحياء وما بعده من كتاب الأدب بصحيح البخاري.

ـ تجنب أماكن المجون، ومجالس اللهو، ورفاق السخف، وفتيان الخلاعة، وقل في نفسك دومًا : أنا صاحب رسالة والعمر قصير !

ـ اكتب خاطرة إيمانية حول حديث : **"لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ .."**



(١) البخاري: ٣٥٤٢ .

حلف المطيبين وحلف الفضول

أسس قريشيون - قبل البعثة -،حلفين أو هيئتين إصلاحيتين، بهدف نصر المظلومين وردع الظالمين .

الحلف الأول :

هو حلف المُطَيّبِينَ، وسبب تأسيس هذا الحلف أن فريقًا من قريش أجمعو على أن يأخذوا من بني عبد الدار الحجابة – أي شرف خدمة الكعبة –، واللواء – أي شرف حمل اللواء في الحروب –، والسقاية – أي شرف سقي الماء للحجيج، فهذه المكرمات الثلاثة لم تجتمع في أي عائلة من عائلات العرب سوي بني عبد الدار، فحقد عليهم الحاقدون، ومشوا في نزع هذا الشرف وتقسيمه، فتفرقت عند ذلك قريش ، واختلفت الآراء، فاستنصر بنو عبد الدار أصحاب النخوة والرجولة، فاجتمع أنصار بني عبد الدار، فأخرج بنو عبد مناف قصعة مملوءة طيبًا .ثم غمس الحضور أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا، على نصرة بني عبد الدار والمظلومين من بعدهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين (١).

ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبنى عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بنى عبد الدار، فانبرم الأمر على ذلك واستمر (٢).

ولم يشهد رسول الله – ﷺ – هذا الحلف ..

الحلف الثاني

حلف الفضول، وهم جماعة من المطيبين، وقد شارك فيه رسول الله – ﷺ – وهو في سن العشرين، وكان من أمر هذه الهيئة الإصلاحية؛ أن تداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان، لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول [**انظر : ابن هشام : ١/ ١٣٥،١٣٤**].

---

(١) انظر : ابن هشام ١/ ١٣٠-١٣٢ .

(٢) ابن كثير (**السيرة**) ١/ ١٠١ .

قال ابن كثير:

وكان حلف الفضول أكرم حلف سُمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب.

وكان سببه أن رجلاً غريبًا قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الغريبُ أهل الفضل في مكة ، فخذله فريق، ونصره الآخر، ثم كان من أمرهم ما ذكرناه، وقد وتحالفوا في ذى القعدة في شهر حرام، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة، وعلى التأسى في المعاش.

ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه مال الغريب، فدفعوها إليه.

التأصيل الشرعي لمثل هذه الأحلاف والجماعات التي تنصر المظلوم :

قال رسول الله -ﷺ- في حلف الفضول :

" شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ [(١)] مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ " [(٢)] .

وهذا هو الموقف الإسلامي من أي جماعة غير إسلامية تتخصص في أعمال الخير أو نصرة المظلومين أو إغاثة المنكوبين ..

موقف واضح، بيِّن، وهو تشجيعها والمشاركة في أعمالها الإصلاحية ..

فإذا عمد نفر من النصارى - مثلاً- إلى ممارسة عمل خيري بحت، غير مبطن بتنصير، أو معاداة للإسلام أو محاداة لنبيه -ﷺ -، فلا بأس من المشاركة فيه .. من قبيل التعاون على البر والتقوى .

أما تلك الجماعات التي تتخذ من العمل الخيري غلافًا لإفساد الإخلاق أو الحرب على الإسلام - كتلك الجماعات الماسونية كالروتاري والليونز - فمحاربتها أوجب من السكوت عنها .

---

(١) يقصد حلف الفضول فهم في الأصل من جماعة المطيبين .

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٧) ، وهو في السلسلة الصحيحة .

وإذا كان شأن رسول الله -ﷺ - مع جماعات المشركين، ، المتخصصة في نصر المظلوم وزَبر الظالم ، هو المؤازرة والمشاركة، فما بالك بشأن المسلم من جماعات الإصلاح المسلمة، والهيئات الإسلامية المتنوعة، والمتخصصة في شتى مناحي العمل الإنساني الخيري، كالتكافل، ورعاية الضعاف، وإغاثة الملهوفين، وكفالة الأيتام، والدفاع عن حقوق الإنسان، والدفاع عن حقوق الأسرى والسجناء، ومنافحة الظلم والفساد ...؟

لا شك أن نصرة هذه الجماعات أوجب، ودعمها أولى، والمشاركة فيها أجدى.

ولقد حث الله - عز وجل - المسلمين على إنشاء جماعات دعوية لإرشاد الناس وتعليمهم الخير، فقال- تعالى - :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٤]

قال ابن كثير:

" ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ أي: منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " (١) .

ثم قال:

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرْقَة من الأمَّة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **"مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ"**. وفي رواية: **"وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ"** (٢) .

وقال الطبري - في تفسير هذه الآية -:

"ولتكن منكم- أيها المؤمنون - "أمة"، يقول: جماعة - "يدعون" الناس "إلى الخير"، يعني إلى الإسلام وشرائعه " (٣) .

---

(١) ابن كثير (التفسير) : ٢/ ٩١ .

(٢) ابن كثير (التفسير) : ٢/ ٩١، والاستشهاد بالحديث من قبل ابن كثير.

(٣) تفسير الطبري ٧ / ٩٠ .

ويقول سيد قطب في ظلال هذه الآية :

لا بد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ...

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته . فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية . هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير ....

"وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى – في المدينة – على هاتين الركيزتين . . على الإيمان بالله : ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله – سبحانه – وتَمَثُّلِ صفاته في الضمائر؛ وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال . وعلى الحب . الحب الفياض الرائق والود . الود العذب الجميل ، والتكافل . التكافل الجاد العميق . . وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان . ." (١).

الفرق بين جماعة السلطان وجماعة غير السلطان :

يلزم على الحكومة الإسلامية إنشاء هيئة أو جماعة – داخل الدولة – للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه الجماعة الحكومية الموكلة من ولي أمر المسلمين يجوز لها وحدها استخدام " **القوة** " في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقرار المعروف وإنكار المنكر..

إما سواها من الجماعات الإسلامية أو الهيئات الشعبية داخل المجتمع الإسلامي فلا يجوز لها استخدام " **القوة** " لإقامة العدل بين المسلمين ، بل النصح والدعوة باللسان .

فالسلطان له وحده صفة استخدام الضرب في ممارسة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن **"لم يمتثل [المأمور] هدده بالضرب ، فإن لم يمتثل ضربه بالفعل، فإن لم يمتثل أشهر له السلاح إن وجب قتله ، ولا ينتقل عن مرتبة إلا عند عدم إفادة ما قبلها ، وأما غير نحو السلطان فإنما يأمر وينهى بالقول الأرفق فالأرفق وإليه الإشارة بقوله : (فإن لم يقدر) المكلف على الأمر أو النهي بيده لكونه غير سلطان "** (٢).

---

(١) الظلال، سورة آل عمران، تفسير الآية : ١٠٤ .

(٢) الفواكه الدواني ٨/ ١٦٢ .

ومثال لاستخدام القوة من قبل جماعة السلطان، قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحُجُرات:٩] .

أما حُكم كل من الجماعتين، فنرى أن جماعة السلطان، واجبة ولازمة، فيجب على الحكومة إقامة جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فقد خول الإسلامُ " **القوة** " إلى السلطان لإقامة العدل .

أما جماعة غير السلطان، فهي فرض كفاية، إذا قامت بها فئة من أبناء الشعب سقطت عن فرضيتها عن الآخرين . ولكن يُندب وجود عدة جماعات أهلية دعوية داخل المجتمع . للمشاركة والمنافسة في الخير، مع الحب في الله، والتعاون على البر والتقوى، دون الإغراق في الجزئيات، أو التعصب للأشخاص والأسماء، أو الطعن والتجريح المتبادل، أو سوء الظن وتصيد الأخطاء، أو التعاون مع الظالمين المتحكمين ضد أبناء الدعوة .



١- لا تدع مظلومًا إلا وشاركتَ في نصرته قدر استطاعتك.

٢- أن تشرع في تشكيل " **لجنة خيرية** " في الحي أو الشارع الذي تسكن فيه؛ لنصرة المظلوم، ومواساة المحروم، وتطبيب المكلوم .

٣- الانضمام إلى جمعية إسلامية خيرية والمشاركة في أنشطتها الخيرية والدعوية.





القسم الثالث

الدعـوة سـراً

نزول الوحي

عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قالت :

" أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – مِن الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ .. ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ؛ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ ! قَالَ : "مَا أَنَا بِقَارِئٍ "، قَالَ: " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ ! قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ! فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأْ ! فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق:١]..." [(١)] ..

- **هكذا كانت البداية : " تفكر ".**
- **وهكذا كان العمل الأول : " التحنث وهو التعبد".**
- **وهكذا كانت الكلمة الأولى : " اقرأ " ..**

وفي " **مطبخ** " التفكر والتعبد والقراءة، يصنع الله المصلحين على عين، ويعدهم لمهمة الدعوة والإرشاد، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فيأدبهم في صوامع العبادة بأدبه، ويزكيهم في خلوة التفكر، ويعلمهم في حِلق القراءة ..

فما أحوج المسلم إلى ثلاث ساعات في يومه وليلته، ساعة يتفكر مختليًا بربه، وساعة يتعبد فيها بقيام، وساعة يتثقف فيها بكتاب ..

ففي التفكر تصفية للذهن، وفي العبادة تربية للنفس، وفي القراءة تثقيف للعقل. وكلها من معينات الإنسان على حياته، ومن موقيات المسلم على دينه، ومن محفزات الداعي في دعوته .

(١) رواه البخاري : ٣ .

وفي كل مرة، يذهبُ فيها رسول الله –ﷺ – إلى غار حراء، ليتزود بهذا الزاد، كان عليه أن يصعد جبلاً شاهقًا، ويسلك طريقًا وعرًا، ليلاً، مشيًا، وحيدًا، في حمَّارة القيظ، وفي صبارة البَرْد ..

من أجل ماذا ؟

من أجل أن يتفكر . من أجل أن يتحنث . من أجل أن يتعلم .

فهذه الثلاثة لم تُنل إلا بشق الأنفس، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[العنكبوت:٦٩].

أما التفكر:

✍ **فيقول الله تعالى فيه :**

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩٠] .

✍ **قال النبي - ﷺ - : " ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها !! "** [1] .

✍ **وفي الأثر : " لا عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ "**

✍ **وقيل : " فكرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة ستين سنة ".**

والتفكّر نور، والغَفلة ظُلْمة، والتأمل باب من أبواب السعادة، وهو مفتاح العلم، ومن ثم فهو مفتاح العمل.

والتفكر صحة للعقل، والغفلة مفسدة للفهم؛ فإن الإنسان المتفكر المتأمل أصفى الناس ذهنًا، وأرحب الناس علمًا .

وأما التعبد :

✍ **فيقول الله تعالى فيه :**

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ [الفرقان:٦٤] .

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦] .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٢)، وغيره ، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨) .

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات:١٧]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ [المزّمل:١-٧]

✍ **ويقول النبي** -ﷺ-:

" نعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهَّ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ " (١) .

وتقول عائشة في صفة تعبده -ﷺ- :

"كَانَ يُصَلِّي إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً كَانَتْ تِلْكَ صَلَاتَهُ، يَسْجُدُ السَّجْدَةَ مِنْ ذَلِكَ قَدْرَ مَا يَقْرَأُ أَحَدُكُمْ خَمْسِينَ آيَةً قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ وَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ثُمَّ يَضْطَجِعُ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُنَادِي لِلصَّلَاةِ " (٢) .

✍ **وقال رسول الله - ﷺ - ناصحًا - :**

"عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم " (٣) .

✍ **وقال جعفر الخلدي:** رأيت الحسن في المنام .

✍ **فقلت:** ما فعل الله بك؟

✍ **قال:** طاحت تلك العبارات، وطارت تلك الإشارات، وفنيت تلك العلوم، ودرست الرسوم، فما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر.

✍ **وقال يوسف بن أسباط:** إذا أخلص الرجل التعبد لله أربعين صباحاً أجرى الله على لسانه ينابيع الحكمة .

✍ **وقال أبو ذر** -رضي الله عنه-: صلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور وصوموا في شدة الحر لحر النشور.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري (١٠٥٥) .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩)، والحاكم (١١٥٦) وحسنه الألباني في الإرواء ٤٥٢ .

فالتعبد، وبالأحرى قيام الليل، صحة للبدن، وقوة للروح، ووَجاء للنفس، وجُنّة للقلب، وزاد للدعاة، وملاذ للعصاة، وروضة يرتع فيها المؤمنون، فيها رَوح للمكروبين، وشفاء للمكلومين، وجلاء للمهمومين، وعطاء للمحرومين . إن قيام الليل جنة الله في الأرض !

وأما التعلم :

✍ **فيقول الله تعالى فيه:**

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزُّمَر:٩].

✍ **ويقول النبي -ﷺ- فيه :**

"طلب العلم فريضة على كل مسلم"(١) .

" .. و إن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر" (٢) .

"مَا من خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ إِلاَّ وَضَعَتْ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ " (٣) .



وعن صفوان بن عسال المرادي – رضي الله عنه – قال :

أتيت النبي –ﷺ – وهو في المسجد متكىء على برد له أحمر فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم .

فقال: **" مرحبًا بطالب العلم .. إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب"**(٤) .

✍ **وعن أبي أمامة قال:** ذُكر لرسول الله– ﷺ – رجلان : أحدهما عابد والآخر عالم.. فقال – عليه أفضل الصلاة والسلام – : **" فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم "**.. ثم قال – رسول الله ﷺ –:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، والبيهقي في الشعب (٢ / ٢٥٣)، وصححه الألباني .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٩)، وغيره، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٣١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٨ / ٥٤/ ٧٣٦٣)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٩٧) .

"إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير"[(١)] .

وكان أبو حنيفة – رحمه الله – إذا أخذته لذة المسائل (**في طلب العلم**) يقول: أين الملوك من لذة ما نحن فيه؟ لو فطنوا لقاتلونا عليها.

✍ **وقيل:** من خلا بالعلم لم توحشه الخلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفته السلوة.

✍ **وقيل لابن المبارك:** من تجالس؟ فقال: أصحاب النبي –ﷺ–، إني أنظر في كتب آثارهم وأخبارهم.

✍ **ولذلك قال الصولي:**

إن الكتابة والآداب قد جمعت ... بيني وبينك يا زين الورى نسبًا

✍ **وقال المتنبي :**

أعزُّ مكانٍ في الدُنى سرْجُ سابحٍ ... وخيرُ جليسٍ في الزّمانِ كتابُ

✍ **وقال سقراط :**

من لم يصبر على تعلم العلم وتعبه، صبر على شقاء الجهل.

والحمد لله الذي جعل ـ في الإسلام ـ تعلم العلم حسنة من الحسنات، وطلبه عبادة من العبادات، وبذله قربة من القربات، وجعل العلم نبراسًا لبناء الأمم والحضارات، ومنارة لتقدم الصناعات والمشروعات، وجعل العلم أفضل أنيس في الوحشة، وأحسن رفيق في الغربة، ووسيلة لاستنزال البركة، ودفع الكربة، وجلب الأحبة، وإفادة الصحبة، والعلم في الإسلام دين، ومن لا علم له لا دين له !



أوصيك بهذه الثلاثية :

✍ **الأولى : رحلة قمرية دورية :** تمارس فيها عبادة التفكر . التفكر في خلق الكون والنفس، التفكر في أحوال التاريخ وسننه، والموت وعظمته، والقبر وظلمته، واليوم الآخر وشدته.

✍ **والثانية : صلاة بليل:** عليك بقيام الليل والتزود من النوافل، عليك أن تنقذ نفسك بكثرة السجود.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٣)، وابن ماجه (٢٢٣) وحسنه الألباني .

✍ **والثالثة: كتاب تقرأه :** اقرأ في القرآن وعلومه، اقرأ في الزهد والرقائق، اقرأ في السير والمغازي، في التاريخ والتراجم، في الحديث والعقائد، في الفقه وأصوله، في الأدب واللغة، في علم النفس والصحة، في السياسة والاقتصاد، في التخطيط والتنمية .... كون مكتبتك، ورتب قرائتك، واستعن بشيخ يعلمك ويوجهك، فلا تترك نفسك للكتب دون مرشد، فالكتب تصنع الحفّاظ، ولا تصنع الفقهاء .

فإذا فقهت هذه الثلاثية المحمدية، فلتجعل شعارك دومًا في ليلك ويومك:

✍ هل تفكرتُ ؟

✍ هل تعبدتُ ؟

✍ هل تعلمتُ ؟

وإليك هذا البرنامج الثقافي المقترح كمقدمة لطلب العلم

تقوم كل يوم بمطالعة فرع من فروع العلم الشرعي مع إثبات مادة القرآن الكريم حفظًا ومراجعةً كمادة يومية ثابتة ..مع المحافظة على حُسن الخلق، والعمل الخيري، والأوراد، والأذكار، والقيام، والصيام، والتفكر .

اليوم	الفرع	الكتب المقترحة (ابدأ بالأسهل)
السبت	السيرة	سيرة ابن هشام، والرحيق المختوم، وهذا الكتاب
الأحد	التفسير	تفسير ابن كثير (**المأثور**) ،القرطبي (**الرأي**)، الظلال (**الأدبي**)
الإثنين	العقيدة	العقائد الإسلامية للسيد سابق، الإيمان لنعيم ياسين، الواسطية، الطحاوية
الثلاثاء	الحديث	الأربعون النووية، رياض الصالحين، جامع العلوم والحِكم، البخاري، مسلم
الأربعاء	الفقه	فقه السنة للسيد سابق، بلوغ المرام، المُحلى، المُغني، فتاوى ابن تيمية
الخميس	تربية	كتب عبد الله ناصح علوني، إحياء علوم الدين، كُتب ابن القيم
الجمعة	عام	قراءة حرة في الثقافة العامة، لغة، أدب،سياسية، اقتصاد، تنمية بشرية ..الخ

لا يخزيك الله أبدًا

"كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" (١).

بهذه الكلمات العظيمة تثَّبت أم المؤمنين خديجة قلب رسول الله ـ ﷺ ـ لما حدثها بشأن المَلك الذي نزل عليه بغار حراء، حيث قال لها معبرًا عن خشيته: **"لقد خشيتُ على نفسي"**.

وكان دور المرأة والزوجة الصالحة هو تخفيف حدة الضنك التي لحقت بنبي الرحمة ﷺ جراء هذه المقابلة الشديدة الصعبة مع **"جبريل"**، وتؤكد له عناية الله به، مدللة على خصال كريمة يتصف بها المصطفى، وسلوكيات طيبة يمارسها في مجتمعه.

فهي توضح له بكل صراحة أن الله لن يخزيه لعلة واحدة، هي أنه مواظب على جملة من العبادات الاجتماعية.. فلن يخزي الله من وصل الرحم، وصدق الحديث، وحمل الكَل، وأكرم الضيف، وأعان على نوائب الدهر!

إنها تتحدث إلى زوجها كطبيبة نفوس، وكفيلسوفة فكر، وكعالمة في سنن الله ونواميسه في الخليقة..إنها بكلماتها تلك تسبق ما قاله رسول الله ـ ﷺ ـ: **"صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والآفات والهلكات..."** (٢) [صحيح، الحاكم، عن أنس].

هذا القلب الكبير الذي يحمل كُل هذا الخير للناس لا يخزيه الله، لن يصل الحُزن إلى قلبه، ولن يصل الخوف من الناس إلى وجدانه، بل ستنعم حياته، وينعم قلبه، ويزهو ويفرح، وينجلي غبار الضنك عن رأسه.

"كلا"..

لن يحزن قلبك، ما دام يحمل الخير للناس..

---

(١) انظر : صحيح البخاري (٣).

(٢) أخرجه الحاكم (١ / ٢١٣)، برقم (٤٢٩)، وصححه الألباني، انظر حديث رقم : ٣٧٩٥ في صحيح الجامع.

" أبشر "..

سيندمل الجرح، ويزول الوجع، وستمضي في طريق الحياة بهذا القلب الخيّر، يفيض منه النور إلى البشر، وتسرج به قلوبًا غلفًا، وعيونًا عميا، وآذانًا صما.

"فوالله لا يخزيك الله أبدا"..

لست أنت بالوجه الذي يرده الله، ولست ولست أنت بالعبد الذي يتخلى عنه ربه، فأنت عبد أكرمت عباده، أشبعت جوعتهم، وأذهبت ظمأتهم، وكسوت عورتهم، ومسحت على رأس اليتيم، فكنت الأب.

✍ **وعفوت عمن أساء إليك فكنت الأم:**

وإذا رحمت فأنت أمٌّ أو أب ... هذان في الدنيا هما الرحماء

لا يخزيك.. ولم ولن يخزيك الله أبدًا.. فأنعم بحياتك!

"إنك لتصل الرحم"

فمن قطعك وصلته، تغني القريب الفقير، وتقوّي القريب الضعيف، أنت سند أهلك، ووتد أقاربك، لم يسمعوا منك إلا كل خير، ولم يروا منك إلا كل صلاح.. أنت لكبيرهم ابن، ولصغيرهم أب، ولصاحبهم أخ.

"تصدق الحديث"

لا تكذب أبدًا، لا تغش أبدًا، لا تزور شهادة، ولا تدلس مقالة، لم يُعهد عليك كذبة واحدة في حياتك، ولم تتلطخ لحظة واحدة في براثن الكذب.

"تحمل الكَل"

وهو العاجز، لا تُعينه فحسْب، بل تحمله! ولا تحمله فحسْب، بل تحمله وحاجته! لا ينزل عنك إلا وقد قضيت مسألته، ورحمت ذلته، وأسعدت قلبه.

"تقري الضيف"

ما أكرم الناس إذا نزلوا بدارك! وما أعظمهم إذا حلوا بحضرتك! أوقدت القدور، وجهزت النمارق، وقضيت الحاجات، فإن بات الضيف بدارك بات آمنًا عزيزًا، وإن انصرف؛ فمُكرم مسرور.

"تعين على نوائب الدهر"

فمصائب الأيام كثيرة، وجراح الواقع كبيرة، فيأتيك طالب العون فتعينه على نائبته، ويأتيك المكروب فتعينه على كربته.. أنت الظَهر للبائسين، فأنت لجراحهم طبيب، وأنت ليتمهم أب.

والصدّيق كذلك!

و"**أبو بكر**" تلميذه العظيم! يسير على شرعته، ويمارس صنعته، ويُبتلى، فيخرج مهاجرًا نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ (**برك الغماد**) لقيه "ابن الدغنة" وهو سيد (**القارة**) فقال: "**أين تريد يا أبا بكر؟**" فقال أبو بكر: "**أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي**".

✍ **فقال ابن الدغنة:** "فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج، ولا يُخرج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فأرجع فاعبد ربك ببلدك..

فأصحاب هذه الصنائع الخيرية، ما كان الله ليخزيهم، وما كان ليكلهم إلى بعيد كافر، أو إلى قريب ظالم، هم أحق بالتمكين، وأولى بسعادة الدنيا والآخرة، وكان حقًّا على الله أن يسخر لهم أمثال "**ابن الدغنة**".. ينصرهم ويؤازرهم، حتى ينعم صناع الخير في ظلال الله.

فاصنع خيرًا.. يسعد قلبك، ولا يخزيك الله.



١ـ زرْ قريبًا . وقل حقًا . واحمل مسنًا . وأكرم ضيفًا . وفرج عن مسلم كربةً من كرب الدنيا.

٢ـ أنشىء مجلة حائط تتحدث عن "**صنائع المعروف**"، وعلِقها بمسجد أو بمدرسة أو بمكان عمل.



يألف ويؤلف

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يألف ويؤلـف، فـما أن تقـع عينك عليه حتى تحبـه، فـإذا سـمعته أحببتـه، وإذا حدثته أحببته، وإذا خالطته أحببته، وإذا تعاملت معه في الدرهم والدينار أو في أي من المعاملات المالية؛ على التو تحبه، وإذا سافرت معه في سفر وعاينت أخوته وإيثاره على الفـور تحبه ..

✍ **نعم هو ذا، وهو القائـل : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »** [١] .

✍ **وقد وصف النبي ـ ﷺ ـ؛ الإيمان بقوله: الإيمان "الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ"**[٢].

✍ **ووصف المؤمن بأنه: " يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ، وخير الناس أنفعهم للناس "** [٣] .

***

يألف ويؤلف، هذه صفته، صلى الله عليه، هذه الـنفس الطيبـة؛ أبـت نفـسٌ تحـت العبودية أن تخرج من الرق إثارًا لها وضنًا . فزيد بـن حارثـة كـان في الـرق، واشـترته خديجة ـ رضي الله عنها ـ وأهدته إلى زوجها محمد ـ ﷺ ـ، وكانت من أخلاق النبي ـ ﷺ ـ مع زيد، كيت وكيت وكيت، أو كانت من أخلاق النبي ـ ﷺ ـ مع زيد ما لا تحـصيه الأقلام، أو ، أو ... بل نستطيع أن ندفع العناء عن أنفسنا في ذكر أخلاق النبي ـ ﷺ ـ مع خادمه ومولاه زيد بذكر موقف زيد حينما خُير بين حياة الرق ـ في بيت محمـد ـ أو حياة الحرية في ظل أبيه حارثه، فلم يبال بشيء ما دام في صحبة النبي ـ ﷺ ـ.

***

إذ لما علم حارثة بموضع ابنه زيد، وقد وصـلتْ الأنبـاءُ إلى عائلـة زيـد أن ابـنكم المخطوف قد استرق وبيع في سوق عكاظ، فهداهم البحـث إلى بيـت محمـد ـ ﷺ ـ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٦) .

(٢) أخرجه أحمد :١٩٤٣٥ ، عن عمرو بن عبسة، والحديث في السلسلة الصحيحة برقم ٥٥٤ .

(٣) أخرجه الطبراني (**الأوسط**) :٦/ ٥٨، والحديث في السلسلة الصحيحة برقم ٤٢٦ .

فأقبل حارثة مع نفر من عشيرته إلى النبي ـ ﷺ ـ، وطرقوا بابه، وكان زيد إلى جـواره، فنادوه : يا زيد ! فلم يجبهم إجلالا منه لرسول الله ـ ﷺ ـ وانتظارًا منه لرأيه .

✍ **فقال له النبي ـ ﷺ ـ :**

" **من هؤلاء يا زيد ؟** " .

✍ **فقال :** يا رسول الله ، هذا أبي ، وهذان عماي ، وهذا أخي وهـؤلاء عـشيرتي ، فقال له النبي ـ ﷺ ـ : " **قم فسلم عليهم يا زيد** " ..

✍ **فقام فسلم عليهم، وسلموا عليه ، وقالوا :** امض معنا يـا زيـد ، قـال : مـا أريد برسول الله بدلاً ، فقالوا له : يا محمد ، إنا معطوك بهذا الغـلام ديـات ، فـسم مـا شئت ، فإنا حاملوها إليك ، قال :

" **أسألكم أن تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وإني خاتم أنبيائه ورسله**" ! فأبوا وتلكـأوا وتلجلجوا .. وقالوا : تقبل ما عرضنا عليك يا محمد ؟

✍ **فقال لهم :**

" **ههنا خصلة غير هذه ، قد جعلت أمره إليه ، إن شاء فليقم ، وإن شاء فليرحل**"..

✍ **قالوا :** قضيت ما عليك يا محمد !! وظنوا أنهم قد صاروا من زيد إلى حاجتهم، قالوا : يا زيد ، قد أذن لك محمد ، فانطلق معنـا ، قـال : هيهـات، هيهـات، مـا أريـد برسول الله بدلا ، ولا أوثر عليه والدًا ولا ولـدًا ، فـأذاروه وألاصـوه واسـتعطفوه ، وذكروا وجد من وراءهم ، فأبى ، وحلف أن لا يصحبهم[1] ..

***

إن الذي دفع زيدٌ إلى التمسك بالنبي ـ ﷺ ـ رغم حياة العبودية؛ لَيُبيِّنُ لنا طبيعةَ هذه النفس الكريمة التي كانت بين جنبي محمد ـ ﷺ ـ، فقد صارت ـ بأخلاقهـا ـ كـالعَلَم الذي في رأسه نار؛ يهوى إليه الناسُ من هنا وهناك، أو كالمغناطيس الذي يجذب قطـع الحديد من حوله .

إن أخلاق الرفق والرحمة والعفو والتواضع والكرم والشجاعة والبذل ـ تجعل من نفس المرء شمسًا يستدفىء بها الناسُ في قَرّ البرد، وحصنًا يأوي إليه المكروب في وقت

(١) انظر القصة في : الحاكم برقم ٤٩٤٦ ، فوائد تمام، برقم ١١١٢، وتـاريخ دمـشق ج ١٠، ص ١٣٨، وفي سند القصة مقال.

الظلم، ومرتفعًا يأوي إليه من أراد الامتناع .. هذه الأخلاق؛ تجعل لنفس المرء سحرًا حلالاً، ورونقًا وجمالاً؛ تَهْوِي إليه أفئدةُ الناسِ، حينها يصير الإنسانُ ـ الذي تخلّقَ بأخلاق " **يألف ويؤلف**" ـ كالسلطان في الأرض، كالملك، كالرئيس .. كالحاكم الذي يأوي اللهيفُ إلى ظله، ويلجأ الضعيف إلى عدله.

لذلك كان حُسْن الخُلق خيْر قَرِين، وكان الأدب خير رصيد، وكان الرفق خير طريق.. فاحرص أخي أن تكون طيب العشرة، حاذق الطُرفة، حسن المفاكهة، مُجيد الدعابة، جميل المعاملة، لين الجانب .. مع حسن السمت، وطول الصمت، وكثرة الوقار، وعمق الحياء، وعلو التواضع.

***

واعم أن مفتاح التمكن من قلوب الناس؛ في قضاء حوائجهم، والزهد عما في أيديهم .

فإذا أردتَ أن تملك قلب إنسان؛ فاقض له حاجه وازهد في نواله.

***

واعلم أنه لا سيادة دون إنفاق، ولا ريادة دون بذل، ولا مكانة لحسود، ولا وقار للجوج ـ وكل هذه ـ أي البخل والحرص والحسد واللجوج ـ من مغاليق قلوب الناس دونك.

***

واعلم أن المتكبر قد يملء السمع والبصر، ويصل صيته في كل مكان، ويشاع ذكره في كل حدب وصوب ـ عدا مكان واحد هو قلوب الناس .



١ـ الإحسان إلى ضعيف من الضعفاء، ببذل صدقة أو هدية له.

٢ـ استخدام التقنيات الحديثة مثل الجوال والإنترنت في توثيق الصلة بينك وبين إخوانك، فارسل رسائل المحبة والتهنئة والدعوة من حين لآخر .

٣ـ لا تبخل أبدًا، فإن البخيل يبغضه الله ويبغضه الناس ويبغضه الأهل ويبغضه الولد .

دار الأرقم

دارٌ أحْيَتْ البيوتات والدُور . دارٌ نشرت في ربوع العالم الحضارة والنور . دارٌ تَخَرّجَ فيها سادة العالم، وأنتجت للدنيا العلماء والفقهاء والأدباء والمجاهدين والمجددين .

أحقُ دارٍ بأن تدعى مباركةً؛ دارٌ جلس فيها أعظم الأنبياء إلى أعظم الأتباع ليَعُدَهم أعظم أمةٍ أُخرجت للناس .

إنها دارٌ الأرقم .. التي هي مَنْبَعُ السُّؤددِ والمجدِ، ومنشأ العلم الراسخ، والفتح المنيف الباذخ.

مقر الدعوة

كانت دار الأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي هي أول مؤسسة تربوية في تاريخ الإسلام، وقد كان النبي ـ ﷺ ـ يجتمع فيها بأصحابه يتلو عليهم القرآن، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة .

وكان لابد من أن يجتمع المربي بتلاميذه، والقائده بأمرائه، وكان لابد من مَقرٍ يجتمع فيه العاملون للدعوة، حيث تُفَصلُ فيه الآيات، وتُشرح فيه الدروس، وتُحلل فيه الأحداث، وهي أمور تضيق بها الخطب العامة، واللقاءات العابرة.

إذًا كان لابد من هذه المؤسسة التي تَفْصِل بين العمل الدعوي العام ـ الموجه للناس كافة ـ والعمل التربوي الخاص ـ الموجه لرجال الدعوة خاصة ـ، وهذا الأخير؛ إذا نجح، نجح العمل العام، فهو كالسراج كلما اشتد وهجه أشتد أثره. وكلما كانت الجرعة التربوية مُرّكّزة كلما مُحقتْ الشبهاتُ الفكريةُ التي تدور على رؤوس الشباب الأحداث في الدين، كالسراج ـ أيضًا ـ كلما قَوّيت شُهبُه كان أبصر للناس إذا ادلهمّتْ الظُلَمُ. فهذا الذي يشتكي كثرة القلاقل الفكرية في رأسه؛ إنما يشتكي ضعف التربية في نفسه، والذين جاهدوا أنفسهم، في الله هداهم سبله.

السرية

واختار رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الدار بالذات ـ في مرحلة الدعوة السرية ـ لعدة عوامل أهمها: أن هذه الدار لفتىً صغيرٍ ـ هو الأرقم ـ ومن قبيلةٍ معاديةٍ للإسلام ـ هي بني مخزوم ـ،

وهي قبيلةُ أبي جهل أشد القبائل عداوة لبني هاشم، فلم يكن أحدٌ يتوقع أن تكون الاجتماعات السرية للمسلمين في دار لفتى من أغمار المسلمين حيث تكون الأنظار على رجالات الدعوة الكبار، ولم يكن لأحد أن يُفتش عن لقاءات محمد ﷺ في بيوت أعدائه .

وحافَظَ المسلمون على سرية مقرهم ـ حتى لا يُفسده المشركون ولا يلاحقون المسلمين من وقت لآخر كما يفحل جلاوزة الليل مع الدعاة ـ، ولا أدل على ذلك من قصة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ التي وقف فيها خطيبًا في المسجد الحرام يدعو الناس إلى الله فقاموا إليه وضربوه ضربًا شديدًا حتى فقد وعيه، و دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين و يحرفهما لوجهه، وحُمل أبوبكر إلى بيته، ولا يشك الناسُ في موته ثم استفاق وسأل عن رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يجبه أحد. و قالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه فلما خلت به ألحت عليه و جعل يقول : ما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ فقالت : و الله مالي علم بصاحبك، فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه . فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟

فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله و إن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت : نعم فمضت معها حتى و جدت أبا بكر صريعا دنفًا فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح و قالت : و الله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

✍ **قال :** فما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ ؟

✍ **قالت : هذه أمك تسمع .**

✍ **قال :** فلا شيء عليك منها.

✍ **قالت :** سالمٌ صالحٌ.

✍ **قال :** أين هو ؟

✍ **قالت :** في دار ابن الأرقم .

✍ **قال :** فإن لله على أن لا أذوق طعامًا و لا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ [1].

---

(١) انظر : ابن كثير (**السيرة**) ١/ ٤٣٩ .

" فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِجل ، وسكن الناس ، خرجتا بـه يتكـئ عليهـا حتـى أدخلتاه على النبي ﷺ ، فأكب عليه رسول الله ـ ﷺ ـ ويقبله ، وأكب عليه المسلمون ، ورق رسول الله ـ ﷺ ـ رقة شديدة"(١).

تأملْ ما وضعتُ تحته خطًا، وانظر إلى فعل أم جميل ـ رضي الله عنهـا ـ، إذ أنكـرت معرفتها بالنبي ـ ﷺ ـ وبأبي بكر، ولم تخبر أمُ أبي بكر بمكان النبـي ـ ﷺ ـ ، حتـى إذا دخلت أم جميل على أبي بكر تعوده وسألها عن مكان النبي ـ ﷺ ـ ، أنكرت عليه، وهي تقول : **" هذه أمك تسمع "** ، أي كيف أخبرُكَ وهذه أمك تسمعنا وهي ليـست منّـا. فلما طمأنها بقوله : **" فلا شيء عليك منها"** ، قالت : سالم صالح ... في دار ابن الأرقم.

وإمعانًا في المحافظة على سرية دار الأرقم؛ خرَجنَ بـه بعـد أن **" هـدأت الرِجـل ، وسكن الناس "** .

وكل هذه الاحتياطات الذكية إنما هي ثمرة التربية الأمنية التي تقتضيها هذه المرحلة والتي يحتاج إليها أصحابُ الدعوات لاسيما في أوقات المحن.

الاستمرارية

واستمر رسول الله ـ ﷺ ـ في إحياء هذا المحضن التربوي، ولم ينقطع عن فعاليته في أغلب فترات المرحلة المكية، وفي ثنايا ذلك شَهدتْ الدارُ قصة إسلام عمـر ـ رضي الله عنه ـ وخَرَج أربعون مسلمًا من دار الأرقم متوجهين نحـو المـسجد؛ في قَومـةٍ مُتفِقـة، بقلوب متعاضدة، وأيادٍ متأيدة، في صفوف متسقة ـ كأنها تظاهرة شِبه صامتة ـ لممارسةِ العبادات الإسلامية علنًا عند الكعبة، وهذه الانفراجة لم تُعطل ما شرعه النبي ـ ﷺ ـ في دار الأرقم، ولم يتوقف المشروع التربوي الكريم الذي خلّدَ ذِكـرَ هـذه الـدار التـي صارت من معالم مكة فيما بعد.

واستمرت دارُ الأرقم حية بإحياء شباب مكة وإخراجهم من الظلـمات إلى النـور، ويفدُ إليها العربُ من خارج مكة ـ سرًا ـ كأبي ذَرٍ الغفاري وغيره -فيخرجـون مـن الثبور إلى الحبور، ولم يُذكر أنها توقفت اللهم إلا في سفرة النبي ـ ﷺ ـ إلى الطـائف في العام العاشر من البعثة .

---

(١) أبو نعيم : معرفة الصحابة، برقم ٧٢٧٤ .

وربما لم تتوقف، وهذا في الغالب، فلعل قُرَّاء الصحابه كانوا يجتمعون بالمسلمين الجدد فيها وفي بيوتهم، في نظام أشبه بالأُسر التربوية أو الحِلق التعليمية؛ لكلِ أسرةٍ معلم، ولكل مجموعة نقيب، ومثالُ ذلك ما أبانته قصة إسلام عمر – رضي الله عنه – إذ لما دخل بيت ختنه وابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو [**زوج فاطمة بنت الخطاب**]؛ فُوجِيءَ بخباب بن الأرت ومعه صحيفة فيها سورة طه يقرئهما إياها .. ويظهر من ذلك أن علماء الصحابة في هذا الوقت كانوا يتعهدون البيوتَ سرًا لتعليم المسلمين.

إذاً كانت دار الأرقم هي مقرُ العمل التربوي الدعوي وما عداها من دور فتابعٌ لها، إذ كانت هذه الدار تُخَرِّجُ الصحابةَ فتنثرهم في بيوت مكةَ دعاةً إلى الله هنا وهناك ..

المهام

التلاوة، التزكية، التعليم .. كانت هذه الثلاثية التائية هي مهام النبي – ﷺ – في هذه الدار، وهي المهام التي حددها الله تعالى لـمُعِدي الأمم والحضارات .

✍ **قال الله تعالى :**

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]

***

✍ **أما التلاوة ، فقد كانت هي المهمة الأولى :** ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ، وكانت هي التكليف الأول : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١] ، وكانت هي الوسيلة الأولى لتبليغ رسالات الله ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٨] .

فالقراءة المستمرة لهذا الكتاب هدفٌ رئيسي للدعاة، وتكليف منوط بهذه الأمة المكلفة بتبليغ هذا الدين للناس ...

لقد كتب الله أن يُرَتلَ هذا الكتابُ إلى قيام الساعة؛ فلن يتوقف ترتيله ما دام الليل والنهار، ليكون ـ دومًا ـ البلاغ الماثل، والبث المستمر، والكتاب المفتوح الدائم المهيمن.

✍ **وأما التزكية ؛ هي التربية، وهي المهمة الثانية للنبي** ـ ﷺ ـ وأتباعه من المربين والدعاة : ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، فإذا قرأ عليهم القرآن؛ تهيئتْ نفوسُهم بعد ذلك لتلقي الدروس والتربوية ومكابدة الصعاب في سبيل تطهير النفس وتحليتها بمكارم الأخلاق .

ولا حراك لنهضة لا تقوم على التربية، ولا فكاك لوطن ـ من الاحتلال ـ دون تربية، ولا دولة دون تربية، ولا خلافة دون تربية ... التربية هي الطريق .

وهكذا نَصَ القرآنُ على المهمة التربوية للنبي ـ ﷺ ـ، ليكون في ذلك درسٌ لأصحاب الدعوات الإسلامية .

***

✍ **والمهمة الثالثة، هي التعليم :** ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، ولم نر يومًا أن الله مكن للجاهلين .. وإنما تدور دولةُ الدول على أعلم الناس .

وكانت المادة الدراسية التي يعلمها الرسول ـ ﷺ ـ لتلاميذ دار الأرقم منحصرة في فرعين :

✍ **الأول : الكتاب وهو القرآن**

✍ **الثاني : الحكمة**، وهي كل علم نافع، وفكر ناجع، وهي كل مَثل وقصة وموعظة ونصيحة تحمل خيرًا، وهي كل فعل أو قول أو تقرير ورد عن النبي ـ ﷺ ـ .

إذاً كان رسول الله ـ ﷺ ـ أوسع عقلاً، وأرجح رأيًا مِن هؤلاء الذين حصروا العلم في متون جامدة، وفروع ثابتة .

لقد كانت المادة الدراسية في دار الأرقم هي الكتاب والحكمة، وكان الصحابة يتلقون دروس القرآن وتعاليم الحكمة؛ غضة طرية، سهلة لينة، من صاحب الخُلق العظيم في ظلال المعايشة التربوية في دار الأرقم .



١ـ مفاتيح دار الأرقم : التاءات الثلاث : التلاوة، التزكية، التعليم؛ فاجعل لنفسك منهن منهلاً .. وافتح ديوان نفسك، وكن رقيب أمرك.

٢ـ ولا تفوتن يومًا إلا وقد قرأت من القرآن وردًا، وزكيت نفسك موعظة، وعلمت نفسك علمًا . هذا في كل يوم .

٣ـ ثم اجمع أصدقائك في دارك حول هذه الثلاثية، مع شيخ ثقة، أومعلـم فَقِـه، أو باحث شرعي، أو كاتب إسلامي، أو أديب أريب، أو نبيل جليل، ولتـسعْ جاهـدًا إلى أَرْقمةِ بيتك. وهذا في كل أسبوع .





القسم الرابع

الدعوة جهراً

خطبة الصفا

الإعداد ثم الإعلان، والتربية ثم الانطلاقة، والكمون ثم الحركة، والتخطيط ثم التنفيذ، والعلم ثم العمل .

والجرأة في كلمة الحق، والهمة في بلوغ الصعب، ومسؤولية الداعي عن بيته وعائلته، واستخدام أرقى وسائل الإعلام في الدعوة .

كلها دروس في خطبة رسول الله ـ ﷺ ـ على جبل الصفا.

***

✍ **نزلت :** ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، فخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ :

" يَا صَبَاحَاهْ !!! "

✍ **فَقَالُوا :** مَنْ هَذَا ؟

✍ **فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ :**

"أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ ".

✍ **قَالُوا :** مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا .

✍ **قَالَ : " فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ " .**

✍ **قَالَ أَبُو لَهَبٍ :** تَبًّا لَكَ ! مَا جَمَعْتَنَا إِلا لِهَذَا ؟

✍ **فَنَزَلَتْ:** ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المَسَد:١][1]

***

على جبل الصفا ـ وهو من أعلى جبال مكة ـ كان الإعلان عن الدعوة؛ إذ الدعاة يعتلون أعلى المنابر، والمجاهدون يمتطون أعتق الجياد، والجميعُ يَعدّون ما ستطاعوا من قوة ـ .

---

(١) أخرجه البخاري: ٤٥٨٩ .

وهكذا دومًا أعلام الإسلام، يبتغون من وراء المنبر الإعلامي رفعة الدين وإعلاء كلمة الإسلام؛ وينشرونها من أعلى ربوة، وأسمق مبنى، وأكبر صحيفة، وأشهر مجلة، وأهم قناة فضائية ...

***

وعلى جبل الصفا، وَجّه النبيُ -ﷺ- نصحه علنًا لأهله وعشيرته؛ لتَخْلُصَ الدعوة لله من كل العصبيات خلا وشيجة الأخوة الإسلامية .

***

✍ **وعلى جبل الصفا كانت الصيحة الأولى بالخطر الذي يتهدد البشرية :**

" **يَا صَبَاحَاهْ !!** "[1]. ولم تكن صيحة تنذر بجيش غازٍ، أو عدو زاحف؛ إنما كانت صيحةٌ تحذر من الخطر الماحق المحدق بالإنسانية؛ وتنذر بالطريق المظلم الذي سلكته البشرية ـ وهي في أحط عصورها ـ من فساد طال المعتقدات والأخلاق والسلوك والمعاملات، وقد أوشكت البشرية أن تغرق في طوفان لا نجاء منه إلى قيام الساعة .. لولا وثبة الداعي، وصيحة الحق: " **يَا صَبَاحَاهْ !!** " .

***

وعلى جبل الصفا؛ بدأت الدعوة العلنية صافية ـ ومن حُسْنِ الطالع أن تبدأ صافية على جبل اسمه الصفا ـ جلية لا لبث فيها ولا غبش، واضحة سهلة محددة:" **فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** " [2] .

***

وعلى جبل الصفا، كانت البداية، ليَعْرف فضلها كلُ ساعٍ وزائر، وليذكر أهميتها كل حاج ومعتمر، وفضل الوقفة الصلبة في وجه الباطل، وفضل الكلمة الصادقة في وجه الكذب، وفضل كلمة الحق التي قد تفعل ما لا تفعله الطيارات والدبابات.

***

---

(١) البخاري: ٤٥٨٩ .

(٢) البخاري: ٤٥٨٩ .

هذه الوقفة الشجاعة التي وقفها سيد الشجعان؛ لتترنحُ حولها مناقب السادة والقادة من الشجعان على مر التاريخ .. إنها وقفة لا يدرك كنهها سوى الدارس المتبصر لطبيعة المجتمع القرشي في جاهليته .

هذا اليتيمُ الذي وقفَ ينادي على أهل بيته وقومه على حد سواء، ويهتف فيهم بهتاف يزلزل معتقدات باطلة، وعادات فاسدة؛ توارثها القومُ جيلاً بعد جيل، وتأصلت فيهم هذه الثقافات؛ حتى أصبحت مصادر أرزاقهم من هذه الأوثان المتراصة حول البيت الحرام .

ثَبْتتْ قدمُه ـ ﷺ ـ وهو ينفض هذه الجاهليات عن كاهل البشر، ويعتلي هذه الربوة بخطوات واثقة؛ ربيط الجأش، يتأبط التوكل، فلم يهتز ولم يتلجلج ؛ فأثار انتباههم – في بادىء الأمر – وأشهدهم على أنفسهم – بما عُرف به من الصدق – فقال :

"أَرَأَيْتَمْ إِنِ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيلاً تَخْرُجُ مِن سَفْحِ هَذَا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ " هكذا نبه شعورهم، وأيقظ أفئدتهم، وهيئها وفرش لها ليلقي عليهم الكلمة الحقة التي لن ينسوها ..

✍ **وقد قالوا جميعًا ولم يتردد أحدٌ فيها : " مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا "**، فتاريخه أصفى من الشهد، وسيرته خير سيرة، وبره أحسن بر، ومجده أعظم مجد، هكذا عرفوه في شبابه، ولقّبوه بالأمين، هو الذي حقن دماءهم يوم الحجر الأسود، ووَحّدَ صفهم؛ وقد أوشك الناسُ على الاقتتال، وهم الذين ارتضوه حكمًا بينهم في هذا النزاع الخطير . وقد جعل بيته خزانة لأماناتهم؛ فلا تطمئن قلوبهم على أموالهم حتى تكون في بيت محمد ﷺ ، فتقر نفسوهم ويهدأ بالهم، وكأنما ألقوا أموالهم في حصن منيع، أو بئر حفيظ .

.... فلما كانت هذه شهادتهم فيه، قال قولته؛ يعرّف بنفسه ورسالته في أوجز جملة :

" فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ " .

وسكتَ الناسُ، وكأنما نقرهم ديك، ووقفوا مليًا يفكرون في هذه الكلمة، وصمتوا ولم يؤيدوا على التو خشيةَ الصناديد الطغاة، وصمتوا حتى يسمعوا ردة فعل السادة الكبار، وبالفعل لم يُسمع سوى صوت صنديد يمثل الهيئة الرسمية الحاكمة في مكة، فكان الرد القوي الذي يريد أن يربو ويتطاول ليدفع شيئًا مما أحدثته كلمة الصدق :

" تَبًّا لَكَ ! مَا جَمَعْتَنَا إلا لِهَذَا ؟ "

كلمة حق قوية خرجت لها كلمة باطل عتية، فكان الرد الإلهي الحاذم الشديد، الخالد السديد :

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المَسَد:١] .

هكذا كان الانطلاق بالقرآن ، والدفاع بالقرآن .

***

ولم يعبأ رسول الله – ﷺ – بكلمة أبي لهب اللاهبة الباطلة، ولم يعبأ بمكان عمه ولم يَرُدَّ عليه، وواصل رسولُ الله ـ ﷺ ـ كلامه مستفيدًا من فرصة حضور الناس، الذين جاءوا إليه من من كل البطون.

✍ **فأخذ ينادي عليهم بطنًا بطنًا :**

" يَا بَنِى كَعْبِ بْنِ لُؤَىٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا بَنِى مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا بَنِى عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا بَنِى عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا بَنِى هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا بَنِى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِى نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ ـ فَإِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا "[1].

وسَوّى نداءُ الإسلامِ بين البعيد والقريب، والوضيع والحسيب ..

وكان النداء على أهل البيت وأهل الوطن على حد سواء ..

إن مسؤولية المسلم عن أهله أمام الله بادية بينة من أول يوم بدأت فيه الدعوة الجهرية، وذلك حتى لا يحدث ذلك الجُوال (**أو الفصام**)؛ وهو ذلك السلوك النكد الصادر من بعض الأدعياء حينما يأمرون بأمر ولا يأتمرون به؛ ولاسيما على نطاق أُسَرِهم.

---

(١) أخرجه مسلم : ٥٢٢ .

وهؤلاء لا فضيلة لهم ولا أثر؛ إذ كيف يستقيم الظل والعود أعوج! و" **كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عن رعيته"**، ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ ﴾ [طه:١٣٢].

فكلكم راع ونحن رعية ... وكل سيلقى ربه فيحاسبه

***

يا قارئي ! بمثل هذه الوقفات العظيمة، تمتطي كاهل المجد، وتصطفي كامل السعد، وتحرز الجنة وحسن الذكر .

وهل ساد السادة إلا بمثل هذه الوقفات ؟ وهل عرفنا العظماء إلا بهذه الوقفات ؟ وهل نال الصحابة ما نالوا من الشرف والتمكين إلا بمواقفهم ؟

***

نحن في احتياج لمثل هذه الوقفة ـ وقفة الصفا ـ في كثير من الميادين والدوائر؛ لاسيما في التي كثر فيها الفساد .

وقفة وصرخة في أرباب الفساد الأخلاقي؛ أهل العُهر الفني، والفُجْر الفكري، والدُعر الأدبي . وقفة وصرخة في صناع الفسولة والميوعة، رواد السفاهة والبلاهة. وقفة وصرخة في جموع المهرجين في جميع مجالات التهريج ..

✍ **اكتبْ دومًا واهْتفْ :** يا صباحاه .. لا لتخبيل الأمة !!!



١ـ مدارسة سورة الشعراء

٢ـ أحرز موقفًا تجهر فيه بكلمة الحق

٣ـ إذا دعوت إلى الله فلا تلتفت للمسفهين، وامض، وواصل كلمتك .

صناعة الشبهات

صناعة الشُبهة، أو اختلاق الفِرْية، أو إنشاء الشائعة، هو ابتكار فكرة باطلة تتحد حولها الآراء .

فإذا ما نطق شخصٌ وقال كذبًا : إنّ الداعية الفلاني يدخن السجائر مثلاً، ثم تلقف هذه الكذبة شخصٌ آخر ساذج، ثم نقلها الساذج إلى الآخرين على سبيل الخبر المشكوك فيه، ثم نقلها الآخرون إلى غيرهم على سبيل الخبر المُرجّح صحته، ثم ينتقل الخبرُ هنا وهناك وقد صار حقيقة لا مراء فيها، وهكذا تظل الشائعةُ تنتقل من الألسن إلى الآذن حتى تصل إلى صاحبنا الذي أطلقها وأنشأها؛ فيصدقها ويقع في نفس الفخ وهو لا يدري ..

✍ **وذلك لسببٍ وحيد :** أن الجميع يرددها !

***

بالضبط، كما ترى بعض الصحفيين الأفاكين حينما يرددون الخبر الكاذب، ويصدقونه لكثرة ترداه !

بالضبط، كما الطفل الذي يسرق قلم زميله، فلا يزال السارق يُقْسمُ أن القلم قلمه، ويقسم ويقسم ويقسم .. حتى يعتقد أن القلم قلمه، ولو تذكر الحادثة بعد سنوات يظن أن القصة قصة قلمه الذي حاول زميله أن يختلسه منه !

***

انظر هذه ..

اجتمع نفرٌ من قريش حول الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَكَانَ ذَا سِنّيهِمْ وَقَدْ حَضَرَ الْمَوْسِمَ فَقَالَ لَهُمْ : يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنّهُ قَدْ حَضَرَ هَذَا الْمَوْسِمُ [يعني موسم الحج] وَإِنّ وُفُودَ الْعَرَبِ سَتَقْدَمُ عَلَيْكُمْ فِيهِ، وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ صَاحِبِكُمْ هَذَا ، **فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا وَاحِدًا، وَلا تَخْتَلِفُوا، فَيُكَذّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا** ، وَيَرُدّ قَوْلُكُمْ بَعْضُهُ بَعْضًا ؛ قَالُوا : فَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ، فَقُلْ وَأَقِمْ لَنَا رَأْيًا نَقُولُ بِهِ .

✍ **قَالَ:** بَلْ أَنْتُمْ فَقُولُوا أَسْمَعْ .

✍ **قَالُوا :** نَقُولُ كَاهِنٌ .

✍ **قَالَ**: لا وَاللهِ ما هُوَ بِكَاهِنٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْكُهَّانَ، فَمَا هُوَ بِزَمْزَمَةِ الْكَاهِنِ، ولا سَجْعِهِ.

✍ **قَالُوا**: فَنَقُولُ مَجْنُونٌ.

✍ **قَالَ**: مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ، فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ، وَلا تَخَالُجِهِ وَلا وَسْوَسَتِهِ.

✍ **قَالُوا**: فَنَقُولُ شَاعِرٌ.

✍ **قَالَ**: مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، لَقَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ كُلَّهُ: رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ، وَقَرِيضَهُ، وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ، فَمَا هُوَ بِالشِّعْرِ.

✍ **قَالُوا**: فَنَقُولُ سَاحِرٌ.

✍ **قَالَ**: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا السُّحَّارَ وَسِحْرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ، ولا عَقْدِهِمْ. قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ؟

✍ **قَالَ**: وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلاوَةً، وَإِنَّ أَصْلَهُ لَعَذِقٌ، وَإِنَّ فَرْعَهُ لَجُنَاةٌ، وَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا؛ إلا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنَّ أَقْرَبَ الْقَوْلِ فِيهِ لأَنْ تَقُولُوا سَاحِرٌ جَاءَ بِقَوْلٍ هُوَ سِحْرٌ؛ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَبِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ.

فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ بِذَلِكَ، فَجَعَلُوا يَجْلِسُونَ بِسُبُلِ النَّاسِ حِينَ قَدِمُوا الْمَوْسِمَ؛ لا يَمُرُّ بِهِمْ أَحَدٌ إلا حَذَّرُوهُ إِيَّاهُ، وَذَكَرُوا لَهُمْ أَمْرَهُ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدَّثر: ١١، ٣٠][1].

***

هكذا نرى اجتماع أبواق الباطل على فِرية معينة تلوكها الألسنة، وتجتمع حولها الآراء، وينطق بها الجميع من هنا وهناك.

(١) انظر: ابن هشام ١/ ٢٧١.

✍ **تأمل ذلك في قول هذا الرجل الداهية : " فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا وَاحِدًا، ولا تَخْتَلِفُوا، فَيُكَذِّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا "** .

ثم تأمل كيف اتحدت قوى الشر في المشرق والمغرب على مصطلح واحد ـ هو مصطلح الإرهاب ـ تصفُ به الإسلاميين على اختلاف مذاهبهم .

✍ **فترى أمريكا تقول :** نحن نحارب الإرهاب، وترى الكيان الصهيوني يقول : نحن نحارب الإرهاب، وترى الأنظمة العربية والمتحكمين يقولون : نحن نحارب الإرهاب. وتردد البَبْغَاوَاتُ من خلفهم : نحن نحارب الإرهاب، نحارب الإرهاب، الإرهاب . إرهاب، إرهاب، إرهاب !!

حتى ترى كثيرًا من الكتاب والمثقفين والفنانين العرب يرددون ذلك كصدى الصوتِ الذي يجيب صوت المُنادي، وأكثرهم لا يفقهون أن مصطلح الإرهاب يقصد به المسلمون عامة، والحركيون خاصة، والجهاديون على وجه الأخص . ومسألة القضاء عليهم جميعًا مسألة أولويات؛ فالأولى القضاء على المقاتلين، ثم الحركيين، ثم عامة المسلمين، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

وهكذا اتفقت قوى الشر على حملة التضليل؛ فقعدوا بسبل الناس، واعتلوا منابر الإعلام المختلفة، وشرعوا في بث دعاية الكذب والبهتان لصد الناس عن الداعية، لا يَمُرّ بِهِمْ أَحَدٌ إلا حَذَّرُوهُ إِيّاهُ، ولا تمر بهم فرصة إلا انتهزوها في نفث سمومهم، ولا تصيبهم قارعة أو مصيبة إلا ألصقوها بالدعوة والداعية، حالهم كحال الفراعنة الذين قالوا لموسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴾ [النمل:٤٧].

***

وعجبًا لهؤلاء المبطلين يبذلون جهدًا كبيرًا في انتاج الشائعات، وقد رأيتَ كيف دخلوا على أسن رجل في قريش وبحثوا أنسب الشائعات، ففكَّرَ وَقَدَّرَ، ثم فكر وقَدَّرَ، ثم فكر قَدَّرَ ، وكل ذلك للوصول إلى فرية محكمة، ثم نظر وتأمل؛ فالأمر جد صعب مع صاحب الخلق العظيم، ثم عبس؛ فهم يواجهون دعوة صادقة، ثم بسر؛ فقد أعيتهم الحيل، ثم رجعوا إلى أنسب الحلول المقترحة على فسادها، ومع علمهم بفسالتها

وهشاشتها، فقالوا : إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . المهم أن تتفق الكلمة على مصلطح محدد.

هذا يبين لك جَلَد الفاجر في فجره، وحماسة الباطل في باطله، وكيف يمكر بدعوة الله الماكرون، ويبيتوت يترصدون لها أنجع الطرق لمحاربتها، فضلاً عن انتظار طامة أو مصيبة خارجية قد تقضي ـ بزعمهم ـ على الدعوة والداعية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] .

***

ليعلم الدعاةُ، أن سهام الباطل لا تستهدف سوى الدعوة الصادقة الناجحة؛ خاصة ما إذا كان لها حضورٌ بين الناس، فالظالمون لا يستهدفون الدعوات النائمة أو المذاهب التي عفا عليها الزمن، إنما يستهدفون الجماعات الحية العاملة، كما السرطان يستهدف الخلايا الحية.

وهذه الافتراءات والشبهات والشائعات لن تضر الصادقين إلا أذىً؛ إنما وليهم الله الذي تكفل بحفظ دعوتهم، وإن تحولوا هم عنها إلى غيرها وصاروا حربة عليها . إنما تحوم الافتراءات حول حمى الدعوة ومنهجها؛ تسعى حثيثًا أن تجد ثغرة تجعل منها جيبًا، ثم تجعل من الجيب فِرقة، ثم من الفرقة جماعة تحارب الجماعة، ثم ينقضُّ الباطلُ على الجميع بعدما أثخنتهم جراح الطعن والتجريح .

ولما كانت الفرية تحوم حول الدعوة كالطيور الجارحة الجائعة؛ كان على أهل الدعوة أن يحكموا بناء أخوتهم، وأن يوثقوا عرى جماعتهم، وأن يثقلوا جدار الدعوة بالحصن تلو الحصن، من برامج تربوية، ودورات علمية شرعية، وندوات فكرية تحصينية .

فإذا تحصنت الدعوة حق التحصين؛ فعليها أن تبارد إذًا بزعزعة الباطل ومذاهبه ورجاله، وأن يبادر المؤمنون الواثقون بفضح مخططات المذاهب المعادية؛ لينشغل أهل الباطل بأنفسهم، ولينشغلوا عن أعراض المؤمنين .

وماذا علينا لو كنا دومًا أصحاب المبادرة في تسديد الضربات المختلفة لهم، وإلى متى نقف موقف المدافع الذي يستجيب لأقل فعل برد فعل ثم يخمد ؟

فإذا ما هم جمعوا رأيهم فيكم، فاجمعوا رأيكم فيهم، وبادروا أنتم واستبقوهم، واقعدوا أنتم بسبل الناس، بلغوهم دعوتكم، وحصنوهم من أفكار عدوكم.

***

لن تسلم الدعواتَ الناجحة من الوشاة والحاسدين.

لا تعبء بكثرة الشائعات ما دام المنهج أصيلاً سليمًا .

أنت الأعلى دومًا إذا احتوشك صناديد الباطل .

***

نزهوا دعوتكم عن الدناآت واربأوا بأنفسكم عن السعاية والغيبة والنميمة ولا تخلطوها بحديثكم عن أصحاب المذاهب الهدامة، وفرقوا بين فضح المخططات وكشف العورات .

✍ **وتذكر دومًا قول الله تعالى :**

" يَا أَيُّهَا الناسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أنْفُسِكم " .

✍ **وقال عزَ وجل: " ثَم بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ الله".**

وقول الشاعر:

فلا تسبق إلى أحدٍ ببغيٍ ... فإِنَّ البَغْي مَصرعه وخيم

توصيات عملية

١ـ مدارسة حول كتاب بروتوكلات حكماء صهيون.

٢ـ التعرف على جهود بعض المستشرقين في اختلاق افتراءات جديدة ومستحدثة حول الإسلام، طالع على سبيل المثال كتاب "افتراءات المستشرقين على الاسلام" للدكتور عبد العظيم المطعني.

٣ـ ادعو بعض أصدقائك إلى حفلة شاي؛ تناقش فيها بعض الشبهات العالقة والمسائل المغلوطة؛ فتصحح لهم ما أُشكل عليهم، وتشرح لهم ما استحكم، وتبين لهم ما استغلق.



حرب الشبهات

اعلم أن حرب الشبهات، حربٌ قديمة حديثة؛ تُشن دومًا على دعوة الإسلام، وتهدف هذه الحرب إلى إحداث القلاقل في النفوس والبلابل في العقول؛ بحيث يتردد التابع، ويتشكك الساكت، ومن ثم تتصدع الكلمة، وتذهب ريح الدعوة .

وقلما سلمت دعوة شريفة ـ عبر التاريخ ـ من هذا النوع من الحرب، وأنت ترى الآن الأنظمة المستبدة ووسائل الإعلام المتصهينة تبذل الجهد الكبير في تشويه صورة الحركة الإسلامية، واصطناع الاتهامات لها، واختلاق الأساطير حولها، بحيث تنفر الجماهير منها . وتجد دومًا الأبواق الإعلامية الماسونية تستهدف الرموز والقيادات الإسلامية على شتى مذاهبها بالطعن والتجريح، والتشكيك في نزاهتها، والعمل الحثيث لوضع دائر حمراء حول تحركاتهم وأعمالهم وتاريخهم .

نفس الحرب يمارسها الغرب في حربه على الإسلام عامة، من حملات التشويه التي يقوم بها غربيون من حين إلى آخر ـ على الإسلام .

وإليك جملة من هذه الحرب التي تعرضت لها الدعوة :

✍ التشكيك في البعث

جاء أُبَيّ بْنُ خَلَفٍ إلَى النبي –ﷺ – بِعَظْمِ بَالٍ قَدْ ارْفَتّ، وقد سمع الأول أن رسول الله –ﷺ – يتحدث عن يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يجمع فيه اللهُ الأولين والآخرين؛ فيثيب الصالحين ويعاقب المفسدين– :

✍ **فَقَالَ أُبَيّ بْنُ خَلَفٍ – منكرًا يوم البعث - : "يَا مُحَمّدُ ! أَنْتَ تَزْعُمُ أَنّ اللهّ يَبْعَثُ هَذَا ؟ ! بَعْدَ مَا أَرَمّ"..ثُمّ فَتّهُ فِي يَدِهِ ثُمّ نَفَخَهُ فِي الرّيحِ نَحْوَ رَسُولِ اللهّ –ﷺ –.**

✍ **فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ - ﷺ - في حسم وحزم - : " نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ ، يَبْعَثُهُ اللهُ وَإِيّاكَ بَعْدَ مَا تَكُونَانِ هَكَذَا ، ثُمّ يُدْخِلُك اللهُ النّارَ " !!**

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس:٧٨،٨٠][1] .

(١) ابن هشام ج ١ / ص ٣٦١ .

الشراكة الباطلة

اعترض محمدًا –ﷺ –وَهُوَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ نفرٌ من سادات قريش ، فقالوا : يا محمد ! هَلُمّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ ، وَتَعْبُد مَا نَعْبُدُ، فَنَشْتَرِكُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِي الأمر، فَإِنْ كَانَ الّذِي تَعْبُدُ خَيْرًا مِمّا نَعْبُدُ، كُنّا قَدْ أَخَذْنَا بِحَظّنَا مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ مَا نَعْبُدُ خَيْرًا مِمّا تَعْبُدُ كُنْت قَدْ أَخَذْت بِحَظّك مِنْهُ .

فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى فِيهِمْ سورة "ٱلْكَـٰفِرُونَ" ليعلِّم نبيه الرد الأمثل في هذه القضية الخطيرة، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:٢] [(١)] .

قال سيد قطب – رحمه الله - :

"فنزلت هذه السورة على الرسول –ﷺ – للمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، نعم نزلت نفيًا بعد نفي، وجزمًا بعد جزم، وتوكيدًا بعد توكيد، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل، ولا اجتماع بين النور والظلام، فالاختلاف جوهري كامل يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق، والأمر لا يحتاج إلى مداهنة أو مراوغة، نعم فالأمر هنا ليس مصلحة ذاتية، ولا رغبة عابرة، ولا سيَّما في عسل، وليس الدين لله والوطن للجميع كما تزعم الجاهلية المعاصرة، ويدعي المنافقون والمستغربون الذين يتبعون الضالين والمغضوب عليهم، ولا كما يعتقد الملحدون أعداء الله سبحانه في كل مكان، كان الرد حاسمًا على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسط، ولا ترضيات شخصية، فإن الجاهلية جاهلية والإسلام إسلام، في كل زمان ومكان، والفارق بينهم بعيد كالفرق بين التبر والتراب، والسبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته عبادة وحكما، وإلا فهي البراءة التامة والمفاصلة الكاملة والحسم الصريح بين الحق والباطل في كل زمان ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ .."[(٢)] .

---

(١) ابن هشام ج ١ / ص ٣٦٢ .

(٢) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٩١ .

التنازل عن بعض الثوابت

جاء وفدٌ آخرَ إلى النبي -ﷺ- بعد فشل الوفد السابق، يتألف من عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر، وقد جاء هذا الوفد ليقدم عرضًا آخر للتنازل عن بعض ما في القرآن، فطلبوا من النبي -ﷺ- أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم آلهتهم الحجرية، فقط ما عليه إلا أن يحذف عدد من الآيات القليلة التي تندد بالوثنية ، فأنزل الله لهم جوابًا حاسمًا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس:١٥][١].

الإغراءات

في قصة شهيرة، تُعد - بحق - من روائع السيرة النبوية ورد فيها أَنّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا من سادات قريش - ذهب إلى النبي -ﷺ- يتحدث بحديث طويل يريد أن يثنيه عن دعوته، وكان مما قال:

أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت النبي، تأدبًا وإعراضًا عن الجاهلين !

✍ **فواصل عتبة قائلاً :** إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك، لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى[٢] .

فلما عاين عتبةُ هذا الأدب الجم من رسول الله -ﷺ-، خفف من حدة الحديث، وقال: يا بن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا [**يعني**

---

(١) الواحدي : أسباب النزول، ص٢٠٠، والسيرة للصلابي ١/ ١٧٠ .

(٢) السيرة الحلبية ١/ ٤٥٦ .

جنون أو مس] تراه لا تستطيع رده عن نفسك؛ طلبنا لك الطب وبـذلنا فيـه أموالنـا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه.

و لا زال عتبة يتحدث إلى النبي ـ ﷺ ـ، بهذا الحديث الذي لا يخلوا من التعريض أو من التجريح، ورسول الله ـ ﷺ ـ في أنصات واستماع بكل احترام للشيخ ..

حتى إذا فرغ عتبة، قال له النبي ـ ﷺ ـ في أدب ورفق ـ: **"أفرغت يا أبا الوليـد ؟ "** قال: نعم.

✍ **قال: "اسمع منى".**

✍ **قال:** أفعل.

فقرأ عليه النبي أول سورة فصلت [1] .

الحق المُر

ولقد صدَعَ النبيُ – ﷺ – بقولة الحق وهو في أشد الظروف وأصعبها، فيقول الحق ولو على حساب مصلحته وأمنه، أو على حساب الوشائج والصلات العائلية..

ومثال ذلك موقفه – ﷺ – من عمه أبي لهب الذي أخذته حمية العصبية، والقرابـة العائلية، فتدخل لحمياته بعد وفاة أبي طالب، فساء ذلك قريشًا، ورتبت خطة أنهت بها تلك الحماية بإيقاع النبي ـ ﷺ ـ في موقف حرج، إذ ذهب عقبة بن أبي معيط وأبو جهل ابن هشام إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فقال له أبو لهب: يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟ قال: مع قومه، فخرج أبو لهب إليهما فقال: قد سألته فقال مع قومه، فقالاً: يزعم أنه في النار، فقال: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: **"نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخـل النـار"**، فقال أبو لهب: والله لا برحت لك عدواً أبداً، وأنت تزعم أن عبـد المطلـب في النـار! فاشتد عليه هو وسائر قريش[2].

المناظرات العقيمة

كان النبي ـ ﷺ ـ إذا جلس مجلسًا، للدعوة والعلم، وتلا فيها القرآن وحذر قريشًا ما أصاب الأمم الخالية؛ خلفه في مجلسه النضر بن الحارث، بهدف التـشويش والـصد

---

(١) انظر: ابن كثير : السيرة النبوية ١/ ٥٠٤ .

(٢) ابن سعد، ج ١/ ٢١١ .

عن دعوة محمد بطريقة إعلامية جذابة شيقة، فيحدثهم عن أساطير رستم السنديد، وعن أسفنديار ، وملوك فارس ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثا مني ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها ..وفي يوم جلس رسول الله -ﷺ- يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله -ﷺ- فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله حتى **أفحمه** ، ثم قرأ :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأنبياء:٩٨،١٠٠][انظر : ابن هشام ١/ ٣٥٨]

فبُهت النضر وانخذل !

✍ **قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ :** ثُمّ قَامَ رَسُولُ اللّهِ -ﷺ- وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ الزّبَعْرَى السّهْمِيّ حَتّى جَلَسَ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ لِعَبْدِ اللّهِ بْنِ الزّبَعْرَى : وَاَللّهِ مَا قَامَ النّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لابْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ آنِفًا وَمَا قَعَدَ، وَقَدْ زَعَمَ مُحَمّدٌ أَنّا وَمَا نَعْبُدُ مِنْ آلِهَتِنَا هَذِهِ حَصَبُ جَهَنّمَ !

✍ **فَقَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ الزّبَعْرَى :** أَمَا وَاَللّهِ لَوْ وَجَدْته لَخَصَمْته ، فَسَلُوا مُحَمّدًا : أَكُلّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّهِ فِي جَهَنّمَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ ؟ فَنَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَالْيَهُودَ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، وَالنّصَارَى تَعْبُدُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السلام !!

فَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ الزّبَعْرَى ، وَرَأَوْا أَنّهُ قَدْ احْتَجّ وَخَاصَمَ . فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ -ﷺ- مِنْ قَوْلِ ابْنِ الزّبَعْرَى .. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ -ﷺ-: **"كُلّ مَنْ أَحَبّ أَنْ يَعْبُدَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ إنّهُمْ، إنّمَا يَعْبُدُونَ الشّيَاطِينَ وَمَنْ أَمَرَتْهُمْ بِعِبَادَتِهِ"** .. فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾[الأنبياء:١٠١][1].

---

(١) السهيلي ج ٢ / ص ١٤٣ .

✍ **قال السهيلي:** لو تأمل ابن الزبعرى وغيره من كفار قريش الآية لرأى أن اعتراضه غير لازم من وجهين:

✍ **أحدهما:** أنه خطاب متوجه على الخصوص لقريش عبدة الأصنام، وقوله **(إنا نعبد الملائكة)** حيدة، وإنما وقع الكلام والمحاجة في اللات والعزى وهبل وغير ذلك من أصنامهم.

✍ **والثاني: أن لفظ التلاوة: (إنكم وما تعبدون)** ولم يقل **(ومن تعبدون)** فكيف يلزم اعتراضه بالمسيح وعزير والملائكة، وهم يعقلون والأصنام لا تعقل ؟ ومن ثم جاءت الآية بلفظ ما الواقعة على ما لا يعقل [1] .

تعنت، وأطروحات غبية

لقد كان من منهجه عدم الإكتراث بكلام السفهاء فضلاً عن تشويشهم أوتصفيرهم أو شتمهم، كان النبي –ﷺ– يمضي قدمًا في دعوته، جادًا ، رزينًا ، واثقًا، يفتح قلبه للناس، يخطب ودهم في عفة ، يتحبب إليهم في تواضع، وهو السيد ابن السيد..

وقد تطرق تفكير المشركين أن يطلبوا من النبي ـﷺ ـ مطالب، ليس الغرض منها التأكد من صدقه، ولكن غرضهم منها التعنت بل السفاهة والاستهزاء به .

✍ **ومثال ما طلبوه :**

أ- أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا: أي يجري لهم الماء عيونًا جارية.

ب- أو تكون له جنة من نخيل وأعناب يفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، أي تكون له حديقة فيها النخل والعنب، والأنهار تتفجر بداخلها.

ج- أو يسقط السماء كسفًا: أي يسقط السماء قطعًا كما سيكون يوم القيامة.

د- أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

هـ- أو يكون له بيت من زخرف: أي ذهب.

و- أو يرقى في السماء: أي يتخذ سلمًا يرتقي عليه ويصعد إلى السماء.

ز- إنزال كتاب من السماء يقرؤونه، يقول مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان؛ تصبح موضوعة عند رأسه !

---

(١) السهيلي ج ٢ / ص ١٤٣ .

ح- وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو لهم فيسير لهم الجبال، ويقطع الأرض، ويبعث من مضى من آبائهم من الموتى[١].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنتات والرد عليها في قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[الإسراء:٩٠،٩٦]

وكان رد النبي -ﷺ- وكفى به جوابًا وشرحًا :

"مَا بِهَذَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ ! إِنّمَا جِئْتُكُمْ مِنْ اللّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ وَقَدْ بَلّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْت بِهِ إلَيْكُمْ؛ فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حَظّكُمْ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدّوهُ عَلَيّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللّهِ تَعَالَى ، حَتّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ"[٢] .



١ـ تعلَّمْ كيف تدفع الشبهات التي تستهدف دينك وشريعتك ودعوتك، تعلم الخطابة، أو الكتابة الصحفية، أو إدارة حلقة نقاشية، أو دروة تدريبية في فنون التواصل.

٢ـ شاهد المناظرات المسجلة للداعية الكبير أحمد ديدات، وغيره من الدعاة الفصحاء المخلصين .. ومناظرات الشيخ ديدات بالذات ستثقلك، وستكسبك مهارات جديدة.



---

(١) انظر: سميرة محمد جمجوم: المعوقون للدعوه الاسلاميه، ص١٧١، ١٧٢ .

(٢) انظر: ابن هشام: ١/ ٤٥٩ .

الصبر على الإيذاء

التركيز على التكوين والتربية

كان منهج رسول الله ـ ﷺ ـ في العهد المكي الكف عن القتال، والانهماك في تربية الأفراد وتكوين الدعوة، حيث كان أمر الله حينئذ أن ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء:٧٧]

في حين كانت رغبة الشباب المسلم المتحمس هي الدفاع عن النفس بالساعد والسلاح، فقد جاء عبد الرحمن بن عوف وأصحابه ـ أيام مكة ـ إلى النبي – ﷺ – فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: " **إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلا تُقَاتِلُوا [القوم]**..."(١).

وقد استمرت هذه المرحلة على مدار العهد المكي ـ أي طيلة ثلاث عشرة سنة ـ ذاق المسلمون فيها شتى ألوان التضييق والاضطهاد والإيذاء . **"وكان الصحابة يراجعون فيها رسول الله – ﷺ – ليستأذنوه برد الظلم عنهم فيمنعهم عن ذلك، ويأمرهم بالصبر وباستكمال مراحل التربية الإيمانية الواجبة في الطلائع الأولى من حملة الدعوة"**(٢) .

وعن الحكمة من الأمر بالكف عن القتال خلال هذه الفترة، يذكر صاحب الظلال – رحمه الله – مجموعة من الأسباب الوجيهة والحِكَم الجلية لمسألة الكف عن القتال في مكة.

✍ **نذكر منها بإيجاز ما يلي:**

١ – أن الكف عن القتال في مكة، ربما لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربي على الصبر، على ما لا يصبر عليه عادة، من الضيم حين يقع عليه أو على من يلوذون به، ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يهتاج لأول مهيج، ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته، ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره – مهما

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٣٦) ، وصححه الألباني .

(٢) انجوغو صمب : أروع القيم الحضارية ٢٣ .

يكن مخالفًا لمألوفه وعادته- وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء (**المجتمع المسلم**)[١].

٢- وربما كان ذلك أيضا؛ لأن الدعوة السلمية، أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها -في مثل هذه الفترة- إلى زيادة العناد، ونشأة ثارات دموية جديدة، كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، أعواماً طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها - وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام . فلا تهدأ بعد ذلك أبداً . ويتحول الإسلام من دعوة ، إلى ثارات تُنسى معها فكرته الأساسية[٢]!

٣- وربما كان ذلك أيضًا اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد، ومعنى الإذن بالقتال، في مثل هذه البيئة، أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال: هذا هو الإسلام، ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال، فقد كانت دعاية قريش في المواسم، إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده، فوق تفريقه لقومه وعشيرته، فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي[٣].

٤- وربما كان ذلك أيضًا، لما يعلمه الله، من أن كثيرًا من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟[٤]

٥- وربما كان ذلك أيضًا؛ لأن النخوة العربية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع، وبخاصة إذا كان الأذى واقعا على كرام الناس فيهم، وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة، فابن الدُّغُنَّةلم يرض أن يترك أبا بكر وهو رجل كريم يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب،

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ٢/ ٧١٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

وعرض عليه جواره وحمايته، وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

٦- وربما كان ذلك أيضًا لقلة عدد المسلمين حينئذ، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة أو بلغت ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش، وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف، ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة، حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم، ويبقى الشرك ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام [١].

إن في هذه السياسة النبوية لدرسٌ لأصحاب الرسالات الربانية ! فينبغي تفادي الصدام المبكر مع أصحاب النفوذ قدر الإمكان، حتى لا تتحرك الدعوة في أجواء الأكراه والاضطهاد في وقت مبكر، الأمر الذي يُعيق سيرها، ويُوفر فرصة الانقضاد عليها.

حثه -ﷺ- على الصبر في مواجهة الإيذاء:

✍ عن خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ - رضي الله عنه - قَالَ :

شكونا إلى رسول الله - ﷺ -وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَـهُ فِي ظِـلِّ الْكَعْبَـةِ، قُلْنَـا لَـهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ! أَلا تَدْعُو اللهَّ لَنَا !

✍ **قَالَ : "كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ .. وَاللهَّ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلا اللهَّ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"** [٢] .

وكان رسول الله -ﷺ- يمر بالمستضعفين فيشد على أيديهم، ويصبّرهم، ويأمرهم بالصبر ..فَكَانَتْ بَنُو مَخْزُومٍ يَخْرُجُونَ بِعَمّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَبِأَبِيه وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتِ إسْلَامٍ، إذَا

---

(١) المصدر السابق .

(٢) البخاري: ٣٣٤٣ .

حَمِيَتْ الظَّهِيرَةُ يُعَذِّبُونَهُمْ بِرَمْضَاءِ مَكَّةَ ، فَيَمُرّ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – فَيَقُول: **"صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ مَوْعِدُكُمْ الْجَنَّة"** .

فَأَمّا أُمّهُ فَقَتَلُوهَا ، وَهِيَ تَأْبَى إلا الإِسْلامَ[1] .

وجدير بالإشارة أن نزول آيات الصبر قد امتدت على طول الفترة المكية تقود خطوات المؤمنين خطوة خطوة، فتمرنوا على تحمل المشاق وتحمل الأذى، وضبط الإرادة، وألا تكون تصرفاتهم ردود أفعال، كما تدربوا على الالتزام بما يرد عن الله تعالى، مع أوامر رسول الله – ﷺ[2] .

صور من صبره – ﷺ - على الإيذاء :

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : أن النبي ـ ﷺ ـ كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس؛ إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجيء بسَلاَ جَزُور[3] بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم [**وهو عقبة بن أبي معيط**] فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي ـ ﷺ ـ وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغنى شيئًا، لو كانت لي منعة، قال : فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعضهم، ورسول الله – ﷺ – ساجد، لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال :**"اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ"** ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، قال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى : **"اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ"** ـ وعد السابع فلم نحفظه ـ فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله ـ ﷺ ـ صرعى في القَلِيب، قليب بدر[4].

- **ولما سمعت أمّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيّةَ: " حَمّالَةَ الْحَطَبِ ما نَزَلَ فِيهَا ، وَفِي زَوْجِهَا أبي لهب مِنْ الْقُرْآنِ أَتَتْ رَسُولَ اللهِّ – ﷺ – وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ ، وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ مِنْ حِجَارَةٍ فَلَمّا وَقَفَتْ عَلَيْهِمَا أَخَذَ اللهُ بِبَصَرِهَا**

---

(١) ابن هشام ج ١ / ص ٣١٩ .

(٢) انظر : محمد أمحزون: منهج النبي، ص ٨٠ .

(٣) أمعاء الجمل المذبوح .

(٤) البخاري رقم ٢٣٣ .

عَنْ رَسُولِ اللهِّ -ﷺ - فَلا تَرَى إلا أَبَا بَكْرٍ ، فَقَالَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ : أَيْنَ صَاحِبُك ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنّهُ يَهْجُونِي، وَاَللهِّ لَوْ وَجَدْته لَضَرَبْتُ بِهَذَا الْفِهْرِ فَاهُ ! أَمَا وَاَللهِّ إنِّي لَشَاعِرَةٌ !" .

✍ ثُمّ قَالَتْ :

مُذَمّمًا عَصَيْنَا ... وَأَمْرَهُ أَبَيْنَا ... وَدِينَهُ قَلَيْنَا ..

ثُمّ انْصَرَفَتْ، فقَالَ أَبُو بكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِّ ! أَمَا تَرَاهَا رَأَتْك ؟

✍ فَقَالَ : " مَا رَأَتْنِي ، لَقَدْ أَخَذَ اللهُّ بِبَصَرِهَا عَنّي " .

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ إنّمَا تُسَمّي رَسُولَ اللهِّ -ﷺ - مُذَمّمًا ، ثُمّ يَسُبّونَهُفكَانَ رَسُولُ اللهِّﷺ يَقُول : **"أَلا تَعْجَبُونَ لِمَا يَصْرِفُ اللهُّ عَنّي مِنْ أَذَى قُرَيْشٍ ، يَسُبّونَ وَيَهْجُونَ مُذَمّمًا ، وَأَنَا مُحَمّدٌ"** (١) .

– وكان الأخنس بن شَرِيق الثقفي من كبار قريش، يصيب من رسول الله ـﷺ ـ ويرد عليه فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٠،١٣](٢) .

– وكان أمية بن خلف إذا رأي رسول الله -ﷺ - همزه ولمزه . وفيه نزل ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهُمَزة:١] قال ابن هشام : الهمزة : الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به . واللمزة : الذي يعيب الناس سرًا، ويؤذيهم (٣) .

– ومَرّ أبو جهل بِرَسُولِ اللهِّ – ﷺ – عِنْدَ الصّفَا ، فَآذَاهُ وَشَتَمَهُ وَنَالَ مِنْهُ بَعْضَ مَا يكْرَهُ مِنْ الْعَيْبِ لِدِينِهِ وَالتّضْعِيفِ لأمره فلَمْ يُكَلّمْهُ رَسُولُ اللهِّ – ﷺ – (٤) .

– ومَرَّ أَبُو جَهْلٍ بالنبي ـﷺ ـ وهو يصلي، فَقَالَ : أَلَمْ أَنْهَكَ [أي عن الصلاة هنا]، فَانْتَهَرَهُ النَّبِيُّ ـﷺ ـ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ : لِمَ تَنْتَهِرُنِي يَا مُحَمَّدُ ؟ فَوَاللهَّ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي !

---

(١) ابن هشام ج ١ / ص ٣٥٥ .
(٢) ابن هشام ج ١ / ص ٣٦٠ .
(٣) ابن هشام ج ١ / ص ٣٥٦ .
(٤) ابن هشام ج ١ / ص ٢٩١ .

✍ **فَأَنْزَلَ اللّـهُ ـ عـز وجـل ـ :** ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق:٩،٢٠][1] .

الثبات

ومشى قادة مكة إلى أبي طالب ، فقالوا له يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنَّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحدنا، ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله –ﷺ– لهم ولا خذلانه[2].

فبعث أبو طالب إلى رسول الله -ﷺ- فقال له : يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا له فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله –ﷺ– أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

✍ **فقال رسول الله -ﷺ- في ثبات تترنح له الجبال وفي عزيمة تخور لها الهضاب :**

"يَا عَمّ ، وَاَللّهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ "..

ثم استعبر رسول الله –ﷺ– فبكى ثم قام.

✍ **فلما ولى ناداه أبو طالب:** أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه رسول الله –ﷺ– فقال : اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا[3].

---

(١) أحمد : ٣٠٤٤ قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح .

(٢) ابن هشام ج ١ / ص ٢٦٥.

(٣) انظر: ابن هشام ج ١ / ص ٢٦٦ .



١ـ استعن بالله، واعلم أنما وسيلتك الناجعة على الصبر والثبات وقت المحن ـ هي المحافظة على أوراد اليوم والليلة، فرَوْض نفسك على الصبر والثبات من خلال المداومة على أوراد (**الأذكار ـ القيام ـ الصيام ـ ورد القرآن ـ ركعتي الضحى ـ ورد الرياضة ـ التفكر ـ الاعتكاف ـ محاسبة النفس**).

٢ـ مطالعة نتفًا من قصص الصابرين والثابتين على الحق، وحدث إخوانك بها مرارًا، وتعايش مع أحداثها بقلبك ووجدانك.

٣ـ طالع كتاب : **" قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيدوا أهله"** .

٤ـ زيارة داعية أو عالم، له موقف في الصبر على البلاء، تتحدث إليه عن موقفه، وعايش محنته، وتأمل همته ومُنته، واستفد من خبرته وتجربته . فمخالطة الصالحين فلاح ونجاح ورباح .



بين الرخصة والعزيمة

"أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبيَ -ﷺ- ، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه ، فلما أتى رسول الله-ﷺ- قال : « **ما وراءك ؟** » قال : شر يا رسول الله ، ما تُركتُ حتى نلتُ منك ، وذكرت آلهتهم بخير قال: « **كيف تجد قلبك ؟** » قال : مطمئن بالإيمان قال : « **إن عادوا فعد** » [١].

***

كان المشركون يُخرجون آل ياسر إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرِّها، ولم يستطع رسول الله -ﷺ- أن يدفع عنهم شيئًا، اللهم إلا المرور بهم ليصّبرهم بقوله: "**صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**" ..

وفي دوامة التنكيل:

مات ياسر من شدة التعذيب..

ولما رفضت امرأته "سُميَّة" القول بكلمة الكفر وأغلظت القول لأبي جهل طعنها - لعنه الله - في قُبُلَها بحربة في يديه، فماتت. فكانت أول شهيدة .

وتفننوا دروب الضرب والتعذيب في جسد عمار بن ياسر، بالحرِّ والصخر والتغريق .

وقد "**أخذه بنو المغيرة فغطوه في بئر ميمون وقالوا: اكفر بمحمد**" [٢] .

✍ **وقالوا له:** لا نتركك حتى تسب محمداً أو تقول في اللات والعزّى خيراً ففعل، فتركوه، فَشَكَى ذَلِكَ إِلَى النَّبِيّ -ﷺ- وقال له : ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير [٣].. وبكى. فَجَعَلَ - صلوات ربي وسلامه عليه - يَمْسَح الدُّمُوع عَنْهُ، وقال له: كَيْف تَجِد قَلْبك ؟

✍ **قَالَ :** مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ .

✍ **قَالَ:** " **فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ** " .

---

(١) الحاكم : ٣٣١٩، وقال الألباني رجاله ثقات مرسلاً .

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٣٠٤.

(٣) البيهقي ٨\٢٠٩.

وفيه نزل قَوْل اللهَّ تَعَالَى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[النحل:١٠٦]

✍ **وفي هذا الباب يقول النبي -ﷺ- : "إِنَّ اللهَّ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"** (١) .

✍ **قال ابن عباس :** ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فأخبر الله سبحانه أنه من كفر من بعد إيمانه، فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم ، فأما من أكره فتكلم به لسانه وخالفه قلبه بالإيمان لينجو بذلك من عدوّه، فلا حرج عليه، لأن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم." (٢) .

✍ **قال ابن كثير: " فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الاهانة والعذاب البليغ، أجارنا الله من ذلك بحوله وقوته"** (٣) .

✍ **وقال ابن عاشور في تفسيره – التحرير والتنوير- في هذه الآية :**

"وقد رخّصت هذه الآية للمكره على إظهار الكفر أن يظهره بشيء من مظاهره التي يطلق عليها أنها كفر في عرف الناس من قول أو فعل . وقد أجمع علماء الإسلام على الأخذ بذلك في أقوال الكفر ، فقالوا : فمن أكره على الكفر غير جارية عليه أحكام الكفر ، لأن الإكراه قرينة على أن كفره تقية ومصانعة بعد أن كان مسلماً . وقد رخّص الله ذلك رفقاً بعباده واعتباراً للأشياء بغاياتها ومقاصدها " .

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد رخَّص للمسلم أن ينطق بالكفر عند الإكراه، فإنه رخص فيما هو أقل من ذلك كأكل الميتة وشرب الخمر عند الضرروة الملحة.

كذلك قد يضطر المسلم إلى ترك فريضة، أو فعل واجب عند الضرورة، كما يجوز للمسلم ترك السنة المؤكدة عن الحاجة، وقد تتحول المستحبات إلى مركوهات إذا خالفت الأولى.

---

(١) ابن ماجه : ٢٠٣٣، وصححه الألباني .
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٣٠٥ .
(٣) ابن كثير (**السيرة**) : ١/ ٤٩٥ .

الرخص الشرعية

والرخصة في اللغة معناها اليسر والسهولة. وفي الشريعة: **"مَا أُرْخِصَ فِيهِ مَعَ كَوْنِهِ حَرَامًا"** (١). ويقابلها العزيمة .

وقد شرع الإسلام الرخص لرفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة لفقدان المصالح الضرورية. ورفع الحرج مقصد من مقاصد الشريعة وأصل من أصولها، فإن الشارع لم يكلف الناس بالتكاليف والواجبات لإعناتهم أو تحصيل المشقة عليهم . وقد دل على ذلك القرآن والسنة وانعقد الإجماع على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة:٦]

وضرب القرآن مثالاً للرخصة في قوله تعالى : ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣]

ومن ذلك – أيضًا – الإفطار في السفر أيام رمضان، وقصر الصلاة المفروضة في السفر، فتصلي الصلاة الرباعية بركعتين فقط حال السفر. والمسح على الخفين في الوضوء، والتيمم بالتراب إذا فُقد الماء للوضوء أو إذا كان المسلم مريضاً.. كما في قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾

[النساء:٤٣]

وفي الرخص الشرعية .. قال النبي – ﷺ -: **"إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته"** (٢) . وفي رواية : **"كما يحب أن تؤتى عزائمه"** ..

نماذج :

✍ **ومن أمثلة الرخص الشرعية غير مثال عمار بن ياسر، ما رواه أبو سعيد حيث قال :**

سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ – ﷺ – إِلَى مَكَّةَ وَنَحْنُ صِيَامٌ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ -: **"إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ"** .

---

(١) الغزالي : المستصفى ص ١٩٤ .

(٢) أخرجه أحمد (٥٦٠٠) من حديث ابن عمر، وصححه الألباني في الإرواء .

فَكَانَتْ رُخْصَةً .. فَمِنَّا مَنْ صَامَ وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ، ثُمَّ نَزَلْنَا مَنْزِلًا آخَرَ فَقَالَ: " **إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدُوِّكُمْ وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ** " .. فَأَفْطِرُوا [١]..

✍ **وعَنْ أنَسٍ قَالَ:**

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَصَامَ بَعْضٌ وَأَفْطَرَ بَعْضٌ، فَتَحَزَّمَ الْمُفْطِرُونَ وَعَمِلُوا، وَضَعُفَ الصُّوَّامُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ، فَقَالَ رسول الله ﷺ فِي ذَلِكَ : " **ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ**"[٢] .

وعَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجِدُ بِي قُوَّةً عَلَى الصِّيَامِ فِي السَّفَرِ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " **هِيَ رُخْصَةٌ مِنْ اللَّهِ فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ**" [٣] .

وعن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -:

قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: " يَا عَبْدَ اللَّهِ أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ " فَقُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ .

✍ **قَالَ :** " **فَلَا تَفْعَلْ ! صُمْ وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ وَنَمْ ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ**" ..

قال عبدالله : فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً.

قَالَ: " **فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ** " .

قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام.

قَالَ: " **نِصْفَ الدَّهْرِ** " ..

فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ: بَعْدَ مَا كَبِرَ يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ[٤] .

✍ **وعَنْ جَابِرٍ قَالَ:** خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ : هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا : مَا نَجِدُ لَكَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٨) .

(٢) أخرجه مسلم مسلم (١٨٨٧) .

(٣) أخرجه مسلم (١٨٩١) .

(٤) أخرجه البخاري (١٨٨٨) .

رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ . فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ. فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ -ﷺ -أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ : " **قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللهُ !! أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ . إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ - أَوْ يَعْصِبَ - عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ**" (١).

من الواقع : مسلم مصري أُكره على الكفر .

من فتاوى الأزهر الشريف

✍ **التاريخ :** شعبان ١٣٧٠ هجرية - ٢٣ مايو ١٩٥١م .

✍ **السائل :** ع. ن .

✍ **السؤال :** اعتنقت الإسلام منذ حوالى عام، وأشهرت إسلامى بإعلام شرعى بمحكمة مصر الابتدائية الشرعية بتاريخ ١٩/ ٤/ ١٩٥١ .

وتحت تهديد من عائلتى بالقتل أُملىَّ علىَّ إقرارٌ كتابى ضد إرادتى وعقيدتى لرجوعى إلى المسيحية، وبما أنى مازلت مؤمنا بقلبى بالإسلام، ومؤديا لجميع الفروض، ومتزوجا من سيدة مسلمة من عائلة كريمة، فقد حررت خطابا رسميا لرئيس المجلس الملى القبطى أعلن فيه إشهارى للإسلام، واستنكارى لما أملى على تحت التهديد، وهذا الخطاب مؤرخ بتاريخ ١٦/ ٥/ ١٩٥١ ومسجل وتاريخه ثانى يوم لكتابة التهديد .

فهل أعتبر مرتدا عن الإسلام بمجرد كتابى لهذا الإقرار أمام الله، أم لا أزال مسلما كما أعتقد.

✍ **الإجابة :**

إن من أُكره على الكفر فأجرى كلمته على لسانه أو كتبها مكرها وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكفر بذلك عند الله، ولا تجرى عليه أحكام الكفر، فلا تبين امرأته، ويرثه المسلمون ويرثهم، ويدفن فى مقابرهم، وعلى هذا أجمع الأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل رضى الله عنهم، واستدلوا بما روى أن عمار بن ياسر رضى الله عنه أخذه المشركون فضربوه حتى تكلم بما طلبوا منه **(من الكفر)** -

---
(١) أخرجه أبو داود (٢٨٤) وحسنه الألباني .

فقيل يارسول الله إن عمارًا كفر، فقال رسول الله -ﷺ- **"كلا! إن عمارا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه"**.. فأتى عمار رسول الله -ﷺ- وهو يبكى فجعل رسول الله -ﷺ- يمسح عينيه ويقول: **"مالك ؟ ! إن عادوا فعدلهم بما قلت "** ..

ونزل قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦] ، ومتى زال الإكراه أمر بإظهار إسلامه فإن أظهره فهو باق على إسلامه .

والله ولى التوفيق .

إن استطعت أن تتشبه بأم عمار فافعل وإلا فبعمار !

✍ قال الأمام النووي :

" إن تلَفظ [أي المكرَه]بكلمة الكفر وهو أسير لم يحكم بردته لأنه مكره، وإن تلفظ بها في دار الحرب في غير الأسر حكم بردته، لأن كونه في دار الحرب لا يدل على الإكراه، وإن أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لم يحكم بردته، لأنه قد يأكل ويشرب من غير اعتقاد، ومن أُكره على كلمة الكفر فالأفضل أن لا يأتي بها ..." [1] .

✍ وذلك لما روى أنس رضى الله عنه أن النبي -ﷺ- قال :

"ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ " [2] .

✍ وفي حديث خباب بن الأرت، قال رسول الله -ﷺ- : " كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ " [3] .

فقد تصلح العزيمة لفرد ولا تصلح لآخر، كما أن العزيمة أوجه بالقادة والعلماء ، والرخصة أليق بالضعفاء ..

---

1 المجموع ١٩/ ٢٢١

2 أخرجه البخاري : ١٥

3 البخاري : ٣٣٤٣



١ـ مطالعة كتاب " **عدة الصابرين**" لابن القيم، كتاب طريف في فقه الصبر، وفضائله وأنواعه وآثاره .

٢ـ مدارسة سورتي العنكبوت والبروج، واستخرج دروسهما في كراسة، ودومًا ـ وقت المحن ـ اتل في نفسك أول سورة العنكبوت؛ فمفعولها عظيم جدًا.



الهجرة إلى الحبشة

عن أم سلمة؛ أن النبي -ﷺ- قال :

" إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ؛ فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ؛ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ "(١) .

***

دعوة وملاذ

اشتد العذابُ على المسلمين في مكة؛ فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة؛ فرارًا بالدين، ولإنشاء قاعدة إسلامية هناك؛ وهي نظرة بعيدة من صاحب الدعوة؛ تبين أن بقاء الدعوة أهم من بقاء الرجال، تبين أهمية وجود تجمع إسلامي إضافي يكفل الحياة للدعوة إذا ضربها الباطل في معقلها الأول بمكة.

فهب أن الوثنية انقضت على الإسلام، وقُتل المسلمون عن آخرهم في مكة، ألا ترى بقاءً للإسلام بعد هذا اليوم ؟ ألا ترى أن من الحنكة أو من التفكير الاستراتيجي بناء أكثر من قاعدة للدعوة في أماكن عدة ـ وذلك في مهدها ـ حتى إذا قويت شوكتها، واشتد ساعدها، وقامت دولتها؛ لملمت أشتاتها، وجمّعت منتشرها ؟ وهذا ما حدث بالفعل بعد فتح خيبر سنة ٧ هـ، حيث أذن النبي -ﷺ- لمهاجري الحبشة بالعودة إلى الوطن الجديد؛ إذ أن مهمتهم قد انتهت، ورسالتهم قد اكتملت؛ وكانوا من قبلُ يرغبون في العودة إلى مكة أو إلى المدينة ـ في فترة الحرب الدفاعية ـ فلا يأذن لهم.

لذلك كان هدف الجالية الإسلامية في بلاد أوربا؛ التترس بقوانين الحرية والاستعانة بها في تبليغ الإسلام .

***

" إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ ... "

إن المسلم ليس درويشًا لا يعلم البيئة التي تحيط به . إنما المسلم حصيفًا ذكيًا يعرف جياد الأوطان، وعقلاء الملوك . يعرف الأرض الصالحة للأمن، ويفهم تاريخ حكام المنطقة، ويستطيع أن يأخذ قراره أن فلانًا يصلح وأن فلانًا لا يصلح، وأن هذه الأرض مناسبة وأن تلك غير مناسبة .

---

(١) أخرجه البيهقي " **السنن** " (١٨١٩٠)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم : ٣١٩٠ .

ومن هنا دعوة لجموع الدعاة أن يتثقفوا سياسيًا وجغرافيًا وتاريخًا؛ وأن يستعينوا بهذه الثقافة في خدمة دين الله.

ليس الداعية بالذي يحفظ ويلفظ؛ إنما الداعية الفقيه البصير، والسياسي الخبير، والاقتصادي الحاذق، والجغرافي الماهر، والمؤرخ البارع.

أو باختصار، يفقه واقعه .

***

" **فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ؛ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُّ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**".

نعم .. سيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا، ستنفرج الحلقة، وستنكشف الغمة، وينتشر الإسلام، ويعم العدل، ويسود الخير، ويأمن الخائف، ويَطعم الجائع، ويكسى العريان، ويسير الراكب من القاهرة إلى القدس إلى تل أبيب لا يَخَافُ إِلَّا اللهَّ، ويهل بحجة وعمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، لا يَخَافُ إِلَّا اللهَّ.

وماذا علينا لو آمنا ودفعنا ضريبة الصبر والثبات والتضحية ـ طيبة بها نفوسُنا حتى يُنزل الله نصره، ساعتها سيعلم الجمعُ أن للصبر ثمرة أغلى من الذهب، وأن للثبات أجرٌ يناطح الجوزاء، وأن التضحية لم تذهب هباء منثورًا.

ياَ هَنَاهُ ... ويْحُكَ ! لا تقل : تأخر نصر الله . بل قل : ألا إن نصر الله قريب.

***

الهجرة .. والجهاد الدبلوماسي

ومضى المؤمنون في هجرتهم الأولى ـ وكانت في العام الخامس من البعثة ـ وكانوا عشرة رجال، وأربع نسوة، نعم، جماعة صغيرة، لكنها نواة لجالية عظيمة في الحبشة، سيكون بها سلطان عظيم في مملكة النجاشي.

وهؤلاء تسللوا سرًا؛ لضرورة الواقع المتربص بالدعوة.

وكانوا جميعًا من الأشراف؛ ليعلم الدارس أنها نخبة إسلامية خرجت للدعوة بأرض الحبشة إضافة إلى الاستعانة بها كدار أمن وملاذ من الاضطهاد .

ثم كان الفوج الثاني من مهاجرة الحبشة، وكانت خرجتهم الثانية هذه أعظم مشقة من الأولى، ولقوا من المشركين أذىً كثيرًا .

كانت عدتهم ثلاثة ثمانون رجلاً وثماني عشرة أمرأة .

وسعت قريشٌ للوقيعة بين النجاشي والمسلمين، وأرسلت وفدًا دبلوماسيًا إلى النجاشي لتسليم المسلمين إليها، كما تفعل دول الظلام مع الدعاة في عصرنا، وكان الوفد يتألف من رجلين من دهاة العرب : عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ـ وذلك بالطبع قبل إسلامه ـ؛ وحُملت معهما الهدايا، ورشّوا هداياهم على البطارقة وبطانة الملك، ثم كلما النجاشي، بعد أن منحاه هديةً، وطلبا أن يلقي يقبض على أفراد الجالية الإسلامية ..

أنصتْ لدهاء عمرو، وطرحه وتحليله العجيب :

✍ **قال : " أَيّهَا الْمُلِكُ إِنّهُ قَدْ ضَوَى إِلَى بَلَدِك مِنّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِك، وَجَاءُوا بِدِينٍ ابْتَدَعُوهُ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْت، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْك فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدّهُمْ إِلَيْهِمْ فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ"**[١].

كلمات صاروخية !

تحليلٌ أثقب من المثقاب !

لكنّ هذا الدهاء لم يحل دون غضبة الملك الكريم .

✍ **ولم تحل أيضًا شفاعة البطارقة الذين قبضوا الهدية وقالوا :**

"صَدَقَا أَيّهَا الْمُلِكُ ! قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَأَسْلِمْهُمْ إلَيْهِمَا فَلْيَرُدّاهُمْ إلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ "[٢] .

✍ **قال النجاشي ـ وقد أغضبته هذه الكلمات ـ وهي في ظاهر الأمر حسنة جزلة فصيحة جداً ـ :**

" لاهَا اللهِّ ! إذَنْ لا أُسْلِمُهُمْ إلَيْهِمَا، ولا يَكَادُ قَوْمٌ جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلادِي ، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ، حَتّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ عَمّا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ أَسْلَمْتهمْ إلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إلَى قَوْمِهِمْ وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي ." [٣] .

---

(١) ابن هشام :١ / ٣٣٤ .

(٢) ابن هشام :١ / ٣٣٤ .

(٣) ابن هشام :١ / ٣٣٤ .

هذا درسٌ في السلطانيات؛ إذ لا غنى للحُكم عن الحكمة، ولا غنى للمُلك عن الفطنة، ولا قوام لدولة غادرة، ولا بقاء لزعيم خائن.

وليس فوق الحاكم العادل منزلةً إلا نبيٌ مرسل، أو مَلَكٌ مقرّب ..

إن السلطان الصالح مثل الرياح المباركة التي يرسلها الله ـ سبحانه ـ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، فيسوق بها الغمام، ويجعلها لقاحًا للزرع، وسقاءً للضرع، وحياةً للعبد.

هذا هو الرئيس الحُر، النجاشي، لم يكن جبانًا كبعض حكام زماننا؛ إذا نظرتْ له أمريكا نظرةَ تفيد أن سلّم إلينا الشيخ فلان والدكتور علان، سرعان ما يرضخ ويقبل الأيادي والأحذية، ويسلم تسليمًا كثيرًا !

***

وأرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، فَلَمّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ : مَا تَقُولُونَ لِلرّجُلِ إذَا جِئْتُمُوهُ، قَالُوا : نَقُول ـ وَاَللهّ ـ مَا عَلِمْنَا، وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيّنَا ـ ﷺ ـ كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ . فَلَـمّا جَـاءُوا، وَقَدْ دَعَا النّجَاشِيّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ؛ سَأَلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ : مَا هَذَا الدّينُ الّذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا دِينِي، وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ [1] ؟.

فكَانَ الّذِي كَلّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (**رِضْوَانُ اللهّ عَلَيْهِ**)؛ فطرح عليه الإسلام في كلمات دقيقة معدودة، فبدأ بذكر مساوىء الجاهلية، ثم ذكر صفات النبي ـ ﷺ ـ في سطر واحد، ثم عدّد له فضائل الإسلام ومحاسن تعاليمه، ثم أوضح له الإيذاء الذي تعرض له المسلمون، ولم ينس استمالة النجاشي ومدحه بما هو أهله..

✍ **قال جعفر:**

أ) أَيّهَا الْمَلِكُ، كُنّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأرْحَامَ،ونُسِيءُ الجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيّ مِنّا الضّعِيفَ، فكُنّا عَلَى ذَلِكَ...

ب) حَتّى بَعَثَ اللهُّ إلَيْنَا رَسُولاً مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ ...

ج) فَدَعَانَا إلَى اللهّ لِنُوَحّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرّحِمِ، وَحُسْنِ

---

(١) ابن هشام: ١ / ٣٣٥ .

الجِوَارِ، وَالْكَفَّ عَنْ المَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ المُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَّ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ ... فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ اللهَّ فَعَبَدْنَا اللهَّ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا..

د) فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا ، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهَّ تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلّ مَا كُنّا نَسْتَحِلّ مِنْ الْخَبَائِثِ فَلَمّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا...

هـ) خَرَجْنَا إِلَى بِلادِك، وَاخْتَرْنَاك عَلَى مَنْ سِوَاك؛ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِك، وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَك أَيّهَا المَلِكُ [1].

***

هكذا فليتخير الداعية كلماته، وليتقن المسلمُ كيف يُعرّفُ بدينه، وكيف يشرح منهجه في كلمات قليلة، خاصة أمام أصحاب السطوة والسلطان.

إن حسن البيان عن الإسلام يرفع قدره، ويعلى ذكره، ويعظم خطره، ويدل على فضل نبيه ـ ﷺ ـ .

هذا الدين يحتاج منا في هذا العصر إلى الإيجاز في شرحه، والتبسيطِ في طرحه، بحيث لا تأخذ من وقت السامع وقتًا يدفعه إلى الملالة والانصراف عنك إلى غيرك.

وأنت قد رأيتَ كيف شرح جعفرُ القضيةَ في دقائق قليلة .

ذلك بأن المكثار كحاطب الليل؛ لا يأمن العقرب والحية، وأفصح الناس من زين المعنى العزيز باللفظ الوجيز. وأوَل العيّ الاختلاط والاضطراب، وأسوء القول الإفراط في الإطناب، ومن أكثر أسقط، ومن أكثر أهجر . وإذا كثر الكلام اختل، وإذا اختل اعتل، وخير الكلام ما قل ودل، ولم يطل فيمل.

يا مسلم، لا تكن طويل اللسان قصير الرأي، مسهبًا ثرثارًا، خطلاً مكثارًا !

تخير الآيات

✍ **فَقَالَ لَهُ النّجَاشِيّ :** هَلْ مَعَك مِمّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللهَّ مِنْ شَيْءٍ ؟

---

(١) ابن هشام :١ / ٣٣٥ .

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ سورة مريم ..فبَكَى ـ وَاَللّهِ ـ النّجَاشِيُّ حَتّى اخْضَلّتْ لِحْيَتُهُ، وبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتّى أَخْضَلّوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ .

ثُمّ قَالَ النّجَاشِيّ : إنّ هَذَا وَاَلّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى؛لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ[1]!

***

هكذا القرآن، إذا وقع على القلوب الصادقة؛ سكن بها، وشرح صدرها، وأسال دمعتها، وحرك وجدانها .

هكذا الآية المناسبة في الموقف المناسب، والسورة الكريمة في الموضوع المناسب ، إنها سورة مريم بين أقوام يحبون مريم، وآيات كريمة تتحدث بأدب جم عن ولادة المسيح، وتحكي عن زكريا ويحيى، وتتلو دعاء خاشعًا خاضعًا ... هنا سالت المدامع، واهتزت الأضالع ،وزفرت الأنفاس، وهمدت الحواس، ولهثت ألسنه البطاركة بالتسابيح والدعاء .

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[المائدة:٨٢].

محاولة أخرى

✍ **وهكذا هُزِمَ وفد قريش في الجولة الأولى، فقال عمرو :**
وَاَللّهِ لَآتِيَنّهُ غَدًا عَنْهُمْ بِمَا أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ..

✍ **فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ أَتْقَى الرّجُلَيْنِ:** لا نَفْعَلُ فَإِنّ لَهُمْ أَرْحَامًا ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا ؛ قَالَ: وَاَللّهِ لأخْبِرَنّهُ أَنّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

✍ **ثُمّ غَدَا عَلَيْهِ مِنْ الْغَدِ فَقَالَ لَهُ:** أَيّهَا الْمَلِكُ إنّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إلَيْهِمْ فَسَلْهُمْ عَمّا يَقُولُونَ فِيهِ .

✍ **فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْهُ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ ثُمّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:** مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ ؟ قَالُوا : نَقُولُ ـ وَاَللّهِ ـ مَا قَالَ اللّهُ وَمَا جَاءَنَا بِهِ نَبِيّنَا، كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ .

---

(١) ابن هشام :١ / ٣٣٥ .

✍ **فَلَمّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ :** مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؟

✍ **فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :** نَقُولُ فِيهِ الّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيّنَا ـ ﷺ ـ : هُوَ عَبْدُ اللهِّ، وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ . فَضَرَبَ النّجَاشِيّ بِيَدِهِ إلَى الأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمّ قَالَ: وَاَللهِّ مَا عَدَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ !!

فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ ..

✍ **فَقَالَ :** وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاَللهِّ ! اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ شُيُومٌ بِأَرْضِي – وَالشّيُومُ الْآمِنُونَ – مَنْ سَبّكُمْ غَرِمَ، مَنْ سَبّكُمْ غَرِمَ . مَا أُحِبّ أَنّ لِي دَبَرًا مِنْ ذَهَبٍ[1]،وَأَنّي آذَيْت رَجُلًا مِنْكُمْ، رُدّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا ، فَلا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَوَاَللهِّ مَا أَخَذَ اللهُّ مِنّي الرّشْوَةَ حِينَ رَدّ عَلَيّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النّاسَ فِيّ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ.

✍ **قَالَتْ أم سلمة ـ راوية القصة ـ :** فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ ،مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ [2] !

***

يا لله ! كلما أوقدوا نارًا للحرب؛ أطفئها الله، كلما خطّوا خطة على الإسلام؛ ردها الله في نحورهم، كلما مكروا؛ مكر الله بهم ..

إنه دين الله تكفل بحفظه، يكلؤه بعنايته، إن تنم عنه عيونُ المسلمين فعين الله لم تنم .

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١]

***

أرأيتَ كيف أن الصدق نجاة، وأن حُسن البيان نعمة، ووسيل لا غنى عنها في تبليغ الإسلام.

وأن الحاكم العادل خير من خِصْب الزمان.

وأن ليس كل من اختلف معك فهو عدوك؟

---

(١) الدَّبْرُ بلسانهم الجبل، وفُسِّرَ الدَّبْرَى بالجبل قال ابن الأَثير هو بالقصر اسم جبل . [**لسان العرب** (٤ / ٢٦٨)] .

(٢) ابن هشام :١ / ٣٣٧، ٣٣٨ .

✍ **تأمل :** جعفر على دين ـ هو الإسلام ـ، والنجاشي على دين ـ هو النصرانية ـ، وعمرو على دين ـ هو الوثنية ـ، بيد أن عبقرية الداعية الإسلامي جذبت النجاشي إلى صف المسلمين؛ وذلك بالنية الصادقة، والحجة القوية، والكلمة البليغة، الأفكار البديعة، والاستمالة الرفيقة الرقيقة .

قد يكون الحق في صفك؛ ولكنك تضيعه بسوء تصرفك . وهذا هو عجز الثقة .

وقد يكون الباطل في جانبك؛ ولكنك تثبته، وتزخرفه، فتجعل منه حقًا وحقيقةً؛ بالقول البراق، والطرح المنمق، واللسان المجادل العليم .

وهذا هو جلد الفاجر.

يا سيدي، تزين لدعوتك، وجوّد خطبتك، وحبر كلمتك، فأهل الباطل يسهرون آناء الليل يبتكرون، ويبدعون أنجع الطرق في حبكة درامية لفيلمٍ فسل !

***

✍ **مرة أخرى تأملْ :** جعفر على دين، والنجاشي على دين، وعمرو على دين، ونجح جعفر في كسب النصرانية إلى صفه ضد الوثنية، ونحن في عصرنا نجح اليهود في استقطاب النصرانية في صفهم ضد الإسلام.

ولم نستثمر العداء التاريخي بين اليهود وبين النصرانية.

إذ يعتقد أغلب النصارى أن اليهود هم قتلة المسيح، وهم السبب في خراب المسيحية .

ومع ذلك نجح اليهود بنفيرهم الإعلامي والاقتصادي في جذب النصرانية إليهم.

ثم إن هذا ـ أيضًا ـ بسبب تخاذلنا عن دعوتنا الحضارية بين الأمم.

واستعداء أعداء هم ليسوا لنا بأعداء، على طريقة الحرب على مذهب فقهي معين أولى من الحرب على الماسونية!

انظر كيف استقطبت الصهيونة العالمية أتباعَ النصرانية في حملاتها العسكرية والإعلامية على فلسطين.

وكيف أن العالم النصراني يرى القضية الفلسطينية بعيون يهودية، في حين أن الإعلام العربي والإسلامي يكاد يكون مغيبًا.

توصيات عملية

١ – اقرأ سورة مريم كما قرأها جعفر، واستمع إليها وأنصت كما صنع النجاشي، وطالع تفسيرها، واكتب خاطرة حولها، واستخلص منها توصية عملية .

٢ – اكتب إلى كافرٍ رسالةً من صفحة واحدة فقط ـ بخط يدك ـ تشرح له فيها الإسلام.

٣– أرسلْ رسالةً، صغيرة جدًا، مؤثرة جدًا، عبر الجوال؛ لشاب تدعوه إلى الالتزام والتدين والعودة إلى الله .

٤ – اكتب مقالة رأي في إطار رسالة مفتوحة لمسؤول فاجر، أو لوزير فاسد، أو لحاكم ظالم، تنصحه في الله، وتأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر .





السيرة النبوية

صور تربوية وتطبيقات عملية

تأليف

محمد مسعد ياقوت

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين




بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إلى الذين اتخذوا رسول الله ـ ﷺ ـ قدوة لهم.

الذين يقرءون قول الله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]

أهدي هذا الكتاب



اسم الكتـــــاب: السيرة النبوية

التـــــــــأليف: د / محمد مسعد ياقوت

الصف التصويري: الندي للتجهيزات الفنية

عدد الصفحـــات: ٦٤٠

عــــدد الطبعات: (الطبعة الأولى ٢٠١٠)

التوزيع النشــــر : **دار البشير للثقافة والعلوم**

مصر - طنطا

تليفون : **٠١٦٧٤٦٧٤٩٢ -٠١٦٢٨٣٦٤٦١**

darelbasheer@hotmail.com

dar_elbasheer@yahoo.com

الإيداع القانوني : ٢٠١٠/

الترقيـــم الدولي :

I.S.B.N.٩٧٨/٩٧٧/ / /

١٤٣١ هـ

٢٠١٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يا رسول الله، صلى الله عليك !

✍ **تسلمُ عليكَ البشريةُ وتقول** :

رأيتُ بك بدراً على الأرض ماشياً

ولم أر بدراً قطُّ يَمشي على الأرض

❃ ❃ ❃

علمْتنا كيف تنتفض الأخلاقُ من سطور الكتب إلى صفحات الحياة، فكنتَ قرآنًا يمشي على الأرض؛ جاء، ليتمم مكارم الأخلاق، فيَحيا ما مات منها، ويُجـدَّدَ مـا بَـلي منها. بل كنتَ المعجزة الأخلاقية التي تتحرك بين الناس، إذْ اشتملت بـين جوانحـك جوامع الأخلاق الكريمة، والسجايا العظيمة، والشمائل الـسجيحة. ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]

❃ ❃ ❃

✍ **صلى الله عليك !**

المعجزة الأخلاقية تلك المتمثلة في شخصك الكريم، التي لم نرها في أي سـيرة مـن سير العظماء عبر التاريخ، فإذا ما درسنا سيرة أحدهم رأينا التفوق في جانب والتقصير في جوانب، بيد أن سيرتك يا خاتم الأنبياء ـ صلى الله عليك ـ أبانت صفتي " **التكامليـة** " و" **الشمولية** " .

✍ **التكامليـة** من حيث كون كل خُلقٍ من أخلاقك قد بلغ الـذروة في مجالـه، فبلغت قمة الرحمة، وبلغت قمة العدل، وبلغت قمة العفو، وبلغت قمة الـشجاعة ... علمًا أن الجمع بين قمم الأخلاق أمر أشبه المستحيل .

✍**والشموليةُ** ؛ من حيث اجتماع جماع الخير فيك ـ صلى الله عليك ـ؛ فنجد فيك كل خصلة كريمة، وكل خَلَّة طيبة، وكل صفة حميدة.

❃ ❃ ❃

✍ **صلى الله عليك !**

استطعتَ ـ على سبيل المثال ـ أن تضرب المثل الأعلى؛ كزوج ناجح تجمعُ بين الرحمة والعدل بين تسع نساء؛ فيهن البكر والثيب، والكبيرة والصغيرة، والمتعلمة والأُمية، والفقهية وغير الفقهية، والجميلة وغير الجميلة، والقرشية وغير القرشية، والخزاعية والكندية والكلابية، وابنة اليهودي وابنة النصراني، وابنة الحنيفي وابنة الوثني، وابن صديقك ـ كعائشة ـ وابن عدوك ـ كصفية .

استطعت ـ يا صاحب النسب الباهر ـ أن تقيم العدل والرحمة في بيتك الطاهر، رغم الاختلاف الشديد، والتباين الشاسع؛ في طباعهن وأصولهن وخلفياتهن الثقافية ـ رضي الله عنهن ـ .

❋ ❋ ❋

✍ **صلى الله عليك !**

رأينا في سيرتك الكريمة؛ مثالُ المصلح الاجتماعي؛ الذي تهفو إليه أفئدةُ المجتمع من حوله . يهرع الناسُ إليك تكشف عنهم كرباتهم . تصل الرحم، تحمل الكل، تقري الضيف، تُحسن الجوار، تفك العاني، تطلق الأسير، تضاحك المسن، تكفل اليتيم، تسعى على الأرمة، تصلح بين المتخاصمين، تعين على مصائب الأيام، تسعى في حاجات الإخوان، وفوق ذلك أكرم الناس، وأشجع الناس، وأحلم الناس، وأصدق الناس، وأفصح الناس، وأعلم الناس .

❋ ❋ ❋

رأينا في سيرتك الميمونة ـ وسُنتك المصونة ـ أنموذج الحاكم المسلم، القائد العادل، الشجاع الباسل، الفقيه السياسي، العالم الاجتماعي، المقاتل الهِبْرِزِيّ. ويكادُ الباحثُ يَجْزِمُ أنما السمةُ الغالبةُ على سيرتك بعد سمة النبوة؛ هي سمة الحُكم، والحُكم الرشيد؛ وسمة القيادة، والقيادة المؤمنة، وكليهما ـ الحُكم والقيادة ـ يستنيران بنور النبوة المعصومة.

وجعلتَ من سيرتك ـ يا عَلَم الهدى ـ باقة من المواقف التي تؤكد أن الدين والدولة صنوان، وأن العقيدة والشريعة أخوان، وأن الإيمان والحُكم؛ هما شعاعان من قبس واحد، بل من مشكاة واحدة، في كوة احدة .

❋ ❋ ❋

غابت سيرُ العظماء، وبقيت سيرتك، فهي سيرة النبي الخاتم، وهي سيرة المسلم الأول، والمصلح الأعظم، والحاكم الأعدل .

رأينا في سيرتك الأنموذج الأمثل للجماعة الدعوية الناجحة، والصورة الأكمل للدولة الإسلامية الناجعة .

✍ **صلى الله عليك !**

✍ **في سيرتك** ، المنهج القويم؛ لإعداد الرجل المسلم والمرأة المسلمة والطفل المسلم .

✍ **في سيرتك** ، المنهج السديد؛ لإعداد الأسرة المسلمة، والبيت المسلم، والعائلة المسلمة.

✍ **في سيرتك** ، المنهج الحكيم؛ لإعداد المجتمع المسلم، والشَعب المسلم، والأمة المسلمة .

✍ **في سيرتك** ، المنهج السليم؛ لإعداد الحكومة المسلمة، والدولة المسلمة، والتحالف الإسلامي.

✍ **في سيرتك** ، المنهج الحصيف؛ لإعداد الخلافة الإسلامية، والقانون الدولي الإسلامي، والحضارة الإسلامية الرائدة الظاهرة .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥] .

❋ ❋ ❋

ما أطيب سيرتك ! وما أطهرها تلك التي طهّرتْ نفوسنا، وأحيت قلوبنا، وحركت جوارحنا، وأرسلت هداها؛ تنثره، أراجيزَ وأزاهيرَ، هنا وهنالك وهناك، أرجوزة في التربية، وأرجوزة في الجندية، وأرجوزة في الحاكمية، وأراجيز وأراجيز ...

❋ ❋ ❋

صلى الله عليك، وجزاك الله عن البشرية خير الجزاء . قدر ما علمتها العلم والأخلاق والحضارة !

❋ ❋ ❋

محمد مسعد ياقوت

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

www.nabialrahma.com

yakoute@gmail.com

هاتف : ٠٠٢٠١٠٤٤٢٠٥٣٩

كُليمات

✍ **السيرة النبوية**، لا غنى عنها لفهم القرآن، ولا غنى عنها لفهم الحياة.

✍ **السيرة النبوية**، هي أدق ما كُتب عن إنسان : أعظمُ ترجمة، وأجملة قصة، وأصدق رواية، وأكرم تجربة، وأمثل أنموذج لدعوات النهضة في كل زمان ومكان .

✍ **السيرة تقول لك** ـ عمليًا ـ إن مع العسر يسرًا، لا تحزن إن الله معنا، النصر مع الصبر، العاقبة للمتقين، الدائرة على المجرمين، فسيكفيكهم الله، إنهم يمكرون، ويمكر اللهُ، والله خير الماكرين.

✍ **حدثنا رجلٌ إسباني قائلاً :** "لقد أسلمتُ لما قرأتُ السيرة النبوية".

✍ **السيرة تقول:** لا تتعجل النصر، فإن الثمرةَ لا تحلولي حتى تستوفي نضجها.

✍ **السيرة تقول:** إنما المَجد لأصحاب الهمم العالية، فلا تزال الهمم العالية تصبو إلى الفوز، حتى تجوز قصبات السبق .

إذا أردت أن تنسف آمالك فسلط عليها اليأس، فهو كفيل بتخريب كل شيء !

سترى في السيرة النبوية كيف تتجسد الحكمة في شخص، وتتحرك الأخلاقُ بين الناس رجالاً .

✍ **من الأمثال التي تنطق بها السيرة :** كن عضوًا في جماعة الأسود، ولا تكن قائدًا لجماعة النعام .

✍ الإخلاص وهو السر الوحيد وراء خلود الأعمال والتجارب .

✍ السمة الغالبة في مَن آمن وهاجر وجاهد هي التجرد ، والسمة الغالبة في مَن آوى ونصر وأنفق هي الإيثار، وكلاهما ـ أي التجرد والإيثار ـ هما الزراعان اللذان كان يبني بهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ.

✍ رأينا في السيرة رجالاً حول الرسول سقطوا وانقلبوا على أعقابهم .. كانت مشكلتهم التي كادت أن تجمع بينهم هي سوء فهمهم للإسلام .

✍ الجهد الذي بذله أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ للإسلام، يفوق الجهد الذي بذلته جماعة الصحابة قاطبةً.

✍ الضائع الهالك من هزمه عدوُه هزيمةً نفسية، أي هزيمة دون قتال !

✍ كثيرًا ما ننسى أن المعركة بين الحق والباطل، معركةٌ بين السماء والأرض !

✍ التائه الخائب من ترك الجماعة إلى الفرد، والحائر البائر من تردد بين الحق والباطل، والغبي الأحمق مَن فكر كثيرًا بين طريق مسدود وآخر ممهدٍ مورود، ولم أجد أضيع من رجل عاش منافحًا عن منهج كاسد، وزعيم فاسد.

✍ حياة الإنسان قصيرة جدًا ، لكنها تطول في ذاكرة البشرية بمقدار ما قدم للبشرية .

✍ إذا أحببت أن تتعلم القيادة فتعلم أولاً الجندية . فلم نر قائدًا ناجحًا إلا ونراه قبلُ كان جنديًا صالحًا .

✍ مهما قدمنا وبذلنا فنحن عيالٌ على الصحابة، فالعمل هو العمل، ولكن القلب غير القلب، والسعيدُ من جمع بين جنبيه فضائلَهم، وجسدها في سلوكه.

✍ أقلُ كتابٍ في السيرة كفيلٌ بهدم فكرة " **العلمانية** "، أي فصل الدين عن الدولة، فأنت في السيرة ترى الدينَ والدولةَ هما الإسلامَ بعينه.

✍ " **عالمية الإسلام**"، " **شمولية الإسلام** "، " **وسطية الإسلام**"، "**واقعية الإسلام** "... كلها دروس بديهية في السيرة النبوية.

✍ **محاور السيرة النبوية** : سيرة الفرد ثم سيرة الجماعة ثم سيرة الدولة.

✍ الأحداث الكبرى في السيرة؛ أربعةٌ ، لا يعدلها شيء : نزول الوحي، والهجرة، وبدر، وصلح الحديبية.

✍ الفرق بيننا وبين أي جماعة من البشر، أن سيرةَ قائدنا بكل تفاصيلها بين أيدينا، وسوانا لا يملك شيئًا سوى أساطيرَ عن رجل مصلوب ومعبود، أو بقرةٍ يترنح حولها البشر في ركوع وسجود، أو كوكبٍ، أو حجرٍ، أو فيلسوف مجهول.

✍ الذين يزرعون أقل بكثير من الذين يأكلون، غير أن فضل الزارع على الآكل كفضل الشمس على الأرض، فتأملْ فضلَ الصحابة على من سواهم .

✍ حبةُ الحنطة أنفع من حبة التفاح، فهذه من المكملات وتلك من الأساسيات، وهذا هو الفرق بين الدعوة الشاملة التي تنفع الناسَ عامة، والدعوة الناقصة التي

ينتفع بها طائفة؛ تلك التي تتزي بزي كاذب، وتركز على الشكل دون المضمون، ولو تعلم هذه الدعوات المختلة أن رائحة التفاح لا تسمن ولا تغني من جوع !

✍ حينما تدور رحى الحرب، ويلوذ المؤمنون بأستار الله؛ فإن النتائج المنطقية غالبًا ما تغيب في مثل هذه الحروب .

✍ إن اللبنة الأولى في مشروع إعادة المجد الإسلامي؛ يتمثل في ضرورة الفهم السليم للإسلام . فلن ينصر الإسلامَ مَن اختل فهمه فيه، ولن ينشر الإسلامَ مَن أخذ ببعض الكتاب وكفر ببعض، بل الناصرون هم الذين يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ، وفهموا الإسلام فهمًا شاملاً، منهجًا للحياة، ودستورًا حاكمًا، وشريعةً قائمة.

✍ النفوس الجبانة هي أكثر ُالنفوسِ المتجرئة على الله . والمترفون لا يقيمون حضارة. وصنفان لا تُجدي معهما أحكامُ الله : المترددون والغافلون. فأحكام الله يجب أن تُأخذ بيدين: يدٌ جادة وثّابة، ويدٌ ذاكرة متدبرة : "**خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** "

محمد مسعد ياقوت





القسم الأول

حول السيرة النبوية

فوائد دراسة السيرة النبوية

غزوة وسورة

✍ عن علي بن الحسين - رضي الله عنهما - أنه قال " **كنا نُعلَّم مغازي النبي - ﷺ - كما نُعلَّم السورة من القرآن** "[١].

✵ ✵ ✵

هذه مآثر آبائكم

✍ عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال:

"كان أبي يعلمنا المغازي، ويعدّها علينا، وسراياه، ويقول: يا بني، هذه مآثر آبائكم، فلا تضيعوا ذكرها"[٢].

الجنة في الآخرة ، والتمكين في الدنيا .

✍ قال الإمام الزهري : **" في علم المغازي علم الآخرة والدنيا"**[٣].

✵ ✵ ✵

يا طالب الثقافة، ويا طالب الفِكر، ويا طالب الأدب، ويا طالب العلم، ويا طالب التربية...

هلموا، هلموا جميعًا إلى مكان مليح، فيه ما تشتهون من كل نورٍ، في دروب الفنون، في الثقافة والفكر، في المعرفة والأدب، في التربية والسياسة، في الاقتصاد والتنمية !

هذا المكان بين دفتي كتاب، يقص من أنباء خير البرية، إنها السيرة النبوية، خير السير، وأعظم العبر، وأحسن القصص.

وقبل أن تطالع سيرة النبي - ﷺ - ؛ عليك أولاً أن تعرف قدر السيرة، وفوائدها الكثيرة، وهذه بعضها :

أولاً : فهم القرآن

فمن فوائد دراسة السيرة النبوية؛ أنها تساعدك على فهم كتاب الله تعالى، فقد نزل القرآنُ مُنجّمًا، تعقيبًا على الأحداث، أو تبيينًا لإشكال، أو ردًا على استفسار، أو تحليلاً

(١) انظر : ابن كثير : (السيرة):٢ / ٣٥٢ .
(٢) انظر : الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي : ٢/ ١٩٥ .
(٣) انظر : الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي : ٢/ ١٩٥ .

لموقف من مواقف السيرة، كما حدث في مواقع بدر وأُحد والأحزاب وتبوك، وكما حدث في صلح الحديبية، وحادث الإفك وغيرها من الحوادث والمشاهد . فقراءتك لهذه المواقف من السيرة تساعدك في فهم ملابسات الحدث، وخلفيات الموقف، وطبيعته من الناحية المكانية والزمانية .

ثانيًا : فهم السُنّة :

فأحيانًا تَردُ مواقفُ السيرةِ في كُتب الحديث بشكل مقتضب جدًا، وأحيانًا يذكر أصحابُ المتون موقفًا أو موقفين في غزوة كاملة، الأمر الذي يدفع القارىء إلى مطالعة السيرة النبوية للوقوف على ملابسات الحدث وخلفياته وزمنه ومكانه، مما يعينه على فهم الحديث، واستيعاب بعض الأحاديث التي قد لا يرضى عنها العقل . (**نعوذ بالله من الزيغ والارتياب !**).

ثالثًا : فهم العقيدة الإسلامية :

ومن فوائد السيرة؛ أنها تساعد على فهم العقيدة الإسلامية؛ بطريقة عملية من خلال السلوك العملي للنبي –ﷺ– عبر مسيرته الحافلة بمواقف الإيمان والثبات في مواجهة المحن والإيذاء والمساومات . وفي المرحلة المكية تتجلى المعاني الكبرى لعقيدة التوحيد، وتظهر طريقة القرآن المكي في ملاحقة الشبهات العقدية التي يطرحها المشركون خلال هذه المرحلة، وفي ضوء هذا التنزيل نرى الحكمة النبوية كيف تدمغ هذه الشبهات، وتفند هذه الادّعاءات التي أثارها الوثنيون حول توحيد الألوهية، والبعث بعد الموت، والجنة والنار، والوحي والنبوة، وغيرها من المحاور العقدية العظمى، التي تناولتها السيرة النبوية بشكل جامع مانع .

✍ **وأقول دومًا :** إن السيرة النبوية هي أعظم المصادر في دراسة العقيدة الإسلامية بعد القرآن الكريم، فمن عزم على دراسة علم العقائد فعليه بالقرآن ثم السيرة ثم أبواب العقائد في كُتب السُنة ثم أمهات العقائد للعلماء الأعلام، ثم يقرأ بعد ذلك ما شاء !

رابعًا : التأسي بالنبي - ﷺ -

ومن فوائد دراسة السيرة أيضًا، أنها تساعدك على الاقتداء برسول الله – ﷺ –، إذ هي تبيّن لك أحواله، وتفصل لك أخلاقه .. مع أهله ، مع صحبه ، مع عدوه، تشرح لك سلوكه في سلمه وحربه . في حكمه وقضائه . في ضعفه وقوته . في مرضه وصحته.

وقد قال الله – تعالى – : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]، ولن يتحقق التأسي إلا بمعرفة سيرة الـمُتأسَى به . .

خامسًا : مَحبة النبي – ﷺ – :

ومن فوائدها كذلك أنها تُزيد حبك للنبي – ﷺ –، وحبُه من الدين، وحبه من الإيمان، وقد قال الله – جل وعلا – : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة:٢٤]، وقد قال النبي – ﷺ – : « **لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** » [البخاري : ١٥، عن أنس] .

فإذا أردتَ أن تكون من محبيه فعليك بسيرته، وإذا أردت أن تعرف قدره فعليك بسيرته، فهي تلهب مشاعرك نحوه، وتوثق قلبك به، فعليك بإدمان النظر في السيرة حتى يكون النبي – ﷺ – أحب إليك من نفسك ووالدك وولدك والناس أجمعين، ولا تظنن أن هذا الحب يُدرك بالقراءة فقط، فالقراءة وعاء أجوف ما لم تملئه بالعمل .

سادسًا : محبة الصحابة وآل البيت – رضي الله عنهم –

فمن السيرة تعرف قدْرَ أبي بكر ، وبَلاءَ عمر ، وبذل عثمان، وشجاعة علي، وحلم معاوية، وصبر خباب، وثبات بلال، واجتماعية الطفيل، واقتصادية ثمامة، وكرم أبي أيوب، وفقه معاذ، وهمة ابن الجموح، وفدائية ابن جحش، وقرآنية ابن مسعود، وصدق أبي ذر، وأمانة أبي عبيدة، وعبقرية الحباب، وحفظ أبي هريرة، ودهاء عمرو، وخطابة سُهيل، وفروسية الزبير، وصمود سماك وأناقة دحية، ولباقة ابن حذافة، وذكاء سلمان، وغيرهم، من الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم جميعًا –، فضلاً عن فَضلِ أمهات المؤمنين، فمن السيرة تعرف سَبْقَ خديجة، وعِلْمَ عائشة، وفضل سَوْدة، وبركة جويرية، وغيرهن من أمهات المؤمنين – رضي الله عنهن جميعًا –، وترى في السيرة جهادَ الصحابيات؛ وقد ضربن المثل في التضحية والبذل من أجل دين الله، فستعرف

فيها: فضل سمية أيام مكة، وفضل أسماء يوم الهجرة، وفضل نسيبة بنت كعب يوم أُحد، وفضل غيرهن من الصحابيات الجليلات .

سابعًا : تحصيل المنهج النبوي في التربية

فدراسة السيرة؛ سياحةٌ روحية، تسمو بها النفوس، وتخشع لها القلوب، وتدمع فيها العيون، وتزكو بها الهمم، وتُشحذ فيها الأرواح والأجسام والعقول والجوارح . كما أن السيرة تُبيْن لك كيف أعدَّ رسولُ الله -ﷺ- جيل النصر المنشود، وكيف ساق عباد الأوثان إلى الحياة من جديد، وجعل منهم أعلامًا في الجهاد والفتوح، والحضارة والعلوم، والسياسة والفنون . فالسيرة ترسم لك معالم المنهج التربوي في الإسلام، وتشرح لك أهدف هذا المنهج ومقوماته ووسائله ونتائجه . وقد شهد أربابُ التربيةِ أن السيرةَ ذخيرةٌ في القيم التربوية، التي لم تجمعها سيرة إنسان مشى على وجه الأرض.

ثامنًا : ثقافة التكوين، إعداد الفرد المسلم، البيت المسلم ، المجتمع المسلم

السيرة منهج حياة، تصور لك النظام الشامل للإسلام، فمنها يتعرف المسلم على منهج التكوين الإسلامي، فيعرف كيف أعدَّ النبيُ -ﷺ- الفردَ المسلم، والبيتَ المسلم، والمجتمعَ المسلم، وكيف كانت بدايةُ الدعوةِ على حُر وعبد (**أبي بكر وبلال**)، ثم الأُسرة الإيمانية (**في دار الأرقم**)، والبيت المسلم (**كبيت أبي بكر**)، ثم المجتمع الإسلامي الجديد في المدينة المنورة، ثم الدولة الإسلامية التي هي نتيجة طبيعية للمجتمع المسلم، وكيف أقام هذه الدولة، وبنى مسجدها، ووحد صفها، وحرر سوقها، وجيش جيشها، وأمنَّ حدودها، وكتبَ دستورها، وعقد المواثيق مع جيرانها، وحارب أعدائها، ثم صالح وعقد هدنة، ثم راسل ملوك الدنيا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم مات وخيله تتجهز لغزو الرومان.

تاسعًا: الثقافة العسكرية، ومعرفة عوامل النصر وأسباب الهزيمة

فقد اشتملت السيرة على العديد من التجارب الحربية، والمفارقات العسكرية، والمشاهد القتالية، وأبانت لنا كيف انتصر المسلمون في بدر، وكيف انهزموا في أُحد، وكيف انكشف الحصار في الخندق، وأبانت جُبن اليهود، وخيانة اليهود، وعداوة اليهود، وأظهرت عناد الوثنيين، وتكبر الفرس، وإسراف الروم، وحمق كسرى، ودهاء

هرقل، وعدل النجاشي، وكذب مسيلمة، وهكذا، يتثقف المسلم في المجال الحربي، متعلمًا من هذه المشاهد أسباب الهزيمة، وعوامل النصر، ووسائل التحفيز، وطرق الردع، وخطط الحرب، وآلات الضرب، ومشاهد السرية والكتمان، ودراسة مشاهد الحصار، والحرب الاستباقية، والحرب الدفاعية، والحرب المعنوية، والسَرايا الاستخبراتية، وغيرها من الدروب الحربية.

عاشرًا : مدخل للعلوم الشرعية

ومن فوائدها، أنها تهيء طلاب العلم، وتجعل لهم سُلمًا للعلوم الشرعية الأخرى، بل نقول : إن السيرة هي أم العلوم الشرعية؛ ففيها الشرح التطبيقي للعقيدة الإسلامية، وفيها مظان الأحكام الشرعية ، وأصول الأخلاق النبوية، وهي صدر التاريخ الإسلامي، ومقدمة مهمة لدراسة علم الحديث، ودرسٌ أساسي لدراسة السياسية الشرعية وأصول الحُكم في الإسلام، ولا غنى لطلاب علوم الاقتصاد الإسلامي من دراسة السيرة لاسيما ما حدث من استقلال الدولة الإسلامية في المدينة عن الاقتصاد اليهودي.

حادي عشر: مطالعة الأدب الإسلامي

من فوائدها، أنها تحظيك نَهَلَهْ في الأدبين الجاهلي والإسلامي، فالعهد النبوي؛ عصرٌ ذهبيٌ في تاريخ الأدب، تنهل منه من الأدب الجاهلي الذي دار على ألسنة الصحابة وغيرهم، وتنهل منه من أشعار حسّان بن ثابت، وكَعب بن مالك، وعبدَ الله بن رواحة، ولبيد بن ربيعة، وغيرهم. وقد قال سعيد بن المُسيِّب: كان أبو بكر شاعراً، وعُمر شاعراً، وعليٌّ أشعرَ الثلاثة . .

وقد قال النبي -ﷺ - في عمرة القضاء ، عندما أنكر عمر بن الخطاب على عبد الله ابن رواحة قول الشعر في الحرم : " «**خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ فَلَهِىَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ**» [1].

وعن عائشة – رضي الله عنها - أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ - قَالَ « **اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ** ». فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ « **اهْجُهُمْ** ». فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ، قَالَ حَسَّانُ :

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٨٤)، عن أنس، وصححه الألباني .

قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ، ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ ، فَقَالَ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِى فَرْىَ الأَدِيمِ ... قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ لِحَسَّانَ « **إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لاَ يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ». وَقَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ « **هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى** »[1].

والقصائد التي نظمها حسان وغيرها من شعراء العهد النبوي، لن ترتشف من رحيقها إلا في أعجاز المواقف والمشاهد في سيرة النبي - ﷺ -، مثل تلك الأشعار التي قِيلت في يوم بدر، أو يوم أحد، أو التي قيلت في مناسبات اجتماعية أو مدح أو ذم .

ثاني عشر: وجبة ثقافية شهية:

فمن فوائدها، أنها تمنحك وجبة ثقافية دسمة؛ في عادات العرب الأُسرية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعقدية والعسكرية والسياسية . ستعرف فيها كيف كان الزواج في الجاهلية وكيف كان في الإسلام، كيف كانت المرأة في الجاهلية وكيف كانت في الإسلام، وكذا الميراث والحج والقتال وغيرها من الموضوعات التي تعلي من شأن الإسلام في نفسك.

كما أن هذه الوجبة هي مطيتك لفهم ثاقب لطبيعة المجتمع الإسلامي في المدينة بعد ذلك.

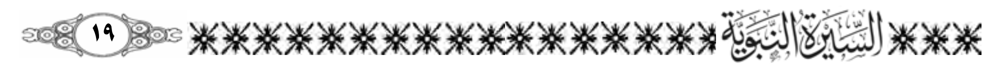
ثالث عشر: استلهام المستقبل:

فالسنن الربانية ثابتة لا تتغير، ولا تتبدل، ولا تتحول، ولا تحابي أحدًا . والسيرة ما هي إلا تأريخٌ لأعظم فترة مرت بها البشرية، فيها أعظم تجربة لبناء أمة هي خير أمة أخرجت للناس، فيه تجربةٌ لبناء دولة، هي أعظم دولة ظهرت على كوكب الأرض، فيها تجربةٌ لإنشاء حضارة؛ هي أعظم حضارة ظهرت على مر العصور.

وهذه الحصيلة الضخمة من الخبرات والتجارب التي حوتها السيرة لا غنى لذي عقل عنها فضلاً عن الحكام والعلماء والفلاسفة والمصلحين، فالسيرة بمثابة الكشاف الذي تَفهم به الحاضر وتستلهم منه المستقبل .

---

(١) مسلم : ٦٥٥٠ .



توصيات عملية

١ـ أخلص قصدك لله، ولا تقرأ إلا بنية .

٢ـ أن تستحضر في قلبك توقير النبي ـ ﷺ ـ وأنت تقرأ عنه، فقد أُمرنا بتوقيره، {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِّ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُّ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } الحجرات٣

٣ـ اجعل لنفسك وردًا من السيرة، فإذا ما انتهيت من كتاب فتحول إلى آخر، وهذا لتكون دومًا دائم الصلة بمصدر القدوة، ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١].

٣ـ لابد أن تتمخض قراءتُك في كل مرة عن واجب عملي أو جانب تطبيقي تمارسه في حياتك العملية .

٤ـ اجعل أحداث السيرة وقصصها مادة أساسية في حديثك مع إخوانك وأهلك، فالمحاورة والماقشة حول موقف من مواقف السيرة؛ وسيلةُ إمتاع، وطريقةُ تربية، وبركةٌ في الفهم.



أتيت والناس فوضى ...!

جاء، والناسُ بين ساجدٍ لوثنٍ، وعابدٍ لبقر، وخاضع لبشر، في جهل مُظلم، وفقرٍ مدقع، وغرم مفظع، ودم موجع، و رِقٍ غائر في العادات، وظُلم بائن للبنات، وفواحش مبثوثة في أرجاء الأرض، ومفاهيم مغلوطة صارت أصولاً راسخة في أذهان الناس،...،...، فلما كان كل ذلك؛ جاء الهدى، محمدٌ ﷺ !

***

السؤال :

يا قارئي الكريم، ماذا قال قسٌ كبير جمعَ علوم الأديان بين جنبيه يصْفُ حالَ أهل الأرض عشية البعثة المحمدية ؟

الجواب :

✍ قال : الشيخ إبراهيم خليل أحمد (**القس إبراهيم فيلوبوس سابقًا**)، في كتابه: محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ، ص :٤٧

"بينما كان العالم الشرقي والعالم الغربي بفلسفاتها العقيمة يعيش في دياجير ظلام الفكر، وفساد العبادة، بزغ من مكة المكرمة في شخص محمد رسول الله نورٌ وضّاء؛ أضاء على العالم فهداه إلى الإسلام".

التعليق :

هكذا لخّص هذا الرجل ما دارت حوله الكتب والدراسات من إثبات حقيقة خروج النبي –ﷺ– إلى العالمين، في وقت بلغت فيه أمم الأرض **دركة** من الانحطاط لم تصل إليها من قبل، بل هي **دركات**، دركات في نواحٍ شتى، في التخلف العقدي، والضمور الفكري، والتراجع الثقافي، والانحلال الأَخلاقي، والظلم الاجتماعي، والفساد السياسي.

***

العرب :

بُعث النبيُ –ﷺ– والأرضُ تمر بساعة حرجة، فقد كانت البشرية تعاني صنوف الجهل والظلم .

أما العرب؛ - على ما فيهم من صفات الكرم، والفروسية والشجاعة، والذكاء، والقِيَافة، والفصاحة والنظافة - فكانوا يعبدون الأوثان، ويئدون البنات، ويرثون النساء كما يرثُ أحدهم الدابة، ويتكسبون من وراء الدعارة، وأنشأوا بيوتًا مخصصة لذلك، فضلاً عن عادات قبيحة أخرى تفشت فيهم؛ من نعرات عصبية، وحروب على توافه الأمور، وكانت فيهم حروب طوال على مدار عقود، هلكت فيها أجيالٌ.

أهمها :

١ - حرب ابني قيلة : وهم الأوس والخزرج، وهي حرب بعاث، وكانت حتى بعثة الرسول - ﷺ - .

٢- وحرب ابنى وائل : بكر وتغلب (**وهي حرب البسوس**) على مدار أربعين سنة.

٣- وحرب ابنى بغيض : عبس وذبيان، في مجرى داحس وغبراء، كانت بينهم نحواً من أربعين سنة .

وهذه الثلاثة يسمونها الحروب الطوال .

وبين هذه الحروب الكبرى؛ لم يذكروا حرب الفجار، تلك التي كانت في مكة ! وفي الحَرم ! وفي الحُرم ! وذلك لحقراتها من حيث المدة وعدد القتلى مقارنةً بحروب بعاث والبسوس وداحس التي دارت رحاها عقودًا، وقُتل في سبيل هذه الحروب رجالٌ ورجالٌ ورجالٌ؛ ولكن في سبيل ناقة أو دون ذلك !

ومن ثم لك أن تتخيل حالة الهدوء التي عاشتها الجزيرة العربية بعد البعثة المحمدية.

لقد كانت جزيرة العرب تموج بالظلم والتخلف .. إلى أن أرسل الله برحمته محمدًا -ﷺ -

يقول الباحث الفرنسي "هنري ماسيه " في كتابه "الإسلام " :

"بفضل إصلاحات محمد [ﷺ] الدينية والسياسية - وهي إصلاحات موحدة بشكل أساسي- فإن العرب وعوا أنفسهم، وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى، ليعدّوا دخلوهم النهائي إلى تاريخ المدنية" [ص ٥٥] .

الرومـــــان

أما أوربا فقد كانت في ظلام تحت ظلال الكنيسة، فكان الحُكم الكنسي المتعـصب؛ القائم على كراهية الآخر، الثائر على الأديان، القاتل للعلـم والمعرفـة، حيـثُ حُرّمـت القراءةُ والكتابةُ على عامة الناس، فضلاً عن تكبيل هؤلاء العامة بالحَجْر الفكري ضد أي مذهب مسيحي أو غير مسيحي يخـالف مـذهب الكنيـسة، ومـن ثـم تـم تحريّـق المعارضين بالنار، وتغريّق المخالفين في الماء.

وتزايدت المكوسُ و الإتاوات على كاهل الرعية؛ ومن ثم كثرت الثورات، وتنامت الفوضى .

وتفشى الانحلال الأخلاقي، وانتشرت كل ضروب العهر في الفئات الغنية .

مصـــــــر

وفي مصر، التي كانت تابعة لكنسية أوربا، قام (**قـيرس**) – عامـل الكنيـسة – في مصر على مدار عشر سنين؛ يفعل بالمصريين ما يشيبُ له الولدان، فقد أوقـد المحـارق للمخالفين، وسلط النيران على أجساد الأبرياء لإكراههم على اعتناق مذهب الكنيسة الحاكمة، وذكرت كتب التاريخ نماذجَ لوسائل التعذيب التـي مارسـها الرومـان عـلى المصريين، وأطنبوا في ذكرها، حتى شبهوها بمحاكم التفتيش التي كانت في الأندلس .

نعم .. لقد أكُرهت مصر على النصرانية .

يؤكد ذلك التاريخ والمؤرخون على اختلاف مرجعياتهم، وتأمل ما قالـه الباحـث الفرنسي " **جوستاف لوبون** ":

"ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية . ولكنها هبطـت بـذلك إلى حـضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي[1] ، وكان البؤس والشقاء مما كانـت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن. وكان أهل مـصر يقتتلـون ويتلاعنـون بفعـل تلـك الاختلافـات ، وكانـت مـصر التـي أكلتهـا الانقسامات الدينية ، وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقـد عـلى سـادتها الـروم . وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين " [2].

---

(١) الصواب: الفتح الإسلامي .

(٢) حضارة العرب ، ٣٣٦.

وذاقت مصر المُر ألوانًا في حُكم أوربا المسيحية، من جباية وظلم، واضطهاد واستعباد، واستنزاف لثرواتها الطبيعية، لقد كانت مصر ضاحية زراعية تابعة لحُكّام أوربا، يُجبى إليهم منها ثمراتُ كلُ شيء .

ولعل الدراس لواقع الشعب المصري آنذاك، وما كانوا يكابدونه، يدرك لماذا تنفسوا الصعداء يوم نزلت مصرَ خيلُ المسلمين المحررين بقيادة الصحابي الجليل عمرو بن العاص ـ رضوان الله عليه ـ.

***

الفرس

أما الفرس، فلن نعرّج على حضارتهم، فقد أكلتهم عبادة النار، وبالغوا في تقديس الأكاسرة حتى جعلوهم كالآلهة، وبمقدار هذه المبالغة أمعن الأكاسرة في ظلم الرعية، والإسراف الجنوني الذي يذهب بالألباب .

***

الصين

أما الحضارات والبلدان الأخرى، فلا يقل انحطاطها عن هذه التي ذكرناها في السطور الأخيرة، فالصين متهالكة في الوثنية حيث عبادة تمثال الفيلسوف (**جواتما بوذا**) وهو رجل يُحارب النسل وُلد سنة ٥٥٨ ق .م، ومتهالكة أيضًا في الرجعية الاجتماعية حيث العدون الصارخ ضد النساء، ذلك العدون المتولد من الفلسفة البوذية التي تدعو إلى هجر النسل. .

***

الهند

أما الهند، فهي أحط الأمم آنذاك، فقد استفحشت فيها الطبقية بصورة مريعة، وسادت بين أهلها الإباحية الجامحة، وبلغ من هوسهم الجنسي ـ كما حكى العلامة الهندي أبو الحسن الندوي ـ أن " **رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدن الرجال العراة، وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزءون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته، وينال فيها الفاجر بغيته ، وإذا كان هذا**

شأن البيوت التي رُفعت للعبادة والدين؛ فما ظن القارئ ببلاط الملوك وقصور الأغنياء ؟ ! " [١] .

والمضحك المبكي في هذه الحضارة الهندية ـ أيضًا ـ أن عدد الآلهة المعبودة في الهند في هذا القرن وصل إلى ٣٣٠ مليون إله !!!

***

ضخامة المهمة

في هذا الوقت كان العالم في طريقه للانتحار الاجتماعي؛ فقد وصل الفساد في البر والبحر مبلغًا بشعًا، لقد كانت البشرية تتهالك نحو الزوال والدمار، كانت ـ بحق ـ في أحط دركاتها منذ بدء الخليقة .

وهذه الصورة التي عرّجنها عليها سريعًا، تفصح لك عن عِظم الجهد الذي بذله النبيُ – ﷺ – في تغيير هذا الواقع المُر، وعن ضخامة التغيير الذي أحدثه الإسلامُ في العالم، وعن التضحيات التي قدمها المسلمون لبناء حضارة الإسلام وأستاذية الإسلام[٢] .

أستاذية العالم

لقد عرف العربُ لأول مرة الوحدة الحضارية، حيث جعل منهم الإسلامُ أمة، وجعل لهم دولة، وجعل لهم حضارة :

يقول الباحث الألماني "رودي بارت ":

"كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيثون فيها فسادًا. حتى أتى محمد ﷺ ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس"[٣] .

ويقول المؤرخ النصراني "فيليب حتى" :

" إذا نحن نظرنا إلى محمد ﷺ من خلال الأعمال التي حققها، فإن محمدًا الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد؛ يبدو لنا بكل وضوح؛ واحدًا من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ؛ لقد نشر دينًا هو الإسلام، وأسس دولة هي الخلافة،

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ٦٨ .

(٢) طالع كتابنا " **نبي الرحمة** "، فصل : رحمته في مجال التنوير والحضارة، ـ دار الخراز، جدة .

(٣) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ٢٠ .

ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية[١]. **وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر**"[٢] .

وكانت لمقومات الأمة الجديدة، والدولة العادلة، والحضارة الرشيدة؛ الأثر الفاعل الذي مكنَّ للمسلمين من التفوق الحضاري على الآخرين، الذي جعل أممَ الأرض تنظر للمسلمين بإجلال، وصار الناسُ يقتبسون النور من الحضارة الأستاذة، والدين المهيمن.

وامتد نور الأستاذية الإسلامية في ربوع الأرض، بل قامت حضارة أوربا الحديثة من مشكاة الحضارة الإسلامية، حتى قال الفيلسوف الفرنسي" **سان سيمون**" [١٧٦٠ـ ١٨٢٥] في كتابه " **علم الإنسان**":

" **إن الدارس لبنيات الحضارات الإنسانية المختلفة، لا يمكنه أن يتنكر للدور الحضاري الخلاق الذي لعبه العرب والمسلمون في بناء النهضة العلمية لأوربا الحديثة**" [٣]

***

وهكذا، بالإسلام – وهو الحل الوحيد لمعضلات البشرية - ؛ وبه تحول **الإنسان**؛ من الجاهلية إلى الإسلام.

وبالإسلام انتقلت **الأسرة** والطفل والمرأة العربية من حمئة الظلم الاجتماعي إلى ظل العدل الإسلامي..

وبه انتقل **المجتمع** من الظلام إلى النور..

وتحول **العرب** من التخلف إلى التحضر .

وصارت لهم قيادة موحَّدة، وحكومة محكمة، ودولة ظاهرة.

واستخلفهم الله، وجعلهم خلفاء الأرض، يحكمون بين الناس بالعدل، فسادوا، وقادوا.

***

---

(١) الصواب : الأُمة الإسلامية ـ قلتُ : وهذا من طريقة وضع السم في العسل .

(٢) الإسلام منهج حياة ، ص٥٦ .

(٣) نقلاً عن رشدي فكار: نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع خلال القرن الرابع عشر الهجري ، ص ٣١ .

لكـــــن :

فينا معاشِرُ لم يَبْنُوا لقومهمُ ... وإن بني قومُهم ما أَفْسدوا عادوا

***



اعقـد مقارنـة بـين حـضارات الـصين والهنـد والفـرس والرومان والإسلام في " **مجالات المـرأة والعلـم والأخـلاق** " وذلك في أبان العصر الإسلامي.





القسم الثاني

قبــل البعثــة

عراقة الأصل وشرف المحتد

اسمه الثلاثي : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي ...

تاريخ الميلاد : الاثنين ٢٠ أبريل ٥٧١م في عام مشهور عند العرب هو عام الفيل، في ١٢ ربيع الأول .

عائلته : بنو هاشم من أعرق عائلات الجزيرة العربية، ولهم دور كبير في خدمة حجاج بيت الله الحرام في مكة المكرمة ..

نسبه : يمتد نسب محمد –ﷺ – إلى عدنان وإبراهيم عليه السلام – باتفاق المؤرخين.

أمه : آمنة بنت وهب بن عبد مناف، ذكية، من أسرة عريقة، وقد كانت أفضل بنات عائلتها نسبًا وجمالاً .

أبوه : عبد الله، كان أحب أبناء عبد المطلب – زعيم مكة – على الإطلاق، كثيرًا ما قربه وضحى من أجله !

نشاطه الاجتماعي قبل البعثة : عضو مؤسس في حلف الفضول، ذلك الحلف الذي ما أُسس إلا لنصرة المظلومين وإغاثة المنكوبين .

مهنته : في صباه اشتغل برعي الغنم – كما كان موسى عليه السلام – وفي شبابه اشتغل بالتجارة، حيث عمل مديرًا لأعمال خديجة بنت خويلد، وهي سيدة أعمال عربية شريفة حسيبة.

هواياته : كان يعشق التفكر، وقد جعله بعد ذلك عبادة، حيث كان يصعد إلى غار حراء يتأمل ويفكر في الكون والحياة والإنسان، وقد جعل من ذلك وردًا سنويًا، حيث يصعد إلى الغار في شهر رمضان ، فيمكث يتحنث جل الشهر أو بعضه ، تمامًا كما كان يفعل سقراط، بيد أن الأخير كان يفرد يومًا بكامله للتفكر، سواءً كان هذا اليوم كل أسبوع أو كل شهر ..

المستوى التعليمي : لا يقرأ ولا يكتب .

أسماؤه : عُرف محمدٌ –ﷺ – بعشرات الأسماء، أهمها – بعد محمد - " **أحمد** " – ذلك الاسم الذي ذُكر في الإنجيل – ولقد قال النبي –ﷺ – في أحد الأحاديث : " **لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي (أي يُحشر الناس إثر بعثه)، وأنا العاقب**" والعاقب الذي ليس بعده نبي [١] .

الأخلاق والسلوك : قال الله تعالى فيه : {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } القلم ٤

الطول : كان رجلاً مربوعاً؛ ليس بالطويل البائن، ولا القصير.

الصورة : مليحًا وسيمًا، أبيض الوجه، أكحل العينين، أقرن الحاجبين، أمسح الصدغين، أسيل الخدين، مستقيم الأنف، بسام، ضحاك، لين الكف، عريض المنكبين، شديد سواد الشعر، أمسح الصدر والبطن، طيب الرائحة في حر القيظ، في صوته بحة جميلة، قال جابر بن سمرة في وصف النبي: كان " **أحسن من القمر**"[٢]، وقال خادمة أنس : " **لَمْ أَرَ بَعْدَهُ وَلَا قَبْلَهُ مِثْلَهُ** "[٣].

أعمال حربية : شارك النبي ـﷺ ـ في الدفاع عن مكة (**وهو ابن أربع عشرة سنة**)، وقد أرادت " **هوازن** " استباحة مكة، وكانت مشاركته مقصورة على جمع السهام لأعمامه .

أهم إنجازته الاجتماعية قبل البعثة :

ـ عضو مؤسس في حلف الفضول لنصرة المظلوم (**كان في سن العشرين تقريبًا يوم شارك فيه**) .

ـ نجح في إخماد حرب ضروس، كانت ممكن أن تحدث بين قبائل قريش، بسبب التصارع على شرف وضع الحجر الأسود في مكانه في حادث إعادة بناء الكعبة .

(**وكان في سن الخامسة والثلاثين يومها**)، وقد اختاره الناسُ ليكون حكمًا بينهم فيمن له الأحقية في وضع الحجر الأسود، بعدما دقوا في ذلك عِطْرَ مَنْشِمِ[٤] ، فأشار عليهم ـ في حكمة منقطعة النظير ـ أن يبسطوا له ردا ويضعوا الحجر عليه، ثم يحمله زعيم كل قبيلة من طرف، ويتولى بنفسه إعادة الحجر إلى الكعبة، فطابت النفوس بذلك ورضيت.

---

(١) البخاري :(٤٥١٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل : ٧، وصححه الألباني . (٣) البخاري – (٥٤٥٦) .

(٤) مَنْشِمُ امرأَةٌ من حِمْيَر وكانت تبيع الطيب فكانوا إذا تطيبوا بطيبِها اشتدَّت حربُهم فصارت مثلاً في الشرّ، [لسان العرب (١٢ / ٥٧٦)] .

شاب في ظلال الله

نشأ رسول الله – ﷺ – في كنف الله وحفظه؛ فلم يسجد لوثن، ولم يخضع لصنم، ولم يكذب ولم يخن، ولم يُرَ قط في موقف مريب، ولم يُؤثر عنه قول معيب. وسُمي في شبابه الصادق الأمين .

كان مَثَلٌ ونعم المثل للشاب الطاهر الحيي، العفيف..

حسيب نسيب

أما نسبه فأكرم قريش نسبًا، وأشرف العرب جِدًا، وأعظم الناس قدرًا، وهو القائل :

" **إِنَّ اللهَّ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ ،وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**" [مسلم: ٤٢٢١، عن واثلة بن الأسقع] .

عليه الصلاة والسلام ! صفوة من صفوة، وكريم من كريم، وشريف من شريف، كأنما اختار نسبه اختيارًا !

يتيم عظيم

وُلد يتيمًا، وحضر منية أمه، رآها وهي تجود بنفسها في غربتها، وشارك في دفنها، وهو لا يزال في ربيعه السادس، وهكذا في سفرة واحدة؛ زار قبر أبيه ودفن أمه، وتجرع كأس اليتم، وعاش عيش البؤس، من فقر وفاقة، وكدح وحاجة، وهي نشأة كفيلة أن تقهر أي إنسان طبيعي، وأن تدمره تدميرًا، بيد أن عناية الله لا تغيب، فقد تكفله الله بالرعاية والتأديب، فأدبه فأحسن تأديبه .

عفيف منيف

لم يلتاث بلوثة الفحش، ولم يلتج في حمئة المجون؛ نشأ طاهرًا عفيفًا، نقيًا منيفًا، بيد أن الشبان في سنه تراودهم الشهاوات الجنسية، وتحتوشهم النزعات الفطرية، ولكن حفظ الله نبيه، فلم يثبت عنه أن عاقرًا خمرًا، أو هتك عرضًا، أو أكل حقًا .

لم تُكشف له عورة

كان العري منتشرًا في الجاهلية بين الرجال والنساء على حد سواء خاصة حول الكعبة، وكثيرًا ما تحدثت كتب التاريخ عن طواف فلان وفلان وفلان عرايا حول الكعبة، ورأي الكثير والكثير من وجهاء العرب قد تجردوا من ثيابهم في الحج.

أما رسول الله –ﷺ– فلم تُكشف له عورة !

ولم يُؤثر عنه أن طاف عريانًا .

ولم تذكر كتب التاريخ أن رسول الله –ﷺ– ارتكب سلوكًا مشينًا، ولا سيما في هذا الباب .

ومما يدل على حفظ الله له من هذه الأعمال الجاهلية ما رواه جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللهِّ – حيث قال :

لَمَّا بُنِيَتْ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ –ﷺ– وَعَبَّاسٌ يَنْقُلانِ الْحِجَارَةَ ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ –ﷺ–: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ مِنْ الْحِجَارَةِ [**فلما هم أن يفعل**] خَرَّ إِلَى الْأَرْضِ ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ ! ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: " **إِزَارِي ! إِزَارِي ! فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَه**" [١] .

***



ـ احفظ طرفًا من الأحاديث النبوية الشريفة في الحض على العفة والحياء وغض البصر، طالع ـ على سبيل المثال ـ باب الحياء وما بعده من كتاب الأدب بصحيح البخاري.

ـ تجنب أماكن المجون، ومجالس اللهو، ورفاق السخف، وفتيان الخلاعة، وقل في نفسك دومًا : أنا صاحب رسالة والعمر قصير !

ـ اكتب خاطرة إيمانية حول حديث : "**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ** .."



(١) البخاري: ٣٥٤٢ .

حلف المطيبين وحلف الفضول

أسس قريشيون - قبل البعثة -،حلفين أو هيئتين إصلاحيتين، بهدف نصر المظلومين وردع الظالمين .

الحلف الأول :

هو حلف المُطَيّبِينَ، وسبب تأسيس هذا الحلف أن فريقًا من قريش أجمعو على أن يأخذوا من بني عبد الدار الحجابة – أي شرف خدمة الكعبة –، واللواء – أي شرف حمل اللواء في الحروب –، والسقاية – أي شرف سقي الماء للحجيج، فهذه المكرمات الثلاثة لم تجتمع في أي عائلة من عائلات العرب سوي بني عبد الدار، فحقد عليهم الحاقدون، ومشوا في نزع هذا الشرف وتقسيمه، فتفرقت عند ذلك قريش ، واختلفت الآراء، فاستنصر بنو عبد الدار أصحاب النخوة والرجولة، فاجتمع أنصار بني عبد الدار، فأخرج بنو عبد مناف قصعة مملوءة طيبًا .ثم غمس الحضور أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا، على نصرة بني عبد الدار والمظلومين من بعدهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين (١).

ثم اصطلحوا واتفقوا على أن تكون الرفادة والسقاية لبنى عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بنى عبد الدار، فانبرم الأمر على ذلك واستمر (٢).

ولم يشهد رسول الله – ﷺ – هذا الحلف ..

الحلف الثاني

حلف الفضول، وهم جماعة من المطيبين، وقد شارك فيه رسول الله – ﷺ – وهو في سن العشرين، وكان من أمر هذه الهيئة الإصلاحية؛ أن تداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان، لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول [**انظر : ابن هشام : ١/ ١٣٥،١٣٤**].

---

(١) انظر : ابن هشام ١/ ١٣٠-١٣٢ .

(٢) ابن كثير (**السيرة**) ١/ ١٠١ .

قال ابن كثير:

وكان حلف الفضول أكرم حلف سُمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب.

وكان سببه أن رجلاً غريبًا قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الغريبُ أهل الفضل في مكة ، فخذله فريق، ونصره الآخر، ثم كان من أمرهم ما ذكرناه، وقد وتحالفوا في ذى القعدة في شهر حرام، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة، وعلى التأسى في المعاش.

ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه مال الغريب، فدفعوها إليه.

التأصيل الشرعي لمثل هذه الأحلاف والجماعات التي تنصر المظلوم:

قال رسول الله -ﷺ- في حلف الفضول:

" شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ [1] مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ " [2].

وهذا هو الموقف الإسلامي من أي جماعة غير إسلامية تتخصص في أعمال الخير أو نصرة المظلومين أو إغاثة المنكوبين ..

موقف واضح، بيِّن، وهو تشجيعها والمشاركة في أعمالها الإصلاحية ..

فإذا عمد نفر من النصارى – مثلاً– إلى ممارسة عمل خيري بحت، غير مبطن بتنصير، أو معاداة للإسلام أو محاداة لنبيه -ﷺ-، فلا بأس من المشاركة فيه .. من قبيل التعاون على البر والتقوى .

أما تلك الجماعات التي تتخذ من العمل الخيري غلافًا لإفساد الإخلاق أو الحرب على الإسلام – كتلك الجماعات الماسونية كالروتاري والليونز – فمحاربتها أوجب من السكوت عنها .

---

(١) يقصد حلف الفضول فهم في الأصل من جماعة المطيبين .

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٧) ، وهو في السلسلة الصحيحة .

وإذا كان شأن رسول الله –ﷺ– مع جماعات المشركين، ، المتخصصة في نصر المظلوم وزَبر الظالم ، هو المؤازرة والمشاركة، فما بالك بشأن المسلم من جماعات الإصلاح المسلمة، والهيئات الإسلامية المتنوعة، والمتخصصة في شتى مناحي العمل الإنساني الخيري، كالتكافل، ورعاية الضعاف، وإغاثة الملهوفين، وكفالة الأيتام، والدفاع عن حقوق الإنسان، والدفاع عن حقوق الأسرى والسجناء، ومنافحة الظلم والفساد ...؟

لا شك أن نصرة هذه الجماعات أوجب، ودعمها أولى، والمشاركة فيها أجدى.

ولقد حث الله ـ عز وجل ـ المسلمين على إنشاء جماعات دعوية لإرشاد الناس وتعليمهم الخير، فقال– تعالى – :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٤]

قال ابن كثير:

" ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ **أي: منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** "(١) .

ثم قال:

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرْقَة من الأمَّة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: **"مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَستَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ"**. وفي رواية: **"وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ"**(٢) .

وقال الطبري - في تفسير هذه الآية -:

"ولتكن منكم– أيها المؤمنون – "أمة"، يقول: جماعة – "يدعون" الناس "إلى الخير"، يعني إلى الإسلام وشرائعه "(٣) .

(١) ابن كثير (التفسير) : ٢/ ٩١ .
(٢) ابن كثير (التفسير) : ٢/ ٩١، والاستشهاد بالحديث من قبل ابن كثير.
(٣) تفسير الطبري ٧ / ٩٠ .

ويقول سيد قطب في ظلال هذه الآية :

لا بد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ...

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته . فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية . هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير ....

"وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين . . على الإيمان بالله : ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله - سبحانه - وتَمَثُّلِ صفاته في الضمائر؛ وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال . وعلى الحب . الحب الفياض الرائق والود . الود العذب الجميل ، والتكافل . التكافل الجاد العميق . . وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان . ." [1].

الفرق بين جماعة السلطان وجماعة غير السلطان :

يلزم على الحكومة الإسلامية إنشاء هيئة أو جماعة - داخل الدولة - للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه الجماعة الحكومية الموكلة من ولي أمر المسلمين يجوز لها وحدها استخدام " **القوة** " في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقرار المعروف وإنكار المنكر..

إما سواها من الجماعات الإسلامية أو الهيئات الشعبية داخل المجتمع الإسلامي فلا يجوز لها استخدام " **القوة** " لإقامة العدل بين المسلمين ، بل النصح والدعوة باللسان .

فالسلطان له وحده صفة استخدام الضرب في ممارسة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن **"لم يمتثل [المأمور] هدده بالضرب ، فإن لم يمتثل ضربه بالفعل، فإن لم يمتثل أشهر له السلاح إن وجب قتله ، ولا ينتقل عن مرتبة إلا عند عدم إفادة ما قبلها ، وأما غير نحو السلطان فإنما يأمر وينهى بالقول الأرفق فالأرفق وإليه الإشارة بقوله : (فإن لم يقدر) المكلف على الأمر أو النهي بيده لكونه غير سلطان "** [2].

---

(١) الظلال، سورة آل عمران، تفسير الآية : ١٠٤ .

(٢) الفواكه الدواني ٨/ ١٦٢ .

ومثال لاستخدام القوة من قبل جماعة السلطان، قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحُجُرات:٩] .

أما حُكم كل من الجماعتين، فنرى أن جماعة السلطان، واجبة ولازمة، فيجب على الحكومة إقامة جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فقد خول الإسلامُ " **القوة** " إلى السلطان لإقامة العدل .

أما جماعة غير السلطان، فهي فرض كفاية، إذا قامت بها فئة من أبناء الشعب سقطت عن فرضيتها عن الآخرين . ولكن يُندب وجود عدة جماعات أهلية دعوية داخل المجتمع . للمشاركة والمنافسة في الخير، مع الحب في الله، والتعاون على البر والتقوى، دون الإغراق في الجزئيات، أو التعصب للأشخاص والأسماء، أو الطعن والتجريح المتبادل، أو سوء الظن وتصيد الأخطاء، أو التعاون مع الظالمين المتحكمين ضد أبناء الدعوة .



١- لا تدع مظلومًا إلا وشاركتَ في نصرته قدر استطاعتك.

٢- أن تشرع في تشكيل " **لجنة خيرية** " في الحي أو الشارع الذي تسكن فيه؛ لنصرة المظلوم، ومواساة المحروم، وتطبيب المكلوم .

٣- الانضمام إلى جمعية إسلامية خيرية والمشاركة في أنشطتها الخيرية والدعوية.





القسم الثالث

الدعوة سراً

نزول الوحي

عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قالت :

" أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – مِن الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ .. ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ؛ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ ! قَالَ : "مَا أَنَا بِقَارِئٍ "، قَالَ: " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ ! قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ! فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأْ ! فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق:١]..." (١) ..

✍ **هكذا كانت البداية : " تفكر ".**

✍ **وهكذا كان العمل الأول : " التحنث وهو التعبد".**

✍ **وهكذا كانت الكلمة الأولى : " اقرأ " ..**

وفي " **مطبخ** " التفكر والتعبد والقراءة، يصنع الله المصلحين على عين، ويعدهم لمهمة الدعوة والإرشاد، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فيأدبهم في صوامع العبادة بأدبه، ويزكيهم في خلوة التفكر، ويعلمهم في حِلق القراءة ..

فما أحوج المسلم إلى ثلاث ساعات في يومه وليلته، ساعة يتفكر مختليًا بربه، وساعة يتعبد فيها بقيام، وساعة يتثقف فيها بكتاب ..

ففي التفكر تصفية للذهن، وفي العبادة تربية للنفس، وفي القراءة تثقيف للعقل. وكلها من معينات الإنسان على حياته، ومن موقيات المسلم على دينه، ومن محفزات الداعي في دعوته .

(١) رواه البخاري : ٣ .

وفي كل مرة، يذهبُ فيها رسول الله –ﷺ– إلى غار حراء، ليتزود بهذا الزاد، كان عليه أن يصعد جبلاً شاهقًا، ويسلك طريقًا وعرًا، ليلاً، مشيًا، وحيدًا، في حمَّارة القيظ، وفي صبارة البَرْد ..

من أجل ماذا ؟

من أجل أن يتفكر . من أجل أن يتحنث . من أجل أن يتعلم .

فهذه الثلاثة لم تُنل إلا بشق الأنفس، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[العنكبوت:٦٩].

أما التفكر :

✍ **فيقول الله تعالى فيه :**

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩٠] .

✍ **قال النبي - ﷺ - : " ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها !! "** (١) .

✍ **وفي الأثر : " لا عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ "**

✍ **وقيل : " فكرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة ستين سنة ".**

والتفكّر نور، والغَفلة ظُلْمة، والتأمل باب من أبواب السعادة، وهو مفتاح العلم، ومن ثم فهو مفتاح العمل.

والتفكر صحة للعقل، والغفلة مفسدة للفهم؛ فإن الإنسان المتفكر المتأمل أصفى الناس ذهنًا، وأرحب الناس علمًا .

وأما التعبد :

✍ **فيقول الله تعالى فيه :**

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ [الفرقان:٦٤] .

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦] .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٢)، وغيره ، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨) .

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات:١٧]

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ [المزَّمل:١-٧]

✍ **ويقول النبي** -ﷺ -:

" نعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ " (١) .

وتقول عائشة في صفة تعبده –ﷺ – :

"كَانَ يُصَلِّي إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً كَانَتْ تِلْكَ صَلَاتَهُ، يَسْجُدُ السَّجْدَةَ مِنْ ذَلِكَ قَدْرَ مَا يَقْرَأُ أَحَدُكُمْ خَمْسِينَ آيَةً قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ وَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ثُمَّ يَضْطَجِعُ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُنَادِي لِلصَّلَاةِ " (٢) .

✍ **وقال رسول الله - ﷺ - ناصحًا - :**

"عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم " (٣) .

✍ **وقال جعفر الخلدي:** رأيت الحسن في المنام .

✍ **فقلت:** ما فعل الله بك؟

✍ **قال:** طاحت تلك العبارات، وطارت تلك الإشارات، وفنيت تلك العلوم، ودرست الرسوم، فما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر.

✍ **وقال يوسف بن أسباط:** إذا أخلص الرجل التعبد لله أربعين صباحاً أجرى الله على لسانه ينابيع الحكمة .

✍ **وقال أبو ذر** -رضي الله عنه -: صلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور وصوموا في شدة الحر لحر النشور.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري (١٠٥٥) .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩)، والحاكم (١١٥٦) وحسنه الألباني في الإرواء ٤٥٢ .

فالتعبد، وبالأحرى قيام الليل، صحة للبدن، وقوة للروح، ووَجاء للنفس، وجُنّة للقلب، وزاد للدعاة، وملاذ للعصاة، وروضة يرتع فيها المؤمنون، فيها رَوح للمكروبين، وشفاء للمكلومين، وجلاء للمهمومين، وعطاء للمحرومين . إن قيام الليل جنة الله في الأرض !

وأما التعلم :

✍ **فيقول الله تعالى فيه:**

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزُّمَر:٩].

✍ **ويقول النبي -ﷺ- فيه :**

"طلب العلم فريضة على كل مسلم"(١) .

" .. و إن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر" (٢) .

"مَا من خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ إِلاَّ وَضَعَتْ لَهُ الْمَلاَئِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ " (٣) .



وعن صفوان بن عسال المرادي – رضي الله عنه – قال :

أتيت النبي –ﷺ – وهو في المسجد متكىء على برد له أحمر فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم .

فقال: **" مرحبًا بطالب العلم .. إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب"**(٤) .

✍ **وعن أبي أمامة قال:** ذُكر لرسول الله– ﷺ – رجلان : أحدهما عابد والآخر عالم.. فقال – عليه أفضل الصلاة والسلام – : **" فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم "**.. ثم قال – رسول الله ﷺ –:

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، والبيهقي في الشعب (٢ / ٢٥٣)، وصححه الألباني .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٩)، وغيره، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٣١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٨ / ٥٤/ ٧٣٦٣)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٩٧) .

"إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير"(١) .

وكان أبو حنيفة – رحمه الله – إذا أخذته لذة المسائل (**في طلب العلم**) يقول: أين الملوك من لذة ما نحن فيه؟ لو فطنوا لقاتلونا عليها.

✍ **وقيل:** من خلا بالعلم لم توحشه الخلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفته السلوة.

✍ **وقيل لابن المبارك:** من تجالس؟ فقال: أصحاب النبي –ﷺ–، إني أنظر في كتب آثارهم وأخبارهم.

✍ **ولذلك قال الصولي:**

إن الكتابة والآداب قد جمعت ... بيني وبينك يا زين الورى نسبًا

✍ **وقال المتنبي :**

أعزُّ مكانٍ في الدُنى سرْجُ سابحٍ ... وخيرُ جليسٍ في الزّمانِ كتابُ

✍ **وقال سقراط :**

من لم يصبر على تعلم العلم وتعبه، صبر على شقاء الجهل.

والحمد لله الذي جعل ـ في الإسلام ـ تعلم العلم حسنة من الحسنات، وطلبه عبادة من العبادات، وبذله قربة من القربات، وجعل العلم نبراسًا لبناء الأمم والحضارات، ومنارة لتقدم الصناعات والمشروعات، وجعل العلم أفضل أنيس في الوحشة، وأحسن رفيق في الغربة، ووسيلة لاستنزال البركة، ودفع الكربة، وجلب الأحبة، وإفادة الصحبة، والعلم في الإسلام دين، ومن لا علم له لا دين له !



أوصيك بهذه الثلاثية :

✍ **الأولى : رحلة قمرية دورية :** تمارس فيها عبادة التفكر . التفكر في خلق الكون والنفس، التفكر في أحوال التاريخ وسننه، والموت وعظمته، والقبر وظلمته، واليوم الآخر وشدته.

✍ **والثانية : صلاة بليل:** عليك بقيام الليل والتزود من النوافل، عليك أن تنقذ نفسك بكثرة السجود.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٣)، وابن ماجه (٢٢٣) وحسنه الألباني .

✍ **والثالثة: كتاب تقرأه :** اقرأ في القرآن وعلومه، اقرأ في الزهد والرقائق، اقـرأ في السير والمغازي، في التاريخ والتراجم، في الحديث والعقائد، في الفقه وأصـوله، في الأدب واللغة، في علم النفس والصحة، في السياسة والاقتصاد، في التخطيط والتنمية .... كون مكتبتك، ورتب قرائتك، واستعن بشيخ يعلمك ويوجهك، فلا تترك نفسك للكتب دون مرشد، فالكتب تصنع الحفّاظ، ولا تصنع الفقهاء .

فإذا فقهت هذه الثلاثية المحمدية، فلتجعل شعارك دومًا في ليلك ويومك:

✍ هل تفكرتُ ؟

✍ هل تعبدتُ ؟

✍ هل تعلمتُ ؟

وإليك هذا البرنامج الثقافي المقترح كمقدمة لطلب العلم

تقوم كل يوم بمطالعة فرع من فروع العلم الشرعي مع إثبات مادة القرآن الكـريم حفظًا ومراجعةً كمادة يومية ثابتة ..مع المحافظة على حُسن الخلق، والعمـل الخـيري، والأوراد، والأذكار، والقيام، والصيام، والتفكر .

اليوم	الفرع	الكتب المقترحة (ابدأ بالأسهل)
السبت	السيرة	سيرة ابن هشام، والرحيق المختوم، وهذا الكتاب
الأحد	التفسير	تفسير ابن كثير (**المأثور**) ،القرطبي (**الرأي**)، الظلال (**الأدبي**)
الإثنين	العقيدة	العقائد الإسلامية للسيد سابق، الإيمان لنعيم ياسين، الواسطية، الطحاوية
الثلاثاء	الحديث	الأربعون النووية، رياض الصالحين، جامع العلوم والحِكم، البخاري، مسلم
الأربعاء	الفقه	فقه السنة للسيد سابق، بلوغ المرام، المُحلى، المُغني، فتاوى ابن تيمية
الخميس	تربية	كتب عبد الله ناصح علوني، إحياء علوم الدين، كُتب ابن القيم
الجمعة	عام	قراءة حرة في الثقافة العامة، لغة، أدب،سياسية، اقتصاد، تنمية بشرية ..الخ

لا يخزيك الله أبدًا

"كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" (١).

بهذه الكلمات العظيمة تثَّبت أم المؤمنين خديجة قلب رسول الله ـ ﷺ ـ لما حدثها بشأن المَلك الذي نزل عليه بغار حراء، حيث قال لها معبرًا عن خشيته: **"لقد خشيتُ على نفسي"**.

وكان دور المرأة والزوجة الصالحة هو تخفيف حدة الضنك التي لحقت بنبي الرحمة ﷺ جراء هذه المقابلة الشديدة الصعبة مع **"جبريل"**، وتؤكد له عناية الله به، مدللة على خصال كريمة يتصف بها المصطفى، وسلوكيات طيبة يمارسها في مجتمعه.

فهي توضح له بكل صراحة أن الله لن يخزيه لعلة واحدة، هي أنه مواظب على جملة من العبادات الاجتماعية.. فلن يخزي الله من وصل الرحم، وصدق الحديث، وحمل الكَل، وأكرم الضيف، وأعان على نوائب الدهر!

إنها تتحدث إلى زوجها كطبيبة نفوس، وكفيلسوفة فكر، وكعالمة في سنن الله ونواميسه في الخليقة..إنها بكلماتها تلك تسبق ما قاله رسول الله ـ ﷺ ـ: **"صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والآفات والهلكات..."** (٢) [صحيح، الحاكم، عن أنس].

هذا القلب الكبير الذي يحمل كُل هذا الخير للناس لا يخزيه الله، لن يصل الحُزن إلى قلبه، ولن يصل الخوف من الناس إلى وجدانه، بل ستنعم حياته، وينعم قلبه، ويزهو ويفرح، وينجلي غبار الضنك عن رأسه.

"كلا"..

لن يحزن قلبك، ما دام يحمل الخير للناس..

---

(١) انظر : صحيح البخاري (٣).

(٢) أخرجه الحاكم (١ / ٢١٣)، برقم (٤٢٩)، وصححه الألباني، انظر حديث رقم : ٣٧٩٥ في صحيح الجامع.

" أبشر "..

سيندمل الجرح، ويزول الوجع، وستمضي في طريق الحياة بهذا القلب الخيّر، يفيض منه النور إلى البشر، وتسرج به قلوبًا غلفًا، وعيونًا عميا، وآذانًا صما.

"فواللّه لا يخزيك اللّه أبدا"..

لست أنت بالوجه الذي يرده الله، ولست ولست أنت بالعبد الذي يتخلى عنه ربه، فأنت عبد أكرمت عباده، أشبعت جوعتهم، وأذهبت ظمأتهم، وكسوت عورتهم، ومسحت على رأس اليتيم، فكنت الأب.

✍ وعفوت عمن أساء إليك فكنت الأم:

وإذا رحمت فأنت أمٌّ أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء

لا يخزيك.. ولم ولن يخزيك الله أبدًا.. فأنعم بحياتك!

"إنك لتصل الرحم"

فمن قطعك وصلته، تغني القريب الفقير، وتقوّي القريب الضعيف، أنت سند أهلك، ووتد أقاربك، لم يسمعوا منك إلا كل خير، ولم يروا منك إلا كل صلاح.. أنت لكبيرهم ابن، ولصغيرهم أب، ولصاحبهم أخ.

"تصدق الحديث"

لا تكذب أبدًا، لا تغش أبدًا، لا تزور شهادة، ولا تدلس مقالة، لم يُعهد عليك كذبة واحدة في حياتك، ولم تتلطخ لحظة واحدة في براثن الكذب.

"تحمل الكَل"

وهو العاجز، لا تُعينه فحسْب، بل تحمله! ولا تحمله فحسْب، بل تحمله وحاجته! لا ينزل عنك إلا وقد قضيت مسألته، ورحمت ذلته، وأسعدت قلبه.

"تقري الضيف"

ما أكرم الناس إذا نزلوا بدارك! وما أعظمهم إذا حلوا بحضرتك! أوقدت القدور، وجهزت النمارق، وقضيت الحاجات، فإن بات الضيف بدارك بات آمنًا عزيزًا، وإن انصرف؛ فمُكرم مسرور.

"تعين على نوائب الدهر"

فمصائب الأيام كثيرة، وجراح الواقع كبيرة، فيأتيك طالب العون فتعينه على نائبته، ويأتيك المكروب فتعينه على كربته.. أنت الظَهر للبائسين، فأنت لجراحهم طبيب، وأنت ليتمهم أب.

والصدّيق كذلك!

و"**أبو بكر**" تلميذه العظيم! يسير على شرعته، ويمارس صنعته، ويُبتلى، فيخرج مهاجرًا نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ (**برك الغماد**) لقيه "ابن الدغنة" وهو سيد (**القارة**) فقال: "**أين تريد يا أبا بكر؟**" فقال أبو بكر: "**أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي**".

✍ **فقال ابن الدغنة:** "فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج، ولا يُخرج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فأرجع فاعبد ربك ببلدك..

فأصحاب هذه الصنائع الخيرية، ما كان الله ليخزيهم، وما كان ليكلهم إلى بعيد كافر، أو إلى قريب ظالم، هم أحق بالتمكين، وأولى بسعادة الدنيا والآخرة، وكان حقًّا على الله أن يسخر لهم أمثال "**ابن الدغنة**".. ينصرهم ويؤازرهم، حتى ينعم صناع الخير في ظلال الله.

فاصنع خيرًا.. يسعد قلبك، ولا يخزيك الله.



١ـ زرْ قريبًا . وقل حقًّا . واحمل مسنًا . وأكرم ضيفًا . وفرج عن مسلم كربةً من كرب الدنيا.

٢ـ أَنشىء مجلة حائط تتحدث عن "**صنائع المعروف**"، وعلِقها بمسجد أو بمدرسة أو بمكان عمل.



يألف ويؤلف

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يألف ويؤلف، فما أن تقع عينك عليه حتى تحبه، فإذا سمعته أحببته، وإذا حدثته أحببته، وإذا خالطته أحببته، وإذا تعاملت معه في الدرهم والدينار أو في أي من المعاملات المالية؛ على التو تحبه، وإذا سافرت معه في سفر وعاينت أخوته وإيثاره على الفور تحبه ..

✍ **نعم هو ذا، وهو القائل : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »** [(١)] .

✍ **وقد وصف النبي ـ ﷺ ـ؛ الإيمان بقوله: الإيمان "الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ"**[(٢)].

✍ **ووصف المؤمن بأنه: " يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ، وخير الناس أنفعهم للناس "** [(٣)] .

***

يألف ويؤلف، هذه صفته، صلى الله عليه، هذه النفس الطيبة؛ أبت نفسٌ تحت العبودية أن تخرج من الرق إثارًا لها وضنًا . فزيد بن حارثة كان في الرق، واشترته خديجة ـ رضي الله عنها ـ وأهدته إلى زوجها محمد ـ ﷺ ـ، وكانت من أخلاق النبي ـ ﷺ ـ مع زيد، كيت وكيت وكيت، أو كانت من أخلاق النبي ـ ﷺ ـ مع زيد ما لا تحصيه الأقلام، أو ، أو ... بل نستطيع أن ندفع العناء عن أنفسنا في ذكر أخلاق النبي ـ ﷺ ـ مع خادمه ومولاه زيد بذكر موقف زيد حينما خُير بين حياة الرق ـ في بيت محمد ـ أو حياة الحرية في ظل أبيه حارثه، فلم يبال بشيء ما دام في صحبة النبي ـ ﷺ ـ.

***

إذ لما علم حارثة بموضع ابنه زيد، وقد وصلتْ الأنباءُ إلى عائلة زيد أن ابنكم المخطوف قد استرق وبيع في سوق عكاظ، فهداهم البحث إلى بيت محمد ـ ﷺ ـ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٦) .

(٢) أخرجه أحمد :١٩٤٣٥ ، عن عمرو بن عبسة، والحديث في السلسلة الصحيحة برقم ٥٥٤ .

(٣) أخرجه الطبراني (**الأوسط**) :٦/ ٥٨، والحديث في السلسلة الصحيحة برقم ٤٢٦ .

فأقبل حارثة مع نفر من عشيرته إلى النبي ـ ﷺ ـ، وطرقوا بابه، وكان زيد إلى جـواره، فنادوه : يا زيد ! فلم يجبهم إجلالا منه لرسول الله ـ ﷺ ـ وانتظارًا منه لرأيه .

✍ **فقال له النبي ـ ﷺ ـ :**

" من هؤلاء يا زيد ؟ " .

✍ **فقال :** يا رسول الله ، هذا أبي ، وهذان عماي ، وهذا أخي وهـؤلاء عـشيرتي ، فقال له النبي ـ ﷺ ـ : **" قم فسلم عليهم يا زيد "** ..

✍ **فقام فسلم عليهم، وسلموا عليه ، وقالوا :** امض معنا يـا زيـد ، قـال : مـا أريد برسول الله بدلاً ، فقالوا له : يا محمد ، إنا معطوك بهذا الغـلام ديـات ، فـسم مـا شئت ، فإنا حاملوها إليك ، قال :

" أسألكم أن تشهدوا أن لا إله إلا الله ، وإني خاتم أنبيائه ورسله" ! فأبوا وتلكـأوا وتلجلجوا .. وقالوا : تقبل ما عرضنا عليك يا محمد ؟

✍ **فقال لهم :**

" ههنا خصلة غير هذه ، قد جعلت أمره إليه ، إن شاء فليقم ، وإن شاء فليرحل" ..

✍ **قالوا :** قضيت ما عليك يا محمد !! وظنوا أنهم قد صاروا من زيد إلى حاجتهم، قالوا : يا زيد ، قد أذن لك محمد ، فانطلق معنـا ، قـال : هيهـات، هيهـات، مـا أريـد برسول الله بدلا ، ولا أوثر عليه والدًا ولا ولـدًا ، فـأذاروه وألاصـوه واسـتعطفوه ، وذكروا وجد من وراءهم ، فأبى ، وحلف أن لا يصحبهم[1] ..

***

إن الذي دفع زيدٌ إلى التمسك بالنبي ـ ﷺ ـ رغم حياة العبودية؛ لَيُبِيْنُ لنا طبيعةَ هذه النفس الكريمة التي كانت بين جنبي محمد ـ ﷺ ـ، فقد صارت ـ بأخلاقهـا ـ كـالعَلَم الذي في رأسه نار؛ يهوى إليه الناسُ من هنا وهناك، أو كالمغناطيس الذي يجذب قطـع الحديد من حوله .

إن أخلاق الرفق والرحمة والعفو والتواضع والكرم والشجاعة والبذل ـ تجعل من نفس المرء شمسًا يستدفىء بها الناسُ في قَرّ البرد، وحصنًا يأوي إليه المكروب في وقت

(١) انظر القصة في : الحاكم برقم ٤٩٤٦ ، فوائد تمام، برقم ١١١٢، وتـاريخ دمـشق ج ١٠، ص ١٣٨، وفي سند القصة مقال.

الظلم، ومرتفعًا يأوي إليه من أراد الامتناع .. هذه الأخلاق؛ تجعل لنفس المرء سحرًا حلالاً، ورونقًا وجمالاً؛ تَهْوِي إليه أفئدةُ الناسِ، حينها يصير الإنسانُ ـ الذي تخلّقَ بأخلاق " **يألف ويؤلف**" ـ كالسلطان في الأرض، كالملك، كالرئيس .. كالحاكم الذي يأوي اللهيفُ إلى ظله، ويلجأ الضعيف إلى عدله.

لذلك كان حُسْن الخُلق خيْر قَرِين، وكان الأدب خير رصيد، وكان الرفق خير طريق.. فاحرص أخي أن تكون طيب العشرة، حاذق الطُرفة، حسن المفاكهة، مُجيد الدعابة، جميل المعاملة، لين الجانب .. مع حسن السمت، وطول الصمت، وكثرة الوقار، وعمق الحياء، وعلو التواضع.

***

واعم أن مفتاح التمكن من قلوب الناس؛ في قضاء حوائجهم، والزهد عما في أيديهم .

فإذا أردتَ أن تملك قلب إنسان؛ فاقض له حاجه وازهد في نواله.

***

واعلم أنه لا سيادة دون إنفاق، ولا ريادة دون بذل، ولا مكانة لحسود، ولا وقار للجوج ـ وكل هذه ـ أي البخل والحرص والحسد واللجوج ـ من مغاليق قلوب الناس دونك.

***

واعلم أن المتكبر قد يملىء السمع والبصر، ويصل صيته في كل مكان، ويشاع ذكره في كل حدب وصوب ـ عدا مكان واحد هو قلوب الناس .



١ـ الإحسان إلى ضعيف من الضعفاء، ببذل صدقة أو هدية له.

٢ـ استخدام التقنيات الحديثة مثل الجوال والإنترنت في توثيق الصلة بينك وبين إخوانك، فارسل رسائل المحبة والتهنئة والدعوة من حين لآخر .

٣ـ لا تبخل أبدًا، فإن البخيل يبغضه الله ويبغضه الناس ويبغضه الأهل ويبغضه الولد .

دار الأرقم

دارٌ أحْيَتْ البيوتات والدُور . دارٌ نشرت في ربوع العالم الحضارة والنور . دارٌ تـخَرَّجَ فيها سادة العالم، وأنتجت للدنيا العلماء والفقهاء والأدباء والمجاهدين والمجددين .

أحقُ دارٍ بأن تدعى مباركةً؛ دارٌ جلس فيها أعظم الأنبياء إلى أعظم الأتباع ليَعُدَهم أعظم أمةٍ أُخرجت للناس .

إنها دارُ الأرقم .. التي هي مَنْبَعُ السُّؤددِ والمجدِ، ومنشأ العلم الراسخ، والفتح المنيف الباذخ.

مقر الدعوة

كانت دار الأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي هي أول مؤسسة تربوية في تاريخ الإسلام، وقد كان النبي ـ ﷺ ـ يجتمع فيها بأصحابه يتلو عليهم القرآن، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة .

وكان لابد من أن يجتمع المربي بتلاميذه، والقائده بأمرائه، وكان لابد من مَقرٍ يجتمع فيه العاملون للدعوة، حيث تُفَصلُ فيه الآيات، وتُشرح فيه الدروس، وتُحلل فيه الأحداث، وهي أمور تضيق بها الخطب العامة، واللقاءات العابرة.

إذًا كان لابد من هذه المؤسسة التي تَفْصِل بين العمل الدعوي العام ـ الموجه للناس كافة ـ والعمل التربوي الخاص ـ الموجه لرجال الدعوة خاصة ـ، وهذا الأخير؛ إذا نجح، نجح العمل العام، فهو كالسراج كلما اشتد وهجه أشتد أثره. وكلما كانت الجرعة التربوية مُرَكّزة كلما مُحقتْ الشبهاتُ الفكريةُ التي تدور على رؤوس الشباب الأحداث في الدين، كالسراج ـ أيضًا ـ كلما قَوّيت شُهبُه كان أبصر للناس إذا ادلهمّتْ الظُلَمُ. فهذا الذي يشتكي كثرة القلاقل الفكرية في رأسه؛ إنما يشتكي ضعف التربية في نفسه، والذين جاهدوا أنفسهم، في الله هداهم سبله.

السرية

واختار رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الدار بالذات ـ في مرحلة الدعوة السرية ـ لعدة عوامل أهمها: أن هذه الدار لفتىً صغيرٍ ـ هو الأرقم ـ ومن قبيلةٍ معاديةٍ للإسلام ـ هي بني مخزوم ـ

وهي قبيلةُ أبي جهل أشد القبائل عداوة لبني هاشم، فلم يكن أحدٌ يتوقع أن تكون الاجتماعات السرية للمسلمين في دار لفتى من أغمار المسلمين حيث تكون الأنظار على رجالات الدعوة الكبار، ولم يكن لأحد أن يُفتش عن لقاءات محمد ﷺ في بيوت أعدائه .

وحافَظَ المسلمون على سرية مقرهم ـ حتى لا يُفسده المشركون ولا يلاحقون المسلمين من وقت لآخر كما يفحل جلاوزة الليل مع الدعاة ـ، ولا أدل على ذلك من قصة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ التي وقف فيها خطيبًا في المسجد الحرام يدعو الناس إلى الله فقاموا إليه وضربوه ضربًا شديدًا حتى فقد وعيه، و دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين و يحرفهما لوجهه، وحُمل أبوبكر إلى بيته، ولا يشك الناسُ في موته ثم استفاق وسأل عن رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يجبه أحد. و قالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه فلما خلت به ألحت عليه و جعل يقول : ما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ فقالت : و الله مالي علم بصاحبك، فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه . فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟

✍ **فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله** و إن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت : نعم فمضت معها حتى و جدت أبا بكر صريعا دنفًا فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح و قالت : و الله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

✍ **قال :** فما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ ؟

✍ **قالت : هذه أمك تسمع .**

✍ **قال :** فلا شيء عليك منها.

✍ **قالت :** سالمٌ صالحٌ.

✍ **قال :** أين هو ؟

✍ **قالت :** في دار ابن الأرقم .

✍ **قال :** فإن لله على أن لا أذوق طعامًا و لا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ [١].

---

(١) انظر : ابن كثير (**السيرة**) ١/ ٤٣٩ .

" فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِجل ، وسكن الناس ، خرجتا بـه يتكـئ عليهـا حتـى أدخلتاه على النبيﷺ ، فأكب عليه رسول الله ـﷺ ـ ويقبله ، وأكب عليه المسلمون ، ورق رسول الله ـﷺ ـ رقة شديدة"(١).

تأملْ ما وضعتُ تحته خطًا، وانظر إلى فعل أم جميل ـ رضي الله عنهـا ـ، إذ أنكـرت معرفتها بالنبي ـﷺ ـ وبأبي بكر، ولم تخبر أمُ أبي بكر بمكان النبـي ـﷺ ـ ، حتـى إذا دخلت أم جميل على أبي بكر تعوده وسألها عن مكان النبي ـﷺ ـ ، أنكرت عليه، وهي تقول : **" هذه أمك تسمع "** ، أي كيف أخبرُكَ وهذه أمك تسمعنا وهي ليـست منّـا. فلما طمأنها بقوله : **" فلا شيء عليك منها"** ، قالت : سالم صالح ... في دار ابن الأرقم.

وإمعانًا في المحافظة على سرية دار الأرقم؛ خرَجنَ بـه بعـد أن **" هـدأت الرِجـل ، وسكن الناس "** .

وكل هذه الاحتياطات الذكية إنما هي ثمرة التربية الأمنية التي تقتضيها هذه المرحلة والتي يحتاج إليها أصحابُ الدعوات لاسيما في أوقات المحن.

الاستمرارية

واستمر رسول الله ـﷺ ـ في إحياء هذا المحضن التربوي، ولم ينقطع عن فعاليته في أغلب فترات المرحلة المكية، وفي ثنايا ذلك شَهدتْ الدارُ قصة إسلام عمـر ـ رضي الله عنه ـ وخَرَج أربعون مسلمًا من دار الأرقم متوجهين نحـو المـسجد؛ في قَومـةٍ مُتفِقـة، بقلوب متعاضدة، وأيادٍ متأيدة، في صفوف متسقة ـ كأنها تظاهرة شِبه صامتة ـ لممارسةِ العبادات الإسلامية علنًا عند الكعبة، وهذه الانفراجة لم تُعطل ما شرعه النبي ـﷺ ـ في دار الأرقم، ولم يتوقف المشروع التربوي الكريم الذي خلّدَ ذِكـرَ هـذه الـدار التـي صارت من معالم مكة فيما بعد.

واستمرت دارُ الأرقم حية بإحياء شباب مكة وإخراجهم من الظلـمات إلى النـور، ويفدُ إليها العربُ من خارج مكة ـ سرًا ـ كأبي ذَرٍ الغفاري وغيره –فيخرجـون مـن الثبور إلى الحبور، ولم يُذكر أنها توقفت اللهم إلا في سفرة النبي ـﷺ ـ إلى الطـائف في العام العاشر من البعثة .

---

(١) أبو نعيم : معرفة الصحابة، برقم ٧٢٧٤ .

وربما لم تتوقف، وهذا في الغالب، فلعل قُرَّاء الصحابه كانوا يجتمعون بالمسلمين الجدد فيها وفي بيوتهم، في نظام أشبه بالأُسر التربوية أو الحِلق التعليمية؛ لكلِ أسرةٍ معلم، ولكل مجموعة نقيب، ومثالُ ذلك ما أبانته قصة إسلام عمر – رضي الله عنه – إذ لما دخل بيت ختنه وابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو [**زوج فاطمة بنت الخطاب**]؛ فُوجِيءَ بخباب بن الأرت ومعه صحيفة فيها سورة طه يقرئهما إياها .. ويظهر من ذلك أن علماء الصحابة في هذا الوقت كانوا يتعهدون البيوتَ سرًا لتعليم المسلمين.

إذاً كانت دار الأرقم هي مقرُ العمل التربوي الدعوي وما عداها من دور فتابعٌ لها، إذ كانت هذه الدار تُخَرِّجُ الصحابةَ فتنشرهم في بيوت مكةَ دعاةً إلى الله هنا وهناك ..

المهام

التلاوة، التزكية، التعليم .. كانت هذه الثلاثية التائية هي مهام النبي – ﷺ – في هذه الدار، وهي المهام التي حددها الله تعالى لـمُعِدي الأمم والحضارات .

قال الله تعالى :

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]

***

أما التلاوة ، فقد كانت هي المهمة الأولى : ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ، وكانت هي التكليف الأول : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١] ، وكانت هي الوسيلة الأولى لتبليغ رسالات الله ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت:١٨] .

فالقراءة المستمرة لهذا الكتاب هدفٌ رئيسي للدعاة، وتكليف منوط بهذه الأمة المكلفة بتبليغ هذا الدين للناس ...

لقد كتب الله أن يُرَتلَ هذا الكتابُ إلى قيام الساعة؛ فلن يتوقف ترتيله ما دام الليل والنهار، ليكون ـ دومًا ـ البلاغ الماثل، والبث المستمر، والكتاب المفتوح الدائم المهيمن.

✍ **وأما التزكية ؛ هي التربية، وهي المهمة الثانية للنبي** ـ ﷺ ـ وأتباعه من المربين والدعاة : ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، فإذا قرأ عليهم القرآن؛ تهيئتْ نفوسُهم بعد ذلك لتلقي الدروس والتربوية ومكابدة الصعاب في سبيل تطهير النفس وتحليتها بمكارم الأخلاق .

ولا حراك لنهضة لا تقوم على التربية، ولا فكاك لوطن ـ من الاحتلال ـ دون تربية، ولا دولة دون تربية، ولا خلافة دون تربية ... التربية هي الطريق .

وهكذا نَصَ القرآنُ على المهمة التربوية للنبي ـ ﷺ ـ، ليكون في ذلك درسٌ لأصحاب الدعوات الإسلامية .

***

✍ **والمهمة الثالثة، هي التعليم :** ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، ولم نر يومًا أن الله مكن للجاهلين .. وإنما تدور دولةُ الدول على أعلم الناس .

وكانت المادة الدراسية التي يعلمها الرسول ـ ﷺ ـ لتلاميذ دار الأرقم منحصرة في فرعين :

✍ **الأول : الكتاب وهو القرآن**

✍ **الثاني : الحكمة**، وهي كل علم نافع، وفكر ناجع، وهي كل مَثل وقصة وموعظة ونصيحة تحمل خيرًا، وهي كل فعل أو قول أو تقرير ورد عن النبي ـ ﷺ ـ .

إذاً كان رسول الله ـ ﷺ ـ أوسع عقلاً، وأرجح رأيًا مِن هؤلاء الذين حصروا العلم في متون جامدة، وفروع ثابتة .

لقد كانت المادة الدراسية في دار الأرقم هي الكتاب والحكمة، وكان الصحابة يتلقون دروس القرآن وتعاليم الحكمة؛ غضة طرية، سهلة لينة، من صاحب الخُلق العظيم في ظلال المعايشة التربوية في دار الأرقم .



١ـ مفاتيح دار الأرقم : التاءات الثلاث : التلاوة، التزكية، التعليم؛ فاجعل لنفسك منهن منهلاً .. وافتح ديوان نفسك، وكن رقيب أمرك.

٢ـ ولا تفوتن يومًا إلا وقد قرأت من القرآن وردًا، وزكيت نفسك موعظة، وعلمت نفسك علمًا . هذا في كل يوم .

٣ـ ثم اجمع أصدقائك في دارك حول هذه الثلاثية، مع شيخ ثقة، أومعلـم فَقِـه، أو باحث شرعي، أو كاتب إسلامي، أو أديب أريب، أو نبيل جليل، ولتـسعْ جاهـدًا إلى أَرْقمةِ بيتك. وهذا في كل أسبوع .





القسم الرابع

الدعوة جهراً

خطبة الصفا

الإعداد ثم الإعلان، والتربية ثم الانطلاقة، والكمون ثم الحركة، والتخطيط ثم التنفيذ، والعلم ثم العمل .

والجرأة في كلمة الحق، والهمة في بلوغ الصعب، ومسؤولية الداعي عن بيته وعائلته، واستخدام أرقى وسائل الإعلام في الدعوة .

كلها دروس في خطبة رسول الله ـ ﷺ ـ على جبل الصفا.

***

✍ **نزلت :** ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، فخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ :

" يَا صَبَاحَاهْ !!! "

✍ **فَقَالُوا :** مَنْ هَذَا ؟

✍ **فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ :**
"أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ ".

✍ **قَالُوا :** مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا .

✍ **قَالَ : " فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ " .**

✍ **قَالَ أَبُو لَهَبٍ :** تَبًّا لَكَ ! مَا جَمَعْتَنَا إلا لِهَذَا ؟

✍ **فَنَزَلَتْ:** ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المَسَد:١][1]

***

على جبل الصفا ـ وهو من أعلى جبال مكة ـ كان الإعلان عن الدعوة؛ إذ الدعاة يعتلون أعلى المنابر، والمجاهدون يمتطون أعتق الجياد، والجميعُ يَعدّون ما ستطاعوا من قوة ـ .

(١) أخرجه البخاري: ٤٥٨٩ .

وهكذا دومًا أعلام الإسلام، يبتغون من وراء المنبر الإعلامي رفعة الدين وإعلاء كلمة الإسلام؛ وينشرونها من أعلى ربوة، وأسمق مبنى، وأكبر صحيفة، وأشهر مجلة، وأهم قناة فضائية ...

***

وعلى جبل الصفا، وَجّه النبيُ -ﷺ- نصحه علنًا لأهله وعشيرته؛ لتَخْلُصَ الدعوة لله من كل العصبيات خلا وشيجة الأخوة الإسلامية .

***

✍ وعلى جبل الصفا كانت الصيحة الأولى بالخطر الذي يتهدد البشرية :

" **يَا صَبَاحَاهْ !!** "[1]. ولم تكن صيحة تنذر بجيش غازٍ، أو عدو زاحف؛ إنما كانت صيحةٌ تحذر من الخطر الماحق المحدق بالإنسانية؛ وتنذر بالطريق المظلم الذي سلكته البشرية ـ وهي في أحط عصورها ـ من فساد طال المعتقدات والأخلاق والسلوك والمعاملات، وقد أوشكت البشرية أن تغرق في طوفان لا نجاء منه إلى قيام الساعة .. لولا وثبة الداعي، وصيحة الحق: " **يَا صَبَاحَاهْ !!** " .

***

وعلى جبل الصفا؛ بدأت الدعوة العلنية صافية ـ ومن حُسْنِ الطالع أن تبدأ صافية على جبل اسمه الصفا ـ جلية لا لبث فيها ولا غبش، واضحة سهلة محددة:" **فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** "[2] .

***

وعلى جبل الصفا، كانت البداية، ليَعْرف فضلها كلُ ساعٍ وزائر، وليذكر أهميتها كل حاج ومعتمر، وفضل الوقفة الصلبة في وجه الباطل، وفضل الكلمة الصادقة في وجه الكذب، وفضل كلمة الحق التي قد تفعل ما لا تفعله الطيارات والدبابات.

***

(١) البخاري: ٤٥٨٩ .

(٢) البخاري: ٤٥٨٩ .

هذه الوقفة الشجاعة التي وقفها سيد الشجعان؛ لتترنحُ حولها مناقب السادة والقادة من الشجعان على مر التاريخ .. إنها وقفة لا يدرك كنهها سوى الدارس المتبصر لطبيعة المجتمع القرشي في جاهليته .

هذا اليتيمُ الذي وقفَ ينادي على أهل بيته وقومه على حد سواء، ويهتف فيهم بهتاف يزلزل معتقدات باطلة، وعادات فاسدة؛ توارثها القومُ جيلاً بعد جيل، وتأصلت فيهم هذه الثقافات؛ حتى أصبحت مصادر أرزاقهم من هذه الأوثان المتراصة حول البيت الحرام .

ثَبْتتْ قدمُه ـ ﷺ ـ وهو ينفض هذه الجاهليات عن كاهل البشر، ويعتلي هذه الربوة بخطوات واثقة؛ ربيط الجأش، يتأبط التوكل، فلم يهتز ولم يتلجلج ؛ فأثار انتباههم – في باديء الأمر – وأشهدهم على أنفسهم – بما عُرف به من الصدق – فقال :

"أَرَأَيْتَمُ إِنِ أَخْبَرْتُكُمُ أَنَّ خَيلاً تَخْرُجُ مِن سَفْحِ هَذَا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ " هكذا نبه شعورهم، وأيقظ أفئدتهم، وهيئها وفرش لها ليلقي عليهم الكلمة الحقة التي لن ينسوها ..

✍ **وقد قالوا جميعًا ولم يتردد أحدٌ فيها : " مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا "**، فتاريخه أصفى من الشهد، وسيرته خير سيرة، وبره أحسن بر، ومجده أعظم مجد، هكذا عرفوه في شبابه، ولقّبوه بالأمين، هو الذي حقن دماءهم يوم الحجر الأسود، ووَحّدَ صفهم؛ وقد أوشك الناسُ على الاقتتال، وهم الذين ارتضوه حكمًا بينهم في هذا النزاع الخطير . وقد جعل بيته خزانة لأماناتهم؛ فلا تطمئن قلوبهم على أموالهم حتى تكون في بيت محمد ﷺ ، فتقر نفسوهم ويهدأ بالهم، وكأنما ألقوا أموالهم في حصن منيع، أو بئر حفيظ .

.... فلما كانت هذه شهادتهم فيه، قال قولته؛ يعرّف بنفسه ورسالته في أوجز جملة :

" فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ " .

وسكتَ الناسُ، وكأنما نقرهم ديك، ووقفوا مليًا يفكرون في هذه الكلمة، وصمتوا ولم يؤيدوا على التو خشيةَ الصناديد الطغاة، وصمتوا حتى يسمعوا ردة فعل السادة الكبار، وبالفعل لم يُسمع سوى صوت صنديد يمثل الهيئة الرسمية الحاكمة في مكة، فكان الرد القوي الذي يريد أن يربو ويتطاول ليدفع شيئًا مما أحدثته كلمة الصدق :

" تَبًّا لَكَ ! مَا جَمَعْتَنَا إلا لِهَذَا ؟ "

كلمة حق قوية خرجت لها كلمة باطل عتية، فكان الرد الإلهي الحاذم الشديد، الخالد السديد :

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المَسَد:١] .

هكذا كان الانطلاق بالقرآن ، والدفاع بالقرآن .

***

ولم يعبأ رسول الله – ﷺ – بكلمة أبي لهب اللاهبة الباطلة، ولم يعبأ بمكان عمه ولم يَرُدَّ عليه، وواصل رسول الله ـ ﷺ ـ كلامه مستفيدًا من فرصة حضور الناس، الذين جاءوا إليه من من كل البطون.

✍ **فأخذ ينادي عليهم بطنًا بطنًا :**

" يَا بَنِى كَعْبِ بْنِ لُؤَىٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا بَنِى مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا بَنِى عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا بَنِى عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا بَنِى هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا بَنِى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ !

يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِى نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ ـ فَإِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا "[1].

وسَوّى نداءُ الإسلامِ بين البعيد والقريب، والوضيع والحسيب ..

وكان النداء على أهل البيت وأهل الوطن على حد سواء ..

إن مسؤولية المسلم عن أهله أمام الله بادية بينة من أول يوم بدأت فيه الدعوة الجهرية، وذلك حتى لا يحدث ذلك الجُوال (**أو الفصام**)؛ وهو ذلك السلوك النكد الصادر من بعض الأدعياء حينما يأمرون بأمر ولا يأتمرون به؛ ولاسيما على نطاق أُسَرِهم.

---

(١) أخرجه مسلم : ٥٢٢ .

وهؤلاء لا فضيلة لهم ولا أثر؛ إذ كيف يستقيم الظل والعود أعوج! و" **كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عن رعيته**"، ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ ﴾ [طه:١٣٢].

فكلكم راع ونحن رعية ... وكل سيلقى ربه فيحاسبه

***

يا قارئي ! بمثل هذه الوقفات العظيمة، تمتطي كاهل المجد، وتصطفي كامل السعد، وتحرز الجنة وحسن الذكر .

وهل ساد السادة إلا بمثل هذه الوقفات ؟ وهل عرفنا العظماء إلا بهذه الوقفات ؟ وهل نال الصحابة ما نالوا من الشرف والتمكين إلا بمواقفهم ؟

***

نحن في احتياج لمثل هذه الوقفة ـ وقفة الصفا ـ في كثير من الميادين والدوائر؛ لاسيما في التي كثر فيها الفساد .

وقفة وصرخة في أرباب الفساد الأخلاقي؛ أهل العُهر الفني، والفُجْر الفكري، والدُعر الأدبي . وقفة وصرخة في صناع الفسولة والميوعة، رواد السفاهة والبلاهة. وقفة وصرخة في جموع المهرجين في جميع مجالات التهريج ..

✍ **اكتبْ دومًا واهْتفْ :** يا صباحاه .. لا لتخبيل الأمة !!!



١ـ مدارسة سورة الشعراء

٢ـ أحرز موقفًا تجهر فيه بكلمة الحق

٣ـ إذا دعوت إلى الله فلا تلتفت للمسفهين، وامض، وواصل كلمتك .



صناعة الشبهات

صناعة الشُبهة، أو اختلاق الفِرْية، أو إنشاء الشائعة، هو ابتكار فكرة باطلة تتحد حولها الآراء .

فإذا ما نطق شخصٌ وقال كذبًا : إنّ الداعية الفلاني يدخن السجائر مثلاً، ثم تلقف هذه الكذبة شخصٌ آخر ساذج، ثم نقلها الساذج إلى الآخرين على سبيل الخبر المشكوك فيه، ثم نقلها الآخرون إلى غيرهم على سبيل الخبر الـمُرجّح صحته، ثم ينتقل الخبرُ هنا وهناك وقد صار حقيقة لا مراء فيها، وهكذا تظل الشائعةُ تنتقل من الألسن إلى الآذن حتى تصل إلى صاحبنا الذي أطلقها وأنشأها؛ فيصدقها ويقع في نفس الفخ وهو لا يدري ..

✍ **وذلك لسببٍ وحيد :** أن الجميع يرددها !

***

بالضبط، كما ترى بعض الصحفيين الأفاكين حينما يرددون الخبر الكاذب، ويصدقونه لكثرة ترداه !

بالضبط، كما الطفل الذي يسرق قلم زميله، فلا يزال السارق يُقْسمُ أن القلم قلمه، ويقسم ويقسم ويقسم .. حتى يعتقد أن القلم قلمه، ولو تذكر الحادثة بعد سنوات يظن أن القصة قصة قلمه الذي حاول زميله أن يختلسه منه !

***

انظر هذه ..

اجتمع نفرٌ من قريش حول الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَكَانَ ذَا سِنّيهِمْ وَقَدْ حَضَرَ الْمَوْسِمَ فَقَالَ لَهُمْ : يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنّهُ قَدْ حَضَرَ هَذَا الْمَوْسِمُ [يعني موسم الحج] وَإِنّ وُفُودَ الْعَرَبِ سَتَقْدَمُ عَلَيْكُمْ فِيهِ، وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ صَاحِبِكُمْ هَذَا ، **فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا وَاحِدًا، ولا تَخْتَلِفُوا، فَيُكَذّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**، وَيَرُدّ قَوْلُكُمْ بَعْضُهُ بَعْضًا ؛ قَالُوا : فَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ، فَقُلْ وَأَقِمْ لَنَا رَأْيًا نَقُولُ بِهِ .

✍ **قَالَ:** بَلْ أَنْتُمْ فَقُولُوا أَسْمَعْ .

✍ **قَالُوا :** نَقُولُ كَاهِنٌ .

✍ **قَالَ** : لا وَاللَّهِ ما هُوَ بِكَاهِنٍ، لَقَدْ رأَيْنَا الْكُهّانَ، فَما هُوَ بِزَمْزَمَةِ الْكَاهِنِ، ولاسَجْعِهِ.

✍ **قَالُوا** : فَنَقُولُ مجْنُونٌ .

✍ **قَالَ** : مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ، فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ، وَلا تَخَالُجِهِ وَلا وَسْوَسَتِهِ.

✍ **قَالُوا** : فَنَقُولُ شَاعِرٌ.

✍ **قَالَ**: مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، لَقَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ كُلَّهُ : رَجزَهُ وَهزَجهُ، وَقَرِيضَهُ، وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ، فَمَا هُوَ بِالشِّعْرِ .

✍ **قَالُوا** : فَنَقُولُ سَاحِرٌ .

✍ **قَالَ** : مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا السَّحّارَ وَسِحْرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ، ولا عَقْدِهِمْ.
قَالُوا : فَمَا نَقُولُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ ؟

✍ **قَالَ** : وَاللَّهِ إنّ لِقَوْلِهِ لَحلاوَةً ، وَإِنّ أَصْلَهُ لَعَذِقٌ، وَإِنّ فَرْعَهُ لجَنَاةٌ، وَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا؛ إلا عُرِفَ أَنّهُ بَاطِلٌ، وَإِنّ أَقْرَبَ الْقَوْلِ فِيهِ لأَنْ تَقُولُوا سَاحِرٌ جَاءَ بِقَوْلٍ هُوَ سِحْرٌ؛ يُفَرّقُ بِهِ بَيْنَ المْرْءِ وَأَبِيهِ، وَبَيْنَ المْرْءِ وَأَخِيهِ، وَبَيْنَ المْرْءِ وَعَشِيرَتِهِ .

فَتَفَرّقُوا عَنْهُ بِذَلِكَ، فَجَعَلُوا يَجْلِسُونَ بِسُبُلِ النّاسِ حِينَ قَدِمُوا المْوْسِمَ؛ لا يَمُرّ بِهِمْ أَحَدٌ إلا حَذّرُوهُ إيّاهُ، وَذَكَرُوا لَهُمْ أَمْرَهُ . فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي الْوَلِيدِ بْنِ المْغِيرَةِ:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدَّثر: ١١-٣٠][1] .

***

هكذا نرى اجتماع أبواق الباطل على فِرية معينة تلوكها الألسنة، وتجتمع حولها الآراء، وينطق بها الجميع من هنا وهناك .

---

(١) انظر : ابن هشام ١/ ٢٧١ .

✍ **تأمل ذلك في قول هذا الرجل الداهية : " فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا وَاحِدًا، ولا تَخْتَلِفُوا، فَيُكَذِّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا " .**

ثم تأمل كيف اتحدت قوى الشر في المشرق والمغرب على مصطلح واحد ـ هو مصطلح الإرهاب ـ تصفُ به الإسلاميين على اختلاف مذاهبهم .

✍ **فترى أمريكا تقول :** نحن نحارب الإرهاب، وترى الكيان الصهيوني يقول : نحن نحارب الإرهاب، وترى الأنظمة العربية والمتحكمين يقولون : نحن نحارب الإرهاب. وتردد البَبْغَاوَاتُ من خلفهم : نحن نحارب الإرهاب، نحارب الإرهاب، الإرهاب . إرهاب، إرهاب، إرهاب !!

حتى ترى كثيرًا من الكتاب والمثقفين والفنانين العرب يرددون ذلك كصدى الصوتِ الذي يجيب صوت المُنادي، وأكثرهم لا يفقهون أن مصطلح الإرهاب يقصد به المسلمون عامة، والحركيون خاصة، والجهاديون على وجه الأخص . ومسألة القضاء عليهم جميعًا مسألة أولويات؛ فالأولى القضاء على المقاتلين، ثم الحركيين، ثم عامة المسلمين، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

وهكذا اتفقت قوى الشر على حملة التضليل؛ فقعدوا بسبل الناس، واعتلوا منابر الإعلام المختلفة، وشرعوا في بث دعاية الكذب والبهتان لصد الناس عن الداعية، لا يَمُرّ بِهِمْ أَحَدٌ إلا حَذّرُوهُ إيّاهُ، ولا تمر بهم فرصة إلا انتهزوها في نفث سمومهم، ولا تصيبهم قارعة أو مصيبة إلا ألصقوها بالدعوة والداعية، حالهم كحال الفراعنة الذين قالوا لموسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل:٤٧].

***

وعجبًا لهؤلاء المبطلين يبذلون جهدًا كبيرًا في انتاج الشائعات، وقد رأيتَ كيف دخلوا على أسن رجل في قريش وبحثوا أنسب الشائعات، ففكَّرَ وَقَدَّرَ، ثم فكر وقَدَّرَ، ثم فكر قَدَّرَ ، وكل ذلك للوصول إلى فرية محكمة، ثم نظر وتأمل؛ فالأمر جد صعب مع صاحب الخلق العظيم، ثم عبس؛ فهم يواجهون دعوة صادقة، ثم بسر؛ فقد أعيتهم الحيل، ثم رجعوا إلى أنسب الحلول المقترحة على فسادها، ومع علمهم بفسالتها

وهشاشتها، فقالوا : إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . المهم أن تتفق الكلمة على مصلطح محدد.

هذا يبين لك جَلَد الفاجر في فجره، وحماسة الباطل في باطله، وكيف يمكر بدعوة الله الماكرون، ويبيتوت يترصدون لها أنجع الطرق لمحاربتها، فضلاً عن انتظار طامة أو مصيبة خارجية قد تقضي ـ بزعمهم ـ على الدعوة والداعية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠] .

***

ليعلم الدعاةُ، أن سهام الباطل لا تستهدف سوى الدعوة الصادقة الناجحة؛ خاصة ما إذا كان لها حضورٌ بين الناس، فالظالمون لا يستهدفون الدعوات النائمة أو المذاهب التي عفا عليها الزمن، إنما يستهدفون الجماعات الحية العاملة، كما السرطان يستهدف الخلايا الحية.

وهذه الافتراءات والشبهات والشائعات لن تضر الصادقين إلا أذىً؛ إنما وليهم الله الذي تكفل بحفظ دعوتهم، وإن تحولوا هم عنها إلى غيرها وصاروا حربة عليها . إنما تحوم الافتراءات حول حمى الدعوة ومنهجها؛ تسعى حثيثًا أن تجد ثغرة تجعل منها جيبًا، ثم تجعل من الجيب فِرقة، ثم من الفرقة جماعة تحارب الجماعة، ثم ينقضُّ الباطلُ على الجميع بعدما أثخنتهم جراح الطعن والتجريح .

ولما كانت الفرية تحوم حول الدعوة كالطيور الجارحة الجائعة؛ كان على أهل الدعوة أن يحكموا بناء أخوتهم، وأن يوثقوا عرى جماعتهم، وأن يثقلوا جدار الدعوة بالحصن تلو الحصن، من برامج تربوية، ودورات علمية شرعية، وندوات فكرية تحصينية .

فإذا تحصنت الدعوة حق التحصين؛ فعليها أن تبارد إذًا بزعزعة الباطل ومذاهبه ورجاله، وأن يبادر المؤمنون الواثقون بفضح مخططات المذاهب المعادية؛ لينشغل أهل الباطل بأنفسهم، ولينشغلوا عن أعراض المؤمنين .

وماذا علينا لو كنا دومًا أصحاب المبادرة في تسديد الضربات المختلفة لهم، وإلى متى نقف موقف المدافع الذي يستجيب لأقل فعل برد فعل ثم يخمد ؟

فإذا ما هم جمعوا رأيهم فيكم، فاجمعوا رأيكم فيهم، وبادروا أنتم واستبقوهم، واقعدوا أنتم بسبل الناس، بلغوهم دعوتكم، وحصنوهم من أفكار عدوكم.

***

لن تسلم الدعواتَ الناجحة من الوشاة والحاسدين.

لا تعبء بكثرة الشائعات ما دام المنهج أصيلاً سليمًا .

أنت الأعلى دومًا إذا احتوشك صناديد الباطل .

***

نزهوا دعوتكم عن الدناآت واربأوا بأنفسكم عن السعاية والغيبة والنميمة ولا تخلطوها بحديثكم عن أصحاب المذاهب الهدامة، وفرقوا بين فضح المخططات وكشف العورات .

✍ **وتذكر دومًا قول الله تعالى :**

" يَا أَيُّهَا الناسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنْفُسِكم " .

✍ **وقال عزَ وجل: " ثم بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ الله".**

وقول الشاعر:

فلا تسبق إلى أحدٍ ببغيٍ ... فإنَّ البَغْي مَصرعه وخيم



١ـ مدارسة حول كتاب بروتوكلات حكماء صهيون.

٢ـ التعرف على جهود بعض المستشرقين في اختلاق افتراءات جديدة ومستحدثة حول الإسلام، طالع على سبيل المثال كتاب "افتراءات المستشرقين على الاسلام" للدكتور عبد العظيم المطعني.

٣ـ ادعو بعض أصدقائك إلى حفلة شاي؛ تناقش فيها بعض الشبهات العالقة والمسائل المغلوطة؛ فتصحح لهم ما أُشكل عليهم، وتشرح لهم ما استحكم، وتبين لهم ما استغلق.



حرب الشبهات

اعلم أن حرب الشبهات، حربٌ قديمة حديثة؛ تُشن دومًا على دعوة الإسلام، وتهدف هـذه الحـرب إلى إحداث القلاقل في النفـوس والبلابـل في العقـول؛ بحيث يتردد التابع، ويتشكك الـساكت، ومـن ثـم تتـصدع الكلمة، وتذهب ريح الدعوة .

وقلما سلمت دعوة شريفة ـ عبر التاريخ ـ من هذا النـوع من الحـرب، وأنـت تـرى الآن الأنظمـة المستبدة ووسـائل الإعلام المتصهينة تبذل الجهد الكبير في تشويه صورة الحركـة الإسـلامية، واصـطناع الاتهامات لها، واختلاق الأساطير حولها، بحيـث تنفـر الجماهـير منهـا . وتجـد دومًـا الأبواق الإعلامية الماسونية تستهدف الرموز والقيادات الإسلامية على شتى مـذاهبها بالطعن والتجريح، والتشكيك في نزاهتها، والعمل الحثيث لوضع دائـر حمـراء حـول تحركاتهم وأعمالهم وتاريخهم .

نفس الحرب يمارسها الغرب في حربه على الإسلام عامة، من حملات التشويه التي يقوم بها غربيون من حين إلى آخر ـ على الإسلام .

وإليك جملة من هذه الحرب التي تعرضت لها الدعوة :

✍ التشكيك في البعث

جاء أُبَيّ بْنُ خَلَفٍ إِلَى النبي –ﷺ – بِعَظْمٍ بَالٍ قَـدْ ارْفَـتّ، وقـد سـمع الأول أن رسول الله –ﷺ – يتحدث عن يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يجمـع فيـه اللهُ الأولـين والآخرين؛ فيثيب الصالحين ويعاقب المفسدين– :

✍ **فَقَالَ أُبَيّ بْنُ خَلَفٍ – منكرًا يوم البعث - : "يَـا مُحَمّـدُ ! أَنْـتَ تَـزْعُمُ أَنّ اللهّ يَبْعَثُ هَذَا ؟ ! بَعْدَ مَا أَرَمّ"..ثُمّ فَتّهُ فِي يَدِهِ ثُمّ نَفَخَهُ فِي الرّيحِ نَحْوَ رَسُولِ اللهّ –ﷺ –.**

✍ **فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ - ﷺ - في حسم وحزم - : " نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِـكَ ، يَبْعَثُـهُ اللهُ وَإِيّاكَ بَعْدَ مَا تَكُونَانِ هَكَذَا ، ثُمّ يُدْخِلُك اللهُ النّارَ " !!**

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيـهِ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس:٧٨،٨٠][1] .

---

(١) ابن هشام ج ١ / ص ٣٦١ .

✍ **الشراكة الباطلة**

اعترض محمدًا –ﷺ –وَهُوَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ نفرٌ من سادات قريش ، فقالوا : يا محمد ! هَلُمّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ ، وَتَعْبُد مَا نَعْبُدُ، فَنَشْتَرِكُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِي الأمر، فَإِنْ كَانَ الّذِي تَعْبُدُ خَيْرًا مِمّا نَعْبُدُ، كُنّا قَدْ أَخَذْنَا بِحَظّنَا مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ مَا نَعْبُدُ خَيْرًا مِمّا تَعْبُدُ كُنْت قَدْ أَخَذْت بِحَظّك مِنْهُ .

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ سورة "ٱلْكَٰفِرُونَ" ليعلِّم نبيه الرد الأمثل في هذه القضية الخطيرة، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٢] [١] .

✍ **قال سيد قطب – رحمه الله - :**

"فنزلت هذه السورة على الرسول –ﷺ – للمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، نعم نزلت نفيًا بعد نفي، وجزمًا بعد جزم، وتوكيدًا بعد توكيد، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل، ولا اجتماع بين النور والظلام، فالاختلاف جوهري كامل يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق، والأمر لا يحتاج إلى مداهنة أو مراوغة، نعم فالأمر هنا ليس مصلحة ذاتية، ولا رغبة عابرة، ولا سمًّا في عسل، وليس الدين لله والوطن للجميع كما تزعم الجاهلية المعاصرة، ويدعي المنافقون والمستغربون الذين يتبعون الضالين والمغضوب عليهم، ولا كما يعتقد الملحدون أعداء الله سبحانه في كل مكان، كان الرد حاسمًا على زعماء قريش المشركين، ولا مساومة، ولا مشابهة، ولا حلول وسط، ولا ترضيات شخصية، فإن الجاهلية جاهلية والإسلام إسلام، في كل زمان ومكان، والفارق بينهم بعيد كالفرق بين التبر والتراب، والسبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته عبادة وحكما، وإلا فهي البراءة التامة والمفاصلة الكاملة والحسم الصريح بين الحق والباطل في كل زمان ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ .."[٢] .

---

(١) ابن هشام ج ١ / ص ٣٦٢ .

(٢) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٩١ .

التنازل عن بعض الثوابت

جاء وفدٌ آخرَ إلى النبي -ﷺ- بعد فشل الوفد السابق، يتألف من عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر، وقد جاء هذا الوفد ليقدم عرضًا آخر للتنازل عن بعض ما في القرآن، فطلبوا من النبي -ﷺ- أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم آلهتهم الحجرية، فقط ما عليه إلا أن يحذف عدد من الآيات القليلة التي تندد بالوثنية ، فأنزل الله لهم جوابًا حاسمًا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس:١٥][(١)].

الإغراءات

في قصة شهيرة، تُعد - بحق - من روائع السيرة النبوية ورد فيها أَنّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا من سادات قريش - ذهب إلى النبي -ﷺ- يتحدث بحديث طويل يريد أن يثنيه عن دعوته، وكان مما قال:

أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت النبي، تأدبًا وإعراضًا عن الجاهلين !

✍ **فواصل عتبة قائلاً :** إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك، لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى [(٢)] .

فلما عاين عتبةُ هذا الأدب الجم من رسول الله -ﷺ-، خفف من حدة الحديث، وقال: يا بن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا [**يعني**

---

(١) الواحدي : أسباب النزول، ص٢٠٠، والسيرة للصلابي ١/ ١٧٠ .

(٢) السيرة الحلبية ١/ ٤٥٦ .

جنون أو مس] تراه لا تستطيع رده عن نفسك؛ طلبنا لك الطب وبـذلنا فيـه أموالنـا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه.

و لا زال عتبة يتحدث إلى النبي ـ ﷺ ـ، بهذا الحديث الذي لا يخلوا من التعريض أو من التجريح، ورسول الله ـ ﷺ ـ في أنصات واستماع بكل احترام للشيخ ..

حتى إذا فرغ عتبة، قال له النبي ـ ﷺ ـ في أدب ورفق ـ: **"أفرغت يا أبا الوليـد ؟ "** قال: نعم.

✍ **قال: "اسمع منى".**

✍ **قال:** أفعل.

فقرأ عليه النبي أول سورة فصلت [١] .

الحق المُر

ولقد صدَعَ النبيُ – ﷺ – بقولة الحق وهو في أشد الظروف وأصعبها، فيقول الحق ولو على حساب مصلحته وأمنه، أو على حساب الوشائج والصلات العائلية..

ومثال ذلك موقفه – ﷺ – من عمه أبي لهب الذي أخذته حمية العصبية، والقرابـة العائلية، فتدخل لحمياته بعد وفاة أبي طالب، فساء ذلك قريشًا، ورتبت خطة أنهت بها تلك الحماية بإيقاع النبي ـ ﷺ ـ في موقف حرج، إذ ذهب عقبة بن أبي معيط وأبو جهل ابن هشام إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فقال له أبو لهب: يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟ قال: مع قومه، فخرج أبو لهب إليهما فقال: قد سألته فقال مع قومه، فقالاً: يزعم أنه في النار، فقال: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: **"نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخـل النـار"**، فقال أبو لهب: والله لا برحت لك عدواً أبداً، وأنت تزعم أن عبـد المطلـب في النـار! فاشتد عليه هو وسائر قريش[٢].

المناظرات العقيمة

كان النبي ـ ﷺ ـ إذا جلس مجلسًا، للدعوة والعلم، وتلا فيها القرآن وحذر قريشًا ما أصاب الأمم الخالية؛ خلفه في مجلسه النضر بن الحارث، بهدف التـشويش والـصد

(١) انظر: ابن كثير: السيرة النبوية ١/ ٥٠٤ .

(٢) ابن سعد، ج ١/ ٢١١ .

عن دعوة محمد بطريقة إعلامية جذابة شيقة، فيحدثهم عن أساطير رستم السنديد، وعن أسفنديار ، وملوك فارس ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثا مني ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها ..وفي يوم جلس رسول الله–ﷺ – يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله –ﷺ – فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله حتى **أفحمه** ، ثم قرأ :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٨،١٠٠][انظر : ابن هشام ١/ ٣٥٨]

فبُهت النضر وانخذل !

✍ **قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ :** ثُمّ قَامَ رَسُولُ اللّهِ –ﷺ – وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ الزّبَعْرَى السّهْمِيّ حَتّى جَلَسَ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ لِعَبْدِ اللّهِ بْنِ الزّبَعْرَى : وَاَللّهِ مَا قَامَ النّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لابْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ آنِفًا وَمَا قَعَدَ، وَقَدْ زَعَمَ مُحَمّدٌ أَنّا وَمَا نَعْبُدُ مِنْ آلِهَتِنَا هَذِهِ حَصَبُ جَهَنّمَ !

✍ **فَقَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ الزّبَعْرَى :** أَمَا وَاَللّهِ لَوْ وَجَدْته لَخَصَمْته ، فَسَلُوا مُحَمّدًا : أَكُلّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّهِ فِي جَهَنّمَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ؟ فَنَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَالْيَهُودَ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، وَالنّصَارَى تَعْبُدُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السلام !!

فَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ الزّبَعْرَى ، وَرَأَوْا أَنّهُ قَدْ احْتَجّ وَخَاصَمَ . فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ ـﷺ ـ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الزّبَعْرَى .. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ـﷺ ـ: **"كُلّ مَنْ أَحَبّ أَنْ يَعْبُدَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ إنّهُمْ، إنّمَا يَعْبُدُونَ الشّيَاطِينَ وَمَنْ أَمَرَتْهُمْ بِعِبَادَتِهِ"** .. فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾[الأنبياء:١٠١][1].

(١) السهيلي ج ٢ / ص ١٤٣ .

✍ **قال السهيلي:** لو تأمل ابن الزبعرى وغيره من كفار قريش الآية لرأى أن اعتراضه غير لازم من وجهين:

✍ **أحدهما:** أنه خطاب متوجه على الخصوص لقريش عبدة الأصنام، وقوله (**إنا نعبد الملائكة**) حيدة، وإنما وقع الكلام والمحاجة في اللات والعزى وهبل وغير ذلك من أصنامهم.

✍ **والثاني: أن لفظ التلاوة:** (**إنكم وما تعبدون**) ولم يقل (**ومن تعبدون**) فكيف يلزم اعتراضه بالمسيح وعزير والملائكة، وهم يعقلون والأصنام لا تعقل ؟ ومن ثم جاءت الآية بلفظ ما الواقعة على ما لا يعقل [1] .

تعنت، وأطروحات غبية

لقد كان من منهجه عدم الإكترات بكلام السفهاء فضلاً عن تشويشهم أوتصفيرهم أو شتمهم، كان النبي –ﷺ – يمضي قدمًا في دعوته، جادًا ، رزينًا ، واثقًا، يفتح قلبه للناس، يخطب ودهم في عفة ، يتحبب إليهم في تواضع، وهو السيد ابن السيد..

وقد تطرق تفكير المشركين أن يطلبوا من النبي ـﷺ ـ مطالب، ليس الغرض منها التأكد من صدقه، ولكن غرضهم منها التعنت بل السفاهة والاستهزاء به .

✍ **ومثال ما طلبوه :**

أ- أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا: أي يجري لهم الماء عيونًا جارية.

ب- أو تكون له جنة من نخيل وأعناب يفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، أي تكون له حديقة فيها النخل والعنب، والأنهار تتفجر بداخلها.

ج- أو يسقط السماء كسفًا: أي يسقط السماء قطعًا كما سيكون يوم القيامة.

د- أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

هـ- أو يكون له بيت من زخرف: أي ذهب.

و- أو يرقى في السماء: أي يتخذ سلمًا يرتقي عليه ويصعد إلى السماء.

ز- إنزال كتاب من السماء يقرؤونه، يقول مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان؛ تصبح موضوعة عند رأسه !

---

(١) السهيلي ج ٢ / ص ١٤٣ .

ح- وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو لهم فيسير لهم الجبال، ويقطع الأرض، ويبعث من مضى من آبائهم من الموتى [1].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنتات والرد عليها في قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾[الإسراء:٩٠،٩٦]

وكان رد النبي -ﷺ- وكفى به جوابًا وشرحًا :

"مَا بِهَذَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ ! إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنْ اللهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْت بِهِ إِلَيْكُمْ؛ فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حَظّكُمْ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدّوهُ عَلَيّ أَصْبِرُ لأَمْرِ اللهِ تَعَالَى ، حَتّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" [2] .



١ـ تعلَّمْ كيف تدفع الشبهات التي تستهدف دينك وشريعتك ودعوتك، تعلم الخطابة، أو الكتابة الصحفية، أو إدارة حلقة نقاشية، أو دروة تدريبية في فنون التواصل.

٢ـ شاهد المناظرات المسجلة للداعية الكبير أحمد ديدات، وغيره من الدعاة الفصحاء المخلصين .. ومناظرات الشيخ ديدات بالذات ستثقلك، وستكسبك مهارات جديدة.



---

(١) انظر: سميرة محمد جمجوم : المعوقون للدعوه الاسلاميه ، ص١٧١، ١٧٢ .
(٢) انظر: ابن هشام : ١/ ٤٥٩ .

الصبر على الإيذاء

التركيز على التكوين والتربية

كان منهج رسول الله ـ ﷺ ـ في العهد المكي الكف عن القتال، والانهماك في تربية الأفراد وتكوين الدعوة، حيث كان أمر الله حينئذ أن ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء:٧٧]

في حين كانت رغبة الشباب المسلم المتحمس هي الدفاع عن النفس بالساعد والسلاح، فقد جاء عبد الرحمن بن عوف وأصحابه ـ أيام مكة ـ إلى النبي – ﷺ – فقالوا: يا نبي الله كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: " **إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلا تُقَاتِلُوا [القوم]...**"(١).

وقد استمرت هذه المرحلة على مدار العهد المكي ـ أي طيلة ثلاث عشرة سنة ـ ذاق المسلمون فيها شتى ألوان التضييق والاضطهاد والإيذاء . **"وكان الصحابة يراجعون فيها رسول الله – ﷺ – ليستأذنوه برد الظلم عنهم فيمنعهم عن ذلك، ويأمرهم بالصبر وباستكمال مراحل التربية الإيمانية الواجبة في الطلائع الأولى من حملة الدعوة"**(٢) .

وعن الحكمة من الأمر بالكف عن القتال خلال هذه الفترة، يذكر صاحب الظلال – رحمه الله –مجموعة من الأسباب الوجيهة والحِكْم الجلية لمسألة الكف عن القتال في مكة.

✍ **نذكر منها بإيجاز ما يلي:**

١ – أن الكف عن القتال في مكة، ربما لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربي على الصبر، على ما لا يصبر عليه عادة، من الضيم حين يقع عليه أو على من يلوذون به، ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يهتاج لأول مهيج، ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته، ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره –مهما

(١) أخرجه النسائي (٣٠٣٦) ، وصححه الألباني .

(٢) انجوغو صمب : أروع القيم الحضارية ٢٣ .

يكن مخالفًا لمألوفه وعادته- وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء (**المجتمع المسلم**)[(١)].

٢- وربما كان ذلك أيضا؛ لأن الدعوة السلمية، أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها -في مثل هذه الفترة- إلى زيادة العناد، ونشأة ثارات دموية جديدة، كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، أعواماً طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها - وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام . فلا تهدأ بعد ذلك أبداً . ويتحول الإسلام من دعوة ، إلى ثارات تُنسى معها فكرته الأساسية[٢]!

٣- وربما كان ذلك أيضًا اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد، ومعنى الإذن بالقتال، في مثل هذه البيئة، أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال: هذا هو الإسلام، ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال، فقد كانت دعاية قريش في المواسم، إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده، فوق تفريقه لقومه وعشيرته، فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي[(٣)].

٤- وربما كان ذلك أيضًا، لما يعلمه الله، من أن كثيرًا من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟[(٤)]

٥- وربما كان ذلك أيضًا؛ لأن النخوة العربية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع، وبخاصة إذا كان الأذى واقعا على كرام الناس فيهم، وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة، فابن الدُّغُنَّة لم يرض أن يترك أبا بكر وهو رجل كريم يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب،

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ٢/ ٧١٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

وعرض عليه جواره وحمايته، وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

٦- وربما كان ذلك أيضًا لقلة عدد المسلمين حينئذ، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة أو بلغت ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش، وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف، ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة، حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم، ويبقى الشرك ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام [1].

إن في هذه السياسة النبوية لدرسٌ لأصحاب الرسالات الربانية ! فينبغي تفادي الصدام المبكر مع أصحاب النفوذ قدر الإمكان، حتى لا تتحرك الدعوة في أجواء الأكراه والاضطهاد في وقت مبكر، الأمر الذي يُعيق سيرها، ويُوفر فرصة الانقضاد عليها.

حثه -ﷺ- على الصبر في مواجهة الإيذاء:

عن خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ - رضي الله عنه - قَالَ :
شكونا إلى رسول الله - ﷺ - وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ! أَلا تَدْعُو اللهَّ لَنَا !

قَالَ : "كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ .. وَاللهَّ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلا اللهَّ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ" [2] .

وكان رسول الله -ﷺ- يمر بالمستضعفين فيشد على أيديهم، ويصبّرهم، ويأمرهم بالصبر ..فَكَانَتْ بَنُو مَخْزُومٍ يَخْرُجُونَ بِعَمّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَبِأَبِيه وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتِ إِسْلَامٍ، إِذَا

---

(١) المصدر السابق .

(٢) البخاري: ٣٣٤٣ .

حَمِيَتْ الظَّهِيرَةُ يُعَذِّبُونَهُمْ بِرَمْضَاءِ مَكَّةَ ، فَيَمُرُّ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فَيَقُول: **"صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ مَوْعِدُكُمْ الْجَنَّة"** .

فَأَمَّا أُمُّهُ فَقَتَلُوهَا ، وَهِيَ تَأْبَى إلا الإِسْلامَ [١] .

وجدير بالإشارة أن نزول آيات الصبر قد امتدت على طول الفترة المكية تقود خطوات المؤمنين خطوة خطوة، فتمرنوا على تحمل المشاق وتحمل الأذى، وضبط الإرادة، وألا تكون تصرفاتهم ردود أفعال، كما تدربوا على الالتزام بما يرد عن الله تعالى، مع أوامر رسول الله –ﷺ [٢] .

صور من صبره –ﷺ - على الإيذاء :

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : أن النبي ـﷺ ـ كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس؛ إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجيء بسَلاَ جَزُور[٣] بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم [**وهو عقبة بن أبي معيط**] فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي ـﷺ ـ وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغنى شيئًا، لو كانت لي منعة، قال : فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعضهم، ورسول الله –ﷺ – ساجد، لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال :**"اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ"** ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، قال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى : **"اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ"** ـ وعد السابع فلم نحفظه ـ فوالذي نفسى بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله ـﷺ ـ صرعى في القَلِيب، قليب بدر[٤].

- **ولما سمعت أمّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيّةَ: " حَمّالَةَ الْحَطَبِ ما نَزَلَ فِيهَا ، وَفِي زَوْجِهَا أبي لهب مِنْ الْقُرْآنِ أَتَتْ رَسُولَ اللهِّ –ﷺ –وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ ، وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ مِنْ حِجَارَةٍ فَلَمّا وَقَفَتْ عَلَيْهِمَا أَخَذَ اللهُ بِبَصَرِهَا**

---

(١) ابن هشام ج ١ / ص ٣١٩ .

(٢) انظر : محمد أمحزون: منهج النبي، ص ٨٠ .

(٣) أمعاء الجمل المذبوح .

(٤) البخاري رقم ٢٣٣ .

عَنْ رَسُولِ اللهّ -ﷺ - فَلا تَرَى إلا أَبَا بَكْرٍ ، فَقَالَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ : أَيْنَ صَاحِبُك ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنّهُ يَهْجُونِي، وَاَللهّ لَوْ وَجَدْته لَضَرَبْتُ بِهَذَا الْفِهْرِ فَاهُ ! أَمَا وَاَللهّ إنّي لَشَاعِرَةٌ !" .

ثُمّ قَالَتْ :

مُذَمّمًا عَصَيْنَا ... وَأَمْرَهُ أَبَيْنَا ... وَدِينَهُ قَلَيْنَا ..

ثُمّ انْصَرَفَتْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهّ ! أَمَا تَرَاهَا رَأَتْك ؟

فَقَالَ : " مَا رَأَتْنِي ، لَقَدْ أَخَذَ اللهُ بِبَصَرِهَا عَنّي " .

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ إنّمَا تُسَمّي رَسُولَ اللهّ -ﷺ -مُذَمّمًا ، ثُمّ يَسُبّونَهُ فَكَانَ رَسُولُ اللهّ ﷺ يَقُول : **"أَلا تَعْجَبُونَ لِمَا يَصْرِفُ اللهُ عَنّي مِنْ أَذَى قُرَيْشٍ ، يَسُبّونَ وَيَهْجُونَ مُذَمّمًا ، وَأَنَا مُحَمّدٌ"** [١] .

- وكان الأخنس بن شَرِيق الثقفي من كبار قريش، يصيب من رسول الله ـﷺ ـ ويرد عليه فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم:١٠،١٣][٢] .

- وكان أمية بن خلف إذا رأي رسول الله -ﷺ - همزه ولمزه . وفيه نزل ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهُمَزة:١] قال ابن هشام : الهمزة : الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به . واللمزة : الذي يعيب الناس سرًا، ويؤذيهم [٣] .

- ومَرّ أبو جهل بِرَسُولِ اللهّ -ﷺ - عِنْدَ الصّفَا ، فَآذَاهُ وَشَتَمَهُ وَنَالَ مِنْهُ بَعْضَ مَا يكْرَهُ مِنْ الْعَيْبِ لِدِينِهِ وَالتّضْعِيفِ لأمره فلَمْ يُكَلّمْهُ رَسُولُ اللهّ -ﷺ - [٤] .

- ومَرَّ أَبُو جَهْلٍ بالنبي ـﷺ ـ وهو يصلي، فَقَالَ : أَلَمْ أَنْهَكَ [أي عن الصلاة هنا]، فَانْتَهَرَهُ النَّبِيُّ ـﷺ ـ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ : لِمَ تَنْتَهِرُنِي يَا مُحَمَّدُ ؟ فَوَاللهَّ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي !

---

(١) ابن هشام ج ١ / ص ٣٥٥ .
(٢) ابن هشام ج ١ / ص ٣٦٠ .
(٣) ابن هشام ج ١ / ص ٣٥٦ .
(٤) ابن هشام ج ١ / ص ٢٩١ .

✍ **فَأنْزَلَ اللّـهُ ـ عـز وجـل ـ :** ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾

[العلق:٩،٢٠][1] .

الثبـــــات

ومشى قادة مكة إلى أبي طالب ، فقالوا له يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنَّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحدنا، ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله –ﷺ– لهم ولا خذلانه[2].

✍ **فبعث أبو طالب إلى رسول الله -ﷺ- فقال له :** يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا له فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله –ﷺ– أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

✍ **فقال رسول الله -ﷺ- في ثبات تترنح له الجبال وفي عزيمة تخور لها الهضاب :**

"يَا عَمّ ، وَاَللّهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ "..

ثم استعبر رسول الله –ﷺ– فبكى ثم قام.

✍ **فلما ولى ناداه أبو طالب:** أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه رسول الله –ﷺ– فقال : اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا [3].

---

(١) أحمد : ٣٠٤٤ قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح .

(٢) ابن هشام ج ١ / ص ٢٦٥.

(٣) انظر: ابن هشام ج ١ / ص ٢٦٦ .



١ـ استعن بالله، واعلم أنما وسيلتك الناجعة على الصبر والثبات وقت المحن ـ هي المحافظة على أوراد اليوم والليلة، فرَوْض نفسك على الصبر والثبات من خلال المداومة على أوراد (**الأذكار ـ القيام ـ الصيام ـ ورد القرآن ـ ركعتي الضحى ـ ورد الرياضة ـ التفكر ـ الاعتكاف ـ محاسبة النفس**).

٢ـ مطالعة نتفًا من قصص الصابرين والثابتين على الحق، وحدث إخوانك بها مرارًا، وتعايش مع أحداثها بقلبك ووجدانك.

٣ـ طالع كتاب : **" قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيدوا أهله"** .

٤ـ زيارة داعية أو عالم، له موقف في الصبر على البلاء، تتحدث إليه عن موقفه، وعايش محنته، وتأمل همته ومُنته، واستفد من خبرته وتجربته . فمخالطة الصالحين فلاح ونجاح ورباح .





بين الرخصة والعزيمة

"أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبيَ -ﷺ- ، وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه ، فلما أتى رسول الله-ﷺ- قال : « **ما وراءك ؟** » قال : شر يا رسول الله ، ما تُركتُ حتى نلتُ منك ، وذكرت آلهتهم بخير قال: « **كيف تجد قلبك ؟** » قال : مطمئن بالإيمان قال : « **إن عادوا فعد** » [١].

***

كان المشركون يُخرجون آل ياسر إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرِّها، ولم يستطع رسول الله -ﷺ- أن يدفع عنهم شيئًا، اللهم إلا المرور بهم ليصّبرهم بقوله: **"صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة"** ..

وفي دوامة التنكيل:

مات ياسر من شدة التعذيب..

ولما رفضت امرأته "سُميَّة" القول بكلمة الكفر وأغلظت القول لأبي جهل طعنها – لعنه الله - في قُبُلَها بحربة في يديه، فماتت. فكانت أول شهيدة .

وتفننوا دروب الضرب والتعذيب في جسد عمار بن ياسر، بالحرِّ والصخر والتغريق .

وقد **"أخذه بنو المغيرة فغطوه في بئر ميمون وقالوا: اكفر بمحمد"** [٢] .

✍ **وقالوا له:** لا نتركك حتى تسب محمداً أو تقول في اللات والعزّى خيراً ففعل، فتركوه، فَشَكَى ذَلِكَ إِلَى النَّبِيّ -ﷺ- وقال له : ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير [٣].. وبكى. فَجَعَلَ – صلوات ربي وسلامه عليه - يَمْسَح الدُّمُوع عَنْهُ، وقال له: كَيْف تَجِد قَلْبك ؟

✍ **قَالَ :** مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ .

✍ **قَالَ: " فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ "** .

---

(١) الحاكم : ٣٣١٩، وقال الألباني رجاله ثقات مرسلاً .

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٣٠٤.

(٣) البيهقي ٨\٢٠٩.

وفيه نزل قَوْل اللهَّ تَعَالَى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[النحل:١٠٦]

✍ **وفي هذا الباب يقول النبي -ﷺ- : "إِنَّ اللهَّ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"** (١) .

✍ **قال ابن عباس :** ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فأخبر الله سبحانه أنه من كفر من بعد إيمانه، فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم ، فأما من أكره فتكلم به لسانه وخالفه قلبه بالإيمان لينجو بذلك من عدوّه، فلا حرج عليه، لأن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم." (٢) .

✍ **قال ابن كثير: " فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الاهانة والعذاب البليغ، أجارنا الله من ذلك بحوله وقوته"** (٣) .

✍ **وقال ابن عاشور في تفسيره – التحرير والتنوير- في هذه الآية :**

"وقد رخّصت هذه الآية للمكره على إظهار الكفر أن يظهره بشيء من مظاهره التي يطلق عليها أنها كفر في عرف الناس من قول أو فعل . وقد أجمع علماء الإسلام على الأخذ بذلك في أقوال الكفر ، فقالوا : فمن أكره على الكفر غير جارية عليه أحكام الكفر ، لأن الإكراه قرينة على أن كفره تقية ومصانعة بعد أن كان مسلماً . وقد رخّص الله ذلك رفقاً بعباده واعتباراً للأشياء بغاياتها ومقاصدها " .

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد رخَّص للمسلم أن ينطق بالكفر عند الإكراه، فإنه رخص فيما هو أقل من ذلك كأكل الميتة وشرب الخمر عند الضرروة الملحة.

كذلك قد يضطر المسلم إلى ترك فريضة، أو فعل واجب عند الضرورة، كما يجوز للمسلم ترك السنة المؤكدة عن الحاجة، وقد تتحول المستحبات إلى مركوهات إذا خالفت الأولى.

---

(١) ابن ماجه : ٢٠٣٣، وصححه الألباني .

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٣٠٥ .

(٣) ابن كثير (**السيرة**) : ١/ ٤٩٥ .

الرخص الشرعية

والرخصة في اللغة معناها اليسر والسهولة. وفي الشريعة: "**مَا أُرْخِصَ فِيهِ مَعَ كَوْنِهِ حَرَامًا**" [١]. ويقابلها العزيمة .

وقد شرع الإسلام الرخص لرفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة لفقدان المصالح الضرورية. ورفع الحرج مقصد من مقاصد الشريعة وأصل من أصولها، فإن الشارع لم يكلف الناس بالتكاليف والواجبات لإعناتهم أو تحصيل المشقة عليهم . وقد دل على ذلك القرآن والسنة وانعقد الإجماع على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ [المائدة:٦]

وضرب القرآن مثالاً للرخصة في قوله تعالى : ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثۡمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣]

ومن ذلك – أيضًا – الإفطار في السفر أيام رمضان، وقصر الصلاة المفروضة في السفر، فتصلي الصلاة الرباعية بركعتين فقط حال السفر. والمسح على الخفين في الوضوء، والتيمم بالتراب إذا فُقد الماء للوضوء أو إذا كان المسلم مريضاً.. كما في قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٤٣]

وفي الرخص الشرعية .. قال النبي –ﷺ–: "**إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته**"[٢] . وفي رواية : "**كما يحب أن تؤتى عزائمه**" ..

نماذج :

✍ **ومن أمثلة الرخص الشرعية غير مثال عمار بن ياسر، ما رواه أبو سعيد حيث قال :**

سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ– إِلَى مَكَّةَ وَنَحْنُ صِيَامٌ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ–: "**إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ**" .

---

(١) الغزالي : المستصفى ص ١٩٤ .

(٢) أخرجه أحمد (٥٦٠٠) من حديث ابن عمر، وصححه الألباني في الإرواء .

فكَانَتْ رُخْصَةً .. فَمِنَّا مَنْ صَامَ وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ، ثُمَّ نَزَلْنَا مَنْزِلًا آخَرَ فَقَالَ: " **إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدُوِّكُمْ وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ** " .. فَأَفْطِرُوا [١]..

✍ **وعَنْ أَنَسٍ قَالَ:**

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَصَامَ بَعْضٌ وَأَفْطَرَ بَعْضٌ، فَتَحَزَّمَ الْمُفْطِرُونَ وَعَمِلُوا، وَضَعُفَ الصُّوَّامُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ، فَقَالَ رسول الله ﷺ فِي ذَلِكَ : " **ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ** "[٢] .

وعَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجِدُ بِي قُوَّةً عَلَى الصِّيَامِ فِي السَّفَرِ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " **هِيَ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ** " [٣] .

✍ **وعن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -:**

قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ -: " يَا عَبْدَ اللَّهِ أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ " فَقُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ .

✍ **قَالَ : " فَلَا تَفْعَلْ ! صُمْ وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ وَنَمْ ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ"** ..

✍ **قال عبدالله :** فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً.

✍ **قَالَ: " فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ "** .

✍ **قُلْتُ:** وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام.

✍ **قَالَ: " نِصْفَ الدَّهْرِ "** ..

✍ **فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ:** بَعْدَ مَا كَبِرَ يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ [٤] .

✍ **وعَنْ جَابِرٍ قَالَ:** خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ : هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا : مَا نَجِدُ لَكَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٨) .

(٢) أخرجه مسلم مسلم (١٨٨٧) .

(٣) أخرجه مسلم (١٨٩١) .

(٤) أخرجه البخاري (١٨٨٨) .

رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ . فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ. فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ -ﷺ- أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ : " **قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللهُ !! أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ . إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ - أَوْ يَعْصِبَ - عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ** "[1] .

✍ **من الواقع : مسلم مصري أُكره على الكفر .**

من فتاوى الأزهر الشريف

✍ **التاريخ :** شعبان ١٣٧٠ هجرية - ٢٣ مايو ١٩٥١م .

✍ **السائل :** ع. ن .

✍ **السؤال :** اعتنقت الإسلام منذ حوالى عام، وأشهرت إسلامى بإعلام شرعى بمحكمة مصر الابتدائية الشرعية بتاريخ ١٩/ ٤/ ١٩٥١ .

وتحت تهديد من عائلتى بالقتل أُملىَّ علىَّ إقرارٌ كتابى ضد إرادتى وعقيدتى لرجوعى إلى المسيحية، وبما أنى مازلت مؤمنا بقلبى بالإسلام، ومؤديا لجميع الفروض، ومتزوجا من سيدة مسلمة من عائلة كريمة، فقد حررت خطابا رسميا لرئيس المجلس الملى القبطى أعلن فيه إشهارى للإسلام، واستنكارى لما أملى على تحت التهديد، وهذا الخطاب مؤرخ بتاريخ ١٦/ ٥/ ١٩٥١ ومسجل وتاريخه ثانى يوم لكتابة التهديد .

فهل أعتبر مرتدا عن الإسلام بمجرد كتابى لهذا الإقرار أمام الله، أم لا أزال مسلما كما أعتقد.

✍ **الإجابة :**

إن من أُكره على الكفر فأجرى كلمته على لسانه أو كتبها مكرها وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكفر بذلك عند الله، ولا تجرى عليه أحكام الكفر، فلا تبين امرأته، ويرثه المسلمون ويرثهم، ويدفن فى مقابرهم، وعلى هذا أجمع الأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل رضى الله عنهم، واستدلوا بما روى أن عمار بن ياسر رضى الله عنه أخذه المشركون فضربوه حتى تكلم بما طلبوا منه (**من الكفر**) -

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٤) وحسنه الألباني .

فقيل يارسول الله إن عمارًا كفر، فقال رسول الله -ﷺ- **"كلا! إن عمارا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه"**.. فأتى عمار رسول الله -ﷺ- وهو يبكى فجعل رسول الله -ﷺ- يمسح عينيه ويقول: **"مالك ؟ ! إن عادوا فعدلهم بما قلت"** ..

ونزل قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦] ، ومتى زال الإكراه أمر بإظهار إسلامه فإن أظهره فهو باق على إسلامه .

والله ولى التوفيق .

إن استطعت أن تتشبه بأم عمار فافعل وإلا فبعمار !

✍ قال الأمام النووي :

" إن تلَفظ [أي المكرَه]بكلمة الكفر وهو أسير لم يحكم بردته لأنه مكره، وإن تلفظ بها في دار الحرب في غير الأسر حكم بردته، لأن كونه في دار الحرب لا يدل على الإكراه، وإن أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لم يحكم بردته، لأنه قد يأكل ويشرب من غير اعتقاد، ومن أُكره على كلمة الكفر فالأفضل أن لا يأتي بها ..." (١) .

✍ وذلك لما روى أنس رضى الله عنه أن النبي -ﷺ- قال :

"ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ " (٢) .

✍ وفي حديث خباب بن الأرت، قال رسول الله -ﷺ- : " كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ " (٣) .

فقد تصلح العزيمة لفرد ولا تصلح لآخر، كما أن العزيمة أوجه بالقادة والعلماء ، والرخصة أليق بالضعفاء ..

---

(١) المجموع ١٩/ ٢٢١ .

(٢) أخرجه البخاري : ١٥ .

(٣) البخاري : ٣٣٤٣.



١ـ مطالعة كتاب " **عدة الصابرين**" لابن القيم، كتاب طريف في فقه الصبر، وفضائله وأنواعه وآثاره .

٢ـ مدارسة سورتي العنكبوت والبروج، واستخرج دروسهما في كراسة، ودومًا ـ وقت المحن ـ اتل في نفسك أول سورة العنكبوت؛ فمفعولها عظيم جدًا.



الهجرة إلى الحبشة

عن أم سلمة؛ أن النبي -ﷺ- قال :

" إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ؛ فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ؛ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ "(١) .

***

دعوة وملاذ

اشتد العذابُ على المسلمين في مكة؛ فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة؛ فرارًا بالدين، ولإنشاء قاعدة إسلامية هناك؛ وهي نظرة بعيدة من صاحب الدعوة؛ تبين أن بقاء الدعوة أهم من بقاء الرجال، تبين أهمية وجود تجمع إسلامي إضافي يكفل الحياة للدعوة إذا ضربها الباطل في معقلها الأول بمكة.

فهب أن الوثنية انقضت على الإسلام، وقُتل المسلمون عن آخرهم في مكة، ألا ترى بقاءً للإسلام بعد هذا اليوم ؟ ألا ترى أن من الحنكة أو من التفكير الاستراتيجي بناء أكثر من قاعدة للدعوة في أماكن عدة ـ وذلك في مهدها ـ حتى إذا قويت شوكتها، واشتد ساعدها، وقامت دولتها؛ لملمت أشتاتها، وجمّعت منتشرها ؟ وهذا ما حدث بالفعل بعد فتح خيبر سنة ٧ هـ، حيث أذن النبي -ﷺ- لمهاجري الحبشة بالعودة إلى الوطن الجديد؛ إذ أن مهمتهم قد انتهت، ورسالتهم قد اكتملت؛ وكانوا من قبلُ يرغبون في العودة إلى مكة أو إلى المدينة ـ في فترة الحرب الدفاعية ـ فلا يأذن لهم.

لذلك كان هدف الجالية الإسلامية في بلاد أوربا؛ التترس بقوانين الحرية والاستعانة بها في تبليغ الإسلام .

***

" إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ ... "

إن المسلم ليس درويشًا لا يعلم البيئة التي تحيط به . إنما المسلم حصيفًا ذكيًا يعرف جياد الأوطان، وعقلاء الملوك . يعرف الأرض الصالحة للأمن، ويفهم تاريخ حكام المنطقة، ويستطيع أن يأخذ قراره أن فلانًا يصلح وأن فلانًا لا يصلح، وأن هذه الأرض مناسبة وأن تلك غير مناسبة .

---

(١) أخرجه البيهقي " **السنن** " (١٨١٩٠)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم : ٣١٩٠ .

ومن هنا دعوة لجموع الدعاة أن يتثقفوا سياسيًا وجغرافيًا وتاريخًا؛ وأن يستعينوا بهذه الثقافة في خدمة دين الله.

ليس الداعية بالذي يحفظ ويلفظ؛ إنما الداعية الفقيه البصير، والسياسي الخبير، والاقتصادي الحاذق، والجغرافي الماهر، والمؤرخ البارع.

أو باختصار، يفقه واقعه .

***

" فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ؛ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ".

نعم .. سيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا، ستنفرج الحلقة، وستنكشف الغمة، وينتشر الإسلام، ويعم العدل، ويسود الخير، ويأمن الخائف، ويَطعم الجائع، ويكسى العريان، ويسير الراكب من القاهرة إلى القدس إلى تل أبيب لا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، ويهل بحجة وعمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، لا يَخَافُ إِلَّا اللهَ.

وماذا علينا لو آمنا ودفعنا ضريبة الصبر والثبات والتضحية ـ طيبة بها نفوسُنا حتى يُنزل الله نصره، ساعتها سيعلم الجمعُ أن للصبر ثمرة أغلى من الذهب، وأن للثبات أجرٌ يناطح الجوزاء، وأن التضحية لم تذهب هباء منثورًا.

ياَ هَنَاهُ ... ويْحُكَ ! لا تقل : تأخر نصر الله . بل قل : ألا إن نصر الله قريب.

***

الهجرة .. والجهاد الدبلوماسي

ومضى المؤمنون في هجرتهم الأولى ـ وكانت في العام الخامس من البعثة ـ وكانوا عشرة رجال، وأربع نسوة، نعم، جماعة صغيرة، لكنها نواة لجالية عظيمة في الحبشة، سيكون بها سلطان عظيم في مملكة النجاشي.

وهؤلاء تسللوا سرًا؛ لضرورة الواقع المتربص بالدعوة.

وكانوا جميعًا من الأشراف؛ ليعلم الدارس أنها نخبة إسلامية خرجت للدعوة بأرض الحبشة إضافة إلى الاستعانة بها كدار أمن وملاذ من الاضطهاد .

ثم كان الفوج الثاني من مهاجرة الحبشة، وكانت خرجتهم الثانية هذه أعظم مشقة من الأولى، ولقوا من المشركين أذىً كثيرًا .

كانت عدتهم ثلاثة ثمانون رجلاً وثماني عشرة أمرأة .

وسعت قريشٌ للوقيعة بين النجاشي والمسلمين، وأرسلت وفدًا دبلوماسيًا إلى النجاشي لتسليم المسلمين إليها، كما تفعل دول الظلام مع الدعاة في عصرنا، وكان الوفد يتألف من رجلين من دهاة العرب : عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ـ وذلك بالطبع قبل إسلامه ـ؛ وحُملت معهما الهدايا، ورشّوا هداياهم على البطارقة وبطانة الملك، ثم كلما النجاشي، بعد أن منحاه هديةً، وطلبا أن يلقي يقبض على أفراد الجالية الإسلامية ..

أنصتْ لدهاء عمرو، وطرحه وتحليله العجيب :

✍ **قال : " أَيّهَا الْمَلِكُ إنّهُ قَدْ ضَوَى إلَى بَلَدِك مِنّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِك، وَجَاءُوا بِدِينٍ ابْتَدَعُوهُ لا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْت، وَقَدْ بَعَثَنَا إلَيْك فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدّهُمْ إلَيْهِمْ فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ"**[١].

كلمات صاروخية !

تحليلٌ أثقب من المثقاب !

لكنّ هذا الدهاء لم يحل دون غضبة الملك الكريم .

✍ **ولم تحل أيضًا شفاعة البطارقة الذين قبضوا الهدية وقالوا :**
"صَدَقَا أَيّهَا الْمَلِكُ ! قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَأَسْلِمْهُمْ إلَيْهِمَا فَلْيَرُدّاهُمْ إلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ "[٢] .

✍ **قال النجاشي ـ وقد أغضبته هذه الكلمات ـ وهي في ظاهر الأمر حسنة جزلة فصيحة جدًا ـ :**

" لاهَا اللهِّ ! إذَنْ لا أُسْلِمُهُمْ إلَيْهِمَا، ولا يَكَادُ قَوْمٌ جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلادِي ، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ، حَتّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ عَمّا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ أَسْلَمْتهمْ إلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إلَى قَوْمِهِمْ وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي ."[٣] .

---

(١) ابن هشام :١ / ٣٣٤ .

(٢) ابن هشام :١ / ٣٣٤ .

(٣) ابن هشام :١ / ٣٣٤ .

هذا درسٌ في السلطانيات؛ إذ لا غنى للحُكم عن الحكمة، ولا غنى للمُلك عن الفطنة، ولا قوام لدولة غادرة، ولا بقاء لزعيم خائن.

وليس فوق الحاكم العادل منزلةً إلا نبيٌّ مرسل، أو مَلَكٌ مقرّب ..

إن السلطان الصالح مثل الرياح المباركة التي يرسلها الله ـ سبحانه ـ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، فيسوق بها الغمام، ويجعلها لقاحًا للزرع، وسقاءً للضرع، وحياةً للعبد.

هذا هو الرئيس الحُر، النجاشي، لم يكن جبانًا كبعض حكام زماننا؛ إذا نظرتْ له أمريكا نظرةَ تفيد أن سلّم إلينا الشيخ فلان والدكتور علان، سرعان ما يرضخ ويقبل الأيادي والأحذية، ويسلم تسليمًا كثيرًا !

***

وأرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، فَلَمّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَا تَقُولُونَ لِلرّجُلِ إذَا جِئْتُمُوهُ، قَالُوا : نَقُول ـ وَاَللّهِ ـ مَا عَلِمْنَا، وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيّنَا ـ ﷺ ـ كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ . فَلَمّا جَاءُوا، وَقَدْ دَعَا النّجَاشِيّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ؛ سَأَلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ : مَا هَذَا الدّينُ الّذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا دِينِي، وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ [1] ؟.

فَكَانَ الّذِي كَلّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (**رِضْوَانُ اللهّ عَلَيْهِ**)؛ فطرح عليه الإسلام في كلمات دقيقة معدودة، فبدأ بذكر مساوىء الجاهلية، ثم ذكر صفات النبي ـ ﷺ ـ في سطر واحد، ثم عدّد له فضائل الإسلام ومحاسن تعاليمه، ثم أوضح له الإيذاء الذي تعرض له المسلمون، ولم ينس استمالة النجاشي ومدحه بما هو أهله..

✍ **قال جعفر:**

أ) أَيّهَا الْمَلِكُ، كُنّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ،وَنُسِيءُ الجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيّ مِناّ الضّعِيفَ، فَكُنّا عَلَى ذَلِكَ...

ب) حَتّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ ...

ج) فَدَعَانَا إِلَى اللهّ لِنُوَحّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرّحِمِ، وَحُسْنِ

---

(١) ابن هشام :١ / ٣٣٥ .

الْجِوَارِ، وَالْكَفَّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَّ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ ... فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ اللهَّ فَعَبَدْنَا اللهَّ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا..

د) فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا ، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهَّ تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلّ مِنْ الْخَبَائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا...

هـ) خَرَجْنَا إِلَى بِلادِك، وَاخْتَرْنَاك عَلَى مَنْ سِوَاك؛ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِك، وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَك أَيّهَا الْمَلِكُ [١].

***

هكذا فليتخير الداعية كلماته، وليتقن المسلمُ كيف يُعرّفُ بدينه، وكيف يشرح منهجه في كلمات قليلة، خاصة أمام أصحاب السطوة والسلطان.

إن حسن البيان عن الإسلام يرفع قدره، ويعلي ذكره، ويعظم خطره، ويدل على فضل نبيه ـ ﷺ ـ .

هذا الدين يحتاج منا في هذا العصر إلى الإيجاز في شرحه، والتبسيطِ في طرحه، بحيث لا تأخذ من وقت السامع وقتًا يدفعه إلى الملالة والانصراف عنك إلى غيرك.

وأنت قد رأيتَ كيف شرح جعفرُ القضيةَ في دقائق قليلة .

ذلك بأن المكثار كحاطب الليل؛ لا يأمن العقرب والحية، وأفصح الناس من زين المعنى العزيز باللفظ الوجيز. وأوَل العيّ الاختلاط والاضطراب، وأسوء القول الإفراط في الإطناب، ومن أكثر أسقط، ومن أكثر أهجر . وإذا كثر الكلام اختل، وإذا اختل اعتل، وخير الكلام ما قل ودل، ولم يطل فيمل.

يا مسلم، لا تكن طويل اللسان قصير الرأي، مسهبًا ثرثارًا، خطلاً مكثارًا !

تخير الآيات

✍ **فَقَالَ لَهُ النّجَاشِيّ :** هَلْ مَعَك مِمّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللهَّ مِنْ شَيْءٍ ؟

---

(١) ابن هشام :١ / ٣٣٥ .

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ سورة مريم ..فبَكَى ـ وَاَللّهِ ـ النّجَاشِيُّ حَتّى اخْضَلّتْ لِحْيَتُهُ، وبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتّى أَخْضَلّوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ .

ثُمّ قَالَ النّجَاشِيّ : إنّ هَذَا وَاَلّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى؛لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ (١)!

***

هكذا القرآن، إذا وقع على القلوب الصادقة؛ سكن بها، وشرح صدرها، وأسال دمعتها، وحرك وجدانها .

هكذا الآية المناسبة في الموقف المناسب، والسورة الكريمة في الموضوع المناسب ، إنها سورة مريم بين أقوام يحبون مريم، وآيات كريمة تتحدث بأدب جم عن ولادة المسيح، وتحكي عن زكريا ويحيى، وتتلو دعاء خاشعًا خاضعًا ... هنا سالت المدامع، واهتزت الأضالع ،وزفرت الأنفاس، وهمدت الحواس، ولهثت ألسنه البطاركة بالتسابيح والدعاء .

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[المائدة:٨٢].

محاولة أخرى

وهكذا هُزم وفد قريش في الجولة الأولى، فقال عمرو :
وَاَللّهِ لَآتِيَنّهُ غَدًا عَنْهُمْ بِمَا أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ..

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ أَتْقَى الرّجُلَيْنِ: لا نَفْعَلُ فَإِنّ لَهُمْ أَرْحَامًا ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا ؛ قَالَ: وَاَللّهِ لأخْبِرَنّهُ أَنّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

ثُمّ غَدَا عَلَيْهِ مِنْ الْغَدِ فَقَالَ لَهُ: أَيّهَا الْمَلِكُ إنّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إلَيْهِمْ فَسَلْهُمْ عَمّا يَقُولُونَ فِيهِ .

فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ لِيَسْأَلَهُمْ عَنْهُ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ ثُمّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ ؟ قَالُوا : نَقُولُ ـ وَاَللّهِ ـ مَا قَالَ اللّهُ وَمَا جَاءَنَا بِهِ نَبِيّنَا، كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ .

---

(١) ابن هشام :١ / ٣٣٥ .

✍ **فَلَمّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ :** مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؟

✍ **فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ :** نَقُولُ فِيهِ الّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيّنَا ـ ﷺ ـ : هُوَ عَبْدُ اللهِّ، وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ . فَضَرَبَ النّجَاشِيّ بِيَدِهِ إلَى الأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمّ قَالَ: وَاَللهِّ مَا عَدَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ !! فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ ..

✍ **فَقَالَ :** وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاَللهِّ ! اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ شُيُومٌ بِأَرْضِي – وَالشّيُومُ الْآمِنُونَ – مَنْ سَبّكُمْ غَرِمَ، مَنْ سَبّكُمْ غَرِمَ . مَا أُحِبّ أَنّ لِي دَبَرًا مِنْ ذَهَبٍ[1]،وَأَنّي آذَيْت رَجُلًا مِنْكُمْ، رُدّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا ، فَلا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَوَاَللهِّ مَا أَخَذَ اللهُّ مِنّي الرّشْوَةَ حِينَ رَدّ عَلَيّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النّاسَ فِيّ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ.

✍ **قَالَتْ أم سلمة ـ راوية القصة ـ :** فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ ،مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ[2] !

***

يا لله ! كلما أوقدوا نارًا للحرب؛ أطفئها الله، كلما خطّوا خطة على الإسلام؛ ردها الله في نحورهم، كلما مكروا؛ مكر الله بهم ..

إنه دين الله تكفل بحفظه، يكلؤه بعنايته، إن تنم عنه عيونُ المسلمين فعين الله لم تنم .

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١]

***

أرأيتَ كيف أن الصدق نجاة، وأن حُسن البيان نعمة، ووسيل لا غنى عنها في تبليغ الإسلام.

وأن الحاكم العادل خير من خِصْب الزمان.

وأن ليس كل من اختلف معك فهو عدوك؟

---

(١) الدَّبْرُ بلسانهم الجبل، وفُسِّرَ الدَّبْرَى بالجبل قال ابن الأَثير هو بالقصر اسم جبل . [**لسان العرب** (٤ / ٢٦٨)] .

(٢) ابن هشام :١ / ٣٣٧، ٣٣٨ .

✍ **تأمل :** جعفر على دين ـ هو الإسلام ـ، والنجاشي على دين ـ هو النصرانية ـ، وعمرو على دين ـ هو الوثنية ـ، بيد أن عبقرية الداعية الإسلامي جذبت النجاشي إلى صف المسلمين؛ وذلك بالنية الصادقة، والحجة القوية، والكلمة البليغة، الأفكار البديعة، والاستمالة الرفيقة الرقيقة .

قد يكون الحق في صفك؛ ولكنك تضيعه بسوء تصرفك . وهذا هو عجز الثقة .

وقد يكون الباطل في جانبك؛ ولكنك تثبته، وتزخرفه، فتجعل منه حقًا وحقيقةً؛ بالقول البراق، والطرح المنمق، واللسان المجادل العليم .

وهذا هو جلد الفاجر.

يا سيدي، تزين لدعوتك، وجوّد خطبتك، وحبر كلمتك، فأهل الباطل يسهرون آناء الليل يبتكرون، ويبدعون أنجع الطرق في حبكة درامية لفيلمٍ فسل !

***

✍ **مرة أخرى تأملْ :** جعفر على دين، والنجاشي على دين، وعمرو على دين، ونجح جعفر في كسب النصرانية إلى صفه ضد الوثنية، ونحن في عصرنا نجح اليهود في استقطاب النصرانية في صفهم ضد الإسلام.

ولم نستثمر العداء التاريخي بين اليهود وبين النصرانية.

إذ يعتقد أغلب النصارى أن اليهود هم قتلة المسيح، وهم السبب في خراب المسيحية .

ومع ذلك نجح اليهود بنفيرهم الإعلامي والاقتصادي في جذب النصرانية إليهم.

ثم إن هذا ـ أيضًا ـ بسبب تخاذلنا عن دعوتنا الحضارية بين الأمم.

واستعداء أعداء هم ليسوا لنا بأعداء، على طريقة الحرب على مذهب فقهي معين أولى من الحرب على الماسونية!

انظر كيف استقطبت الصهوينة العالمية أتباعَ النصرانية في حملاتها العسكرية والإعلامية على فلسطين.

وكيف أن العالم النصراني يرى القضية الفلسطينية بعيون يهودية، في حين أن الإعلام العربي والإسلامي يكاد يكون مغيبًا.

توصيات عملية

١ – اقرأ سورة مريم كما قرأها جعفر، واستمع إليها وأنصت كما صنع النجاشي، وطالع تفسيرها، واكتب خاطرة حولها، واستخلص منها توصية عملية .

٢ – اكتب إلى كافرٍ رسالةً من صفحة واحدة فقط ـ بخط يدك ـ تشرح له فيها الإسلام.

٣– أرسلْ رسالةً، صغيرة جدًا، مؤثرة جدًا، عبر الجوال؛ لشاب تدعوه إلى الالتزام والتدين والعودة إلى الله .

٤ – اكتب مقالة رأي في إطار رسالة مفتوحة لمسؤول فاجر، أو لوزير فاسد، أو لحاكم ظالم، تنصحه في الله، وتأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر .



مع عمرو بن عبسة

هذا درسٌ في فقه الداعية لبيئة الدعوة، وطبائع العباد، ومعادن الرجال . درسٌ في الذاتية، والرغبة الجادة في البحث عن الحقيقة. درسٌ في طبيعة المراحل الأولى للدعوة. درسٌ في أصلين كبرين ينبغي على المسلم أن يثقل نفسه فيهما .

***

✍ **قَالَ عمْرُو بْنُ عَبسَةَ السُّلَمِيُّ :**
كُنْتُ وَأَنَا فِى الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَىْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِى فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ؛ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ مُسْتَخْفِيًا، جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ؛ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ ؟

✍ **قَالَ :** « **أَنَا نَبِىٌّ** ».

✍ **فَقُلْتُ :** وَمَا نَبِىٌّ ؟

✍ **قَالَ :** « **أَرْسَلَنِى اللهُ** ».

✍ **فَقُلْتُ:** وَبِأَىِّ شَىْءٍ أَرْسَلَكَ ؟

✍ **قَالَ :** « **أَرْسَلَنِى بِصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَىْءٌ** »

✍ **قُلْتُ لَهُ :** فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا ؟

✍ **قَالَ :** « **حُرٌّ وَعَبْدٌ** ».

✍ ... **فَقُلْتُ :** إِنِّى مُتَّبِعُكَ.

✍ **قَالَ :** « **إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلاَ تَرَى حَالِى وَحَالَ النَّاسِ ؟ وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِى قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِى** ».

✍ **قَالَ عمْرُو بْنُ عَبسَةَ السُّلَمِيُّ :** فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِى، وَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ الْمَدِينَةَ، وَكُنْتُ فِى أَهْلِى، فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الأَخْبَارَ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ؛ حَتَّى قَدِمَ عَلَىَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ ـ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ـ فَقُلْتُ : مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِى قَدِمَ الْمَدِينَةَ ؟

✍ **فَقَالُوا :** النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ، وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ. فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَتَعْرِفُنِى ؟ قَالَ : « **نَعَمْ أَنْتَ الَّذِى لَقِيتَنِى بِمَكَّةَ** ».

✍ **قَالَ :** فَقُلْتُ بَلَى. فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ، أَخْبِرْنِى عَمَّا عَلَّمَكَ اللهُ وَأَجْهَلُهُ [١] .

***

الذاتية في البحث عن الحقيقة

حينما تتقد شعلة الإيمان؛ يتحرك الإنسان في كل مكان، يبحث، يجوب، لا يهدأ له بال حتى يصل إلى الحقيقة الكاملة، فهذا الرجل (**عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ**) من أهل الفطرة السليمة، اكتشف بنفسه فساد واقعه، وبطلان عبادة الأوثان والمعتقدات الجاهلية المختلفة؛ حتى إنه كان يعتقد أن الناس في انحلال مريع، حيث وصل بهم الفساد إلى أن عبادوا ما نحتته أيديهم !

إن هذا الوسط الفاسد، دفع هذا الرجل الحر الإيجابي إلى الحركة والبحث عن سبيل المهتدين، وفور سماعه لأخبارٍ تقص من شأن رجل يدعو إلى نبذ عبادة الأوثان ـ سرعان ما ارتحل الرجلُ راحلته متوجهًا إلى مكة.

وكانت الملاحظة الأولى له؛ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان مستخفيًا ..

***

تخفي وصبر

كان حال النبي ـ ﷺ ـ في غالب المرحلة السرية وفي بعض المرحلة الجهرية هو التخفي، وهذا لاتخاذ دار الأرقم التي كانت في المرحلتين السرية والجهرية؛ وكان العمل فيها سِرّيًا على كل حال، كيما يواصل النبيُ ـ ﷺ ـ عملية التكوين الداخلي للجماعة المسلمة، إضافة إلى وجود شريحة كبيرة من المسلمين تخفي إسلامها . والإعلان عن هويتها في هذه المرحلة سيضر بها وربما يضر بالدعوة نفسها؛ حيث تصبح الدعوة أحرج وضعًا حينما تُكشف جميع أوراقها، أو تتقرش قوتها في بقعة بعينها .

***

(١) أخرجه مسلم (١٩٦٧) .

أما الملاحظة الثانية لعمرو بن عبسة، فهي تشير إلى جرأة قريش على النبي ﷺ وأن قومه جرءاء عليه، وهذا يدلل على أن قدوم عمرو بن عبسة كان بعد إعلان جهرية الدعوة، إذا لم يتجرأ الناسُ على النبي ـ صلى عليه وسلم ـ في السنوات السرية الثلاث.

ومن ثم تدل هذه القصة على حالة التخفي التي اتخذها المسلمون لمحاولة امتصاص الغضبة التي غضبتها قريشٌ فور الإعلان عن الإسلام، إذ شرع كل رائد في قومه بالتنكيل بالمسلمين الضعفاء.

ويبدو من ذلك أيضًا أن عمرو بن عبسة دخل مكة في ساعة حرجة جدًا؛ عمليات تعذيب بشعة تُمارس على المسلمين، سواد الضعفاء في تخفٍ وكتمان؛ يبطنون الإيمان ويظهرون الكفر، القيادة الإسلامية تتحرك بحذر شديد، تتم الفعاليات التربوية خفيةً في دار بعيدة عند الصفا، ودخول رجل غريب عن مكة إلى النبي ـ ﷺ ـ فيه خطورة على الدعوة والداعية والمدعو. هكذا كانت الصورة والله أعلم .

***

العقيدة والأخلاق

ودخل عمرو بن عبسة على النبي ـ ﷺ ـ وتلطف في الدخول، وهذا التلطف إنما هو من أدب طالب العلم في دخوله على العلماء، وهو من أدب مريدي الإصلاح في دخولهم على أولى الفضل والخبرة ...

كانت إجابة النبي ـ ﷺ ـ تتفق ـ دومًا ـ وطبيعة السائل والواقع، فقد قال له ـ ردًا على سؤاله: " **وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ** " ـ:

« **أَرْسَلَنِى بِصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَىْءٌ** »

هذا هو تعريف الإسلام في هذه المرحلة، وهذا هو التعريف الذي قدمه ـ النبي ﷺ ـ لهذا الرجل الذي قصد التعرف على الإسلام، وهو في تشوق واضح لمعرفة كل قول وفعل في هذا الدين الجديد .

إن الذين يسكبون النصوص الإسلامية جملةً واحدة في آذان الناس؛ لهم على خطأ، ولهو من الحمق والرعونة .

إن الذين يبدئون بالفروع دون الأصول، ويجتزئون من الدين، فيُظهرون غير الأوْلى، ويجرون الناس في متاهات ضبابية في خلافيات الفقه، ومسافات جليدية في تقعرات المتون، لهم على شر، لهم على شر، لهم على شر !

فالأصل في عرض الدعوة والترويج لسلعة الله الغالية ـ هو التبسيط والتشويق؛ كما ترى من رد النبي ـ ﷺ ـ إذا منحه وجبة أولية تَعَرَّفَ فيها الرجلُ على أصلين كبيرين في الدين، وأمهله وشوّقه؛ على أن يلتقي به بعد أن يظهر الدين وتقوم الدولة فيعلمه ما بقي، وقد كان، فقد جاء عمرو بن عبسة إلى النبي ـ ﷺ ـ بالمدينة المنورة، حيث دولة المسلمين، فأوضح له النبي ـ ﷺ ـ أمور الصلاة .

وكان حق العباد وحق الله هما الأصلان . فذكر من الأول صلة الأرحام، وذكر من الثاني محاربة مظاهر الشِرك .

أصلٌ أخلاقيٌ، وأصلٌ عقائديٌ . وعلى هذين المحورين دارت التربية النبوية في دار الأرقم، أخلاق وعقيدة، وعلى هذين المحورين ركّز القرآن المكي؛ آيات تهذب النفوس بمكارم الأخلاق، وآيات تطهر القلوب من عبادة الأوثان.

هكذا كان الشغل الشاغل للمرحلة المكية كلها؛ التربية الإسلامية الراسخة على أصلين كبيرين الأخلاق والعقيدة .

فيا ويح هؤلاء الذين أضاعوا المنهج التربوي، وشغلوا طلاب الإصلاح بترهات من هنا وهناك، وأقحموا الشباب في مسائل لا تنفع، وتفاهات لا تجمع، وبين عشية وضحاها يتحول العربيد إلى فقيه مجتهد يقول : نحن رجال وهم رجال !

***

صراحة وهمة

✍ **قال : " ... وَكَسْرِ الأَوْثَانِ "** ..

قالها أيام الإيذاء والتعذيب . قالها ولم يخش إلا الله . قالها لأن الأصول ثابتة، والتوحيد لا يتغير، والعقيدة واحدة في كل المراحل وفي كل الظروف . قالها لأنه لا يجوز التخلي عن أصول العقيدة أو المساومة عليها أو إخفائها أو سترها، أو إظهار شيء و إخفاء شيء منها.

"...كَسْرِ الأَوْثَانِ".. قالها .. ويحمل في قلبه همةٌ تناطح الجوزار؛ ويعجب البعض؛ أنّى له ذلك وقد عجت الجزيرةُ العربية بهذه الأوثان، ورسخت في عقول الناس رسوخ الجبال، فلها يذبحون، ولها ينذرون، وفي سبيلها ينفقون، ولا تركع العربُ إلا لها؛ فهم لها يُصلّون..

إنها الهمة العالية التي تحدوه إلى إظهار كل أصول الدين رغم هذه الوثنية المطبقة. ورغم هذه الأوثان المنحوتة التي انتشرت، والأصنام المنجورة التي كثرت؛لم ييأس، ولم يتراجع، ولم يستثقل صعوبة المهمة.

هكذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ له همة على هامة النجم، همةٌ تعزل السماك الأعزل سموا ، وتجر ذيلها على المجرة علوا .

***

التعمية عن المؤمنين

✍ **قال عمرو بن عبسة :** فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا ؟

✍ **قَالَ النبي ـ ﷺ ـ :** « **حُرٌّ وَعَبْدٌ** ».

وهذه توريةٌ على الأرجح؛ إذا لا يُعقل أن عدد من أسلموا ـ خلال مرحلة الدعوة السرية ـ محصور في شخصين، حر وعبد !

✍ **وقوله :** حر وعبد ينسحب ـ من الناحية اللغوية والبلاغية ـ على جمع غفير من الأحرار والعبيد؛ إذ هذا الجمعُ يتألف من حر وعبد !

ولماذا التورية ؟ ولماذا لم يخبره بعدد أفراد الجماعة؟ ولماذا لم يُصرح له بأسماء أشراف الدعوة الإسلامية ورجالاتها من أولي الحسب والمال ؟

إن طبيعة المرحلة المكية عامة وظروف الاضطهاد خاصة تقتضيان ذلك، خشية أن يتعرف المشركون على العدد الحقيقي للمسلمين، الأمر الذي يساعد الوثنية على احتواش المسلمين، فيترصدوهم، فيرصدوا لهم القوة المناسبة للانقضاد على أفرادها وانتشالهم زَرفات وواحدنًا، وضربهم ضربة قوي خبير .

وهو درس لرجال الدعوة، أن يكونوا ستارًا للمؤمنين، وحصنًا لضعفاء المسلمين؛ فليس من أخلاق قائد الدعوة أن يقذف برجاله أمام فوهة المدفع؛ متكلاً على إيمانهم وثباتهم، فيفتن المؤمنين، فيخسر ويخسرون .

إن قائد الدعوة يتحرى دومًا التعمية عن رجاله؛ كما يظلل الأب على أبنائه .. ولهذا أَثَرٌ بعيد في تعميق العلاقة بين القائد وجنده أو بين الأخ وأخيه؛ لِـما يـراه الأخُ مـن تلهفِ أخيه عليه خشيةَ أن يمسسه سوء .

***

وسؤال عمرو بن عبسة ـ " **فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا ؟** " ـ يظهـر لـك طبيعـة الجماهـير وعامة الناس من الدعوات؛ وتأثرهم بالكم لا الكيف، إن العامة تغتر بالدكان الـذي اقتظ حوله المبتاعون، وبالموقع الذي كثر زواره؛ وبالمنتدى الذي كثـر رواده، يغـترون بهذا، ولا يهتمون في الغالب الأعم بالمضمون أو بمدى مصداقية هذا الموقـع وسـلامة منهجه .

أما العقلاء المخلصون فيهتمون بمضمون الحق لا بظاهره وإن عـزف عنـه النـاسُ أجمعون.

***

رجال ورجال

✍ **قال عمرو بْن عَبَسَة : فَقُلْتُ : إِنِّى مُتَّبِعُكَ !**

✍ **فقَالَ النبـي ـ ﷺ ـ : " إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلاَ تَرَى حَـالِي وَحَـالَ النَّاسِ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِى قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِى "**.

وهذا الرد يفيدك أن الدعوات تكون أكثر فعالية في البيئة الحرة، عندما تُرفع القيود، ويُطلق الدعاة يبلغون رسالات الله بكامل إرادتهم دون حظر أو منع؛ هذه هي أنسب بيئة لنمو الدعوات بين عامة الناس، وأفضل الأوقات لجذب الجماهير. أما من ينضم إلى الدعوة أثناء محنتها وفي وقت حظرها ـ فهم أولي العزم والصبر والثبات، وهم دومًا من يقيمون الدعوات، فلم نرَ في تاريخ الإنسانية دعوة قامت إلا على أكتاف من دخلوها في فترة محنتها، وصبروا على لأوائها، وكابدوا صعابها، وقاموا كثيرا في سبيلها، وناموا قليلاً من أجلها. فالأيادي الناعمة لا تبني الدول، والمترفون لا يصنعون حضارة .

ولذلك لا تعجب إذا علمتَ أن مؤسسي الحركة الصهيونية تركوا رغـد العـيش في أوربا، وتركوا بيوتهم وأموالهم، وهاجروا متجردين من أجل فكرتهم، وكابدوا القتال

في فلسطين من أجل إقامة دولتهم الباطلة، ونجحوا في ذرع هذا الكيـان الـسرطاني في جسد الأمة الإسلامية .

ولا تعجب إذا علمتَ أن كارل ماركس ـ مؤسس الشيوعية ـ كان لا ينام إلا أربـع ساعات، ثم يمضي آناء نهاره في الدعوة، وآناء ليله في الكتابه، وهو بين ذلك متقـشف تقشف الزاهد العابد .

هكذا أهل الباطل في باطلهم، فأحرى بأهل الحق أن يتخلقوا بأخلاق نبيهم .

أما الذين يقطفون الثمرة سهلة دون تعب، فإنما يـأكلون ويتنعمـون في جهـد مـن بذلوا وضحوا، وليس من يحمل الدعوة كمن تحمله الدعوة، وليس من أسـس بنيـان كمن لم يبذل شيئًا سوى العيش في ظلاله .. ليس صانع البئر كالشارب منه.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

***

طاقة الناس وبيئة الدعوة
"أَلاَ تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ" !

ليس من الحكمة تكديس أبناء الدعوة في بقعة خطرة؛ فهذا أجدر لضربها، بل كان رسول الله ـ ﷺ ـ يسعى دومًا لإنشاء عدة قواعد للدعوة، فإذا ضُربت في قاعدة انبرت أخرى تحمل اللواء، وتم ذلك في إنشاء جالية إسلامية في الحبشة، ومحاولة إيجاد دعـوة في الطائف، وإرسال مصعب إلى المدينة تمهيدًا لبناء المجتمع الإسلامي الجديد.

وليس من الحنكة ـ أيضًا ـ فتح باب الانضمام إلى الدعوة ـ في مراحلها الأولى ـ على مصراعيه؛ بحيث يدخل الصالح والطـالح، والواثـق والمـتردد، إن الـدعوة تحتـاج في مراحلها الأولى إلى الانتقائية، واختيار العناصر الأفضل، والمعـادن الأخلـص، فأنـت ترى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قَبِل إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي وكلّفه بمهمة الـدعوة في قبيلة دوس، بيد أنه ـ ﷺ ـ أخّرَ قبول إسلام عمرو بن عبسة، وذلك لمعرفة النبي ﷺ بمعادن الرجال، وشرفها، وفضلها، وقدرتها في تحمل الصعاب والبلاء، كما أن الطفيل

كان سيد قومه وشاعرهم، ولم يذكر كُتاب السير أي سيادة لعمرو بن عبسة، فمن الحكمة النبوية عدم تكليفه بأي نشاط دعوي؛ إذ ربما فتنته قريش أو فتنه قومه، فيحيد ولا يعود، كما الظبية إذا برزت، كانت صيدًا لصائدٍ ، أما الأسد؛ فليس غنيمة سهلة، فلا تضيره وقفته على الربوة.

وعليك يا داعي الله أن تتخير من معادن القوم، وتنتق أطايب الرجال، ولا تكلف الناس إلا في حدود طاقتهم، ألم تعلم أن ربك قال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٨٦]

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف:٤٢]

***

"أَلاَ تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ " !

هذه الكلمة التي تنفطر لها قلوب المؤمنين، تبين لك حالة الكرب التي عاشها سيد الداعين، هذا النبي الصابر المحتسب، لم يتعجّل النصر، ولم يمتعض من القدر ، وهو ﷺ أولى الناس بشرف سرعة الإجابة والتمكين، ولكنَّ الله يسن سننًا، وينظم نواميس، ويرسي معالًما، ذلك لكيما نعلم أن تحرير العقول وبناء الأمم وإقامة الدول تحتاج إلى الصبر، ثم الصبر، ثم الصبر.

نعم، لقد كان حال الناس سيئة، سيئة في تصوراتهم، سيئة في أخلاقهم، سيئة في تعاملها مع منهج الله . كان حالهم الإيذاء والتكذيب، والرفض التعذيب ..

وكانت حالك ـ صلى الله عليك ـ حال الداعي الواثق من نصر الله، المتفهم لسنن الكون، المتبصر بحاضرك وطبيعة مجتمعك .. تعرف جيدًا حالك وحالهم!

***

يا قارئي ..

– اعرف حالك، وافهم قدراتك، فربما تظن فيك العجز وأنت القوي الأمين؛ فامض في سّرٍ مِن حِفْظ الله، وحِجاب من كلاءته في دعوته ورسالته، امض الآن! فاعص بالله وأطع بالله، غير مبالٍ في رضا الخالق بسخط المخلوق.

– واعرف حال الناس، تاريخهم وثقافاتهم، أنظمتهم وطبائعهم، خصالهم الحميدة ومسالبهم القبيحة، مفاتيح نفوسهم ومغاليق قلوبهم .. تفهَمْ موقفهم من الدعوة، في أي السبل بك يلتقون ، وفي أي الأفكار معك يتفقون .. واقرأ مقدمة ابن خلدون.



١ – رَسّخ نفسك في بابي الأخلاق والعقيدة، علمًا وعملاً، قولاً وفعلاً ..

٢ – صل رحمًا واكسر صنمًا . زرْ والدَيْك أو قِفْ على قَبريْهما، واكسر عادة من عاداتك، عادة لا تفيد، أو عادة أثمُها أكبر من نفعها .



شهادة صدق من أبي جهل

يا أيها الذين آمنوا اطمئنوا لدعوتكم، وثقوا في شرعتكم، وافتخروا بمنهجكم، وأعلنوا مبادئكم .. جهارًا نهارًا، لا تخشوا في الله لومة لائم؛ وإن غضب عليكم البغضاء، أو سخط عليكم السفهاء.

النفعيون ينظرون إلى همتكم وإخلاصكم نظر الأسير الذليل إلى الحرية؛ فهم يحسدونكم على تلذذكم بالجهاد والعمل من أجل كلمة الحق، وهم العجزة المهزومون ألف هزيمة من داخلهم، المنكسرة نفوسهم أمام بريق المال، ورونق السلطة، وسوط العدو.

***

هذا نفر من كبراء مشركي مكة خرجوا من بيوتهم ليلاً ـ في تخفٍ من قومهم ـ نحو بيت النبي ـ ﷺ ـ ليستمعوا وليتجسسوا أمر القرآن الذي اخْتَلَفَ فيه الناسُ.

أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق؛ يعرفون أن محمدًا يقوم الليل، يقرأ القرآن . والفرصة الوحيدة للاستماع إليه تكون في هذا الوقت حيث تهدأ الرِجِلُ، وينام الناس، ولا يراهم السفهاء، فيظنوا بهم شرًا .

***

انظر إلى هذا المشهد المضحك؛ يخرج السادة الثلاثة ـ تحت جناح الليل ـ من بيوتهم فيأخذ كل رجل منهم مجلسًا عند بيت النبوة، ليسمع القرآن، وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه، يمكثون ساعات طويلة يستمعون القرآن، وعلى مدار قطع كبير من الليل مع الهدوء والسكينة، فيتأملون نظْمَه، ويعجبون لفَصْله ووصله، ويحملقون في رسمه ووصفه، يبيتون على هذه الحال حتى يطلع الفجر، فيقومون؛ فيجمعهم طريقُ العودة إلى ديارهم، فيتلاومون تلاوم النصحاء ! فيقول بعضهم لبعض : " **لا تَعُودُوا ، فَلَوْ رَآكُمْ بَعْضُ سُفَهَائِكُمْ لأَوْقَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا** " .. ثم ينصرفون على هذه النية، فما إن يأتي الليل، وتنام الأجسام؛ إلا وتستيقظ قرائحهم شوقًا في أخذ وجبة قرآنية جديدة عجيبة، فيخرج الواحد منهم إلى بيت النبوية كالعادة، فيظن أنه الوحيد الذي خرج،

فيأخذ مكانه، ويقضي ليله يستمع إلى أجمل صوت، وأعظم كتاب، من أطهر بيت، وفي أصفى وقت ـ فلا يقوم من مجلسه إلا عند الفجر، فيجمعه الطريق مرة أخرى بإخوانه؛ فيقول بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، وهكذا يعودوا ويقولوا، حتى كانت ليلة؛ قال بعضهم لِبَعْضٍ: **"لا نَبْرَحُ حَتّى نَتَعَاهَدَ ألا نَعُودَ !!"** ..

يا لله ! كأن في القرآن قوة جاذبة لا تُقاوم، أو كأنما يجري القرآنُ في عروقهم كالخمر، فباتوا وقد ثملوا وأدمونوه !

وهم أهل الشعر والبلاغة، والنثر والخطابة، وقد أوردت كتبُ السير أشعارًا لأبي جهل وأبي سفيان .

لقد تذوقوا هذا القرآن تذوق الأديب والناقد الأريب.

وعجبوا له، كما عجب له من بعدهم أساطين العربية، وأباطره الفكر، وصناديد الفلسفة .

***

أراد الأخنسُ بن شريق؛ أن يعرف سر هذا اللغز، وتفسير فعل القرآنُ بهم، فخرج الرجلُ حتى أتى أبا سفيان.

✍ **فَقَالَ :** أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِك فِيمَا سَمِعْت مِنْ مُحَمّدٍ ؟

✍ **فَقَالَ :** يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ، وَاَللهِّ لَقَدْ سَمِعْت أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا وَأَعْرِفُ مَا يُرَادُ بِهَا ، وَسَمِعْتُ أَشْيَاءَ مَا عَرَفْتُ مَعْنَاهَا !

✍ **قَالَ الأخْنَسُ :** وَأَنَا الّذِي حَلَفْت بِهِ كَذَلِكَ !

✍ **ثُمّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فَقَالَ :** يَا أَبَا الْحَكَمِ، مَا رَأْيُك فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمّدٍ ؟

✍ **فَقَالَ :** مَاذَا سَمِعْتُ .. تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشّرَفَ؛ أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا ، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا ، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتّى إذَا تَجَاذَيْنَا عَلَى الرّكْبِ، وَكُنّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ؛ قَالُوا : مِنّا نَبِيّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ السّمَاءِ؛ فَمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ ؟ وَاَللهِّ لا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا ولانُصَدّقُهُ !!!

فَقَامَ عَنْهُ الأَخْنَسُ، وَتَرَكَهُ[1] .

---

(١) ابن هشام : ٢ / ١٥٦، ١٥٧.

أراد الأخنسُ أن يفهم تفسير ما حدث لهم، من عشق لا إرادي لسماع القرآن، فهداه بحثه إلى سماع الاعتراف الصارخ الواضح الصادع من فرعون هذه الأمة.

وكانت الحقيقة؛ أن محمدًا ـ ﷺ ـ هو النبي الصادق، وكتابه هو كلام الله حقًا.

وكانت تبريرات أبي جهل سفِهةٌ ضحلةٌ؛ قائمة على التعصب الأعمى للقبائل والعائلات، بُغية الحفاظ على السلطة والوجاهة بين الناس . وهذه الأباطيل والأضاليل هي التي صرفته عن سواء السبيل.

﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]

***

هكذا جُلُ أصحابِ السلطةِ والمصالحِ الشخصيةِ؛ ترى كثيرًا منهم يتولون عن منهج الله الحق خوفًا على مصلحة دنيوية عاجلة، أو تجارة زائلة، أو وجاهة باطلة، أو سلطة فانية .

هذه هي شخصية الرجل النفعي .. إن كانت الدعوة لا تضر مصالحه؛ فهو إذًا الرجلُ المتشكك المتردد، الذي يترقب دوران دورة الدعوة ويخشى أن تدور على مصلحته الشخصية .

وإذا كانت الدعوة تخالف مصلحته الشخصية وتعارض أهوائه المريضة العبثية، فهو منها براء، وهو العدو اللدود لها، فلا يزال يجاهدها بلسانه ويده، ولا يزال يبرر ويحلل تحليلات سطحية فاسدة من أجل أن يجعل مصلحته الشخصية الباطلة فوق المصلحة العامة الحقة .

***

التنافس الدنيوي إذا اتسعت مساحته؛ لا يأكل إلا من مساحة الدين .

دائمًا نرى الطغاة يبررون ظلمهم للدعوة على أسس مادية تجارية .

استكبار الباطل، هو الاستخذاء في مقابل المحافظة على عرض ذائل !

دائمًا نرى المتعصبين للعائلات أقل المتعصبين للحق والدين .

بعض الناس يقدس عائلته وعاداتها وأعرفاها تقديسًا يربو نحو العبادة !

ينبغي أن يَخْلُصَ المرءُ لدينه، وأن يعلي من وشيجة الدين، ويجعله فوق آصرة الدم، فإذا تباينت مصلحة العائلة ومصلحة الدين؛ فليقدم المصلحة التي تنقذه من التحريـق بالنار يوم القيامة .

***

ومضة

إن ملك الموت لا يفرق بين عائلة وعائلة في صفة الدخول وقبض الأرواح، بيد أنَّ العاقبة للتقوى .

حادثة

مر رجلٌ على قبرين متجاورين متهدمين الأول لوزير حسيب والثاني لفقير غريب؛ قد اختلط عظامهما، فلم يستطع أحدٌ أن يفرق بين عظام الوزير التي تنعمت، وعظـام الفقير التي ذاقت الحاجة والعوز ألوانًا وأشكالاً ..



- هل لك في تجارة مع الله ؟
- افعل كما كان يفعل الرسول ـ ﷺ ـ في بيته.
- أسْمِعْ بهذا القرآن وتهجدْ، وأنذر به أحفاد الفراعنة !



أُبيٌّ بن خلف وعُقبة بن أبي مُعَيط

كان أُبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط، صديقين متصافيين، وكانا من ألد أعداء النبي -ﷺ- وكانا أكثر الناس إيذاءًا لرسول الله ﷺ .

وفي يوم، أراد عقبة بن أبي معيط أن يجلس إلى رسول الله ﷺ بين الصحابة، ليسمع منه وينظر، فقد كان مجلس رسول الله -ﷺ- مجلس أدب وأخلاق، وعزب حديث، وجمال بيان، وعبر وعبرات..

ولا زال عقبة يجلس في مجالس النفحات النبوية، حتى أوشك على الدخول في الإسلام، وظن الناس أن بشاشة الإيمان في طريقها إلى قلب "عقبة"؛ فتكسب الدعوة قائدًا من قادات مكة .

وترامت الأخبار إلى مسامع صديق العُمر" أُبي "، فأتى " عقبة " فقال له في حسم وحزم :

"ألم يبلغني أنك جالست محمدًا وسمعتَ منه ! ؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلمك (واستغلظ من اليمين) إن أنت جلستَ إليه أو سمعتَ منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه"[1] ..

فغرق " عقبة " لحظات سريعة في صراع نفسي، بين طريق محمد -ﷺ- وطريق أُبي ابن خلف ..

وكان لزامًا عليه الاختيار، إما الإسلام ويخسر الصديق، وإما الصديق ويخسر الإسلام، ولكن شيطان عقبة قد أرداه خسيرًا خسيئًا، فذهب إلى مجلس رسول الله ﷺ بوجه حديد وبقلب عتيد، وخُلق عنود، ونفس خائبة مهزومة أمام سطان الصداقة النكدة، فبزق عدوُ الله في أكرم وجه سجد لله، وأطهر وجه طلعت عليه الشمس، وزاد الفاجر في جُرمه، فسبَ رسول الله سبًا شنيعًا، في مجلس الطهر والإيمان بين ظهراني المؤمنين المستضعفين ..

---

(١) ابن هشام ١/ ٣٦١ .

وأمعن في بغيه، ليسمعَ السامع، ولشهد الغائب، ولتتحدث مكة عـن تلـك التَفلـة التي طاب بها قلب " **أبي بن خلف** " عليه وعلى صديقه لعائن الله ! .

الرد القرآني

ولما جُرحت مشاعر النبي الكريم؛ إثر هذا الموقف المخجل، والإهانة الوقحة، مـن رجل يعده بعض الناس من جلساء محمد، أراد الله – جل في علاه – أن يطيب بوجدان الرسول المكسورِ، وأن يمسح على جراحات نفسه بيـد حانيـة، مـع كلـمات مواسـية، فيجلو القلب المكلوم، فتزول آثار الألفاظ النابية والأفعال الجارحة :

فنزل قول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـالِمُ عَلَىٰ يَدَيْـهِ يَـقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧،٢٩] (١).

" مشهد الظالم يعض على يديه من الندم والأسف والأسى ... ويصمت كـل شيء من حوله ؛ ويروح يمد في صوته المتحسر ، ونبراته الأسـيفة؛ والإيقـاع الممـدود يزيـد الموقف طولاً ويزيد أثره عمقاً . حتى ليكاد القارىء للآيات والسامع يشاركان في الندم والأسف والأسى ...ولاتكفيه يد واحدة يعض عليها . إنما هو يداول بين هذه وتلك ، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضه على اليدين . وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيماً " (٢).

إذ يوم القيامة يكون الندم المرير على صحبة صالحة تركها المرء إلى صحبة طالحة، وماذا تراه يقول عن صحبة الصلاح والخير التي كانت فيها النجاة، لقد قال ما قصه الله :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـالِمُ عَلَىٰ يَدَيْـهِ يَـقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:٢٧] ، في صحبة المؤمنين، وخلة الصالحين، ولكن هيهات هيهات !

---

(١) انظر تفاصيل القصة في السيرة الحلبية ٢/ ٣٧٤ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن، سورة الفرقان، الآيات ٢٧-٢٩ .

عقاب الدنيا وعقاب الآخرة

كان عقاب الآخرة لأصحاب السوء كما رأيت في آيات الله التي نزلت، تصف حالهم يوم القيامة، ذلك اليوم الرعيب الذي يتحول فيه البشر إلى خصوم وأعداء بعضهم لبعض؛ إلا أصدقاء الخير، وجماعة البر : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[الزُّخرُف:٦٧] .

أما عقاب الدنيا، فلا يخفى على عاقل بصير .. فأنت ترى من حال أصدقاء السوء أعاجيب القصص وأغاريب الحكى في مواقف النذالة، والخسة، والجبن، والخيانة، والغيبة، والنميمة، والسرقة، وفساد المال والصحة، والبغي، والعدوان، والبغض، والتحاقد، والتخاذل.. وحسبك من هذه الدواهي عقاب !

كم سمعنا عن صحبة فاسدة تمخض عنها خيانة الصديق لصديقه في أهل بيته من زنى وهتك عرض !

وكم سمعنا عن صحبة طالحة نجم عنها سرقة الصاحب لصاحبه !

وكما سمعنا عن صحبة نكدة ترتب عليه خذلان الخليل لخليله وقت الشدة !

✍ **وصدق الشاعر :**

جزى الله الشدائد كل خير * عرفت بها عدوي من صديقي**

✍ **وصدق آخر :**

إن الصديق الحق من يقف معك * ويضر نفسه لينفعك !**

وإذا ريب الزمان صدعك * فرق فيك شمله ليجمعك !**

✍ **وقال أبو العتاهية :**

وحدةُ الإنسان خير * من جليس السوء عندَه**

وجليس الخير خير * من جلوس المرء وحده**

واعلم أخي، أن صداقة السوء، نهايتها سوء، وخير ما نمثل به نهاية عقبة بن أبي معيط يوم بدر، حيث أمر رسول الله –ﷺ– بقتله من دون الأسرى مع النضر بن الحارث، وذلك لشدة عداوتهما للإسلام، وما فعلاه بالمسلمين والمسلمات أيام الاستضعاف في مكة .. فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «**أن عقبة لما قُدم للقتل**

نادى: يا معشر قريش مالي أُقتل من بينكم صبرًا فقال له النبي -ﷺ -: بكفرك وافترائك على رسول الله » .. وفي لفظ «**ببزاقك في وجهي**»[١] .

آلآن وقد عرفتَ يا عقبة - يا صاحب الجليس السوء - أن البزقة التي بزقتها في وجه رسول الله -ﷺ - كانت عليك لعنة ..

دارت لعنةُ تلك التفلة مع دوران الزمان وفق نواميسه التي لا تنخرق، حتى قابلتك في كبدك يوم بدر طعينًا، فقتلتك صبرًا بين يدي رسول الله، فأنت الأذل وهو الأعز !

إنها نهاية صحبة السوء وجلسات السوء .. هكذا كان كيرها الخبيث وحرها الشديد، وترتها النحس، هكذا كانت تلاحق أصحابها حتى أردتهم في سوء الخاتمة خائبين نادمين **إنما مَثَلَ الجليسِ الصالحِ والجليسِ السوْءِ كحاملِ المِسْكِ ونافخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً "** [٢] .

أقبلْ إلى الصحبة الصالحة !

وكأن النجاة من عذاب الآخرة، في جماعة من الأخيار نلحق بهم !

هكذا كان يُعَبرْ مشهد النادم العاضد على يديه ندمًا ! فكان ألمه وبكاؤه لعلة واحدة هي ترك صحبة الصلاح إلى صحبة الفساد ..

وإذا كان الأمر كذلك فأقبلْ ـ يا أخي ـ إلى جماعة الخير – ولا يقيدك الشيطان بقيد التسويف .

أقبل ! فصلاح الصحبة من صلاح الدين، وقد قال رسول الله -ﷺ - **"الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ"**[٣] .

واعلم أن نفسك إذا أقبلت على الصالحين منشرحه، فنفسك خيِّرة، طيبة، وإذا كانت غير ذلك .. فشفاك الله وعافاك، وأعيذك بالواحد من شر صديق فاسد، فقد قال

---

(١) الحلبية ٢/ ٣٧٤ .

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٦٢) .

(٣) أخرجه أبو داود(٤٨٣٣)، وحسنه الألباني .

رسول الله -ﷺ- : " **الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**"[١] .

أو كما قال سفيان بن عيينه : " **لكل امرىء شَكْلٌ يَقَرُّ بِعَيْنِهِ وَقُرَّةُ عين الْفَسْلِ أَنْ يَصْحَبَ الفسلا** " ، أي الرُّذَّلُ من الناس .

أقبل ! واصبر نفسك مع جماعة الخير، فقد أمرنا الله بذلك، وقد نهانا رسول الله -ﷺ- مصاحبة غيرهم فقال:

"**لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ** "[٢] .

ومصاحبة جماعة الخير، مجلبة لمحبة الخالق سبحانه وتعالى ، فعن معاذ بن جبل أن رسول الله -ﷺ- قال :" **يَأْثُرُ عَنْ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ : وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِيَّ وَيَتَجَالَسُونَ فِيَّ وَيَتَبَاذَلُونَ فِيَّ** " [٣] .

ومجالسهم مجالس تشهدها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، وفوق ذلك يذكر الله أصحاب مجالس الخير فيمن عنده، ومَن ذكره الله لا يعذبه أبدًا ، وهذه بشارة رسول الله لأهل مجالس الذكر إلى يوم القيامة :

"**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللهَّ فِيهِ؛ إِلَّا حَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَتَغَشَّتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمْ اللهُّ فِيمَنْ عِنْدَهُ**" [٤] .

وهم في ظل الله يوم القيامة، يوم الحر الشديد، واللهب اللهيب، يوم لا ظل إلا ظل الرحمن، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن نبي الله قال:" **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُّ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ** " ...

وكان الصنف الرابع منهم : " **وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهَّ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ** "..

وهم أكثر الأصناف إن شاء الله، في ظل الله، وذلك لأن الإخوة في الله والحب في الله والصداقة الصالحة، هي أيسر الخصال السبع التي وردت في الحديث .

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٧٣) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٩٢) وحسنه الألباني .

(٣) أخرجه أحمد (٢١١١٤) وصححه الألباني، حديث رقم : ٤٣٣١ في صحيح الجامع .

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٧٨١)، عن أبي هريرة، وهو في السلسلة الصحيحة : ٧٥ .

توصيات عملية

١ – خـذ قـرارك الآن .. " **لـن أصـاحب إلا مؤمنًـا** " .. وعض على نفسك في الدنيا بـترك صـحبةِ الـسوء، قبـل أن تعض على يديك يوم لا ينفع الندم ..

٢ – عليك بصحبة جماعة المسجد، وتعـرف عـلى رواده، فهم خير صاحب في هذه الأيام.

٣–كن خير جليس لجليسك، وخير صـديق لـصديقك، فقد قال رسول الله – ﷺ – :

" **خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ** "[1].



(١) أخرجه الترمذي (١٨٦٧)، وهو في السلسلة الصحيحة :١٠٣ .

واصبر نفسك

قال عيسى بنُ مَريم عليه السلام: "سيكون في آخرِ الزمان عُلماء يُزَهِّدون في الدُّنيا ولا يَزهدون، ويُرَغِّبون في الآخرة ولا يَرْغَبون، يَنْهَوْن عن إتيان الوُلاة ولا ينْتهون، يُقَرِّبون الأغنياء، ويُبْعِدون الفُقراء، ويتَبَسَّطون للكبراء، ويَنْقبضون عن الحُقراء، أولئك إخوانُ الشياطين وأعداء الرحمن " (١).

***

هناك فقهاء وعلماء أرستقراطيون !في قصور عاجية، أقرب الناس إلى الكُتب لكنهم أبعد الناس عن الواقع ! وفقه الواقع ! لا يعرفون طريقًا للبسطاء .. تجد الواحد منهم قد أُشرب جلسات الوجهاء والأغنياء، يجلس بينهم يتصنع في المقال والفعال، ينمق كلماته، ويجوّد عبارته . فإذا ما جلس إلى البسطاء – هذا إذا جلس – تراه خبيث النفس،كسلان، ضيق الصدر، حديد اللسان .

إن هذا الصنف من الدعاة نذكرهم بقول الله تعالى :

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] .

لقد نزلت هذه الآية الكريمة على النبي –ﷺ- عندما طلب أشرافُ مكة منه أن يجعل لهم مجلسًا غير مجلس العبيد والفقراء، وذلك لأن نفوس هؤلاء السادة تأنف أن تجلس مع الضعفاء في مجلس واحد، ولم لا فهم يجلسون للتباهي والتفاخر بالأموال والأولاد والأنساب أم الضعفاء تربوا في جلسات محمد على معان سامقة لم يعرفها كبراء القوم بعد ..

فنزلت الآية السالفة تأمر النبي –ﷺ– بأن يصبر نفسه مع الذين جاءوا إلى مجلسه من أجل الدعاء والصلاة صباحًا ومساءًا يبتغون بذلك وجه الله تعالى .

---

(١) العقد الفريد ١/ ١٦٣.

هؤلاء على الداعية أن يتمسك بهم ولا يغفل عنهم وعليه أن يتعهدهم بالتربية والنصح والتعليم .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام:٥٢]

✍ **قال سعدٌ** :

✍ **نزلت هذه الآية فينا ، ستة :** فِيَّ، وَفِي ابن مسعود، وصهيب، وعمار ، والمقداد، وبلال ، قال : قالت قريش لرسول الله -ﷺ- : إنا لا نرضى أن نكون أتباعًا لهم فاطردهم عنك ، قال : فدخل قلبَ رسولِ الله- صلى الله عليه وسلم- من ذلك ما شاء الله أن يَدْخُلَ فأنزل الله عز وجل :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ الآية [1] ..

إن من الناس من يبحث عن الوجاهة في كل موضع، حتى في الدين ومجالس العلم، فهؤلاء اشترطوا أن يتم طرد الفقراء من المجلس الذي يجلسون فيه إلى رسول الله -ﷺ-، خشيةَ أن يُعير الغني بمجلس جلس فيه إلى فقير، وخوفًا من أن يُعير الوجهاء بمجلس جلسوا فيه إلى البسطاء ، وهي صورة تنم عن بشاعة النفوس التي كان يراوضها الداعية الأول-ﷺ -وتنم عن تلك البيئة الصعبة التي لا ترحم ولا تحترم ضعيفًا أو فقيرًا : بيئةٌ شديدة، ونفوسٌ حديدة، فصلى الله على الهادي البشير الذي جعل منهم أخوة متحابين متآخين متكافلين، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة!

وقد تكرر الموقف في المدينة المنورة حينما جاء الاقرع بن حابس التميمي، وعيينة ابن حصن الفزاري فوجدوا النبي-ﷺ- قاعدا مع عمار وصهيب وبلال وخباب بن الارت في أناس بن ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حقروهم، فخلوا به فقالوا: إن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب قعودا مع هذه الأعبد، فإذا جئناك فأقمهم عنك فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت.

✍ **قال : " نعم "** .. قالوا : فاكتب لنا عليك كتابًا . فدعا بصحيفة ودعًا عليّا ليكتب والضعفاء قعود في ناحية فنزل جبرائيل عليه السلام فنزل جبيرل بالآية :

---

(١) أخرجه (ابن ماجه ٤١١٨) وصححه الألباني .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٢] (١).

حتى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام:٥٤]

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ ﴾ وبعد نزول الآية استجاب صاحب الخلق العظيم، فنادى عمارًا وبلالاً وصهيب وجماعة من ضعفاء المسلمين ، فقال لهم : سلام عليكم . وأدناهم منه حتى قال خباب : " **حتى وضعنا ركبنا على ركبته** "(٢) .

هذا هو حال الداعية مع أتباعه الضعفاء، رحيم شفيق ودود، بالمؤمنين رؤوف رحيم، سهل لين، يبشرهم برحمة الله ويتواضع لهم حتى أن ركبته تختلط بركاب أتباعه .



١ -اصبر نفسك مع أصدقاء الخير الأتقياء واجعل بينك وبين أصدقاء السوء ألف سد.

٢ - اصبر نفسك مع مجالس الحكمة، ودروس التزكية، وحلق الذكر .

٣-اصبر نفسك مع الفقراء والضعفاء، علمهم مما علمك الله، وأعطهم مما أعطاك .



(١) ولعلها نزلت مرتين مرة في مكة ومرة في المدينة للموقف السابق .

(٢) أخرجه ابن ماجه(٤١١٧)، وصححه الألباني .

الصحيفة القاطعة الظالمة العام السابع من البعثة

اغتاظت قريشٌ، إذ نجح المسلمون في رحلة الحبشة، وصارت لهم عند النجاشي قوة ومنعة. ومما زاد غمهم؛ غمًا إلى غم؛ أن أسلم عمر، وأسلم حمزة . إضافة إلى بدء انتشار الإسلام في القبائل خارج مكة، مثل غفار ونجران وأزد شنوءة وغيرها من القبائل .

***

فاجتمع قادة مكة بدعوة من أبي جهل على كتابة وثيقة يَتَعَاقَدُونَ فِيها علَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِيّ الْمُطّلِبِ، ونصت الوثيقةُ على:

١ -أَنْ لا يُنْكِحُوا إلَيْهِمْ، ولا يُنْكِحُوهُمْ.

٢ - وَلا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا، وَلا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ[1] .

٣ -وَلا يُكَلّمُوهُمْ .

٤ - وَلا يُجَالِسُوهُمْ

٥ - حَتّى يُسَلّمُوا إلَيْهِمْ رَسُولَ اللهّ -ﷺ -[2] .

وتعاهدوا على ذلك، وتواثقوا علَى هذا الظلم، ثم عَلّقُوا الصّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، كما يصنع أرباب أنظمة الظلم حينما يُضفوا الجانب الديني على أحكامهم الظالمة. [أو كما فعل الزعيم الخائن حينما حكم بالإعدام على أحد علماء المسلمين، ثم استصدر الطاغيةُ فتوى من جهة دينية تابعة له تبيح دم الشيخ الذي طالب بتطبيق الشريعة، وقد صُدّرتْ فتوى إباحةِ دم الشيخ بالآية : ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣] !!!.

***

(١) ابن هشام ١/ ٣٥٠ .

(٢) زاد المعاد ٣ / ٢٠ .

فلما شرعتْ قريش في تنفيذ الوثيقة الجائرة، انحازت بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ إِلَى أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ في تضامن عائلي عجيب مع صاحب الرسالة ـ ﷺ ـ .

ورفضوا تسليم النبي ـ ﷺ ـ إلى قادة قريش، وقد كان هذا هو مطلب قريش الوحيد لإبطال الصحيفة وفك الحصار .

والتف أبناءُ هاشمٍ وأبناءُ عبد المطلبِ ـ مسلمهم وكافرهم ـ حول النبي ـ ﷺ ـ.

فدخلوا جميعًا في شِعب أبي طالب ـ وهو مكان بين جبلين متصل بجبل أبي قبيس ـ، وقد تَقَرَّشَت عائلةُ أبي طالب في هذا المكان الضيق، فتحول بسبب الحصار إلى سجن كبير.

وقد تضامنت العائلة عن بكرة أبيها مع صاحب الدعوة ـ حاشا أبي لهب فقد ظاهر على أهله، وانضم إلى قريش.

***

ثلاثية الحظر

واجتمع على المسلمين الأوائل؛ المقاطعة الاجتماعية، والسجن العسكري، والحصار الاقتصادي ـ في آن واحد، وفي وقت واحد، وقد استمرت هذه الثلاثيةُ الظالمة من المحرم من العام السابع للبعثة وحتى المحرم من العام العاشر للبعثة ـ وهو عام الحزن ـ..

✍ **مقاطعةٌ اجتماعية :** فلا صلة ولا مناكحة ولا كلام !

✍ **وسجنٌ عسكري :** حيث أُغلق عليهم الشِعب؛ فصار سجنًا حقيقيًا.

وحصارٌ اقتصادي ؛ مَنَع المشركون فيه وصول الطعام والشراب إلى المسلمين، وشددوا على ذلك، بل أمر أبو لهب برفع الأسعار على المسلمين دون غيرهم، فقال:

" يَا مَعْشَرَ التّجّارِ ! غَالُوا عَلَى أَصْحَابِ مُحَمّدٍ؛ حَتّى لا يُدْرِكُوا مَعَكُمْ شَيْئًا، فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لِي وَوَفَاءُ ذِمّتِي، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لا خَسَارَ عَلَيْكُمْ"(١).

فيأتي المسلمُ إلى تجار مكة يبتاع منه ما يسد رمق أولاده، فيمنعونه أو يُعطونه السلعة بأضعاف قيمتها . فيعود إلى بيته أسيفًا لا يجد ما يسد جوعة أولاده، كل ذلك وهم صابرون محتسبون، قد اشتروا جنة الله، وتاجروا مع الله، وسلكوا طريق الله غير عابهين بالجوع أو التجويع.

---

(١) الروض الأنف ٢ / ١٥٩ .

وقد تواصى المشركون بمنع أي معونات غذائية عن المسلمين، وكان أبوجهل يترصد أي حركة دعم للمنكوبين في الحصار .

بين شهم ولئيم

وفي مثل هذه الأجواء تظهر معادن الرجال، ويمتاز الشهم من اللئيم، وقد كشفتْ لنا هذه المحنةُ عن أسماء الشرفاء : أمثال : هِشَام بْن عَمْرِو بْنِ رَبِيعَةَ ، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود، وأبو البحتري بن هشام ..

... وقد حدث أن أبا جهلٍ ضَبَطَ حكِيمَ بْنَ حِزَامِ بْنِ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ ، مَعَهُ غُلامٌ يَحْمِلُ قَمْحًا، يُرِيدُ بِهِ عَمّتَهُ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ، وقد كانت مع رَسولِ اللهِ ـ ﷺ ـ في الشّعْبِ ، فَتَعَلّقَ بِهِ، وَقَالَ :

ـ أَتَذْهَبُ بِالطّعَامِ إلَى بَنِي هَاشِمٍ ؟ وَاَللّهِ لا تبْرَحُ أَنْت وَطعَامُك حَتّى أَفْضَحَك بِمَكّةَ !

✍ **فَجَاءَ أَبُو الْبَخْتَرِيّ بْنُ هَشَامٍ ، فَقَالَ** :

ـ مَا لَك وَلَهُ ؟

✍ **فَقَالَ** : يَحْمِلُ الطّعَامَ إلَى بَنِي هَاشِمٍ .

✍ **فَقَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيّ** : طَعَامٌ كَانَ لِعَمّتِهِ عِنْدَهُ؛ بَعَثَتْ إلَيْهِ فِيهِ؛ أَفَتَمْنَعُهُ أَنْ يَأْتِيَهَا بِطَعَامِهَا ؟ خَلّ سَبِيلَ الرّجُلِ[١] !

"فَأَبَى أَبُو جَهْلٍ حَتّى نَالَ أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فَأَخَذَ، أَبُو الْبَخْتَرِيّ لَحْيَ بَعِيرٍ[٢] فَضَرَبَهُ بِهِ فَشَجّهُ، وَوَطِئَهُ وَطْئًا شَدِيدًا، وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ قَرِيبٌ، يَرَى ذَلِكَ، وَهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ وَأَصْحَابَهُ فَيَشْمَتُوا بِهِمْ وَرَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ عَلَى ذَلِكَ يَدْعُو قَوْمَهُ لَيْلاً وَنَهَارًا، وَسِرّا وَجِهَارًا ، مُبَادِيًا بِأَمْرِ اللهِ لا يَتّقِي فِيهِ أَحَدًا مِنْ النّاسِ" [٣] .

***

واشتد الحصار يومًا بعد يوم، واشتد المشركون في المنع والحظر؛ حتى اضطر المسلمون إلى أكل ورق الشجر.

---

(١) ابن هشام ١ / ٣٥٢ .

(٢) العظم الذى تنبت عليه الاسنان .

(٣) ابن هشام ١ / ٣٥٢.

وقد كان المشركون يسمعون أصوات الأطفال وزفرات العويل من وراء الشِعب، فلا مغيث ولا حُرٌ شريف إلا مَن ذكرنا .

وانطلقت قصائدُ أبي طالب تجوب القبائل؛ تندد بهذا الظلم الفادح، تستنكر على الذين يتشدقون بأنهم حماة الحرم أعلام المروءة والكرم؛ ثم هم لا يرعوون من تطبيق هذه الصيحفة الفاجرة في بلد الله الحرام .

الحق؛ أن هذه القصائد أبانت للعرب حال بني هاشم والمطلب وما يُعانوا منه من قطيعة وسجن وتجويع !

الحق؛ أن صورة قريش قد اهتزت، وتحركت في نفوس الشرفاء دماء المنعة والشهامة لإنقاذ المسلمين من هذا العدوان البغيض.

الحق؛ أن سلاح الإعلام كان له دورًا تمهيديًا لفك الحصار، وإن من البيان لسحر .

✍ قال أبو طالب في قصيدته البائية بعد ما تعاقدت قريش في أمر الصحيفة :

أَلا أَبْلِغَا عَنّي عَلَى ذَاتِ بَيْنِنَا ... لُؤَيّا وَخُصّا مِنْ لُؤَيّ بَنِي كَعْبِ

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنّا وَجَدْنَا مُحَمّدًا ... نَبِيّا كَمُوسَى خُطّ فِي أَوّلِ الْكُتُبِ

وَأَنّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبّةً ... وَلَا خَيْرَ مِمّنْ خَصّهُ اللهُ بِالْحُبّ

وَأَنّ الّذِي أَلْصَقْتُمْ مِنْ كِتَابكُمْ ... لَكُمْ كَائِنٌ نَحْسًا كَرَاغِيَةِ السّقْبِ

أَفِيقُوا أَفِيقُوا قَبْلَ أَنْ يُحْفَرَ الثّرَى ... وَيُصْبِحَ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْبًا كَذِي الذّنْبِ

وَلَا تَتْبَعُوا أَمْرَ الْوُشَاةِ وَتَقْطَعُوا ... أَوَاصِرَنَا بَعْدَ الْمَوَدّةِ وَالْقُرْبِ

وَتَسْتَجْلِبُوا حَرْبًا عَوَانًا وَرُبّمَا ... أَمَرّ عَلَى مَنْ ذَاقَهُ جَلَبُ الْحَرْبِ

فَلَسْنَا وَرَبّ الْبَيْتِ نُسْلِمُ أَحْمَدًا ... لِعَزّاءِ مَنْ عَضّ الزّمَانُ وَلاكَرْبِ

وَلَمّا تَبِنْ مِنّا وَمِنْكُمْ سَوَالِفُ ... وَأَيْدٍ أُتِرّتْ بِالْقَسَاسِيّةِ الشّهْبِ

بِمُعْتَرَكٍ ضَيْقٍ تَرَى كَسْرَ الْقَنَا ... بِهِ وَالنّسُورَ الطّخْمَ يَعْكُفْنَ كَالشّرْبِ

كَأَنّ مُجَالَ الْخَيْلِ فِي حَجَرَاتِهِ ... وَمَعْمَعَةَ الْأَبْطَالِ مَعْرَكَةُ الْحَرْبِ

أَلَيْسَ أَبُونَا هَاشِمٌ شَدّ أَزْرَهُ ... وَأَوْصَى بَنِيهِ بِالطّعَانِ وَبِالضّرْبِ

وَلَسْنَا نَمَلّ الْحَرْبَ حَتّى تَمَلّنَا ... وَلا نَشْتَكِي مَا قَدْ يَنُوبُ مِنْ النّكْبِ

وَلَكِنّنَا أَهْلُ الْحَفَائِظِ وَالنّهَى ... إذَا طَارَ أَرْوَاحُ الْكُمَاةِ مِنْ الرّعْبِ[1].

بداية الانفراجة

ولما كان رأس ثلاث سنين من ضرب الحصار على المسلمين، والمشركون يمكرون بالمسلمين كل مكر؛ مَكَرَ اللهُ لدينه وحرك النخوةَ في قلوب أناس من أشراف قريش لنقض هذه الصحيفة والانقلاب على سلطان أبي جهل وعائلته؛ إذ تسببوا في تشويه سمعة قريش، ومارسوا ظلمًا بائناً على الأبرياء في بلد الله الحرام .

وكان هشام بن عمرو الهاشمي هو زعيم هذا الانقلاب ومحركه، ذلك الرجل الشهم الذي كان يأتي في جنح الليل بالبعير ـ وقد أوقره طعامًا ـ فيدفعه نحو فم الشعب، فيغيث الضعفاء، ويدعم المنكوبين، ولن تعدم الخير في بشر وإنْ كَفر.

ومشى هشامٌ، **" إلَى زُهَيْرِ بْنِ أَبِي أُمَيّةَ المخزومي ، وَكَانَتْ أُمّهُ عَاتِكَةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، فَقَالَ : يَا زُهَيْرُ ، أَقَدْ رَضِيتَ أَنْ تَأْكُلَ الطّعَامَ، وَتَلْبَسَ الثّيَابَ، وَتَنْكِحَ النّسَاءَ، وَأَخْوَالُك حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ؛ لا يُبَاعُونَ وَلا يُبْتَاعُ مِنْهُمْ، ولا يَنْكِحُونَ ولا يُنْكَحُ إلَيْهِمْ ؟ أَمَا إنّي أَحْلِفُ بِاَللّهِ أَنْ لَوْ كَانُوا أَخْوَالَ أَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ ، ثُمّ دَعَوْتَهُ إلَى مِثْلِ مَا دَعَاك إلَيْهِ مِنْهُمْ مَا أَجَابَكَ إلَيْهِ أَبَدًا !!**

قَالَ: وَيْحَك يَا هِشَامُ فَمَاذَا أَصْنَعُ ؟ إنّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَاَللّهِ لَوْ كَانَ مَعِي رَجُلٌ آخَرُ لَقُمْت فِي نَقْضِهَا حَتّى أَنْقُضَهَا .

قَالَ : قَدْ وَجَدْت رَجُلاً !

قَالَ فَمَنْ هُوَ ؟

قَالَ : أَنَا !

قَالَ لَهُ زُهَيْرٌ : أَبْغِنَا رَجُلًا ثَالِثًا"[2] .

***

" فَذَهَبَ هشامٌ إلَى الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيّ، فَقَالَ لَهُ : يَا مُطْعِمُ أَقَدْ رَضِيتَ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَنْتَ شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ مُوَافِقٌ لِقُرَيْشٍ فِيهِ، أَمَا وَاَللّهِ، لَئِنْ أَمْكَنْتُمُوهُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَجِدُنّهُمْ إلَيْهَا مِنْكُمْ سِرَاعًا !

---

(١) ابن هشام ١ / ٣٥٢ .

(٢) ابن هشام ١ / ٣٧٥ .

قَالَ : وَيْحَك فَمَاذَا أَصْنَعُ إِنّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ !

قَالَ: قَدْ وَجَدْت ثَانِيًا !

قَالَ مَنْ هُوَ ؟

قَالَ: أَنَا ، قَالَ أَبْغِنَا ثَالِثًا !

قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ!

قَالَ : مَنْ هُوَ ؟

قَالَ: زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيّةَ !

قَالَ : أَبْغِنَا رَابِعًا "(١)!!.

***

" فَذَهَبَ إلَى الْبَخْتَرِيّ بْنِ هِشَامٍ فَسَأَلَ لَهُ نَحْوًا مِمّا قَالَ لِلْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيّ، فَقَالَ : وَهَلْ مِنْ أَحَدٍ يُعِينُ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيّةَ ، وَالْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ ، وَأَنَا مَعَك ، قَالَ أَبْغِنَا خَامِسًا"(٢) !!.

***

" فَذَهَبَ إلَى زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطّلِبِ بْنِ أَسَدٍ ، فَكَلّمَهُ ذَكَرَ لَهُ قَرَابَتَهُمْ وَحَقّهُمْ . فَقَالَ لَهُ : وَهَلْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الّذِي تَدْعُونِي إلَيْهِ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالَ نَعَمْ ثُمّ سَمّى لَهُ الْقَوْمَ "(٣) !!

***

"فَاتّعَدُوا خَطْمَ الْحَجُونِ لَيْلاً بِأَعْلَى مَكّةَ ، فَاجْتَمَعُوا هُنَالِكَ . فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَتَعَاقَدُوا عَلَى الْقِيَامِ فِي الصّحِيفَةِ حَتّى يَنْقُضُوهَا ، وَقَالَ زُهَيْرٌ : أَنَا أَبْدَؤُكُمْ فَأَكُونُ أَوّلَ مَنْ يَتكَلّمُ . فَلَمّا أَصْبَحُوا غَدَوْا إلَى أَنْدِيَتِهِمْ وَغَدَا زُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيّةَ عَلَيْهِ حُلّةٌ فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا ، ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى النّاسِ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ مَكّةَ ؟ أَنَأْكُلُ الطّعَامَ وَنَلْبَسُ الثّيَابَ وَبَنُو هَاشِمٍ هَلْكَى لا يُبَاعُ ولا يُبْتَاعُ مِنْهُمْ، وَاَللّهِ لا أَقْعُدُ حَتّى تُشَقّ هَذِهِ الصّحِيفَةُ، الْقَاطِعَةُ الظّالِمَةُ"(٤) !!

---

(١) ابن هشام ١ / ٣٧٥ .

(٢) ابن هشام ١ / ٣٧٦ .

(٣) ابن هشام ١ / ٣٧٦ .

(٤) ابن هشام ١ / ٣٧٦ .

" قَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَكَانَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ : كَذَبْتَ وَاللهِ لَا تُشَقّ !

قَالَ زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ : أَنْتَ وَاللهِ أَكْذَبُ مَا رَضِينَا كِتَابَهَا حَيْثُ كُتِبَتْ! قَالَ أَبُو البخترِيّ صَدقَ زَمعَة ، لا نرضى ما كُتِبَ فِيهَا ، ولا نُقِرّ بِهِ!

قَالَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ : صَدَقْتُمَا وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ، نَبْرَأُ إِلَى اللهِ مِنْهَا ، وَمِمّا كُتِبَ فِيهَا .

وقَالَ هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ .

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : هَذَا أَمْرٌ قُضِيَ بِلَيْلٍ، تُشُووِرَ فِيهِ بِغَيْرِ هَذَا الْمَكَانِ"[1] !!

***

المعجــــــزة

في هذه الأثناء، دخل عليهم أبو طالب قائلاً : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنّ ابْنَ أَخِي أَخْبَرَنِي أن اللهَ قَدْ سَلّطَ الأرَضَةَ [**أي العتة**] عَلَى صَحِيفَةِ قُرَيْشٍ، فَلَمْ تَدَعْ فِيهَا اسْمًا هُوَ للهِ إلا أَثْبَتَتْهُ فِيهَا ، وَنَفَتْ مِنْهُ الظّلْمَ وَالْقَطِيعَةَ وَالْبُهْتَانَ، فَهَلُمّ صَحِيفَتَكُمْ فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ أَخِي فانْتَهُوا عن قطيعتِنا ، وانزِلُوا عما فيها ؟ وإن يكن كاذِبا دفَعْت إليكُمْ ابْنَ أَخِي ، فَقَالَ الْقَوْمُ : رَضِينَا ، فَتَعَاقَدُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمّ نَظَرُوا ، فَإِذَا هِيَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ فَزَادَهُمْ ذَلِكَ شَرّا[2].

فعند ذلك نقضوها وكان أول من نقضها المطعم بن عدي .

وخرج المسلمون وقد نجحوا في الامتحان، ولم يعطوا الدنية، ولم يخضعوا للوثنية، بل خرجوا كأنشط ما كانوا عليه، وخرج النبي ـ ﷺ ـ يمارس الدعوة بهمة أعلى، ودليل ذلك؛ رحلته في هذا العام إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام .

***

الجزاء من جنس العمل

وذاقت قريش من نفس الكأس، ونزلت سورة الدخان تبشر بمجاعة تعم أهل مكة، وقد دعى عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) ابن هشام ١ / ٣٧٦

(٢) انظر : ابن هشام ١ / ٣٧٧

" اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ "(١) .

فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ؛ فَحَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْجُلُودَ، حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ دُخَانًا مِنْ الْجُوعِ (٢) .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

[الدخان: ١٠، ١١].

فسبحان الله ! كما تدين تُدان . ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

وقد ذهب المسلمون بالأجر لقاء صبرهم على الحصار الذي جعلوا منه محضنًا تربويًا، ومعسكرًا إيمانيًا؛ تعلموا فيه الصبر والثبات، وكابدوا الجوع والأزمات .

وذهب المشركون بالوبال والخيبة؛ ساءت سمعتهم، و باءوا بالمجاعة والقحط، ودارت عليهم سنة الله تبارك وتعالى .

***

ألا فليعلم الناسُ أن الحصار سلاح قديم مارسه المجرمون في حق المسلمين، ومارسه الأمريكان في حق شعب العراق وأفغانستان والسودان . ومارسه الصهاينة في حق المسلمين في فلسطين !

ألا فأبشري يا أمتي ! أبشري يا فلسطين !

كانت الانفراجة والدولة بعد حصار شِعب أبي طالب، وستكون الانفراجة والدولة كذلكم بعد حصار غزة !

وكما عاقب اللهُ المشركين بسنين كسني يوسف بعدما فرضوا الحصار على المسلمين ـ فأبشروا بسنوات مثلها تدور على اليهود، والجزاء من جنس العمل .

وإذا تآمر على حصار المسلمين أبو لهب ـ وهو من القربى ـ .

فقد تآمر الرئيس فلان كذلك على حصار غزةَ ـ وهو من بني جلدتنا ـ.

فهي السنن تدور، وهي النواميس تعود، والتاريخ يكرر نفسه .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٣٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٥) .

ألا لعنة الله على المحاصرين، ألا شُلت يد كل من ساهم في حصار المؤمنين كما شُلت يد بغيض بن عامر كاتب الصحيفة !

***



١ـ ساهمْ في فك الحصار عن المسلمين بكل ما أُوتيت .

٢ـ قاوم المقاطعة بالمقاطعة؛ فلا يفل الحديد إلا الحديد، فبادر بتفعيل مقاطعة منتجات العدو، واشدد وطئتك عليهم كلموا شددوا على إخوانك .

٣ـ تحركْ بين الناس لفضح ظلم الحصار، كما تحركَ هشامُ بن عمرو . وسانِدْ المؤمنين كما ساندهم المطعم بن عدي . وبادر بإعلان كلمة الحق في الميادين كما صدع بها زهير بن أبي أمية . واستخدم مواهبك وفنونك وقصائدك في ذلك كما استخدمها أبو طالب. ولتأخذك الغيرة ولتملأك المروءة؛ فهؤلاء الشرفاء كانوا من عباد الأوثان، فكيف بك يا عابد الرحمن ؟

٤ـ اقرأ تفسير سورة الدخان واستخرج منها دروسًا وعِبرًا .



هزيمة الرومان العام الثامن من البعثة

في سنة ٦١٩ م وفي معركة طاحنة؛ هُـزم الرومـان من الفرس، قرب البحر الميت هزيمة منكرة؛ ظـن الناسُ ساعتها أن الإمبراطورية البيزنطية لن تقـوم لهـا قائمة بعد اليوم، وكان بطل هذا النصر هو **"كسرى الثاني" "٥٩٠-٦٢٨م"** المعروف بـ **"كسرى أبرويز"**، وهـو ابـن **"هرمز بن كسرى أنوشروان"**، وعلى إثر هذا النصر؛ استولى الفرس على مصر.

فحزن المسلمون لأن الرومان أهل كتاب، وفرح المشركون لأن الفرس أهل أوثان، وهم عباد ملوك ونيران.

واستغل المشركون هذا الحادث العالمي في طعن الإسلام.

فقالوا للمسلمين:

" الروم أهل كتاب وقد غلبتهم الفرس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبون بالكتاب الذي أنزل على نبيكم فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم" [1].

***

بشارة وفرحة ومنحة ومعجزة

فنزلت سورة الروم، تبشر المؤمنين :

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

[الروم:١،٤]

كانت مفاجئة؛ أن تنزل آيات كريمة تتفاعل مع الأحداث الدولية الجاريـة. لـيعلم الناس أن هذا الكتاب إنما نزل للواقع العملي .. ولم ينزل فقط للتلاوة والترتيل والتعبد بقراءته .

نزلت الآيات حزينة لحزن المسلمين ! يا لله ! إنه القرآن؛ يتجاوب مع مشاعر المسلم الصادق، ويدور مع عواطفه، ويترنح مع أحزانه، ويخفف من آلامه، ويبشر بموعود

(١) السيوطي : الخصائص الكبرى ٢٣٤

الله، والهدف : أن يفرح المؤمنون.

باتت الفرحة التي ترتسم على وجه المؤمن؛ هدفًا قرآنيًا كريمًا .

مقصدًا؛ تتنزل الآيات لتحقيقه، ومحورًا دارت عليه آيات كثيرة؛ كقوله تعالى :

﴿عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾[التوبة:١٤]

وقوله : ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾[التوبة:١٥]

وقوله : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[آل عمران:١٧٠]

وقوله : ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾[يونس:٥٨]

***

✍ ومن فرط فرحة أبي بكر الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - خرج يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ :

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾[الروم:١-٤]

✍ قال نِيَار بْن مُكْرَمٍ الأَسْلَمِيِّ :

" فقَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لأَبِي بَكْرٍ : فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، زَعَمَ صَاحِبُكَ أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ؛ أَفَلا نُرَاهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ ؟

قَالَ : بَلَى !

وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ، فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ، وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ، وَقَالُوا لأَبِي بَكْرٍ : كَمْ تَجْعَلُ الْبِضْعُ، ثَلاثُ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ، فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ !

فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ، فَمَضَتْ السِّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَتْ السَّنَةُ السَّابِعَةُ؛ ظَهَرَتْ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ؛ لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: فِي بِضْعِ سِنِينَ، وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ" (١) .

***

(١) أخرجه الترمذي (٣١١٨) وصححه الألباني .

وكان من تقدير الله أنَّ يوم انتصار الرومان كان يوم بدر ـ كما في حديث أبي سعيد قال : **"لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين"**(١) ـ فكانت فرحة فوق فرحة للمؤمنين، وترحة فوق ترحة في قلوب المشركين .

***

ويظهر من مرويات كتب السُّنة والسير أن حماسة أبي بكر يوم نزول الآيات دفعته إلى عقد رهان مع أمية بن خلف، وقد كان الرهن **"خمس قَلائِص"**(٢) .

والقلوص هي الناقة الطويلة القوائم، وهي الشابة القوية .

ودفعته فرحته العارمة أيضًا ـ رضوان الله عليه ـ أن يتحجر واسعًا في شأن تحديد السَنة المعقود عليها الرهان؛ فاختار مجتهدًا العام السادس، رغم أن الْبِضْع، ثَلاثُ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ ، **"فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ؛ لأَنَّ اللهَّ تَعَالَى قَالَ: فِي بِضْعِ سِنِينَ"** .

***

وذكرت بعض المرويات أن المشركين سألوا ما على أبي بكر من حق الرهان؛ حينما جاء العام السادس ولم ينتصر الرومان؛ فذكر ذلك الصحابةُ للنبي ـ ﷺ ـ فقال :

" لم يكونوا أحقاء أن يؤجلوا أجلا دون عشر فإن البضع ما بين الثلاث الى العشر فزايدوهم ومادوهم في الأجل ففعلوا " (٣) .

ثم جاء العام السابع ـ وكان عام بدر ـ وانتصر الرومان في ١٧ رمضان من العام الثاني للهجرة ، فزاع النبأ، وعرف الناس صدق القرآن، وخبر سورة الروم؛ فَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ كما أخبرت الرواية الصحيحة التي أوردناها .

***

وإذا كان نصر الرومان قد حدث يوم بدر ـ ؛ فهذا يعني أن هزيمتهم هذه كانت أيام حصار الشِعب، وبالتحديد في العام الثامن من البعثة، ولا يخفى عليك المعاناة التي

---

(١) أخرجه الترمذي(٢٨٥٩)، وصححه الألباني .

(٢) ابن كثير (السيرة) ٢ / ٩١ .

(٣) البيهقي (٦١٩) .

عالجها المسلمون في هذه المحنة؛ إلا أن هذا الحصار لم يمنعهم من متباعة هذا الحدث الدولي الهام والتفاعل معه .

***

وقد لاحظتُ أن كثيرًا من كتاب السير في عصرنا كثيرًا ما يهملون ذكر هذا الحدث المهم؛ خاصة في سياق سرد أحداث العهد المكي؛ رغم أهمية هذا الحدث؛ الذي تفاعلت معه الجماعة المسلمة، بل تفاعل معه المشركون في مكة .

وهي حادثة جديرة بالدرسة والتأمل؛ لما فيها من دلالات تربوية وفكرية كثيرة؛ نذكر منها ما يلي :

✍ أولاً ـ الوعي السياسي عند الصحابة :

هذا الحدث أظهر متابعة المسلمين لأحداث الصراع الدولي القائم في زمانهم، وهذا في حد ذاته يشير إلى وعي سياسي تمتع به الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ . ولم يكن شأنهم شأن بعض أهل التدين المغشوش في زماننا من التزام ببعض واجبات الدين ثم وقوف موقف الأعمى الأصم من أحداث البيئة المحيطة بهم .

✍ ثانيًا: التحليلات السياسية الفاسدة :

أظهرت القصة أن المشركين استغلوا انتصار الفرس على الرومان استغلالاً فكريًا وإعلاميًا ـ في محاولة منهم للطعن في الإسلام والمسلمين ـ بزعم أن الرومان قد انهزموا وهم أهل كتاب ...

وهذا يظهر لك السعي الحثيث الدءوب الذي يبذله المشركون في ترصد أحداث الواقع، ولي أعناق المواقف، في تحليلات سياسية مريضة؛ لخدمة أهدافهم، أو للطعن المباشر في المنهج الإسلامي .

وهذا النوع من التحليل السياسي الجاهلي نراه في عصرنا عندما يظهر محللون سياسيون على شاشات التلفاز؛ ويقولون : إن المقاومة هي السبب في مأساة غزة .. التيار الإسلامي خطر يهدد أمن المنطقة .. الأمريكان لديهم أجندة إصلاحية .. إسرائيل ملتزمة بوقف إطلاق النار .. ونحوٌ من ذلك من بنات الترهات والكِذْب والزُّور والمُنْكَر؛ الذي يفضح القائل به ويكشف حقيقته الصهيونية أو الماسونية؛ وإن تسربل بسربال التحليل السياسي والكتابة الصحفية.

وقد رأينا كيف انكشف اللثام عن كُتّابٍ عرب متصهينين؛ فضحتهم الأحداث، وقد كتب أحدهم مقالاً بعنوان : يا ليتني كنتُ جنديًا إسرائيليًا"؛ وهناك نماذج كثيرة جدًا مُخْزِيَة ليس هذا محل سردها .

✍ **ثالثًا : التعامل المباشر مع الشارع :**

أبانت هذه القصة؛ أن أبا بكر مشى يتلو هذه الآيات ـ من سورة الروم ـ؛ بل " **يصيح بها** " ـ كما ورد في حديث نِيَارِ بْنِ مُكْرَم ـ؛ يجهر بهذه البشارة بين ظهراني الناس في نواحي مكة . وفي ذلك درسٌ للمسلم الذي يستحي من إعلان الحق، ودرسٌ للداعية الذي يستحي من إظهار دعوته؛ واضحة، جلية، بين الناس، في الشوراع والأزقة والمقاهي والأندية. درسٌ في التعامل الإعلامي المباشر مع الرأي العام؛ والجهاد بالكلمة في سبيل ترجيح كفته نحو الحق .

فلربما شرعت دولةُ الظلم والفساد من حجب الحقيقة عن الرأي العام؛ ومن ثم يتطلب على المؤمنين السير على أقدامهم لتوصيل الخبر الصحيح والحق الصريح للناس في أنديتهم .

✍ **رابعًا : التضامن مع الكافر المسالم :**

لقد تضامن القرآن مع الرومان ضد الفرس، وسمى نصر الرومان على الفرس " **نصر الله** "؛ بل جعل هذا النصر بشارة قرآنية خالدة؛ أفرد لها سورة سُميت باسم الروم .. وهذا يبين لك أن الإسلام يفرّق بين الكافر المسالم والكافر المحارب، ويتضامن مع أهل الكتاب في حربهم ضد الوثنية، ويشارك في الأحداث الدولية بفعالية وإيجابية؛ فيدعم الحق ضد الباطل، والضعيف ضد القوي، والمظلوم ضد الظالم ـ مهما كانت عقيدة الحق، ومرجعية الضعيف، ومذهب المظلوم.

وهكذا الإسلام يدعم الشرفاء في كل مكان..وإنه للمجد بعينه؛ أن تساند دولةُ الإسلام دولةً مظلومة أو شعبًا مسكينًا في أطراف الأرض ... "**وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنْزاً مِنَ المَجْدِ؛ يَعْظُم**".

إن دفع عدوان الأعداء المحاربين واجبٌ شرعي، والعمل على إضعافهم واجبٌ شرعي، ودعم كل من يحاربهم واجبٌ شرعي؛ وإن حاربهم كفارٌ أمثلهم يختلفون عنهم في درجة عدائهم للإسلام .

قال الله تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥].

***

هكذا كان تفاعل الصحابة مع الأحداث؛ فأين تفاعلك ؟ أين حركتك وثقافتك ووعيك ؟ ومن ثم أوصيك :



١ـــ أن تدارس سورة الروم، وتطالع تفسيرها، وتستخلص دروسها، وتعمل بتوصياتها .

٢ـــ أن تطالع الأنباء الدولية، والأخبار المحلية، والنزاعات الإقليمية ـ من خلال الصحف الصادقة ووسائل الإعلام النزيهة أو الأقرب إلى النزاهة .

٣ـــ أن تثقف نفسك في القانون الدولي، وحقوق الإنسان، والمعاهدات التاريخية، والتاريخ السياسي المعاصر، وتاريخ المذاهب المحاربة للإسلام كالماسونية والشيوعية والعلمانية .

٤ـ أن تُطالع طرفًا من كتابات" **مهاتير محمد** " ـ خاصة موسوعته، وكتابات "**علي عزت بيجوفتش** " ـ لاسيما كتابه الإسلام بين الشرق والغرب .



وفاة السيدة خديجة
العاشر من رمضان
العام العاشر من البعثة

أطلق كُتَّابُ السيرِ على العامِ العاشر من البعثة، عام الحزن، لوفاة عم النبي " **أبو طالب**" ، وزوج النبي " **خديجة** " في شهر واحد تقريبًا .

ماتا - وهما السندان القويان – ورسول الله –ﷺ – في أمس الحاجة إليهما .

أما أبو طالب فكان بمثابة "**السند الخارجي** " لرسول الله –ﷺ – يدفع عنه أذى الوثنيين، وظلم الظالمين . ولعل في وفاته حكمة عظيمها، مفادها أن الدعوة الإسلامية منصورة بالله ثم بمنهجها، ويأبى الله أن يقال :إن الدعوة انتصرت بعشيرة محمد أو بعمه . إنما هي دعوة اليتيم الذي خذله بعض أعمامه ومات عنه بعضهم، وتأخر عنه بعضهم.

✍ **سبق وفضل:**

أما خديجة فهي أول من آمنت به، وهي حصنه الداخلي، وركنه الشديد، وكانت بمثابة الوزير الصادق له، والرفيق الساعي له، تخفف عنه، وتواسيه ، وتسعى في قضاء حوائجه، وكانت – رضي الله عنها – قد أكرمت رسول الله بالعمل الكريم في تجارتها، وتزوجته – رضي الله عنه – رغم فقره، وأسكنته بيتها حيث لا بيت له يملكه ، وكانت تُنفق على رسول الله من مالها حين تفَرغ لأمر الرسالة، وآمنت به حين كفر الناس، وصدّقته حين كذبه الناس، وآوته حين طرده الناس .

فإذا دخل بيته إليها – بعد يوم شاق في الدعوة والتبليغ – سرعان ما ينسى الألم والحزن، إذا تمسح بيدها الحانية على قلبه . وكانت – رضي الله عنها – امرأة حاذقة صَنَاعٌ في إدخال السرور على زوجها والتخفيف عنه . ولقد ضُرب بها المثل في طهارتها، وضُرب بها المثل في حكمتها، وضُرب بها المثل في حصافتها.

***

✍ **الطُهر والعفة:**

أما طهارتها، فقد كان لقبها في الجاهلية " **الطاهرة** "

والمرأة التي تحمل هذا اللقب في مجتمع جاهلي أكلته الفواحش، وجازت فيه الدعارة، واشتهرت فيه البغايا ..

هي امرأةٌ بلغت من العفة والنقاء مبلغًا رفيعًا؛ أهْلَهَا لهذا الاصطفاء الرباني، أن اختارها الله زوجةً لخاتم الأنبياء .

ولله در العفة، بَلَّغَت أهلها الدرجات العلى !

***

الحكمة :

وأما حكمتها فهي صاحبة قولة تُعد من أبلغ ما دونه العرب في الحكمة، تلك التي قالت فيها - مخففة من خشية رسول الله ـ ﷺ ـ على نفسه يوم نزلت " اقرأ "

" **كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ** "(١)، ثم انطلقت تمشي به إلى ورقة بن نوفل – وكان عالمًا بالأديان – ، لتَحُلَ لزوجها اللغز الذي أُشكل عليه في أمر النبوة. ولم تكن بالمرأة السلبية التي لا تبالي بشؤون زوجها .

الفطنة :

وأما حصافتها .. فهي ممن كمل من النساء.. وهي التي أثبتت لرسول الله أن ما يأتيه ليس بشيطان ولا جِن، فقد شرعت تمتحن برهان الوحي لتثّبت قلب زوجها، فقالت : "**أَيْ ابْنَ عَمّ ! أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْبِرَنِي بِصَاحِبِك هَذَا الّذِي يَأْتِيك إذَا جَاءَك ؟**

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَتْ: فَإِذَا جَاءَك فَأَخْبِرْنِي بِهِ .

فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ ـ عَلَيْهِ السّلَامُ ـ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ –صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– لِخَدِيجَةَ يَا خَدِيجَةُ هَذَا جِبْرِيلُ قَدْ جَاءَنِي ، قَالَتْ : قُمْ يَا ابْنَ عَمّ فَاجْلِسْ عَلَى فَخِذِي الْيُسْرَى ؛ قَالَ فَقَامَ رَسُولُ اللّهِ– ﷺ – فَجَلَسَ عَلَيْهَا ، قَالَتْ هَلْ تَرَاهُ ؟ قَالَ:" نَعَمْ ". قَالَتْ : فَتَحَوّلْ فَاجْلِسْ عَلَى فَخِذِي الْيُمْنَى.

فَتَحَوّلَ رَسُولُ اللّهِ – ﷺ – فَجَلَسَ عَلَى فَخِذِهَا الْيُمْنَى ، فَقَالَتْ هَلْ تَرَاهُ ؟ قَالَ : "**نَعَمْ**" . قَالَتْ : فَتَحَوّلْ فَاجْلِسْ فِي حِجْرِي .

فَتَحَوّلَ رَسُولُ اللّهِ – ﷺ – فَجَلَسَ فِي حِجْرِهَا . قَالَتْ هَلْ تَرَاهُ ؟ قَالَ : "**نَعَمْ**" .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٧٢) .

فلما تحَسَّرَتْ، وَأَلْقَتْ خِمَارَهَا، وَرَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ جَالِسٌ فِي حِجْرِهَا ، ثُمّ قَالَتْ لَهُ هَلْ تَرَاهُ ؟

✍ **قَالَ : " لا"** ، قَالَتْ:**" يَا ابْنَ عَمّ اُثْبُتْ وَأَبْشِرْ فَوَاَللّهِ إنّهُ لَمَلَكٌ وَمَا هَذَا بِشَيْطَانٍ"**[1] .

فقد علمتْ – برجاحة عقلها – أن الملائكة تستحي، وأن الشياطين لا تستحي، فتحيلت هذه الحيلة، وفثبتت وبشرت رسول الله –ﷺ – . وخير الناس للناس من يَفطن لحاجاتهم، ومَن فاته العقلُ والفطنة فرَأْسُ مالِه الجَهْلُ.

***

الصبر على تطليق بناتها :

ولم يزعزع إيمانُها، ولم تتزحزح ثقتُها بزوجها يوم تسببت الدعوة الإسلامية – بزعم البعض – في تطليق بناتها .

وكان صديد مكة قد خرجوا يسعون في تطليق بنات النبي من أزواجهن، ونجحوا في تطليق رقية وأم كلثوم من ابني أبي لهب، ثم مَشَوْا إلَى أَبِي الْعَاصِ بن الربيع، فَقَالُوا لَهُ فَارِقْ صَاحِبَتَك ـ يعني زينب عليها السلام ـ وَنَحْنُ نُزَوّجُك أَيّ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ شِئْتَ، فقال كلمةً لا تخرج إلا من رجل كريم جرع الكرم حتى النخاع ـ قَالَ :

" لا وَاَللّهِ، إنّي لا أُفَارِقُ صَاحِبَتِي ! وَمَا أُحِبّ أَنّ لِي بِامْرَأَتِي امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ !"[2].

فعظم أبو العاص بن الربيع في نفس رسول الله ـ ﷺ ـ وكان – صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– يُثْنِي عَلَيْهِ دومًا .

أما خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقد قابلت المحنة بصبر وثبات، ولم يصدر منها ولا من البنات لفظة تبرم، أنْ ابتلاهم الله بفض هاتين الزيجتين، ولم تقل خديجة كما تقول نساء بعض الدعاة : لقد جلبت لنا دعوتك خراب البيوت، وطلاق البنات ! ما ذنبهن ألا يفرحن ويُحْمَلن إلا أزواجهن؟!.....

لم تقل هذا . بل صبرت، ولو تعلم أن حكمة الله اقتضت أن يبدلنهن بزوج أكرم وأخلق وأغنى !

---

(١) ابن هشام : ١/ ٢٣٨،.

(٢) ابن هشام ١/ ٦٥٢.

فحالهن مع الله كحال الطفل الذي سلبه أبوه الطعام الخبيث ومنحه الطعام الطيب الغريض.

✍ **الصبر على الحصار :**

ولما كُتبت وثيقة الحصار الظالمة، وسيق المسلمين إلى الشِعِب، وقاطعتهم قريش وجوّعتهم، كانت خديجة مع رسول الله - ﷺ - راضية محتسبة، ولم يصدر منها كلمة عتاب لرسول الله - ﷺ -، ولم تتبرم له، بل ثبتت معه في المحنة، وعزمت أن تبقى إلى جواره حتى تنقشع الظلمة، ورضيت أن تترك منزلها الفاخر، وفراشها الوثير، وتخرج حبيسةً مع رسول الله بين جبلين، تُعاني الحَر والقَر، تفترش الحصباء وتلتحف السماء، وتكابد الجوع والفقر، وهي الغنية الحسيبة.. تكابد الظمأ والخشونة، وهي السيدة الشريفة.. وطالت بها أيام الحصار وهي واثقة راسخة رسوخ الشم الروسي، سامقة سمو الجوزاء العوالي ..كل ذلك على مدار سنوات الحصار الثلاث من شهر المحرم للعام السابع للبعثة وحتى المحرم للعام العاشر للبعثة .

***

 **سلام وجَنَّة ورضوان**

ولما انقشعت ظلمة الحصار، وتبدد كابوس السجن، خرجت - رضي الله عنها - وقد أعياها المرض، وبراها الجوع، وهدَّمت بنيانها سنواتُ الضنك، فخرجت من سجن الناس إلى رحاب الله الرحيب، بعدما بشرّها رسول الله - ﷺ - ببيت في الجنة من لؤلؤ، لا نَصَب فيه ولا تعب، تنعم فيه عما قريب بغاية الهدوء والنعيم، وقد نزل الأمين جبريل - خصيصًا - ذات يوم حاملاً رسالة عاجلة وسلامًا مُخَصَصًا من الله رب العالمين إلى السيدة الجليلة . فما أكرمها وأكرم منزلتها

✍ **فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال :**

أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ؛ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا - وَمِنِّي -، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ ولا نَصَبَ [1] .

(١) البخاري (٣٥٣٦) .

وهكذا أرسل الله لها التحية والبشارة، محمولتان من أمين السماء" **جبريل**"، مدفوعتان إلى أمين الأرض " **محمد** "، ليقوم بدوره بتليغ التحية الكريمة والبشارة الكريمة، من كريم عن كريم إلى سيدة نساء العالمين " خديجة " .

وتوفيت – رضي الله عنها– في رمضان من العام العاشر من البعثة، ودفنت بمدافن مكة عند جبل الحجون، عن خمس وستين سنة[1] .

فماتت ولم تر في الدنيا لقاء ما قدمته، فلم تفرح بغنيمة، ولم تر دولة المسلمين، بيد أن الأجر العظيم الذي لا ينقطع فضله قد أخره الله لها، فليس بمقدور ملوك الأرض جميعًا أن يوفوا لها أجر صنيعها، إنما الجدير بذلك ربها الذي خلقها وهو ملك والملوك .

***

وفاء بلا حدود

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يحن إليها.

يذكرها دومًا . فلا يزال يذكر فضائلها حتى تغار إحدى زوجاته، وكان يكرم صويحبات خديجة، فإذا ذبح أو طبخ أهدى إليهن، إكرامًا لها. وهي في قبرها !

وإذا ذكرَها ذاكرُها في حضرة رسول الله –ﷺ – إذا به –ﷺ – يرق لها، ويذكرها، ويستغفر لها، ويذكر فضائلها حتى يأتيه عارضٌ يقطع عليه حديثة، أو ضجرة ـ كضجرة عائشة ـ تحوْلُ بغيرتها بين رسول الله وبين الحديث عن خديجة، بيد أن العكس يحصل، فإذا غارت عائشة ونالت من خديجة كما تنال المرأة من ضرتها فقالت: " **عجوزٌ ! قد أبدلك الله بخير منها** "، زادت الطينة بلة، فيزيد رسول الله في ذكرها ويكثر من الحديث عن فضلها أكثر وأكثر ، ويقول : «**مَا أَبْدَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ**»[2] ، ويستمر الحال على هذا النحو، حتى تأتيه عادية أو صارفة تقطع الحديث عن فضل خديجة !

***

(١) **انظر** : **الذهبي** : سير أعلام النبلاء ٢/ ١١٢.
(٢) أحمد (٢٣٧١٩) .

ويوم بدر [في رمضان ٢ هـ]، جاءت كل عشيرة تفتدي أسرها من نُيوب المسلمين، وكان أبو الْعَاصِ بْنِ الرّبِيعِ - زوج زينب - بين الأسارى، وكان الإسلام قد فرق بينه وبين بنت رسول الله - ﷺ -، وأرادت زينب - الوفية بنت الوفية - أن تنقذ زوجها من الأسر، علها تَرد له يدًا من أياديه البيضاء، أو يشرح الله صدره للإسلام.

وبينا الناسُ يتوافدون على النبي - ﷺ - كلٌ يدفع الفداء لقاء قبض أسيره؛ إذ بعثت زينب بنت رسول الله - ﷺ - في فداء أبي العاص بمالٍ وبعثت فيه بقلادة لخديجة، كانت أَدخلتها بها على أبي العاص .

وجيء بالمال والقلادة إلى رسول الله - ﷺ - ، لإطلاق أبي العاص، فلما وقعت عينا رسول الله - ﷺ - على قلادة خديجة، رَقّ لَهَا رِقّةً شَدِيدَةً، وَقَالَ - يستسمح أصحابه - : **" إنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا ، وَتَرُدّوا عَلَيْهَا مَالَهَا ، فَافْعَلُوا "** فَقَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهّ . ففعلوا [1].

لقد أثَارت قلادة خديجة في نفس رسول الله - ﷺ - الذكريات، فكأنما هب إليه من إطار هذه القلادة أريجًا تنفسته خديجة، فحرك القلب الرحيم، بعدما كاد أن يقر بعد رحيل الحبيبة الكريمة، تلك المرأة التي حار رسول الله - ﷺ - في فضلها .

رق لها . ولِمَ لا ؟ فهي قلادة لامست يومًا نَفسَ خديجة التي أعطته كل شيء نفسها وجهدها ومالها وبيتها، وتركت له كل شيىء، ولم تمتن عليه بشيء .

ورق لها، رقة شديدة، فأوشك أن يرسل عَبرة حارة من عينيه الكريمتين، بيد أن العَبرة لم تسل على الخد إنما سالت إلى القلب، فأحس الناظرون بحرارتها في رقته الشديدة هذه . وأشفقوا عليه . وشرع يستنزل فيهم الكرم، ويستسمح أصحابه - وهو الكريم الأكرم - أن يطلقوا لزينب أسيرها . . ثم إنه في أدب جم وخلق سَجْح، يُخيرهم في ذلك ويكل إليهم القرار، ولو شاء أمرهم، فقال : **" إنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا ، وَتَرُدّوا عَلَيْهَا مَالَهَا ، فَافْعَلُوا "** .

***

(١) ابن هشام ١/ ٦٥٢ (بتصرف) .

وفي يوم فتح مكة[**رمضان ٨هـ**]، لما أراد أن يبيت، لم يذهب إلى بيت من بيوت أصحابه، وهو لو شاء لصادر أرقى بيت في مكة، ولكنه ضرب خيمته إلى جوار قبر خديجة، وكأنما لما فتح مكة؛ فتحت هي الأخرى قلبَه، فنكئت فيه ذكريات خديجة الغائرةَ، وكأنما جاء رسول الله –ﷺ – إليها على قدم وساق، قد اختلطت في قلبه عَبرة الفراق وفرحة الفتح، ولسان حال المقام يقول : صدقت يا خديجة : " **لا يخزيك الله أبدً** " .

***

يا أم القاسم !

أصبحت مَعلمةَ العفة لبنات المسلمين، ومَعلمةَ الوفاء لزوجات المسلمين، ومَعلَمة الصبر لداعيات المسلمين ، بل أنت سيدة الحكمة لحكماء المسلمين .

***

وأما أحوج الدعوة الإسلامية إلى أمثال خديجة ! فنحن في أمس الحاجة إلى "**خديجات**" ينفقن على الدعوة، ويبذلن للدعوة، ويصبرن في سبيل الله، ويسكبن الإيمان والثقة والفرح في قلوب إزواجهن سكبًا. ويبَلِغْنَ دعوة الله إلى السَّانح والبَارح. فإلى هذا المعين ، معين أم المؤمنين، فارتشفن، يا فتيات المسلمين . وإياكن، و السُّفوليةَ الخارجة، والمَثالب الفاضحة، والتبرج المحرم، والعُري المُجرَّم، والخضوع بالقول والتغنج، والتساهل مع الرجال والتهتك ..إياكن والكَذِب المُبرِّح، والخُلْفَ المُصرّح، والغيبة والنميمة، وإضاعة الوقت والمال، على الكماليات والتفاهات .. إياكن والانشغال بوسائل الإعلام، من مسلسلات وأفلام تحض على الفُحش والرذيلة، والجَهالة المُفْرطة، والرِّكاكة المُسْتَخِفّة، والزنا والخَنا ، والسطحية والسذاجة، والميوعة والخلاعة.

ولا تتأثرن – أبدًا – بأي امرأة متبرجة، تلك التي تتعرى للعيون الجائعة، كالبقلة الحمقاء، الذاوية في أرض نشَّاشة.. لا تعجبن بها، فالشيطان يجملها في عين الرجل ليُفتن، ويزينها في عين المرأة لتفسد، هي حسنة في عين الشيطان وحسنة في عين الخبلان، وحسنة عند الذئب البشري والعقربان.. والقَرَنْبَى في عين أمِّها حسنة !

بل أنتِ. أنتِ – أيتها المؤمنة - جميلة الجميلات ومليحة الحسناوات!



١-المشاركة في حملة دعوية عن قيمة" **العفة** " .

٢- توزيع مطوية عن الحجاب .



وفاة أبو طالب، وتجرء الناس على النبي ﷺ

إنك لا تهدي من أحببت ..

✍ **عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ :**

أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ـ ﷺ ، وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ :

"أَيْ عَمِّ ! قُلْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ" !

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟

فَلَمْ يَزَالا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ : عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ !

فَقَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ: **" لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ "**(١) ، ثم نَزَلَتْ :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣] .

✍ أهون عذاب أهل النار !

وعن الْعَبَّاس بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ

✍ **قَالَ لِلنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ:** مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ ؟

✍ **فقَالَ : "هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ"**(٢).

✍ **وقال أيضًا : "لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ النَّارِ، يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ "**(٣)

***

ولما مات العم، نالت قريشٌ من رسول الله - ﷺ - من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء المشركين ، فنثر على رأسه ترابًا ودخل رسول الله- ﷺ- بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت

---

(١) البخاري: (٣٥٩٥) .

(٢) البخاري (٣٥٩٤) .

(٣) البخاري (٣٥٩٦) .

تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله -ﷺ- يقول لها :" **لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك** " (١) .

مفردات المشهد :

سفيه .. وتراب .. وداعية !

أما السفيه

فما أكثر السفهاء الذين يعترضون دعوة الحق ورجال الحق ! هذا السفيه لم يحركه سفهه إلى ذلك الصنيع الوضيع إلا لمجرد رؤيته لشخص الداعية، وكأن صورة النبي وهيئة الرجل الصالح أمامه تثير غضبه الأهوج، وتستفز مشاعره الخبيثة؛ التي تتمخض عن قبح الفعال وسوء المقال .

إن شأن السفهاء لن يتغير في مجابهة الدعوة، وهم الذراع اليمنى لمعسكر الباطل، فكم لاقى الأنبياء من سفهاء الأمم ! وكم من أنظمة ظالمة سخّرت السفهاء في إيذاء المؤمنين ! فكان من هؤلاء السفهاء، سفيه بدرجة جلاد يسلخ ظهور الدعاة، وسفيه بدرجة قائد جيش، سكير، عربيد، أغرق الأُمة في نكسات الهزائم، وفي هزائم النكسات، ومنهم سفيه بدرجة كاتب أو مُخرج يصنع سينما الإباحية، وفن المجون، وتصاوير البغاء ـ حتى جعلوا من الشباب دمىً بهيمية، تتقن الخلاعة، وتتخلق بالميوعة، فنشأ الجيل المهزوم نفسيًا قبل أن يهزمه الأعداء ويأسره في عربات، تدور في شوارع دولة الباطل وكأنهم القرود.

وويح السفهاء ! مع وضاعة أنفسهم، ونزالة قدرهم، تراهم أشد الناس كبرًا، وأقواهم في غمط الناس، وغمص إنسانية الإنسان، قال رسول الله -ﷺ - :

" **إِنَّ اللهَّ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَازْدَرَى النَّاسَ**"(٢).

وهم دومًا قواد الحملات الإعلامية ضد الحق، فيشوهون معالم الجادة، ويضلون الناس عن المحجة :

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [البقرة:١٤٢]

---

(١) ابن هشام ١/ ٤١٦ .

(٢) أخرجه أحمد (٨/ ٣٨٩) وصححه الألباني في السلسة (١٦٢٦) .

✍ **قال الله تعالى :**

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا ﴾ [الأنعام:١٤٠]

فيا ويح من قتل أبناء الأمة الشرفاء، بل يا ويح من قتلوا الشعوب فذبحو الأطفال وهتكوا الأعراض ودنسوا المقدسات وأكلوا الأرزاق .

يارب !

﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٥٥]

إنهم سبب الهلاك والدمار ، إنهم سوس الحضارات، وسرطانات القيم .

فلا تهلكنا – يا أرحم الرحمين – بما فعل السفهاء !

وأما التراب ..

فهو وسيلة الإيذاء، وتُصنع من التراب كل وسائل الإيذاء، ففي وقت تكون الوسيلة حجارة – وهي من التراب - تنزل على جسد الداعية كما حدث لخير البرية في رحلة الطائف، وقد تكون الوسيلة سياطًا – هي من نُبت الأرض - ، تنتقل بين أيادي الظالمين عبر قنوات الأزمنة، من أُبي بن خلف إلى حمزة البسيوني وما بينهما وما بعدهما وما قبلهما، وقد تكون وسيلة ضرب الدعوة سجنٌ – هو من التراب - ، وهو سجن واحد ذلك السجن الذي حُبس فيه يوسف وهُدد به موسى، وحُصر فيه محمد، وجُلد فيه ابن حنبل، ومات فيه ابن تيمية، وشُنق فيه العلماء .

✍ **قال الباطل :**

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩]

✍ **فقال الحق :**

ومالي لا أُسجن في الدنيا بسجن الآخرة ـ و" **الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ** "ـ

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:١٢]

﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ ﴾ [يوسف:٣٣]

✍ **وأما الداعية ..**

فهو بطل الصراع في الدنيا والآخرة، أكرِم به رفعة ! فما أعظمه، وهو يواجه جحافل الباطل، ثابتًا راسخًا، قائلاً في ثقة :

" إن الله مانع أباك " !

إن تراب الدنيا لو اجتمع فلن يطمر نور الشمس، وإن وسائل الإيذاء لو اجتمعت فلن تُطفئ دعوة الله :

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[التوبة:٣٢]

يأبى الله ..

فالصبر الصبر ! والثقةَ الثقةَ !



لا تجعل من إقبال الجماهير على دعوتك مقياسًا لنجاح منهجك، واعلم ـ كذلك ـ أن التفاف الناس حولك ليس معناه أنك على حق، بل هو مظهر من مظاهر نجاح حركتك بين الناس . إن تصفيق الجموع الغفيرة لك؛ لا يعني بالضرورة أنك نجحت في إصلاح فسادهم، أو تقويم اعوجاجهم .





القسم الخامس

البحث عن الأنصار

رحلة الطائف

بعد عقد من الزمان أمضاه رسول الله -ﷺ- في دعوة الوثنيين في مكة، وكانت سنوات حافلة بالإيذاء والتعذيب والسجن، حتى إذا كان على رأس عشر سنين ومات عمه وسنده "**أبو طالب**" وماتت زوجه وحصنه "**خديجة**"، أراد أن ينقل دعوته إلى خارج مكة بعدما ضاق به أهله، فقرر الرحيل إلى الطائف، فخرج معه مولاه " **زيد**".

***

خرج رسول الله -ﷺ- إلى الطائف داعيًا وهاديًا، يحدوه الأمل في هداية ثقيف، جاء إليهم على قدم وساق، بقلب يحمل الخير والهدى للعالمين.

ولما وصل إلى الطائف بسلامة الله وحفظه، توجه على التو نحو عِلية القوم، وقادة ثقيف، وزعماء الطائف، فهو يعلم أن هداية الحكام أكثر أثرًا من هداية المحكومين، والبداية بالمتبوع أولى بالبدية مع التابع . نعم، ذهب إلى نخبة البلد وأهم ثلاث شخصيات في الطائف، وهم أخوة : عبد ياليل، ومسعود ، وحبيب بنو عمرو . فلما جلس إليهم وكلمهم، سخروا منه، وردوا عليه ردًا منكرًا، وأغروا به السفهاء، فاجتمع عليه الأهالي، ووقفوا له صفين، يمر من بينهم، وقد أمطروه ضربًا بالحجارة حتى دميت قدماه، وقذفًا بالهجاء والشتم، وكان "زيد "يقيه بنفسه حتى أصيب في رأسه، ومكثوا يطاردونه ويصيحون به في الشوارع حتى ألجأوه إلى بستان، لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، وهكذا ظل الناس يطاردونه ويضربونه على مدار مسافة طويلة، نحو خمسة كيلو مترات، وقد قطع هذه المسافة مشيًا أو ركضًا مع ما يكابده من الأذى.

فدخل البستان يلوذ به، ويحتمي بشجراته من الضرب والمطاردة، وهو الذي جاء إليهم منقذًا، فجلس إلى شجرة عنب وكأنما هي المرة الأولى التي يجلس فيها بعد سنين، فقد أعياه الضرب والركل، ودماء شريفة تنزف من وجهه الكريم، ومن قدمه الشريف، فضلاً عن ذلك الجرح النفسي في قلبه الصديع ، والأسى الذي ينكأ جروح الماضي، فإذا بخير البرية -صلوات الله وسلامه عليه - يتوجه إلى ربه ضارعًا، خاشعًا ،

رافعًا يديه إلى السماء، مناجيًا ربه، معتذرًا إليه، متحببًا إليه، بكلمات كريمة ، وبدعاء صادق نبع من أعماق قلبه الحزين، قد امتزجت كلماته بحرقه وجدانه المكسور :

"اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي ، وَقِلّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ ! أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي ، إلَى مَنْ تكِلُنِي ؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي ؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك ، أَوْ يَحِلّ سَخَطُكَ، لَكَ العتبى حَتّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلّا بِك"[1].

لقد كانت إصابته النفسية كبيرة، إلى الدرجة التي نراه لأول مرة يشكو إلى الله قلة حيلته وضعف قوته وهوانه على الناس .

"اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو "

صلى الله عليك ، علمتنا أن الشكاية واللجوء إنما يكون إلى الباري جل في علاه، يجيب المضطر ويكشف الضر ويشفي السقيم ويقضي الحاجات . ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦]، ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢].

"إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي ، وَقِلّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ "

كلا ! أنت الأقوى بين بني البشر ! وأنت الأعلى وأنت الأعظم بين البرية يا خير الورى – صلى الله عليك – .

بل هم أهل الهوان؛ إذ هانو على أنفسهم، وكذبوا دعوتك، وحجبوا عن قلوبهم نورك. هم الأهون والأذل ، والله ليردنك الله إلى ثقيف وأنت العزيز وهم الإذلاء، حتى إذا قهرتهم في غزوة حنين في العام الثامن من الهجرة، وقتلت منهم وأسرت، جاءو إليك معتذرين، يطلبون سباياهم، فتفك نسائهم من الأسر وأولادهم من الرق ، وتعفو وتصفح الصفح الجميل ، فيدخلوا في الإسلام وافرين :

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٢٠

زانتك في الخلق العظيم شمائل ** يغرى بهن ويولع الكرماء**

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى ** وفعلت ما لا تفعل الأنواء**

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا ** لا يستهين بعفوك الجهلاء**

وإذا رحمت فأنت أم أو أب ** هذان في الدنيا هما الرحماء**

بك يا ابن عبدالله قامت سمحة ** بالحق من ملل الهدى غراء**

" يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ ! أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي" .

سينصرك الله نصرًا عزيزًا، وينصر جنودك وأتباعك وتلاميذك إلى قيام الساعة، ستنكشف الغمة ، وتفيق الأمة، سيندمل الجرح يا رسول الله، وسيمكن الله لدعوتك، ويستخلف الله عباده المستضعفين، فيرفعوا رايتك، ويطبقوا شرعتك، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج:٣٩] .

"إِلَى مَنْ تكِلُني ؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُني ؟ أَمْ إِلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي"

لا تبالي ! ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر:٣]، ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر:٩٥] ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]، ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه:١] ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح:١،٦].

لا تحزن ! سيفتح الله لك قلوب الأبعدين، وسيمكنك الله من رقاب العدوين، فلا يتجهمك الأول ولا يملك أمرك الثاني، بل ستملك زمامهما رغبًا أو رهبًا، ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١]. ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢١]

"إِنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي" ..

ما أعظم نفسك الكريمة ! تتهم نفسك بالتقصير، وما قصرت قيد أنمله، لا تبالي ! فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر !

"أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك ، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ" .

تسأل ربك أن يعيذك بوجه الكريم من غضبه وسخطه ! فكيف بنا وكلنا ذنوب !

لا تبالي ، قد أعاذك ولله الحمد بنور وجهه الكريم، الذي أشرقت له الظلمات من غضبه، فاللهم لا تغضب علينا .

قد أعاذك ولله الحمد بنور وجهه الكريم الذي صلح عليه أمر الدنيا والآخرة من سخطه، فاللهم ارحمنا وارض عنا .

"لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى".

تتحب إلى ربك، وتتلطف إليه، وتتودد ، وتؤكد على غايتك الكريمة، وهي رضا مولاك، فله أن يعاتبك حتى يرضى عنك . لا يضيرك شئ ما دام الله راض عنك، لا يحزنك شيء طالما الرب يحبك .

" وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ"

تتبرأ من كل حول ومن كل طول ومن كل قوة إلا قوة الله وحوله وطوله، أنت لا تعترف بأي قوة إلا قوة الله ، فأنت قوي بالله، ولن يخزيك أرحم الراحمين.

أشد الأيام :

قَالَتْ عائشة ـ رضي الله عنها ـ لِلنَّبِيِّ ـ ﷺ ـ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟

فَقَالَ: **" لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ[1] ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ[2]، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ "**[3]

---

(١) ابن عبد ياليل بن كلال من أكابر أهل الطائف من ثقيف . الفتح ٦/ ٣١٥ .

(٢) موضع بالقرب من مِنَى بمكة كانت الثعالب تأوي إليه ، الفتح (٣/ ٣٨٥) .

(٣) مسلم (٣٣٥٢) .

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ: " **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**"(١)

توصيات عملية

١ – اشك إلى ربك همومك كما رأيت من رسولك !

٢ – لا حيلة لك ولا قوة لك إلا بالله فلا تظلم ولا تتجبر ولا تتكبر

٣– لا تبالي إلا بغضب الله فلا تحزن على دنيا فانية، أو زينة ماضية، وابك على خطيئتك.

٤ – عافية الله أوسع ورحمته أرحب فلا تقنت من رحمة الله وفرجه: سينجلي الهم، ويذهب الحزن، ويطيب القلب، فلا تظن أن ظالمك منتصر .

٥– وجه الله الكريم، أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، فهل سئلت ربك النظر إلى وجهه الكريم ؟ دومًا قلها : اللهم لا تحرمنا لذة النظر إلى وجهك الكريم، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣].

٦– أكثر من الاستغفار وسؤال الله أن يعيذك من غضبه وسخطه، واحفظها : **"اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ"**(٢) ، **"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ"**(٣).



(١) مسلم (٣٣٥٢) .
(٢) مسلم (٧٥١) .
(٣) مسلم (٤٩٢٢) .

الإسراء والمعراج

كان المسجد الأقصى قيمة حية في وجدان المسلمين الأوائل؛ خاصة في المرحلة المكية؛ إذ كان قبلتهم، رغم أن الكعبة الحرام كانت قائمة بين ظهرانيهم.

***

وكانت زيارة المسجد الأقصى هي حلقة الوصل بين عهدين في عمر الدعوة الإسلامية؛ فما قبل الإسراء كانت مرحلة الاستضعاف، وما بعد الإسراء كانت مقدمات فعلية لمرحلة التمكين والدولة والخلافة .

***

وكان المسجد الأقصى هو المحطة التي لابد منها ليعرج النبي ـ ﷺ ـ من الأرض إلى السماء .

فقد أراد الله أن يرفعه مكانًا عليًا، ويريه من آياته، وليفرض على الأمة ركن الصلاة ؛ فلما شاء الله ذلك؛ لم يكن من بقعة تحل لذلك سوى بيت المقدس؛ فكان الإسراء كرحلة أفقية تمهيدية للوصول إلى القاعدة المقدسة؛ ومنها تبدأ الرحلة الرأسية الكبرى إلى السماء؛ إلى سدرة المنتهى إلى ما علم الله!

***

هكذا كان المسجد الأقصى حلقة الوصل بين السماء والأرض .

وكان المكان الذي جمع الله ُ فيه الأنبياء صفوفًا مؤتمين بمحمد ـ ﷺ ـ.

وإنما جعل الإمام ليُؤتم به، وما صلى بهم إلا بإذن الله، فقد رضي الله أن يكون الإسلام مهيمنًا على الدين كله وعلى الشرائع كلها .

" **وَلاَ يُؤَمُّ الرَّجُلُ فِى بَيْتِهِ** "، فهو مسجده كما أن مسجد المدينة مسجده . وهو مسجد الأمة الإسلامية كما أن المسجد الحرام مسجد الأمة الإسلامية.

صلى بهم إمامًا وفيهم إبراهيم جده؛ وما محمدٌ إلا رسولٌ أحيا الحنفية السمحة من موات، فبات هو الوريث الشرعي لها في عصر العلو الوثني .

صلى بهم إمامًا وفيهم موسى كليم الله، ولن يستنكف موسى بن عمران أن يكـون جنديًا من جنود محمد . قال ـ ﷺ ـ : **"لَوْ أَنَّ مُوسَى – ﷺ – كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي"**[1] .

صلى بهم إمامًا وفيهم عيسى، روح الله، وهل النصرانية الحقة إلا أناجيلَ دفنها عبادُ الصليب؛ فاستخرجها اللهُ تعالى على يد محمدٍ ـ ﷺ ـ . آيـات بينـات هـن أم الكتـاب؛ جمعت ـ بين دفتي المصحف ـ تعاليم الإنجيـل، وأحكـام التـوارة، ومـزامير الزابـور، ووصايا الصحف الإبراهيمية ...

صلى بهم، ويأبى الله أن يصلى بهم غير محمد ـ ﷺ ـ.

صلى بهم، ويأبى الله أن يكون المسجد الأقصى لغـير هـذه الأمـة، أو يكـون تحـت سلطان غير هذه الملة .

***

وكانت رحلة الإسراء لهدفٍ سامق عظيم؛ أشار إليـه ربنـا في أول آيـة مـن سـورة الإسراء : ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الإسراء:١]

وقد أكد هذا الهدف في سورة النجم ـ التي أشارت إلى رحلة المعراج ـ، فقال تعالى :

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[النجم:١٨]

ولِـمَ يريه من الآيات الكبرى، وعجائب الكون، والمواعظ الصارخة ؟

ألم تكفِ آيات القرآن، وما يُتلى في بيوت النبوة من الحكمة والموعظة الحسنة ؟

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الإسراء:١]

كأن الله أراد أن يختزل تعاليم المرحلة المكية في هذه الرحلة .

كأن الله أراد أن يكرم نبيه في نهاية المرحلة المكية، في رحلة لم تذق نفسٌ بشريةٌ معشار ما في هذه الرحلة من لذة لم ولن تتكرر في تاريخ الكون .

وهي بمثابة الرحلة التربوية التأهيلية لتهيئة نفس الداعية للانتقال إلى مرحلة الدولة والتمكين، فلا دولة إلا بقوة، ولا تمكين بلا تربية..

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٤٦)،حسنه الألباني في الإرواء:١٥٨٩ .

كما أتت هذه الرحلة الروحانية الجسمانية في إطار سلسلة الجرعات التربوية التي جرعها الداعية العظيم؛ إذ بدأ بخلوة التفكر والتحنث في غار حراء، ثم رحلة قيام الليل الطويلة في دار الأرقم ومكابدة العمل التنظيمي السري خلال المرحلة السرية، ثم رحلة الدعوة الجهرية وما فيها من مشقة على النفس، ومكابدة لأجلاف الأعراب، وصعاليك العرب، وبذاءات ذوي السلطان، وإيذاءات أصحاب المصالح الشخصية ... ومرحلة المعسكر التقشفي والسجن والحصار في شِعب أبي طالب فذاق النبيُ الكريمُ مرارةَ العيشِ، وقسوةَ الشظف، وشدة الجَعْف[1]، وطول السغب، وخشونة الضفف[2] ، واستمر تحت وطئة مجاعة حقيقية مدة ثلاث سنين كوامل، خرج منها إلى عام الحزن حيث فقد العم والزوج، ثم انتقل بمفرده في رحلة دعوية إلى الطائف؛ فذاق فيها من الإيذاء والعذاب ما لم يذقه مذ بدأ دعوته إلى الله .

ثم كانت رحلة الإسراء والمعراج؛ المعجزة، العجيبة، التي لم تستغرق ساعة؛ بل التي لم تلبث هنيهة، وكان ما حصّله النبيُ ـ ﷺ ـ فيها يستغرق قرونًا وقرونًا.. كانت هذه الرحلة الكريمة المترعة بالآيات الكبرى ـ وجبةٌ تربوية مكثفة، اشتملت على العديد والعديد من المشاهد الرهيبة التي تقشعر منها الجلود من هول وقعها؛ كرؤية مصائر الزناة، وخطباء الفتن، ومضيعي الأمانات، ومانعي الزكاة، وآكلي الربا وناهبي أموال اليتامى، ثم تُوجت هذه الرحلة المباركة بالتاج المحلى والقدح المعلى .. بالصلاة التي هي عماد الدين، التي هي أسمى وشيجة بين العبد وربه، ولتظل الصلاة نفحة المعراج الخالد التالدة؛ وليدين كُل مسلمٍ بالفضل والعرفان لهذه الرحلة المباركة، وليقف المسلم حول تعاليم الإسراء وقفةً تأمل وتدبر بين الفينة والأخرة .

***

وإليك ـ يا قارئي الحبيب ـ بعض أخبار المعراج كما ورد في بعض صحيح السنة؛ مع بعض التهذيب، مع عنونة أدخلتُها على النصوص، مع تعليق قصير للاستفادة التربوية :

---

(١) **الجعف** : القليل يقال ما عنده من المتاع إلا جعف .

(٢) الضَّفَفُ قلة المأْكول وكثرة الأَكَلة .

تهيئة قبل الرحلة

✍ **قال النبي ـ ﷺ ـ : " بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ، [وَرُبَّمَا قَالَ فِي الْحِجْرِ] مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ [هو جبريل] فَقَدَّ ... فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ، [يعني من ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ]، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا، فَغُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيدَ"**(١).

✍ **قلتُ :** وهي عملية تهيئة لتحمّل وطئة هذه الرحلة، كما هيئه اللهُ من قبل في صغره بحادث مماثل، هو حادث شق الصدر.

✍ **البراق**

" ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ، وَفَوْقَ الْحِمَارِ ... يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ "(٢) .

✍ **قلتُ :** هكذا خلق الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ حيوانًا مخصوصة، بموصفات مخصوصة، لرحلة مخصوصة، وهو من باب التكريم؛ فكما يحمل المضيف ضيفه على مركب كريم، كان الله ـ وله المثل الأعلى ـ هو أكرم الكرماء إذْ حمل نبيه على هذا المركب النوراني العجيب؛ الذي لم يُخلق مثله من قبل !

✍ **السماء الدنيا ولقاء آدم**

" فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ! فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ : هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ ، والنَّبِيِّ الصَّالِحِ ! "(٣).

✍ **قلتُ :** وتبدأ سلسلة سباعية في الترحيب من الملائكة الكرام، وقد كانوا في انتظار مبعثة، وكأنما جبلهم الله على حب محمد ـ ﷺ ـ، فهو في الأرض أحمد، في السماء محمد؛ عند الملائكة الكرام معروف محبوب .. والتقى النبي الأول بالنبي الخاتم، وهكذا تفتخر البشرية بمحمد ـ ﷺ ـ افتخارًا وتكريمًا جاء على لسان أبي البشر آدم :" **مرحَبًا بالابن الصالح ، والنبيّ الصالح** " .. فنِعْم الابن هو ! ونعم النبي هوّ!

---

(١) البخاري : ٣٥٩٨ .

(٢) البخاري : ٣٥٩٨ .

(٣) البخاري : ٣٥٩٨ .

✍ **السماء الثانية ولقاء يحيى وعيسى**

"ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ، إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ، قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ، فَرَدَّا، ثُمَّ قَالا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصالِحِ، والنبيِّ الصَّالِحِ "[1] .

وتواصلتْ مسيرةُ التكريم، كلما دخل على رهط من الملائكة، قالوا: **" مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! "** .. سعدتْ به السماء، وضاقت به الأرض، احتفى به أهل السماء، وتبرم له أهل الأرض..

والتقى بيحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ، وكان الترحاب والسلام، ثم تجاوزهما إلى السماء الثالثة .

✍ **السماء الثالثة ولقاء يوسف**

" ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ؛ إِذَا يُوسُفُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأخ الصالِحِ، والنبيِّ الصَّالِحِ "[2].

وتواصلتْ الرحلة ... ولا زالت فعاليات حفل التكريم مستمرة !

✍ **السماء الرابعة ولقاء إدريس**

" ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ، قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ! فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ؛ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأخ الصالِحِ، والنبيِّ الصَّالِحِ "[3] .

رتبة فوق رتبة، فقد تجاوز مَن رفعه الله مكانًا عليًا !

---

(١) البخاري: ٣٥٩٨ .

(٢) البخاري: ٣٥٩٨ .

(٣) البخاري: ٣٥٩٨ .

السماء الخامسة ولقاء هارون

" ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ :نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ! فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ: هَذَا هَارُونُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ "[1] .

تاقت إليه السماء.. ولكأنما كانت في انتظاره منذ أن خلقها الله !

السماء السادسة ولقاء موسى

" ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ مَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ، قال: مَرْحَبًا بِهِ ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ! فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ، بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ: أَبْكِي لأَنَّ غُلامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي !"[2] .

وبكاء موسى كان من باب التنافس في الخير، كان من باب علو الهمة وقوة العزم، وطموح النفس إلى المحل الأعلى، والمجد الأسمى، والمكان الأرفع ، والرتبة الأنجع، ولا أعظم من ميدان الدعوة إلى الله ؛ خير ميدان للتنافس وخير حلبة للتسابق، وكان بكاؤه ـ أيضًا ـ من باب التعجب من فضل الله تعالى على محمد ـ ﷺ ـ،رغم أن موسى كان كليم الله، وعاش ١٢٠ سنة، وكان شيخ أنبياء بني إسرائيل.

السماء السابعة ولقاء إبراهيم

" ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ : نَعَمْ، قَالَ : مَرْحَبًا بِهِ ! فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ! فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ : هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلامَ، قَالَ مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ "[3] .

---

(١) البخاري : ٣٥٩٨ .

(٢) البخاري : ٣٥٩٨ .

(٣) البخاري : ٣٥٩٨ .

وهكذا التقى النبي ـ ﷺ ـ بجده، شيخ التوحيد، كاسر الأوثان، مكرم الضيفان، خليل الرحمن.

[والملاحظ أن الأنبياء الذين التقى بها رسول الله ـ ﷺ ـ كانوا مصريين كموسى وهارون، أو عاشوا بمصر فترة من الزمن كعيسى و يوسف].

✍ **إلى سدرة المنتهى :**

" ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبْقُهَا [(١)] مِثْلُ قِلالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيَلَةِ، قَالَ [جبريل]: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى " [(٢)].

وهكذا يتواصل التكريم؛ ويرى النبيُ ـ ﷺ ـ هذه الشجرة العجيبة التي لم يرها إنسٌ قط ولا جان .

شجرة عظيمة أنبتها الله بالكيفية التي شاء، حية قائمة شامخة كما أراد، ولم يتمكن النبي ـ ﷺ ـ من وصفها لعظم بهائها وجمالها، وهو الذي أُوتي جوامع الكلم، والذي قدر عليه من وصفها أنه أشار إلى أن ثمارها يشبه القلال الضخمة التي كانت تُصنع في البحرين في زمنه ـ ﷺ ـ، وأن ورقها تشبه في رسمتها آذان الفيلة..

✍ **وقد قال الله تعالى فيها :**

﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:١٤،١٧].

✍ **أربعة أنهار**

" وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ؛ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ : مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ، قَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ " [(٣)].

وأرى أن هذه الأنهار إشارة معنوية كما كان إناء اللبن الذي شربه النبي ـ ﷺ ـ إشارة معنوية على هداية الأمة المحمدية.

---

(١) النَّبِق ثمر السِّدْر، والنَّبِقُ والنَّبق والنِّبق والنَّبْق والنَّبْقُ مخفف حمل السِّدْر الواحدة من جميع ذلك بالهاء الجوهري نَبِقة ونَبِق ونَبِقات مثل كَلِمة وكَلِم وكَلِمات. [**لسان العرب** (١٠ / ٣٥٠)] .

(٢) البخاري : ٣٥٩٨ .

(٣) البخاري : ٣٥٩٨ .

والإشارة المعنوية التي ترنو إليها رؤية النهرين الباطنين والنهرين الظاهرين هي التمكين للأمة الإسلامية والمكانة العلية لها في الدنيا والآخرة، فرؤية النهرين الظاهرين هو مُلك أمة الإسلام الذي سيتجاوز النيل والفرات، ورؤية النهرين الباطنين هو الملك العظيم لهذه الأمة في الجنة والذي سيتجاوز نهرين كبيرين فيها، والله أعلم .

✍ **البيت المعمور :**

" ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ "(١)

وهو بيت عبادة الملائكة في السماء، كما أن الكعبة بيت عبادة البشرة في الأرض، ولذلك ورد في الصحيح أنه بيتٌ **"يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ "**(٢) ، لاشك .. يتعدبون فيه لله تعالى لا يفترون .

✍ **إناء من لبن :**

" ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ؛ فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ : هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ "(٣).

هي الفطرة التي امتن الله بها على هذه الأمة؛ أنْ أنزل لهم شريعةً صافية صفاء اللبن لا غبش فيها ولا تحريف، وفيه بشارة من الله تعالى أن هذا المنهج العظيم لن ينحرف عن الفطرة ما دامت السماوات والأرض، قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]

✍ **فرض الصلاة :**

" ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ : بِمَا أُمِرْتَ، قلت : أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي ـ وَاللهِّ ـ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ " (٤) .

---

(١) البخاري : ٣٥٩٨ .

(٢) مسلم : ٤٢٩ .

(٣) البخاري : ٣٥٩٨ .

(٤) البخاري : ٣٥٩٨ .

وكان فرض الصلاة هو ذورة التكريم، . فُرضت بعد سدرة المنتهى، وبعد البيت المعمور، وبعد حفلات الاستقبال الملائكية ..

ليعود رسول اللهُ ـ ﷺ ـ من رحلة المعراج بنفحة من المعراج؛ نفحة يعرج فيها المؤمنون إلى الله ربهم في اليوم خمس مرات.

وكانت النصيحة من موسى بالذات لمكانته وقرب عهده؛ فشريعته هي الشريعة التي سبقت الإسلام مباشرة، وهو النبي الذي عالج أقسى النفوس، وأرذل المخلوقات، وأسوء الشخصيات، وأوسخ الطبائع، و أغدر الناس، وأجبن الناس ـ اليهود .

فإذا هو ـ عليه السلام ـ ينبري في إيجابية؛ لينصح أخاه خاتم الأنبياء؛ وكان في كل مرة يقول له : " **إِنِّي ـ وَاللهِّ ـ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ** " .

✍ **التخفيف** :

" **فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ، فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ، فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ : بِمَ أُمِرْتَ ؟ قُلْتُ : أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ؛ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ! قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى ، وَأُسَلِّمُ ... فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي**"[1].

وكلٌ من تقدير الله، فالرحلةُ رحلةُ رحمةٍ لمحمد ـ ﷺ ـ ولأمته .

وهذا ليعرف المسلم فضل الصلاة، وأهمية الصلاة؛ إذ فرضت في السماء وسواها في الأرض، وفرضت في المرحلة المكية وسواها في المدنية..

---

(١) البخاري : ٣٥٩٨ .

هي الركن الذي إذا أضاعه المسلم ضاع معراجه، وحبله، وغـذاء روحـه، وشـفاء نفسه .

هي الركن الذي يفرقّ بين المسلم وغيره، والدين وغيره، والبيت وغيره، والمجتمع وغيره، والبلد وغيره .

فلا يكون المسلم مسلمًا دون صلاة، ولا يكون الدين قائمًا دون صـلاة، ولا يكـون البيت مسلمًا دون صلاة، وكذا المجتمع والحكومة والدولة .

✍ **وقد قال النبي ـ ﷺ ـ في أئمة الجور، عندما قال الصحابة :**

" أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ ؟ "

قَالَ ـ ﷺ ـ : **" لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاتِكُـمْ شَـيْئًا تَكْرَهُونَـهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ"** [١].

✍ **نفحات أخرى**

"وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً" [٢] .

✍ **قال ابن مسعود : " فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْـسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ "** [٣].

✍ **أي:** مَنْ لَقِيَ الله لا يُشرك به شيئاً غَفر له المُقْحِـماتِ، أي الـذنوبَ العِظـامِ التـي تُقْحِمُ أَصحابها في النار .

✍ **العودة**

وعاد رسولُ الله ـ ﷺ ـ من هذه الرحلة الكريمة؛ نشيط النفس، شـاكرًا متحمـسًا، يخبر قومه بما شاهده؛ فكذبوه، وطالبوه أن يصف لهم المسجد الأقصى، فأظهره الله لنبيه كما البث المباشر ! قال النبي ـ ﷺ ـ :

" لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ؛ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ" [٤].

---

(١) مسلم : ٣٤٤٧ .

(٢) مسلم : ٢٣٤ .

(٣) مسلم : ٢٥٢ .

(٤) البخاري : ٣٥٩٧ .

وزاده اللهُ من فضله أنْ أظهر له علائم أخرى على صدقه؛ مثل إخباره ـ ﷺ ـ عن حال عير قادمة من الروحاء، وأخرى قادمة من الأبواء، فأقام عليهم الحجة البيضاء .

ومع ذلك جحدوا، وكفروا كفرة حمقاء، وتنكروا لهذه الآيات؛ التي لو جاء بها نبيٌّ لكفى بها إدلة على صدق نبوته . ومع ذلك كذّبوا وقالوا : سحر مستمر، كما كان حالهم في معجزة كبيرة أخرى حصلت في المرحلة المكية جديرة بالدراسة؛ هي معجزة انشقاق القمر له ـ ﷺ ـ حينما طلبوا منه ذلك، ونزلت سورة القمر لذلك. وهو أمرٌ يبين لك أن الجاحدين لن يقبلوا الدين مهما سُقت لهم من أدلة .كما قال الفراعنة لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢].

توصيات عملية

١ ـ اعلم دومًا أن مع العسر يسرا، ولو كان العسر في قعر بئر لنزل إليه اليسر حتى يخرجه، وأن الميسرة بعد الأمر المخوف، وعند اشتداد الشدة تكون الفرجة، وعند تصاعد الأزمة يكون الرخاء ، وأن مفتاح باب الفرجِ الصبرُ، والدَّهرُ لا يبقى على حاله، وتلك الأيام يداولها الله بين الناس.

٢ ـ طالع قصص الأنبياء، واستذكر جيدًا قصة إبراهيم، وموسى، ويوسف، وعيسى .

٣ ـ اقرأ تفسير سورتي الإسراء والنجم.

٤ ـ التأكيد على إسلامية المسجد الأقصى، والحديث مع الناس عن إمامة الأمة الإسلامية لجميع الأمم، وسرد أحداث الإسراء والمعراج، ومعركتنا مع اليهود حول هذا المسجد، والنهاية الحتمية لهذه المعركة .



إسلام الطفيل

(أصلح نفسك وادع غيرك)

- جاء في أمثلة العرب :" **أَصْلِحْ نفسَك يَصْلُحْ لك الناس** " [١]

✍ **وقال أرسطاطاليس:**

" أصلح نفسك لنفسك، يكن الناس تبعاً لك"[٢].

✍ **وقال أفلاطون:**

" من بدأ بنفسه أدرك سياسة الناس" .

✍ **وقال أيضًا : " أصلحوا أنفسكم تصلح لكم آخرتكم "**[٣] .

***

إلى جانب التنكيل والإيذاء استخدم مشركو مكة الوسائل الإعلامية، لمحاولة صد الناس عن النبي –ﷺ –.

واشتدت الحملة الإعلامية على الجماعة المسلمة .

وكانت تبلغ هذه الحملة ذروتها أيام الحج، حيث يأتي الأشراف والنوابغ من كل حدب وصوب.

وقد نظَّمتْ قريشٌ ما يشبه **"لجنة إعلامية"**، تترصد القادمين إلى مكة، فترسل إليهم من يُحذرهم من الدعوة الإسلامية، وقد قعدوا بكل صراط يصدون عن سبيل الله، فلا يكاد الغريب تطأ قدماه أرض مكة فلا يصل إلى الكعبة إلا وقد مر بعملية غسل دماغي من قِبل هؤلاء الإعلاميين، وقد قاموا بصب الشبهات والترهات والخرافات في عقله صبًا ..

وكأن الله أراد أن يشق إعلامهم الكاذب، بأن يضم لدعوته شخصية إعلامية عربية بارزة، وشاعر أريب لبيب من رواد **"ملتقى عكاظ الأدبي"**، فكان ذلك اليوم الأسود على رءوس المشركين يوم أسلم الطفيل بن عمرو، سيد دوس، وشاعر العرب.

***

(١) مجمع الأمثال٢/ ٤٥٠ .

(٢) مختار الحكم ١٩٣ .

(٣) لباب الآداب١٩ .

✍ **الدعوة الإسلامية في مواجهة التشويش:**

وتبدأ القصة، يوم قدم الطفيل بن عمرو إلى مكة، فمشى إليه رجال من قريش، يتلقفونه بنفث سمومهم الفكرية في عقل الطفيل، و"تحصينه" من الدعوة الإسلامية.

✍ **فقالوا له** :

" يَا طُفَيْلُ ، إنّك قَدِمْتَ بِلادَنَا ، وَهَذَا الرّجُلُ الّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أَعْضَلَ بِنَا ، وَقَدْ فَرّقَ جَمَاعَتَنَا ، وَشَتّتْ أَمْرَنَا ، وَإِنّمَا قَوْلُهُ كَالسّحْرِ يُفَرّقُ بَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ، وَبَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَبَيْنَ الرّجُلِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، وَإِنّا نَخْشَى عَلَيْك وَعَلَى قَوْمِك مَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا ، فَلا تُكَلّمَنّهُ، وَلا تَسْمَعَنّ مِنْهُ شَيْئًا "[1] .

✍ **قال الطفيل محدثًا عن حاله معهم** :

"فَوَاَللّهِ مَا زَالُوا بِي، حَتّى أَجْمَعْتُ أَنْ لا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا، وَلا أُكَلّمَهُ، حَتّى حَشَوْتُ فِي أُذُنَيّ – حِينَ غَدَوْتُ إلَى الْمَسْجِدِ – كُرْسُفًا، فَرَقًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنَا لا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَهُ "[2] .

وهكذا تأثير الإعلام، الذي يفعل الأفاعيل بالعقول، فبمثل هذا الطرح يتحول الحق إلى باطل في نظر الناس، ومن خلال وسائل الإعلام يرى الناس الفيل بحجم النملة، والنملة بحجم الفيل . وإذا أُحسن استخدام وسائل الإعلام؛ فهي كالشمعة في يد العاقل يضيء بها، وإذا أُسيء استخدام وسائل الإعلام فهي كالشمعة – أيضًا – ولكن في يد المجنون يحرق بها .

ومن ثم فإن على الجماعة المسلمة أن تصبر وأن تثبت، وأن تحسن التصرف في مواجهة الإعلام الـمُضَلِل، وأن تحسن التعامل مع ضحايا هذا الإعلام . فالساذج المَرْقَعان الأخرق الذي ينظر إلى الجماعة المسلمة على أنها عصابة متطرفة إرهابية .. ينبغي أن نتعامل معه على أنه ضحية من ضحايا وسائل التشويه، فلنحسن التعامل معه، ولنتخلق معه بأحاسن الأخلاق، وأكارم الفعال، لعل الله أن يمسح على قلبه فيزيل وحلة الإعلام المفسد، وينقذه من بين عجاجتي الإعلام الفاسد والوعي الغائب.

---

(١) ابن هشام : ١/ ٣٨٢ .

(٢) ابن هشام : ١/ ٣٨٢ .

✍ **عجائب القدرة الإلهيه في مواجهة الحملات الإعلامية:**

✍ **قَالَ الطفيل بن عمرو :**

" فَغَدَوْت إلَى الْمَسْجِدِ ، فَإِذَا رَسُولُ اللّهِ -ﷺ- قَائِمٌ يُصَلّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ . فَقُمْت مِنْهُ قَرِيبًا فَأَبَى اللّهُ إلا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ . قَالَ فَسَمِعْتُ كَلامًا حَسَنًا قَالَ فَقُلْت فِي نَفْسِي : ثكلتني أُمّي وَاَللّهِ إنّي لرَجُلٌ لبيبٌ شَاعِرٌ مَا يَخْفَى عَلَيّ الْحَسَنُ مِنْ الْقَبِيحِ ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرّجُلِ مَا يَقُولُ فَإِنْ كَانَ الّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قَبِلْتُهُ وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتُهُ "[1] .

وهنا نرى قدر الله، وكيف يفتح الله مغاليق القلوب بيديه، وهي القلوب التي خلقها ويقلبها كيف يشاء، وقد شَعُرَ الرجل بهذه القدرة الربانية تتسل إلى قلبه رويدًا رويدًا تسلل النور في حالك الظلمات، فقال : **" فَأَبَى اللّهُ إلّا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ"** .

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويرسل أشعة الإسلام إلى قلوب غبَّرتها وسائل التضليل، وإلى نفوس تربت رزحًا من الزمان على مناهج الفساد والإفساد، وإلى أجساد كَبُرتْ و شابت بين ظهراني المضللين والأفاكين .

وكم نرى من شباب قد انغمسوا في حمئة الضلال حتى ظن العدو أنه أعدهم معاول هدم في بناء الإسلام، وإذا بيد الله الرحيمة تأخذ بهم وتحملهم حملاً إلى ركب الدعوة ليكونوا عوامل بناء فيها .

وكم نرى وسائل الإعلام الغربية تستهدف بعض بلدان العالم الإسلامية، لمحاولة إفساد المرأة المسلمة وتجريدها من أخلاقها وحجابها، ولكن يأبى الله إلا أن يقيض لهذه البقعة رجالاً – اصطنعهم الله لنفسه – فَيَجُبّوا ما صنعه الإعلام الغربي، وينفوا عن البلد الإسلامي ما نفثه الإعلام الصهيوني، وتبقى الصحوة الإسلامية زاحفة كالفيلق الدارع، تنشر نور الله في كل مكان .

***

✍ **الله يختار لدعوته :**

✍ **قال الطفيل :**

" فَمَكَثْت حَتّى انْصَرَفَ رَسُولُ اللّهِ –ﷺ– إلَى بَيْتِهِ؛ فَاتّبَعْتُهُ حَتّى إذَا دَخَلَ بَيْتَهُ؛

---

١ ابن هشام : ١/ ٣٨٢، ٣٨٣

دَخَلْتُ عَلَيْهِ؛ فَقُلْت : يَا مُحَمّدُ إنّ قَوْمَك قَدْ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا ، لِلّذِي قَالُوا، فَوَاَللهّ مَا بَرِحُوا يُخَوّفُونَنِي أَمْرَك حَتّى سَدَدْت أُذُنَيّ بِكُرْسُفٍ [أي بقطن] لِئَلا أَسْمَعَ قَوْلَك ، ثُمّ أَبَى اللهُ إلا أَنْ يُسْمِعَنِي قَوْلَك، فَسَمِعْتُهُ قَوْلاً حَسَنًا ، فَاعْرِضْ عَلَيّ أَمْرَك "(١).

وهكذا، كما ترى، يدفع الله بهؤلاء إلى باب الداعية، ويقوم الطفيل بنفسه بالذهاب إلى بيت رسول الله – ﷺ –، ليناقشْ – أمر الدعوة – بطريقة عقلانية موضوعية، على الطريقة المعهودة عند الأدباء العقلاء والشعراء الحصفاء .

أما ترى أن مجهوادت المشركين الإعلامية قد ذهبت أدراج الرياح، وقد تلقف الداعية هذه الثمرة الحلوة سهلة، إنها يد الله أهدتها إلى الداعية المخلص !

إن قارورة الصَّبغ لا تصبغ البحر، ونفخات البشر لا تحرك القمر، ومهما نفخوا في أبواق (**إعلامهم**) فإن الدائرة عليهم!

وإن نَبْأَةَ الحق لابد أن تُسمع !

وإن منهج الله لابد أن يعود، ويسود، ويقود.

***

بداية الهداية :

قال الطفيل :

" فَعَرَضَ عَلَيّ رَسُولُ اللهّ – ﷺ – الإِسْلام وَتَلا عَلَيّ الْقُرْآنَ، فَلا، وَاَللهّ ! مَا سَمِعْتُ قَوْلاً قَطّ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَلا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ . " .

إنه حسُ الأديب الهِبرزي المِصقَع، يميز جيدًا بين حلو الكلام ومرة، وبين زين الأدب وشينه، وبين سلامة البيان وركاكته.

لقد استمع إلى القرآن، ثم أنصت إليه، ثم عايشه بقلبه، وفي مجلس واحد، وفي ساعة واحدة، حَكم حكمه البلاغي وكأنما أخذته نشوة الناقد الأدبي، فقال :

" مَا سَمِعْتُ قَوْلاً قَطّ أَحْسَنَ مِنْهُ "

إن جزالة النظم وحلاوة العرض وسمو البيان قد ملكت عليه لُبه، فهام الأديب في حُب القرآن، وتالله ! ما رأيتُ أديبًا لبيبًا إلا وله مع القرآن ألفة، وحب لا يضاهيه حب، وإن الأدباء الأتقياء ليتلذذون بالقرآن وكأنما هم العباد المتحنثين في صوامعهم.

---

(١) ابن هشام : ١/ ٣٨٢، ٣٨٣ .

وما انتـفاع أخي الدنـيا بناظـرِهِ.... إذ اسـتوت عنده الأنـوار والظـلمُ.

وبعد أن تأمل الطفيلُ نظمَ القرآن وبيانه وبلاغته، نراه أيضًا يتأمل المعاني، فالشعراء على ثلاثة: شعراء ألفاظ، وشعراء معاني، وشعراء ألفاظ ومعاني، ويبدو أن الطفيل أراد أن يجمع بين النظرتين بناظريه، فنظر نظرة في الألفاظ، وقد كانت، ونظر نظرة في المعاني فهذه التي قال فيها :

" وَلا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ ".

فقد شدته تلك التعاليم الإسلامية الرفيعـة، ومكـارم الأخـلاق التـي يـدعو إليـه الإسلام، الأمر الذي غاير الصورة التي وصلته عن الإسلام عندما تلقفه مشركو مكة .

***

✍ **التبليغ من أول يوم :**

✍ **قال الطفيل :**

" فَأَسْلَمْتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقّ .. وَقُلْتُ : يَا نَبِيّ اللهّ ، إنّي امْرُؤٌ مُطَاعٌ فِي قَـوْمِي ، وَأَنَا رَاجِعٌ إلَيْهِمْ وَدَاعِيهِمْ إلَى الإسْلام، فَادْعُ اللهّ أَنْ يَجْعَلَ لِي آيَةً تَكُونُ لِي عَوْنًا عَلَيْهِمْ فِيمَا أَدْعُوهُمْ إلَيْهِ . فَقَالَ :اللّهُمّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً . قَالَ فَخَرَجْت إلَى قَوْمِي ، حَتّى إذَا كُنْت بِثَنِيّةٍ تُطْلِعُنِي علىَ الحاُضِرِ، وقَعَ نَوُر بُيَنْ عَيَنْيَ مّثِلْ ُالمِصْبَاحَ ، فَقُلْت : اللّهُمّ فِي غَيْرِ وَجْهِـي ، إنّي أَخْشَى ، أَنْ يَظُنّوا أَنّهَا مُثْلَةٌ وَقَعَتْ فِي وَجْهِي لِفِرَاقِي دِينَهُمْ .. فَتَحَوّلَ فَوَقَعَ فِي رَأْسِ سَوْطِي .. فَجَعَلَ الْحَاضِرُ يَتَرَاءَوْنَ ذَلِكَ النّورَ فِي سَوْطِي كَالْقِنْدِيلِ الْمُعَلّقِ، وَأَنَـا أَهْـبِطُ إلَيْهِمْ مِنْ الثّنِيّةِ ،حَتّى جِئْتُهُمْ فَأَصْبَحْتُ فِيهِمْ "[1].

وهكذا يستشعر المسلمُ مسؤولية التبليغ من أول يوم يدخل فيه عـضوًا في الـصف الإسلامي، وكأنه أراد أن يرسل جذوة النور التي ألقاها الله في قلبه؛ أشعةً إلى الناس في كل مكان .

أسلَمَ، وبلّغَ . .

أصلحَ نفسه، وأصلح غيره ..

تعلمَ، وعلّمَ..

(١) ابن هشام : ١/ ٣٨٢، ٣٨٣

هكذا المسلم، يعيش للإسلام، متعلمًا ومعلمًا، صالحًا ومصلحًا، ينهل من الخير وينشره، ويعمل على تأديب نفسه وتزكيتها ويعمل – كذلك – في تأديب غيره وتزكيته.

وإن هذه القصة، لدليل دامغ على من انشغلوا بطلب العلم عن إصلاح المجتمع، فإذا تحدثتَ إلى أحدهم تدعوه إلى المشاركة في الإصلاح وتغيير المنكر في المجتمع؛ لطمك بنص يمتطيه، ليبرر قعوده، وليزين تخاذله. أمَا علموا أن تغيير المنكر فريضة كطلب العلم ؟!

أمَا علموا أن الطفيل انتقل فور إسلامه إلى قومه يدعوهم ؟

فلم يمكث إلى جوار رسول الله – ﷺ – السنين الطوال، يحفظ المتون الطوال، أو تَنَقلَ من حلقة علم إلى حلق علم، ومن مسجد إلى مسجد، ومن شيخ إلى شيخ، وقد تلهى بذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح الأهل والمجتمع !

***

✍ البيت المسلم

✍ قال الطفيل :

" فَلَمّا نَزَلْتُ [أي دوسًا] أَتَانِي أَبِي ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا ، فَقُلْت : إلَيْك عَنّي يَا أَبَتِ فَلَسْتُ مِنْك وَلَسْتَ مِنّي، قَالَ : وَلِمَ يَا بُنَيّ ؟ قُلْت : أَسْلَمْتُ وَتَابَعْت دِينَ مُحَمّدٍ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– قَالَ: أَيْ بُنَيّ فَدِينِي دِينُك ؟

فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ وَطَهّرَ ثِيَابَهُ . ثُمّ جَاءَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، فَأَسْلَمَ .

ثُمّ أَتَتْنِي صَاحِبَتِي ، فَقُلْت : إلَيْك عَنّي ، فَلَسْتُ مِنْك وَلَسْت مِنّي ، قَالَتْ لِمَ ؟ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي ! قلتُ : قد فَرّقَ بَيْنِي وَبَيْنَك الْإِسْلامُ، وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمّدٍ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ؟ قَالَتْ : فَدِينِي دِينُك .

قُلْت: فَاذْهَبِي إلَى حِمَى ذِي الشّرَى فَتَطَهّرِي مِنْهُ .

وَكَانَ ذُو الشّرَى صَنَمًا لِدَوْسٍ، وَكَانَ الْحِمَى حِمًى حَمَوْهُ لَهُ، بِهِ وَشَلٌ[١] مِنْ مَاءٍ يَهْبِطُ مِنْ جَبَلٍ .

قالت: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي ، أَتَخْشَى عَلَى الصّبِيّةِ مِنْ ذِي الشّرَى شَيْئًا ؟

---

(١) **الوشل**: الماء القليل

قُلْت : لا ، أَنَا ضَامِنٌ لِذَلِكَ.

فَذَهَبَتْ فَاغْتَسَلَتْ ثُمّ جَاءَتْ فَعَرَضْت عَلَيْهَا الإسلام فَأَسْلَمَتْ"(١) ..

وهكذا بهذه الصراحة والوضوح بدأ الطفيل في دعوته، فلم يتلون، ولم يتشكل، ولم يمتطي الرُّخَصَ من هنا وهناك، بل أخذ بعزيمة النفس متوكلاً على الله، فإذا بـه يجهـر بين ظهراني أهله بقولة الحق وبمنهج الحق، ليبنِ البيت المسلم الجديد على أنقاض بيت وثني عتيد .

وإن وضيع العزم، ضعيف الحزم، لا مساك له في أمر الدعوة، ولا فلاح له في تقويم بيته، وأسلمة داره.

ألا حبذا قومٌ نداما هم القنا ... يسقونها رياً وساقيهم العزم

***

✍ المجتمع المسلم

✍ قال الطفيل :

ثُمّ دَعَوْت دَوْسًا إلَى الإسلام، فَأَبْطَئُوا عَلَيّ ! ثُـمّ جِئْـتُ رَسُـولَ اللّهِ – ﷺ – بِمَكّـةَ فَقُلْت لَهُ: يَا نَبِيّ اللّهِ إنّهُ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى دَوْسٍ الزنا، فَادْعُ اللّهَ عَلَيْهِمْ .

فَقَالَ:(**اللّهُمّ اهْدِ دَوْسًا.. ارْجِعْ إلَى قَوْمِك فَادْعُهُمْ وَارْفُقْ بِهِمْ .**) (٢).

فبعد أن أعد الطفيل – ذلك الفرد المسلم – البيت المسلم الجديد، خرج على التو إلى المجتمع لبناء المجتمع المسلم، فقال :

"ثُمّ دَعَوْت دَوْسًا إلَى الإسلام" .

ومثل هذه الأولويات لابد أن تكون واضحة في ذهن المسلم، فلا يليق به أن ينشغل بالمجتمع ويترك بيته دون تربية ودعوة، فلابد أن ينطلق المسلم إلى المجتمع من أرضـية قوية هي البيت المسلم، وغالبًا لا نرى ثمرة ولا فقه لهؤلاء الدعاة الذين انشغلوا بدعوة المجتمع وبيوتهم خربة، إذ كيف يبني بيوتًا مسلمة في المجتمع وقد فشل في تقويم بيته، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج .

---

(١) ابن هشام : ١/ ٣٨٣ .

(٢) ابن هشام : ١/ ٣٨٣ .

ثم إن الطفيل، كان في احتياج إلى جرعة تربوية في الصبر على المجتمع . إذ غلبه فسادُ المجتمع . واشتكى الطفيل أن الزنى منتشرٌ بشكل مريع، ولا شك أن الزنى إذا انتشر في قوم فإنما هو الموت ينتشر فيهم .

كما أن الشباب الغارق في الجنس، وهو شبابٌ في السن، كهلٌ في الجسم، مترضض في الروح، وترى الواحد منهم قد التاث بلوثة الميوعة، والتَجَّ في وحلة الخنوثة، يقطع سَرَاةَ نهاره في كل ما يؤجج الشهوة، ويثير الغريزة، وأمثال هؤلاء أشباه أحياء أو أشباه أموات . ولا قوام لأُمة داعرة، ولا مساك لدولة فاجرة!!!

ذهب الطفيل متغيظًا على دعوة الله، يستنزل العقاب على قومه الذين أكلتهم الفواحش، فقال : **"يَا نَبِيّ اللهّ إِنّهُ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى دَوْسٍ الزنَا، فَادْعُ اللهّ عَلَيْهِمْ ."**.

فيرسل رسول الله -ﷺ- دعاء ربانيًا، ودرسًا تربويًا.

أما الدعاء (**اللّهُمّ اهْدِ دَوْسًا..**)

✍ **وأما الدرس : (ارْجِعْ إلَى قَوْمِك فَادْعُهُمْ، وَارْفُقْ بِهِمْ .)**.

إنه درس الصبر على المجتمع والرفق بالمجتمع، فالداعية العامل في المجتمع يطير بجانحي الصبر والرفق، ينشر الهداية والنور، ولن ترى داعيةً ناجحًا في مجتمع إلا بصبر ورفق.

***

✍ **ثمرة العمل مع المجتمع :**

✍ **قال الطفيل :**

" فَلَمْ أَزَلْ بِأَرْضِ دَوْسٍ أَدْعُوهُمْ إلَى الإسلام، حَتّى هَاجَرَ رَسُولُ اللهّ -ﷺ- إلَى الْمَدِينَةِ ، وَمَضَى بَدْرٌ [٢هـ] وَأُحُدٌ [٣هـ]وَالْخَنْدَقُ [٥هـ]، ثُمّ قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهّ -ﷺ- بِمَنْ أَسْلَمَ مَعِي مِنْ قَوْمِي، وَرَسُولُ اللهّ -ﷺ- بِخَيْبَرِ [٧هـ] . حَتّى نَزَلْتُ الْمَدِينَةَ بِسَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ بَيْتًا مِنْ دَوْسٍ ، ثُمّ لَحِقْنَا بِرَسُولِ اللهّ -ﷺ- بِخَيْبَرِ فَأَسْهَمَ لَنَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ"[١].

(١) ابن هشام : ١/ ٣٨٣، ٣٨٤ .

فلما صبر الطفيلُ وترفق، فتح الله له المجتمع، وأراه الله ثمرة عمله وصبره ورفقه، فقدِمَ إلى رسول الله –ﷺ– بعد عقد من الزمان بسبعين أو ثمانين عائلة من عائلات **" دَوْسٍ "** .. أي بمئات الرجال .. جاء بهم مسلمين لينهلوا من النبع العذب الذي ارتشف منهم سيدهُم في الجاهلية والإسلام (**الطفيل**).

وقد أسهم لهم رسول الله –ﷺ– في غنيمة خيبر، فجمع الله لهم غنيمة الإسلام وغنيمة الغنى وغنيمة الصحبة الميمونة. فهنيئًا لكم تلاميذَ الأديب المصلح !

وفي عام فتح مكة [٨هـ]، قال الطفيل : **"يَا رَسُولَ اللهِّ ابْعَثْنِي إِلَى ذِي الْكَفَّيْنِ صَنَمِ عَمْرِو بْنِ حُمَمَةَ حَتّى أُحْرِقَهُ ، فأذن له، ففعل "**(١).

وهكذا نجح هذا المسلم في بناء المجتمع المسلم.

ثم توج الله تعالى رحلة الطفيل الجهادية بأن رزقه الشهادة يوم اليمامة (**سنة ١٢ هـ**) فنعم البداية ونعم النهاية!

***

قد رأيتَ هذه الهِمَّةَ العالية التي تمتع بها الطفيل بن عمرو– رضي الله عنه –، فهذه – والله – هي التي بلغته هذا المجد الخالد !

فإياك وصغائر الهمم، ومجالسة النوّم .

إياك وملاحاة الملول، ومشاركة الكسول .

احذر من أخلاق الجبناء والبخلاء والثقلاء وطغام الأحلام .

اهرب مَن أمره سبهللاً؛ ذلك الخائر العبَيط الذي لا أرب له في دنيا ولا أخرى .

لا تنادم المتشائم اليائس، أو أسير الغفلة، أو شاذ النَّحلة، أو فاسد الملة، فكل هؤلاء يقتلون الهمة ويدمرون الأمة .

وإذا أردت الهمة، فتقرب إلى أهل النجاح، وأبطال الفلاح، والحق الصَّراح، والمكارم الرَّباح، والأخلاق السماح، والعقول الصحاح، والألسن الفصاح، والصدور الفِساح. ومن شمر في الأمر حطم القيود، وغلب الأسود، وركب البحور، وعبر الجسور. ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]

---

(١) ابن هشام : ١/ ٣٨٥

إلى كم ذا التخلف والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي؟
وشغل النفس عن طلب المعالي ... يبيع الشعر في سوق الكساد



١ـ اجمعْ دومًا بين الفضيلتين، إصلاح النفس وإصلاح الغير، وليراك اللهُ داعيةً في نفسك، وداعية في بيتك، وداعية في مجتمعك .

٢ـ تعهد أسرتك بالنصح والتعليم؛ وليكن لك معهم جلسة أسبوعية تدارسهم فيها الدين.



مقابلة بني شيبان

في أوج معمعة التنكيل بالمسلمين برمضاء مكة، وبعد وفاة العم والزوج، وبعد رحلة مُرة إلى الطائف؛ كان رسول الله -ﷺ- يَعرض نفسه على القبائل، في موسم الحج، كان يمر على الجماعات في الأسواق، ومواسم الحج، ولا يترك شريفًا معروفًا ولا شاعرًا مشهورًا ولا حكيمًا مُطاعًا إلا عرض عليه الإسلام . وكان قد ركز جهده في السنوات الثلاث الأخيرة قبل الهجرة على البحث عن وطن جديد يكون مقر دولة الإسلام؛ يحتضن الدعوة والداعية؛ حتى تتم رسالة الله . وكان يقول هو يدور على الناس ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ :

« **مَنْ يُئْوِينِى ؟ مَنْ يَنْصُرُنِى ؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّى، وَلَهُ الْجَنَّةُ** »[١] .

***

وكانت له مقابلة تاريخية - أطنب فيها الباحثون – مع قبيلة بني شيبان، تلك القبيلة العربية التي حالفت الفرس، على ألا يأووا مُحْدثًا.. تلك القبيلة العربية القوية التي احتضنت ثلة من نوابغ العرب كانوا من أبنائها، أمثال : المثنى بن حارثة الشيباني، وهانئ بن قبيصة، وكان من نسل هذه القبيلة فيما بعد الأمام أحمد بن حنبل – إمام أهل السنة - ويزيد بن مزيد وغيرهم من العلماء والقادة..

إذنْ نقف وقفة إجبار وإجلال عند حصافة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – نسَّابة العرب - عندما اقترح على رسول الله -ﷺ- أن يعرض الدعوة على بني شيبان.

✍ **فقال أبو بكر للنبي -ﷺ-:**

" **بأبي وأمي، هؤلاء غُرَر الناس، وفيهم (مفروق) قد غلبهم لسانًا وجمالاً** "[٢] .

✍ **أي :** بأبي أنت وأمي يا رسول الله – صلى الله عليك – هؤلاء بنو شيبان من أكابر العرب وأحسنهم، وزعيمهم " **مفروق**" يفضلهم حكمة وجمالاً.

ومن ثم توجه أبو بكر برسول الله -ﷺ- إلى مخيم بني شيبان في عرصات الحج.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠ / ٣٦٤)، وهو في السلسلة الصحيحة (٦٤) .

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٤٣ .

✍ **ودار هذا الحوار الماتع:**

✍ **تقدم أبو بكر فسلم فقال:** من القوم؟

✍ **قالوا:** شيبان بن ثعلبة

✍ **فقال أبو بكر:** كيف العدد فيكم؟

✍ **فقال مفروق:** إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة.

✍ **فقال أبو بكر:** وكيف المنعة فيكم؟

✍ **فقال مفروق:** إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى. وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يديلنا مرة، ويديل علينا أخرى .. لعلك أخو قريش؟

✍ **فقال أبو بكر:** إن كان بلغكم أنه رسول الله -ﷺ - فها هو ذا !

✍ **فقال مفروق:** إلام تدعونا يا أخا قريش؟

✍ **فقال رسول الله-ﷺ - : « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تُؤووني وتنصروني، فإن قريشًا قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد»**

✍ **فقال مفروق،** وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا .

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام:١٥١]

✍ **فقال مفروق:** دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك ..

✍ **ثم رد الأمر إلى هانئ بن قبيصة فقال:** وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا.

✍ **فقال هانئ:** قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى تركنا ديننا، واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا، لا أول له ولا آخر لذل في الرأي، وقلة نظر في العاقبة أن الزلة مع العجلة، وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقدًا، ولكن نرجع وترجع، وننظر..

ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة.

✍ **فقال:** وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا !

✍ **فقال المثنى -وأسلم بعد ذلك-:** قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة، في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صَرَيَين أحدهما اليمامة والآخر السَّمامة !

✍ **فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما هذان الصريان» ؟؟**

✍ **قال:** أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، أن لا نحدث حدثًا ولا نؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب، فعلنا.

✍ **فقال رسول الله** -ﷺ- قولته التي أبان فيها سمة أساسية من سمات منهج الله، وعمدة عميدة من عماد النظام الإسلامي، أنه شاملٌ لكل مجالات الحياة، وأنه جزء واحد لا يتجزء:

«**ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟**» فقال النعمان بن شريك: اللهم فلك ذاك [1].

✍ **لماذا رفض رسول الله -ﷺ- هذه الفرصة ؟**

إنها فرصة بكل المقاييس، أن يرى المستضعفون أنصارًا لهم على أتم الاستعداد أن يدفعوا عنهم ظلم ظالميهم من العرب، علمًا بأن المستضعفين لا يشغلهم أمر الفرس في الوقت الراهن على الأقل ..

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٤٣- ١٤٥) .

ألف فارس عربي من بني شيبان الأبطال في تمام التجهيز، في أتم الاستعداد لضرب قريش !

ولكن لماذا رفضت يا رسول الله ؟

لا شأن لنا الآن بفرس أو كسرى، وعدونا في وقع الأمر هو ذلك الوثني القابع في مكة، الصاد عن سبيل المؤمنين، الذي ألهب ظهور المسلمين، وحرَّق جلود المستضعفين في ساحات مكة ، وقتل الضعفاء أمثال سمية وياسر، وهجّر الموحدين إلى وسط أفريقيًا .. !

ولِـمَ لا نرحل إلى بني شيبان، فنهاجر إليهم حتى إذا قويت شوكتنا على العرب، أو كره الفرس مقامنا بين إخواننا من بني شيبان، انتقلنا إلى ركن آخر ركين، فنجونا من سياط العرب وأعددنا العدة !!!

....

....

لعل هذه التساؤلات تدور بخلد القارىء !

✍ **والحق أن رسول الله -ﷺ- رفض عرض بني شيبان لعدة أسباب** :

١-أنه لا أنصاف حلول في الأصول، فالإسلام نظام شامل، لا يقوم إلا شاملاً، فمن ينصره على العرب لابد أن ينصره على العجم، وإلا فلن ينتصر أبدًا، ويصير بددًا !

٢-أن الجهاد الصادق المتجرد، جزء لا يتجزء من الإسلام، فكما لا يصح إسلام قوم تعاقدوا على صلاة الظهر دون العصر، فكذلك لا يصح إسلام قوم تعاهدوا على الجهاد في وجه دون آخر .. فالصلاة وحدة واحدة لا تتجزء، وكذلك الجهاد..

٣- أن الحصافة السديدة وبعد النظر، يقتضيان رفض عرض بني شيبان، فلقد قالوا بصريح العبارة أنهم على استعداد أن يقفوا في وجه العرب لحمايتهم بيد أنهم لا يستطيعون ذلك مع الفرس، فلعل الدائرة تدور، فينتقل المسلمون من جحيم العرب إلى جحيم الفرس، فيستغيث المسلم بالنار من الرمضاء .. فيجمع المسلمون على أنفسهم عدوين، إذ كيف يكون الحال لو طلب كسرى من بني شيبان " **تسليم محمد** " ؟ !

✍ **من حاطه من جميع جوانبه ؟**

إذًن؛ .. من الذي سينصر دين الله ؟

ومن الذي سيقيم نظام الإسلام في الأرض ؟

ومن الذي سيطبق الشرع الإسلامي السمح ؟

ومن الذي سينصر الإسلام ؟

✍ **نعم ..**

"من حاطه من جميع جوانبه" !

فكل فرد حاط الإسلام من جميع جوانبه، عقيدة، وعبادة، ومعاملات، وأخلاق، وفكر، وحركة، ودعوة، وجهاد- فهو ناصر لدين الله قائم على شرعه، وهو أحق الناس بالتمكين .

وكل دولة حاطت الإسلام من جميع جوانبه، في العقيدة والعبادة، في الأخلاق والمعاملات، في السياسة والسلطة، في الرحمة والعدل، في العلم والقضاء، في التجارة والاقتصاد، في الجهاد والجيش .. ولم تفصل بين الإسلام والسياسة - فالسياسة جزء من الإسلام -، ولم تفصل بين الإسلام والاقتصاد- فالاقتصاد جزء من الإسلام كذلك-، ولم تفصل بين الإسلام والتربية - فالتربية جزء من الإسلام أيضًا -.... ولم تفصل الإسلام عن الحياة، أو الحياة عن الإسلام، فالإسلام منهج الحياة، والحياة لا تصلح دون الإسلام .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

"إن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه"

فلا فائدة من تلك الدعوات الجزئية، والحركات المختلة، التي اجتزئت الإسلام، فتشبثت بجزء من الإسلام ونامت عن جزء، أو أحيت جزءًا وأماتت جزءًا آخر، فهذه الدعوات أفادت وأضرت، وأصابت وأخطأت، وقدمت وأخرت، وذلك لأنها لم تحط بالإسلام من جميع جوانبه.

فمن هذه الدعوات من جعلت من الإسلام مجرد تعاويذ وتصوف .

ومن هذه الدعوات من جعلت من الإسلام هجرة وانقلابًا، وتكفيرًا وتفسيقًا .

ومن هذه الدعوات من جعلت من الإسلام متونًا تُحفظ، وكتبًا تُدرس، ولا اجتهاد، وأخذت تحَفظ الناس : لم يُبقِ الأولُ شيئًا للآخر، وكل شر في اتباع من خلف.

ومن هذه الدعوات من جعلت الإسلام فِرَقًا ومذاهب، وفتنًا وملاحم، وليس لنا من الأمر شيء سوى انتظار المهدي المنتظر، والمجدد المعتبر، وما علينا من واجب سوى أن نعض بجزع شجرة، ونعتزل الناس والفجرة، فالعالم يموج بفتن عمياء، وحرب صماء، وقصور مشيدة وآبار معطلة، ونساء عاريات، وليال ماجنات ..

وبين هذه الدعوات والفرق والملل، نرى رسول الله ـ ﷺ ـ يرسم بيده الكريمة خطوطًا يمنة ويسرة، ثم يضع يده الطاهرة على الخط الأوسط مناديًا :

"هَذَا سَبِيلُ اللهَّ !!"

✍ ثم تلا هذه الآية الكريمة :

" وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ "[1].

✍ أدلة الشمولية :

وهذه بعض أدلة الشمولية من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـ ﷺ ـ

✍ إياك نستعين :

قال الله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]

فلا عبادةَ إلا لرب العالمين، ولا استعانةَ إلا له سبحانه.

وتقديمُ المفعولِ " **إياك** "، يفيد الحصرَ، أي لا معبود إلا الله، ولا مستعان إلا الله، فلو قال : " **أعبدك**" لجاز للعبد أن يعبده ويعبد غيره .

إياك نعبد .. هذا في مجال الدين .

وإياك نستعين .. هذا في مجال الدنيا .

وهكذا نقرأ "**مبدأ شمولية الإسلام**" في أول سورة وأعظم سورة .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١١)، من حديث جابر ، وصححه الألباني .

إنه ـ سبحانه ـ يعلمنا أن علاقة العبد بربه، ليست علاقةَ عبوديةٍ فحسب، بل عبودية واستعانة، ليعلمْ المسلم ـ وهو يردد هذه السورة في صلاوته وأوراده ـ أن الله ـ تعالى ـ أنزل منهجًا، وأنه يقوم على دُعامتين أساسيتين، الأولى : **"جانب العبادة"**، ويندرج تحتها ، الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والذكر ...الخ .

✍ **والثانية : " جانب الاستعانة"**، ويندرج تحتها، الحُكم، والقضاء، والحدود... الخ

وعجيبٌ جدًا أن يأتي اللفظ بصيغة الجمع، فلم يقل : إياك أعبد، وإياك أستعين، فروح الجماعة هي الأصل في المسلمين، ولا قيام للإسلام إلا بالجماعة، ولن تخرج هذه الآيات والأحكام إلى حيز التطبيق العملي بالشكل الذي يحبه الله إلا إذا تضافر الجميع، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

ثم إن صيغة الجمع لهي دليل على **"الشمولية"** التي أخذناها من هذه الآية.

" نعبد"، و**" نستعين"**، كلمتان تنطق بها الجماعة بالأحرى، تنطق بها الدولة المؤمنة، تقول لربها، أنا أعبدك زرافاتٍ ووُحْداناً، وأستعين بك فأحكِّمُ شرعك، وأمضي أمرك ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٤٠].

✍ **ادخلوا في الإسلام كله**

✍ **قال الله تعالى** :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:٢٠٨]

قال ابن كثير – رحمه الله – أي : **"أنْ يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه"**[١].

✍ **توضيحًا لكل شيء**

✍ **قال الله تعالى :**

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (ج ١ / ص ٥٦٥) .

✍ **قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :**

"نزل عليك يا محمدُ هذا القرآن بيانا لكلّ ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام، والثواب والعقاب، (وَهُدًى) من الضلال(وَرَحْمَةً) لمن صدّق به، وعمل بما فيه من حدود الله ، وأمره ونهيه، فأحل حلاله ، وحرّم حرامه(وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) "[1] .

✍ **فَرُدُّوهُ إِلَى الكتاب والسنة:**

قال الله تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء:٥٩]

✍ **قال الشيخ سيد قطب في تفسير هذه الآية :**

"وبهذا يبقى المنهج الربانيُ مهيمناً على ما يطرأُ على الحياةِ من مشكلات وأقضية كذلك ، أبد الدهر ، في حياة الأمة المسلمة . . وتمثلُ هذه القاعدةُ نظامها الأساسي ، الذي لا تكونُ مؤمنةً إلا به ، ولا تكون مسلمةً إلا بتحقيقه . . إذ هو يجعلُ الطاعةَ بشروطها تلك، ورد المسائل التي تجدُّ وتختلف فيها وجهاتُ النظر إلى الله ورسوله . . شرط الإيمان وحد الإسلام . . شرطاً واضحاً ونصاً صريحاً "[2].

✍ **ما كان لهم الخيرة !**

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٣٦]

أي : "وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ" "لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ " أَيْ: ٱلۡخِيَرَةُ "مِنۡ أَمۡرِهِمۡ" بِخِلافِ حُكم اللهَّ وَرَسُوله ـ ﷺ ـ.

وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: **"بل فانكحيه"**. قالت: يا رسول الله، أؤامر في نفسي. فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ:" وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا " الآية، قالت: قد رضيته لي منكحا يا رسول الله؟

---

(١) تفسير الطبري (ج ١٧ / ص ٢٧٨) .

(٢) في ظلال القرآن، سورة النساء الآية ٥٩ .

✍ **قال: "نعم"**. قالت: إذًا لا أعصي رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسي[١].

✍ **وعَنْ أَنَسٍ قَالَ** : خَطَبَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ عَلَى جُلَيْبِيبٍ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ إِلَى أَبِيهَا، فَقَالَ : حَتَّى أَسْتَأْمِرَ أُمَّهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ : " **فَنَعَمْ إِذًا**".

✍ **قَالَ** : فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى امْرَأَتِهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا، فَقَالَتْ : لاهَا اللَّهُ إِذًا !! مَا وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ إِلَّا جُلَيْبِيبًا، وَقَدْ مَنَعْنَاهَا مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ . قَالَ : وَالْجَارِيَةُ فِي سِتْرِهَا تَسْتَمِعُ، قَالَ : فَانْطَلَقَ الرَّجلُ يُرِيدُ أَنْ يخبرَ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ بِذَلِكَ فَقَالَتْ الْجَارِيَةُ : أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرُدُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ أَمْرَهُ؟ إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَهُ لَكُمْ فَأَنْكِحُوهُ !

فَكَأَنَّهَا جَلَّتْ عَنْ أَبَوَيْهَا، وَقَالَا: صَدَقْتِ !! فَذَهَبَ أَبُوهَا إِلَى النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ قَدْ رَضِيتَهُ، فَقَدْ رَضِينَاهُ، قَالَ: " **فَإِنِّي قَدْ رَضِيتُهُ**"، فَزَوَّجَهَا ...[٢].

والشاهد قول الفتاة المؤمنة : أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرُدُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ أَمْرَهُ ؟ إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَهُ لَكُمْ فَأَنْكِحُوهُ !

✍ **الحُكم إلى الله :**

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى:١٠]

✍ **قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ :**

ولم يقل إلى قياساتكم وآرائكم . ولم يجعل اللهُ آراءَ الرجال، وأقيستها حاكمةً بين الأمة أبداً[٣] .

✍ **وقال سيد قطب – رحمه الله - :**

"إنه يرد كلَ اختلاف يقع بين الناس إلى الله : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) . والله أنزل حكمه القاطعَ في هذا القرآن؛ وقال قوله الفصلَ في أمر الدنيا والآخرةِ؛ وأقام للناس المنهج الذي اختاره لهم في حياتهم الفردية والجماعية ، وفي نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم ، وأخلاقهم وسلوكهم . وبيّن لهم هذا كلّه بياناً شافيًا . وجعل هذا القرآنَ دستوراً شاملاً لحياة البشر، أوسع من دساتير الحكم

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٢١)، تفسير الطبري (٢٢/ ٩) .

(٢) أحمد : ١٢٤١٦، تعليق شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٣) أضواء البيان(ج ٤ / ص ٢٧٣) .

وأشمل . فإذا اختلفوا في أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر في هذا الوحي الذي أوحاه إلى رسوله -ﷺ -لتقوم الحياة على أساسه"[١].

✍ **فَصَّلْنَاهُ :**

قال الله تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢]

✍ **قال الإمام الطبري:**

" يقول: وكلّ شيء بيناه بيانًا شافيًا لكم أيها الناس لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من نعمه، وتخلصوا له العبادة، دون الآلهة والأوثان "[٢] .

✍ **مصدر الحُكم :**

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة:٤٩].

وهو نص مُحكم في جوب الحكم بما أنزل الله وتطبيق الشريعة الإسلامية على جميع المستويات : الفرد والمجتمع والدولة.

ولقد قرن رسول الله –ﷺ – بين فريضة الصلاة وفريضة الحُكم بما أنزل الله في الحديث الذي أسلفنا ذكره :

" لَيُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ "[٣] .

✍ **في أي مسألة مستجدة :**

✍ **قال الله تعالى :**

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء:٦٥] فنفى الإيمان عمن لا يتحاكم إليه في حياته ـﷺ ـ، ومن ثم نفى الإيمان عمن لا يتحاكمون إلى منهجه بعد وفاته، وهو القائل في حجة الوداع :

"وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ "[٤] .

---

(١) في ظلال القرآن، سورة الشورى، الآية ١٠ .

(٢) تفسير الطبري (ج ١٧ / ص ٣٩٥) .

(٣) صحيح – رواه أحمد ،عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، ح: (٢١١٣٩)، وقال الألباني: صحيح، حديث رقم : ٥٠٧٥ في صحيح الجامع .

(٤) مسلم : ٢١٣٧ .

✍ **العلة من إنزال الكتاب :**

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النساء:١٠٥] وتأمل : لم يقل بما رأيت أنت .

✍ **الصفة الأولى لمن ترك الشريعة:**

قال الله تعالى : ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]

✍ **قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ:**

بهذا الحسمِ الصارمِ الجازم . وبهذا التعميمِ الذي تحمله « من » الشرطيةُ وجملةُ الجواب . بحيث يخرج من حدود الملابسةِ والزمان والمكان ، وينطلق حكماً عاماً، على كل من لم يحكم بما أنزل الله ، في أي جيل ، ومن أي قبيل . .

وعلةُ ذلك أن الذي لا يحكم بما أنزل الله ، إنما يرفض ألوهيةَ الله . فالألوهيةُ من خصائصها ومن مقتضاها الحاكميةُ التشريعيةُ .

ومن يحكم بغير ما أنزل الله ، يرفض ألوهيةَ الله وخصائصها في جانب ، ويدعي لنفسه هو حقَ الألوهيةِ وخصائصها في جانب آخر . .

وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك؟

وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان ، والعمل – وهو أقوى تعبيراً من الكلام – ينطق بالكفر أفصح من اللسان؟!

"إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل ، لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة . والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه . . وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد "[1].

✍ **الصفة الثانية لمن ترك الشريعة :**

قال الله تعالى : ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة:٤٥].

✍ **قال سيد قطب – رحمه الله - :**

" وهذا الوصف الجديد لا يعني أنها حالةٌ أخرى غير التي سبق الوصف فيها بالكفر . وإنما يعني إضافةُ صفةً أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله . فهو كافر باعتباره

---

(١) في ظلال القرآن، تفسير سورة المائدة ، الآية ٤٤ .

رافضاً لألوهية الله - سبحانه - واختصاصه بالتشريع لعباده ، وبادعائه هو حق الألوهية بادعائه حق التشريع للناس . وهو ظالم بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم ، الصالحة المصلحة لأحوالهم"(١).

✍ **الصفة الثالث لمن ترك الشريعة :**

قال الله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]

✍ **قال سيد قطب – رحمه الله - :**

" وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلم من قبل . وليست تعني قوماً جدداً ولا حالةً جديدة منفصلة عن الحالة الأولى . إنما هي صفةٌ زائدة على الصفتين قبلها ، لاصقةً بمن لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل ، ومن أي قبيل .

الكفر برفض ألوهية الله ممثلاً هذا في رفض شريعته . والظلمُ بحمل الناس على غير شريعة الله وإشاعة الفساد في حياتهم . والفسقُ بالخروج عن منهج الله واتباع غير طريقه . . فهي صفات يتضمنها الفعل الأول ، وتنطبق جميعها على الفاعل . . ويبوء بها جميعاً دون تفريق"(٢).

✍ **لا تقدموا قانونًا على قانون الله :**

قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجُرات:١]

أي لا تقدموا حُكمًا على حكم الله، وأمرًا على أمر الله، أو قانونًا على قانون الله.

✍ **السؤال عن أعمال الدين :**

قال الله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحِجر:٩٢،٩٣]

عما كانو يعملون في مجالات الحياة جميعها، من إصلاح وإفساد، ومن استقامة وانحراف، من عدل وظلم، من حق وباطل .. في خاصتهم وعامتهم، الكبير والصغير، الحاكم والمحكوم، والقائد والمقود..

✍ **المحيا والممات لله :**

قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢،١٦٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سورة المائدة، الآية ٤٥ .

(٢) في ظلال القرآن، سورة المائدة، الآية ٤٧ .

"إنه التجرد الكامل لله ، بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة . وبالصلاة والاعتكاف . وبالمحيا والممات . بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه."(١) .

لا ركون ولا تعطيل :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

[الإسراء:٧٣،٧٥]

ففي قوله تعالى : " وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا "، دلالة على عصمة الله لنبيه من الميل للكافرين في بعض الأحكام.

وفي ذلك رُوي أنّ ثقيفاً قالت للنبي ـ ﷺ ـ : لا نَدْخُلُ في أَمْركَ حتى تُعْطِينَا خِصَالاً نَفْتَخِرُ بها على العَرَبِ : لا نُعشَّرُ ، وَلا نُحشَّرُ ، وَلاَ نَحْنِي في صَلاَتِنَا ، وكُلُّ رِبًا لنَا فهُو لنَا ، وكلُّ رِبًا عَلَيْنَا فهو مَوْضُوعٌ ، وأنْ تُمَتِّعنا باللات سَنَةً ، وأن تُحَرِّمَ وَادِيَنا كما حرمت مكة ، فإذا قالت العَرَبُ : لِمَ فَعَلْتَ؟ فقُل : الله أَمَرَنِي بذلك . فأبى عليهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ ، وخيب سعيهم !!! فنزلت الآيات(٢) .

الدين كله :

قال الله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال:٣٩]

قوله تعالى : " وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ " فيه إشارة بوجوب تطبيق الدين كله .

العلمانيون القدماء :

قال الله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧]

---

(١) في ظلال القرآن، سورة الأنعام، الآية ١٦٢ .

(٢) الكشاف (٣/ ٤٦٩)، البحر المديد (٣/ ٣٥٣) .

يبدوا أن العلمانيين كانوا في عهد شعيب !

هؤلاء يقولون : هل تعاليم دينك يا شعيب تأمرك أن نترك الغش وأكل الأموال بالباطل.

✍ **قال صاحب الظلال :**

"فهم لا يدركون أولا يريدون أن يدركوا أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة . وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدون من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة "(١).

"يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب . وأن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكاً من الجاهلية الأولى! وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها بما فيها أولئك الذين يقولون : إنهم يهود أو نصارى أو مسلمون فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر . والشريعة والتعامل . فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ، ووفق أمر غيره . . وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله . ."(٢) .

✍ **الخلوة أم الجهاد ؟**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ مَرَّ بِشِعْبٍ فِيهِ عَيْنٌ عَذْبَةٌ، فَأَعْجَبَتْهُ ـ يَعْنِي طِيبَ الشِّعْبِ ـ فَقَالَ : لَوْ أَقَمْتُ هَاهُنَا وَخَلَوْتُ، ثُمَّ قَالَ : لَا حَتَّى أَسْأَلَ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ :

" مُقَامُ أَحَدِكُمْ ـ يَعْنِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ـ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ فِي أَهْلِهِ سِتِّينَ سَنَةً، أَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَتَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ؟ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ! مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ "(٣).

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن (٤ / ٢٦٠) .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن (٤ / ٢٦٠) .

(٣) أخرجه أحمد (٩٧٦٢)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم ٩٠٢ .

✍ **من أين أتى الذل :**

عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ :سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ـ ﷺ ـ يَقُولُ : " **إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللهَّ عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ** "[1] .

وفيه تحذير من ترك بعض فرائض الدين، وكان عقاب ترك بعض هذه الفرائض أن ضرب الله الذل على الأمة .

وفي هذا الحديث فضيلة عظيمة للجهاد أن سماه النبي ـ ﷺ ـ دينًا، فذكر الذنب : " تركتم الجهاد"، والتوبة منه : " ترجعوا إلى دينكم" يعني إلى الجهاد .

✍ **أدلة أخرى في مجالات شتى**

هذا، ويعج المصحف الشريف، بمئات النصوص التشريعية في مجالات الحياة المختلفة كل على حدى، ومثال ذلك:

✍ **في القصاص ..**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٧٧،١٧٨].

✍ **وفي الوصية ..**

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [البقرة:١٨٠]

✍ **وفي الميراث ..**

فأفرد صدر سورة النساء وآخرها في بيان أحكام المواريث بدقة متناهية لم يسبق إليه قانون بشري ..

✍ **وكان منها :**

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٤٦٢)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم ١١ .

كَانَ لَهُۥ وَلَدٌۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١١].

✍ **وفي المهر..**

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةًۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء:٤]

✍ **وفي العلاقة بين اليتيم والولي ..**

﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

[النساء:٢]

✍ **وفي الديون وتوثيقها ..**

✍ **ونزل في ذلك أطول آية في القرآن** :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

✍ **وفي التجارة ..**

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

[البقرة:٢٧٥].

✍ **وفي المعاهدات السياسية..**

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

[الأنفال:٥٨]

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:٤].

✍ **من أين يأتي الخزي ؟**

وبعدُ، فهل يجوز لمسلم أن يعتقد أن الإسلام يكون في مجال ولا يكون في آخر أو أن الإسلام في القلب وفي المسجد دون المتجر أو المصنع ؟

وكيف يعقل أن يؤمنَ المسلمُ بآية قرآنية ويكفر بآخرى، أو يؤمن بحديث شريف ويكفر بحديث آخر .. والله يقول :

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

✍ **وقال مستنكرًا :**

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء:١٥٠] الآية .

إن على المسلم تبعة في هذا الثغر الذي نال خصوم الإسلام من الإسلام عبره، إنها ثلمة في واقع التصور الإسلامي، حتى طلع علينا أذناب الغرب يحاربون الدين الإسلامي كما حاربت أوربا سلطان الكنيسة في العصور الوسطى، وأسقط هؤلاء الأذناب أفكار العلمانية على واقع المجتمعات الإسلامية، فظنوا ألا ملجأ إلى الحضارة والتنوير إلا بالبعد عن الدين كما بعد الغرب عنه، وينبغي أن نقوض دور المسجد كما قتل الغربُ سلطان الكنيسة، وينبغي أن نلغي التعاليم الإسلامية كما نحَّت أوربا تعاليم النصرانية .

ويكأن أذناب الغرب يظنون أن المسجد يخَرِّب العقول !

ويكأن أذناب الغرب يعتقدون أن تعاليم الإسلام تحارب العلوم ..!

وَيلهم ! لو يعلمون، في الوقت الذي كان قساوسة أوربا يحرِّمون على عامة الشعب تعلم القرأة والكتابة، كان محمد بن عبد الله – ﷺ – يهتف في صحراء الجزيرة : " طلب العلم فريضة على كل مسلم "[1]. .

(١) الطبراني (**الكبير**)، عن عبد الله، وصححه الألباني، انظر حديث رقم : ٣٩١٣ في صحيح الجامع



١ -أن تستشعر دومًا هذه الآية الكريمة : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] .

٢ـ أن تُبلغ للناس دعوة الله شاملة كاملة، وأن ترسخ هذا المفهوم العظيم: " **الإسلام منهج حياة** "، وأن تمشي ـ ما حييت ـ خلف الكتاب والسنة بفهم الصحابة والتابعين، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

٣ـ أن تلتزم بالمنهج الإسلامي الشامل، وأن تجعل من رسول الله ـ ﷺ ـ قدوة وأسوة لك في نفسك وبيتك ومجتمعك : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]

٤ – أن تكتب لوحةً فوق إحدى الواجهات، تقول : " **الإسلام منهج حياة** ".

٥ـ أن تنشر حديث : " **لَيُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَام عُرْوَةً عُرْوَةً فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ** "(١).



(١) سبق تخريجه .

بين خيام الحجيج

...كانت السنوات الثلاثة الأخيرة في المرحلة المكية [سنة ١١، ١٢، ١٣ من البعثة]؛ تكاد تكونُ موجهةً لتحقيق هدف واحد، هو، البحثُ عن وطن جديد؛ تنطلق منه الدولةُ والدعوة .

واشتد الأذى الإعلامي من الوثنية . وطفق المشركون يتتبعون خطوات رسول الله ـ ﷺ ـ في مواسم الحج؛ يسفهونه ويحذرون القبائل منه.

همة عالية وتوكل عظيم :

أما هو، فلم يتعب ولم يمل . عرض نفسه على قبيلة بني عامر؛ فأبوا . عرض نفسه على قبيلة غسان؛ فرفضوا . عرض نفسه على بني فزارة؛ فأعرضوا، التَقَى بني مرة، التقى بني حنيفة، التقى بني سليم .. بني عبس، بني نصر، ثعلبة بن عكابة، وكندة، وكلب، وبني الحارث بن كعب، وبني عذرة ... قابل هؤلاء وغيرهم؛ فأبوا أن ينصروه، بل منهم من ضربه، ومنهم من نَهَرَه . فلله درها من هِمة ! ولله دره من قلبٍ حي لا ينام عن طلب المعالي :

✍ **قال أبو الطيب ـ من الطويل ـ :**

عَلى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تأتي العَزائِمُ ... وَتأتي علَى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ
وَتَعْظُمُ في عَينِ الصّغيرِ صغارُها ... وَتَصْغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

وهؤلاء الذين دعاهم النبيُ ـ ﷺ ـ تملصوا منه على طرائق شتى؛ فمنهم من تهربوا وتعللوا بمواثيق ومعاهدات ـ مثل شيبان ـ كما أشرنا.

ومنهم من ساوموه؛ أن يجعل السلطان فيهم من بعده، مثل كنده. وقد قالوا له : إن ظفرت تجعل لنا الملكَ من بعدك ؟

✍ **فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: " إن الملك لله يجعله حيث يشاء "**[1] . وقد قالت له بنو عامر ـ أيضًا ـ نحو ذلك؛ فقال:**" الأَمْرُ إِلَى اللهِ، يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ"**، فقال كبيرهم ـ

---

(١) ابن كثير (السيرة) : ٢/ ١٥٩.

وهو فِرَاسُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ـ: " **أَفَتُهْدَفُ نَحُورُنَا لِلْعَرَبِ دُونَك، فَإِذَا أَظْهَرَكَ اللهُ كَانَ الأَمْرُ لِغَيْرِنَا ؟ لا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِك!**"[١]. وهؤلاء طلاب مُلكٍ لا طلاب رسالة؛ وإنما كان النبي ـ ﷺ ـ يبحث عن رجال يُضحّون، لا جباة يأكلون . كان يبحث عن دعاة لا جباة !

فهذه الدعوة لا يفلح فيها طلاب الدنيا .

إن الشخص النفعي لن يبذل معونته للدعوة؛ إلا إذا أحس بالمنفعة المادية من وراء هذه الدعوة .

إن التجرد، سمةٌ رئيسية وصفةٌ أساسية لأبناء هذا الدين.

ذلك ليعلم المسلمُ أن الأرض لله، والملك لله، والسلطان لله، يجعل أي من ذلك حيث يشاء، والعاقبة للمتقين .

ثم أنت رأيتَ أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يعدهم ويمنهم بشيء، ولو كان من الملوك أو من قادة الثورات النفعية؛ لطاوعهم فيما يطلبونه ولو بالكلام، حتى يتم له ما أراد، ثم يخلف وعده بعد ذلك حينما يتمكن من رقابهم . كشأن قائدٍ من قادات الثورات الحديثة؛ لما نصره إخونُه؛ غدر بهم، وأخذ يُعمل فيهم القتل، ليستبد له الأمر.

أما النبي ـ ﷺ ـ فجلاها بوضوح من أول يوم: أن الأمر لله، يضعه حيث يشاء، هكذا صادقة نقية لا ترى في عقيدتها عوجًا ولا أمتا.

حكمة أفضل من حكمة :

وقد التقى النبي ـ صلى الله عليهم وسلم ـ بآحاد الأشراف؛ فتصدى لسويد بن الصامت ـ وكان من أكابر يثرب، من الأوس، من بني عوف ـ وكان رجلاً مفكرًا مثقفًا، يحفظ طرفًا من حِكم لقمان ، فدعاه النبيُ ـ ﷺ ـ إلى الإسلام؛ فقال سويد بلسان العلماء الظرفاء : " فَلَعَلّ الّذِي مَعَك مِثْلُ الّذِي مَعِي ! " .

✍ **فقال الداعية الحكيم ـ دون حَجْرٍ على فكر أو ازدراء لرأي ـ :**

" وَمَا الّذِي مَعَك " ؟

✍ **قال سويد** : " **مَجَلّةُ لُقْمَانَ – يَعْنِي حِكْمَةَ لُقْمَانَ** " .

✍ **فقال صاحب الأدب الرفيع** :" **اعْرِضْهَا عَلَيّ** " .

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٢٥ .

أنصتَ له النبي -ﷺ- وهو الذي يأتيه الوحيُ من السماء . ثم قال - بلسان الناقد المنصف البصير - :

"إنّ هَذَا لَكَلامٌ حَسَنٌ ! وَالّذِي مَعِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؛ قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيّ هُوَ هُدًى وَنُورٌ "(١) .

فتلا عليه القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد، وأسلم بعد ذلك قبيل مقتله؛ وكان مقتله قبيل يوم بعاث؛ وهذا يعني أن النبي -ﷺ- قابل هذا الرجل قبل العام الثامن من البعثة؛ ومن ثم لا مكان لهذه القصة في أحاديث العقبة، بيد أن أدباء السير يكتبون هذه القصة في معرض الحديث عن بدإ إسلام الأنصار، وبالفعل بدأ إسلام الأنصار بإسلام هذا الرجل الحكيم الأديب .

***

النصير الصغير

ثم كانت المقابلة العابرة لبني عبد الأشهل - من الأوس -، وقد قدِم الزعيمُ اليثربي أَبُو الْحَيْسَرِ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ " مَكَّةَ، **ومعه ثلة من رجاله، فِيهِمْ "إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ"** يَلْتَمِسُونَ إبرام تحالف مع قريش ضد الخزرج، فسمع رسول الله -ﷺ- بهم؛ فَأَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ - بلسان الناصح - :« **هَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ ؟**». قَالُوا : وَمَا ذَاكَ قَالَ : « **أَنَا رَسُولُ اللهَّ بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ، أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَّ لاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ كِتَابٌ** ». ثُمَّ ذَكَرَ الإِسْلاَمَ وَتَلاَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاذٍ - وكَانَ غُلاَماً حَدَثاً - : أَيْ قَوْمِ! هَذَا، وَاللهَّ، خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ ! فَأَخَذَ أَبُو حَيْسَرٍ حَفْنَةً مِنَ التراب فرماه بها، فقام رسول الله -ﷺ- عنهم - ربما لسوء أدبهم -، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن مات، ولم يزل قومه يَسْمَعُونَهُ يُهَلِّلُ اللهَّ، وَيُكَبِّرُهُ، وَيَحْمَدُهُ، وَيُسَبِّحُهُ، حَتَّى مَاتَ، فَمَا كَانُوا يَشُكُّونَ أَنْ قَدْ مَاتَ مُسْلِماً(٢).

إن هذا الغلام صدح بالحق بين ظهراني الرجال وهم يصدفون عنه . فكان أنْ كتب اللهُ له حسن الخاتمة؛ جزاءَ نصرته، ولقاء وقفته.

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٢٧

(٢) أخرجه أحمد (٥١ / ٣٩٠)، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن.

آه يا أخي من تلك المواقف، تلك التي تكون فيها لحظةُ صدق، أو وقفة حق، أو كلمة طيبة؛ يدخل الإنسانُ على أثرها جنةَ الخلد .

وكم تمر بنا تلك الفرص في حياتنا اليومية، فيُبتلى المرءُ بموقف يجد نفسه فيه بين أضراس الباطل؛ ولا معين للحق في هذا المشهد، ومطلوبٌ من الإنسان أن يقف فيها وقفةً إيجابيةً، يُفَرِّقُ فيها بين الحق والباطل .. ولكن ... سرعان ما يحتويه الشيطان، ولا يُرِيَّ المرءُ ربَه من نفسه خيرًا، فيسكت عن الحق، أو يخوض مع الخائضين .

***

رهط أَسْعَد بْن زُرَارَةَ :

ولا زال هكذا؛ صلوات الله عليه، يدور على القبائل في مواسم الحج؛ يصدع فيهم بكلمة الحق، حتى أذن الله تبارك وتعالى أن يمن على الأوس والخزرج بهذه النعمة العظيمة؛ نعمة النصرة . فبينا هو عند العقبة ـ بمنى ـ لقي جماعة من الخزرج؛ ـ وكانوا ستة منهم أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ ـ فطلب النبيُ ـ ﷺ ـ أن يجلس إليهم يكلمهم؛ فأذنوا له، وقد سألهم عن موطنهم، فأخبروه، وقال : "**أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ ؟** "، قالوا: نعم . وبذلك عرف خلفيتهم الثقافية، وعلم من أين سيبدأ الحوار، وقد كانت اليهود في المدينة تبشر بمقدم نبي آخر الزمان .

جلس رسول الله ـ ﷺ ـ إلى هؤلاء الشباب؛ فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن؛ فعرفوا صدقه، فآمنوا، وقالوا :" **إنّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا؛ وَلا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ وَالشّرّ مَا بَيْنَهُمْ؛ فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهمْ اللهُ بِك، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إلَى أَمْرِك، وَتَعْرِضُ عَلَيْهِمْ الّذِي أَجَبْنَاك إلَيْهِ مِنْ هَذَا الدّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمْ اللهُ عَلَيْهِ فَلا رَجُلَ أَعَزّ مِنْك.** "[1]، وانصرفوا وصدقوا، وقاموا بتبليغ قومهم؛ فبدأ الإسلامُ ينتشر فيهم .

***

كان إسلام هؤلاء الشبيبة سهلاً سريعًا، للخلفية الدينية التي زرعتها يهود. وللفتن والهزاهز التي طحنت الجميع . ثم إن هؤلاء من الخزرج؛ الذين هم أرق أفئدة، وأطيب قلوبًا، إذ أصولهم ترجع إلى اليمن، وقد تبوءوا دار المدينة من قبل، وقد قال رسول الله

(١) ابن هشام ١/ ٤٣٠ .

ـ ﷺ ـ في أهلها « **جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ ! هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً . الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْفِقْهُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ** »[1]. هؤلاء صفتهم في القرآن، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر:٩] .

***

ومن هنا، ومن هذا الموقف، ومن هذه العزمة، بدأ مجد الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ، ومن هنا دخل الأنصارُ التاريخَ . واقتنصت الأوسُ والخزرجُ السيفَ اليماني، والتاجَ الذهبي، والمجد الخالد التالد الأبدي، بفضل سبقهم ونصرتهم وصدقهم وموقفهم التارخي . وهم فوق ذلك أبناء الحروب، وقادة الجنود، وساسة الأمور، وفخر المشاهد، وفرسان الهزاهز، وأبطال المعارك، وإخوان التجارب. فرضي الله عنهم وأرضاهم .

***

أرأيتَ همته ـ ﷺ ـ في الطواف على الناس ؟ أرأيتَ كيف أن أمور العقيدة وأصول الدين ثابتة لا تتغير ؟ وأن الحكمة لا تصادم الحكمة، بيد ثمَّةَ حكمةٌ هي أفصح من أخرى .. وأنه ـ ﷺ ـ لم يردَّ حكمةَ سويد ولم يسفهها ؟ ثم أسلم ذلك الرجل المتأدب، ذلك لتعلم أن الحكماء والعقلاء هم أقرب الناس إلى الإسلام، كما القمر أقرب الكواكب إلى الأرض؛ كَيْمَا تعلم أن العقول المستنيرة لا تصدم الشرع السمح، وكيما تُؤمن أن الشرع السمح لا يصدم العقول المستنيرة؛ وكيلا تظن أن هؤلاء الطاعنين في الدين بلغوا مبلغًا من أدب البحث العلمي ! فلو بلغوا طرفًا حسنًا من أخلاقيات الباحثين لما كذوبوا ودلسوا وافتروا؛ كما كذَب العلمانيون، ودلس المستشرقون، وافترى الملحدون!

***

يا عزيزي، لتأخذك الحميةُ للحق، ولتتخلق بأخلاق الغلام الصغير الذي نصر الرسول ـ ﷺ ـ وقال فيه قولة نور في دياجير الظلام. فاعمل على نشر كلمة الحق وإعلائها، ودحض كلمة الباطل وإذلالها، وقطع مادة الفساد وحسم أدوائها .

***

(١) أخرجه البخاري (١٩١) .

لقد حَمَل رهطُ أسعد بن زرارة الدعوةَ صافيةً إلى قومهم، ووفوا بوعدهم، وأدوا عهدهم، وصدقوا في قولتهم، وحرصوا أن ينقلوا الخير إلى أوطانهم، وتوسموا خيرًا في هذا الداعي الجديد أن يلم شملهم ويُوَحِّد صفهم، ويُألف أشتاتهم . إنهم حريصون على مصلحة أهلهم وأبناء وطنهم، وقالوا ـ وقد علت وجوهم علائم الرجاء والتفائل ـ :" **فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمْ اللهُ بِك**" . فكن على هذا القَدْر من حب الخير لأبناء وطنك، وجيرانك، وأهلك، ونقِ قلبك، وطهرْ نفسك، وقل : اللهم مُنَّ علينا بمن يجمع شملنا، ويوحد صفنا .



شارك في قافلة دعوية مع بعض إخوانك، أو برفقة أحد الدعاة، تعرضون الدين على الساهين واللاهين في أنديتهم وملاعبهم؛ خاصة المقاهي وأماكن تجمع الشباب، وتصطحب معك هدايا لا تخلو من كُتيب، أو مطوية، أو شريط، أو أسطوانة أو بطاقة دعوية.



بيعة العقبة الأولى

ذكرنا في الدرس السابق أن النبي ـ ﷺ ـ في موسم الحج عام ١١ من النبوة اجتمع بجماعة من الخزرج ـ وكانوا ستة منهم أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ ـ وقد تمخض الاجتماع عن إسلام هذا الوفد المبارك، والعودة إلى المدينة لدعوة أكبر عدد ممكن للدين الجديد، والحضور إلى النبي ـ ﷺ ـ في موسم الحج القادم (**سنة ١٢ من البعثة**)؛ ليلتقي بنخبة من الأوس والخزرج . وقد كان .

وجاء في هذا الموسم اثنا عشر رجلاً فيهم خمسة من الستة الذين جاءوا في العام السابق، وهذا يعني أن كل رجل من الستة دعا رجلاً مثله ـ تقريبًا ـ، وهاكم رهط العقبة الأولى جميعًا ـ الداعون والمدعوون ـ:

 **الداعون** :

وهم الذين حضروا في العامين الماضي والحالي [**عدا جابر بن عبد الله بن رئاب؛ فإنه تغيب عن هذه البيعة، وهو من أكابر الصحابة وقد شهد بدرًا وأحدًا**] :

١ ـ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ بْنِ عُدَسَ ـ وَهُوَ أَبُو أُمَامَةَ ـ من بني النجار

٢ ـ عَوْفُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ رِفَاعَةَ ـ وقد قتل في بدر ـ وهو من بني النجار .

٣ ـ رَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ الْعَجْلانِ ـ من بني زُرَيْق

٤ ـ قُطْبَةُ بْنُ عَامِرِ بْنِ حَدِيدَةَ ـ من بني سلمة.

٥ ـ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَابِي ـ من بني حرام بن كعب

٦ ـ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ رِئَابِ ـ من عبيد بن غنم

وهؤلاء من الخزرج جميعًا

المدعوون :

وهم الذين استجابوا لدعوة إخوانهم الستة .

١ ـ معاذ بن الحارث، ابن عفراء ـ أخو عوف السابق رقم ٢ ـ من بني النجار [من الخزرج]

٢ ـ ذَكْوَانُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ من بني زُرَيْق ـ قُتل في أحد ـ. [من الخزرج]

٣ ـ عُبَادَةُ بْنُ الصّامِتِ بْنِ قَيْسٍ ـ من بني عوف ـ وهو من علماء الصحباء، وكان نقيبًا ومعلمًا لأهل الصُفة ـ[من الخزرج]

٤ ـ يَزِيدُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ خَزْمَةَ ـ من بني عوف ـ قُتل يوم أُحد[من الخزرج]

٥ ـ الْعَبّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضَلَةَ ـ من بني سالم [من الخزرج]

٦ ـ أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهَان من بني عبد الأشهل [من الأوس] .

٧ ـ عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ ـ من بني عمرو[من الأوس] .

***

التقى النبيُ ـﷺ ـ بهؤلاء الرجال، فبايعهم البيعة الأولى، والتي أُطلق عليه بيعة النساء؛ وذلك لتشابهها مع بنود بيعة النساء عام الفتح سنة ٨ هـ، وسُميت بيعة النساء ـ أيضًا ـ لأنها خالية من بند الجهاد .

أما عن بنود هذه البيعة؛ فعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أن الرسول ـﷺ ـ قال لهم ـ أي عند العقبة ـ:

"تعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى :

١ـ أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللهِّ شَيْئًا

٢ـ وَلا تَسْرِقُوا

٣ـ وَلا تَزْنُوا

٤ـ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ

٥ـ وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ

٦ـ وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ

فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِّ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُّ؛ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِّ إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ " [1] .

***

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٣) .

هذه هي الآفات الست : الشرك، والسرقة، والزنى، والوأد، والكذب، والعصيان. تلك التي أراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يمحوها، وأن يطهر الوطن الجديد منها . إن الدولة النظيفة، لا تقوم إلا على مجتمع نظيف. والدولة الأخلاقية أحرى بالبقاء والتمكين، والدولة الماجنة الفاجرة أحرى بالزوال والانزواء، وإن كانت الأولى تعد في المسلمين، والثانية تعد في الكافرين. فالأخلاق عماد الحضارات، فإن غابت الأخلاق فيها أوشكتْ على الهلاك. لذا قيل : إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والاسلام.

***

هاكم فحوى البنود :

✍ التوحيد

كان البند الأول هو التوحيد، فهو عماد دولة الإسلام، وهو حق الله على العباد، والتوحيد هو مرجعية الدستور والحاكم والمحكوم، والتوحيد هو أساسُ عادات وتقاليد وثقافات الشعوب الإسلامية. فلا تشريع يخالف الأصول الإسلامية، ولا عادةً، ولا تقليداً، ولا فكرًا يخالف العقيدة الإسلامية.

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء:٣٦]

✍ تحريم السرقة

وكان البند الثاني، هو تحريم السرقة، فمتى تفشت السرقة في مجتمع تفشت مظاهر الظلم الاجتماعي . وحيثما تجد السرقة، تجد بناتها : الخمور والمخدرات والدعارة و **"البلطجة"**.

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [المائدة:٣٨].

✍ تحريم الزنا

وكان البند الثالث، هو تحريم الزنى، فهو أس الخراب الأخلاقي، وهو عمدة اليباب بين الشباب، وطريق الهلاك بين البيوت، والزنى والموت صنوان، وما فشى الزني في مجتمع إلا فشى فيه الموت والريح الحمراء (الأمراض الـمُعدية) .

✍ **قال تعالى :**

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]

✍ **وقال في صفات عباد الرحمن :**

﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ [الفرقان:٦٨،٦٩].

✍ **وقال في حد الزنى على غير المحصن :**

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٢]

✍ **وجاء في الأثر :** أن الزِّنى فيه ست خصال: ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة. فأما التي في الدنيا فيذهب بالبهاء، ويعجّل الفناء، ويقطع الرِّزق من السماء. وأمّا اللواتي في الآخرة فالحساب، والعذاب، ودخول النار.

✍ **تحريم قتل الأولاد :**

وكان البند الرابع، هو تحريم قتل الأولاد، ولفظة **"أولاد"** هنا تنسحب على الذكور والإناث، ويشتمل هذا البند على تحريم وأد البنات أو قتلهن خشية إملاق أو فقر.

وواعجبا ! هذا النبي الكريم حارب وأد البنات، ونجح في القضاء على هذه العادة إلى الأبد ـ ثم يأتي بعد ذلك أناسٌ يتهمون الإسلام بظلم المرأة !

يا هؤلاء ! لقد كان البند الرابع في البيعة التأسيسية لدول الإسلام منوطًا بإنقاذ المرأة، وإنقاذ البنات، في وقت كان الشرق والغرب يمارسون على البنات أشنع التعذيب والتنكيل، وقد كانت الفلسفة الأوربية في هذا الوقت ترى أن المرأة كائن شرير دون الإنسان وفوق الحيوان، كان هذا الكلام يصدر من (علماء) أوربا في هذا الوقت، ذلك الوقت الذي كان فيه محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ يشترط على الأوس والخزرج ويبايعهم على تحريم قتل البنات..

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٣١]

✍ تحريم الكذب والبهتان

ثم جاء البند الخامس، الذي قال فيه : "**وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ**" .

وهذا البند يحرم البهتان الذي هو ابن الكذب، ويقال: بهت الرجلُ صاحبه يبهت بهتًا وبهتانا ، أي كذب عليه .

فمجتمعُ الكذبِ والبهتان؛ مجتمعٌ مريض مهزوم متفكك، ليس بيئة صالحة لدولة إسلامية ناشئة. ثم هو البهتان الذي يُنسب فيه الولد لغير أبيه، أو تفتري المرأةُ على الرجل في عرضه، أو يفتري الرجلُ على المرأة في عرضها.

وقد رَبطَ هذا البهتانُ باليد والرِجل، فقال بهتان : "**تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ**"، ذلك لأن معظم أفعال العباد تنسب إلى الأيادي والأرجل؛ لذا يقال للمسيء : هذا بما كسبت يدُك ، واليد لم تفعل شيئًا . كما أن قوله ـ ﷺ ـ "**تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ**"؛ يشير إلى التجاهر والتواطؤ في البهتان، أما التجاهر لقوله : بين أيديكم، يعني من قُدام، يعني كفاحًا جهارًا نهارًا، وأما التواطؤ : لقوله ذلك بصيغة الجمع. والله أعلم .

✍ طاعة وطاعة

أما البند السادس، فهو في الطاعة، وقد قال ـ ﷺ ـ فيه :"**وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ**"، ومعنى لا يعصون النبي ـ ﷺ ـ في معروف ـ أن الطاعة تكون له كمشرِّع، وكحاكم .. كمشرِّع في أمور الدين، وكحاكم في أمور الدولة. ومن ثم فإن ولاء الأنصار سينتقل من القبيلة إلى الإسلام، ومن زعماء الكفر إلى إمام المسلمين، فلا طاعة عليهم إلا لله ورسوله والمؤمنين وأولي الأمر منهم .

وعلم الله أن النبي ـ ﷺ ـ لا يأمر إلا بمعروف، ومع ذلك أشار البند إلى أن الطاعة لا تكون إلا في معروف، كما في قول الحق تبارك وتعالى في بيعة النساء : ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة:١٢] . ذلك لتكون طاعةُ المخلوق في معصية الخالق؛ جديرةٌ بغاية الاجتناب والحذر منها . فمن أمَرَه وليُّ أمرِهِ بمعصيةٍ وأطاعه فيها؛ فلا يلومن إلا نفسه، وهذا التحذير نوجهه إلى الناس كافة، وإلى أصحاب المناصب من الخفير إلى الوزير إلى الرئيس إلى الإمام.

وقد قال النبي ـ ﷺ ـ : "**لا طَاعَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**"(١) .

فهذا الموظف الذي يعمل في الحكومة، أو غيره من رجال الشرطة، وغلمان السلطان، وعسس الأمراء لا عذر لهم أمام الله إن آذوا الناس بحجة تنفيذ أمر الوزير أو الأمير، وإنك لتحاور أحدَهم؛ تقول له : لِمَ تظلم الناس ؟ فيكون رده ـ الذي توارثته أجيال العار ـ : " **أنا عبد المأمور** " !

✍ **ويح هؤلاء ! إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول في أمثالهم :**

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٧،٤٨] .

وأمثال هؤلاء، أشار إليهم النبي ـ ﷺ ـ في الصنف الأول من قوله:

"**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**" (٢).

وقال ـ ﷺ ـ:

" **... مَنْ خَرَجَ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا لا يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا ولا يَفِي بِذِي عَهْدِهَا فَلَيْسَ مِنِّي** " (٣)

وقال ـ ﷺ ـ :

"**عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ؛ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ؛ لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**"(٤) .

ومَرَّ هِشَامُ بْنُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ـ رضي الله عنه ـ عَلَى أُنَاسٍ مِنْ الْأَنْبَاطِ بِالشَّامِ، قَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ، فَقَالَ : مَا شَأْنُهُمْ ؟ قَالُوا : حُبِسُوا فِي الْجِزْيَةِ ! فَقَالَ : هِشَامٌ أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ يَقُولُ :

---

(١) أخرجه أحمد (٤٥ / ٦٥)، وهو في السلسلة الصحيحة(١٧٩) .

(٢) أخرجه مسلم (٣٤٣٧) .

(٣) أخرجه مسلم (٣٩٧١) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٢٣) .

"إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا"(١)

***

أخذ النبيُ ـ ﷺ ـ البيعةَ على أصحاب العقبة الصغرى في حدود هذه البنود الستة، التي لم يشر فيها إلى الجهاد العسكري، إنما أشار في هذه البيعة على وجوب طاعته في كل معروف، وهو بند مفتوح لما يُستجد من أحكام شرعية، وتعاليم إسلامية ..

***

" فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ " ..

ذلك أن هذه البيعة لا جزاء لهم بها دنيا أو إمارة أو وزارة، إنما أجرهم عند الله، وعلى هذا الأساس الآخروي تُبنى الدول الإسلامية، وتُقام الجماعات الدعوية، فغنيمة العاملين في هذه الدول والدعوات هي " ثواب الله " .

***

" وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا؛ [أي من هذه المحرمات] فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ " ..

إشارة ضمنية لقدوم أحكام تشريعية ـ في المستقبل ـ تتعلق بحدود الزنى وقتل النفس وغيرها من الحدود .

إن النبي ـ ﷺ ـ علم في هذه الساعة التي يتحدث فيها إلى رجال العقبة الأولى ـ أنه ستكون أحكامٌ، وستتنزل آيات تشريعية في الكبائر الاجتماعية . يعلم جيدًا أن المرحلة القادمة ـ مرحلة العهد المدني ـ هي مرحلة بناء الدولة، كما علم من قبل أن المرحلة السالفة ـ مرحلة العهد المكي ـ هي مرحلة بناء الجماعة .

وهكذا يتبدى لنا الوعي الحركي والفقه التنظيمي عند النبي ـ ﷺ ـ . ألا فليعلم الدعاةُ أن الدعوة : إيمانٌ وفقه وحركة . أن الدعوةَ عقيدةٌ راسخة تقوم عليها الثقافة الإسلامية الواسعة، تلك التي تتحرك في إطار مراحل مرتبة، وخطط مُنظمة، وجداول عمل، وبرامج تنفيذ، ووسائل دعوية مختلفة ... كل هذه العناصر تسعى حثيثًا ـ في منظومة متكاملة ـ لتحقيق الغاية الكبرى؛ ألا هي رضوان الله تبارك وتعالى ..

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٣٤) .

" **وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ** ".

فلما كان المرد إلى الله، والمبتغى هو الله، كان هو هو وحده يُكافؤ أصحابَ هذه البيعة إذا التزموا بها، وإليه يرجع أمرهم إذا خفروا أمانتها، وخالفوا بنودها، إن شاء عاقبهم بعدله، وإن شاء عفا عنهم برحمته .

***

بَيْعَةٌ أو ... مِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ !

قال النبي - ﷺ - :

" **مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ؛ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا حُجَّةَ لَهُ . وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً** "[1] .

هؤلاء الأنصار - رضي الله عنهم - بياعوا رسول الله - ﷺ - على بنود تنسف ركام الجاهلية نسفًا، ولما كانت البَيْعات؛ لا تكون إلا في معروف؛ كانت براءة لصاحبها من ربقة الجاهلية إنْ وَفّى وأدى والتزم البنود.

وإنما وصف النبيُ - ﷺ - ميتته بالميتة الجاهلية، لأن أهل الجاهلية كانوا يأنفون من الانصياع لأحد من الناس، ولا يقبلون بالدخول في طاعة أحد من الرجال؛ وقد كانوا يتهالكون وليس فيهم إمام مطاع؛ فوصف النبيُ - ﷺ - حال من لم يدخل في طاعة إمام المسلمين بحال أهل الجهل والجاهلية. وهذا للتأكيد على خطورة الخروج عليه، علمًا أن فعاليات المبايعة تكون منوطة بمجلس أهل الحل والعقد المنتخب من جماهير المسلمين، لذا فإن المبياعة لا تكون ملزمة على جماهير المسلمين؛ ما دام فيهم مجلس أهل الحل والعقد الذي يمثلهم تمثيلاً شرعيًا .

وليس المراد من قول النبي - ﷺ - : " **مات مِيتَةً جَاهِلِيَّةً** " أنه يموت كافرًا بل يموت عاصيًا. فهو إن خلع رداء الطاعة لم يخلع ثوب الإسلام.

... وأخيرًا على كل مسلم أن يسعى إلى إعادة الخلافة الإسلامية حتى لا يقع تحت طائلة هذا الحديث، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ [التغابن:١٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤٤١) .

تمت بيعة العقبة الأولى، وأرسل النبيُ ـ ﷺ ـ مع وفد الأنصار ـ سفيرًا وداعيًا ومعلمًا؛ هو مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ فمكث فيهم نحو عام؛ فلم يترك بيتًا إلا دخله، ولم يترك تجمعًا إلا تصدى له، حتى أسلم على يديه معظم الأوس والخزرج، وجل زعمائهم أمثال : أسيد بن حضير وسعد بن معاذ .

نجح مُصْعَبٌ نجاحًا عريضًا، وقد قفل راجعًا إلى النبي بمكة قبيل موسم الحج من العام الثالث عشر للبعثة ـ يعني قبيل بيعة العقبة الكبرى ـ، وذلك ليرفع إلى النبي ـ ﷺ ـ الواقع الدعوي خلال عام من عقد بيعة العقبة الأولى .

وإنه لخيرُ نموذجٍ للداعية المتجرد .. مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ الذي ترك حياة الترف والنعيم، وترك بيته الفاخر في مكة، وترك أهله أصحاب الشرف والسيادة ... ترك كل هذا، متجردًا منقطعًا لله رب العالمين، ثم هو يذهب إلى المدينة داعيًا ومعلمًا، يدور على البيوت، يدعو، ويعلم، وينشر الإسلام، حتى هدى اللهُ على يديه خلق كثير . ثم هو يموت شهيدًا في معركة أحد فقيرًا "فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مَا يُكَفَّنُ فِيهِ إِلَّا بُرْدَةٌ" .



١ـ مطالعة سير أصحاب العقبة الأولى في كتب السير والتراجم، مثل كتاب" **أُسد الغابة في معرفة الصحابة**" لابن الأثير، وكتاب " **صور من حياة الصحابة** " لعبدالرحمن رأفت الباشا.

٢ـ مدارسة سورة الزخرف، قراءةً وتجويدًا وتفسيرًا؛ تلك التي قرأها مصعب على سعد بن معاذ فأسلم.

٣ـ اكتب بحثًا علميًا أو رقة بحثية عن رحلة مصعب الدعوية في المدينة والتي استغرقت عامًا واحدًا؛ وأتت بنتائج عظيمة جليلة؛ فهي تجربة دعوية جديرة بالدارسة والتأمل.

٤ـ المشاركة في حملة دعوية لإصلاح المجتمع، مثل حملة غرس الفضيلة، وحملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحملات : الإيجابية، والحجاب، تيسير الزواج، نشر قيمة العدل.. سَلْ بعض الدعاة المخلصين القريبين منك عن هذه المشاريع الدعوية.

٤ـ اقرأ في فقه البيعة والخلافة من الكتب السُّنية المعتمدة، راجع مثلاً : [**أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري، الشهير بالماوردي: الأحكام السلطانية**]، و[**أحمد بن عبد الله القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة**]، و[**عبد الحي الكتاني :نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدراية**]، [**محمد رشيد رضا : الخلافة**]، و[**عبد الرزاق أحمد السنهوري: فقه الخلافة**].



بيعة العقبة الثانية



في أواخر المرحلة المكية؛ كان حال النبي ـ ﷺ ـ كما وصفه جابر بن عبد الله الأنصاري :

" **يَتْبَعُ النَّاسَ فِى مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ، وَمَجَنَّةَ، وَفِى الْمَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ :**

(مَنْ يُئْوِينِى ؟ مَنْ يَنْصُرُنِى ؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّى، وَلَهُ الْجَنَّةُ).

حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ؛ فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ : احْذَرْ غُلاَمَ قُرَيْشٍ لاَ يَفْتِنُكَ !

"**وَيَمْشِى ـ ﷺ ـ بَيْنَ رِحَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ؛ حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ، فَآوَيْنَاهُ، وَصَدَّقْنَاهُ؛ فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا، فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلاَمِهِ؛ حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلاَّ وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الإِسْلاَمَ، ثُمَّ ائْتَمَرُوا جَمِيعاً، فَقُلْنَا : حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يُطْرَدُ فِى جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ ؟** "[1] .

***

هذه كانت حالة النبي ـ ﷺ ـ في نهاية المرحلة المكية؛ كما السواد القاتم الذي يسبق طلعة الفجر.

يدور على الناس في المنازل، والأسوق، ومنتديات الشعراء، ومواسم الحج

✍ **يقول هذه الجملة التي تقطع نياط القلوب المُحبة :**

" **مَنْ يُئْوِينِى ؟ مَنْ يَنْصُرُنِى ؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّى، وَلَهُ الْجَنَّةُ** ".

يمشي بين الناس؛ يدعوهم إلى الله، وهم يشيرون إليه سخريةً أو استهزاء، وقد تواصوا به؛ فأخذ الأب يُحذر ابنة، والأخ يحذر أخاه، والصديق يحذر صديقه؛ كل الناس، في كل الجزيرة، من أقصاها إلى أقصاها؛ ومن الشام حتى اليمن؛ الجميع يحذر الجميع، الناسُ يُخوفون الناس، يقول الواحد منهم لأخيه إذا قصد مكة حاجًا أو متاجرًا : " **احْذَرْ غُلاَمَ قُرَيْشٍ لاَ يَفْتِنُكَ !** " .

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠ / ٣٦٤) السلسلة الصحيحة: ٦٣ .

إنه البلاء الإعلامي الذي كابده الأنبياء والمصلحون، فصبروا على ما كُذبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصر الله.

إنها آثار الحملة الإعلامية ـ حملة التشويش وغسل الأدمغة ـ التي أحسنتها قريشٌ . قد آتت أُكلها الآن؛ فصارت الجزيرة إلى هذه الحال من التنكر لدعوة الإسلام.

قد كان صناديد مكة ينشرون الخطباءَ على قوارعِ الطرق، وفي مداخلِ مكة، يحذرون الضيفان والتجار والحجاج؛ احذروا سحر محمد؛ **"سِحْرٌ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَبِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ"**.

***

حتى جاء موسم الحج سنة ١٣ من البعثة؛ وجاء وفد البيعة لموعدهم، وقد عزموا على مقابلة النبي ـ ﷺ ـ وحمله إلى ديارهم .

✍ **قال كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ :**

فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنْ الْحَجِّ وَكَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدْنَا رَسُولَ اللهَّ ـ ﷺ ـ وَمَعَنَا عَبْدُ اللهَّ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ ـ أَبُو جَابِرٍ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا ـ وكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ :

يَا أَبَا جَابِرٍ ! إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا !

" ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللهَّ ـ ﷺ ـ فَأَسْلَمَ، وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ، وَكَانَ نَقِيبًا ... "[١].

***

كانت فاتحة خير؛ أن أسلم هذا الصنديد السيد، عَبْدُ اللهَّ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ، الذي شهد بدرا، وقُتل في أحد، ذلك الذي قال فيه النبي ـ ﷺ ـ يحدث ولده جابر :

" أَفَلا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهَّ بِهِ أَبَاكَ ؟ "

قَالَ جابر بن عبد الله : بَلَى يَا رَسُولَ اللهَّ !

---

(١) أخرجه أحمد (٣٣ / ٣٩١) صححه الألباني في تحقيق فقه السيرة.

قَالَ : " مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ، إلا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا، فَقَالَ : يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي؛ فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً، فَقَالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ : إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يَرْجِعُونَ ! قَالَ : يَا رَبِّ فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي " قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

[آل عمران:١٦٩] [١].

***

✍ قال كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ـ متابعًا حديثه عن ليلة العقبة الثانية ـ:

" فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا، فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا[٢]، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ: نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ ـ أُمُّ عُمَارَةَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ ـ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ ـ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ ـ ."[٣] .

***

ومن الملاحظ أن عددَ أصحابِ العقبةِ زاد خلال السنواتِ الثلاثِ الأخيرةِ من ستٍ إلى اثني عشر إلى سبعين .. انتبه نحن لا نتحدث عن المسلمين في المدينة ! إنما نشير إلى حركة الدعاة الفاعلين في المجتمع اليثربي الذين كَلفوا أنفسهم مشقة السفر وتحمل تبعة البيعة؛ هذا النجاح الكبير للدعوة الإسلامية في المدينة كان بفضل دعاة توفر فيهم الإيمان والإخلاص والحماسة والعمل .

لو لم تكن حركة الدعوة في المدينة على قدر هذه المسئولية؛ لَمَا خرج منها في هذا العام سبعون؛ يتسللون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ تسلل الطريدة من يد الصائد ـ؛ يفقهون معنى الكتمان والسرية، يعلمون جيدًا طبيعة المرحلة المكية؛ يلتقون برسول الله ـ ﷺ ـ في أواخر أيام الحج؛ حتى لا ينكشف أمر بيعتهم، وإذا انكشفت لاذوا بالخروج في معترك

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٦) وصححه الألباني .

(٢) طائر يضرب به المثل في الحذر،و يوجد من القطا سلالات عديدة، وهي منتشرة في جميع أنحاء الكرة الارضية .

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٨٦) وصححه الألباني .

خرجة الحجيج، يتخيرون الوقت الأنسب لإبرام البيعة؛ فقد كان لقاؤهم تحت جناح الليل؛ والعيون نائمة، والآذان غائبة؛ فاجتماعُ جماعةٍ من الأوس والخزرج بمحمد ـ ﷺ ـ في حد ذاته؛ أمرٌ خطير بالنسبة لقريش.

***

✍ كلمة العباس

✍ قال كَعْبَ بْنَ مَالِك :

" فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ؛ حَتَّى جَاءَنَا، وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إِلا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّقُ لَهُ فَلَمَّا جَلَسْنَا؛ كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّم، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ ـ وَكَانَتْ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنْ الْأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا ـ إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ"(١) .

✍ قال العباس :

" وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلا الانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، وَاللّحُوقَ بِكُمْ؛ فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ وَمَانِعُوهُ مِمّنْ خَالَفَهُ فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده"(٢) .

***

✍ الاستفادة من رموز المجتمع

ووجود العباس هنا له مغزىً مهم؛ ذلك لتعلمَ الأنصارُ أن الذين يدافعون عن محمد ـ ﷺ ـ ليس أتباعه فحسب ؛ إنما يَنقسمُ الذب عن محمدٍ، على المسلمين عامة، وعلى آل محمد خاصة مسلمهم وكافرهم على حد سواء؛ وهؤلاء المشركون ممن هم من بني هاشم وبني عبد المطلب هم الذين ساندوا النبي ـ ﷺ ـ في محنة الحصار؛ ودخلوا معه الشعب بقيادة أبي طالب.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٦) وصححه الألباني .

(٢) ابن هشام ١/ ١٤١، ١٤٢.

يشير العباس إلى ذلك بقوله : " **وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ**".

أما قوله : " **وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ**"، ففيه مبالغة. وموقفه هذا، وكلمته البليغة تيك؛ إنما يهدف بذلك كما قال سيدنا كعب : " **أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ، وَيَتَوَثَّقُ لَهُ**" .

وفي ذلك درسٌ لأبناء الدعوة الإسلامية؛ أن يستعينوا برجالات المجتمع المنصفين ممن يُحسبون في صف المخالفين للدعوة؛ فأنت تجد نماذجَ محترمة، ومعادنَ طيبة في بعض القادة والساسة والكُتاب ممن لا يعملون للفكرة الإسلامية . وواجب الدعوة أن تستفيد من هذه الرموز المنصفة خير استفادة لمصلحة الدعوة؛ كأن نَدْعُوهم لعمل مشترك، أو نوجه أحدهم لباب من أبواب الخير للدين، أو نعقد ندوة أو محاضرة لكاتب من كتابهم؛ يشرح ويطرح ما يخدم الدعوة.

على أن بعض قادة الدعوة أحيانًا يقعون في خطإٍ؛ هو العمل على تلميع هذه الرموز التي لا نضمن ولاءها الكامل للدعوة الإسلامية، وفي نفس الوقت نرى بعض هؤلاء الرجال ـ من أبناء الدعوة الإسلامية ـ من لا يُحسن تفعيل الكوادر الفكرية والتربوية التي تنضوي تحت لواء الدعوة الإسلامية؛ ممن يستطيعون أن يسدوا مسد غيرهم أو يسدوا شيئًا من مسدهم.

التمترس بالعشيرة

هذا جانب من فقه موقف العباس .

وجانب آخر؛ أن يُحسن الداعية التمترس بأهله وعائلته وعشيرته؛ وأن يتخير لدعوته منهم؛ من يُوجهه التوجيه السديد لخدمة الدعوة، وهذا بالضبط ما صنعه النبي ـ ﷺ ـ مع العباس، ومع عمه أبي طالب من قبل.

***

قال كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ـ ردًا على العباس ـ :

" **فَقُلْنَا قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ . فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ** ".

***

" **فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَتَلا، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلامِ**"(١).

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٦) وصححه الألباني .

✍ **بنود البيعة الكبرى**

قال جابر بن عبد الله :

فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ عَلاَمَا نُبَايِعُكَ قَالَ :

١ـ « تُبَايِعُونِى عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِى النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ

٢ـ والنَّفَقَةِ فِى الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ

٣ـ وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىِ عَنِ الْمُنْكَرِ

٤ـ وَأَنْ تَقُولُوا فِى اللهِ، لاَ تَخَافُونَ فِى اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ

٥ـ وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِى؛ فَتَمْنَعُونِى إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ..

.. وَلَكُمُ الْجَنَّةُ »[١].

***

وهذه خماسيةٌ ؛ فوق سادسيةِ العام السالف، فتم للأنصارِ أحدَ عشرَ بندًا؛ هي نواة الدولة الإسلامية التي أوشكت على السطوع.

ومن الملاحظ أن بنود هذه البيعة أشد وأعلى من بنود السابقة.

أنت ترى " الإنفاق والقتال" في طيات هذه البيعة الكبرى.

إن الجهاد بالنفس والمال هو جوهر هذه البيعة العظيمة؛ فلا قوام لدعوة ولا دولة ولا خلافة دون تضحية بالنفس وبالمال .

✍ **السمع والطاعة**

✍ **أما البند الأول**، ففي السمع و الطاعة ـ في السلم وفي الحرب، في السكنة وفي الحركة، في الحضر وفي السفر: "**تُبَايِعُونِى عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِى النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ**" .

وهذا أصل في نجاح أي عمل جماعي، وبغير السمع والطاعة؛ تذهب الريح، وتفتر القوة، ويضيع العمل :

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

[الأنفال:٤٦]

(١) أخرجه أحمد (٤٨٣٠) وهو في السلسلة الصحيحة: ٦٣

✍ **الإنفاق**

✍ **وكان البند الثاني** في الجهاد بالمال، فنحن مقبلون على مرحلة الدولة؛ وهي بحاجة على جيش وقوة، واقتصاد وعُدة، فقال : " **والنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ** " .فواحد من اثنان، الإنفاق أو الهلاك :

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

[البقرة:١٩٥]

✍ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**

وكان البند الثالث، في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلكم الأصل الذي هو علامةٌ على خيرية هذه الأمة وفضلها وريادتها:

﴿**كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ**﴾

[آل عمران:١١٠].

✍ **كلمة الحق**

وكان البند الرابع : " **وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ، لاَ تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ**"، وفي حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ : "**وَأَنْ نَقُومَ ـ أَوْ نَقُولَ ـ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ** "(١).

أن يخوضوا الغمرات للحق، أن يصدعوا بكلمة الحق بين ظهراني الناس. وأيُ شيءٍ أعظمُ منزلةً من رجل قام إلى ظالم فزجره، أو فاجر فنهره، أو معتدٍ فزَبَره.

وإنْ قُتل صاحب كلمة الحق جزاء كلمته؛ فهو سيد من سادات الشهداء.

إن قومًا ضاعت فيهم كلمة الحق؛ لخليق أن يزول أثرهم؛ وإنْ يُخربون إلا أوطانهم وما يشعرون . ألم يروا كم أهلك الله من حضارة من الحضارات لما ضاعت بينهم كلمةُ الحق . وأنَّ صفاتَ الذين يحبهم الله ويحبونه؛ أنهم لا يخافون فيه لومة لائم :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤]

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٦٠) .

القتال

ثم كان البند الخامس والأهم؛ القتال دون رسول الله ـ ﷺ ـ حتى يبلِّغ رسالةَ ربه؛ ينصروه، ويذودا عنه مثلما يدافعون عن أزواجهم وأبنائهم، فقال :

" وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي؛ فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ، مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ".

وهو الميثاق الغليظ الذي أخذه الله على الأمم السابقة؛ وقتما بُعث محمدٌ؛ لتؤمنن به ولتنصرنه :

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]

الجنة

خمس بنود؛ إنْ التزمتم بهن؛ فلكم الجنة . هكذا كانت الثفقة والتجارة مع الله . لم يمنهم بمنصب أو وزارة أو إمارة أو مكافأة مالية . وهذه هي طبيعة العلاقة بين الداعي ودعوته؛ لا ينتظر من وراءاها عرضًا من أعراض العاجلة، وما الحياة الدنيا إلا متاع قليل، فضلاً عن كون هذه البيعة لا تصلح إلا للذين تجردوا لله، وأخلصوا أنفسهم لنيل رضوانه، وللدارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتقون، أفلا تعقلون ؟

***

مبادرة الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ

قال كعب بن مالك :

"فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا[1]، فَبَايِعْنَا يَا رسولَ اللهِ ـ ﷺ ـ فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ، وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ [2]، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ! "[3].

---

(١) أي نساءنا كنى عنهن بالأُزر .

(٢) أي السلاح .

(٣) أخرجه أحمد (١٥٢٣٧)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة .

هذه كلمة سيد الخزرج، هو حديث عهد بالإسلام، بل أسلم قبيل هذه البيعة بساعات، وقد توفي ـ رضي الله عنه ـ قبيل الهجرة بشهر واحد؛ إذن عاش هذا الزعيم في الإسلام مدة سنة واحدة تقريبًا؛ ولم تر له أعظم من موقفه هذا وكلمته تلك، تلك التي بلغته بُلغة الرضوان والخلد في الجنان؛ هذا مثلٌ صارخ في ضمائر القادة والزعماء الذين عاشوا الدهور الطويلة لا ينصرون الحق ولو ببِنْتِ شَفَةٍ، وهم يحملون أوزار شعوبهم وأهليهم، وهم يَصرمُون ثمرة جهاد الإسلاميين؛ ينسبونه للعملاء والعلمانيين؛ قد باعوا مجد الآخرة بمجد دنيوي زائلٍ، ألا ساء ما يحكمون!

***

استفسار لأبي الْهَيْثَمِ بْن التَّيِّهَان

قَال كعب :

فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ ـ وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ ـ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ـ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ [**يعني اليهود**] حِبَالاً وَإِنَّا قَاطِعُوهَا [**يَعْنِي الْعُهُودَ**]؛ فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ؛ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا ؟

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ ثُمَّ قَالَ :

" بَلْ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهُدْمَ الْهُدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي؛ أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ "[1] .

لقد تبسم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، لكلمة أبي الْهَيْثَمِ، والتي إن دلت على شيء فإنما تدل على شخصية جادة تحرص على أمن وطنها وسلامة أهلها، فهو يتساءل سؤال المحقق الحصيف ـ الذي يفكر في مستقبل الأمور ـ عن مصير قومه إذا ما نبذوا أحلاف الجاهلية؛ حتى إذا ما أنعم الله على نبيه بالنصر والتمكين، تركهم محمدٌ وعدوهم !

نعم، تبسم لهذا المعنى الذكي، تشجيعًا وتقديرًا لصاحب الرأي والفكر، وكان ـ ﷺ ـ إذا تبسم؛ كأنما خرج الصبح من ثغره؛ حينئذ ينتشر نوره على البسيطة، وتتوسم الثغورُ من مبسمه البشائرَ والأفراح من هنا وهنا وهنا .

(١) أخرجه أحمد (١٥٢٣٧)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة .

وفي ثنايا هذه البسمة التي أنارات ظلمة العقبة، وفي ثنايا هذه الإشراقة التي خرجت من جبينه الوضاح، قال مُعاهدًا وواعدًا وعد الحر الكريم :

" **بَلْ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهُدْمَ الْهُدْمَ**": أي حُرَمتي مع حُرْمَتِكم، وبيتي مع بَيْتِكم. والعرب تقول : دَمِي دَمُك وهَدَمِي هَدَمُك في النُّصْرة.

"**أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي؛ أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ**"

ويا لها من شهادة ووسام ! فهؤلاء صاروا من الرسول وصار الرسول منهم لما نصروه والتزموا بيعته .

وهذه العطية الكريمة ليست للأنصار خاصة؛ بل هي لكل من وقف موقف النصرة للرسول ـ ﷺ ـ، فمن تبعه فهو منه، ومن نصره فهو منه .

إن أنصار رسول الله ـ ﷺ ـ في كل زمان ومكان؛ يبعثهم الله على رأس كل قرن؛ فسلكهم ينابيعَ هدايةٍ ونورٍ؛ ينشرون الإسلام في أصقاع الأرض، إسلامًا صافيًا طاهرًا كيوم نزوله؛ غير ذي عوج، لا يخشون في الله لومة لائم، أولئك يقول لهم رسول الله ـ ﷺ ـ : " **أَنَا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مِنِّي** " . أولئك الذين يعرفهم رسول الله ـ ﷺ ـ على الحوض غرًا محجلين .

***

✍تنبيه حكيم من أسْعَد بنُ زُرَارَة

✍قال جابر بن عبد الله :

فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ؛ وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ ـ وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ ـ فَقَالَ : رُوَيْداً يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ! فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلاَّ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ.

قَالُوا : أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ؛ فَوَاللَّهِ لاَ نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَداً وَلاَ نَسْلُبُهَا أَبَداً. قَالَ جابر : فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا ،وَشَرَطَ عَلَيْنَا، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨٣٠)، السلسلة الصحيحة: ٦٣ .

هذا سعد بن زرارة ـ أول مسلمي يثرب، وأشد الأنصار تحمسًا للإسلام ـ ؛ لم يكن ليفعل ذلك إلا ليحفز الأنصار على التمسك بالبيعة وإدراك تبعاتها المستقبلية، والاستعداد النفسي لكل ما يترتب عليها من صروف وأحوال.

✍ **رأي أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ ـ بثاقب بصيرته ـ أن تبعات هذه البيعة؛ ثلاثٌ هي :**

١ـ "مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً" ـ فهم في خندق وأنتم في خندق، لهم دينهم ولكم دين .

٢ـ " **وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ**" ـ إذ لن تترك العربُ رسولَكم؛ وأنتم ستقاتلون دونه ـ كما نص البند الخامس ـ؛ فتُقتلون دونه، وهذا حق الوفاء ببيعكم الذي بايعتم.

٣ـ " **وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ**" ـ فمن لم يُقتل دون رسول الله ـ ﷺ ـ فلا أقل من مكابدة القتال؛ فيصيبكم في سبيل الله القرح والجرح.

***

✍ **الانتخابات التنظيمية، والمجموعات التربوية**

✍ **وهنا قال رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ :**

" أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ ".

فَأَخْرَجُوا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا مِنْهُمْ تِسْعَةٌ مِنْ الْخَزْرَجِ ، وَثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوْسِ[1].

ومن سنة رسول الله ـ ﷺ ـ أنه ترك لجماهير الأنصار حرية انتخاب ثلة من النقباء، ليكونوا عليهم أمراء، يتعهدوا قومهم بالنصح والتربية والتعليم.

وفي الحال، وفي تلك الساعة الحرجة من الليل؛ انتخبوا منهم اثني عشر نقيبًا؛ ومن ثم يكون تحت النقيب الواحد نحو ستةٍ من الرجال. وهكذا جعل الرسول ـ ﷺ ـ من جماهير وفد العقبة؛ مجموعاتٍ تربويةً، وأسرًا إيمانيةً، كل مجموعة أو كل أسرة تتألف من ستةٍ أو سبعةٍ من المؤمنين العاملين المبايعين.

... علينا أن نفقه وسيلة " المجموعات التربوية" التي ابتكرها الرسول ـ ﷺ ـ؛ وهي إن كانت وسيلة من وسائل التربية فهي سُنة من السنن النبوية التي يجهلها الكثيرون.

... يا ترى ! ما الذي كان يدور داخل هذه المجموعات، بين الأخ وأخيه، أو النقيب وتلميذه ؟

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٢٣٧)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة .

لك أن تتخيل ذلك؛ وأن تعصف ذهنك حول مئات أو آلاف الجلسات التي جلسوها، وعلى كل حال لن تخلوا هذه المجموعات من اجتماعها على مدارسة القرآن، والتفقه في الدين، والتعبد بالليل، والدعوة بالنهار، وتهيئة المدينة لاستقبال رسول الله ـ ﷺ ـ .

..وهكذا فقهوا العمل الجماعي الدعوي من أول جلسة جلسوها إلى النبي ـ ﷺ ـ .

***

صرخة الشيطان

وبعد أن تمت البيعة، ثم الانتخابات، ثم المجموعات، كل ذلك في ساعة من الليل؛ كان حقًا على الشيطان أن يُنفس عن مصيبته؛ إذا رأى الملعون أن شمل رسول الله ـ ﷺ ـ وأن الدولة الإسلامية قاب قوسين أو أدنى؛ فصرخ صرخته ـ كما في الحديث الصحيح ـ :

"يَا أَهْلَ الْجُبَاجِبِ[1]، هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ، وَالصُّبَاةُ مَعَهُ، قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ ؟ "

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ :

" هَذَا أَزَبُّ الْعَقَبَةِ، هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ اللهِّ ! أَمَا وَاللهِّ لَأَفْرُغَنَّ لَكَ!"[2]

وهنا أمر الرسول ـ ﷺ ـ أن يَرفع الصحابةُ إلى رحالهم، وقد بدأَت مكة تستيقظ على صوت الشيطان، وقد أكد لنا الرسول ـ في الحديث الصحيح ـ أنه شيطانٌ فعلاً وذكره باسمه واسم أبيه (**أَزَبُّ الْعَقَبَةِ، هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ**).

ومن ثم لا حجة لهؤلاء الذين يستحيون من سنة نبيهم؛ ويقولون : هو مشرك من مشركي مكة وَصفه الرسولُ بصفة الشيطان !

***

الاختبار الأول للأنصار

ثم قال الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ :

وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا"!

---

(١) الْجُبَاجِبُ الْمَنَازِلُ .

(٢) أخرجه أحمد (١٥٢٣٧)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة .

✍ **فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ -:**

" **لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ** "(١)

وقد نص البند الخامس : "**عَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي؛ فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ**...".

ومعلومٌ أن فريضة القتال في سبيل الله لم تُشرع إلا في العهد المدني.

إن هذا الموقف كان الاختبار الأول للأنصار؛ ونجحوا إذ كانوا على أتم استعداد على امتشاق السيوف في وجه صناديد قريش إذا أمر الرسول -ﷺ -، بيد أنه هو الذي كف أيدهم عن ذلك، وقال مؤكدًا على طبيعة المرحلة المكية :

" **لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ** ".

هنا، يقولها صراحةً؛ أن الأمر بالكف عن القتال - في الفترة المكية - كأن بأمر من الله؛ ومن ثم يزال المسلمون يعملون بهذا التكاليف حتى يأتيهم أمرٌ آخر من الله يأذن لهم في القتال، ثم يأتيهم أمر ثالث بقتال الذين يقاتلونهم، ثم أمر رابع بقتال كل من وقف عقبة في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي، وهكذا نرى التدرج التشريعي في فريضة الجهاد؛ شأن الشريعة الإسلامية في كثير من الأحكام .

ومن قوله -ﷺ - :" **لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ** " - تستشف مدى التزامه -ﷺ - بحدود كل مرحلة، وحركيته الدقيقة، وتحرجه الشديد من تأخير فعل لا يقبل التأخير، أو تقديم فعل لا يقبل التقديم، يدلك هذا على نفسٍ منضبطة، وشخصية متزنة، وداعيةٍ ؛ ملتزمٍ بأحكام الله .

***

✍ **يا أخي !** أين ثفقتك مع الله - تبارك وتعالى - ، وبيعتك مع رسول الله -ﷺ -، تلك التي تلقاه بها على الحوض .

... دومًا، راجع نص الثفقة في الآية ١١١ من سورة التوبة .

***

(١) أخرجه أحمد (١٥٢٣٧)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة .

١ـ تطبيق أسلوب " المجموعات التربوية " التي استخدمها النبي ـ ﷺ ـ كوسيلة لتربية الصحابة .

توصيات عملية

٢ـ الاستفادة من ذوي الأرحام ممن يحترمون الفكرة الإسلامية ـ بأن يقدموا أي دعم لدعوتك .

٣ـ حفظ حديث البيعة (حديث جابر)، وكتابته على سبورة المسجد، أو إعداد ملصق يحمل هذا الحديث .

٤ـ إعداد حملة دعوية تحت عنوان : " **ولكم الجنة** "؛ وهي حملة من خمس محاور؛ هي بنود البيعة : طاعة الله ورسوله، الجهاد بالمال، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلمة الحق، ونصرة الرسول ـ ﷺ ـ. أما وسائل الحملة؛ فهي : الخطب والدروس ورسائل الجوال والمطويات وغيرها من طرق نقل الدعوة .





القسم السادس

الهجرة النبوية

حول باب الهجرة

✍ **أورد الإمامُ البخاري بابَ الهجرة في كتاب المناقب تحت عنوان طويل يقول :**

" بَاب هِجْرَةِ النَّبِيِّ –ﷺ– وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ –ﷺ– : (**لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الأَنْصَارِ**)، وَقَالَ أَبُو مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ –ﷺ– : (**رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ، أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ**) . ."

***

وهذا العنوان يُدّلُل لك على حصافة البخاري؛ ولطافة المعنى الذي وُفّقَ لفهمه؛ إذ أورد الهجرة في كتاب المناقب. فالهجرة منقبة وأي منقبة ! أكرم مناقب الإسلام، وأعظم حوادث سيد الأنام، ولم يسقها البخاري في سياق التاريخ رغم أن الهجرة من أجَلِّ أحداث التاريخ، ذلك الحادث الذي أعاد دورة التأريخ من جديد، إنما سطرها في كتاب المناقب ليُعلمَ فضلها ولتُفهم منقبتها. . نعمةٌ خصت الدين، وعمت المسلمين، وأعلت للإسلام يدا، وفتت من الباطل عضدا، وشدت من الإيمان سُننا ، وأزالت عصر الوثن سرمدًا..

***

ولم يؤرخ المسلمون بمولد النبي –ﷺ– ولا بوفاته، ولا بيوم الفرقان، ولا بيوم الفتح، إنما أجمعوا على الهجرة؛ لفقههم بقدرها، ولعلمهم بأهميتها؛ إذ هي التي نقلتهم من مرحلة الجماعة إلى مرحلة الدولة، ومن عهد الاستضعاف إلى عصر التمكين، ومن سمة المحلية إلى سمة العالمية .

فلما عظمَ فضل الهجرة على كل فردٍ من أمة الإسلام حتى قيام الساعة؛ أبان رسول الله –ﷺ– اسْتِمْسَاكِهِ بجماعة المهاجرين التي ينتسب إليها من الناحية الحركية، فقال يؤكد فضل الهجرة :

" **لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الأَنْصَارِ** " ..

إنه يبيْن لك أن درجة الهجرة أعلى في الدرجة من النصرة، وكلتاهما أبطنت أحشاؤها فضلاً ومجدًا، وكرامة وسؤددًا !

وهو يبين لك في هذا الجملة البلغية : **" لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار"** – فَضْلُ الهجرةِ وفضلُ الأنصار في عبارة واحدة .

فمَنْ عَلِمَ فَضْل الأنصار وجهدهم وقدْرَهم؛ عَلِمَ على أثر ذلك فضل الهجرة ..

ومَنْ عَلِمَ أهمية الهجرة وخطير فضلها؛ علم بذلك فضل الأنصار وجليل ودروهم..

***

ويبدو أن الله تعالى أراد أن يمهد لهذا الحدث العظيم، بحيث يتقبل الصحابة أمر هجرة الأوطان والأهل والديار بنفوس مُهيئة.

✍ **ولقد تمت هذه التهيئة – بالفعل - على عدة نطاقات:**

✍ **نطاق نظري فكري :** بنزول القرآن يشرح فضل الهجرة وأهميتها في تاريخ الدعوات، فكانت الآيات القرآنية تقص هجرات الأنبياء، إبراهيم ولوط ويوسف وموسى .. فضلاً عن قصة أصحاب الكهف الذين هاجروا في سبيل الله ..

✍ **كما تحبذ الآياتُ الهجرةَ من أجل العبادة :**

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت:٥٦]

﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزُّمَر:١٠]

✍ **وتذكرُ فضْلَ من هاجر حفاظًا على دينه :**

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل:٤١]

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل:١١٠]

✍ **ونطاق تطبيقي تدريبي:** بتقرير مشروعية الهجرة، فكانت الهجرة إلى الحبشة وكانت اختيارية .

✍ **ونطاق روحي نفساني :** من خلال الرؤى، ومن ذلك قول النبي -ﷺ-: **(رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ، أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ).**

***

وهذه الرؤيا، تُظهر معرفة النبي -ﷺ- بالبيئة الجغرافية المُحيطة به، فهو يعرف أي البلاد يكون بها النخل، ويذْكر بلدان النخل التي وقعت في نفسه:

"اليمامة " وهي بالفعل أرض نخل – ومكانها مدينة الرياض الآن –..

"هَجَرُ "، وهي بدولة البحرين الآن، وهي أرض نخيل أيضًا..

وهكذا حتى أوحى الله إليه أنها المدينة يثرب .

أرأيتَ كيف كانت ثقافة النبي -ﷺ-؟

أعَلِمْتَ مدى ثقافته الجغرافية ؟

تلك التي لا تقل عن ثقافته السياسية ومعرفته بطبائع الأنظمة الحاكمة في العالم آنذاك؛ الاستبدادية منها وغير الاستبدادية، فهو القائل : **"إنَّ بأرضِ الحبشةِ مَلِكاً لا يُظلمُ أحدٌ عنده، فالحقُوا ببلادِهِ حتّى يجعل اللهُ لكم فرجاً ومخرجاً ممّا أنتُم فيهِ"**[1] .

إنه -ﷺ- يَعرْفُ أنظمةَ الحُكم العادلة وأين تقع، ويعرف ظلام الظلم وأين يخيم.

لم تكن ثقافة النبي -ﷺ- كثقافة بعض حكام زماننا، الذين لا يعرفون هِرّاً من بِرّ !

***

وتأسيًا بنبي الرحمة -ﷺ- ينبغي أن يتزود القائد المسلم بالثقافات اللازمة، والمعارف المختلفة، في السياسة والاجتماع، والجغرافيا والاقتصاد، والتنمية والانتاج، وغيرها من فروع المعارف التي تمكّنه من ناصية القيادة، وتجمع في يديه أزِمَّةَ الريادة، وتزلل له الصعاب وتمحق له العقبات .

(١) أخرجه البيهقي في "السنن " (٩/ ٩)، عن أم سلمة، وهو في السلسلة الصحيحة، برقم ٣١٩٠ .

ينبغي على القائد المسلم أن يكون كثير المطالعة، سريع المراجعة، قوي المناظرة، شديد المقارعة، لا تنخرم له قاعدة أخلاقية في أدب الخلاف.



١ـ مدارسة حديث الهجرة من كتاب فتح الباري لابن حجر .

٢ـ كتابة مقالة عن "**الهجرة في تاريخ الأنبياء** ".



بين الدين والوطن

✍ **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - لِمَكَّةَ :**

" مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ ! وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ! وَلَـوْلاَ .. أَنَّ قَوْمِى أَخْرَجُونِى مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ"(١).

وعن أبي هريرة قال: وَقَفَ النَّبِيُّ -ﷺ - عَـلَى الْحَـزْوَرَةِ، فقال:**" عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَـبُّ الأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلاَ .. أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِى مِنْكِ مَا خَرَجْتُ "**(٢).

"والْحَزْوَرَةَ هِيَ مَا يُعْرَفُ الْيَوْمَ بِاسْـمِ القـشاشية ، مُرْتَفَـعٌ يُقَابِلُ الْمَسْعَى مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ كَانَ وَلا يَزَالُ سُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ مَكَّةَ "(٣).

***

يا قلبَ محمد –ﷺ –؛ إن التي تركتها للدين؛ للتـي سـتفتحها بالـدين. وإن التـي لفظك أهلُها للدين، للتي ستحملك يومًا إذ يدخلون في دين الله أفواجًا :

إنّ التي كُنتُ أنحو قَصْد شِرّتها ... أعطت رضاً وأطاعتْ بعد عِصْيانِ

***

يا قلوب الدعاة، هكذا في هذا الموضع يفترق الدين والوطن ، وهكذا يُقَدم الـدينُ على الوطن .. أو أن دينك هو وطنك وإن تَرَكْتَ الموضع الذي وُلدّتَ فيه، أو أن وطن المسلمين الذي فيه قوام دولة الإسلام هو الوطن الشرعي الذي تهوى إليه الأفئدة، وما عداه من بقاع وأصقاع فليست بأوطان، لذلك كـان المـسلمون دومًـا في غربـة حيـنما سكنوا ديار الكفر، وهم أقلية دينية يُحْكمـون بقـوانين البلـدة التـي لا يملكونهـا ولا ينتسبون إليها انتسابًا دينيًا .

***

يا قلوب المسلمين، هكذا لمّا قَدَّمَ المسلمون الأوائل هذه التضحية الجسيمة، وتجردوا لله من حطام الدنيا، ومن عقارات وتجارات مكة – كانت لهم دولة العدل والرخاء في

(١) أخرجه الترمذي (٤٣٠٥)، عن ابن عباس وصححه الألباني .
(٢) أخرجه أحمد (١٩٢٣٠)، قال شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح على وهم في إسناده .
(٣) المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية ٩٨ .

المدينة. تمامًا كما فعل اليهود بعد ذلك في عصرنا؛ إذ تجردوا لفكرتهم، وخرجوا من ديارهم مهاجرين من أوربا وأسيا وأمريكا، وتجمعوا في فلسطين، وتتوحدة كلمتهم لإقامة وطنهم، ونزلوا غرباء في أرض المسلمين، وسرعان ما أقاموا دولتهم إسرائيل، ويطمحون الآن إلى أن تكون من الفرات إلى النيل. فهل وعيتم خطر الهجرة، وعظم الهجرة، وأهمية الهجرة :

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠] .

***

نَعمْ، مكة هي أطيب البلاد، وهي أحب الأماكن إلى العباد : " **مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ !** " بيد أنها غير صالحة لإقامة دولة المسلمين، وغير ناجعة في حماية المؤمنين .. ولو ظل المسلمون بها ألف سنة ما خرج الإسلام خارج الجزيرة . إلى جانب أن مكة قد تحولت إلى سجن كبير يُحصرُ فيه المسلمون، ويمارس عليهم شتى أنواع التنكيل، والعاكفُ فيها والبادي إنما يحج ويعتمر تحت حُكم الوثنية، برخصة من الأنظمة الشِركية؛ فكان واجبًا على الحركة الإسلامية أن تقطع شوطًا جديدًا، وأن تبادر بخطوة جريئة، وأن تبحث في جزيرة العرب عن قاعدة جديدة، فكانت خطة رسول الله ﷺ - في مواسم الحج؛ هي البحثُ عن قبيلة تحمله، أو بلدة تكون مقر دولته، ونقطة انطلاقٍ لرسله إلى أكناف الأرض ...

***

وفي قوله - ﷺ - :

" **وَلَوْلاَ .. أَنَّ قَوْمِى أَخْرَجُونِى مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ**" يُظهر لك مدى المعاناة التي لقيتها الدعوة، تلك المعاناة هي التي أوجبت الخروج من مكة، وجعلت من الهجرة واجبًا شرعيًا أو فريضة دينية أو ضرورة وطنية .

وهو يؤكد خلوص رغبته في السكنى بمكة مادمت صالحة للدعوة .

وهو يُظهر شعورًا عاطفيًا مشروعًا في حب الأوطان وإن كانت على الشرك .

وهو يسن سنة استحباب السكن بمكة للدعوة أو للعبادة أو لخدمة الحرم في مواسم الحج ونحوها .

ولقد كان يؤمل أن تكون البلد الأمين هي مقرُ دولةِ المسلمين، كأنه كان يطمح أن تكون بلدته هي بيضة العرب في الجاهلية والإسلام، وأن تكون دار الأمن والمنعة لدين إبراهيم كما كانت من قبل . وهذا من عظيم حب النبي – ﷺ – لوطنه .

***

إن حب الأوطان غريزة جُبل عليها الإنسان، فأنت ترى البشر في شتى بقاع الأرض لا يغادرون أوطانهم في أكثر الأحيان إلا باضطرار، على إثر ظلم أو زلزال أو فيضان، أو غير ذلك من الأسباب، فتَعَلُّقُ الإنسانِ بوطنه من أمور الفطرة التي جبل اللهُ الناسَ عليها .

بل إن من علامة الشعور الصحي وسلامة المشاعر من القبح والغلظة، أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة.. فأولى البقاع بصبابتك إليها بقعةٌ رضعتَ ماءها، وطعمت غذاءها، وهذا بابٌ من الوفاء، وغير ذلك سوءُ أصل وجفاء ..

وفوق ذلك، أن حب الأوطان من شيم أهل الكرم، وقد قالوا في الأمثال : **"الكريم يحنُّ إلى جنابه، كما يحنُّ الأسد إلى غابه"** .. وإذا كان الطيرُ العتيقُ يتوق إلى أوكاره، فالإنسان الكريم أحقُّ بهذا الشعور إلى أوطانه..

ومهما تَنَعّمَ المهاجرُ في دار هجرته؛ فلا بد للنفوس من اشتياق إلى الأوطان وتولع، ونزوع نحوها ورغبة وتطلع، وحنين دائم يؤرق المضجع؛ لاسيما إذا جاءت أخبارٌ عن الوطن؛ حينها يحنَّ القلب حنين الإبل إلى أعطانها، وكانت حال الاضطراب هي حال القلب، كما كانت حال قلب النبي – ﷺ – في بعض أيام غربته؛

إذْ لـمّا اشتَاقَ النبيُ – ﷺ – إلى مكة محل مولده ومنشئه أنزل الله تعالى عليه قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، يعني إلى مكة..

✍ لقد جعل الله الخروج من الديار كقتل النفس ، فقال في آية:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:٦٦] ، فسوَّى بين الموت والهجرة !

✍ **وقال الله تعالى أيضًا ـ وقد قرن بين الموت والهجرة ـ:**

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [البقرة:٢٤٦]

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ [البقرة:٨٤]

" ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]

***

✍ **قال شاعر:**

إذا ما ذكرتَ [الوطن] فاضت مدامعي ... وأضحى فؤادي نُهبةً للهماهمِ
حنيناً إلى أرضٍ بها اخضرَّ شاربي ... وحُلَّت بها عنِّي عقود التمائمِ
وألطف قومٍ بالفتى أهل أرضه ... وأرعاهم للمرء حقَّ التقادمِ

***

جامع القول؛ أن حب الوطن، سجية فطرية سليمة، وشعور إنساني نبيل، ومشاعر وأحاسيس يُؤجر عليه المؤمن المغترب، فهي من باب الهم .

***

وإن ما سقته إليك – أخي القارىء - يدفع بك إلى مزيد من حب الوطن، وإن أعلى درجات هذا الحب أن تعمل على أسلمة وطنك، ونشر الخير في دياره، وذلك بأن تتعهد عامة الشَعب؛ فتقيم أودهم، وتنعش عديمهم، وتجبر كسيرهم، وتغني فقيرهم، وتعين مريضهم، وتُعلّم جاهلهم، وتقرع ظالمهم، وتصلح فاسدهم،... وهذا سبيل المصلحين الذين يغرسهم الله في الأرض بيده .



١ــ اعلم أن أعظم خدمة تسديها لوطنك؛ هي أسلمته (**نشر الإسلام في ربوعه**)

٢ـ تعرف على المعني الصحيح لمفاهيم : " **الوطنية** " ، و " **القومية** "، و " **الأمة العربية**" ـ وذلك من منظور إسلامي.

الهجرة .. والأخذ بالأسباب

✍ **الصاحب**

كان، كلما عزم أبـو بكـر ـ رضي الله عنـه ـ عـلى الهجرة؛ أثناه النبي ـ ﷺ ـ عن ذلك وقال له :

" **عَلَى رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي** "(١) .

✍ **الراحلة**

فَحبَسَ أبُو بكْرٍ نَفْسَهُ عَـلَى رَسـولِ اللهِ - ﷺ - لِيَـصْحَبَهُ، وأعد ناقتين، وظل يعلفهما أربعة أشهر .

✍ **التخفي**

✍ **قَالَتْ عَائِشَةُ :** فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بيْتِ أَبِي بكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِـيرَةِ، قَـالَ قَائِلٌ لِأَبِي بكْرٍ : هَذَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ - مُتَقَنِّعًا فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا!

✍ **فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:** فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي !وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ!

✍ **قَالَتْ:** فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَـدَخَلَ، فَقَـالَ النَّبِـيُّ - ﷺ - لِأَبِي بكْرٍ :

"**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**" .

✍ **فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :** إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ !

✍ **قَالَ:** " فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ" .

✍ **فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ** : فَالصُّحْبَةُ ـ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ـ ؟

✍ **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ** - ﷺ -:" **نَعَمْ** "

✍ **قَالَ أَبُو بَكْرٍ:** فَخُذْ ـ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ـ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ.

✍ **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ** - ﷺ - : "**بِالثَّمَنِ** "(٢) .

✍ **الزاد**

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ فَقَطَعَتْ أَسْـمَاءُ بِنْتُ أَبِي بكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَرَبَطَـتْ بِـهِ عَـلَى فَـمِ الْجِـرَابِ، فَبِـذَلِكَ سُـمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٦) .

✍ **الاستخبارات**

✍ **قَالَتْ عائشة** : ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهَّ – ﷺ –وأَبُوُ بكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ فكَمَنَا فِيهِ ثَلاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهَّ بْنُ أَبِي بَكْرٍ – وَهُوَ غُلامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ – فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ[1] إِلا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ[2] .

✍ **التمويه**

وكانت مهمة عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ –مَوْلَى أَبِي بكْرٍ –، أن يأتي بالأغنام لمحو آثار خطوات النبي ـ ﷺ ـ وأبي بكر، قالت :" **يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ**" .

✍ **الدليل**

وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهَّ– ﷺ –وَأَبُو بكْرٍ رَجُلاً، هَادِيَا خِرِّيتًا، ماهرًا بالطريق، وكان من بني الديل، مشركًا، لهم حلف مع آل العاص بن وائل، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ، أي القريب من البحر الأحمر

***

الجو السائد في أحداث الهجرة، هو جو " الحذر والأخذ بالأسباب" بصورة تثير التعجب والإعجاب . هذا النبي الكريم الذي قبل سنوات قليلة أسرى الله به من مكة إلى الشام في لمح البصر؛ الآن فرض عليه الهجرة من مكة إلى المدينة؛ وأن يكابد فيها المطاردة والصحراء والجوع والعطش والحر والغربة، يكابد كل ذلك على قدميه لا على براق يطير به في ليلة قمراء، لقد أراد الله ـ تعالى ـ أن تكون أحداث الهجرة تشريعًا إلى قيام الساعة، لذا كانت إنسانية بشرية، أخذ فيها الرسول ـ ﷺ ـ بما استطاع من أسباب الدنيا؛ اختار الصاحب وجهز الراحلة وأنفق المال واستعان براعٍ وجاسوس، وتخفى بغار موحش مُظلم، وأكل القليل من الطعام ما يكاد يسد رمقه؛ كل هذا لتعلم أن دعوة الإسلام دعوة واقعية، وأن الإسلام لا ينتصر إلا إذا أخذنا له بأسباب الدنيا مع التوكل على الله، وأن المسلم في حياته اليومية مهما بلغ في التعبد والتحنث فإن ذلك لن يدفع عنه مذلة الفقر أو مهلكة الجهل، أومعثرة المرض ـ إلا إذا أخذ بالأسباب

---

(١) من الكيد، أي ينالهما فيه مكروه .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٦) .

الدنيوية، والعوامل الحياتية، والوسائل المباحة المختلفة التي تعينه على معاشه، فما بالك إذن إن أردنا أن نجعل من الدعوة الإسلامية رائدة الدعوات، ومن الحضارة الإسلامية سيدة الحضارات ؟

علم الله أنه إذا قال في شأن الهجرة النبوية : كوني لكانت؛ ولَنَقَلَ النبيَ -ﷺ - على بساط إلهي من بيته في مكة ـ حيث يترصده المشركون ـ إلى بيت أبي أيوب الأنصاري في المدينة، في أقل من طرفة عين، وما ذلك على الله بعزبز، وقد رأيتَ كيف أسرى بعبده ليلاً من مكة إلى ما أبعد من المدينة .

لكن الذين اتقوا ربهم، يعرفون أن دعوة الله لا بد أن نأخذ لها بقوة، وأن نمهد لها طريقها بسبب، وأن نيسر لها وسائلها بحكمة، وأن نُصرفَ لها الأفكار التي تخدمها من هنا وهنا .

***

التوكل والعمل صنوان لأصل واحد، فاعلم أنه لا يُقبل التوكل إلا بحسن العمل، كما أن الأخذ بالأسباب لا يقل وجوبًا عن التوكل على الله .

توصية عملية

مدارسة حول حديث رسول الله -ﷺ - :

"إِنَّ الْمُهَاجِرَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ"[1]



(١) أخرجه أحمد (٦٩١٢) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

ثاني اثنين

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[التوبة:٤٠]

***

يا ويح مكة ! لم تعد صالحة للدعوة، فالوثنية متأصلة، والجهل مستحكم، والتخلف متجذر، وهذا رسول الله – ﷺ – بُعث فيهم منذ سنوات، فكان عندهم قبل الرسالة الصادق الأمين، وبعد بعثته قالوا : الساحر الكذوب، إذن لا بد من أرض جديدة، وبيئة أخرى، وأناس آخرين، فكان الأمر بالهجرة إلى يثرب، فخرج ثاني اثنين، ومكث في الغار ثاني اثنين، وسافر ثانين اثنين، ودخل المدينة ثاني اثنين . إنها غربة الدعوة والداعية .

***

وما أعظم هذه المنقبة لأبي بكر – رضي الله عنه – التي تضاهي الجوزاء في عليائها، والشعرى في مكانتها.. هذه العتيق الذي صلى خلفه النبيُ – ﷺ – .. كان ثاني اثنين في الغار، وثاني اثنين في المشورة، وثاني اثنين في العريش، وثاني اثنين في القبر .

✍ **قال حسان – رضي الله عنه – يرثي الصدّيق – رضي الله عنه - :**

إذا تذَكَّرْتَ شَجواً مِن أخِي ثِقَةٍ ... فاذكُرْ أخاكَ أبا بكر بما فَعلا

التَّاليَ الثَّانِيَ المحمودَ مَشهدُهُ ... وأوَّلَ الناسِ مِنهمْ صَدَّقَ الرُّسُلا

وثانيَ اثنينِ في الغارِ المُنيفِ وقد ... طاف العدُوُّ بهِ إذْ صَعَّدَ الجبَلا

وكان حِبَّ رسولِ اللهِ قد علِموا ... خَيْرِ البريَّةِ لم يَعدِلْ به رَجُلاَ

***

كانا في غار الهجرة، كما كانا دومًا في الغار الأكبر مكة أبان العهد الوثني . ويثّبت اللهُ القلبين المؤمنَين، في الصاحبين المهاجرَين، في الجبل والغار الموحشين. وضربَ أبو بكر – رضي الله عنه – المثل في الإيثار والتضحية، إذ دخل الغار قبل صاحبه، فكسحه، وهيئه، وسد أجحاره، ليأمنْ عقاربه وحيّاته، وكان يقطع من ردائه ليسد هذه الثقوب، وقد أوشك الرداء على النفاد، فقد قطَّعه فداءَ رسولِ الله – ﷺ – قطعةً قطعة، ورقعةً رقعة، وبقي ثقبان؛ فألقمهما رجليه، وما هذا عن حمق، بل عن حق، وعن حب وصدق، بل لا يبالي بشيء مادام يكلأ خيرَ البرية . ويُلدغ الصدّيق، فيَحبسَ أنفاسه فورًا، قبل أن تخرج الآه فتزعج صاحبه، وتقطع عليه نومته، بيد أن الدمعة السخينة أبت إلا أن تخترق الجفنين المطبقين، كما ينفجر الينبوع في الصخرة، وسالت العَبرة، من أصل قلب عظيم يتلوى ألمًا، وهي، أي الدمعة، لما خرجت كأنما فرحت، لا لفرحة الخروج، إنما لأنها علمت أن مستقرها فوق أطهر وجه، وجه رسول الله – ﷺ –، فكانت تلك الدمعة، وصلةُ التنبيه بين قلبين كريمين، فاستيقظ صاحب القلب الرحيم، وإذا به يبادله رقة برقة، ولهفة بلهفة، وقَطرة بقطرة، ولكنَّ الأخيرة كانت من ريقه – ﷺ –، لتنزلَ على ساقِ أبي بكر فتبرأ بإذن الله. فصَدق الله: " ثَانِيَ اثْنَيْنِ "، وهذا النص يُوحي إليك أنهما روحٌ واحدة في جسدين، أو حياةٌ واحدة في شخصين، يخاف أحدهما على صاحبه أشد من خوفه على نفسه، الإيثار والحب والأخوة ليست معانٍ نظرية بينهما، بل هي وشائج طبيعية، بل هي أطرافٌ كالأصابع والأيادي والأرجل، وليست هي أعضاءَ لجسد من الجسدين، بل هي مكونات هذه الروح الواحدة التي بين جنبيهما .

***

ولما كان هذا الإيثار، وهذا الحب، وهذه الأخوة، كان أبو بكر – رضي الله عنه – صاحب الريادة والسيادة، في السبق والصحبة، ونال وسامًا خالدًا أن ذكره الله تعالى وذكر صحبته، فقال : **"إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ"**، فهي شهادة لا تعدها شهادة، ودليل من الله على صحبته أبي بكر للنبي – ﷺ – في السيرة وفي المسيرة، وفي الجهر وفي السريرة، وكانت دومًا هذه الشهادة تلطم وجه من ينكر فضل الصدّيق – رضي الله عنه – الذي **" أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى "** .

ولما أراد الله أن يصور الهجرة، ويسجلها في كتابه، لم يسجل ذلك المشهد الذي استقبل فيه الأنصارُ رسولَ الله – ﷺ – استقبال الزعماء الفاتحين، وهو سيد الفاتحين ، إنما صور القرآن موقف النبي – ﷺ – وهو في الغار، في أحرج المواقف، وفي أصعب المشاهد، التي نرى فيها عناية الله تكتن رسول الله – ﷺ – وكأنما دخل رسول الله – ﷺ – إلى كِسر بيت تحت عرش الرحمن لا في جوف غار . **"إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ..."**

وهذه الآية نزلت في عام العسرة في ثنايا التجهز لموقعة تبوك في شهر رجب من العام التاسع للهجرة، نزلت توبخ القاعدين وتحفز المجاهدين شأنها شأن سورة التوبة كلها، فكان لسان الحال : إلا تنصروا النبي بالخروج معه لقتال الرومان فقد نصره الله من قبلُ !

وفي أي موضع نصره ؟ وما الموضع الذي ذكره الله تعالى في الآية ؟ هل ذكر بدراً فقال :" **فقد نصره الله في بدر**" – وهو يوم الفرقان العظيم – ؟ لا . هل قال : " **فقد نصره الله في الأحزاب** " – يوم تكالب أهل الأرض على الإسلام – .. لا ، لم يذكر ذلك، ولم يذكر الفتح المبين في صلح الحديبية، ولم يذكر الفتح الأكبر في مكة؛ بل ذكر الفتح الأول، والهجرة الشريفة، والنصر المنسي، والمعركة التي دارت رحاها بين الله وحده وبين معسكر الوثنية، وما هي أرض المعركة ياترى ؟ لم تكن في ميدان من ميادين القتال المعهودة، بل كانت كهفًا ! نعم هناك كانت المعركة، حيث اجتمع أهل الوثن من حول الكهف يقتفون الأثر، ويعلنون المكافئة، وقد رصدوا الجائزة لمن يأتي بمحمد – ﷺ –، فطلبوه في كل مطلب، وبحثوه في كل مبحث، حتى وصلوا إلى الكهف، حيث حمي الوطيس دون سيوف ورماح، وعلا غبار الحرب دون قتال كالقتال، في تلك المعركة الدائرة، بين جبار السموات وجبابرة الأرض ..

هنالك تتجلى القدرة الإلهية، وتهطل العناية الربانية، وتتكاثف سحائب الرحمة، فتظلل على خير البرية، هو وصاحبه، إذا هما في الغار، والمشركون محدقون بالمكان، ولو نظر أحدهم أسفل قدميه لانكشف الأمر، ولقُتلَ الإسلامُ بقتل مَن في الغار، ولكن أبى الله أن ينظروا هذه النظرة، وها هي يد الله تمسك بأحداق المشركين !

وها هي قدرة الله تتحكم في ألحاظ البشر أجمعين .

***

وكان رد النبي –ﷺ– لصاحبه؛ رد الواثق الثابت الصابر : لا تحـزن، لاتعبـأ، لا تبالي، خفض عنك .. إن الله معنا .

واهاً لتلك النفس التي تكالب عليها البشر، السانح والبارح، والغادي والرائح...، بيد أن الله معه !

إذنْ لا شيء ضده ! لا شيء يصده !

إن الله معنا. كلمة الإيمان التي خرجت من قلب سيد المؤمنين .

"ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟".

إنه نبينا، يلقي ذلك الدرس على قوبنا، وفي هذا الظرف، مـن جـوف الكهـف، أن القلوب وأن العيون بيد الله، يقلّبها كيف يشاء .

هذه الأحداق التي لو تحركت قيد أنمله لكان الإسلام في أَسر الشرك.

وقد وَقع البصر على البصر، بيد أن الله جعل بينهما عجاجة مـن البلـور، أو سـدًا، يُرى ظاهره من باطنه، ولا يُرى باطنه من ظاهره .

" **فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ** " .. سـبحان القـادر ! كيـف تقـر الـسَكِينَةُ في غـار مـوحش، احتوشته جلاوزة الباطل ! إنها سكينة ليست كأي سكينة، إنها منسوبة إلى الله، سكينته، هو، وحده، هو، سكينة منه، بموصفات من عنده، وبسمات من لدنه، فالموقف جلـل، والأمر خطر. أتُراك تترك أنسانًا في نقب غائر في جبـل مهجـور، في صـحراء، يقـاسي الجوع والظلماء، والعقارب والحيات، يطلبه القاصي والداني من الأعداء، ومـا يـدري أيتيه الموتُ من لذغة حية أو لسعة عقرب، أو مِن ضربة سيف أو طعنة خنجر ! ؟ لـو جمعتَ له وسائل التسلية وضروب التلهية وأدوية التهدئة ما سكن قلبه طرفة عين، فما بالك بمن مكث في هذا الغار ثلاثة أيام ! لذا كانت سـكينة الله، وكانـت جنـود الله – التي لم نرها ولم نعرفها –، وذلك ليخرج الداعية من غاره بحفظ الله، ولتمـضي دعـوة الله في طريقها، وينتشر الإسلام، وتعلو كلمةُ الله العليا .

***

ربٌ حافظ، ثم داعية وصاحب، ثلاثيةٌ لا تقوم لها شيءٌ . والله عزيز حكيم.

***

✍ **حكمة :**

الأخوة التي في **شدة** الغار، أقامت دولة عاش أبناؤها في **رخاء** .

✍ **مبادرة :**

اهجر المعصية، ومكانُها وزمانُها . ولا تمر بأهلها إلا داعيًا .

✍ **تفكُر:**

اذكر فضلَ رسول الله عليك –ﷺ– إذا حبس نفسه في الغار وهاجر .. من أجل أن تصل الدعوة إليك.



١ـ لا تحزن، إن الله مع الداعي إليه

٢ـ **"ما ظنك باثنين الله ثالثهما "**، استشعر دومًا مراقبة الله، وقل في نفسك : الله ناظري، الله رقيبي، الله مضطلع علي.





لماذا المدينة المنورة؟

دخلتْ المدينةُ المنورة التاريخَ؛ لما شرفها الله بهجرة محمد – ﷺ – إليها، وفُضِّلتْ على سائر البلاد – حاشا مكة –، وصارت بقعة مقدسة لها حرمُها، وباتت بيضة المسلمين، وعقر دارهم، ومقر دولتهم، وعاصمة خلافتهم، ومنها انطلق السفراء إلى بقاع الأرض يحملون رسالات الإسلام إلى ملوك وزعماء العالم.

***

لقد جعل الإسلامُ من هذه البقعة الزاوية؛ مدينةً مقدسةً تهفو إليها النفوس، بعدما استقبلته وأبت عليه بقاعٌ أخرى، وقد كان النبي –ﷺ – يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج فلا نصير ولا منعة .

إن الوفاء المحمدي لم يكن مقصورًا على البشر الذين ناصروه؛ بل امتد التقدير النبوي للأرض التي نصرت الإسلام .

حينئذ يزول عَجبك حينما تقرأ هذا العدد الهائل من الأحاديث الشريفة التي أطنبت في فضائل المدينة .

وكانت المكافئة لها لا تحدها حد..

فكانت البركة فيها ضعفي ما بمكة ..

✍ **قال النبي -ﷺ - :**

" اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَىْ مَا بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ "(١) .

✍ **وكانت حرمًا كالحرم المكي :**

فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ :" **الْمَدِينَةُ حَرَمٌ؛ فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدْلٌ وَلاَ صَرْفٌ** "(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم (٣٣٩٦) .

" إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لابَتَيْ الْمَدِينَةِ[١]، أَنْ يُقْطَعَ عِضَاهُهَا[٢]، أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُهَا"[٣] .

وظفرت بدعاء النبي -ﷺ- :

" اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا . اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ، بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ "[٤].

بل استحب النبي -ﷺ- الموت فيها :

فعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ نَبِيَّ اللهَّ-ﷺ- قَالَ: " مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ؛ فَلْيَفْعَلْ فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ مَاتَ بِهَا"[٥] .

... بل المرض فيها :

فقال : " الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لا يَدَعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلا أَبْدَلَ اللهَّ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلا يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لأوَائِهَا وَجَهْدِهَا إِلا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ "[٦] .

وهي محفوظة من شر الدجال ومن شر الأوبئة :

قَالَ رَسولُ اللهَّ -ﷺ- : "عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ، لا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ وَلا الدَّجَّالُ "[٧].

وتنفي الفساق والخبثاء والماجنين والأشرار كما ينفي الكيرُ خبث الحديد

قَالَ -ﷺ- : "ألا إِنَّ الْمَدِينَةَ كَالْكِيرِ؛ تُخْرِجُ الْخَبِيثَ.. لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَنْفِيَ الْمَدِينَةُ شِرَارَهَا، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ"[٨] .

---

(١) أي ما بين حرتيها الشرقية والغربية .

(٢) أي كل شجر فيه شوك، مفردها عضاهة وعضيهة .

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٢٦).

(٤) أخرجه مسلم (٣٤٠٠) .

(٥) أخرجه أحمد (٥٤٣٨)، وهو في السلسلة الصحيحة: ٢٩٢٨ .

(٦) أخرجه مسلم: ٢٤٢٦ .

(٧) أخرجه مسلم (٢٤٤٩) .

(٨) أخرجه مسلم : (٢٤٥١) .

✍ **ومن أرادها وأهلها بسوء دمره الله تبارك وتعالى :**

قَالَ النبي –ﷺ – : **"مَنْ أَرَادَ أَهْلَ هَذِهِ الْبَلْدَةِ بِسُوءٍ يَعْنِي الْمَدِينَةَ أَذَابَهُ اللهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ"**(١) .

***

والناظرُ لطبيعة المدينة المنورة – حرسها الله – والمتأمل في أحوالها يظهر له أنها أنسب البقاع لإقامة دولة الإسلام الناشئة، وذلك لعدة عوامل توفرت في المدينة المنورة .

✍ **ومن هذه العوامل :**

١- حصانتها العسكرية :

فالمدينة مُحصنة من الجهة الشرقية بحرة واقم، ومن الجهة الغربية بحرة الوبرة، ومن الجهة الجنوبية بحصون اليهود، والحرة هي مساحات بركانية صخرية وعرة تُعجز الجيوش والخيول.. فهي إذًا محصنة من جميع الجهات عدا الجهة الشمالية؛ وهي الجهة التي ضُرب حولها الخندق فيما بعد، والخنادق لا تنفع إلا في مثل هذه القرى المحّصنة .

وقد ورد ذكر الحرتين في رؤيا الهجرة وفي حديث الهجرة، فقال النبي –ﷺ – : **"قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ؛ رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ، بَيْنَ لَابَتَيْنِ– وَهُمَا الْحَرَّتَانِ"**(٢)

وقد رآها في رؤيا غزوة أحد أنها درعٌ حصينة فقال : **" وَرَأَيْتُ أَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، فَأَوَّلْتُهَا الْمَدِينَةَ "**(٣) .

٢- وسطيتها الجغرافية في الجزيرة العربية: فهي وسط بين اليمن والشام، ووسط بين الهند ومصر .

٣- التهيئة الفكرية التي تسبب فيها اليهود : فكان حديث يهود المدينة عن اقتراب زمان نبي تكون يثرب ملجأه.. قال بعض الأنصار : **" إن مما دعانا إلى الإسلام – مع رحمة الله تعالى وهداه– لما كنا نسمع من رجال يهود – وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور– فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٢١٣٤) .

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٤٥)، ابن عباس، السلسلة الصحيحة: ١١٠٠ .

قتل عاد وإرم! فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم .. فلما بعث الله رسوله – صلى الله عليه وسلم– أجبناه حين دعانا الى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به؛ فبادرناهم إليه فآمنا به، وكفروا "(١) .

٤- استعداد أهل المدينة للاتفاف حول قيادة تجمع شملهم : فقد أنهكتهم الحروب، التي أفنتهم جيلاً بعد جيل، فسادَ شعورٌ عام بين الأوس والخزرج ورغبة في إنهاء هذه الثارات إلى الأبد . وقد كانت هذه الحروب تضرم زمنًا طويلاً ، وكانت تقوم على أتفه الأسباب، كحرب حاطب التي كانت بين الأوس والخزرج بسبب رجل يهودي !

٥- زوال شيوخ الحروب : وهم قادة القبائل ومسعرو النعرات الجاهلية، وهؤلاء الشيوخ قضت عليهم طاحونة الحروب والفتن، مما مهد الطريق لجيل من الشباب في تبوء زمام القيادة في أقوامهم كسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وغيرهم من الشباب الذين نصروا الإسلام؛ فهؤلاء لم تتأصل فيهم النعرات الجاهلية التي رسخت في آبائهم .

***

ونزل رسول الله –ﷺ – المدينةَ المنورة – أدام الله أمنها–؛ فشملها بسياسته الرشيدة، ووحدها برعايته الكريمة .. وأقام–ﷺ – بين الأوس والخزرج؛ فنَظَمَ شملهم، ووصل حبلهم، وجمع كلمتهم، وألّف أفئدتهم؛ فانتشرت كلمة العدل، وانشقت عصا الفُرقة، وخمدت الدماء، ونامت الفتن.

***

إن في ذلك لدرسٌ في بناء الدول . إن في ذلك لدرسٌ في إعداد الأمم . هكذا بالمنهج الإسلامي، وبالقيادة الرشيدة، وبالشباب الطاهر، تقوم الجماعات وتُبنى الحضارات . فإذا توفرت هذه المقومات الثلاثة : المنهج والإدارة والأتباع؛ فإن مسألة إيجاد الوطن الإسلامي الذي يضم هذه الدعوة – هي في حقيقة الأمر مسألة وقت لا أكثر .

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣٧ .

والحرية والأخوة، شرطان ضروريان في الوطن الذي تُبنى فيه دولة الإسلام، فلا قوام لدولة إسلامية في وطن أسير أو تابع أو محتل، ولا قوام لدولة إسلامية في وطن تلتطم فيه أمواج الفُرقة والعصبيات والنعرات؛ إذ ينبغي أن تجتمع كلمةُ أبناء هذا الوطن على القيادة الإسلامية في جو الأخوة والمحبة ..

فقد اختار النبي – ﷺ – الوطن الحُرَ والشعب المتاحب المجتمِعَ حوله.

ومن ثم لم ينزل المدينةَ غريبًا أو ضيفًا أو لاجئًا بل دخلها قائدًا وحاكمًا.

وقد كان هذا التصور واضحًا غاية الوضوح في أذهان الأنصار.

وواهًا لتلك الأخوة ! تلك الوشيجة التي جعلت الأسود عدلاً للأبيض، تلك التي قضت على عصبيات الجاهلية، وكانت حائط صد لأي فتنة تشوب وحدة المسلمين .

ولذلك كان **"محاربة وحدة الصف"** هو مدخل أعداء هذه الأمة لاحتلال أرض المسلمين – وذلك بزرع الشقاق والفتن والقلاقل بين الشعوب المسلمة، والمحاولات الدؤوبة في تقسيم المسلمين إلى طوائف وفرق، وتنشئة قضايا اسمها **" أقليات دينية"** و**" أقليات عِرقية"** و**" طوائف"** في العراق ومصر والسودان والمغرب وغيرها، بحيث تكون هذه القضايا هي حصان طروادة أومسمار جحا لدخول هذه البلدان الإسلامية وانتهاب خيرها واحتلال أرضها وتنصير أهلها . فهبو يا شباب !

يا أَيها الحيُّ المقيمونا ... هُبُّو، فيوشك يوما لا تهبُّونا



١ـ زيارة المدينة المنورة ـ حرسها الله ـ، وهي رحلة غير مكلفة إن عزمت النية .

٢ـ مطالعة موقع **" مركز بحوث دراسات المدينة المنورة "** على الإنترنت.

٣ـ اقتناء خريطة للمدينة المنورة، تساعدك في فهم الغزوات .



بين مرثد وعثمان بن طلحة !

✍ **مرثد بن أبي مرثد .. علَمًا في العفة**

كَانَ مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ – رضي الله عنه – يَحْمِلُ الأَسْرَى مِنْ مَكَّةَ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمْ الْمَدِينَةَ، فيستنقذ المستضعفين "**من الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً**"..

وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ [**تعمل في الدعارة**] بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهَا عَنَاقٌ، وَكَانَتْ صَدِيقَةً لَهُ، أيام الجاهلية، وَإِنَّهُ كَانَ وَعَدَ رَجُلاً مِنْ أُسَارَى مَكَّةَ يَحْمِلُهُ ..

✍ **قَالَ مرثد :** فَجِئْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى ظِلِّ حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، فَجَاءَتْ عَنَاقٌ، فَأَبْصَرَتْ سَوَادَ ظِلِّي بِجَنْبِ الْحَائِطِ، فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيَّ، قالت : مَرْثَدٌ ؟

✍ **فَقُلْتُ :** مَرْثَدٌ !

✍ **فَقَالَتْ :** مَرْحَبًا وَأَهْلاً ! هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ !

✍ **قُلْتُ :** يَا عَنَاقُ ! حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا!

✍ **قَالَتْ : يَا** أَهْلَ الْخِيَامِ ! هَذَا الرَّجُلُ يَحْمِلُ أَسْرَاكُمْ !

✍ **قَالَ مرثد :** فَتَبِعَنِي ثَمَانِيَةٌ، وَسَلَكْتُ الْخَنْدَمَةَ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى كَهْفٍ أَوْ غَارٍ، فَدَخَلْتُ، فَجَاءُوا، حَتَّى قَامُوا عَلَى رَأْسِي؛ فَبَالُوا ! فَظَلَّ بَوْلُهُمْ عَلَى رَأْسِي وَأَعْمَاهُمْ اللهُ عَنِّي ! ثُمَّ رَجَعُوا، وَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَحَمَلْتُهُ، وَكَانَ رَجُلاً ثَقِيلاً، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الإِذْخِرِ؛ فَفَكَكْتُ عَنْهُ كَبْلَهُ، فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ، وَيُعْيِينِي حَتَّى قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْكِحُ عَنَاقًا ؟

✍ **فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا ، حَتَّى نَزَلَتْ:**

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣]

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – : "**يَا مَرْثَدُ ..(الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) .. فَلا تَنْكِحْهَا**"[1].

(١) أخرجه الترمذي (٣١٠١)، وحسنه الألباني .

✍ غار العفة ولا دار الفسقة

لقد رفض مرثد أن ينصاع لطلب هذه الداعرة، رغم ظلمة الليل، وشدة الموقف، وهو في أمس الحاجة إلى مخبإ يواري فيه نفسه، ولكنه – رضي الله عنه – قالها صريحة لطالبة المتعة:

" يَا عَنَاقُ ! حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا! "

✍ ولعله استحضر في ونفسه آيات بينات تَربى عليها في تلك المجموعات المكية الإيمانية:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٧]

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

فلما غضبت العاهرة، لرغبته عنها، إذا بها تريد فضح أمره، وهتك سره، وتهييج الناس عليه، فصاحت : يَا أَهْلَ الْخِيَامِ ! هَذَا الرَّجُلُ يَحْمِلُ أَسْرَاكُمْ !

فما انصاع لها عندئذ، ولم يتسغفرها، ولم يطاوعها ولا على سبيل المداهنة، بحيث يدخل بيتها دون فعل الفاحشة، بل قطع حبائل الشيطان، وسد باب الفتنة، وأوصد منفذ الشبهة.

ولاذ هذا الطاهر العفيف بغار، ففضل الاختباء بكهف على النوم في أحضان محرمة مع امرأة حسناء، وفي دار قوراء ، وأحب قرصة البرد على لذة الفُجر، ومكابدة العقارب والحيات على ملاعبة بنات الليل والداعرات. لقد أدرك أن لذة ساعة قد تجلب عليه ألم دهر، والحياة بين صرخة وأنَّة - بين صرخة الوضع وأنَّة النزع - وبحسب الإنسان من ذلك العبرة، فلعل بعد العرس رمس، ونفس تذوب كمدًا وندمًا على الذنب، وجثة تطَحْطَحها الأمراض الجنسية كالزهري والسيلان والإيدز..

بخ . بخ ! لقد نجا مرثد من وكسة شوهاء، لو كان قد واقعها – لا قدر الله – لتأففت من ريح ركسها الطيور في وُكُناتها، والوحوش في أوجراتها، والإبل في معاطنها، والشاء في مراتعها.

ويأبى الله أن يذوق المؤمن عسيلة الفاجرة، أو يذوق العربيد عسيلة العفيفة، ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣]

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:٢٦]

✍ **عثمان بن طلحة .. في ركب العفة**

ليس الزاهد الذي يتقشف ويتخفف ويتلفف، إنما الزاهد الذي يتعفف..

وليس العفيف بقَشَفِ الهيئة ولا شَعَثِ اللِّمّة، ولكنه ظَلْفُ النفّس عن الشهوة والشهرة والشبهة !

ولقد ضرب الصحابة المثل في العفة وطهر النفس عن الوكس، فهذا عثمان بن طلحة – رضي الله عنه – يرافق امرأة مسلمة – هي أم سلمة – في هجرتها، وصاحبها من مكة إلى المدينة، يكلؤها ويحفظها ويصونها ولم يصدر منها فعلة أو قولة تشين العفيف، فكان من أخلاقه ما أطنب الناس في ذكره وعفته .

تقول أم سلمة : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لى بعيره ثم حملني عليه وجعل معى ابني سلمة بن أبى سلمة في حجري، ثم خرج يقود بى بعيره.

فلم رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟

✍ **قالت:** فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه.

✍ **قالت:** وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد - رهط أبى سلمة-، وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

✍ **قالت:** فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

✍ **قالت:** ففُرق بينى وبين ابني وبين زوجي.

✍ **قالت:** فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح، فما أزال أبكى حتى أمسى، سنة أو قريبا منها!

حتى مر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة، فرأى ما بى فرحمني، فقال لبنى المغيرة: ألا تحرجون من هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟ !.

✍ **قالت:** فقالوا لى: الحقى بزوجك إن شئت.

✍ **قالت:** فرد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت بعيرى، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة.

✍ **قالت:** وما معى أحد من خلق الله.

حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة ابن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار، فقال: إلى أين يا ابنة أبى أمية ؟

✍ **قلت:** أريد زوجي بالمدينة.

✍ **قال:** أو ما معك أحد ؟

✍ **قلت:** ما معى أحد إلا الله وبنى هذا.

✍ **فقال:** والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى، فو الله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى، ثم استأخر عنى حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحط عنه ثم قيده في الشجر، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها.

فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله، ثم استأخر عنى وقال: اركبي.

فإذا ركبت فاستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى ينزل بى.

فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله.

ثم انصرف راجعا إلى مكة.

فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة(١) .

وهذا الموقف الزاخر بفضائل جمة، من الأمانة والشهامة والرجولة والنجدة والمنعة والصدق والعفة والصبر والثبات والوفاء- نرى فيه المعادن الكريمة التي يستخلصها الله للإسلام، وقد صدق رسول الله -ﷺ- حين قال :

---

(١) ابن كثير (**السيرة**) : ٢/ ٢١٥- ٢١٧، والقصة ثابتة.

" خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا"(١) .

فعثمان بن طلحة في هذا الموقف لم قد يكن أسلم بعد – فقد أسلم بعد الحديبية... فانظر كيف يصطفي الله لدعوته ومن يختار لها ! إنه يختار أمثال هؤلاء رواد العفة، ممن يحفظون فروجهم عن الحرام وأبصارهم عن الحرام .

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور:٣٠] .

وقد أفلحوا – والله – وركبوا المجد بهذه الأخلاق، ونالوا الجنة بهذه الشيم . قد أفلحوا .

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾

[المؤمنون:١،٧].

ثم تأمل سلوك عثمان بن طلحة خلال هذه الرحلة، وكانت أخلاقه كما وصفت أم سلمة: **" فو الله ما صحبت رجلاً من العرب قط ! أرى أنه كان أكرم منه"، فكان إذا بلغ منزلاً في هذه الرحلة أناخ الدابة، واستأخر عن المرأة، واضجع متواريًا، بحيث تتمكن المرأة من قضاء حاجتها وكأنها في خلوتها، فإذا دنا الرواح؛ قام فقدم البعير إليها وتأخر لكي لا يرى عورتها إذا اعتلت ظهر البعير، فإذا اعتلت؛ تقدم أمام البعير، فأخذ بخطامه، وهكذا على مدار الرحلة، ولعله بذلك لم ينظر إليها نظرة واحدة !**

إنها معايشة العفة ! لحظة بلحظة، وحركة بحركة، وسكنة بسكنة، صباح مساء، في السفر وفي الحضر، في الخلوة وفي الجمعة، وهكذا المسلم، يعيش العفة كما يعيش الحياة، لا يقع بصره على الحرام من عورات وفجرات، أو القراءة في أدب المرحاض والمقدمات والمؤخرات مما يؤجج الشهوة ويحرك الغرائز، ولا تسمع أذنه كلام النوكى والفساق، أوحديث الخنا وفحش القول وهُجره، ولا تمشي قدمه إلى وقر عهر، أوبيت فجر، أو موضع سُكر، لا تقع يده على رقعة لحم لا يحل له مساسها ".

---

(١) أخرجه أحمد : ٩٩٠٥، وصححه الألباني، انظر حديث رقم : ٣٢٦٧ في صحيح الجامع .

حتى القلب ....!

ينَّظِّفه، ويجلو ما به من أنات العشق، ورنات الشهوة، وخطرات الجنس، فيطفىء المؤمنُ ذلك بدلو الذكر الفياض، والصيام والقيام، والصلة والبر، وصدقة السر، فيقر القلب، ويسكن، ويطمأن بذكر الله .

ولو قُدر لرجل خليع أن يكون في موقف عثمان بن طلحة – رضي الله عنه – مع فتاة من بنات زماننا؛ لسمعنا عما تمخضت عنه هذه الرحلة من قصة عشق آثم، ومخادنة محرمة، ويكون الشاب الخليع هو الحبيب الحقيقي للسيدة، ويكون زوجها هو الحبيب الرسمي أمام المجتمع والقانون . ومثل هذه العلاقات؛ يأتي منها خراب البيوت، ودمار الأُسر، ولسمعنا في ذلك العجب العجاب، وإذا زُفت الفتاة الفاسدة إلى زوجها، فإن عليها أن تقسم بالأيمان المغلظة أنها ستكون لعشيقها بعد الزواج، بل نسمع أن منهن من تكتب لعشيقها (**وثيقة حب**) تعاهده فيها أنها له لا لزوجها .

✍ **قالوا في العفة :**

✍ **قال قدامة بن جعفر :** من أقسام العفة: القناعة، وقلة الشره، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما يجري مجراه.

✍ **قال أبو الحسن علي بن عيسى الرماني الشيخ الصالح:** العفة واسطة بين المقارفة والعصمة

" **العفة جيش لا يهزم** "

✍ **وقيل للأحنف:** ما المروءة؟ قال: العِفة والحِرْفة

✍ **وقال القلقشندي :** وأما العفة فيدخل تحتها: القناعة، وقلة الشره، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما لا يستغني عنه رجل ولا امرأة، وإذا ركب العقل مع العفة حدث عنهما صفات أخرى مما يتمدح به: كالنزاهة، والرغبة عن المسألة، والاقتصار على أدنى معيشة، ونحو ذلك مما ينخرط في هذا السلك.

✍ **وقال الشاعر :**

خلوت بها ليلاً ولم أقض حاجةً ... ولست على ذاك العفاف بنادم

✍ **وقال المتنبي :**

عفيف تروق الشمس صورة وجههِ ... ولو نزلت شوقا لحادَ إلى الظلِ

قال الواحدي في شرح هذا البيت : يقول الـشمس تستحـسن صـورة وجهـه فلـو نزلت إليه الشمس شوقا إليه؛ لمال عنها وعف، يريد أنه عفيف عن كل أنثى حتى عن الشمس

✍ **نساء عفيفات**

✍ **قال الراغب الأصفهاني – صاحب محاضرات الأدباء -** :

كانت قرشية رأى شعرها رجل فحلقته وقالت: لا أريد شعراً اكتحل به نظـر غـير ذي محرم..

✍ **دعاء في العفة**

✍ **كان من دعاء النبي -ﷺ- :**

"اللهم إنا نسألك العفاف والغنى ، والتقى والهدى ، وحسن عاقبة الآخرة والدنيا ، ونعوذ بك من الشك والشقاق ، والرياء والسمعة في دينك ، يا مقلب القلوب لا تـزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب "[1]

✍ **وكان من دعاء أحد الصالحين :**

اللهم ثبّت أقدام أدياننا على سَنَن العفّة والورع، ألبِسنا جلبـاب الـصيانة والنزاهـة عن الهوى المتَّبع، زيِّن قلوبنا بزينة اعتقاد الحق، حَلِّ ألسنتنا برونق قول الصدق، اجعل جواهر عقائدنا منظومة في سلك الكتـاب والـسنة، محفوظـة بحُـسن متابعـة الـسلف الصالح أعلام الأمة.



١ – أن تحرص على نشر قيمة العفة والحجاب، مـن خـلال الكتيبات والأشرطة والملصقات وغيرها من الوسائل .

٢ –أن تحذّر أهلك وجيرانك من عواقب التـبرج والعـري والعشق المحرم والاختلاط والانحلال الأخلاقي، التحذير مما تقوم به بعض وسـائل الإعـلام مـن نـشر الميوعـة والفجـور والعهر والدُعر والفُجر، في إطار مسلسل تلفزيوني هـابط، أو فيلم سينيمائي ساقط ...



٣ –أن تحذرْ الشباب من إطلاق البصر ومن العادة السرية ،

---

(١) الطبراني في الأوسط: ٧٧٨٧ .

فمن فعل الأولى وقع في الثانية، ومن ملك خطراته ملك بصره ومن ملك بصره ملك زمام نفسه . فهذه العادة الخبيثة وغيرها من الأفعال الجنسية الشنيعة هي مما يَرْنُق العيش، ويطيل السهد، ويقلق المضجع، ويغبر الوجه، ويشحب الجسم.

إن كانت الغُلْمَة [1] هاجت بكم ... فعالج الغلمة بالصوم

ليس بك الحب ولكنما ... تدور من هذا على الكوم

٤- أن تحرص على الزواج – والله في عون قاصد العفاف – أو الصوم بنية الاستعفاف، لقول النبي –ﷺ – : **" مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وأَحْصَنُ لِلفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ "** [2] .

٥- وأخيرًا، إذا أردت أن يصطفيك الله لمهمة، وإذا أردت أن يجتبيك الله لرسالة، فاحرص على العفة – كما اصطفى الله عثمان بن طلحة – وتعلم فضائلها، وتعرف على فوائدها وثمراتها، التي من أهمها : النجاة من الأمراض الجنسية، والظفر بالصحة وسلامة الجسم، وطهارة النفس والمجتمع، وقوة الإرادة والعزيمة، والسعادة الزوجية، وصيانة البيوت، والطمأنينة وراحة البال، وفوق كل هذا الفوز برضا الله وجنته .



(١) **الغلمة** هي الرغبة في الجماع .

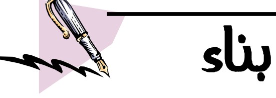
(٢) أخرجه البخاري : ١٧٧٢ .



القسم السابع

بناء الدولة

بناء المسجد



إن اللَّبِنَة الأولى التي ضُربت في الأرض ـ فور وصول الرسول ـ ﷺ ـ إلى المدينة؛ كانت في بناء المسجد.

كان البناء الأول، والمؤسسة الأولى، والمدرسة الأولى، والجامعة الأولى،...

***

بل لما دخل النبيُ ـ ﷺ ـ قُباءَ ـ في بني عوف ـ ومكث فيها بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، لما يخرج منها إلا وقد أسس مسجد قباء، ذلكم المسجد الذي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وقد أشار القرآنُ إليه بذلك، فقال الله تعالى:

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨].

وركبُ النبي ـ ﷺ ـ راحلته، من قباء إلى موضع المسجد النبوي في المدينة، فبركت ناقته الكريمة في هذا الموضع، وقد كان قبلَ بناء المسجد عبارة عن مساحةٍ أشبه بمخزن مفتوح لخزن التمر، وكانت هذه المساحةُ لغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي كفالة أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، وقد قَالَ رَسُولُ اللهَّ ـ ﷺ ـ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ المباركة:

" **هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُّ المُنْزِلُ !** "(١).

ثم دعا النبي ـ ﷺ ـ الغلامين؛ رغبةً منه في شراء هذه القطعة منهما لتيخذها مسجدًا؛ فَقَالا :" **لا؛ بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللهَّ؛ فَأَبَى صاحب الخُلق الكريم أَنْ يَقْبَلَهُا مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُا مِنْهُمَا ثُمَّ بَنَاهُا مَسْجِدًا** " (٢).

***

ثم طفق رسولُ الله ـ ﷺ ـ في إعداد قطعة الأرض هذه وتجهيزها للشروع في إقامة المسجد.

---

(١) انظر صحيح البخاري (٣٦١٦).

(٢) انظر صحيح البخاري (٣٦١٦).

✍ **وعملية التجهيز هذه هي :**

ـ قطع النخيل الموجود على هذه المساحة .

ـ إزالة قبور قديمة كانت للمشركين.

ـ تسوية الخِرب، وكانت بقايا مساكن قديمة.

***

وبدأت أعمال البناء، ورسول الله ـ ﷺ ـ ينقل الحجارة بنفسه مع أصحابه، ويقول :

" اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَهْ

فَارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ"(١)

يُسلي بها أصحابه، ويحمسهم ، وقد كانت هذه سنته في أعمال البناء أو الحفر، وقد فعل مثل ذلك في حفر الخندق؛ يُشاركهم بيده في الحفر، ويشاركهم بلسانه في ترديد الأناشيد؛ غير أنه ـ بأبي هو وأمي ـ لا يعرف الشعر، ولعله ذكر البيت فكسر وزنه أو أخل بقافيته؛ عمدًا منه أو عن غير عمد، وقد قال فيه ربه :

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]

تخيل نفسك وأنت تشاركه في بناء المسجد، يحمل كما تحمل، ويصنع كما تصنع، وفوق ذلك هو يحمسك ويلاطفك بأسلوبه العذب الفكه، وقد كان لطيفًا، بسّام المُحَيّا، سهلاً سمحًا، لين العريكة، يضع اللبنة بيده بينما ينظر إليك ويرتجز قائلاً :

"هَذَا الْحِمَالُ لا حِمَالَ خَيْبَرْ .. هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ "

يعني، هذا المحمول من قطع اللبن هو خيرٌ عند الله وأبر وأطهر من ثمار خيبر، أي، لا تكترث بشظف المدينة، ولا تحزن أنْ متع اللهُ الكافرَ بالنعمة، بينما المؤمن يكابد الفقر والحاجة .

ولعمر الله، لعله قال ذلك بمناسبة قطع هذه النخيل التي كانت مكان المسجد، فلئن خسرنا شيئًا من ثمرات هذه النخيل؛ فإن الثمرة الباقية الطاهرة هي في هذه اللبنات، هي ثمرةٌ خيرٌ من ثمار خيبر، هي ثمرةُ ربنا وهي أبر وأطهر، فهي لبنات لتأسيس مسجد سيتخرج فيه قادة العالم، وسادة الدنيا؛ تلاميذ محمد ﷺ .

---

(١) انظر صحيح البخاري (٣٦١٦) .

✍ **فيقول أحدهم ردًا على النبي ـ ﷺ ـ :**

لئن قَعَدْنا والنبي يَعْمَل ** لذاك مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّل

هذا النبي الكريم، وهو فوق سن الخمسين، قد التف الشباب من حوله؛ جُلهم تحت سن الثلاثين، وهو يعمل معهم، يدًا بيد، لا يأنف ولا يستنكف، وهذه الصورة وحدها تجعلك تستحي أن تتوقف عن العمل لحظة واحدة، هذا المشهد دفع هذا القائل إلى هذه القولة مبديًا حالة الضلال التي ستنال القاعد والنبي يعمل .

✍ **فرد عليه المسلمون هم يبنون :**

لا عَيْشَ إلا عَيْشَ الآخِرَهْ ... اللَّهُمّ ارْحَمْ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ

لقد أبرمنا البيعة، وعقدنا الصفقة، وتاجرنا مع الله تعالى، فلا عيش إلا عيش الآخرة، ما لنا وثمار خيبر، أو تمر هجر، أو زبيب الشام، نحن باعينا على الجنة .

***

وتجلت أخلاق التواضع الإسلامية في هيئة المسجد النبوي، فلم يُزخرف ولم يصفر ولم يُحمر، بل كانت أرضه الحصباء، وسقفه الجريد، بل لم يكن مسقوفًا كله، فجزء به سقف وجزء من غير سقف، وقد كان الجزء المسقوف يُسمي الصُفة، يجلس تحته فقراء المسلمين.

***

وتشاور النبيُ ـ ﷺ ـ مع أصحابه في إيجاد وسيلةٍ إعلامية لجمع الناس عند كل صلاة، وطفقوا يعرضون أفكارهم ومقترحاتهم، وكأنما أحسوا بلذة عبادة التفكير من أجل دين الله، فمنهم من اقترح رفع راية عالية ليراها الناس عند كل صلاة فيجتمعوا في المسجد، ويبدوا أن صاحب هذه الفكرة صنديدٌ له ميولٌ عسكرية شديدة، جعلته يفكر في ذلك تأسيًا بالراية التي تجمع الجند حولها..

وآخر يقترح إشعال النيران على مرتفعٍ من الهضاب يراها الناس، وهي فكرة تحاكي طريقة المجوس . يبدو أن سلمان الفارسي هو صاحب هذه الفكرة !

وثالثٌ اقترح فكرة البوق الإعلامي؛ حيث يُنفخ فيه عند كل صلاة، وهي طريقة اليهود في معابدهم، وكانت جميع هذه المقترحات مرفوضة مردودة لعلةٍ واحدة؛ هي التقليد، فالمسلمون ينبغي أن يكونوا متميزين، لهم خصوصياتهم، ولاسيما في الأمور

التعبدية، لذا كان المقترح المقبول الذي أيده الله من السماء هو ذلك المقترح الجديد الذي لم يسبق إليه أحد، ذلك هو الأذان.

وارتبطت هذه الفكرة بعبدالله بن زيد صاحب الفكرة، وقد نام ليلتها مهمومًا مشغولاً بهذه القضية، يريد هو الآخر أن يقدم فكرته للنبي ـ ﷺ ـ، وقد علمتَ أن الرؤى والأحلام هي جزءٌ من اهتمامات الإنسان، فمن أهمه شيءٌ؛ فكثيرًا ما يَرى رؤيا تتعلق بما أهمه، كمن نام على ظمإٍ فرأى مروجًا وأنهارًا، أو كالذي نام على شوقٍ لأخ من إخوانه فرآه في المنام،كذا هذا الصحابي الجليل نام على هم الأمة، ورقد إلى فراشه وقد أثخنته مشكلات رسالته، وقد أرقته كثيرًا هذه القضية، كيف نجمع الناس للصلاة ؟ فلم يتكل على اقتراحات المقترحين، بل لم ينتظر أن يتنزل في هذا الشأن آيات بينات أو حسمًا سريعًا من النبي نفسه وهو الذي يأته الوحي من السماء، ولم يقل مثلاً : " **البركة في إخواننا نتركهم يفكرون ويخططون، فهم أكثرُ منا فهمًا، وأعلى منا كعبًا، وأسبق منا قدمًا**".. وغير ذلك من كلام السلبيين الوادعين الحالمين.

إن هؤلاء الرجال كانوا على قدر عالٍ من الشعور بالمسئولية نحو دينهم ودعوتهم وأمتهم، رغم أن الله متعهم بحياة النبي ـ ﷺ ـ .

إن هؤلاء الرجال كانت لهم طبيعة عجيبة في أخلاق الإيجابية النشطة، وسلوكيات الذاتية المتفردة.

لقد كانوا أصحاب مخترعات وابتكارات ..

كانت لهم فطرة سليمة، وطريقة رشيدة، وجبلة موزونة، كان لهم ذكاء وقاد، وفكر ثاقب، وبصيرة مبصرة، وألمعية مهذبة، وهمة عالية.

***

ويبدو لك ولي من هذا الجو؛ أن السمة السائدة بين الصحابة في عملهم الإسلامي هي سمة الإبداع، وتشجيع الابتكار في كل ما يخدم الدين من وسائل ومسائل .

قد خسر الذين تحجروا واسعًا في أمر الإبداع للدين وخلطوا بين الابتداع في الدين والإبداع له، ولو ترى الذين حرَّموا "**النت**" حينما ظهر، وحرموا التلفاز حينما اُخترع، ولعلك تعجب من كون هذا قد حدث، وهو كما تعلم له من الأثر السلبي المريع على

سمعة الدين وسمعة المؤمنين. وإنْ تعجب فعجبٌ صنيعهم أنْ هم، هم ، من قاموا بعد ذلك بإنشاء موقع شخصي لهم على الإنترنت، وهم، هـم، مـن ظهـورا عـلى شاشـات الفضائيات وشاركوا ببرامج وفقرات .

***

✍ **الدور الحقيقي للمسجد :**

... وأُقيم المسجد النبوي بأطهر السواعد، وسجدت فيه أطهر الجباه، وكان المسجد عامرًا صباح مساء، تقلب ناظريك فيه فترى رجلاً ساجدًا، وآخر يقرأ منفردًا، وثلةً قد جلست وحلَّقت يتدارسون سورة من القرآن، بينما جلس النبي ـ ﷺ ـ إلى وفـد مـن النصارى يعرض عليهم الإسلام، كان المسجد مؤسسة إسـلامية جامعـة، فيهـا تقـام الصلاة، وفيها يعقد مجلس الشورى، وفيها تعقد الألوية، ومنها تنطلق الجيوش، وفيها مجالس العلم، ومجالس الذكر، ومجالس القضاء، ومجالس الصلح، والأفراح والعُرس، والرياضة والمصارعة، وفيها يُستقبل الجرحى والمصابين للمعالجة، وفيها يلتقـي قائـد الأمة بالوزراء والسفراء والوفود والشعراء.

***

فأحرى بنا أن نعيد للمساجد دورها، وأن نجعل منها مؤسسات تربوية جامعة لا صوامع محظورة خاوية .

إنَّ الذين حظروا المسجد، وحجموا دوره، وغيبوا رسالته، وقيدوا رجاله وأئمتـه، سينالهم غضب من الله، وعذاب بئيس في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالخزي والصغار والعار، وفي الآخرة بالعذاب والنار والدمار..

✍ **قال الله تعالى فيهم :**

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[البقرة:١١٤]

علينا أن نعيد الحياة الإسلامية الشاملة لبيـوت الله ولا نخـشى في الله لومـة لائـم، ذلك لتعلم؛ أنه لا نهضة لهذه الأمة ولا تقدم لها ولا رفعة إلا برجال ربـانيين تخرجـوا

من جامعة المسجد، ذلك لتعلم؛ أن النهضة الإسلامية القادمة والتي أوشكت على الظهور ستخرج بإذن الله من مساجد الله.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨]

توصيات عملية

١ـ شارك مع أصدقائك في عقد مقرأة أوحلقة مسجدية أسبوعية لمدارسة العلوم الشرعية بمسجد من المساجد القريبة منكم، وحبذا لو استضفتم فيها شيخًا ولو بأجر .

٢ـ لتنصح من أقبل على الزواج بإشهار عقد زواجه في بيت من بيوت الله، في حفل إسلامي بهيج، فيه خطبة النكاح العربية الأصيلة، وفيه أنشودة الزفاف الإسلامية العفيفة .

٣ـ ساهم في مشاريع دعوية مسجدية مثل مشاريع " **تحفيظ القرآن** "، " **حلقات محو الأمية للكبار**"، " **حلقات دروس اللغة العربية** "، وكفالة الأيتام، وصندوق الزكاة، وتزويج المساكين، ومشروع دروس التقوية الخصوصية لأبناء الفقراء، وغيرها من المشاريع التي تسهم في إحياء دور المسجد.

٤ ـ تفعيل فكرة " **ظل الشيخ** "، وهي أن تصاحب شيخ المسجد، وتمده بالجديد من إصدارات الدعوة، وترشده إلى أنسب الموضوعات، وتتحفه بأطايب الأطروحات، وتُبصره بطبيعة جمهوره، وتناقشه في إيجابيات وسلبيات خطبته، وردود أفعال الجماهير على درسه وموعظته.



حلف المطيبين وحلف الفضول

✍ **المؤاخاة**

"تَآخَوْا فِي اللهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ"[١].

بهذه التوصية النبوية الكريمة كانت بداية المجتمع الإسلامي الجديد في المدينة المنورة بُعيد بناء المسجد النبوي، فشرع رسول الله ﷺ يمزج بين عنصري الأمة الإسلامية الناشئة، المهاجرين والأنصار، مزجًا شديدًا، بمزاج غليظ، وبرباط وثيق .. إنه رباط **" الإخوة في الإسلام "** .

فقرر أن يكفل كُلُّ أنصاري مهاجرًا، فيغنيه مما يحتاجه من لوازم الدنيا، من مأكل ومسكن وخلافه .

وأن يكفل كل مهاجر أنصاريًا، فيغنيه مما يحتاج من لوزام الدين، من تزكية، وتعلم الكتاب والحكمة.

وتبلغُ الأخوةُ ذروتها وأعلى مراتبها؛ حين قرر الشرع السمح ـ في بادىء الأمر ـ أن يرث كل منهما الآخر، ثم نسخ هذا الحُكم، لما تحققت أهداف الأخوة.

✍ **ثنائيات في الله !**

وعلى إثر التنبيه النبوي الكريم (**تَآخَوْا فِي اللهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ**)؛

كان أبو بكر الصديق، وخارجة بن زهير، أخوين.

وعمر بن الخطاب، وعتبان بن مالك، أخوين.

وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح، وسعد بن معاذ ، أخوين .

وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع، أخوين .

والزبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وقش، أخوين .

وعثمان بن عفان ، وأوس بن ثابت ، أخوين .

وطلحة بن عبيد الله ، وكعب بن مالك ، أخوين .

وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وأُبيّ بن كعب أخوين.

ومصعب بن عمير ، وأبو أيوب خالد بن زيد، أخوين.

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٠٤ .

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعباد بن بشر بن وقش ، أخوين .

وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان،أخوين .

وبلال بن رباح وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي ، أخوين(١) .

وهذا غيض من فيض، من هذه الثنائيات الأخوية، التي لم تكن من اختيار أحد، سوى رسول الله – ﷺ – ، الأمر الذي جعل المهاجرين والأنصار على قدر مسئولية الأخوة، يحملون تبعتها، ويؤدون حقوقها، ويقومون بواجباتها، فأخذ كل أخ يتفانى في خدمة أخيه، ويبذل قصارى القصد في إكرامه، ونهاية الجهد في إسعاده، وكانت صفة الأنصار كما قال الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[الحشر:٩]

وقال عنهم : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾[الأنفال:٧٤]

فكان من روائع تلك الأخوة الإيمانية ما كان بين سعد بن الربيع الأنصاري وعبد الرحمن بن عوف المهاجري، إذ قال الأول للثاني : أي أخى ! أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر مالى فخذه، وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها. فقال عبدالرحمن – في عفة – : بارك الله لك في أهلك ومالك !! دلوني على السوق.

فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح فجاء بشئ من أقط وسمن، وتزوج امرأة من الأنصار(٢).

وقال المهاجرون معلقين على صنيع إخوانهم الأنصار :

" يا رسول الله ! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله " .. فقال – ﷺ – :

" لا ! مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ "(٣)

---

(١) انظر : ابن هشام ١/ ٥٠٥، ٥٠٦ ، والبخاري (٣٦٤٤) .

(٢) انظر : ابن كثير (السيرة) ٢/ ٣٢٧، ٣٢٨ .

(٣) ابن كثير (السيرة) ٠٢/ ٣٢٨، وأحمد (١٢٦٠٢) .

✍ **نُقباء في الأخوة**

وفي ثنايا أحداث التآخي العظيمة، مات أسعد بن زرارة الأنصاري – رضي الله عنه – وهو يشارك في بناء المسجد النبوي، وقد كان أسعد بن زرارة نقيب إخوانه وأهلـه، لعلمه وخلقه ومكانته .

فاجتمعت بنو النجار إلى رسول الله –ﷺ – وكان أسعد بن زرارة نقيبهم فقالوا له : يا رسول الله إن هذا قد كان منا حيث قد علمت فاجعل منا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم .

✍ **فقال** - ﷺ - **لهم : " أنتم أخوالي ، وأنا بما فيكم ، وأنا نقيبكم "** .. وكره رسول الله –ﷺ – أن يخص بها بعضهم دون بعض فكان من فضل بني النجار الذي يعدون على قومهم أن كان رسول اللهﷺ نقيبهم [1] .

وهو جانب من مظاهر التآخي التي أخذ رسول الله –ﷺ – على عاتقه في ترسيخ معانيها، وتطبيق مراميها .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحُجُرات:١٠].

✍ **نعمة عظيمة**

وقد امتن الله على المسلمين الأوائل بأن جمع لهم شملهم، وجمع قلوبهم، وألف بينهم، وذلك لعظيم نعمة الأخوة في الله، التي جعلها الله ركنًا من أركان النصر:

✍ **قال تعالى :**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢،١٠٣].

✍ **قوة الأخوة أقوة من قوة المال :**

وقد بين المولى ـ تبارك وتعالى ـ المقدار المادي للأخوة في مقاييس الناس، فذكر أن مال الدنيا ومال ملوكها لا يعدل شيئًا في قوة الأخوة، .. وأن الأخوة تصنع ما لا يصنعه المال .. وأن الأخوة أنجع أثرًا، وأحسن ثمرة من أثر وثمر المال :

---

(١) انظر : ابن هشام ١/ ٥٠٧، ٥٠٨ .

✍ **قال الله تعالى :**

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٣]

✍ **تعاليم الأخوة**

ولقد كان رسول الله –ﷺ– يعِّلم المسلمين الأخوة كما كان يعلمهم الصلاة، حتى روى عنه الرواةُ مئاتُ الأحاديثِ في فضل الأخوة وحقها وآدابها ..

وهاك نماذج من تعاليم المصطفى –ﷺ– في الأخوة الإسلامية، التي جعل الإسلامُ منها عبادة في الدنيا، وظلال تحت عرش الله يوم القيامة، ومجالس كرامة جنات الخلد ـ نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الفردوس الأعلى ـ :

١- جسد واحد

روى النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عن رسول الله –ﷺ– أنه قال :

" **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**"[١].

٢- رجل واحد

قال النبي –ﷺ– : " **الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ**"[٢] .

٣- في ظلال العرش

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهَ –ﷺ– : " **إِنَّ اللهَّ تَبارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ لِجَلَالِي ؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي .**"[٣] .

٤- في محبة الله !

وعن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله –ﷺ– يقول :

" **قال الله تعالى : وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**"[٤] .

---

(١) أخرجه مسلم (٤٦٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤٦٥٥).

(٤) أخرجه أحمد (٤٨ / ١٢٩) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم ٥٠١١ .

٥- في زمرة الأنبياء والشهداء

وقال النبي –ﷺ –: " **يقول الله تعالى : الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ** "[١].

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله –ﷺ –" **ليبعثن الله أقوامًا يوم القيامة في وجوههم النور، على منابر اللؤلؤ ، يغبطهم الناس، ليسوا بأنبياء ولا شهداء** ". قال : فجثا أعرابي على ركبتيه، فقال : يا رسول الله حلهم لنا نعرفهم ! قال : " **هم المتحابون في الله من قبائل شتى وبلاد شتى، يجتمعون على ذكر الله يذكرونه** "[٢] .

٦- استكمال الإيمان :

وعن أبي أمامة أن رسول الله –ﷺ – قال :

"**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**"[٣] .

٧- في حلاوة الإيمان :

وعن أنس أن النبي –ﷺ – قال :

"**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**" [٤].

٨- طريق إلى الجنة

وعن أبي هريرة أن رسول الله –ﷺ – قال :

"**لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**"[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وصححه الألباني .
(٢) أخرجه الحاكم (٤ / ١٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم ١٥٠٩ .
(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٦١) وصححه الألباني .
(٤) أخرجه البخاري (١٥) .
(٥) أخرجه مسلم (٨١) .



١ – أن تتآخى مع إخوان المسجد .. واستحضر في ذلك معاني الأخوة وثوابها الفضيل.

٢ –وليكن لك أخ يعينك على الطاعة، تتعرف عليه ويتعرف عليك، تفهمه ويفهمك، تكفله ويكفلك، فعلاقة الأخ بإخوانه علاقة تعارف مستمر، وتفاهم واعي، وتكافل شامل.

٣ – انضبط بآداب الأخوة، وأد حقوقها، كما في الحديث الشريف ، "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ " .. قيل : وما هن يا رسول الله ؟

قَالَ :" **إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَسَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ**"[١] .

٤ – المداومة على زيارة الإخوان، والتحرك والسير لأجل ذلك، فعن النبي –ﷺ – : "**أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ؟ قَالَ : لا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ : فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ؛ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**"[٢] .

٥ – أن تخبر أخاك بحبك له، فتقول : " **إني أحبك في الله** "، قال رسول الله –ﷺ – "**إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**"[٣]، وعن أنس أَنَّ رَجُلاً كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ –ﷺ – فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ هَذَا ! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ –ﷺ – : "**أَعْلَمْتَهُ ؟**" .. قَالَ :لا، قَالَ : " **أَعْلِمْهُ** "، فَلَحِقَهُ فَقَالَ : إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ ! فَقَالَ : أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ[٤] .

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٢٣) .
(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥٦) .
(٣) أخرجه أبو داود (٤٤٥٩) وصححه الألباني .
(٤) أخرجه أبو داود (٥١٢٥)، وحسنه الألباني .

وقد قال رسول الله -ﷺ- لمعاذ : **"يَا مُعَاذُ! وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ! وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ !! "**[1] .

٦- تخلَّق بخلق الإيثار مع إخوانك، فإن قلتَ ما الإيثار، قلتُ : اقرأ هذا المثال :

قال حذيفة العدوي : انطلقت يوم اليرموك [**المعركة**] أطلب ابن عم لي ، ومعي شيء من الماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ، فإذا أنا به فقلت له : أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم ، فإذا أنا برجل يقول : آه آه ، فأشار إلي ابن عمي أن أنطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك؟ فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول آه آه . فأشار هشام أن أنطلق إليه فجئته ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات .



(١) أخرجه أبو داود (١٣٠١)، وصححه الألباني .

دستور الدولة

في الفترة ما بين أغسطس ٦٢٢ ويونيو ٦٢٤م، بعد الهجرة وقبل معركة [٢ هـ]، كتب النبي ـ ﷺ ـ وثيقةً ـ أو بمعنى عصري دستورًا ـ لدولة المسلمين بالمدينة، تضمن هذا الدستور على نيِّفٍ وأربعين بندًا، غالبها في تنظيم الشأن الداخلي للأمة الإسلامية، واشتملت على بنودٍ تُقنن العلاقات بين جميع طوائف وفصائل المجتمع المدني؛ مهاجرين وأنصارًا، ويهودًا ووثنيين، وقد نصت هذه البنود بشكل صريح في ضرورة تكاتف جميع الفصائل والطوائف في صد وردع أي عدوان على المدينة المنورة، كما أكدت على أُسسٍ غاية في الأهمية ـ لأي دولة ناشئة ـ؛ فأكدت على أن الحاكمية لله ورسوله، وأن المرجعية لله ورسوله، وأن المسلمين أمة واحدة من دون الناس، وأكدت على ضرورة إقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح، الأخوة، والقسط، والعدل، والتكافل الاجتماعي على مستوى الأسرة والقبيلة والدولة، كما نصت على حُرمة المدينة المنورة، وحُرمة الاتصال بقريش ومعاونتهم، وحُرمة الغدر والخيانة والخروج على الجماعة . وقد درسها المستشرق الروماني جيورجيو (**المولود عام ١٩١٦**)، فأُعجب بها أيما إعجاب، وكتب عنها كلمة سائرة في كتابه "**نظرة جديدة في سيرة رسول الله**" ـ الذي ترجمه الدكتور محمد التونجي [ص ١٩٢] ـ، فقال :

"وقد حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بنداً ، كلها من رأي رسول الله . خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى ، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان . وقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم ، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء . وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة، أى عام ٦٢٣م . ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده".

***

وقد بذل العلامة الأستاذ محمد حميد الله جهدًا مشكورًا في تحقيق وثيقة المدينة هذه، ورتبها وضبطها وأوردها في كتابه مجموعة الوثائق السياسية بشكل لفت عناية الباحثين إلى ضرورة الاهتمام بهذه الوثيقة التي يعتبرها البعض مفخرة من مفاخر الحضارة الإسلامية .

كما كُتبت عدة دراسات وبحوث في هذه الوثيقة، تعرض لمجموعة القيم القانونية والحضارية التي حازت وثيقة المدينة قصب السبق فيها.

وإليك، قارئي، هذه الإشارات السريعة على بعض بنود هذه الوثيقة التارخية:

✍ الأطراف المعنية

"هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل يثرب) ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم." [1].

✍ المسلمون أمة

"إنهم أمة واحدة من دون الناس."[2] .

✍ المرجعية في الحكم إلى الشريعة الإسلامية :

"وَإِنّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنّ مَرَدّهُ إلَى اللهّ عَزّ وَجَلّ وَإِلَى مُحَمّدٍ ـﷺ ـ"[3].

"وَإِنّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنّ مَرَدّهُ إلَى اللهّ عَزّ وَجَلّ وَإِلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ اللهّ ـﷺ ـ وَإِنّ اللهّ عَلَى أَتْقَى مَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَأَبَرّهِ"[4] .

✍ التكافل الاجتماعي

"المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

" وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

"وبنو الحارث (بن الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف.

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٠١ .
(٢) ابن هشام ١/ ٥٠١ .
(٣) ابن هشام ١/ ٥٠٢ .
(٤) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

"وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

"وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

"وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

"وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

"بنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

"وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين."[١].

✍ الموساة بين المسلمين

" وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ لا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ[٢] أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ"[٣] .

✍ حماية أهل الذمة

"وَإِنّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنّ لَهُ النّصْرَ وَالأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ"[٤] .

وهو أصل في رعاية أهل الذمة، والمعاهدين، و الأقليات غير الإسلامية التي تخضع لسيادة الدولة الإسلامية .. فلهم حق النصرة على من رامهم أو اعتدى عليهم بغير حق سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، من داخل الدولة أو من خارجها .

✍ المساواة بين الأقليات

"وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٠١ .

(٢) والمفرح هو المثقل بالدين والكثير العيال .

(٣) ابن هشام ١/ ٥٠١ .

(٤) ابن هشام ١/ ٥٠٤ .

" وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

"وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

"وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

"وإن ليهود بن جشم مثل ما ليهود بني عوف .

"وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

"وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتـغ إلا نفسه وأهل بيته"(١).

✍ حُرمة المدينة شرفها الله :

"وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة"(٢).

✍ حُسن الجوار:

"وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم."(٣)

✍ احترام أمان المسلم :

"وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم مـوالي بعـض دون الناس."(٤).

فلأي مسلم الحق في منح الأمان لأي إنسان، ومن ثم يجب على الأطراف أن تحترم هذا الأمان، وأن تجير من أجار المسلمُ، ولو كان المجير أحقرهم.

فيُجير على المسلمين أدناهم، بما في ذلك النساء، وقد قال النبي -ﷺ- لأم هانئ:" **أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمّ هَانِئٍ** "(٥) .

✍ الأمن الاجتماعي وضمان الديات :

"وَإِنّهُ مَنْ اعْتَبَطَ [أي قتل] مُؤْمِنًا قَتْلاً عَنْ بَيّنَةٍ فَإِنّهُ قَوَدٌ بِهِ إلّا أَنْ يَرْضَى وَلِيّ الْمَقْتُولِ (بالعقل)، وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافّةٌ، وَلا يَحِلّ لَهُمْ إلا قِيَامٌ عَلَيْهِ"(٦) .

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٠١ .

(٢) ابن هشام ١/ ٥٠١ .

(٣) ابن هشام ١/ ٥٠١ .

(٤) ابن هشام ١/ ٥٠١ .

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٤) .

(٦) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

وبهذا أقر الدستورُ الأمنَ الاجتماعي، وضمنه بضمان الديات لأهل القتيل، وفي ذلك إبطال لعادة الثأر الجاهلية ، وبين النص أن على المسلمين أن يكونوا جميعًا ضد المعتدي الظالم حتى يحكم عليه بحكم الشريعة ..

✍ الدعم المالي للدفاع عن الدولة مسؤولية الجميع :

"وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. "[1] .

فعلى كل الفصائل بما فيها اليهود أن يدعموا الجيش ماليًا وبالعدة والعتاد من أجل الدفاع عن الدولة، فكما أن المدينة وطن لكل الفصائل، كان على هذه الفصائل أن تشترك جميعها في تحمل جميع الأعباء المالية للحرب.

✍ الاستقلال المالي لكل طائفة :

"وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم"[2] .

فمع وجوب التعاون المالي بين جميع طوائف الدولة لرد أي عدوان خارجي، فإن لكل طائفة استقلالها المالي عن غيرها من الطوائف.

✍ التضامن ضد الخائنين

"وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْم، أَوْ إثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ"[3] .

✍ وجوب الدفاع المشترك ضد أي عدوان :

"وإن بينهم النصر على من دهم يثرب. "[4]

"وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة"[5] .

وفي هذا النص دليل صريح على وجوب الدفاع المشترك، ضد أي عدوان على مبادىء هذه الوثيقة .

وبموجب هذا النص حُكم بالإعدام على مجرمي قريظة – بعد معركة الأحزاب (**في ذي القعدة ٥ هـ/ إبريل ٦٢٧ م**) - ، لما تحالفوا مع جيوش الأحزاب الغازية للمدينة،

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

(٢) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

(٣) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

(٤) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

(٥) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

وبغوا وخانوا بقية الفصائل، رغم أنهم أبناء وطن واحد !

✍ **النصح والبر بين المسلمين واليهود :**

✍ **وجاء في هذا الأصل :**

"وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم "(١)

فالأصل في العلاقة بين جميع طوائف الدولة – مهما اختلفت معتقداتهم– هو النصح المتبادل، والنصيحة التي تنفع البلاد والعباد، والبر والخير والصلة بين هذه الطوائف.

✍ **حرية كل فصيل في عقد الأحلاف التي لا تضر الدولة**

"وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه"(٢)

✍ **وجوب نصرة المظلوم :**

"وإن النصر للمظلوم. "(٣)

✍ **تحريم التعاون مع الإعداء ضد المسلمين :**

"وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها"(٤) .

✍ **حق الأمن لكل مواطن :**

" إنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول ."(٥) .

✍ **حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر مكفولة لكل فصائل الشعب:**

"وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأَثِم فإنه لا يُوتغ [أي يهلك] إلا نفسه وأهل بيته. "(٦) .



اكتب مقالة حول أهم المبادىء والأسس التي تناولها الدستور الإسلامي بالمدينة والمنورة.

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

(٢) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

(٣) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

(٤) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

(٥) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

(٦) ابن هشام ١/ ٥٠٣ .

بداية الحقد اليهودي

عن أم المؤمنين صَفِيّةَ بِنْتِ حُيَـيّ بْـنِ أَخْطَـبَ – زعـيم اليهود – أَنّهَا قَالَتْ :

" كُنْت أَحَبّ وَلَدِ أَبِي إلَيْهِ وَإِلَى عَمّي أَبِي يَاسِرٍ لَمْ أَلْقَهُمَا قَطّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا إلا أَخَذَانِي دُونَهُ .فَلَمّا قَـدِمَ رَسُـولُ اللّهِ – ﷺ – الْمَدِينَةَ ، وَنَزَلَ قُبَاءَ، فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، غَدَا عَلَيْهِ أَبِي ، حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ ، وَعَمّي أَبُو يَـاسِرِ بْـنِ أَخْطَـبَ ، مُغَلّسَيْنِ . فَلَمْ يَرْجِعَا حَتّى كَانَا مَعَ غُـرُوبِ الـشّمْسِ . فَأَتَيَـا كَالّيْنِ كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى . فَهَشِشْتُ إلَيْهِمَا كَمَا كُنْـتُ أَصْـنَعُ فَـوَاَللّهِ مَـا الْتَفَتَ إلَيّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا ، مَعَ مَا بِهِمَا مِنْ الْغَمّ . وَسَمِعْت عَمّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُـوَ يَقُـولُ لِأَبِي حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ :

-أَهُوَ هُوَ ؟

-قَالَ : نَعَمْ وَاَللّهِ !

- قَالَ : أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ ؟

- قَالَ :نَعَمْ !

قَالَ : فَمَا فِي نَفْسِك مِنْهُ ؟

قَالَ : عَدَاوَتُهُ وَاَللّهِ مَا بَقِيتُ (!!!) "(١).

✍ سر العداء والحقد والحسد !

إنه حوار ترويه أم المؤمنين صفية – رضوان الله تعالى عليها – عن حال أبيها وعمهـا – زعيما يهود بني النضير – يوم دخل رسول الله – ﷺ – مهاجرًا – وقد استقبله الأنصار استقبال الفاتحين – وإن كان هو سيد الفاتحين – صلوات الله وسلامه عليه – .

وكان اليهود يتادرسون صفة النبي – محمد – ﷺ – في كتبهم

ويستفتحون باسم خاتم الأنبياء على المشركين في الحروب والنزاعات قائلين :

" تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم " (٢) .

---

(١) ابن هشام١/ ٥١٩، ٥٢٠ .

(٢) ابن هشام ١/ ٢١١.

✍ **قال بعض الأنصار معلقًا:**

فلما بعث الله رسوله-ﷺ - أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة :

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) [1] .

وما منعهم أن يأمنوا إلا حسدًا من عند أنفسهم، وحقدًا، تزول منه الجبال.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:١٠٩]

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٥٩]

وكيف كان حال حيي بن أخطب وأخيه ياسر - لما كان يوم دخول رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة ـ لقد كانت صفتهم كما وصفت صفية:

"كَالَّيْنِ كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى ...مَعَ مَا بِهِمَا مِنْ الْغَمّ"

نعم ..

لقد أصابهم التعب النفسي والكسل والنصب والغم ! لمجرد أن تبينت لها الحقيقة :

أن خاتم الأنبياء ليس منهم ..

وهذه وحدها كفيلة أن تلهب القلب بالحقد والسحد والنقمة على المسلمين حتى قيام الساعة !

لقد تآمروا على الأنبياء الذي كانوا من نسل " إسرائيل " أمثال زكريا – عليه السلام –.

لقد قتلوا بعض الأنبياء الإسرائيليين أمثال " يحيى " – عليه السلام – وقدموا رأسه هدية إلى إحدى البغايا !

---

(١) ابن هشام ١/ ٢١١ .

فكيف سيكون حال تلك النفوس الشريرة مع " محمد " – صلى الله عليه والسلام – ذلك النبي العربي الذي لا ينتسب إلى اليهود أو إلى " إسرائيل " ؟ !

لاشك أن الحقد سيكون أغور، والعداء أشد، والحسد أكبر ، على هذه النعمة العظيمة التي اختص بها رب العالمين العرب بأن جعل منهم خاتم الأنبياء، وقد كانت النبوة فيما مضى في بني إسرائيل ردحًا من الزمن حتى خانوا وبغوا :

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

[البقرة:١٠٥]

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[البقرة:٩٠]

✍ **وقد صدق فيهم قول رسول الله – ﷺ - :**

" إن اليهود قوم حُسَّد "[1].

ولقد بلغ من حسدهم أنهم يحسدون المسلمين على بعض الشعائر – كما قال المصطفى – ﷺ – :

" إن اليهود ليحسدونكم على السلام و التأمين " [2].

يعرفون الحقيقة

وتتابع صفية - رضي الله عنها – الحوار، فتكشف النقاب عن تلك الحقيقة الكبيرة عند اليهود ..

الحقيقة هي .. أن اليهود يعرفون الحقيقة !

كالشمس في رابعة النهار، وأنهم يعرفون رسول الله – محمدًا – كما يعرفون أبنائهم :

يقول ياسر لحُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ :

-أَهُوَ هُوَ ؟

✍ **قَالَ : نَعَمْ وَاَللّهِ !**

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٥٨٥) ، وهو في السلسلة الصحيحة، برقم ٦٩١ .

(٢) أخرجه الخطيب (١١/ ٤٣) ، وهو في السلسلة الصحيحة، برقم ٦٩٢ .

✍ **قَالَ : أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ ؟**

✍ **قَالَ : نَعَمْ !**

إنهم يعرفونه، ويثبتونه، في الوقت الذي يبذل فيه الجاهل الجهد المضني لتتأكد له نبوة محمد، بمعجزة أو آية بينة محسوسة .

إنهم يعرفونه، والعالم لا زال يبحث في شأنه ما بين متشكك ومكذب، وقليلاً ما يؤمنون..

إنهم، الذين قال الله فيهم : ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:١٤٦]

✍ **وقال عنهم:**

﴿ **ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأنعام:٢٠]

إنهم ﴿ **يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ** ﴾ [الأعراف:١٥٧] .

وقد وقف رسول الله – ﷺ – فيهم خطيبًا، فقال :

"يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ! وَيْلَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ ! فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ، فَأَسْلِمُوا" (١) .

وقد صَدق فيهم قول الحبر العلامة عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – وقد كان أحد علماء اليهود فأسلم – :

" يا رسول الله ! إن اليهود قوم بهت" (٢) .

✍ **" عَدَاوَتُهُ وَاللَّهِ مَا بَقِيتُ " ... عداوة حتى النخاع :**

✍ **قَالَ** ياسر بن أخطب لأخيه : فَمَا فِي نَفْسِك مِنْهُ ؟

✍ **قَالَ : عَدَاوَتُهُ وَاللَّهِ مَا بَقِيتُ (!!!)**

في يوم واحد بلغ حقده على محمد ـ ﷺ ـ حتى النخاع، وأشرب كره محمد ـ ﷺ ـ حتى الثمالة، وقد أوشك الفاجر أن يسقط على الأرض من شدة الإعياء النفسي والغم والهم لمجرد أن رأى رسول الله ـ ﷺ ـ وقد أكرمه الله بالأنصار وأكرم الأنصار به .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢١) .

(٢) أخرجه البخاري (٤١٢٠) .

فلن يتوقف العداء ما دام حيٌّ باقٍ وفيه عين تطرف وقلب يخفق، إن كل شهقة من شهقات صدره تدخل بكره محمد ـ ﷺ ـ ، وإن كل زفرة من زفرات نفسه تخرج بكره محمد ـ ﷺ ـ ، وبين الشهقات والزفرات قلب، مُربد ، مظلم، ينبض بكره محمد ـ ﷺ ـ .

✍ **"عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بَقِيتُ" .. لن يرضوا أبدًا .**

فلن يرضى عن محمد أبدًا ..

ولن ترضى اليهود عن المسلمين ما بلّ بَحْرٌ صوفةً، وسَرَى نجمٌ وهبّت ريح، وخالفت جِرّةٌ دِرَّةً .

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠]

✍ **قال الإمام الطبري :**

"وليست اليهود ، يا محمد ، ولا النصارى براضية عنك أبدا ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم. ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم، لأن اليهودية ضد النصرانية ، والنصرانية ضد اليهودية ، ولا تجتمع النصرانية واليهودية" (١) .

"عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بَقِيتُ " .. أشد الناس عداوة

✍ **قال الله تعالى :**

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ ﴾ [المائدة:٨٢]

فهم أشد الناس عداوة للإنسانية، ذلك بأنهم يعتبرون ما سواهم من البشر كلابًا أو " **جويم** " .

فإذا كانت هذه عداوتهم لبني الإنسان جميعًا؛ فكيف حال عدائهم للمسلمين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٥] .

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٥٦٢ .

" ليس علينا في الأميين سبيل " .. فعندهم : سرقة بني الإنسان – من غير اليهود – حلالاً، وقتل بني الإنسان – من غير اليهود – حلالاً، وهتك عرض بني الإنسان – من غير اليهود– حلالاً ..

وهم، أعداء البشر، يصدون عن سبيل الحق، وهم رواد صناعة الربا، وهم أكلة أموال الناس بالباطل، وهم صناع المال الخبيث وأكلته، وواقع الاقتصاد العالمي خير دليل، واقرأ إن شئت كتاب **" أحجار على رقعة الشطرنج "** .

قال الله تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٠،١٦١]

وقال :

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

[المائدة:٦٢].

وقال عنهم رسول الله – ﷺ – :" **لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الشُّحُومُ فَجَمَّلُوهَا فَبَاعُوهَا**"[1] .

" وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالى، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل، ويمتنعون عن أدائه وكانوا يقولون : إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل ..كانوا يفعلون كل ذلك على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ " [2] .

✍ **"عَدَاوَتُهُ وَاللّهِ مَا بَقِيتُ " .. قلوب قاسية .. وجبانة .**

ولِـمَ لا ! فهي عداوة نابعة من قلوب قاسية، غليظة، هي أقسى من الحجارة، وأصلد من الصخر ..

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠١) .

(٢) الرحيق المختوم ٢٧٥ .

✍ **فقال الله عنهم :**

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:٧٤].

✍ **وقال أيضًا :**

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ ﴾ [المائدة:١٣]

ومع هذه القسوة الشديدة تراهم أشد الناس جبنًا، وهلعًا ، وفزعًا ، وهربًا، عند اللقاء ، ومن ثم ابتكروا " **القرى المحصنة** "وهي المستوطنات، وابتكروا "**الجدر**" وهي مثل الجدار العازل حاليًا :

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر:١٤]

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩٧].

ومن ثم كان موقفهم الجبان مع موسى –عليه الصلاة والسلام– لما أمرهم بالجهاد :

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤] .

أضف إلى ذلك شدة بغضهم بعضهم لبعض، وتفرق قلوبهم، وإن توحدت أجسامهم : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ﴾ [المائدة:٦٤].

✍ "**عدَاوَتُهُ وَاَللّهِ مَا بَقِيتُ " .. الحرب على الأخلاق .**

فهم أعداء مكارم الأخلاق، صناع الدعارة في القديم والحديث، ورواد بيوت الأزياء ، ومواقر العري ومسابقات النهود والأفخاذ والأرادف والمؤخرات، وسلاطين هوليود، وصناع الأفلام الإباحية والمواقع الجنسية، وهم مُنظِّروا جماعاتِ الانحلال الأخلاقي والشذوذ الجنسي وفلسفة الجنس السادي، تخرج فيهم أعتى رموز الفكر الهدام أمثال دارون ودور كايم وكارل ماركس وفرويد :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة:٧٨،٨٠].

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ [الإسراء:٤]

"عداوته والله ما بقيتُ" .. الفتن والأراجيف

فأخذوا في نشر الفتن والأراجيف بين صفوف المسلمين، ومحاولة إشعال الحرب بين الأوس والخزرج .

فقد مَرّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ اليهودي - وكان شيخًا من شيوخ اليهود وكبرائهم، عظيم الكفر شديد الضّغَنِ عَلَى المسلمين، شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ - عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِّ - ﷺ - مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ . فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدّثُونَ فِيهِ، فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أُلْفَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ الّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيّةِ . فَقَالَ : **" قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ ! لَا وَاَللهِّ مَا لَنَا مَعَهُمْ إذَا اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ ! "**. فَأَمَرَ فَتًى شَابّا مِنْ يَهُودَ كَانَ مَعَهُمْ فَقَالَ: **" اعْمِدْ إلَيْهِمْ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، ثُمّ اُذْكُرْ يَوْمَ بُعَاثَ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنْ الْأَشْعَارِ"** .فَفَعَلَ .فتكَلّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا وتنابذوا، حَتّى تَوَاثَبَ رَجُلَانِ مِنْ الْحَيّيْنِ عَلَى الرّكْبِ: أَوْسُ بْنُ قَيْظِيّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ مِنْ الْأَوْسِ ، وَجَبّارُ بْنُ صَخْرٍ، أَحَدُ بَنِي سَلَمَةَ مِنْ الْخَزْرَجِ ، فَتَقَاوَلَا، ثُمّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إنْ شِئْتُمْ رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذَعَةً(١) ! فَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا ، وَقَالُوا : قَدْ فَعَلْنَا !

وتواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك بموضع (الحرة) واندفعوا في دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون: السلاح السلاح.

وَجمت دارُ الهجرة وهي تسمع صيحة الحرب.

وكادت أن تقوم الحرب الأهلية .

---

(١) يعني إن شئم رددنا هذه الحرب من جديد .

وجاء النبي -ﷺ- في جماعة من المُهَاجِرِينَ ، فأدرك الأوس والخزرج في الحرة وقد هموا بقتال.

فَقَالَ : " **يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ !! اللهَّ اللهَّ !! أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللهُ لِلْإِسْلَام، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ، وَأَلّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ !!** " (1) .

فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنّهَا نَزْغَةٌ مِنْ الشّيْطَانِ، وَكَيْدٌ مِنْ أعدائهم الخونة، وتذكروا ميثاق الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية الذي أخذه رسول الله عليهم، فبَكَوْا، وَعَانَقَ الرّجَالُ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، ثُمّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللهّ -ﷺ- سَامِعِينَ مُطِيعِينَ قَدْ أَطْفَأَ اللهُ عَنْهُمْ كَيْدَ اليهود.

✍ **وصدق الله القائل عن اليهود :**

﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

[المائدة:٦٤]

✍ **"عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بَقِيتُ " .. لا عهد ولا ذمة**

فلم يحترموا ذمة، ولم يصونوا عهدًا .. لا في قديم ولا في حديث

فنقضوا العقود، وأفشلوا المواثيق ..وانظر حالهم في القديم وفي الحديث، وكيف يبدأ المفاضون معهم من نقطة الصفر في كل مرة، فكل عهد جديد ينسخ ما مضى من عهود، وكل ميثاق حديث يزيل ما مضى من مواثيق، وجديد العقود كقديمها، فلا يقر لهم عهد، ولا يثبت لهم عقد !

"**أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**" .

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾

[الأنفال:٥٦]

✍ **"عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بَقِيتُ " .. الخيانة والغدر**

فجيشوا الجيوش لقتال الموحدين، واشتغلوا جواسيس ومخبرين ومرشدين للوثنين في مكة، وزكّوا عبادة الأوثان على الإيمان ..

---

(١) ابن هشام ١ / ٥٥٤، ٥٥٥ .

وحاولوا اغتيال رسول الله -ﷺ- أكثر من مرة، منها مرة كان رسول الله -ﷺ- عندهم ضيفًا في ديار بني النضير..

وكانوا هم أصحاب فكرة جيش الأحزاب، فتحرك قادة اليهود وداروا في الجزيرة العربية، لتهييج العرب الوثنيين على المسلمين، فاستجابت قريش وغطفان، وبنو فزارة وبنو مرة، وأشجع واتجهت جيوش الأحزاب نحو المدينة وكانت عدتهم عشرة آلاف، وعدة المسلمين ثلاثة آلاف، وكان حُيي بن أخطب أحد اليهود الذين هيجوا قريشًا والأحزاب ضد المسلمين، وقد ذهب إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة يطلب إليه نقض العهد مع المسلمين ففعلت بنو قريظة الخيانة، وتحولت هذه القبيلة عن بكرة أبيها إلى طابور خامس تمد الوثنيين بالمعلومات والأخبار عن المسلمين إضافة إلى ما لذ وطاب من طعام وشراب بيد أن رسول الله - حليفهم - يربط على بطنه الشريفة حجرين من شدة الجوع، يحفر الخندق، يزود عن حياض المدينة التي يسكنها بنو قريظة ..

ولو تأملت واقعنا المعاصر لتبين لك أن اليهود كانوا وراء كل حصار ضُرب على المسلمين، فهم وراء حصار أفغانستان ، وهم وراء حصار العراق، واحتلال الأراضي الإسلامية، ونهب ثروات المسلمين، ناهيك عن حصار غزة، وتجويع الشعب الفلسطيني المسلم .. غير ما فعله اليهود في فلسطين المسلمة عبر عقود طويلة من تقتيل لأطفال المسلمين، وذبح شيوخهم، واغتيال علمائهم، وسجن رجالهم، وهتك أعراضهم، وتدمير بيوتهم، وتحريق زروعهم ... وهدم المساجد، وتدمير البيوت، وتحريق الزروع، وإهانة المصاحف، وتخريب المتاجر، وضرب المصانع، وقطع المياة، وفصل الكهرباء، ونشر المخدرات، ونفث الموبقات، وتسريح المومسات .. لقد فعل اليهود كل فعل محرم في الشعب الفلسطيني، وارتكبوا في حقهم شتى الجرائم، حتى أنهم يمارسون على الأسرى الفلسطينيين التجارب الطبية ، فجعلوا منهم حقل تجارب، يجربون فيهم الأدوية المستحدثة، والعقاقير المُستغربة، فإن أراد اليهود دمًا أخذوا من دماء المساجين المسلمين، وإن أراد اليود كُلى، سرقوها من أجساد المؤمنين، وليس عليهم في الأميين سبيل بزعمهم!

فمن لهذا الشعب المسلم ؟ ومن لإطفال يُتَّمت ؟ وأمهات ثُكلت ؟ وحرمات انتهكت، ومقدسات دُنست ؟

✍ **"عَدَاوَتُهُ وَاللّهِ مَا بَقِيتُ" .. الحرب على الله !!**

لقد امتدت إسائتهم حتى إلى ذات الله – تبارك وتعالى –

فاتهموا الله بالبخل – تعالى الله عما يصفون – :

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

[المائدة:٦٤]

✍ **واتهموا الله بالفقر – سبحانه هو الغني - :**

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[آل عمران:١٨١] ...

✍ **وادَّعوا الولد لله تبارك وتعالى :**

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣٠]

وزعموا أن الله يحنث في يمينه – سبحانه هو الكريم –:

✍ **فقال التلمود :**

" إن الله إذا حلف يميناً غير قانونية احتاج إلى من يحله من يمينه،وقد سمع أحد الإسرائيليين الله تعالى يقول:من يحلني من اليمين التي أقسم بها؟ ولما عَلمَ باقي الحاخامات أنه لم يحله منها اعتبره حماراً (أي الإسرائيلي) لأنه لم يحل الله من اليمين، ولذلك نصبوا مَلكاً بين السماء والأرض اسمه(مى)، لتحل الله من أيمانه ونذوره عند اللزوم ".

✍ **وزعموا أن الله يلعب مع الحوت – سبحانه بل له ما في السماوات وما في الأرض كل له قانتون - :**

✍ **قال التلمود :**

"إن النهار اثنتا عشرة ساعة.. في الثلاث الأولى يجلس الله ويطالع الشريعة ، وفي الثلاث الثانية يحكم ، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك".

✍ **وزعموا أن اللّه يستشير الحاخامات في المسائل العويصة – سبحان اللّه ! ما قدروا اللّه حق قدره - :**

✍ **قال التلمود :**

"إن الله يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة عويصة لا يمكن حلها في السماء" .

✍ **وزعموا أن اللّه يندم ويلطم ويبكي – سبحانه هو أضحك وأبكى - :**

✍ **قال التلمود :**

"يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة حتى أنه يلطم ويبكى كل يوم ، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر ، فيسمع دويهما من بدء العالم إلي أقصاه ، وتضرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان ، فتحصل الزلازل" .

✍ **وزعموا أن اللّه أخطأ - سبحانه ليس كمثله شيىء وهو السميع البصير-:**

✍ **قال التلمود :**

"وقد اعترف الله بخطئه في تصريحه بتخريب الهيكل فصار يبكى ويمضى ثلاثة أجزاء الليل يزأر كالأسد قائلاً : تباً لي لإني صرحت بخراب بيتي و إحراق الهيكل ونهب أولادي".

✍ **وزعموا أن اللّه لا يمكن له أن ينقض تعاليم الحاخامات – سبحانه لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ -:**

✍ **قال التلمود :**

"إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغيرها حتى بأمر الله ".

✍ **مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ؟**

فمن كان هذا قولهم في الله رب العالمين فما هو اعتقادهم في غير الله !

ومن كان هذا هو فعلهم مع خير البرية وخاتم الأنبياء من إيذاء وقتال وغدر، فما هو فعلهم مع غير الأنبياء !

من أجل ذلك ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١]

✍ وكتب الله عليهم – جزاء بغيهم وحقدهم – أن يرسل عليهم من القادة والزعماء على اختلاف الملل والنحل من يسوموهم سوء العذاب :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٦٧]

فأرسل الله عليهم فرعون يسوموهم سوء العذاب فلما نجاهم منه إذا هم يعبدون العجل.

وأرسل الله عليهم نبوخذنصر (**أو بتخنصر**) فأباد خضرائهم لما ظلموا ..

وأرسل عليهم محمد بن عبد الله – ﷺ – فردع مكرهم وحجَّم بغيهم ..

وأرسل عليهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فطهر الجزيرة العربية من رجسهم ..

✍ وأنفذ وصية رسول الله – ﷺ - :

" لَئِنْ عِشْتُ إِنْ شَاءَ اللهُ لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ "[١] ، **" أخرجوا يهود أهل الحجاز و أهل نجران من جزيرة العرب ، و اعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد "**[٢] .

وأرسل عليهم هتلر فحرقهم تحريقًا لما خانوا .

وأرسل عليهم عز الدين القسام ومحمد فرغلي وأحمد ياسين وشباب المسلمين في فلسطين، فلم يهدء لهم جفن في فلسطين من أول يوم اغتُصبت فيه .

وتستمر سلسلة القادة والزعماء، يجود الزمان بهم " إلى يوم القيامة " – كما أخبر الله تعالى – وهكذا كان المكتوب، وذلك لعلم الله بحالهم، فلو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم.

ولكن علم الله شرهم، وفجرهم، وبغيهم – ما بقوا – وأن حالهم كما قال سيدهم **" حيي " "عَدَاوَتُهُ وَاللهِ مَا بَقِيتُ "** – فكان لسان حالهم : عداوة الإسلام والمسلمين ما بقينا .

---

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣١) ، وهو في السلسلة الصحيحة، برقم ١١٣٤.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩١) ، وهو في السلسلة الصحيحة ١١٣٢ .

فكان وعيد الله موافقًا لنيتهم الخبيثة، طول عقابه بطول حقدهم، جزاءًا وفاقًا، فسوف يرسل عليهم من حين إلى آخر من يسوموهم سوء العذاب حتى يرث الله الأرض ومن عليها !



١ – أن تعلم هذه المستحيلات الثلاثية عن اليهود:

أن يرضى اليهود عن المؤمنين !

أن يتوقف المكر اليهودي بالمسلمين !

أن يَخرج اليهود من فلسطين بالسلام !

٢ – غرس العداء لليهود المعتدين في نفوس النشء :

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

٣– مدارسة معارك الرسول –ﷺ– ضد اليهود – لاسيما في مناسبة كل معركة، فغزوة بني قينقاع في شهر شوال، وغزوة بني النضير في شهر ربيع الأول، وغزوة بني قريظة في شهر ذي القعدة، وغزوة خيبر في شهر المحرم .

٤ – جاهد اليهود بيدك ولسانك وقلبك، وشارك في أي عمل إعلامي ضد اليهودي، وقاطع بضائع اليهود، وجاهد بمالك لنصرة فلسطين .

٥ – التحذير من التطبيع معهم، أو مع غيرهم من أعداء الإسلام، فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن النبي –ﷺ– قال : **"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ"** .. قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى : قَالَ : " فَمَنْ ؟ " – أي ومن غيرهم !؟ .. وقال –ﷺ– -:**"إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبُغُونَ فَخَالِفُوهُمْ "**[1] .

٦– التبشير ببشارة رسول الله –ﷺ– في اليهود :

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٣) .

"لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمْ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ : يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ ! هَذَا يَهُودِيٌّ، خَلْفِي، فَتَعَالَ، فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ"[1] .



(١) أخرجه مسلم (٥٢٠٣) .



القسم الثامن

الجهاد

سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر (رمضان ١هـ . مارس ٦٢٣م)

✍ **أول سرية وأول لواء أو قائد عسكري :**

كانت هذه السرية هي أول سرية في الإسلام، وكان لون اللواء أبيض، وعَقَدَهُ رَسُولُ اللهِ لعمه ـ أسد الله ـ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ.

بعثه النَبِيُ ـ ﷺ ـ فِي ثَلَاثِينَ جنديًا مِنْ المُهَاجِرِينَ خَاصّةً[١]، (**منهم أبو عبيدة بن الجراح ، وَأَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَسَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ ، وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ**) ..

✍ **المهمة :**

وكانت مهمة حمزة أن يَعْتَرِضُ قافلة تجارية لِقُرَيْشٍ جَاءَتْ مِنْ الشّامِ، وَفِيهَا أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ فِي ثَلَاثِمِائَةِ رَجُلٍ .

✍ **مَجْدِي بْنُ عَمْرٍو :**

فَبَلَغ المسلمون ساحل الْبَحْرِ الأحمر عند أرض جهينة .. فَالْتَقَوْا وَاصْطَفّوا لِلْقِتَالِ، فَمَشَى مَجْدِي بْنُ عَمْرٍو الْجُهَنِي – وَكَانَ حَلِيفًا لِلْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا – بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، فَلَمْ يَزَلْ يَمْشِي إلَى هَؤُلَاءِ وَإِلَى هَؤُلَاءِ، حَتّى حَجَزَ بَيْنَهُمْ، ومنع القتال، انْصَرَفَ الْقَوْمُ، وَلَمْ يَقْتَتِلُوا[٢].

✍ **رجوع السرية :**

فَلَمّا رَجَعَ حَمْزَةُ إلَى النّبِيّ – ﷺ – أَخَبَرَهُ بِمَا حَجَزَ بَيْنَهُمْ مَجْدِي ، وَأَنّهُمْ رَأَوْا مِنْهُ نَصَفَةً لَهُمْ، فاستحسن النبي – ﷺ – صنيع حمزة وصنيع مجدي ..

ولما قَدِمَت جماعةٌ لمجدي من جهينة عَلَى النّبِيّ – ﷺ – أكرمهم وَكَسَاهُمْ وَصَنَعَ إلَيْهِمْ خَيْرًا ، وَذَكَرَ مَجْدِي بْنُ عَمْرٍو بخير وأثنى عليه، قائلاً : " **إنّهُ مَيْمُونُ النّقِيبَةِ، مُبَارَكُ الْأَمْرِ**" أَوْ قَالَ:"**رَشِيدُ الْأَمْرِ**"[٣].

***

---

(١) غير أن الواقدي (١ / ٩) قال: بعثه في ثلاثين راكبا شطرين: خمسة عشر من المهاجرين وخمسة عشر من الأنصار .

(٢) **ابن القيم** : زاد المعاد١/ ٥٩٥، الصالحي ٦ / ١١، الواقدي ١/ ٩ .

(٣) الواقدي ١/ ٩، الصالحي ٦/ ١١ .

✍ **دروس :**

ـ إن قائد الدعوة ـ ﷺ ـ أولَ ما قدم للجهاد قدم أهل بيته.

ـ ثناءُ النبي ـ ﷺ ـ على مَجْدِي بْـن عَمْـرٍو الْجُهَنِـي؛ لـسؤدده، ومجـده، ونـشاطه في الإصلاح، وسعيه السلمي بين المسلمين وقريش ..

ـ احترام الوسطاء الذين تجشموا المتاعب من أجل الإصلاح.

ـ تحالفُ مَجْدِي بْن عَمْرٍو الْجُهَنِي مع المشركين لم يكن يشينه مـا دام التـزم بموقـف الحياد الأخلاقي على الأقل .

ـ أهمية كسب الدول والجهات المحايدة إلى صف المسلمين.

ـ أريحية حمزة، إذ لم يتحجر !

ـ **" في الوقت متـسع"** قـد يكـون مـثلاً صـالحًا في حربنـا مـع العـدو، فلـيس مـن الضروري تصفيات جميع الحسابات في جولة واحدة أو في غـزوة واحـدة أو في سريـة واحدة، **" والأيام بيننا"**، غير أن القضية لن تموت .



حامل لواء هذه السرية هو أَبُو مَرْثَدٍ كَنَّـازُ بْـنُ حُـصَيْنٍ.. صحابي جليل، وابنه **" أبو مرثد"** صحابي جليل، وكلاهما لهما شأنٌ في الإسلام عظيم؛ هل تستطيع أن تكتب عنهما مقالة؟



سرية عبد الله بن جحش

كانت سرية عبد الله بن جحش(**رجب ٢هـ – يناير ٦٢٤**)، من أهم الأحداث التي سبقت معركة بـدر ومهدت لها، وقد أرسل رسول الله –ﷺ– هذه السرية لجمع معلومات عن قريش عند مدخل من مداخل مكة، بيد أن أفراد السرية حادوا عن هـدف السرية ... فكانـت هـذه الدروس .

✍ **درس في احترام المواعيد والتكاليف**

قَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ جَحْشٍ : دَعَانِي رَسُولُ اللّهِ –ﷺ– حِينَ صَلّى الْعِشَاءَ.. فَقَالَ : "**وَافِ مَعَ الصّبْحِ ، مَعَك سِلَاحُك ، أَبْعَثُك وَجْهًا**" ..

قَالَ :" **فَوَافَيْت الصّبْحَ وَعَلَيّ سَيْفِي، وَقَوْسِي، وَجَعْبَتِي، وَمَعِي دَرَقَتِي، فَصَلّى النّبِيّ –ﷺ– بِالنّاسِ الصّبْحَ، ثُمّ انْصَرَفَ فَيَجِدُنِي قَدْ سَبَقْته...** "[1] .

انظر ، وتأمل، كيف كان انضباطهم ، واحترامهم للمواعيد، لقد قال له مُعلمه –ﷺ– :

" **واف الصبح ...**"

فالتزم التلميذ واحترم التكليف، فكان بين المصلين في صلاة الصبح كما حدد النبي –ﷺ–.

✍ **قال عبد الله :**

"**فَيَجِدُنِي قَدْ سَبَقْته**" .. توكيدًا على الالتزام.

وانظر ، لقد قال الرسول –ﷺ– لعبد الله بن جحش : "**مَعَك سِلاحُك ، أَبْعَثُك وَجْهًا**"..

فلم يستفسر الجندي عن علة ذلك، ولم يقلْ عبد الله بن جحش : لماذا السلاح ؟ وأين ستبعثني .. لا بد أن أعرف أولاً !

ولم يتكلم مجادلاً بكلام مؤذ،كالريح التي تسْفِي التراب .

وقد كان عبد الله نعم الجندي ونعم المسلم، ونعم العامل في جماعة الدعوة، فقد كان رد فعله كما قال :

---

(١) الواقدي ١ / ١٤ .

"فَوَافَيْت الصّبْحَ وَعَلَيّ سَيْفِي، وَقَوْسِي، وَجَعْبَتِي، وَمَعِي دَرَقَتِي" .. لقد حضر في الموعد، وصلى مرتديًا لباسه العسكري كما طلب منه القائد، ولم ينس أمتعته اللازمة لتنفيذ التكليف، فأحضر السيف والقوس وجعبة السهام ودرقة الماء (**الزمزمية**) ..

ولم يفعل فعل الزَّفانين والراقصين، فلم ينم عن الموعد أو أضاع صلاة الفجر، ولم يتأخر عن الموعد، أو جاء في الموعد ولم يتجهز، أو جاء وتجهز ونسي شيئًا.

✍ **درس في الحس الأمني**

✍ **قال عبد الله بن جحش :**

فَصَلّى النّبِيّ -ﷺ- بِالنّاسِ الصّبْحَ، ثُمّ انْصَرَفَ فَيَجِدُنِي قَدْ سَبَقْته، وَاقِفًا عِنْدَ بَابِهِ، وَأَجِدُ نَفَرًا مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ . فَدَعَا رَسُولُ اللهّ -ﷺ- أُبَيّ بْنَ كَعْبٍ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَأَمّرَهُ رَسُولُ اللهّ -ﷺ- وَكَتَبَ كِتَابًا . ثُمّ دَعَانِي فَأَعْطَانِي صَحِيفَةً مِنْ أَدِيمٍ خَوْلانِيّ، فَقَالَ : **"قَدْ اسْتَعْمَلْتُك عَلَى هَؤُلاءِ النّفَرِ، فَامْضِ حَتّى إذَا سِرْت لَيْلَتَيْنِ فَانْشُرْ كِتَابِي ، ثُمّ امْضِ لِمَا فِيهِ"**[1].

فلم يكن التكليف تكليفًا شفهيًا، ولكن التكليف تكليفًا علنيًا، بل دخل القائد حجرته، واختلى بكاتبه، وتم كتابة الرسالة الحربية في سرية تامة، وتم إغلاق الكتاب، ونبه القائد على الجندي ألا يفتح الرسالة إلا إذا سار ليلتين ...

✍ **ولماذا كل هذا ؟**

١- لتربية الجند على الحذر التنظيمي .. **"وخذوا حذركم "**

٢- ولخشية إفساد العمل بثغرة أمنية، لكثرة الجواسيس والمخبرين التابعين لقريش.

٣-ولحرص القائد على سلامة جنوده، فلا يطلق التكاليف كطلقات المدفع دون حيطة، فأشقى الناس من شقت به رعيته ! وأرذل الأمراء من فشلت به جماعته!

فالحذر، الحذر، وإن نام الليث أو ضحك !

✍ **قال أبو الطيب المتنبي :**

إذا رَأيْتَ نُيُوبَ اللّيْثِ بارِزَةً فَلا تَظُنّنّ أنّ اللّيْثَ يَبْتَسِمُ

✍ **درس في السمع والطاعة**

بعدما سَارَ عَبْدُ اللهِّ بْنُ جَحْشٍ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ فَنَظَرَ فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ:

---

(١) الواقدي ١ / ١٤ .

" إِذَا نَظَرْت فِي كِتَابِي هَذَا، فَامْضِ حَتّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ ، بَيْنَ مَكّةَ وَالطّائِفِ ، فَتَرَصّدْ بِهَا قُرَيْشًا، وَتَعَلّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ ." .

فَلَمّا نَظَرَ عَبْدُ اللهّ بْنُ جَحْشٍ فِي الْكِتَابِ قَالَ : **"سَمْعًا وَطَاعَةً"** .

فلم يفتح الكتابَ قبل الموعد الذي حدده له رسول الله -ﷺ ، ولم تذكر كتب السيرة أن أحدًا من أعضاء السرية اقترح فتح الكتاب لسبب أو لآخر .

وكانت أول كلمة قالها الجندي فور قراءة التكليف : **" سمعًا وطاعة "** .. وكأنما يخاطبه قائده مباشرة، ولم تكن الفيافي والقفار التي فصلت بينهما بشيء .

وما أجمل المسلم أن يتلقى التكليف من أخيه فيقول : **" سمعًا وطاعة "** ! ..

[كنتُ في مجلس بر وعمل للدين، وكان شيخنا الحاج أسامة أبو شحاته – حفظه الله – أحد دعاة مصر الأفاضل - إذ سمع هاتفه الجوال يهتف به، ودارت مكالمة -لم نعرف من الشخص المتصل- بيد أن الذي عجبنا له وأجللناه كلامات الحاج أسامة مع الشخص المتصل، فكانت كلاماته : **" سمعًا وطاعة .. سمعًا وطاعة .. ما شاء الله تبارك الله .. حاضر .. سمعًا وطاعة .. إن شاء الله .. حاضر .. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته "** ..وكنت أحس بحلاوتها في فمه !].

✍ درس في الشورى

ثُمّ قَالَ عبد الله بن جحش لأَصْحَابِهِ :**" قَدْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللهّ أَنْ أَمْضِيَ إلَى نَخْلَةَ، أَرْصُدَ بِهَا قُرَيْشًا ، حَتّى آتِيَهُ مِنْهُمْ بِخَبَرٍ، وَقَدْ نَهَانِي أَنْ لا أَسْتَكْرِهَ أَحَدًا مِنْكُمْ . فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيدُ الشّهَادَةَ وَيَرْغَبُ فِيهَا فَلْيَنْطَلِقْ وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ، فَأَمّا أَنَا فَمَاضٍ لأَمْرِ رَسُولِ اللهّ"**.. فَمَضَى وَمَضَى مَعَهُ أَصْحَابُهُ لَمْ يَتَخَلّفْ عَنْهُ مَعَهُمْ أَحَدٌ [1] .

إن القيادة الإسلامية تطمح دومًا للرقي بمستوى جند الله، لاسيما في الميدان التربوي، فقد رأيتَ أن رسول الله -ﷺ - أمر قائد السرية أن يستشير إخوانه، بعدما أبان لهم هدف السرية ووجهتها، فتم ذلك، وخيَّرهم، فاختاروا المضي قدمًا، فلم يتجادلوا جدال النصوصيين، ولم يتنابذوا تنابذ العاجِّين عن السبيل، ولم يحّولوا مجلس الشورى إلى مجلس لهو وسفه وخَنَا كمجالس النوكى والحمقى والمترفين.

---

(١) السهيلي ٣/ ٤٢ .

وانظر إلى حكمة القائد؛ أراد أن يعلمهم الشورى في مكان بعيد، مع هذا القائد الـمُشيح، وحدهم، في أرض فلاة، ليعيشوا التجربة، فتُأثرُ فيهم الدُّربة.

درس في الشجاعة :

لقد أجمعوا أمرهم، ولم يتخلف منهم رجل واحد، ولِـمَ لا، وقد تخرجوا في مدرسة محمد ـﷺ ـ، ولم يجبنوا، لسان حالهم كما قال أبو الطيب :

الخَيْـلُ وَاللّيْـلُ وَالبَيْـداءُ تَعرِفُنـي — وَالسّيفُ وَالرّمحُ والقرْطاسُ وَالقَلَـمُ

صَحِبْتُ فِي الفَلَواتِ الوَحشَ منفَـرِداً — حتى تَعَجّبَ منـي القُـورُ وَالأكَـمُ

درس في خطر الانحراف عن الغاية :

أو قُلْ : درس في خطور التحول عن الهدف الإجرائي دون إذن من القائد الأعلى. أو درس في أزمة (**العمل الدعوي الجماعي المعاصر**) حيث العقل الخفيف الذي لا يرسخ عند المدلهمات، والقلب الضعيف الذي ينساق عند الشبهات ..

أو قُلْ : درس في خطر عدول المجموعة الفرعية عن الجماعة الأصلية.

فلما سلكت السريةُ حتى إذا كانت في بُحْرَانُ نَاحِيَةُ مَعْدِنِ بَنِي سُلَيْمٍ أَضَلّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ، وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بَعِيرًا لَهُما، كَانَا يَعْتَقِبَانِهِ . فَتَخَلّفَا عَلَيْهِ فِي طَلَبِهِ. وَمَضَى عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ وَبَقِيّةُ أَصْحَابِهِ حَتّى نَزَلَ بِنَخْلَةَ، فَمَرّتْ بِهِ عِيرٌ لِقُرَيْشٍ تَحْمِلُ زَبِيبًا وَأَدَمًا ، وَتِجَارَةً مِنْ تِجَارَةِ قُرَيْشٍ ، فِيهَا عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيّ . وفِيهَا خَمْرٌ وَأَدَمٌ وَزَبِيبٌ جَاءُوا بِهِ مِنْ الطّائِفِ[1]، فَلَمّا رَآهُمْ الْقَوْمُ هَابُوهُمْ، وَقَدْ نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْهُمْ فَأَشْرَفَ لَهُمْ عُكّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، وَكَانَ قَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ، فَلَمّا رَأَوْهُ أَمِنُوا ، وَقَالُوا:عُمّارٌ لا بأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ ..

فأمنوا وقيدوا ركابهم وسرحوها وصنعوا طعامًا[2] .

فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم. ثم اتفقوا على ملاقاتهم – وقد دخلت الأشهر الحرم – التي تعظمها العرب . وقد عظمها الإسلام وأقر حرمتها. فَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التّمِيمِيّ عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وشد المسلمون

---

(١) **ابن حزم** : جوامع السيرة ١ / ١٠٥

(٢) الصالحي ٦/ ١٧

عليهم فأسروا عُثْمَانَ بْنَ عَبْدِ اللهِّ ، وَالْحَكَمَ بْنَ كَيْسَانَ ؛ أسره المقداد بن عمرو، وَأَفْلَتَ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِّ. وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللهِّ بْنُ جَحْشٍ وَأَصْحَابُهُ بِالْعِيرِ وَبِالأَسِيرِينَ حَتّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ (١) .

فَلَمّا قَدم أفراد السرية عَلَى رَسُولِ اللهِّ -ﷺ- الْمَدِينَةَ، قَالَ -مستنكرًا ما فعلوه- : **" مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشّهْرِ الْحَرَامِ !!!"** . فَوَقّفَ الْعِيرَ وَالْأَسِيرَيْنِ . وَأَبَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا! (٢)

فَلَمّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِّ -ﷺ- سُقِطَ فِي أَيْدِي أصحاب السرية وَظَنّوا أَنّهُمْ قَدْ هَلَكُوا ، وعنفهم أخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وندم الصحابة على ما سلكوه في هذه السرية (٣) .

إذنْ، فهو درس التحذير من مغبة تحويل الهدف، فقد كان هدف السرية كما قرر رسول الله هدفًا استخباراتيًا .. فوقع الأصحاب في الخطأ وحادوا عن الهدف وتحولت السرية من هدفها الاستخباراتي إلى هدف آخر عسكري، فاستنكر رسول الله –ﷺ– ما فعلوه، وردّ ما جلبوه، فندم الصحابه – رضوان الله عليهم – على ما سلكوه .

ولقد ظنوا أنهم هلكوا، جراء غضبة المصطفى، وتعنيف المجتمع الإسلامي لهم ..إذ تسبب هؤلاء الأصحاب – رضي الله عنهم – في هياج عاصفة إعلامية على الدولة الإسلامية الناشئة، فقد كانت العرب تعظم الأشهر الحرم، وكان على المسلمين أن يحترموا تلك الأعراف العربية الكريمة التي تُعلي من مكارم الأخلاق، ولكنه القدر، ليعتبر المعتبرون، و الخطأ ؛ ليتعلم المتعلمون .

✍ **قال أبو الطيب :**

ما كل ما يتمنى المرء يدركه * تجري الرياح بما لا تشتهي السفن**

ولكن من الخير أن نتعلم من الشر، لا أن نقعد :

✍ **قال أبو القاسم الشايبي :**

من يتهيب صعود الجبال * يعش أبد الدهر بين الحفر**

---

(١) الصالحي ٦/ ١٧ .

(٢) ابن هشام ١ / ٦٠٣ .

(٣) الصالحي ٦/ ١٧ .

✍ **درس في الحرب الإعلامية**

لقد استغلت قريش ما حدث في هذه السرية من قتل في الشهر الحرام استغلالاً بارعًا، بيد أنه لايتفق والخُلق الكريم، فعمدت قريش إلى تشويه صورة الإسلام ونبي الإسلام والمسلمين أمام الرأي العام في الجزيرة العربية ..

فقَالَتْ قُرَيْشٌ : قَدْ اسْتَحَلّ مُحَمّدٌ وَأَصْحَابُهُ الشّهْرَ الْحَرَامَ !وَسَفَكُوا فِيهِ الدّمَ! وَأَخَذُوا فِيهِ الْأَمْوَالَ ! وَأَسَرُوا فِيهِ الرّجَالَ ! فرد المسلمون المستضعفون في مكة دفاعًا عن المعسكر الإسلامي وقالوا : إنّمَا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا فِي شَعْبَانَ .وتحالف يهود المدينة إعلاميًا مع هذه الحملة الإعلامية المغرضة ضد المسلمين، وقالوا بكلام قريش، وتَوَقّعَ الْيَهُودُ بِالْمُسْلِمِينَ الشّرّ وَقَالَتْ يَهُودُ - تَفَاءَلَ بِذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللهّ -ﷺ - : عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيّ قَتَلَهُ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللهّ ، عَمْرٌو ، عَمُرَتْ الْحَرْبُ وَالْحَضْرَمِيّ ، حَضَرَتْ الْحَرْبُ وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللهّ ، وَقَدَتْ الْحَرْبُ . فَجَعَلَ اللهُّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لا لَهُمْ [1] .

✍ **ونزلت الآيات الكريمة ترد الحملة، وتزبر الظلمة :**

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[البقرة:٢١٧]

✍ **قال صاحب الظلال ما ملخصه :**

نزلت هذه الآية تقرر حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبيرة نعم! ولكن الصد عن طريق الله والكفر به واضهاد الضعفاء وإخراجهم من بيوتهم بغير حق - هو كبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل . .

" إن المسلمين لم يبدأوا القتال ، ولم يبدأوا العدوان . إنما هم المشركون . هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله ، والكفر به وبالمسجد الحرام، لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله . ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون . "ولقد كفروا بالمسجد

---

١ ابن هشام ١ / ٦٠٤

الحرام . انتهكوا حرمته؛ فآذوا المسلمين فيه ، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة . وأخرجوا أهله منه وهو الحرم الذي جعله الله آمناً ، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته . .

وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام . . وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل . وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام .

لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل . وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه ، لتشويه موقف الجماعة المسلمة ، وإظهارها بمظهر المعتدي . . وهم المعتدون ابتداء. وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء [1] .

ولا زال أعداء الإسلام يشنون حروبهم الإعلامية على الإسلام ونبيه، فضللوا شعوب الغرب عن الإسلام ونبيه، ونشروا أشنع التصاوير التي يرسمها إنسان عن إنسان، واتهموا النبي ﷺ – بالكذب والتطرف والصرع .

ولايزال أعداء الدعوة، يستخدمون سلاح الإعلام أسوء استخدام، فيتصيدون كل ساقطة ولاقطة لرجال الدعوة، ويضخمون الصغير ويصغرون الكبير، حتى جعلوا من الفيل نملة ومن الحبة قُبة، ويجتزئون من الكلام ليضربوا بعضه ببعض، على طريقة **" فويل للمصلين "** .. وألصقوا تهم **" الإرهاب "** و **" التطرف "** و **" التشدد "** و **" التخلف "** و **" الرجعية "** برجال الدعوة .

ومن هؤلاء القائمين على وسائل الإعلام من كان يعمل قوادًا يجلب العاهرات لرجال الحُكم، ومنهم من كان يعمل جلادًا في السجن الحربي ثم انتقل بين عشية وضحاها إلى مبنى وزارة الإعلام بين صفوف رجال الإعلام الظلامي، وكثيرٌ منهم مخبرون.

✍ درس في حرص القائد على جنوده:

فلما بعثت قريش في فداء الأسيرين عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان قال رسول الله –ﷺ – : **"لا نُفْدِيكُمُوهَا حَتّى يَقْدَمَ صَاحِبَانَا – يَعْنِي سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ ، وَعُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ – فَإِنّا نَخْشَاكُمْ عَلَيْهِمَا ، فَإِنْ تَقْتُلُوهُمَا ، نَقْتُلْ صَاحِبَيْكُمْ"**.

---

(١) سيد قطب: الظلال ١/ ١٠٦ .

فقدم سعد وعتبة، فأفداهما رسول الله -ﷺ - [1].

فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله -ﷺ - حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا، وأما عثمان بن عبدالله فلحق بمكة فمات بها كافرًا [2].

إن حرص القائد على سلامة جنوده ضرورة من الضرورات، وسمة أساسية من سمات القائد المستحق للإمارة القادر على القيادة.

ثم إن حرص القائد على سلامه جنوده عامل مهم في تقوية الحب والأخوة بين القائد وجنوده، الأمر الذي يدفع الجندي إلى أن يبذل الغالي والنفيس من أجل تنفيذ تعليمات قائده .

✍ درس في الاعتراف بالخطأ والعمل على إصلاحه :

فقد رأينا في هذه السرية كيف أن رسول الله -ﷺ - استنكر صنيع أصحاب السرية، وأقر أصحابُها بخطئهم، واعترفوا بذنبهم .. وعمل المسلمون على إصلاح الخطأ، لتشهد الجزيرة العربية مكارم أخلاقهم، فقد أطلق رسول الله- صلى الله عليه وسلم- صراح الأسيرين وأدى دية المقتول إلى أوليائه..



١-أن تحترم المواعيد، واحذر : " **إذا وعد أخلف** " ، وامض لأمر الله ولو كنتَ بين السماطين . واحذر نومة العجز، وإلف المزح، وقلة الإكتراث للخطيئة.

٢-أن تمتثل لأمر رسول الله -ﷺ - وإنفاذه سراعًا في العسر واليسر، وأن تسمع وتطيع لإخوانك في الله، لأمر الله، على طاعة الله، في المنشط والمكره . [**وننصح بدراسة قصة طالوت ، وموقف خالد بن الوليد حين عزله أمير المؤمنين عمر**] .

٣-اعترف بخطإك، فالاعتراف به فضيلة، وأحرى أن يقبل الله توبة المعترف المقر بذنبه، وأحرى بالعنود أن يُرَد . وقد قال رسول الله -ﷺ - لعائشة - في ثنايا قصة الإفك - :

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٣٦٩ .

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٣٦٩ .

"فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ "(١) .

٤-لا تنساق وراء الشائعات التي اختلقها الحساد حول دعوتك، ولاتبالي بضراد الفسائين ما دمتَ طاهرًا، ولن يضروكم إلا أذى ! ولتكن الشائعة مقرها إليك فلا تتجاوزك، وإياك أن تكون (**محطة**) في رحلتها التعسة.

٤-كن شجاعًا، فلا تجبن أبدًا، فلحظة الجبن تورث المذلة والدعة والضعة، والمؤمن ليس بشَعَث اللِّمّة، ولا قَشَف الهيئة، بل صاحب هِمة، شجاع الوقفة، لا يخشى في الله لومة، ويطمح إلى منزلة سيد الشهداء حمزة، ورجل قائم إلى إمام ظالم فأمره ونهاه فقتله .

✍ **قال أبو الطيب المتنبي :**

فطعم الموت في أمر حقير * كطعم الموت في أمر عظيم**

✍ **وقال :**

و إذا لم يكن من الموت بدّ * فمن العار أن تموت جبانًا**

٦-الحس الأمني، وِجاء للجماعات الدعوية في عصرنا، فلا بقاء لجماعة مخترقة، وليس الإنفلات من شيم الجماعات المحترمة، فمن الحماقة التساهل في التكتم، ومن الغَشَارة النوم وعين تترصد عليك . واحذر عدوك؛ فهو أغدر من ذئب، ولا تُذهب بعمل كبير وجهد جهيد أدراج الرياح لثغرة أمنية تركتها، كرَيطة بنت كعب التي نَقَضت غَزْلَهَا أنكاثًا، خرقاء وجدت صُوفًا ! فاليقظة اليقظة !

٧-وتعلَّمْ فقه الشورى، ومارسه، واحفظ تعاليمه وأصوله وتأصيله، واقرأ ما تيسر لك في فقه الشورى .

٨-الانحراف عن الغايات، آفة الدعوات، وسوسة الحضارات، ومجلبة الغدرات، فاخش – أخي الحبيب – أن يأتيك أمر الله بغتة، أو الإملاءُ فهو أوبأ مَغبة .. فسُنته – سبحانه – في الدعاة هي التمحيص أو التمكين أو الاستبدال [**نسأل الله أن يثبتنا في الأولى ويرزقنا الثانية ويجنبنا الثالثة**] فعليك – أخي – بمحاسبة النفس، ومذاكرة الهدف، والارتباط بالأصل، والاحتكام إلى النص، ومخالفة الهوى، وملازمة التجرد، والتطلع إلى معالي الأمور، واعلم أن الصبر على بلاء التنظيم خير من ذل الشرود وهوس الغرور.

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٨٢٦ .

تحويل القبلة

وفي ثنايا الضجة الإعلامية التي خلفتها سرية عبد الله بن جحش؛ نزل الأمر من الله تعالى في شعبان سنة ٢ هـ / فبراير ٦٢٤م – بتحويل قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى المسجد الحرام.

✍ **ونزلت الآيات :**

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:١٤٤]

✍ **وكانت لنا هذه الوقفات :**

✍ **الدرس الأول : في التربص اليهودي بالإسلام :**

لقد استغل اليهودُ هذا الحدث للتشكيك في الإسلام، والسخرية من النبي ـ ﷺ ـ وإشاعة القلاقل والبلابل في أرجاء الوطن الجديد، وقالوا:".. ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [البقرة:١٤٢] ، **لقد اشتاق الرجل إلى مولده ! ما هؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ، ما صرفهم عن قبلتهم التى كانوا عليها .. إن كانت القبلة الأولى حقا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل ..**".

ويا عجبًا لهؤلاء اليهود؛ لا ينعم لهم جارٌ أبدًا؛ إن تبعهم النبي ـ ﷺ ـ في قبلته؛ قالوا : مُقلد تابع، وإن خالفهم في قبلتهم، قالوا : كاذب.

وهنا نفهم صفة من صفات اليهود، وحقدهم الذي ظهر جليًا في هذه الحادثة. ولقد شنوا حرباً إعلامية ضارية في أعقاب هذه الحدث . ولقد فُتن ضعاف الإيمان كما فُتن إخوانهم في حادث الإسراء والمعراج .. وإن المتأمل لآيات تحويل القبلة؛ وهي ترد شبهات اليهود؛ يتبين له مدى ضراوة الحرب الإعلامية والفكرية التي شنها اليهود[١] ..

قال تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:١٤٢].. حتى إنهم شككوا

(١) انظر ماكتبه الأستاذ سيد قطب في ربع " **سيقول السفهاء** " من المجلد الأول من الظلال .

في صلاة المسلمين القديمة نحو بيت المقدس ، ومن ثم أعلنوا أن المسلمين الذين ماتوا قبل تحويل القبلة دخلوا النار؛ لأنهم صلوا إلى القبلة الفاسدة ! فيرد الله قائلاً : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٤٣] .

✍ الدرس الثاني : في وسطية الأمة :

لقد أكد هذا الحدث الجليل؛ مبدأ وسطية هذه الأمة، فقد جمعت بين قبلتين عظيمتين ، قبلة إبراهيم وأتباعه ، وقبله موسى وإخوانه .. فأمة الإسلام وسطٌ في الشكل . وسط في المضمون، وسطٌ في الشعائر، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

أمةً وسطًا، فلم تسلك مسلك الغلو النصارني، ولم تسلك مسلك التقصير اليهودي .

ووسطية الأمة الإسلامية وسطية شاملة .. فهي وسط في الاعتقاد والفكر، ووسط في العبادات والمعاملات، ووسط في أنظمتها وتشريعاتها ..

✍ الدرس الثالث : في أستاذية الأمة الإسلامية :

قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣]

شهداءٌ، تقيمون فيهم العدل والقسط.

إن أمة الإسلام ما بعثها الله إلا لتقود ولتسوس البشرية إلى الحق .. ولذا استخلفها الله ومنحها الخيرية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠]. وكانت هذه المنحة الربانية مقابل تأدية الأمة لوظيفتها ومزاولتها لمهنتها .. ووظيفتها ومهنتها هي سياسة الحضارات وقيادة الأمم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران:١١٠] .

وواضح جلي من بنود هذا العقد ومن شروط تلك المنحة ؛ أن الأمة إذا تخلت عن وظيفتها؛ سلبها اللهُ منها منحة الخيرية .. وأصيبت بالضعف والخور وتوالت عليها الهزائم ، وأكلها الشرق والغرب .

✍ **الدرس الرابع : في حتمية الابتلاء :**

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٣] . إذ المؤمن ـ وهو يمارس وظيفته في الدعوة إلى الله ـ لابد أن يبتلى ، ولابد أن يُمتحن ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢] .. ولقد ابتلي المسلمون الأوائل بهذا الحدث أيما ابتلاء . فثبتوا ـ رضي الله عنهم ـ ما ضرتهم حرب اليهود الإعلامية .. ليضرب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ القدوة والأسوة في مواجهة الابتلاء الإعلامي ، ولقد علمونا ـ رضي الله عنهم ـ الصبر على ألوان الابتلاء ، بديةً بابتلاء السجن والحصار والتعذيب في رمضاء مكة ، وحتى الصبر على الترسانة الإعلامية اليهودية ..

ولعل دعاة اليوم أن يتأملوا بعين طالب العلم إلى تراث الصحابة ، ولنستلهم من صبر الصحابة الزاد على طريق الدعوة إلى الله ؛ خاصةً في ظل نار حكام الجور وجحيم أعداء الإسلام .

✍ **الدرس الخامس : في سرعة الاستجابة :**

كم كان هؤلاء الصحابة ـ رضي الله عنه ـ في قمة الاستجابة لهذه الدعوة ؛ عندما جاءهم خبر تحويل القبلة ..انظر في صحيح البخاري عن البراء : أن النبي ـﷺ ـ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا ـ أو سبعة عشر شهرا ـ ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وإنه صلى أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى مع النبي ـﷺ ـ فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال أشهد بالله، لقد صليت مع النبي ـﷺ ـ قِبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت" لقد تحولوا وهم في هيئة الركوع من قبلة بيت المقدس إلى اتجاه البيت الحرام .. لقد علمونا ـ رضي الله عنهم ـ كيف نستقبل تعاليم الإسلام.

بهذه الثقة في النهج وبهذه الثقة في القائد قادوا وسادوا وساسوا..

... إلى متى هذه الجفوة والفجوة بين المسلمين ومنهجهم ؟ وإلى متى نستجيب إلى كل أشباه الحلول ، ونرفض الحل الإسلامي ؟ وإلى متى نستجيب إلى كل فكر إلا الفكر الإسلامي ؟

فالنتحول كما تحول الصحابة في حادث تحويل القبلة !

نتحول بكل قوة وثقة إلى منهج الإسلام بكلياته وجزئياته ، كما تحول الغر الميامين وهم ركوع ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال:٢٤]



١ـ مدارسة آيات تحويل القبلة في سورة البقرة .

٢ـ أن تذكر أخًا من إخوانك بهذه الدروس الخمسة من حادث تحويل القبلة .



معركة بدر الكبرى
الجمعة ١٧ رمضان ٢هـ/١٣ مارس٦٢٤م

ستظل معركة بدر الكبرى مَعلَمًا عريقًا، ودستورًا منيرًا للدعاة والمصلحين والمجاهدين في معاركهم مع الباطل، ستظل الدرس الأكبر في انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ..

كما ستبقى مرجعًا مهمًا لتجلية العلاقة بين القائد وجنده، والأمير وجيشه، دروسًا في الجندية والطاعة، والوحدة والتنظيم والجماعة ..

والحق أن مسألة " **العلاقة بين القائد وجنده** " ..تحتاج دومًا للتأصيل والتوضيح، والتبيين والتمثيل، فهل يتبسط القائد مع جنده إلى حد المجون ؟ وهل يتشدد القائد مع جنده إلى حد الغرور ؟ ما هي يا ترى طبيعة العلاقة بين القائد وجنده من الناحية الإنسانية ومن الناحية العسكرية ومن الناحية السياسية ؟ ..

إن إجابة هذا السؤال، في مدارسة هذه الغزوة الفضيلة ..والوقوف على مواقفها الحكيمة، وقبل الإجابة؛ علينا أن نعرض لموجزها، قبل الولوج في مواقفها .

سبب هذه الغزوة أن النبى –ﷺ – سمع بقافلة تجارية لقريش قادمة من الشام بإشراف أبى سفيان بن حرب، وتتكون من ألف بعير محملة بالبضائع، يحرسها أربعون رجلاً فقط، فندب المسلمين إليها، ليأخذوها لقاء ما صادر المشركون من أموال وعقارات المسلمين في مكة. فخف بعضهم لذلك وتثاقل آخرون،إذ لم يكونوا يتصورون قتالاً فى ذلك.

وتحسس أبو سفيان الأمر وهو فى طريقه الى مكة، فبلغه عزم المسلمين على خروجهم لأخذ القافلة، فأرسل الى مكة من يخبر قريشاً بالخبر ويستفزهم للخروج لإنقاذ أموالهم .

فبلغ الخبر قريشاً فتجهزوا سراعاً وخرج كل منهم قاصدين القتال ولم يتخلف من أشراف قريش أحد وكانو قريباً من ألف مقاتل .

وخرج رسول الله -ﷺ - فى ليال مضت من شهر رمضان مع أصحابه. أما أبو سفيان فقد أتيح له أن يحرز عيره، فلما أخبر قريشًا بأن القافلة التجارية قد نجت، وأنه لا داعي للقتال، رفض أبو جهل إلا المواجهة العسكرية..

وخرجت قريش في نحو من ألف مقاتل، منهم ستمائة دارع (**لابس للدرع**) ومائة فرس، وسبعمائة بعير، ومعهم عدد من القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء الإسلام.

أما المسلمون فكانت عدتهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، من المهاجرين ثلاثة وثمانون، وباقيهم من الأنصار (**٦١ من الأوس، و١٧٠ من الخزرج**) ، وكان معهم سبعون بعيرًا، وفرسان، وكان يتعاقب النفر اليسير على الجمل الواحد فترة بعد أخرى، وقبل المعركة، استشار النبي أصحابه، وخاصة الأنصار، في خوض المعركة، فأشاروا عليه بخوض المعركة إن شاء ، وتكلموا خيرًا .. ثم سار النبي -ﷺ - إلى أرض المعركة في بدر [**وهي الآن مدينة بدر، تبعد ١٥٥ كلم عن المدينة، و٣١٠ كلم عن مكة، و٣٠ كلم عن ساحل البحر الأحمر**] ، وعسكر النبي -ﷺ - عند أدنى ماء من العدو نزولاً على اقتراح الحباب بن المنذر، وتمام بناء مقر القيادة كما أشار سعد بن معاذ، وقبيل المعركة، أخذ الرسول -ﷺ - يسوي صفوف الجيش ، ويحرضهم على القتال، ويرغبهم في الشهادة، ورجع إلى مقر القيادة ومعه أبو بكر، وأخذ الرسول -ﷺ - في الدعاء والابتهال إلى الله أن ينصر الإسلام ويعز المسلمين، وبدأت المعركة بالمبارزة، فخرج نفرٌ من المشركين يطلبون البراز، فخرج لهم نفرٌ من الأنصار، فقال المشركون : أَكْفَاءٌ كِرَامٌ إِنّمَا نُرِيدُ قَوْمَنَا ـ أي من المهاجرين ـ ، ونادى المشركون : يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ـﷺ ـ : " **قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا على** "، فكانت الغلبة لطليعة المسلمين، ثم حمي القتال، ثم نزلت الملائكة، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وقد قُتل منهم أربعة عشر، وقُتل من جيش المشركين سبعون، وأُسر سبعون، وجمع المسلمون جثث المشركين في بئر قديم من آبار بدر..

وافتدى المشركون أسراهم بالمال ونحوه. وأصدر النبي-ﷺ - عفوًا عـن بعـض الأسرى دون أن يأخذ منهم الفداء ، نظرًا لفقـرهم، وكلّـف المتعلمـين مـنهم بتعلـيم أطفال المسلمين القرأة والكتابة.

ونزلت سورة الأنفال تعقّب على هذه الغزوة وتستنكر على الصحابة اختلافهم على الأنفال . وتركز على سلبيات المعركة لمحاولة تلافيها في المعارك القادمة .

***

وبعد هذا الموجز، نقف فيما يلي على بعض مشاهد العلاقة بين القائد وجنده، لنرى موضع القائد من جنده وموضع الجند من قائدهم.

مشاركة القائد جنوده في الصعاب:

عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : كنا يوم بدر، كل ثلاثة عـلى بعـير، فكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله –ﷺ – قال : فكانـت إذا جـاءت عقبة رسول الله –ﷺ – قالا : نحن نمشي عنك قال : **" ما أنتما بـأقوى مني ومـا أنـا بأغنى عن الأجر منكما "**[1] .

فالقائد الصالح هو من يشارك جنوده الصعاب، ويكابد معهم الآكام والـشعاب، ويحفزهم على القليل والكثير من الصالحات، ليكون قـدوة طيبـة أخلاقيـة لجنـوده في المنشط والمكره، وليس القائد بالذي يتخلف عن جيـشه رهبًـا مـن الموقـف أو يتلـذذ بصنوف النعيم الدنيوي وجنده يكابد الحر والقر. والقائد إذا ركن إلى لذة المهاد الوثير؛ حُرم لذة المشاهد والمواقف. وبعض الرجال في الحروب غثاء !

استشارة الجنود

في وداي ذَفِرَانَ [**وهو يبعد عن المدينة المنورة نحو مائة كيلو متر**]، وكان في هذا الوادي المجلس الاستشاري الشهير لمعركة بدر– بلغ النبيَ –ﷺ – نجاةُ القافلـة، وتأكد من حتمية المواجهة، فإما القتـال وإمـا الفـرار.. فاستـشار، فجمـع النـاس ووضعهم أمام الوضع الراهن،وقال لجنوده:**"أَشِيرُوا عَلَيّ أَيّهَا النّاسُ ! "** .. ورددها مرارًا، وما زال يكررها عليهم، فيقوم الواحد تلو الآخر ويدلو بدلوه، فقام أبو بكر

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣٨٩ وحسنه الألباني في تحقيق فقه السيرة ١٦٧ .

فقال وأحسن. ثم قام عمر فقال وأحسن. ثم قام المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فقال وأحسن ..
حتى قام القيادي الأنصاري البارز سعد بن معاذ، فحسم نتيجة الشورى لصالح
الحل العسكري، قائلا :

" لَقَدْ آمَنّا بِك وَصَدّقْنَاك ، وَشَهِدْنَا أَنّ مَا جِئْت بِهِ هُوَ الْحَقّ ، وَأَعْطَيْنَاك عَلَى ذَلِكَ عُهُودِنَا وَمَوَاثِيقِنَا ، عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ .. فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْت فَنَحْنُ مَعَك ، فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْت بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلّفَ مِنّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوّنَا غَدًا ، إنّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللّقَاءِ . لَعَلّ اللهَ يُرِيك مِنّا مَا تَقَرّ بِهِ عَيْنُك ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ "[1].

فهذا هو المجتمع الإسلامي، الذي يعتبر الشورى ركنًا من أركانه، وأصلاً في بنيانه.. في أيام كانت أوربا تحت حكم وراثي، كنسي مستبد خرافي، يُقيدُ فيه الجنود بالسلاسل – في المعارك – حتى لا يفروا. لا قيمة عندهم لرأي، ولا وزن – في تصوراتهم – لفكر.

✍ وصدق حافظ إبراهيم – رحمه الله – حين قال:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به *** رغم الخلاف و رأي الفرد يشقيها**

إن الشورى، من فرائض شرعتنا، ومن مفاخر دعوتنا، ومن معالم حضارتنا، ومن يعمل على تنحيتها، وهدمها وعزلها، أو الالتفاف حولها، فإنما يهدم الفرض، ويفسد في الأرض، ويُمكنُ لذلك للغرب.

وليعلم المتبصر، أن الشورى مُعلمةٌ للإمام الصالح غير مُلزمة، وهذا في شأن الحُكم والدولة. كذلك بالنسبة للقائد العسكري في ساح الوغي، فالقتال دائر والقلب حائر ، بيد أن الشورى في العمل الجماعي الدعوي أو التوعوي أو الخيري مُلزمة، نعم مُلزمة، إذ يجب على قائد العمل الدعوي ومسؤول النشاط التوعوي أن ينزل على رأي إخوانه في الدعوة، وأتباعه في الحركة، ولا يجوز له - ولا يليق به - أن يُلزم الآخرين برأيه الذي لم يُجمع عليه، ولم تتفق الآراء حوله . وخاب من أصدر قرارًا – في غير نص – بغير شورى، وبئس القائد الذي قرّب الغاش وأقصى الناصح .

---

(١) السهيلي ٣/ ٥٧ .

فإذا عزمتَ، وجمعت فريقك على مائدة الشورى، فاصدق الله في قصدك، وأسـأله أن يصفي ذهنك، وأن ينقح فكرك، وأن يثقف عقلك، وأن يهذب خُلقك، وأن يهديك إلى خير الأفكار، وخير الأحوال، وخير الحلـول، وأن يكفيـك الـشواغل العارضـة، والقوى المتقسمة، والمصائب الباغتة، واستعذ به من استوحاش الفكرة، وجمود العقل، وصعوبة الحسم، وضعف العزم .

وعلى مائدة الشورى، إياك والجلوسَ رئاءِ الناس، واحذر السُّمعة، وحب الشهرة، والنَّفج والاستطالة، والتكبر عـلى إخوانـك والمغالبـة، والغـرور بـالرأي والمجاذبـة، وعليك على ذلك بالمجاهدة، والانبتات إلى الله والمسارعة، وإياك وقولة : قد قلتُ لكم رأي، ونصحتُ لكم، فخـالفتموني فحفـتم وفـشلتم، فـذوقوا وبـال أمـركم !!! فـما تمخضت عنه الشورى خير، هو من اختيار الله، ومن اختلف في الفروع لم يُؤثَّم، ومـن اختلف في الأصول – لا شك – يُحوَّب . والرجل الحائر البائر المقبوح المـشقوح، هـو الذي يشير على أهل الرأي ! ولا يقبل منهم رأي، فدومًا يرى أن رأيه هو الرأي، ومـا عداه فساد محض!

✍ الثقة في القيادة.. (امض لما أمرك الله !)

وتأمل القولة التاريخية لسعد بن معاذ ؓ التي قال فيها :

" فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِّ لِمَا أَرَدْت فَنَحْنُ مَعَك ، فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْـت بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلّفَ مِنّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَـى بِنَـا عَدُوّنَا غَدًا ، إنّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللّقَاءِ . لَعَلّ اللهَّ يُرِيك مِنّا مَا تَقَرّ بِهِ عَيْنُـك ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِّ "(١).

فامض يا رسول الله لما أردتَ، فنحن معك ...

فسر بنا على بركة الله ..

فهي ثقة الجندي في قائده، وثقة الطالـب في شـيخه، وثقـة المـسلم في أمـيره، ثقـةً ممزوجةً بالاطمئنان العميق، والحب في الله.

---

(١) السهيلي ٣/ ٥٧ .

✍ **قال الله تعالى في شأن الشاكين في كفاءة القيادة الإسلامية وإخلاصها :**

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور:٥٠].

فإذا انتشر الشك في صفوف الجماعة؛ انتشر على إثر ذلك الخوار والتصدع في بنيان الدعوة، فقوة التنظيمات تكون على قدر الثقة بين القائد وجنده، ومتانة الجماعات مرتبطة بمتانة الثقة بين النقيب وإخوانه، والثقة المتبادلة بين القائد وجنده هي الوِجاء الواقي في الخطط الدعوية، والأعمال التنظيمية، وتحقيق الأهداف الكبرى والمرحلية والإجرائية .

إن الجماعة المؤمنة هي تلك الجماعة التي لاتسمح ولاتمكّن لأعدائها أن يشقوا غبار أخوتها بالوشاية، ولا أن يصدّعوا وحدتها بالدعاية.

والمؤمن الصادق لا يشك في أخيه، ولا يشكك في نزاهته وأمانته، وإخلاصه وكفائته، فإذا تسلل الشيطان إلى النفس بنفث الشك في كفاءة القائد، تابت النفس المؤمنة، وقالت كما قال الله :

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور:١٢]

فلا إيمان لنا حتى نُحّكم الشرع فيما شجر بيننا، ولا نجد في أنفسنا حرجًا مما قضى الله ورسوله وأولو الأمر من المؤمنين، أو ما تمخضت عنه مجالس شورى المتقين، ونسلم بذلك تسليما،و نقول بالقلب واللسان : سمعنا وأطعنا .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

ومن تمام التسليم، أن يكون لدى المؤمن الاستعداد التام، لأن يفترض في رأيه الخطأ وفي رأي القيادة الصواب، وهذا في حدود الخلاف السائغ، حيث لا خلاف أصلاً – بين القائد وجنده – مع وجود النص.

✍ **تبشير الجنود وبث الثقة فيهم**

سُرّ رَسُولُ اللهّ -ﷺ - بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشّطَهُ ذَلِكَ ثُمّ قَالَ : **"سِيرُوا وَأَبْشِرُوا ، فَإِنّ اللهّ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إحْدَى الطّائِفَتَيْنِ ! وَاَللهّ لَكَأَنّي الآن أَنْظُرُ إلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ !!"** (١)

وفي اليوم السابق ليوم بدر مشى - صلى الله عليه و سلم - في أرض المعركة وجعل يُري جنوده مصارع كبار المشركين واحدًا واحدًا .

وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ: هَذَا مَصْرَعُ فلان- ووضع يده بالأرض - ، وَهَذَا مَصْرَعُ فلان، وَهَذَا مَصْرَعُ فلان - إنْ شَاءَ اللهُ -، فَمَا تَعَدّى أَحَد مِنْهُمْ مَوْضِعَ إشَارَتِهِ. فَعَلِمَ الْقَوْمُ أَنّهُمْ يلاقُونَ الْقِتَالَ، وَأَنّ الْعِيرَ تُفْلِتُ وَرَجَوْا النّصْرَ لِقَوْلِ النّبِيّ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ(٢) .

قال أنس: **"ويضع يده على الأرض هاهنا هاهنا. فما ماطَ أحدهم عن موضع يد رسول الله"**(٣) .

وقال عمر : **" فوالذي بعثه بالحق ! ما أخطؤوا الحدود التي حد رسول الله "**(٤).

وقوله -ﷺ - لعقبة بن أبي معيط — لعنه الله -: **"إن وجدتك خارج جبال مكة قتلتك صبرا"**(٥) ، فحقق الله تعالى ذلك .

وأخبر النبي ـﷺ ـ بمقتل أمية بن خلف . وقد قال سعد بن معاذ لأمية عندما ذهب إلى مكة قبيل بدر : يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله يقول: "إنهم قاتلوك" ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً(٦) .

ما أعظم القائد الصامد المبشر ! وما أكرمه هو يبث روح الثقة في جنده، وينشر روح التفائل في جيشه، ويصب جوامع الكلم الطيب في القلوب، كالمطر الهاطل على السيول، فيذكرهم بشارة الله لعباده، وجنة الله لأوليائه، والمجاهدون أعظم الأولياء، رفقاء الرسل والأنبياء !

---

(١) ابن هشام (١ / ٦١٥) .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١٥ .

(٣) البيهقي : دلائل النبوة (٢١) .

(٤) أخرجه مسلم(٢٨٧٣) .

(٥) الصالحي ٤ / ١٨ .

(٦) البيهقي : دلائل النبوة : ٢١ .

فإذا بالجنود – على أثر تثبيت قائدهم – ؛ قد ثبت الله أقدامهم، وربط الله على قلوبهم، وسدد الله رميتهم، وأثقل بأسهم، وجعل الدائرة لهم.

احترام آراء الخبراء والجنود :

فقد قال عبد الله بن رواحة – في موقف من مواقف بدر – : **" يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك"**(١) فأنصت رسول الله – ﷺ – لقول ابن رواحة وقال له قولاً حسنًا ..

ولما تحرك رسول الله إلى موقع ماء بدر، في موقع المعركة، نزل بالجيش عند أدنى بئر من آبار بدر من الجيش الإسلامي، وهنا قام الْحُبَاب بْنَ الْمُنْذِرِ وأشار على النبي بموقع آخر أفضل من هذا الموقع قائلا :

يَا رَسُولَ اللهِّ !أَرَأَيْت هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزِلاً أَنْزَلَكَهُ اللهُّ، لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدّمَهُ ولا نَتَأَخّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ قَالَ : " بَلْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ" .. فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِّ فَإِنّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلِ، فَانْهَضْ بِالنّاسِ حَتّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ ، فَنَنْزِلَهُ ثُمّ نُغَوّرَ [**أي ندفن**] مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ، ثُمّ نَبْنِيَ عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَؤُهُ مَاءً، ثُمّ نُقَاتِلَ الْقَوْمَ، فَنَشْرَبَ وَلَا يَشْرَبُونَ..

فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ – ﷺ – مشجعًا – :**" لَقَدْ أَشَرْت بِالرّأْيِ"**.

وبادر النبي – ﷺ – بتنفيذ ما أشار به الحباب، ولم يستبد برأيه برغم أنه القائد الأعلى، وعليه ينزل الوحي من السماء، فَنَهَضَ رَسُولُ اللهِّ – ﷺ – وَمَنْ مَعَهُ مِنْ النّاسِ فَسَارَ حَتّى إذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ، نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمّ أَمَرَ بالآبار فخُربت، وَبَنَى حَوْضًا عَلَى الْبئر الّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمُلِئَ مَاءً، ثُمّ قَذَفُوا فِيهِ الْآنِيَةَ ٢.

إن هذه المواقف لتبين كيف تكون العلاقة بين القائد وجنوده، إنها علاقة تحترم الآراء الناضجة وتشجع الأفكار الصاعدة، وتتبنى الابتكارات، وتحفز الاختراعات..

أيها القائد ، أيها المسؤول، لن تعدم في جنودك من فاقك في العلم، وراقك في الفهم، فامتلِكْ عقول الجميع – في عقلك –، بالشورى، فأنت بغير الشورى عقل واحد، وبالشورى عقول ! وإذا احترمتَ عقلاً ملكته، وإذا وقّرتَ خبيرًا ظفرته، وإذا عرفتَ شرفَ الحاذقِ كان سهمًا في كنانتك، وخنجرًا في جعبتك .

---

(١) الطبراني في الكبير ٤ / ٢١٠ .

(٢) ابن هشام – ١ / ٦٢٠ .

حماية القائد و تأمين مقر القيادة:

فقد قال القائد الإسلامي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ – مبينًا أهمية تأمين سلامة القائد والقيادة– :

" يَا نَبِيّ اللهِّ، أَلا نَبْنِي لَك عَرِيشًا [من جريد] تكُونُ فِيهِ نُعِدّ عِنْدَك رَكَائِبَك [أو رواحلك]، ثُمّ نَلْقَى عَدُوّنَا ، فَإِنْ أَعَزّنَا اللهُّ وَأَظْهَرَنَا عَلَى عَدُوّنَا، كَانَ ذَلِكَ مَا أَحْبَبْنَا ، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى ، جَلَسْتَ عَلَى رَكَائِبِك ، فَلَحِقَتْ بِمَنْ وَرَاءَنَا ، فَقَدْ تَخَلّفَ عَنْك أَقْوَامٌ – يَا نَبِيّ اللهِّ – مَا نَحْنُ بِأَشَدّ لَك حُبّا مِنْهُمْ ! وَلَوْ ظَنّوا أَنّك تَلْقَى حَرْبًا مَا تَخَلّفُوا عَنْك ، يَمْنَعُك اللهُّ بِهِمْ يُنَاصِحُونَكَ وَيُجَاهِدُونَ مَعَك"(١).

فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِّ –ﷺ – خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ .

وقال مبشرًا : "أوَ يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد!"(٢) .

ثُمّ بُنِيَ لِرَسُولِ اللهِّ –ﷺ – عَرِيشًا على تل مرتفع يشرف على ساحة القتال استجابة لمطلب سعد – رضي الله عنه – .

وكان فيه أبو بكر، ما معهما غيرهما (٣).

كما تم انتخاب فرقة من جنود الأنصار بقيادة سعد بن معاذ لحراسة مقر القيادة ـ عريش النبي–ﷺ (٤) .

لا خير في جنود لا يهتمون بسلامة قائدهم، ومقر قيادتهم، لا خير فيهم إلا لم يتهالكوا في حفظه و يتضامنوا في حمايته، بترسيخ الحواجز والموانع التي تحول بين العدو والقيادة الإسلامية، فإذا خلص العدو إلى مقر القيادة، ملك العدو زمام المعركة ..

حُسن الظن بالإخوان

وذلك في قول سعد بن معاذ للنبي –ﷺ – عندما اقترح عليه فكرة العريش ، قال سعد – في رواية – :

إنّا قَدْ خَلَفْنَا مِنْ قَوْمِنَا قَوْمًا مَا نَحْنُ بِأَشَدّ حُبّا لَك مِنْهُمْ . وَلا أَطْوَعَ لَك مِنْهُمْ، لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي الْجِهَادِ وَنِيّةٌ، وَلَوْ ظَنّوا – يَا رَسُولَ اللهِّ أَنّك – مُلاقٍ عَدُوّا مَا تَخَلّفُوا ، وَلَكِنْ إنّمَا ظَنّوا أَنّهَا الْعِيرُ (٥).

---

(١) السهيلي ٣/ ٦٣ .

(٢) الواقدي ١/ ١٧ .

(٣) **ابن الأثير**: أسد الغابة ٢ / ١٤٣ .

(٤) انظر: ابن هشام ٢/ ٢٣٣ .

(٥) الواقدي ١/ ٤٩ .

وهكذا الإخوان في الله، في ميادين المجتمع إخوانٌ، في ميادين الدعوة إخوانٌ، في ميادين الجهاد إخوانٌ، عظماء أخلاق، أحاسن خلال، أكارم شيم، أفاضل قيم .. إخوانٌ لا مكان للظَّنة بينهم، ولا وجود للتُّهمة بينهم، يُحسنون الظن بأنفسهم، أي بإخوانهم، فالأخ بمنزلة الإنسان من نفسه، والجسم من روحه . وإن بعض الظن إثم – أي في غالب الناس– ، أما بين الإخوان فكله إثم !

عدل وتنظيم وطاعة

قلما نرى في تاريخ الحروب صورة تعبر عن العدل بيت القادة والجنود، فالتاريخ الإنساني حافل بصور استبداد القادة العسكريين وظلمهم للجنود.. أما محمد ـ ﷺ ـ فنراه في أرض المعركة يقف أمام جندي من جنوده لِيَقتص الجندي منه.. أما الجندي فهو سَوَادِ بْنِ غَزِيّةَ، لما اسْتَنْتِل من الصف، غمزه النبي –ﷺ – غمزة خفيفة في بَطْنِهِ – بالسهم الذي لا نصل له – وقال: **"اسْتَوِ يَا سَوّادُ!"**.. قال: يا رسول الله! أوجعتني ! وقد بعثك الله بالحق والعدل؛ فَأَقِدْنِي !فكشف رسول اللهّ –ﷺ – عَنْ بَطْنِهِ، وَقَالَ: **"اسْتَقِدْ"** فَاعْتَنَقَهُ فَقَبّلَ بَطْنَهُ !فَقَالَ النبي–ﷺ –: **"مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوّادُ؟"**، قال: حضر ما ترى، فَأَرَدْتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك! فدعا له رسول الله بخير [١].

وفي هذا الموقف؛ نرى – أيضًا – عظَمَ أهمية التنظيم، وتنسيق الصفوف، وتقسيم الكتائب، وتأمير الأمراء، فلا نجاح لتنظيم دون تنظيم، ولا فلاح لجماعة فوضوية !

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف:٤]

وفي هذا الموقف، نرى – أيضًا – أهمية الطاعة، والالتزام بتعليمات القادة، وتنبيهات أولي الأمر من المسلمين، فلا قيادة إلا بطاعة، ولا بيعة إلا بطاعة، ولا قوام لجيش لا يطيع أميره، ويعصي الله ورسوله ، فعن أبي هريرة، أن رسول الله –ﷺ – قال: **"مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَّ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَّ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي "**[٢] .

---

(١) ابن هشام ١ / ٦٢٦ .

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٤) .

✍ **دعاء القائد لجنده :**

لما عَدّلَ رَسُولُ اللهّ -ﷺ- الصّفُوفَ وَرَجَعَ إلَى مقر القيادة، فَدَخَلَهُ وَمَعَهُ فِيهِ أَبُو بكْرٍ الصّدّيقُ ، لَيْسَ مَعَهُ فِيهِ غَيْرُهُ، إذا بَرَسُولُ اللهّ -ﷺ- يُنَاشِدُ رَبّهُ مَا وَعَدَهُ مِنْ النّصْرِ وَيَقُولُ فِيمَا يَقُولُ : " **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي .. اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي.. اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإسلام لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ!!**"[١].

وبالغ في الابتهال، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ : "**يَا نَبِيَّ اللهَّ ! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ**" ... ثُمّ انْتَبَهَ فَقَالَ " **أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ ! أَتَاك نَصْرُ اللهّ ! هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعَنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ، عَلَى ثَنَايَاهُ النّقْعُ**"[٢] .

وكان من دعاء النبي -ﷺ- ما ذكره علي بن أبي طالب، حيث قال: "**لما كان يوم بدر قاتلتُ شيئًا من قتال، ثم جئتُ مسرعًا إلى النبي -ﷺ- لأنظر ما فعل، فإذا هو ساجد يقول: " يا حي يا قيوم "، لا يزيد عليهما، ثم رجعت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال.ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك.** "[٣] .

و نظر رسول الله -ﷺ- إلى المشركين وتكاثرهم وإلى المسلمين فاستقلهم، فركع ركعتين، وقام أبو بكر عن يمينه، فقال رسول الله-ﷺ- في صلاته: " **اللهم لا تودع مني، اللهم لا تخذلني، اللهم أنشدك ما وعدتني** "[٤].

وكان من دعائه كذلك لجنوده : " **اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم** "[٥]. قال عبد الله بن عمرو : ففتح الله له يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا.

فالقائد كالأب يحنو على أولاده، كالظليم يظلل على أفراخه، يرفع يديه ضارعًا، خاشعًا، داعيًا، بأدعية خاشعة تستنزل لجند الله الرحمات والبركات . يستغفر لهم،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٣٠٩) .
(٢) السهيلي ٣ / ٦٨ .
(٣) الصالحي ٤ / ٣٧ .
(٤) الصالحي ٤ / ٣٨ .
(٥) أخرجه أبو داود (٢٧٤٧)، وحسنه الألباني.

يصلي عليهم، يدعو لهم، فالقائد ليس كالترس القائد – في صندوق التروس – لا حس فيه ولا حراك، ولا شعور فيه ولا إحساس، يقود تروسه بشكل ميكانيكي جامد جاف، بل القائد روح بين جنوده تحييهم، ورباط وثيق يجمعهم، وهو القلب الكبير وهم أعضائه، وهو الأصل الأصيل وهم فروعه وأفنانه، وهو أرحم الناس بهم ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة:١٠٣].

✍ **وأخيرًا ..**

العلاقة بين القائد وجنده، علاقةٌ أساسها الإيمان، وعمادها الإخوة، وأركانها الشورى والطاعة والمشاركة والثقة.



مدارسة سورة الأنفال



سطور بدرية

١- قد تقلُ العُدةُ والعتاد في الأمم والجيوش، وهذا ليس خطيرًا، لكن الداهية الدهياء، والمعضلة الشنعاء أن يقل الرجال؛ أي يجبنون، فالجُبن يجعل من الأمةِ العظيمة ناقةً ذليلة، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال:٤٥]

٢- حينما يلوذ المسلمون بجناب الله تعالى؛ فإن الأقيسة المنطقية غالبًا ما تتنحى جانبًا، فالوقت وقت المعجزات، فالفئة القليلة تغلب الكثيرةَ، وعشرون صابرون يغلبون مئتين، والعرجون القديم يستحيل سيفًا بتارًا في يد الفارس المؤمن، ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٣]

٣- بات النبي ـ ﷺ ـ ليلة المعركة داعيًا خاشعًا متذللاً لرب العالمين، بينما بات أبو جهل ثملاً يُرقِّصُ الغواني . وهذا جانبٌ من جوانب يوم الفرقان، فمن بات على شيء أصبح عليه، فهذا بات يترنح، وقُتل وهو يترنح، وذاك أذل نفسه لله؛ فكان حقًا على الله ـ تعالى ـ أن يعزه . ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [الأنفال:٤٧]

٤- وأنتَ تقرأ سورةَ الأنفال؛ تشعر أنها بيانًا عسكرية لتقييم سلبيات المعركة، بل لقد ركزت السورةُ على الداء الخطير الذي يأتي على الأمم؛ إنه داء " **التنازع**" ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦].

٥- تجهزت قريشٌ لملاقاة المسلمين، وكان الاستنفارُ في مكة عامًا، فمن لم يستطع الخروج أخرج مكانه رجلاً، فعزم أمية بن خلف على القعود، فجاءه الخبيث عقبة بن أبي معيط بِمَجْمَرَةٍ فِيهَا نَارٌ، ووضعها بين يدي " **أمية**" وكان جالسًا بين قومه، ثم قال عقبة : يَا أَبَا عَلِيّ ! اسْتَجْمِرْ فَإِنّمَا أَنْتَ مِنْ النّسَاءِ ! قَالَ أمية : قَبّحَك اللهُ وَقَبّحَ مَا جِئْتَ بِهِ ! ثُمّ تَجَهّزَ فَخَرَجَ مَعَ النّاسِ[1] ، فكان مقتله في بدر . نعم، أحينًا يقودك صديقك إلى الهلاك .

---

(١) ابن هشام ١ / ٦١٠ .

٦- قال أبو جهل : **"والله لا نرجع حتى نرِد ماءَ بدر، ونقيم عليها ثلاثًا ونشرب الخمر وتضرب على رؤوسنا القيان فتهابنا العرب أبدًا"**، وهكذا إذا فسق القائد، فقد قاد الفسقُ ! هي القيادة المجنونة والعبور إلى جهنم !

٧- قال الصحابةُ : **"امْضِ يَا رَسُولَ اللهِّ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَك ، فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلّفَ مِنّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوّنَا غَدًا ، إنّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللّقَاءِ . لَعَلّ اللهَّ يُرِيك مِنّا مَا تَقَرّ بِهِ عَيْنُك "**[1]، بينما اليهود ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]. وهذا فُرقانٌ بين الرجال أيضًا !!

٨- قال سعد بن معاذ محدثًا النبي ـ ﷺ ـ عن الذين تخلفوا : **"تَخَلّفَ عَنْك أَقْوَامٌ يَا نَبِيّ اللهِّ مَا نَحْنُ بِأَشَدّ لَك حُبّا مِنْهُمْ وَلَوْ ظَنّوا أَنّك تَلْقَى حَرْبًا مَا تَخَلّفُوا عَنْك"**[2]، كلمة عجيبةٌ جدًا تفيض صفاءً، تفوح نقاء، تنم عن قلب متجردٍ، لا يحمل حظًا للنفس، يحفظ غيبة الإخوان، يحسن الظن بالقاعدين .. فكيف كان رد فعل النبي ـ ﷺ ـ : أَثْنَى عَلَيْهِ خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ .

٩- قُتل الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيّ ـ وَكَانَ رَجُلا شَرِسًا سَيّئَ الْخُلُقِ ـ في حوض الماء الذي يشرب منه المسلمون، وقد قال في حزم: أُعَاهِدُ اللهَّ لأَشْرَبَن مِنْ حَوْضِهِمْ أَوْ لَأَهْدِمَنّهُ أَوْ لأَمُوتَنّ دُونَهُ . فخرج، وقاتل بحماسة، فقُطعت ساقه؛ فلم ييأس، فحبا نحو الحوض حتى اقتحمه، فقتلُ فيه . فما أقبحَ المرءَ الذي يعيشُ في سبيل فكرة باطلة، ويقاتل دونه شجاعًا، ويُنحرُ على أعتابها صريعًا، إنه جلَد الفاجر الذي تراه في أهل الباطل، ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر:٨]

١٠- قَالَ أَبُو جَهْلٍ : **"اللّهُمّ أَقْطَعَنَا لِلرّحِمِ وَآتَانَا بِمَا لَا يُعْرَفُ فَأَحِنْهُ الْغَدَاةَ"**. فكثيرًا ما يتنسك الثعلب للأفراخ، غير أن نفسه الخبيثه تفوح رائحتُها

---

(١) ابن هشام ١ / ٦١٥ .

(٢) ابن هشام ١ / ٦١٨ .

المنتنة من تحت فرائه . إن الحاكم الفاسق الذي خلع على نفسه مساليخ الزهاد والمصلحين؛ لا يصبر كثيرًا، ويضيق زرعًا برداء الزهاد والصالحين، فهو رداء ضيقٌ جدًا، تمامًا مثل معايشهم !

١١ - ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:١٧].. إن الحجارة في يد المؤمن أقوى من المدفع في يد الكافر؛ وذلك - أيضًا - جانبٌ من جوانب الفرقان.

✍ **الجانب النفسي** هو الخرزة الأولى في عِقد الجيش، فإذا انفرطت؛ انفرط العِقد كله : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الأنفال:٤٣].

١٢ - الذين يُعولون على القوة في حربهم على الإسلام؛ كالذي يُعول على أسياف الخشب؛ بالطبع معهم الشيطان بخيله ورجله، لكنْ لو يعلموا أنه أول الفارين !!

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٤٨].

١٣ - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال:١] الألسنة البشرية صامتة في المغارم، فصيحةٌ في المغانم، النفسُ البشرية هي النفس البشرية ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:١]

١٤ - ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنفال:١٨].. النتيجة التي تؤول إليها مخططات أعداء هذا الدين .

١٥ - المعركة بين الحق والباطل؛ هي ضرورة من ضروريات الحياة؛ فهي الإجراء الوحيد لـ (**للامتياز، والجمع، والرقْم**) : ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٧].



كتابة مقالة تحت عنوان : **" أسباب النصر والهزيمة في ظلال بدر".**



معركة بني قينقاع .. دروس وعبر
١٥ شوال سنة ٢ هـ ـ ٩ إبريل ٦٢٤.

ويمين الله ! إن كانت هذه المعركة لكافية أن تكون وصمة عار شوهاء في جبين اليهود على صفحات التاريخ؛ أن أُخرجوا من ديارهم في عورة امرأة مسلمة كشفوها !

***

كانت هذه المعركة هي المواجهة العسكرية الأولى بين المسلمين واليهود، وحدثت بعد انتصار بدر العظيم، فاعتمل الغيظُ في قلوب اليهود، وحقدوا على نصر المسلمين، وقد كان أولى بهم أن يفرحوا لهذا الانتصار كما فرح المسلمون بانتصار الرومان في نفس السنة، كما كان أحرى باليهود ـ أيضًا ـ أن يفرحوا للمسلمين؛ فانتصارهم هو انتصار لدعوة التوحيد، ولدينٍ قريب من دينهم، فضلاً عن كون هذا الانتصار جاء في صف الدولة الجديدة التي ينضوي اليهود تحت لوائها، وقد وكتبوا وثيقة دستورية مع رئيسها ـ ﷺ ـ .

كل هذا يبين لك صورة طبيعية لجبلة اليهود، ذلكم الذين تحالفوا مع الوثنية ضد نبي من أنبياء الله، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وبُعيد عودة النبي ـ ﷺ ـ من معركة بدر منتصرًا مظفرًا بفضل الله ورحمته، وقد اهتزت المدينة طربًا لهذا النصر العظيم، وانتشر صيت المسلمين في أرجاء الجزيرة، وامتلأت قلوب العرب مهابةً واحترمًا للمسلمين، والله يزع بالسِّنانِ ما لايزع باللسان، وبينما كانت البهجة تظلل سماء المدينة إذ جاءت الأخبار السيئة تترا عن صنائع اليهود، فكان المسلمون يسمعون من اليهود من حين إلى آخر، ما يكدر الصفو، ويحرق القلب، وما لا ينبغي أن ينطق به حليف لحليفه، وقد كانت العرب في جاهليتها تدين بالبر والصلة لحلفائها.

ذلك لتعلم أن اليهود أينما كانوا عربًا أو فرسًا أو رومًا هم هم اليهود؛ طبيعة اليهود، وغدر اليهود، ورجس اليهود .. أينما ثُقفوا؛ ضُربت عليهم الضِعة والذلة، والفسق والمسكنة، وباءوا بغضب الله ولعنته أينما راحوا وأينما حلوا، وقليلٌ منهم صادقون.

***

✍ **تحركات كعب بن الأشرف**

إن العرف الأخلاقي يقتدي أن يفرح الحليفُ إذا انتصر حليفه على العدو الأكبر للدولة، ولكن يهود المدينة أظهروا الحقد والعداوة لحلفائهم المسلمين جراء انتصارهم على قريش الوثنية، إذ لما بعث رسول الله -ﷺ- حين فرغ من بدر بشيرين إلى أهل المدينة - زيد ابن حارثة و عبد الله بن رواحة - يبشران الأمة بانتصار المسلمين في موقعة بدر، فلما بلغ ذلك كعب بن الأشرف قال لمن أخبره : ويلك أحق هذا ؟ هؤلاء ملوك العرب وسادة الناس [**يعنى قتلى قريش**] ثم خرج إلى مكة، فجعل يبكى قتلى قريش، ويحرض على رسول الله ـﷺ ـ(١).

وتولى كعب بن الأشرف كبره؛ فأخذ ينظم القصائد المسيئة للإسلام ونبي الإسلام وأزواجه ـ رضي الله عنهن ـ . إذ كان ـ لعنه الله ـ يتشبب ببعض نساء النبي ـﷺ ـ .

وهو القائل لقريش : دينكم (**يعني الوثنية**) خير من دين محمد (**يعني التوحيد**)، وقال : أنتم أهدى سبيلاً !

✍ **فنزلت فيه** :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٥١]

فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـﷺ ـ : " **مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ ـﷺ ـ** " وأذن في قتله(٢) .

***

✍ **نقض العهد**

وكان القسط الأكبر من الشتائم والسب والاستهزاء يأتي من يهود بني قينقاع، فهم أقوى فصائل اليهود، وأغناهم، وأشرفهم، وأشجعهم . وقد جاءت الأخبار بنقض اليهود لوثيقة المدينة التي صدّقوا عليها، وحالفوا المسلمين بها، وتعاقدوا على تنفيذ بنودها؛ فذهب النبيُ ـﷺ ـ إليهم بنفسه الكريمة في سوقهم ـ وكانوا صاغة وتُجارًا في الذهب ـ، فوعظهم، وذكّرهم بالله تعالى وقال :

---

(١) انظر : البيهقي: السنن الكبرى ٩ / ١٨٣ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٢٧) .

"يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ! احْذَرُوا مِنْ اللهِّ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِقُرَيْشٍ مِنْ النّقْمَةِ، وَأَسْلِمُوا ، فَإِنّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنّي نَبِيّ مُرْسَلٌ تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ، وَعَهْدِ اللهِّ إلَيْكُمْ "(١) .

فردوا عليه ردًا يناسب أخلاقهم الدنيئة، وطبائعهم الدميمة، ونفوسهم الرجسة، وألسنتهم الدنسة، وقَالُوا : **" يَا مُحَمّدُ ! إنّك تَرَى أَنّا قَوْمُك ! لا يَغُرّنّكَ أَنّك لَقِيت قَوْمًا لا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ فَأَصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً ! إنّا وَاَللهِّ لَئِنْ حَارَبْنَاك لَتَعْلَمَنّ أَنّا نَحْنُ النّاسَ "**(٢)

فأنزل الله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[آل عمران:١٢،١٣] .

وهم على جبنهم، دومًا، تراهم يتحدثون عن الشجاعة التي لا تعرفهم ولا يعرفونها، دومًا، تراهم يقولون نحن أقوى جيش، نحن أكثر نفيرًا، وهم على كثرة نفيرهم وسلطانهم الاقتصادي والإعلامي على درجة مريعة من الخوف والخور، ولتجدنهم أحرص الناس على أي حياة، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى.

" قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ " .. فيا أخُ لا تبتئس يومًا بنفير اليهود، ولا يهولنك أمرهم، فهو ككومة القش الذي تذروه الرياح في عشية أو ضحاها، وقد علمتَ من سنةِ النبي الكريم ـ ﷺ ـ أنه سيأتي اليوم الذي سيُباد فيه اليهودُ عن آخرهم، وتختبىء فيه بقيتهم الباقية وراء الحجر والشجر، وستنعم الأرض حينئذٍ لأول مرة بالأمان؛ إذ لم يبق منهم رجل واحد يدب فوقها .

***

✍ التضييق الاقتصادي

لقد تحولت طوائف اليهود داخل المدينة إلى جماعات فتنة، تفرق بين المسلمين، وتنشر الشائعات والأكاذيب، وتفتن المؤمنين، وتتلاعب بالأسعار كنوع من عقاب

---

(١) ابن هشام ٢ / ٤٦ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٤٦ .

أهل يثرب أن دانوا بالإسلام، وبحيث يتشاءم الناسُ بمقدم النبي -ﷺ-، كما هو الحال في زماننا عندما يتشاءمُ الشعبُ بالحكومات الجديدة إذا ارتفعت الأسعار.

كانوا اليهود يحاربون المسلمين في أرزاقهم، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على كل رجل دخل الإسلام حديثًا، فإن كان له مالاً أكلونه ظلمًا أنْ آمن بالله ورسوله، وإن كان عليه الحق يتقاضونه ليل نهار.

✍ كشف عورة امرأة مسلمة:

وكَانَ مِنْ أَمْرِ بَنِي قَيْنُقَاع – أيضًا – أَنّ امْرَأَةً مِنْ المسلمين قَدِمَتْ بشيء تريد أن تبيعه بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ ، وَجَلَسَتْ إلَى صَائِغٍ يهودي بالسوق، فَجَعَل اليهود يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ السيدة المسلمة، فَعَمِدَ الصّائِغُ إلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إلَى ظَهْرِهَا، فلَمّا قَامَتْ انكَشَفَتْ عورتها، فَضَحِكُوا منهَا ، فَصَاحَتْ . فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصّائِغِ فَقَتَلَهُ، وَشَدّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ .. فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ فَوَقَعَ الشّرّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ[1] .

***

✍ العلاج :

وبهذا الصنيع المشين - الذي يتفق وجبلة اليهود عليهم لعائن الله - يكونوا قد أكدوا نقضهم لعهد رسول الله -ﷺ- نقضًا عمليًا، وباتت قضية وجوب التخلص منهم مسألة لا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنْزَانِ .

إذْ أن الإبقاء على يهود قنيقاع والعفو عنهم بعد فعلتهم هذه؛ أمرٌ يسيء إلى الإسلام نفسه، ويهين كرامة المسلمين، أن تركوا عورة مسلمة تُكشف بهذه الطريقة دون رد شافٍ كافٍ.

وقد نزل قول الله تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾

[الأنفال:٥٨].

---

(١) ابن هشام ٢ / ٤٧ .

فتحرك إليهم سيد الشجعان بجيشه، فاحصرهم -ﷺ- خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، حَتّى نزَلُوا علَى حكْمِهِ، في أموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكُتفوا، وحينئذ قام حليفهم القديم عَبْدُ اللهّ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ المنافق، بمطالبة النبي -ﷺ- بطريقة غير مهذبة - بإصدار العفو عن اليهود، فَقَالَ : يَا مُحَمّدُ أَحْسِنْ فِي مَوَالِيّ !

وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهّ -ﷺ- فَقَالَ يَا مُحَمّدُ أَحْسِنْ فِي مُوَالِيّ ! فَأَعْرَضَ عَنْهُ . فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ رَسُولِ اللهّ -ﷺ- فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهّ -ﷺ-: " **أَرْسِلْنِي !** "، وَغَضِبَ رَسُولُ اللهّ -ﷺ- لسوء تصرف المنافق، حَتّى رَأَوْا لِوَجْهِهِ ظُلَلاً، ثُمّ قَالَ : " **وَيْحَك أَرْسِلْنِي!!** " ، قَالَ : لا وَاَللهّ لا أُرْسِلُك حَتّى تُحْسِنَ فِي مُوَالِيّ، أَرْبَعَ مِئَةِ حَاسِرٍ وَثَلَاثُ مِئَةِ دَارِعٍ، قَدْ مَنَعُونِي مِنْ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، إنّي وَاَللهّ امْرُؤٌ أَخْشَى الدّوَائِرَ" .. فَقَالَ رَسُولُ اللهّ -ﷺ- : " **هُمْ لَك**"(١) .

وعفا عنهم النبيُ -ﷺ- ولم يأمر بقتلهم؛ نزولاً على رغبة زعيم المنافقين، وهذا من أريحيته ﷺ ؛ على أن يخرج اليهودُ من المدينة إلى قيام الساعة، وقد أوكل أمرهم إلى حليفهم الصحابي الجليل عبادة بن صامت، وقد كان بمنزلة ابن سلول في حلفه مع اليهود، بيد أن الأول تولى اللهَ ورسوله والثاني تولى اليهود، فقد قال ابن الصامت - رضي الله عنه - : " **يَا رَسُولَ اللهّ أَتَوَلّى اللهّ وَرَسُولَهُ - ﷺ - وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَبْرَأُ مِنْ حِلْفِ هَؤُلاءِ الْكُفّارِ وَوِلايَتِهِمْ** "(٢) ، بينما فعل ابن سلول ما قد رأيتِ، وقد نزل في هذه القصة التي أبانت إيمان عبادة بن الصامت ونفاق ابن سلول آياتٍ بينات من سورة المائدة، قال الله تعالى فيها :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ

---

(١) ابن هشام ٢ / ٤٨ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٤٩ .

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

[المائدة:٥١،٥٦]

***

وأشرف الصحابي الفاضل عبادة بن الصامت على عملية إجلاء يهود قينقاع، وطلبوا التنفس والمهلة، فقال الذي تولى اللهَ ورسوله : ولا ساعة من نهار ! وقد حدد لهم رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثة أيام يخرجون فيها عن بكرة أبيهم، ولا زال عبادة بن الصامت يسوقهم أمامه كالخرفان، يُخرجهم خارج المدينة كالجِرْذان ، إلى الطريق المؤدية للشام، حيث لحقوا بأذرعات واستقروا بها، وهي مدينة تجارية شامية، تابعة الآن لدرعة بسوريا.

***

هذه المعركة درسٌ عملي في الولاء البراء، الذي هو من حقوق التوحيد، والذي هو أوثق عرى الإيمان .

والولاء يعني مناصرة الله ورسوله والمؤمنين، وإعانتهم والسكنى معهم .

والبراء؛ أن يقطع المؤمن صلته بالكفار، ولا يحبهم، ولا يناصرهم، ولا يقيم في أوطانهم إلا لضرورة.

وعقيدة الولاء والبراء ـ بذلك ـ تحرم علينا التعاون مع الكفار ضد المسلمين، كأن نفتح لهم أرض الإسلام يسرحون فيها لنشر الأمراض الفتاكة، أو يبنون على الأراضي الإسلامية القواعد العسكرية التي تنطلق منها الطائرات لضرب المسلمين هنا وهناك، وهي تحرم علينا أيضًا عقد الصفقات التجارية مع العدو المحارب، أو العدو المحتل، فضلاً عن تصدير ثروات البلاد الطبيعية إليهم ـ كالغاز ونحوه ـ بأي سعر كان.

قال الله تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى

﴿قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[المجادلة:٢٢].

وعقيدة الولاء والبراء، تحرم علينا أيضًا أن نخذل إخواننا المستضعفين، أو أن نتركهم يقاتلون وحدهم في الميدان، فضلاً عن حرمة منع المعونات عنهم، أو إغلاق المعابر دونهم، أو شن الحرب الإعلامية على جهادهم، أو تشويه صورة أبنائهم و قادتهم . وقد قال تعالى ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال:٧٢].

توصيات عملية

١ـ احرص دومًا على أن تحب في الله وأن تبغض في الله .

٢ـ مدارسة حول هذا السؤال : **" كيف كان الولاء والبراء هو أوثق عرى الإيمان ؟ "**، وذلك في ضوء الحديث الشريف **" أوثق عري الإيمان: الموالاةُ في الله، والمعاداةُ في الله، والحب في الله، والبغض في الله "**(١)

٤ـ مدارسة سورة المائدة، حفظًا وتفسيرًا، فإن كسلتَ فلا يفوتنك رُبع : **" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء"** ، وربع : **" لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود "**.



(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١١/ ٢١٥) ح١١٥٣٧، وهو في السلسلة الصحيحة ٩٩٨ .

قرصنة السويق
الأحد ٥ ذو الحجة ٢هـ
٢٨ مايو ٦٢٤م

إنها غزوة السويق، وأجدر بنا أن نسمي هذه الغزوة بقرصنة السويق، فقد هاجم المشركون مراعي المدينة المنورة فُجئة، وأفسدوا فيها خلسة، وقتلوا فلاحًا يزرع في أرضه غدرًا .

أما عن البُعد الزمني لهذه القرصنة، فهي كانت بعد معركة بدر بشهرين، إذ هُزم المعسكر الوثني شر هزيمة، وخسروا في أرض بدر سادات مكة، حيث دُفن عشرات الصناديد في قليب بدر وكان منهم عمرو بن هشام وعتبة وشيبة وأمية وغيرهم من سادات مكة .

✍ **ليسوا سواء**

ورجع فَلُّ الوثنيين إلى مكة موتورين محزونين مقهورين؛ فنذر أبو سفيان ألا يمس رأسه ماء، ولا يغتسل من جنابة – وكان قد حَرّمَ على نفسه الطيب –، حتى يغزو المسلمين في عقر دارهم فيقتل منهم كما قتلوا من المشركين، فخرج في مئتي مقاتل لِيَبَرّ يَمِينَهُ، حتى نزل إلى جبل قرب المدينة يقال له ثَيْب، فعسكر هناك، ثم خرج من الليل فأتى حُيَيَّ بْنَ أَخْطَب – أحد زعماء اليهود–، فضرب عليه بابه فرفض أن يفتح، فلا يجوز له كقائد فصيل من فصائل الدولة أن يستقبل على أرض المدينة عدوًا من أعداء المسلمين، فذلك محض خيانة، فَانْصَرَفَ أبو سفيان عَنْهُ..ورجع عن بابه أسيفًا مطرودًا.

ثم ذهب أبو سفيان إِلَى سَلام بْنِ مِشْكَم – وَكَانَ سَيّد بَنِي النّضِير فِي زَمَانِهِ ذَلِكَ وكان رئيس خزانتهم – فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَذِنَ الملعونُ لَهُ فأطعمه وَسَقَاهُ خمرًا، وقام سلام بدور الجاسوس الخائن لوطنه، وكشف له عن أسرار المسلمين، وبحث معه إحدى الطرق لإيقاع الأذى بالدولة، ولم تكن المخابرات الإسلامية غافلة عن ذلك ..

***

والموقف الأول من حيي بن أخطب، يبين لك كيف كانت معاملة النبي –ﷺ – للأقليات الدينية في المدينة، من حسن خُلق، وكريم فضل، وتعاون على الخير؛ فضلاً عن تلك الوثيقة التي جمعت بين المسلمين والفصائل الأخرى والتي كان من شروطها الواضحة :

" وَإِنّهُ لا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالاً لِقُرَيْشٍ وَلا نَفْسَهَا ، وَلا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ"[1] .

ومادة أخرى مخصصة لقريش تقول :

" وَإِنّهُ لا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلا مَنْ نَصَرَهَا "[2] .

ومادة عامة تقول :

" وَإِنّهُ لا يَحِلّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرّ بِمَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَآمَنَ بِاَللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلا يُؤْوِيهِ، وَأَنّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللهّ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ."[3] .

ولا شك أن الأخلاق النبوية في التعامل مع الأقليات وهذه الشروط التي وقّع عليها اليهود دفعت حيي بن أخطب للوفاء، فجعلت يرد أبا سفيان.

إنه درس للقيادة الإسلامية أن تستخدم المحورين في التعامل مع الأقليات غير الإسلامية؛ أن تحسن استخدام المحور الأخلاقي من حسن التعامل والرفق ، وأن تحسن استخدام المحور القانوني بعقد المواثيق والاتفاقات التي تُلزم الأقليات غير الإسلامية باحترام الدين الإسلامي والعمل حفظ سلامة الوطن .

***

والموقف الثاني من سَلام بْنِ مِشْكَمٍ – قبحه الله –، يبين لك أن اليهود ليسوا سواء، فمنهم من يصون ومنهم من يخون، على أن الخيانة في غالبهم، والفسق في معظمهم، قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[آل عمران:١١٠]

وقال ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[آل عمران:١١٣]

ثم يبين لك خطر الخيانة عندما تكون من داخل الدولة، وخطر اليهود عندما يكونون في بقعة من بقاع الأرض، وأن سواد اليهود لا يحترمون عهدًا ولا ميثاقًا، فهذا

(١) ابن هشام : ١/ ٥٠٢ .
(٢) ابن هشام : ١/ ٥٠٢ .
(٣) ابن هشام : ١/ ٥٠٢ .

اليهودي الخائن زعيم قومه استضاف العدو على الأرض الإسلامية، وأطعم وسقى وأسمر، واشتغل بدور الجاسوس، فأخذ يرشد الأعداء عن أفضل الطرق للإيقاع بالمسلمين، وأنجع الوسائل لفض عروة الوطن .

✍ تجريم قتل المدنيين وإفساد المزارع

وخَرَجَ أبو سفيان من دار سلام بن مشكم، وقد حرضه الأخير، وحفّزه وبصّره، وتوجه أبو سفيان إلى معسكره، فَبَعَثَ مفرزة إِلَى الْمَدِينَةِ يقودهم .

فَأَتَوْا إلى منطقة زراعية من أطراف المدينة (**يقال لها الْعَرِيضُ في طرف حرة واقم**) - فقتلوا رجلين يعملان في الحرث – أحدهما معبد بن عمرو الأنصاري ، والثاني : أجيره كان يعمل له في زرعه- وأحرقوا نخلاً، وَحَرّقَوا بَيْتَيْنِ، وتبنًا، وفروا عائدين إلى مكة[1] .

***

وأسلوب النهب والسلب وقتل المدنيين معهود من أعداء هذه الأمة قديمًا وحديثًا، وقد حرم الشرع الإسلامي السمح قتل الأبرياء في الحرب، خاصةً الزراع والأجراء، كما حرم هدم البيوت والمعابد . بيد أن الصليبية القديمة والحديثة لم تدخر جهدًا في انتهاك حقوق الإنسان، فذبحت ملايين الأبرياء في الهجمة الصليبية الأولى على الشام، وقتلت – حديثًا - بالأسلحة المحرمة دوليًا مئات الآلاف من الأطفال والشيوخ والأسرى والجرحى في العراق وأفغانستان.

ولقد نصت المادة الثالثة من اتفاقية جنيف الأولى لتحسين حال الجرحى والمرضى بالقوات المسلحة في الميدان المؤرخة في ١٢ آب / أغسطس ١٩٤٩ .. أن " **الأشخاص الذين لا يشتركون مباشرة في الأعمال العدائية، بمن فيهم أفراد القوات المسلحة الذين ألقوا عنهم أسلحتهم، والأشخاص العاجزون عن القتال بسبب المرض أو الجرح أو الاحتجاز أو لأي سبب آخر، يعاملون في جميع الأحوال معاملة إنسانية، دون أي تمييز ضار يقوم على العنصر أو اللون، أو الدين أو المعتقد، أو الجنس، أو المولد أو الثروة أو أي معيار مماثل آخر**" .

---

(١) انظر : ابن سعد : ٢ / ٣٠ وابن هشام ٢ / ٤٥ .

بيد أن هذه الاتفاقات صارت حبرًا على ورق، ونظرة واحدة إلى سلوك الجيش الصهويني في فلسطين - أو نظرة واحدة إلى سلوك الجيش الأمريكي في العراق – تكفي لإقناعك أن هذه الاتفاقات صارت شعارات، لا مكان لها في ميادين القتال، إنما ميدانها في أروقة النخب المثقفة، وقاعات المؤتمرات المكيفة .

✍ **سرعة الردع**

فلما قام الجيش الوثني بهذه القرصنة – غير الأخلاقية - بغتة على حدود المدينة، وأحرق ونهب وقتل.. نَدَبَ نبينًا –ﷺ– فورًا، وخرج سراعًا في مائتين من المهاجرين والأنصار - يوم الأحد الخامس من ذي الحجة من العام الثاني- فِي طَلَبِهِمْ وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ بَشِيرَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ - وَهُوَ أَبُو لُبَابَةَ- ، فلا زال سيد الشجعان يطاردهم حَتّى بلَغَ قَرْقَرَةَ الْكُدْرِ ، ثُمّ انْصَرَفَ رَاجِعًا ، فَقَدْ هرب أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ [1] .

ولقد أحس المشركون بالطلب فجدوا في الهرب، فلما أحسوا بالخطر أخذوا يتخففون من الأزواد التي يحملونها حتى تمكنوا من الفرار..

ووجد المسلمون أزوادًا كثيرة قد ألقاها المشركون و طَرَحُوهَا فِي الْحَرْثِ، وعامتها جرب فيها سويق [2] ، فأخذها المسلمون، فسميت غزوة السويق.

***

وفي هذا الموقف دلالة على يقظة القائد الإسلامي وتعقبه لأي محاولة نهب أو إفساد من قبل العدو في أرض الإسلام..

ورد فعل النبي –ﷺ– بملاحقة ميلشيات العدو دلالة على تجريم أسلوب النهب والسلب والتعدي على المدنين والزراع ..

***

وفيه أيضًا، صورة من صور الشجاعة المحمدية، فأنت ترى في هذا المشهد كيف يركض سيد الشجعان –ﷺ– وراء الجيش الهارب، وقد انبث الرعب في أحشاء المجرمين، وقد بلغ بهم الفزع أن ألقوا أزاودهم ليتخففوا، ويطلبهم وكأنما لا يريد أن

---

(١) انظر : ابن هشام ٢ / ٤٤ .

(٢) وهو قمح أو شعير تحمص ثم تطحن باللبن والعسل والسمن .

تأويهم أرض ولا جبل، كأنما لا يرضي أن يمر اللقاء دون تصافح بيض الهند واللمم، وهو القائل : " نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ " (١) .

✍ **وقال عنه أمير الشعراء :**

وإذا مشيت الى العدا فغضنفر ** وإذا جريت فإنك النكباء

وإذا غضبت فإنما هي غضبة ** في الحق لا كبر ولا ظغناء

✍ **حرص الجندي على ثواب الله :**

ولـمّا لـمْ يتمكن الجيشُ الإسلامي من القبض على المجرمين، بعد أن استمر رسول الله -ﷺ- في مطاردتهم وقد غاب عن المدينة خمسة أيام. خشي الأبطال أن يحرموا ثواب الله، لفشل هذه المناوشة ، فَقَالُوا -حَيْنَ رَجَعَ بِهِمْ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- : يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَطْمَعُ لَنَا أَنْ تكُونَ غَزْوَةً ؟ .. قَالَ : " نَعَمْ " (٢) .

وفي ذلك درس في استحضار ثواب الله على القليل والكثير في أمر الجهاد، والحرص على ثواب الله في كل أحوال القتال، في النصر والهزيمة، أو في نجاح المهمة أو فشلها .

وفي هذا المشهد – أيضًا – منقبة عظيمة للصحابة، ودليل على حسن بلائهم، وعظيم جهادهم، وسمو إخلاصهم، ورغبتهم الشديدة في النوال الأخروي.

✍ **هذه الغزوة:**

-درسٌ في إعلاء قيمة النفس المسلمة، والدماء المسلمة، إذ لما قُتل المزارع المسلم ندب القائد جيشًا لملاحقة المجرمين .

- ودرسٌ في إعلاء قيمة الحدود الجغرافية للدولة الإسلامية، حيث رأينا فور وصول الخبر إلى القيادة الإسلامية أن جيش العدو على حدود الدولة؛ لم يتأخر القائد ولم يتوان ولم يعط الدنية في دينه .

- ودرسٌ في إعلاء قيمة الشجاعة، وضرورة التحلي بأخلاق الجسارة، وتنشأة النشء على خصال الجراءة، والإقدام والبسالة، ودراسة مناقب الشجاعة في حياة النبي –ﷺ– إضافة إلى قراءة تراجم كبار الشجعان على مدار تاريخ الإسلام، أمثال عمر بن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣) .

(٢) ابن سيد الناس ١ / ٣٩٠.

الخطاب وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد والقعقاع، والفاتح والداخل وألب أرسلان، وصلاح الدين وقطز وعز الدين القسام.

ومضة

للشجاعة طعم شهي، ولون بهي، وصوت شجي، وحلاوة الشجاعة أعظم لذةً من ركوب الفاره وتبطن الحسناء ولبس اللين وأكل الطّيب . وتالله إن المعارك جمام الشجاع . وأرض القتال هي رقعته الفسيحة وعرصته العريضة . وتَالله إن الشجاع في كبريائه أعظم بهاءًا من ملك يترفل في حلته بين بطانة عرجاء ونخبة عمياء .

يا حرة قلبي .. يا دموعي السخينة على شبان أمتي، خور وجبن، وضَعة وحطة . ناموا عن قضيتهم، ونسوا رسالتهم، إلا من رحم الله، **"فلا نامت أعين الجبناء "!**



١ _ إياك والجبنَ والخورَ .. وإذا جبُنتْ نفسك في موقف؛ فأدبها بمواقف حتى تنقاد لك طائعة باسلة .

٢ـ استعذ بالله من الجُبن، وعليك بأذكار الصباح والمساء والتي منها : **"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَلْعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ."**



ميلاد الحسن بن علي النصف من شهر رمضان ٣هـ

تخير الأسماء :

عَنْ عَلِيٍّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : لَمَّا وُلِدَ الْحَسَنُ؛ سَمَّاهُ حَمْزَةَ(١) فَلَمَّا، وُلِدَ الْحُسَيْنُ سَمَّاهُ بِعَمِّهِ جَعْفَرٍ، قَالَ فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ فَقَالَ :" **إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُغَيِّرَ اسْمَ هَذَيْنِ** "، فَقُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَمَّاهُمَا حَسَنًا وَحُسَيْنًا(٢)

***

سُنة العقيقة :

ولما ولد الحسن، عق عنه رسول الله ـ ﷺ ـ بكبشين و حلق رأسه و أمر أن يصدق بوزن شعره فضة على الأوقاص من المساكين(٣).

الرسول يحبُ من جمع شمل المسلمين :

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال كنت مع رسول الله – ﷺ – فى سوق من أسواق المدينة فانصرف فانصرفت فقال : « **أين لكع – ثلاثا – ادع الحسن بن على** » . فقام الحسن بن على يمشى وفى عنقه السِّخَابُ(٤) ، فقال النبى – ﷺ – :« **اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ، فَأَحِبَّهُ، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ** » (٥) .

ملاطفة الأطفال :

عن الْبَرَاء بْن عَازِبٍ قَالَ :رَأَيْتُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَى عَاتِقِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ ...(٦)

السير بهم :

عن إِيَاس عَنْ أَبِيهِ قَالَ :

لَقَدْ قُدْتُ بِنَبِيِّ اللهِ ـ ﷺ ـ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ؛ بَغْلَتَهُ الشَّهْبَاءَ حَتَّى أَدْخَلْتُهُمْ حُجْرَةَ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ هَذَا قُدَّامَهُ وَهَذَا خَلْفَهُ(٧).

---

(١) وفي الرواية الأخرى : سماه حربًا، وهذه ضعفها الألباني، بيد أنها حسنة عند شعيب الأرنؤوط .

(٢) أحمد :برقم ١٣٧١، وهو في السلسلة الصحيحة .

(٣) انظر : السيرة لابن حبان١ / ٢١٦ .

(٤) السِّخَابُ قِلادَةٌ تُتَّخَذُ من قَرَنْفُلٍ، تكون للصغار .

(٥) البخاري، برقم : ٥٤٣٤ .

(٦) مسلم : ٤٤٤٧ .

(٧) مسلم : ٤٤٤٩ .

✍ **شبيه النبي -ﷺ -:**

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ : صَلَّى أَبُو بَكْرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ الْعَصْرَ ثُمَّ خَرَجَ يَمْشِي فَرَأَى الْحَسَنَ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَحَمَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ، وَقَالَ : بِأَبِي ! شَبِيهٌ بِالنَّبِيِّ لا شَبِيهٌ بِعَلِيٍّ ! وَعَلِيٌّ يَضْحَكُ !

✍ **من دلائل النبوة :**

✍ **عَنْ أبي بَكْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :**

أَخْرَجَ النَّبِيُّ -ﷺ - ذَاتَ يَوْمٍ الْحَسَنَ، فَصَعِدَ بِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : " **ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ! وَلَعَلَّ اللهَّ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ** "(١).

وقد تحققت هذه النبوءة في سنة ٤١ هـ، حيث تنازل الحسن عن الخلافة لسيدنا معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ فصار أهل العراق وأهل الشام تحت إمام واحد، وسمي هذا العام عام الجماعة.

✍ **سؤال :**

هذا الصحابي العظيم، تنازل عن الخلافة من أجل توحيد الصف الإسلامي، فماذا صنعتَ أنت للوحدة الإسلامية وللخلافة الإسلامية، وبماذا بذلت وضحيت ؟



ملاطفة طفلٍ، والدعاء له. وحبذا المسح على رأس اليتيم



(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٧) .

معركة أحد
السبت ١٥ شوال ٣ هـ - ٣٠ مارس ٦٢٥ م
استعدادات واستخبارات

إن هذه الغزوة بلغت من الأهمية أنْ أفردَ اللهُ لها شطرًا من سورة آل عمران- إحدى السبع الطوال-، تلك المعركة التي تناولها الله – جل جلاله – بالتحليل والتعقيب، واستخلصَ منها بنفسه – سبحانه - دروسًا وعبرًا .

ويْ ! كأن الله أراد أن يجعل من معركة أُحد درسًا خالدًا، ومَعلمًا تالدًا، حيًا باقيًا إلى أبد الآبدين – ليتعظَ المسلمون بوخامة معصية الرسول –ﷺ -، وليَعلمَ الناسُ أن نواميس الله لا تحابي أحدًا، وأن النصر من عند الله، وأن الشهداء من اختيار الله، وأن الشورى فريضة على المؤمنين، وأن التضحية ضريبة للتمكين، وأن البطولة مُكرُمة للمجاهدين، وأن النفاق لا يحيق إلا بأهلة، وأن اليهود تعاطفوا مع الوثنية، وتحاملوا على الإسلام...

***

✍ ملخص الغزوة

سببها أن قريشًا أرادت أن تثأر ليوم بدر، وأن تُأمن تجارتها الشامية من هجمات المسلمين، وأن تسترد مكانتها التي اهتزت بعد بدر، فقد كانت هزيمة قريش في بدر فضيحة إقليمية بكل المقاييس، فشأن قريش في حربها على المسلمين شأن غيرها في الحرب الإسلام؛ إما من أجل العقيدة الباطلة أو من أجل المال والنهب أو من أجل القتل والثأر .. فما زالت قريشٌ تستعد، وتجمع المال والرأي، حتى تجهزت لغزو المدينة، فخرجت في ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم سبع عشرة امرأة لتحميس الجنود، ثم ساروا حتى وصلوا شمال المدينة، قُرب جبل أحد، ونزل الرسول - صلى الله عليه وسلم- على رأي الجماعة، وقرر الخروج بالجيش لملاقاة العدو خارج المدينة عند أحد، في نحو ألف من المسلمين، وفي الطريق انخذل جماعة من المنافقين ورجعوا، فصار عدد المسلمين سبعمائة رجل فحسب، ثم مضى الرسول –ﷺ - حتى وصل إلى ساحة أحد، فجعل ظهره للجبل ووجهه للمشركين، ونظَّم الجيش، وكتَّبَ الكتائب، واختار خمسين من الرماة، ليحموا ظهر الجيش، مخافة التفاف المشركين على الجيش الإسلامي،

وحذّرَ الرماة من ترك موقعهم بأي حال من الأحوال .. ثم ابتدأ القتال، فكانت الدائرة للمسلمين، فلما وقعت جماعة الرماة في العصيان وتركت موقعها، وانشغل المسلمون بجمع غنائم الدنيا، تحولت الدائرة للمشركين، فما شعر المسلمون إلا والسيوف تناوشهم من هنا وهناك، فاضطرب حبلهم، وفر بعضهم، وانهزم أكثرهم، وقُتل خيارهم، وأُصيب نبيهم، ومُثِّلَ بشهدائهم .. فكانت معركة التأديب والتربية ...

كان هذا هو الموجز وإليك التفصيل ......

فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة !

قال ابن هشام : " **لَمَّا أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ أَصْحَابِ الْقَلِيبِ [أي البئر الذي دُفن فيه قتلى المشركين يوم بدر] ، وَرَجَعَ فَلُّهُمْ [أي هاربيهم] إلَى مَكَّةَ ، وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ بِعِيرِهِ - مَشَى عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ، فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، مِمَّنْ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ؛ فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ مِنْ قُرَيْشٍ تِجَارَةٌ، فَقَالُوا : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّ مُحَمّدًا قَدْ وَتَرَكُمْ ، وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ فَلَعَلّنَا نُدْرِكُ مِنْهُ ثَأْرَنَا بِمَنْ أَصَابَ مِنّا ، فَفَعَلُوا .** "[١] .

وفي هؤلاء الذين أنفقوا أموالهم في سبيل محاربة الإسلام نزل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال:٣٦].

هكذا بدأ الوثنيون في التجهز لمعركة جديدة مع المسلمين، فشحذوا الهمم، ودفعوا الشعراء إلى تبني هذه القضية إعلاميًا، وكان على رأس هذا الحملة الإعلامية أبو عزة الشاعر، كما شن أصحاب المال حملة اقتصادية لجمع المال لمحاربة الإسلام في عقر داره، فأوقفوا أرباح تجارة شامية كاملة لهذا الغرض .

وانظر كيف ضحوا بالمال من أجل الحرب على الإسلام، وتأمل كيف بذلوا وأنفقوا من أقواتهم لقتل النبي - ﷺ - وهذا دأب أعداء هذا الدين في زماننا هذا، فترى الواحد من رجال الأعمال الغربيين ينفق الملايين من أجل إنشاء قناة فضائية لتنشر

---

(١) ابن هشام ٢/ ٦٠ .

النصرانية ولتُنّصرَ المسلمين والإساءة لخاتم النبيين. فهذا هو جَلَد الفاجر وحماسه في الباطل!

ثم انظر إلى تخاذل بعض رجال الأعمال العرب (**المسلمين**) ممن ينفقون أموالهم على الفنانات والراقصات والحفلات والسهرات ، فترى الواحد منهم يتهالك في إنفاق ملايين الدولارات على امرأة بغي، ولا ينفق قرشًا في نصرة النبي !

✍ من آفات الجيوش

وخرج الجيش الوثني بكامل عدته وعتاده في ثلاثة آلاف، وكان فيه من ثقيف مائة عسكري، والمشركون بذلك أكثر نفيرًا من المسلمين من حيث عدد العساكر، وكمّ السلاح، وعدد الظهور، والدعم الإعلامي بقيادة الشاعر أبي عزة، والدعم المعنوي النسائي بقيادة هند بنت عتبة التي حشدت كرائم قريش يحمسن الرجال، ويرقصن ويغنين، فكنَّ يعقدن الحفلات في كل مستراح للجيش، حيث تدار الخمور ويزداد الغرور فوق الغرور، وكأنهم لم يتعظوا من خطر هذه المظاهر المفسدة التي وقع في براثنها أبو جهل حين أقسم يوم بدر [**رمضان ٢ هـ**] :

"والله لا نرجع حتى نرد بدرا، فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزور [أي الجمال] ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا، فامضوا."[1] .

لم يستفد الجيش الوثني في أُحد مما عزموا عليه من قبل في بدر؛ من حفلات النساء والخمر، فصدق فيهم قول الشاعر :

رب أصباح محزنات ... يتركها المرقص اللعوب

ففي الوقت الذي يبيت فيه جنودٌ – سامرًا – يرقصون حول غانية، وآخرون حول القرآن قد اجتمعت قلوبهم، وقد كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، فحرى بالنصر أن يكون من نصيب المتقين. وحري بالهزيمة أن تفرفر أرباب الخَنا والميوعة . ومن يتلذذ في المعصية؛ يتلدغ في الهزيمة .

---

(١) ابن كثير (السيرة) : ٢/ ٣٩٩ .

✍ الاستخبارات الإسلامية داخل أرض العدو

ولما أجمع الجيش الوثني على المسير نحو المسلمين، كتب العباس ابن عبد المطلب كتاباً وختمه، واستأجر رجلاً من بني غفار واشترط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله -ﷺ - يخبره أن قريشاً قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حلوا بك فاصنعه. وقد توجهوا إليك، وهم ثلاثة آلاف، وقادوا مائتي فرس، وفيهم سبعمائة دارع، وثلاثة آلاف بعير، وأوعبوا من السلاح [**أي أخذوا جميع الأسلحة**]. فقدم الغفاري فلم يجد رسول الله-ﷺ - بالمدينة ووجده بقباء، فخرج حتى يجد رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- على باب مسجد قباء يركب حماره، فدفع إليه الكتاب[1] .

وقد كان العباس يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله -ﷺ -وكان المسلمون يتقوون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله [**مهاجرًا**] ..

قليل من الناس من كان يدرك خطورة الدور الذي يقوم به العباس .. لقد أسدى للمسلمين خدمات استخبارتية جسيمة، ولقد كان من رأي رسول الله –ﷺ –أن يظل العباس في دار الكفر مستخدمًا نفوذه ووجاهته في معروفَين؛ الأول : حماية المسلمين المستضعفين في مكة، والثاني : امداد المعسكر الإسلامي بالمعلومات اللازمة عن العدو.

من ثم فإن للمسلمين ذوي النفوذ في الأقليات الإسلامية دور عظيم. إن في أعناقهم حماية المسلمين والدفاع عن الإسلام في بلاد الغرب، ولا يظن هؤلاء المسلمون أن أمانة نشر الإسلام في بلاد الغرب ليست من اختصاصهم، أو يزعموا أنها من اختصاص رجال العلم وجهابذة الأزهر، حاشا وكلا ! إن أمانة تبليغ الإسلام في ربوع أوربا وأمريكا وغيرها من بلدان العالم – في أعناق المسلمين الذين يعيشون بين ظهراني الغربيين،بيد أن هذه التبعة ليست على الأقليات الإسلامية فحسب، بل هل واجب المسلمين جميعًا دولاً وشعوبًا، حكومات وجماعات.

ثم انظر إلى الحصافة المحمدية التي لم يفوتها سد هذا الثغر، بأن تُبقي أحدَ المسلمين بين ظهراني المشركين بحجم العباس .

---

(١) انظر: الواقدي : ١/ ٧٧ .

وليس من شيم دولة الإسلام أن تغفل عن تحركات العدو، فالقائد الإسلامي يترصد أخبار العدو، وتُرفع إليه التقارير الاستخبارتية أولاً بأول في الوقت المناسب .

وعلى من يتجسس الرئيس المسلم ؟ على أعداء المسلمين لا على المسلمين ! فليست من أخلاق زعيم المسلمين أن يتجسس على شعبه فيفسد أخلاقهم، ويرسل عليهم العسس، وليس أمير المسلمين بالذي أوقف أجهزة الاستخبارات لجمع المعلومات عن رعيته تجسسًا، وغفل عن العدو، فصار العدو أقوى عندما انشغل الرئيس بالتجسس على شعبه، وانشغل الشعب في دفع ظلم رئيسه .

أهمية السرية والكتمان في الحروب

لما تسلّم رسول الله –ﷺ– رسالة العباس، دفعها إلى أبي بن كعب ليقرأها عليه، فلما فعل، استكتم النبيُ أبياً ما فيه، ثم دخل رسول الله ـﷺـ منزل سعد بن الربيع فقال: " **في البيت أحد؟** " فقال سعد: لا، فتكلم بحاجتك. فأخبره برسالة العباس بن عبد المطلب، وجعل سعد يقول: يا رسول الله ، إني لأرجو أن يكون في ذلك خيرٌ، ثم أكد رسولُ الله –ﷺ– على سعد بن الربيع أن يستكتم الخبر ثم انصرف(١) .

وخرجت امرأةُ سعد بن الربيع إليه، فقالت: ما قال لك رسول الله؟ فقال: ما لك ولذلك، لا أم لك؟ قالت: قد كنتُ أسمع عليك. وأخبرتْ سعداً الخبر، فاسترجع سعدٌ [**أي قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون**]، وقال: لا أراك تستمعين علينا [**أي تتجسسين**] وأنا أقول لرسول الله–ﷺ– تكلم بحاجتك! ثم أخذ يجمع لبتها [**بمجمع ثوبها**]، ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله –ﷺ–، وقد بَلَحَتْ [**أي تعبت**]، فقال: يا رسول الله، إن امرأتي سألتني عما قلت، فكتمتُها، فقالت قد سمعت قول رسول الله! فجاءت بالحديث كله، فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شيءٌ فتظن أني أفشيت سرك. فقال رسول الله –ﷺ–: "**خل سبيلها**"(٢).

هذا درسٌ عظيم في أهمية كتمان الأخبار التي تمس أمن المسلمين، وأهمية السرية في الحروب، والتصامم عن المعلومات الحساسة التي حرّم الأمامُ تداولها، حرصًا منه على

---

(١) انظر الواقدي : ١/ ٧٧ .

(٢) انظر الواقدي : ١/ ٧٧ .

طمئانينة المسلمين، ومنع انتشار الفتن، وصد أي هجوم إعلامي من قبل العدو من شأنه بث الخوف والرعب في نفوس الناس.

إنها القيادة الحكيمة التي تدرك خطر الكلمة، التي تفعل ما لا تفعل القنابل . . .

ومحمد -ﷺ- صاحب القدوة والمثل في التربية الأمنية الحقة، فانظر كيف استكتتم الكاتب أبي بن كعب، وكيف استكتم القائدَ سعد بن الربيع، وأكد عليه أهمية كتمان خبر مقدم العدو. فتاريخ الحروب أثبت أن السرية مِن عوامل النصر. ثم كم روى التاريخ قصة امرأة تسببت في تسريب معلومة حربية، وكم سقط الجيش بسبب زوج قائد من القادة. إن المسلم عليه أن يتريض في كتمان الأسرار، وأن يتأدب بآداب الحروب التي منها المحافظة على المعلومات التنظيمية.

وفي الحديث: **"اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ ..."**[1] .

فمن أراد أن يُهلك خُطة؛ فليفشها، ومن أراد أن يفسد أمرًا، فلينشره قبل إحكامه، ومن أمَّن على سره؛ أمِنَ من ضره، ومن لم يكتم السر فلم يستكمل الجندية، فسرُ الجندي من دمه، فإن أفشاه أراقه، وأهلك إخوانه، ودمر أحبابه، والسبب في لسانه !

وليكن -أخي- سر قائدك في قلبك كأنما هو في سجن، وفي صدرك كأنما هو في حبس.. فأحلف لك بالله أن الصابر على السر كالمجاهد في الحر !

قال قيس بن الحطيم يمدح صديقًا له :

كتوم لأسرار الخليل أمينها ... يرى أن بث السر قاصمة الظهر

✍ الاستخبارات الإسلامية داخل جيش العدو !

وإمعانًا في متابعة أخبار العدو؛ بعث رسولُ الله -ﷺ- الحبابَ بن المنذر إلى جيش قريش ! نعم هكذا كان التكليف ! أن يخترق جيش الوثنِ متنكرًا، وبالفعل نجح صاحب المواقف الحربية، فدخل فيهم، وحزر، وراقب، ونظر ..

✍ وقد قال له النبي -ﷺ- : وقد بعثه سراً - :

" **لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلة.** " . فرجع الحباب فالحًا ناجًحا في المهمة، وأَخبر رسول الله -ﷺ- خاليًا قائلاً : رأيت يا رسول الله عدداً، حزرتهم

---

(١) أخرجه الطبراني، "الكبير" (١٦٦٠٩)، وهو في السلسلة الصحيحة، برقم ١٤٥٣.

ثلاثة آلاف، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعاً ظاهرة، حزرتها سبعمائة درع. فقال رسول الله -ﷺ - :" هل رأيت ظعناً [**أي نساء**] ؟ قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار [**أي الطبول**]. فقال رسول الله-ﷺ -: **" أردن أن يحرّضن القوم، ويذكرنهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم (!) لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول "**[1].

إن المعلومات التي رفعها الحباب – رضي الله عنه – تدل دقتُها وتفاصيلُها على مدى الجهد الذي بذله الحباب، ومستوى الفدائية عند ذلك الأسد، إذ كيف تتأتى له هذه المعلومات بهذه الصورة إلا إذا اخترق الجيش الوثني بحق، متخفيًا أو متنكرًا، دون أن يُحدث فيهم حدثًا أو أن يكشفوا أمره .

✍ **متابعة الجانب المعنوي للعدو**

وكان السؤال الأول الذي سأله النبي -ﷺ – للحباب كان عن نساء قريش وهل صحبن الجيش وكان الجواب أن نعم ومعهن الدفاف والطبول .. إن قائدنا يتابع الجانب المعنوي لجيش العدو، وقد كان تعليق القائد ، موضحًا الدور المنوط بهؤلاء النسوة اللاتي انتفضن وجعلن من الحرب على الإسلام قضيتهن ورسالتهن – أنهن أردن أن يحرضن الجيش، فالتحريض هو رُوح القتال أو كما قال الله تعالى : **" وحرض المؤمنين"**، وكانت النسوة يذكرن الجيش الوثني أغانيهن قتلى بدر .. فياليت البنت المسلمة تدرك دورها في خدمة الإسلام ! وتنظر إلى حماسة هؤلاء النسوة في الباطل !

✍ **تعدد مصادر الاستخبار**

ويقول النبي -ﷺ – معلقًا على تقرير الحباب :

" هكذا جاءني خبرهم (!) ... "

فهذه الأنباء قد أتت إلى النبي -ﷺ – من مصدر آخر، لعله العباس أو أنس وأنيس ابنا فضالة – فقد أرسلهما يتنصتان أخبار قريش، أو من مصدر ثالث.. إن زعيمنا لا يأخذ معلوماته الاستخبارتية من مصدر وحيد، بل من مصادر عدة، للتّثبت والتأكد، والتوصل إلى صورة أوضح عن جيش العدو . وهذا كله يجعله يتقلد أزِمَّة الحرب الإعلامية .

---

(١) الواقدي ١/ ٧٨ .

وهو لا يزال في مرحلة السرية والكتمان التي تعقب التجهز للمعارك، فهو يقول للحباب :

" لا تذكر من شأنهم حرفاً " ..

الحسيب الوكيل

وكعادته إذا جمع الناسُ عليه لحربه أوتحزب عليه العدو قال : **"حسبنا الله ونعم الوكيل"**...

وقد كانت من سنته -ﷺ- أن يقول وهو في طريقه للقاء العدو ،

" اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي، وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ "(١).

فالمسلمون لا يستعينون بغير الله على عدو الله، فلن ينصرهم أحد إلا الله، و**"كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله"**، فهو سبحانه المتفرد بمنح النصر أو منعه، **"يعز من يشاء ويذل من يشاء"**، لكنه كتب لينصرن من ينصره، فما لنا نذهب إلى غير الله نطلب النصرة وإلى غير شرعته نطلب التمكين، وقد وعد الله أن يستخلف الذين آمنوا كما استخلف الذين من قبلهم!

***

علمتَ - أخي - في هذه الحلقة كيف أن أعداء الإسلام ينفقون الأموال في دعم حربهم على الإسلام.. فحري بك أن تنفق في سبيل نصرة هذا الدين والعمل على تمكينه، والسعي وراء تحكيم شرع.

وعلمتَ - أخي - كيف أن حفلات المجون، وابتغاء نشر الخمور، تأتي دومًا خرابًا ويبابًا على أصحابها .

وعلمتَ أهمية (**الكتمان**) في تحقيق النصر، وتأمين الشَعب، وتأهيل الجند، وإعداد العُدة، فتعلّم هذا الأدب الأخلاقي، وتريض هذا العمل العسكري، وخذل دومًا عن إخوانك .

ثم عليكَ أن تعتقد أن الله هو الحسيب الوكيل، الذي لا يعدله نصير ولا ظهير، وأنه لا ناصر لنا إلا الله ..

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٢٦٢) وصححه الألباني .



ـ درب نفسك على الكتمان وحفظ الأسرار، وتذكر دومًا قول النبي ـ ﷺ : **" لا تذكر من شأنهم حرفاً "** ..



الشورى والزحف نحو أحد

✍ **رُؤْيَا النبي - ﷺ -**

لما سارت قريش لغزو المدينة، واقترب يوم الحرب، وأدرك المسلمون مدى الخطر المحدق بهم وبدعوتهم وبوطنهم – وقفَ رسول الله –ﷺ –على المنبر بين المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

" إنِّي قَدْ رَأَيْت وَاَللّهِ خَيْرًا ، رَأَيْتُ بَقَرًا ، وَرَأَيْتُ فِي ذُبَابِ [أي طرف] **سَيْفِي ثَلْمًا ، وَرَأَيْتُ أَنّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، فَأَوّلْتُهَا الْمَدِينَةَ "**، وقال : **"رَأَيْت بَقَرًا لِي تُذْبَحُ! فَأَمّا الْبَقَرُ فَهِيَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي يُقْتَلُونَ، وَأَمّا الثّلْمُ** [أي الاعوجاج الذي في السيف] **الّذِي رَأَيْتُ فِي ذُبَابِ سَيْفِي ، فَهُوَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُقْتَلُ "**(١).

ومثل هذه الروحانيات التي تهبُ نسماتُها على المجاهدين، إنما تأتي للتبشير والتبصير، أما التبشير فهي – أي مثل هذه النفحات – تُثبت القلوب من أمر الله، وها هو القائد يقول مثبتًا ومبشرًا جندَه : **" إنِّي قَدْ رَأَيْت وَاَللّهِ خَيْرًا "**، فما كان من رؤيا صالحة فليذكرها القائدُ، وما كان غير ذلك فليكتمها ويَتضرع إلى الله، وأما التبصير؛ فأنت ترى كيف كانت هذه الرؤيا تُبصَر المؤمنين بخيار التحصن بالمدينة، فهي درعٌ حصينة، ولكن قضاء الله ماض، فلا يُجدي حَذرٌ من قَدَرٍ، وإذا نزل القَدر غَشىَّ البَصر، وإذا نزل الحَيَنْ غَطَى العين، وما يُغني الْكَيْسُ مع قضاء الله شيئًا.

إن هذه الرؤى الصالحة ليست نصًا يغير واقعًا ، وليست شرعًا نُلزم به الناس.. ولكنها تُبَشر وتُبَصر ، فهي في جو المعركة تكون بمثابة النَّشر الطَّيِّب، والأرَجِ النافح، وهي... تفعل في القلوب الأفاعيل .

✍ **شعيرة الشورى**

وأشار النبي –ﷺ – على قادة الجيش في الخروج أو البقاء، معبرًا عن رأيه قائلاً: **" إنّا في جنة حصينة"**(٢) ، **"فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ وَتَدْعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرّ مُقَامٍ، وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاهُمْ فِيهَا"**(٣).

---

(١) ابن هشام ٢/ ٦١.

(٢) الطبري ٢/ ٦٠ .

(٣) ابن هشام ٢ / ٦٣ .

وكان رأي المنافق عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولَ مع الرأي القائل بالبقاء في المدينة، والحق أن رأي كبار الصحابة كان كذلك ؛ يفضلون التحصن بالمدينة، والاستعداد لحرب الشوارع. فكان هذا هو الرأي الصواب من وجهة النظر الحربية، أما رأي الشباب والمتحمسين فكان الخروج لملاقاة العدو، وانقسم الرأي بين مؤيد ورافض.

قال أصحاب رأي الخروج : **"يَا رَسُولَ اللهِ اُخْرُجْ بِنَا إلَى أَعْدَائِنَا ، لا يَرَوْنَ أَنّا جَبُنّا عَنْهُمْ وَضَعُفْنَا"** . وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ :**" يَا رَسُولَ اللهِ ! أَقِمْ بِالْمَدِينَةِ، لا تَخْرُجْ إلَيْهِمْ، فَوَاَللهِ، مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إلَى عَدُوّ لَنَا قَطّ إلا أَصَابَ مِنّا ، وَلا دَخَلَهَا عَلَيْنَا إلا أَصَبْنَا مِنْهُ، فَدَعْهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرّ مَحْبِسٍ، وَإِنْ دَخَلُوا قَاتَلَهُمْ الرّجَالُ فِي وَجْهِهِمْ، وَرَمَاهُمْ النّسَاءُ وَالصّبْيَانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ كَمَا جَاءُوا "**(١) .

فبادر عدد كثير من فضلاء الصحابة – ممن فاته بدر –؛ فأشاروا على رسول الله بالخروج، وألحوا عليه .. وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب – رضي الله عنه –، الذي كان قد أبلي أحسن بلاءً في معركة بدر ـ فقد قال للنبي –ﷺ– : **" والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة"**(٢)، ثم انحاز غالب الرأي نحو الخروج، وكثر القائلون به، فنزل الرسول على رأي الجماعة، وتوجه على التو نحو بيته فلبس سرابيل الحرب.

ثم خرج رسول الله –ﷺ– إلى المسلمين في كامل عدته وسلاحه مدججًا، وكان إذا تسربل؛ فكأنما هو الليث في عرينه يسوق القطعان، أو الفارس العرندس يقود الفرسان ..

وظن الصحابة أنهم استكرهوا رسول الله ودفعوه إلى التخلي عن رأيه، وندموا، وقالوا : **"يَا رَسُولَ اللهِ اسْتَكْرَهْنَاك وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَنَا ، فَإِنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ صَلّى اللهُ عَلَيْك"** ، فَقَالَ سيد الفوارس –ﷺ– في حسم وحزم –: **" مَا يَنْبَغِي لِنَبِيّ إذَا لَبِسَ لأَمْته [أي درعه] أَنْ يَضَعَهَا حَتّى يُقَاتِلَ "**(٣) .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٦٣ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٦٣ .

(٣) ابن هشام ٢ / ٦٣ .

وحذّر من شر التخبط في الآراء، والتردد في الأقوال دون الخلوص إلى الأعمال :
"أُنْظُرُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتّبِعُوهُ، امْضُوا عَلَى اسْمِ اللهِّ، فَلَكُمْ النّصْرُ مَا صَبَرْتُمْ ."(١) .

هكذا كانت الشورى بين نبي مُرسل وشباب مسلم، ونزل رسول الله -ﷺ- على رأي الجماعة، والله يعلم أنه لا حاجة له برأيهم، ولكنها الشورى؛ الفريضة الإسلامية بين الراعي والرعية، والشعيرة الإيمانية التي لا يجحدها إلا كافر ولا يمنعها إلا فاجر.

وكان جليًا؛ أنْ رَبّىَ النبيُ أصحابه على حرية الرأي، وعودهم على التصريح بوجهات نظرهم في القضايا الخطيرة. الأمر الذي يدفع بالواحد منهم إلى التفكير في مصالح الإسلام والمسلمين، بل ترى الواحد منهم يُعدُّ لمشهد الشورى مقالته، فيحسنها ويحبرها تحبيرًا.

ولم نرَ- ولو لمرة - أن سفه رسولُ الله -ﷺ- رأي رجل من رجالاته، أو لامه، أو أنبه على رأيه .

وما أعظم الشورى ! أن يأمر اللهُ القائدَ بها، صراحة : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] ، ويجعلها الله من سمات الجماعة المسلمة، ويجعلها بعد إقامة الصلاة في الدرجة، فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى:٣٨]

فالشورى تصون الجماعة من الفضيحة، وحصن لها من الندامة، وأمن لها من الملامة، وما هَلَكتْ جماعةٌ عن مشورة، وما نجحت دعوةٌ قامت على الاستبداد في أصولها، بين القادة وجنودها . والجماعات على ثلاث في الشورى، جماعة عاقلة أقامتها، وجماعة مراهقة تُعالجها، وجماعة بائرة لفظتها ..

وأحوج ما يكون أهل الشورى إلى آراء الشيوخ وأصحاب الخبرة- مِمَن ركبوا الأهوال، وتجشموا الصعاب -، فقد أحنت ظهورهم التجارب، وشابت رؤوسهم في الحوادث .

وإياك - أيها المسؤول - ومشاورة الجبان الخليع، والسفيه الوضيع، ومن فعل ذلك كان كمن دَلَفَ إلى الحمار فأتاه وسلم عليه وسألة في مسألة من مسائل الفقه ! ثم اعلمْ

---

(١) الواقدي ١ / ٢١٤ .

أن للشورى مَشَقَّة، فهي تحتاج إلى قائد صبور بصير، يرجو من وراء هذه المشقة منافع الشورى، ومن ثم على القائد أن يُنحَّى عن نفسه الأَنَفَةَ، والحَميَّةَ، والعجرفة، والجمخ، والغطرسة، فإذا وَطَّن نفسه بعد ذلك على الصبر؛ حمد غبَّ رأيه، وشكر عاقبة أمره .

التحذير من التردد بعد العزيمة :

وفي قول النبي -ﷺ- : **" مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إذَا لَبِسَ لأمْته أَنْ يَضَعَهَا حَتّى يُقَاتِلَ "**[1] درسٌ آخر لجند الله؛ في عدم التردد بعد العزيمة، وعدم التشتت بعد الاجتماع على الرأي.

فهم قد عقدوا مجلس الشورى، وقد كانوا مختلفين بين الخروج أو البقاء، ثم أجمعوا أمرهم على الخروج، وهكذا تمت شعيرة الشورى بسلاسة وسلامة، فلا يليق بالمؤمنين بعد ذلك، أن يعودا من حيث بدأوا، وأن يترددوا بعدما ثبتوا، وأن تتفرق كلمتهم بعدما اجتمعوا.

وأنتَ يا عدو نفسك ! يا من لا يقر له رأي، ولا يثبت على وجه .. يا من أفسدتَ الشورى، فلا أنتَ تركتها تمضي دون ذرع العقبات، ولا أنتَ شاركت فيها بفاعلية وصدق – أهيب بك ألا تركت مجلسنا إلى مجلس آخر، فلقاء الشورى لا يعرف الـمُعوُقِين ولا يحب المترددين .

صفة الخروج

وعقد رسول الله -ﷺ- الألوية، وعين الأمراء، ودعا بفرسه فركبه، وخرج السعدان أمامه، يعدوان : سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، كل واحد منهما دارع، وتوجه الجيش الإسلامي، في موكب مهيب، حتى أتى مكان يسمى **" الشيخين"** – قرب جبل أحد – فعسكر به....

إن تنظيم هيئة الخروج؛ من أشد المعينات النفسية، ومن أهم العوامل العنوية لشحذ الهمم، وعلى الجيش الإسلامي أن يسير إلى عدوه في كبرياء وعزة، ونظام وقوة. إن الله يكره الكِبر إلا في هذا الموضع !

---

(١) ابن هشام ٢ / ٦٣ .

لا يُستنصر بأهل الكفر

والْتفت – رسول الله – ﷺ – فنظر إلى كتيبةٍ خَشْناء[1]، لها زجلٌ خلفه [2]، فقال: ما هذه؟ قالوا: يا رسول الله، هؤلاء حلفاء ابن أُبي من يهود. فقال رسول الله – ﷺ – : **"لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك "**[3].

ولقد رأينا مثل هذا المشهد في بدر، فكان رسول الله – ﷺ – قد رد متطوعَين وثنيين، أما هنا في أُحد، فنراه قد ردّ كتيبة يهودية خشناء كاملة.

إنها حرب من أجل العقيدة، وجهاد من أجل التوحيد، فلا يليق بالجيش الإسلامي أن يستعين في معركته هذه بأناس ضد العقيدة وضد التوحيد، ثم إن الإسلام يريد أن يتحمل أتباعه تبعة الجهاد وحدهم، فلن ينصر هذا الدين غيرهم، وهو أمانة في أعناقهم.

ثم إن اليهود، قومٌ لا عهد لهم ولا وفاء، ولو ائتمن القائد الإسلامي أهل الملل والنحل قاطبة؛ فليس من العقل ولا من الحكمة أن يثق في اليهود، والقائد الذي يثق في اليهود؛ كان كالطائر الذي نصب حَبَالةً لأفراخه فأخذها الصائد عن غير كد ولا تعب . ولعل رسول الله – ﷺ – بادر بطردهم في حركة استباقية منه؛ قبل أن يغدروا، أو يفروا، أو يرجعوا، مع حليفهم ابن سلول وجماعة المنافقين، في حركة خذلان المنافقين للجيش الإسلامي كما سيأتي.

أشبال الإسلام

وعُرض على النبي – ﷺ – غلمان الجيش، فكان منهم : عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس، وأبو سعيد الخدري، وسمرة بن جندب، ورافع بن خديج، فردهم، لصغر سنهم ..

وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنه رام، فبلغ ذلك سمرة بن جندب ـ صنوه في السن والقوة ـ وقد رده النبيُ ـ ﷺ ـ، فذهب ـ باكيًا ـ الى زوج أمه مُرّي بن سنان بن

---

(١) أي كثيرة السلاح .

(٢) أي ذات بلاء في الرمي .

(٣) انظر : الواقدي : ٨٢ .

ثعلبة، يستشفع به عند رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال سمرة: ياأبت أجاز رسول الله - ﷺ - رافعاً وردني، وأنا أصرع رافعاً! فأقبل مُرّي بن سنان على رسول الله ـ ﷺ ـ يراجعه في أمر سمرة، فالتفت النبي - ﷺ - الى رافع وسمرة فقال لهما تصارعا، فصرع سمرة رافعاً فأجازه كما أجاز رافعاً.

وهو مشهد يبين لك كيف كان مستوى شعور الشباب بقضية الإسلام، وكيف أن الغلمان في صدر الإسلام بلغوا ملبغًا عظيمًا في الشجاعة وحب الجهاد والسعي نحو الاستشهاد.

إن هؤلاء الرجال الذين هم في سن صغيرة يعرفون جيدًا الوجهة التي يطلبونها، وهي ليست نزهة أو رحلة ترفيهة، إنه القتال، فأحرى بنا؛ أن نغرس في نفوس أولادنا، حُب الجهاد في سبيل ربنا .

ولنُرَبِّي أشبال الإسلام على قيم الشجاعة، وليحفظوا أن الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة، وأن الشجاع موقى، والجبان ملقى، وأن أعظم الجود أن نجود بالنفس في سبيل الله. .

✍ **قال جرير:**

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... هل أنت من شَرك المنية ناجي

✍ **من صفات المنافقين الانخذال عن الأمة وقت الشدة :**

ولما وصل الجيش الإسلامي إلى الشّوْطِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأُحُدٍ ، انْخزَلَ عَنْهُ عَبْدُ اللهّ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ بِثُلُثِ الجيش وَقَالَ: أطاع الولدان ومن لا رأى له وعصاني، مَا نَدْرِي عَلامَ نَقْتُل أَنْفُسَنَا هَاهُنَا أَيّهَا النّاسُ ! ؟ فَرَجَعَ بِمَنْ اتّبَعَهُ مِنْ أَهْلِ النّفَاقِ وَالرّيْبِ، وحاول عَبْدُ اللهّ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ ـ والد جابر ـ تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم الشرعي والوطني في هذا الظرف الحساس، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول :يَا قَوْمِ أُذَكّرُكُمْ اللهّ ألاتخذُلُوا قومَكُمْ وَنَبِيّكُمْ عِنْدَمَا حَضَرَ مِنْ عَدُوّهِمْ ! فَقَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ أَنّكُمْ تُقَاتِلُونَ لمَا أَسْلَمْنَاكُمْ، وَلَكِنّا لا نرَى أَنّهُ يكُونُ قِتَالٌ . فَلَمّا اسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ وَأَبَوْا إلا الاِنْصِرَافَ عَنْهُمْ قَالَ :أَبْعَدَكُمْ اللهُ أَعْدَاءَ اللهِّ فَسَيُغْنِي اللهُ عَنْكُمْ نَبِيّهُ [1].

(١) انظر : ابن هشام ٢ / ٦٤ .

✍ **وأنـزل الله تعـالى:** ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩] .

✍ **وقال في الجبناء المنافقين :** ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٧]

إن هذه الحركة الانخذالية التي بيّت لها هؤلاء المنافقون، تدل على مكنون ضغنهم على الإسلام، وكون هذه الحركةِ تهدف بالأساس إلى إحداث البلبلة والاضطراب في صفوف الجيش الإسلامي، ولو صدق ابن سلول فيما زعم أنه راجع لأن رسول الله – ﷺ – أخذ برأي الجماعة وترك رأي ابن سلول - لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره .

✍ **قال الطائي :**

قد خص من أهل النفاق عصابةً ... وهم أشد أذىً من الكفار

فليحذر الدعاةُ – لدعوتهم – من أهل النفاق : أهل الشقاق ومساوىء الأخلاق. فشر الإخوان؛ الخاتل، الخاذل لأخيه عند المدلهمات.

وخفِضْ عليك أيها الداعية، إذا تآمر عليك المنافقون، وأفسدوا عليك الناس، فإن الدعوة ماضية، والغلبة آتية.

✍ **الأعمى الذي سب النبي - ﷺ -**

وفي الطريق عزم رسول الله –ﷺ – على المرور بمزرعة لرجل منافق ضرير، وأخذ هذا يسبُ النبي–ﷺ – وينال منه ، وأخذ في يده حفنة من تراب وقال – في وقاحة – للنبي–ﷺ –: والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك لرميتك بها ! حَتَّى هَم أصحاب النبي –ﷺ –بقتل هذا المنافق المجرم، فأبي عليهم –نبي الرحمة– وقال:

" دَعُوهُ ! فَهَذَا الأعْمَى ، أَعْمَى الْقَلْبِ ، أَعْمَى الْبَصِيرَةِ "(١) .

إن الإساءة للرسول –ﷺ – من الكبائر الكبار، ولا جزاء لمن سب الرسول إلا القتل، بيد أن نبي الرحمة عفى وغفر في هذا الموقف على سبيل الاستثناء لعاهة المسيىء.

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٢٣ .

وتأمل التصرف المباشر للصحابة لقد هموا بقتل المسيء سراعًا، فهم يعلمون أن الحكم يكون بالقتل الفوري لمن أساء لخاتم النبيين -ﷺ- .

ولقد أجمع علماء الأمة سلفهم وخلفهم على وجوب قتل من سب رسول الله -ﷺ-

✍ **قال ابن المنذر: "أجمع عامة أهل العلم على أن من سب النبي -ﷺ- عليه القتل، وممن قال ذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي ... ورُوي أن رجلاً قال في مجلس عليٍّ: ما قتل كعب بن الأشراف إلا غدراً. فأمر عليٌّ بضرب عنقه"**(١).

والمسيء للنبي يُقتل دون استتابة، قال الإمام مالك: **" لا يُستتاب من سبَّ النبيَّ -ﷺ- من الكفار والمسلمين"** (٢).

✍ **وقال عياض: "من سبَّ النبي -ﷺ-، أو عابه، أو ألحق به نقصاً في نفسه أو دينه أو نسبه أو خصلة من خصاله، أو عَرَّضَ به، أو شبَّهه بشيء على طريق السبِّ له والإزراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه أو العيب له فهو ساب له، والحكم فيه حكم الساب يُقتل ... وكذلك من نسب إليه مالا يليق بمنصبه على طريق الذم، ومشهور قول مالك في هذا كله أنه يقتل حداً لا كفراً، لهذا لا تُقبل توبته، ولا تنفعه استقالته وفيئته "**(٣).

✍ **وقال الليث بن سعد : " لا يُناظر ولا يُستتاب ويُقتل مكانه "**(٤).

انظر، وتأمل قول الليث: **" لا يُناظر "** .. فلا حوار مع من أساء للنبي -ﷺ-، ولا تعايش مع من سب الرسول الله -ﷺ- .

"ولا يُستتاب" .. فلا مهلة له لمراجعته، ولا يترك أيامًا عله أن يتوب .. ومن ثم :

"يقتل مكانه" .. فجريمته النكراء وكفرته الصلعاء بلغت مبلغًا حده ألا يُترك المسيءُ لحظة واحدة بعد أن تعرض لجناب النبي - صلوات الله وسلامه عليه - .

***

وهكذا كانت هذه الحلقة..

---

(١) تفسير القرطبي ٢/ ٨٢ .

(٢) الذهبي : أعلام النبلاء ٨/ ١٠٣ .

(٣) التاج والإكليل لمختصر خليل :٢/ ٢٨٥-٢٨٦ .

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٤/ ٢٧٥ .

✍ **عَلِمنا منها :**

- أن الأحلام والرؤى المنامية ليست من أدلة الأحكام الشرعية وإنما هي للتبشير أو التبصير.

- وأن الشورى ركن من أركان العلاقة بين الراعي والرعية، وأنها مُلزمه لمن تـأمر على الناس، وأنها لا يقيمها بها إلا بار، ولا يدعها إلا جبار، ولا يجحدها إلا كفار.

- وأن التردد بعد العزيمة ، والرجوع في الأمر بعد الإجماع عليه، والانخـزال بعـد الشورى، من آفات التي تهدم العمل الجماعي، وتفشل العمل الدعوي، وتذهب ريـح المسلمين، وتقوي شوكة الكافرين . فتعَلَّمْ – أخي – الحزم والحسم في الأمور.

- وأن الجيش القليل المنظم خير من الكثير غير المنظم، وأن ريح النظام أقوى مـن جبال الفوضى، وأن هيئة القائد ينبغي أن تكون على درجة عالية من الوقار والتـوقير، والتبجيل والتعزير . فتعَلَّمْ – أخي – فنون التنظيم والعمل الجماعي .

- وأن اليهود قوم بُهت، لا يُـؤتمن لهـم لا في حـرب ولا في سـلم، وأن الاسـتعانة بالمشرك في جيش مع المسلمين مَفسدة، وأن الاستعانة بـاليهود في صـفوف المـسلمين مَهلكة. وحُوشيت – أخي – أن تنخدع باليهود يومًا من الأيام !

- وأن الأطفال إذا لم يتربوا على الشجاعة عاشوا جبناء، وإذا لم ينشأوا على الجهاد كبروا أذلاء، وحَرِيٌ بالآباء والمعلمين أن يتعهدوا الأولاد بمدارسة الغزوات، وأن يتعلم المسلم الصغير الغزوة من الغزوات، والسرية من السرايا، كما يتعلم السورة من القرآن.

- وأن الإساءة لنبي الرحمة، جريمة لا نعرف لها نظيرًا، وهي تُوجـب القتـل حـدًا فورًا، وأن التحاور مع قادة الحملات الإعلامية المسيئة للنبي – ﷺ – غير جائز من الناحيـة الـشرعية . فنـافحْ دومًـا عـن عرض نبينا – ﷺ –.



١ـ اشرح غزوة أحد لصبي من صبيان المسلمين .

٢ـ إياك وأخلاقَ المنافقين التي حذر منها النبي ـ ﷺ ـ:" **إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَـانَ"، "وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"** [1]

---

١ البخاري : رقم : ٣٢، ٣٣

عند جبل أحد

وضوح المهام والتعليمات

لما نزل الجيش الإسلامي أرض المعركة، اختار رسول الله – ﷺ – لجيشه خمسين رجلاً راميًا، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير، وهو مُعلَم يومئذ بثوب أبيض، وقال له رسول الله – ﷺ – في تعليمات واضحة وتنبيهات بيّنة: **" انْضَحْ الْخَيْلَ عَنّا بِالنّبْلِ، لا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا ، إنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا؛ فَاثْبُتْ مَكَانَك لا نُؤْتَيَنّ مِنْ قِبَلِكِ "**(١).

فمن الآداب النبوية في ميدان الجهاد أن يقوم القائدُ بتوضيح المهام لجنوده غاية التوضيح وغاية التبيين، ويؤكد عليها من حين إلى آخر على مسامع الجند، وذلك حتى لا ينسى الغافل، ولا يتعلل الفاشل، ولا يتشوش الأمر على الساهي.

فنراه – ﷺ – يؤكد تعليماته هذه على الرماه بقوله :

"إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ، فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ "(٢) .

وأكد الأمر مرارًا وتكرارًا بقوله :

"الزموا مكانكم لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم ! " (٣)

إن القائد الإسلامي لا يكل ولا يمل من تذكير جنده بمواطن الثلمات، فهو ببصيرته الإيمانية وبخبرتيه الحربية، يعرف ثغرات الجيوش، ومن أين تُؤتى الأوطان .

حسن اختيار الموقع

ونرى حصافة القائد في حُسن اختيار موقع النزول بجيشه في أرض المعركة، حيث وَظف جبل الرماة (**وهو جبل عينين**) في حماية ظهر الجيش .

---

(١) ابن هشام :٢/ ٦٥ .

(٢) أخرجه البخاري :(٢٨١٢) .

(٣) الحلبية ٢/ ٤٩٦ .

كما أن المسلمين كانوا مشاة بينما يتفوق المشركون عليهم بسلاح الفرسان بقوة مائتي فارس،هم في مقدمة الجيش الوثني .. فأراد الرسول -ﷺ- تخفيف حدة هذه القوة، فكانت فكرة الرماة لدفع الخيل، ولمنع الالتفاف حول الجيش ، ثم اختار النبي -ﷺ- مساحة ضيقة من جبل أحد بحيث يمنع الجيشَ الوثني من الهجوم بكامل قوته أو الدخول بكامل واجهة الجيش.

إذنْ تمكن الرسول -ﷺ- من إحداث التعادل مع خصمه في ميزان القوة العسكرية بهاتين الطريقتين : الأولى، كتيبة الرماة، والثانية، النزول بالجيش في الشعِب من موضع جبل أحد في عدوة الوادي، وقد جعل من ظهر الجيش جبل أُحد .

✍ **عدم القتال إلا بإذن القائد :**

ولما اقتربت ساعة الصفر، قال النبي -ﷺ- :" **لا يُقَاتِلُنّ أَحَدٌ مِنْكُمْ حَتّى نَأْمُرُهُ بِالْقِتَالِ** " (١) .

فلابد من توحيد القيادة، واحترام القائد، والسمع له والطاعة . ثم إن التهور في المبادءة يترتب عليه ضرر كبير يلحق بالجيش كله، فيُهلك المرء نفسه وجماعته، ويسيء لنفسه ولدعوته، وتهتز صورته وهيبة قائده . وسوء الاستماك خير من حسن الصرعة . وليس الحذر يقي من القدر فكيف التهور !

✍ **حسن النظام والتنظيم :**

إن من أشد الأسلحة التي ترهب العدو؛ النظام، ودقة الصفوف، وجمال التنسيق.. فقد جَعَلَ رَسُولُ اللّهِ -ﷺ- يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ في أرض المعركة، يُسَوّي الصّفُوفَ، وَيُبَوّئُ أَصْحَابَهُ لِلْقِتَالِ، يَقُولُ : "**تَقَدّمْ يَا فُلانٌ وَتَأَخّرْ يَا فُلانٌ**... " حَتّى إنّهُ لَيَرَى مَنْكِبَ الرّجُلِ خَارِجًا فَيُؤَخّرُهُ، فَهُوَ يُقَوّمُهُمْ كَأَنّمَا يُقَوّمُ بِهِمْ الْقِدَاحَ ! حَتّى إذَا اسْتَوَتْ الصّفُوفُ، سَأَلَ مَنْ يَحْمِلُ لِوَاءَ الْمُشْرِكِينَ ؟ قِيلَ بَنُو عَبْدِ الدّارِ. قَالَ نَحْنُ أَحَقّ بِالْوَفَاءِ مِنْهُمْ . أَيْنَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ؟ قَالَ هَا أَنَا ذَا ! قَالَ : " **خُذْ اللّوَاءَ** "، فَأَخَذَهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، فَتَقَدّمَ بِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللّهِ - ﷺ - (٢).

---

(١) ابن هشام ٢/ ٦٥ .

(٢) الواقدي ٢٢١.

وقام رسول الله - ﷺ - بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب، هي:

١- كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير - رضي الله عنه -.

٢- كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر - رضي الله عنه-.

٣- كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير - رضي الله عنه.

أهمية التوجيهات الأخلاقية والإيمانية قبل المعركة :

إن العرف في الحروب القذرة، هو تشجيع الجنود على السلب والنهب وهتك الأعراض وسفك الدماء، بلا رحمة أو مراعاة لطفل أو امرأة أو شيخ .. نلحظ ذلك في حروب الماضي والحاضر، وخير شاهد على الماضي تلك الحروب الصليبية التي أوصت بقتل الأطفال والشيوخ والنساء بل قتل الحجاج والنساك، أما الحاضر، فليست حروب الصهاينة في فلسطين منا ببعيد، حيث هدم المنازل ، وتجريف المزارع، وضرب المساجد، وقتل الأطفال، وأَسر النساء . أما الأمريكان، فقد بلغوا مبلغًا شنيعًا في الحروب القذرة، واستحدثوا الأساليب والوسائل في تعذيب الأبرياء، وهتك أعرض النساء، وبلغوا في ذلك مبلغًا لم يبلغه أحد من قبلهم . ويقول بعض المحللين إن الأمريكان ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية في عام واحد فقط تفوق في حجمها وبشاعتها ما ارتكبته دول ودكتاتوريات في قرون . ولقد كانت قيادة الجيش الأمريكي في العرق تقوم من حين إلى آخر بتوزيع منشورات على جنودها تحثهم فيها على القتل والاغتصاب وإذلال الشعب العراقي بشتى الصور، ونَقَلَ بعض الصحفيين لوسائل الإعلام نماذجَ من هذه المنشورات التي كانت تحت عنوان : **" كل العراقيين إرهابيون "** .

أما في أصول الحرب عند نبي الرحمة –ﷺ– نجد أنه لما صف الصفوف في أحد قبل المعركة ، قَامَ فَخَطَبَ الجيش، وأوصى الجيش بالتقوى وجملة من فضائل الأخلاق فَقَالَ :

" يَا أَيّهَا النّاسُ ! أُوصِيكُمْ بِمَا أَوْصَانِي اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَالتّنَاهِي عَنْ مَحَارِمِهِ . ثُمّ إنّكُمْ الْيَوْمَ بِمَنْزِلِ أَجْرٍ وَذُخْرٍ، لِمَنْ ذَكَرَ الّذِي عَلَيْهِ، ثُمّ وَطّنَ نَفْسَهُ لَهُ عَلَى الصّبْرِ وَالْيَقِينِ وَالْجِدّ وَالنّشَاطِ، فَإِنّ جِهَادَ الْعَدُوّ شَدِيدٌ؛ شَدِيدٌ كَرْبُهُ، قَلِيلٌ مَنْ يَصْبِرُ عَلَيْهِ – إلا مَنْ عَزَمَ اللهُ رُشْدَهُ – فَإِنّ اللهّ مَعَ مَنْ أَطَاعَهُ، وَإِنّ الشّيْطَانَ مَعَ مَنْ عَصَاهُ،

فَافْتَتِحُوا أَعْمَالَكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ وَالْتَمِسُوا بِذَلِكَ مَا وَعَدَكُمْ اللهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ فَإِنِّي حَرِيصٌ عَلَى رُشْدِكُمْ، فَإِنَّ الإِخْتِلافَ وَالتَّنَازُعَ وَالتَّثْبِيطَ مِنْ أَمْرِ الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ، مِمَّا لا يُحِبّ اللهُ، وَلا يُعْطِي عَلَيْهِ النَّصْرَ وَلا الظَّفَرَ .

" يَا أَيّهَا النَّاسُ ! جُدّدَ فِي صَدْرِي (١) أَنّ مَنْ كَانَ عَلَى حَرَام فَرّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، وَمَنْ رَغِبَ لَهُ عَنْهُ غَفَرَ اللهُ ذَنْبَهُ، وَمَنْ صَلّى عَلَيّ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ عَشْرًا ، وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُ أَوْ آجِلِ آخِرَتِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَعَلَيْهِ الْجُمُعَةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إلا صَبِيّا أَوْ امْرَأَةً أَوْ مَرِيضًا أَوْ عَبْدًا مَمْلُوكًا ، وَمَنْ اسْتَغْنَى عَنْهَا اسْتَغْنَى اللهُ عَنْهُ، وَاَللّهُ غَنِيّ حَمِيدٌ .

"مَا أَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ يُقَرّبُكُمْ إلَى اللهّ إلا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلا أَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ يُقَرّبُكُمْ إلَى النّارِ إلا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ . وَإِنّهُ قَدْ نَفَثَ فِي رُوعِي الرّوحُ الأَمِينُ أَنّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتّى تَسْتَوْفِيَ أَقْصَى رِزْقِهَا ، لا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا . فَاتّقُوا اللهّ رَبّكُمْ وَأَجْمِلُوا فِي طَلَبِ الرّزْقِ، وَلا يَحْمِلَنكُمْ اسْتِبْطَاؤُهُ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ رَبّكُمْ، فَإِنّهُ لا يُقْدَرُ عَلَى مَا عِنْدَهُ إلا بِطَاعَتِهِ . قَدْ بَيّنَ لَكُمْ الْحَلالَ وَالْحَرَامَ غَيْرَ أَنّ بَيْنَهُمَا شَبَهًا مِنْ الأَمْرِ لَمْ يَعْلَمْهَا كَثِيرٌ مِنْ النّاسِ إلا مَنْ عَصَمَ، فَمَنْ تَرَكَهَا حَفِظَ عِرْضَهُ وَدِينَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِيهَا كَانَ كَالرّاعِي إلَى جَنْبِ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ . وَلَيْسَ مَلِكٌ إلا وَلَهُ حِمًى ، ألا ! وَإِنّ حِمَى اللهّ مَحَارِمُهُ . وَالْمُؤْمِنُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ كَالرّأْسِ مِنْ الْجَسَدِ إذَا اشْتَكَى تَدَاعَى عَلَيْهِ سَائِرُ الْجَسَدِ . وَالسّلامُ عَلَيْكُمْ " (٢) .

✍ ويستفاد من هذه الخطبة عدة دروس منها:

١- خطورة المعاصي والكبائر على الجيش

٢- أهمية الجد والنشاط في ساحة الحرب

٢- ضرورة الصبر والمثابرة عند القتال.

٣- خطر الاختلاف والتنازع على الجيش.

٤- أهمية الأخوة الحب في الله بين الجنود .

---

(١) قذف في قلبي .

(٢) الواقدي ٢٢٢ .

٦- أهمية عقيدة القضاء والقدر في وجدان الجنود .

٧- ضرورة المحافظة على الذكر والأوراد والصلاة على النبي -ﷺ -

٨- ضرورة الابتاعد الشبهات .

✍ **تشجيع الجنود**

وأخذ رسول الله -ﷺ - يُشجع المؤمنين، فرفع سيفًا، وقال :

"مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السّيْفَ بِحَقّهِ ؟ " !

فَقَامَ إلَيْهِ رِجَالٌ فَأَمْسَكَهُ عَنْهُمْ، حَتّى قَامَ إلَيْهِ أَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ، فَقَالَ : وَمَا حَقّهُ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟

✍ **قَالَ : "أَنْ تَضْرِبَ بِهِ الْعَدُوّ حَتّى يَنْحَنِيَ " !!**

✍ **قَالَ :** أَنَا آخُذُهُ يَا رَسُولَ اللّهِ بِحَقّهِ .

فَأَعْطَاهُ إيّاهُ وَكَانَ أَبُو دُجَانَةَ ، رَجُلاً ، شُجَاعًا، يَخْتَالُ عِنْدَ الْحَرْبِ إذَا كَانَتْ، وَكَانَ إذَا أَعْلَمَ بِعِصَابَةٍ لَهُ حَمْرَاءَ ، فَاعْتَصَبَ بِهَا؛ عَلِمَ النّاسُ أَنّهُ سَيُقَاتِلُ، فَلَمّا أَخَذَ السّيْفَ مِنْ يَدِ رَسُولِ اللّهِ -ﷺ - أَخْرَجَ عِصَابَتَهُ تِلْكَ فَعَصَبَ بِهَا رَأْسَهُ، وَجَعَلَ يَتَبَخْتَرُ بَيْنَ الصّفّيْنِ . فقَالَ رَسُولُ اللّهِ -ﷺ - حِينَ رَأَى أَبَا دُجَانَةَ يَتَبَخْتَرُ - : " **إنّهَا لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللّهُ إلا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ** "(١).

وهو درس في أهمية التشجيع والتحريض، وحث الناس، ودفعهم دفعًا، نحو الجهاد، بإلهاب مشاعرهم، وتحريك ضمائرهم، وشحذ هممهم .

وهنا تراه رفع سيفًا كريمًا، وفتح باب السباق، وأعلن جولة المنافسة، وقال يهتف بهم : **"مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السّيْفَ بِحَقّهِ ؟ " !**

وكلما قام أحدهم يبغي أن ينال شرف استلام السيف من يد خاتم النبيين، سرعان ما يأمره النبي -ﷺ - بالجلوس، ولا زال يردد مرارًا: **"مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السّيْفَ بِحَقّهِ ؟ " !** حتى أيقظ النفوس، وطرق القلوب، فاقشعرت الجلود لنداء محمد، حتى قام الفارس المُعَلَم " **سماك** " فأخذ السيف بحقه، فأخذ هذا الفارس ينتشي، مزهوًا بشجاعته، مغتبطًا بتلك المكرمة، متبخترًا بين الإخوان، يمشي في تكبر وإباء، وعزة وفخار، فقال

---

(١) ابن هشام ٢/ ٦٦ .

رسول الله -ﷺ- موضحًا - : " **إِنّهَا لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إلا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ** "، ليبين للشباب المسلم أن هذا هو ميدان التفاخر، وأن هذا هو ميدان التسميع، وأن هـذا هـو ميدان الشهرة والكبر، ليس ميدان الأزياء والأموال والنساء والأحساب !

✍ **أخلاقيات المبارزة :**

ولما تراآى الجمعان، صاح طلحة بن عثمان، صاحب لواء المشركين، قائلا: يا معشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجِّلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجِّلكم بسيوفنا إلى الجنة! فهل منكم أحد يعجِّله الله بسيفي إلى الجنة! أو يعجِّلني بسيفه إلى النار؟ فقام إليه علي بن أبي طالب، فقال: والذي نفسي بيده، لا أفارقك حتى يعجِّلك الله بسيفي إلى النار، أو يعجِّلني بسيفك إلى الجنة! فضربه علي فقطع رجلَه، فسقط، فانكشفت عورته، فقال: أنشدك الله والرحم، ابنَ عم! فتركه.

فكبّر رسول الله -ﷺ-، وقيل لعليّ: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال: إنّ ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحييت منه [1].

ثمة مشهد نقف أمامه يعد من مفاخر السيرة العسكرية في العهد النبوي، ذلك العهد الذي تخرج فيه من مدرسة محمد -ﷺ- أمثال هؤلاء الرجال الأبطال، الذين يقاتلون من أجل راية الله لا من أجل مجد شخصي أو منصب أو جاه، وهم مع ذلك يعلون من القيم الأخلاقية والشهامة حتى في أثناء طاحونة الحرب ودوامة المعركة . لا ينسون " **الأخلاق**" حتى في أشد اللحظات. وذلك بلا شك يبين طبيعة النبت الذي ينمو ويربو في بيئة إسلامية تُعلي مكارم الإخلاق تحت قيادة نبي بُعث ليتممها !

والمجاهد في سبيل الله مع ما يتصف به من ركانة الصرامة، واستجماع القوة، ترى فيه غلوب الشهامة . والرجل الشهم هو السَّيِّدُ الكريم النَّجْدُ النافذُ في الأُمور..

والفارس المسلم الذي تفرست في مخايله الشجاعة، وتمخضت عن سلوكه الشهامة، هو قائدٌ قد استكمل بين جنبيه الفدائية الإسلامية، وحقيق أن يُمنح لقب " **مجاهد** "

✍ **قال الشاعر يمدح من توفرت فيه الخصلتين :**

له هممٌ تعلو السحائب رفعةً ... وكم جاد منها بالنفائس والنفس!

(١) الطبري ١ / ٤٧٢ .

✍ الهزيمة في دبر المعصية ومخالفة الجندي لقائده:

وبدأ القتال، واستبسل المسلمون، وصبروا ، وكان شعارهم : " **أمت، أمت** "، وضربوا روائع الأمثلة في البطولة والشجاعة، فصدقهم الله وعده، وحَسّوا بسيوفهم رقاب المشركين، وحصدوا بميامنهم أرواح المجرمين، وقد وصف الله تعالى هذه الجولة الأولى بقولة :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

ولما بدأ الجيش الوثني في الفرار، وبدأ المسلمون في جمع الغنيمة، أراد الرماة أن ينزلوا إلى ساحة المعركة لجمع نصيبهم، فقال أَصْحَابُ عَبْدِ اللهَّ بْنِ جُبَيْرٍ : الْغَنِيمَةَ!... ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ ؟ ! فَقَالَ عَبْدُ اللهَّ بْنُ جُبَيْرٍ:أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- ؟ قَالُوا : وَاللهَّ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنْ الْغَنِيمَةِ [١]!

ثم غادر أربعون رجَلاً ـ أو أكثر ـ مواقعهم من الجبل، والتحقوا بالجيش ليشاركوه في جمع الغنائم . وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا عَبْدُ اللهَّ بْنُ جُبَيْرٍ وحوالي تسعة من الرماة والتزموا مواقفهم مصممين على البقاء .. وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فكرَّ بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة ليدور من خلفه إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد البقية المتبقية من جيش الرماة، ثم انقض خالد على المسلمين من خلفهم، فانقلبوا على المسلمين، وأُحيط المسلمون من الأمام والخلف، وتفرقت كلمتهم، وذهبت ريحهم، وأُشيع مقتل الرسول، والرَّسُولُ يدعوهم فِي أُخْرَاهُمْ ..

وانقسم المسلمون إلى خمس طوائف، طائفة قد أهمتهم أنفسهم وهم جماعة من المنافقين لم يرجعوا مع ابن سلول، وطائفة فرت - ولقد عفا الله عنهم-، وطائفة انسحبت إلى الخلف نحو وادي أُحد لإعادة بناء الجيش، وطائفة استمرت في مقاتلة الأعداء حتى الموت، وطائفة أحدقت برسول الله -ﷺ- تحرسه وتقاتل دونه .

---

(١) البخاري ٢٨١٢ .

ولم يبق مع النبي -ﷺ- غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، وحاول المشركون قتل النبي ﷺ، وأمطروه ضربًا، فشُجَّ وَجْهُهُ الشريف، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُه الكريمةُ، وَجُرِحَتْ وَجْنَتُهُ الطاهرة، وَجُرحت شَفَتُهُ السُّفْلَى مِنْ بَاطِنِهَا، وَجُحِشَتْ رُكْبَتُهُ، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وقَتل المشركون من المسلمين سَبْعِينَ من أكارم الصحابة، وعلى رأسهم حمزة ومصعب وعبد الله بن جحش وسعد بن الربيع وحنظلة بن أبي عامر .

وأعمل المشركون الـمُثلة بجثث الشهداء، فبقروا البطون، وجدعوا الأنوف، وقطعوا الآذان.

✍ **وهكذا حدثت المصيبة .. والسبب :**

١- مخالفة تعليمات القائد الأعلى (**النبي** ﷺ)

٢- مخالفة تعليمات القائد المباشر (**عبد الله بن جبير رضي الله عنه**)

٣- عدم الصبر على السراء (**فلم يطيقوا الانتظار والغنائم تجمع أمام أعينهم**)

٤- الانشغال بالدنيا وغنائمها .

***

إن الدارس لهذه الغزوة يكاد لا يلوي على شيء حدث في هذه الغزوة سوى خبر شجّ وجه النبي -ﷺ- وكسر رباعيته، فضلاً عن تلك الضربات التي دفعته نحو الأرض، فلا رغبة للباحث في مدارسة المواقف الهامة التي حصلت بعد ذلك لاسيما بطولات الصحابة في هذا اليوم !

✍ **وكأني أردد قولة النبي -ﷺ- حينئذ :**

"كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ"[1] .

فما حدث للنبي -ﷺ- من ضرب وجرح وقرح، أمر خطير جلل، وجد صعب، وأحرى بنا أن نقف نتأمل هذا المشهد الخطير . أن يُضرب النبي ويُصاب بسبب معصية المسلمين، أن يسقط رسول الله -ﷺ- بسبب مخالفة الرماة لأمر رسول الله -ﷺ-.

***

(١) أخرجه مسلم: ٣٣٤٦ .

ولقد استُشهد جمعٌ من المسلمين في هذه الغزوة، وكانوا قد ظنوا أن رسول الله ﷺ ، قد قُتل، وماتوا وهم يظنون ذلك ! وقد كان يهتف بعضهم – بعدما أُشيع مقتل النبي – : " **ما تصنعون بالحياة بعده، موتوا على ما مات عليه رسول الله !** "[1].. أي مرارة هذه التي في القلب ! وأي غصة تلك التي في الحَلق ! لقد كان بين رسول الله – ﷺ – وبين القتل قاب قوسين أو أدنى؛ والسبب معصية المسلمين !

وأوشكت الأمة أن تخسر نبيها بسبب معصية جماعة منها ، ومن ثم تتجرع الندم سرمدًا ! فما أعمق هذا الدرس !

ولقد كان من قدر الله يُشاع ذلك، ليستوعب المسلمون درس التبعة، وأن بقاء الدعوة أهم من بقاء الداعي، وأن حياة الرسالة أولى من حياة الرسول، وأجدر بالجميع – وعلى رأسهم النبي – أن يضّحوا بالمهج من أجل الإسلام .

✍ **ومن ثم كان النداء القارع القارص :**

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٤]

فلا خير في دعوة تموت بموت داعيها، ولا بقاء لجماعة ترتبط بالأشخاص والرجال أكثر من ارتباطها بالمنهج والأركان .

***

إن معظم المسلمين لم يعصوا أمر رسول الله – ﷺ – ، بل العصيان جاء من جماعة لم يتجاوز عددهم خمسين رجلاً ، فمعصية الخاصة جلبت الهزيمة على العامة، وقد قال الله تعالى محذرًا : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الأنفال:٢٥]

فكم من معصية ارتكبها الخاصة فباء بشؤمها العامة ! بيد أن الله يبعث الناس على نياتهم.

***

(١) السيرة الحلبية ٢/ ٣٨٧ .

إن التعلق بالدنيا أصل كل خطيئة، والركون إلى الدعة أُس كل هزيمة، والانشغال بالمال طريق الخزي في الدنيا والآخرة. ولقد رأينا السبب الأوحد الذي نزل الرماةُ من أجله تاركين الموضع الذي استخلفهم فيه رسول الله -ﷺ- .

لقد نزلوا من أجل الدنيا !

وأنزل الله : (**مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا**) يعني الغنيمة ..

قال ابن مسعود: ما كنت أرى أحدًا من أصحاب رسول الله -ﷺ- يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد: (**مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآَخِرَةَ**)[1] .

وانظر إلى هذا الخذلان الذي أحدثته جماعة الرماة ضد إخوانهم الثابتين فوق الجبل، والمجاهدين تحت الجبل . والإخوان هم العدة عند الشدة . وشر الإخوان من التمس منفعة نفسهِ بضُر أخيه، وأقبح الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة .

***

وكوْن النبي -ﷺ- يُصاب بما أُصيب به أصحابه من قرح، دلالة على أن نواميس الله لا تحابي أحدًا، وأن أسباب النصر إذا ما تحققت لقومٍ؛ ظفروا بالظفر وإن كانوا تحت قيادة الوثن، وأن أسباب الهزيمة إذا ما توفرت لفئة؛ باءوا بالهزيمة وإن كان فيهم نبي مرسل .

﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [آل عمران:١٦٠] .

فإن نصرْنا الله في أنفسنا نصَرَنا، وإن خذلناه خذلنا ..

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد:٧]

سبحانه، له مقاليد النصر وحده، يعز من يشاء ويذل من يشاء ..

﴿ **أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ** ﴾ [المُلك:٢٠]



مدارسة آيات غزوة أحد في سورة آل عمران

---

١ تفسير الطبري ٧/ ٢٩٥



التضحية

✍ **الثفقة في القرآن :**

ما أعظم تضحيات النبي – ﷺ - ! ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة !

لقد بذل – ﷺ – وبذل أصحابه – النفس والمال والوقت والحياة في سبيل الله تعالى .

ولقد أبرموا ثفقة التضحية، فكانت التجارة الرابحة، وكان الجائزة الجزيلة والجنة العالية، قال الله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

[التوبة:١١١]

ولقد عاشوا معاني التضحية في كل حركاتهم وسكناتهم، في سبيل الله، وبذلوا الجهد الجهيد، والوقت الثمين، في سبيل الله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠].

واختاروا السلاح على اللقاح، والجياد على الأولاد، ولم تشغلهم أعباء البيت عن الجهاد، ولم تشغلهم الأموال والأعمال عن الخروج في سبيل الله:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

✍ **مضاربون في أرواحهم :**

لقد كانت تضحيات النبي – ﷺ – كبيرة جدًا، وعظيمة جدًا .. ولقد ضرب الصحابة المثل في هذا الميدان يوم أُحد ، فرسموا أروع لوحات التضحية بالنفس، وإليك هذه اللوحات :

✍ **أنس بن النضر :**

فهذا أنس بن النضر – رضي الله عنه – لم يشهد بدرًا، فشق عليه، فأقسم قائلاً :

"لئن أرانى الله مشهدًا فيما بعد مع رسول الله -ﷺ- ليرين الله ما أصنع"(١).

فلما كانت أحد، حيث انهزم المسلمون، وأُشيع مقتل النبي -ﷺ-، إذ بأنس – رضي الله عنه – يشق الصفوف شقًا، ويضرب الرؤوس ضربًا، ويفلق الهامات فلقًا ، وهو يقول : **"واها لريح الجنة ! أجده دون أحد."**، فثبَّت المسلمين، وقاتل المشركين حتى قُتل، فوُجد في جسده بضع وثمانون من طعنة ورمية ولكمة.

قالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفتُ أخى إلا ببنانه.

✍ **وفيه نزل قول الله تعالى :**

" من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا "(٢).

فضحّى أنس، ومضى إلى ربه ..

✍ **مصعب بن عمير**

أما مصعب ذلك الشاب الذي ترك نعيم الدنيا، وقد كان أنعم شابًا في قريش، وقد كان يُضرب به المثال في جمال الملبس، وفخر الحُلة، وزهو الطيب، فقاتل في أُحد دون رسول الله -ﷺ- حتى قُتل وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي وهو يظن أنه رسول الله -ﷺ- فرجع إلى قريش فقال قتلت محمدًا . فلما قُتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله -ﷺ- اللواء علي بن أبي طالب ، وبعد المعركة، لم يجد رسول الله -ﷺ- لمصعب ثوبًا يستره كاملاً يكفنه به(٣).

✍ **قال عبد الرحمن بن عوف** : قُتل مصعب بن عمير وهو خير منى، كُفن في بردة إن غُطى رأسه بدت رجلاه، وإن غُطى رجلاه بدا رأسه .

✍ **فقال رسول الله -ﷺ- :" غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ الإِذْخِرَ"**(٤) .

---

(١) ابن كثير (السيرة): ٣/ ٦٢ .

(٢) ابن كثير (السيرة): ٣/ ٦٢ .

(٣) ابن كثير (السيرة): ٣/ ٧٣ .

(٤) أخرجه البخاري:٣٧٧٣ .

فضحى مصعب ومضى إلى ربه ..

✍ **حمزة بن عبد المطلب**

وهذا حمزة عم النبي ﷺ ، الذي طالما وقف في وجه طغاة قريش، وهاجر، ونافح، وقاتل في بدر، فكان أسد الله، حتى إذا كانت أحد؛ فقاتل فقُتل فكان سيد الشهداء، ولقد مثَّل بجثمانه المشركون تمثيلاً بشعًا، وخرج رسول الله -ﷺ - يتفقد القتلى، ويلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده قد بُقر بطنه عن كبده، ومُثّل به فجُدع أنفه وأذناه وحزن رسول الله -ﷺ - حزنًا شديدًا، وأرسل عليه العبرات الزفرات وقال :

"لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِك أَبَدًا !!! مَا وَقَفْتُ مَوْقِفًا قَطّ، أَغْيَظَ إلَيّ مِنْ هَذَا !!! "[1].

لقد ضحى أسد الله ومضى إلى ربه ..

✍ **سعد بن الربيع**

ويتفقد رسول الله -ﷺ - القتلى، ويفتقد سعد بن الربيع، فلا يجده، فيقول - :

"مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ الرّبِيعِ ؟ أَفِي الأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي الأَمْوَاتِ ؟ " ..

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأنصار : أَنَا أَنْظُرُ لَك يَا رَسُولَ اللّهِ مَا فَعَلَ سَعْدٌ ، فَنَظَرَ فَوَجَدَهُ جَرِيحًا فِي الْقَتْلَى وَبِهِ رَمَقٌ . قَالَ : فَقُلْت لَهُ إنّ رَسُولَ اللّهِ -ﷺ - أَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ أَفِي الأَحْيَاءِ أَنْتَ أَمْ فِي الأَمْوَاتِ ؟ قَالَ : أَنَا فِي الأَمْوَاتِ فَأَبْلِغْ رَسُولَ اللّهِ-ﷺ - عَنّي السّلاَمَ، وَقُلْ لَهُ إنّ سَعْدَ بْنَ الرّبِيعِ يَقُولُ لَك : جَزَاك اللّهُ عَنّا خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيّا عَنْ أُمّتِهِ ! وَأَبْلِغْ قَوْمَك عَنّي السلام وَقُلْ لَهُمْ:إن سَعْدَ بْنَ الرّبِيعِ يقُولُ لَكُمْ إنّهُ لا عُذْرَ لَكُمْ عِنْدَ اللّهِ إنْ خَلُصَ إلَى نَبِيّكُمْ-ﷺ -وَمِنْكُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ!

✍ **قَالَ** :ثُمّ لَمْ أَبْرَحْ حَتّى مَاتَ[2] .

✍ **التضحية ضريبة الحضارات**

هل سمعتَ بدعوة قامت لها قائمة دون تضحية ؟ وهل رأيت حضارة ظاهرة بغير تضحيات ؟ وهل خطر ببالك أن تبني مجدًا لدينك دون أن تلعق الصبر؟

فلا قوام للدعوة الإسلامية بغير تضحية، ولا سبيل إلى رضوان الله وجنته دون تضحية، قال الله تعالى :

---

(١) ابن هشام ٢/ ٩٤ .

(٢) ابن هشام ٢/ ٩٤ .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾
[البقرة:٢١٤]

التضحية أو الفسق !

إن الذين لا يضحون من أجل الله، ولا يبذلون المال والجهد والوقت من أجل دعوته ، وانغمسوا في الحرص الدنيء، والشره السافل، هم أناس حكم الله تعالى عليهم بالفسق.

قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة:٢٤].

ويقول النبي - ﷺ - :

" إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ"[١]

قال صاحب الظلال : " إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكاً؛ فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها ، وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة؛ ولا أن يترهبن ويزهد في طيبات الحياة . . كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة ، وهي المحركة والدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة؛ على أن يكون مستعداً لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة ."[٢].

التضحيةَ أو الفسق! أن يُمكن للحق أو يسيطر الباطل، وبغير التضحية، يظهر اللص، ويقود الظلوم، ويسود الغشوم، أولئك الذين لا يتركون، حقًا ولا خُلقًا،

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٠٣) وهو في السلسلة الصحيحة برقم ١١.
(٢) الظلال ٣/ ١٦١٥.

ولاخفًا ولا حافرًا، ولاصادحًا ولا باغمًا إلا أتوْ عليه. وكانت شغلتهم نشر الفقر المُدْقع، والذل المُضْرِع، ولن يزول سلطان هؤلاء إلا بتضحيات الشرفاء، أحرار النفوس، أُباة الضَّيم..

وهل من شبه بين من نام عن الحق ومن ارتْصَد له، يدفع عنه ؟

و ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنب !

✍ **التضحية لا تضيع أبدًا**

وليعلم المسلم أن ما بذله في سبيل الله لا يضيع، فإن بذل النفس فقد حاز الجنة دون سابقة عذاب، وإن بذل مال فالله يخلفه وهو خير الرازقين، وإنْ بذل الوقت بُورك له في العمر، وإنْ بذل الحياة ......

قال الله تعالى :

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[آل عمران:١٥٧]



١ –أن تدع الله أن يرزقك الشهادة وأن توطن نفسك لها.

٢ – أن تخرج سهمًا من دخلك المالي – السنوي أو الشهري أو اليومي – في سبيل الله، فتخدم به الدعوة الإسلامية، فالذين كفروا ينفقون أموالهم – بسخاء – ليصدون عن سبيل الله ، فلا أقل من أن تخصص لدعوة الله سهمًا من مالك .

٣– أن تبذل من وقتك لوقت الدعوة الإسلامية، فتساهم في إتمام فعالية إسلامية، أو إخراج عمل دعوي، أو المشاركة في نشاط توعوي.

٤– امض في طريق الله ، لا تثاقل إلى الأرض، امض كما تمضي الشمس بأشعتها، على السهول والحزون.. لا تبالي بالعقبات .. ألا تدفعك للتضحية - أنَّات الثكالى، ورَنات اليتامى ! ؟



استووا حتى أثني على ربي (١)

بعد معركة أحد، بعدما اجتمع المشركون، وانفرط المسلمون، ونزل المشركون على المسلمين من كل مكان أفواجًا، يتتابعون عليهم نزاعاً أرسالاً، حتى تناكب أمر المسلمين، واتسع خرقهم، وأعضلهم الفتق.. وأدرك المسلمون هول الفاجعة، وذاقوا مرارة الهزيمة، وعيانوا جثث الشهداء، وقد صُرع حمزة، ومصعب، وابن جحش، وابن الربيع وغيرهم من أكابر الصحابة، وشاهد المسلمون آثار المُثلة التي تمت بصورة بشعة في أجساد الشهداء، فقد بُقرت البطون، وجدعت الأنوف، وقُطعت الفروج والآذان. وقد اهتزت قلوبهم لمشهد حمزة ذلك الأسد، الذي مُثّل به أبشع تمثيل، وقد شُق بطنه شقًا، وطُرح كبده على الأرض، وقد نُهش منه شيئًا .

وتأثر النبي –ﷺ– تأثرًا شديدًا، وشق عليه ذلك الأمر، وامتلأ القلب حسرة، والعين عَبرة، وأرسل عبراته زفرة بعد زفرة .

ألا .. أُذنٌ تصغى لهذه الآهات التي ذفرها النبي –ﷺ– من أجل هذه الأُمة !

في هذا الجو المهيب، تتقطع قلوب المؤمنين أجذاذًا، وتزيغ القلوب الضعيفة عن جادة الإسلام، وتضل النفوس المرتابة وتتشكك في صلاحية المنهج .

✍ **وقد تسائلوا، لِمَ ؟**

فكان الجواب : ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥].

***

واجتمعت على المسلمين الجراحات، وتواصلت بجراح أخرى غائرة من أيام مكة، وزُفرت الأنفاس متعثرةً؛ ومتعثرةً في زفرات أخرى؛ زفرات الحُزن على أشلاء قد مزقها الحقد الأسود، وزفرات الأشواق إلى النصر والتمكين، وزفرات القرح الذي أصاب جسومهم .

وغرقوا في بحار من الهم؛ يدهش فيها الفكر ويحار، كأنما ألقت بهم طيارةٌ في فيافٍ سحيقة، لا ماء فيها ولا زرع ولا ضرع، فباتوا نادمين سادمين حائرين بائرين !

(١) هذه مقالةٌ كتبتُها من قبلُ، ونشرتُها باسم زوجتي الأستاذة آمال عاطف عبد العظيم .

هنا تنقشع غمامة الحُزن عن صوت النبي -ﷺ-، يأمرهم أن يتراصوا صفوفًا، ليقفوا للدعاء :

" اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّى " فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفاً ...."(١)

يقول : **" حتى تُثْنِيَ عَلَى رَبِّى "** ..

إن الله سبحانه له الفضل الحسن والثناء الجميل، في السراء والضراء، في النعمة والنقمة، في النصر والهزيمة، له الحمد على كل حال، له الحمد على النصر إذا نزل- فللنصرِ فرحةٌ، وحبرةٌ، ولذةٌ، ونشوةٌ، فضلاً عن الرزق الحسن الذي فيه من غنيمةٍ وتمكين- ، وله سبحانه الحمد على الهزيمة - وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم-، فقد تكون في الهزيمة رحمة، لما فيه من تذكير وعِبرة واتعاظ بخطورة المعصية. وقد تكون هزيمة أخف من هزيمة، وفي ذلك رحمة أيضًا، وله الحمد سبحانه كذلك أن حفظ نبيه – صلى الله عليه وسلم، وله الحمد أنْ دفع قلوب المشركين عن المدينة ، وله الحمد أن الجيش لم يُباد عن بكرة أبيه، فهذه الانتكاسة التي أحدثها المسلمون كفيلة أن تفني أي جيشٍ وذلك حسب النظرية العسكرية في الحروب، ولكنَّ الله سلّم .

واصطف المسلمون خلف نبيهم، ليُثْني على ربه، بعدما تفقهوا درسًا بليغًا في أسباب النصر والهزيمة، فماذا قال، وبماذا دعا ؟

***

" اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلاَ هَادِىَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلاَ مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلاَ مُعْطِىَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ..."

أنت القابض . أنت الباسط.. تبسط الرزق لعبادك، وتوسعه عليهم بجودك، وتبسط الأَرواح في الأَجساد، وتبسط النصر في ميادين القتال لمن تشاء، وأنت القابض، لا شريك لك، لا تُسأل عما تفعل وهم يُسألون.

أنت الهادي . فنحن على ضلال إن لم تهدنا، ونحن على الهدى كل الهدى إن رضيتَ عنا.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٨٩١)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة .

أنت المانع . لا نملك شيئًا إن لم تعطنا، ونملك كل شيء إن رضيتَ عنا .

لاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، فأنت رب الزمان والمكان تصرفهما كيف تشاء، فكل بعيد؛ قريب لك دان . وكل مبهم، واضحٌ لك ظاهر .

***

" اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ، وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ، وَرِزْقِكَ." .

اعترفنا بقدرتك وضعفنا، وغناك وفقرنا، ونحن الأذلاء بين يديك، معترفين بذنبنا، فابسط علينا من بركاتك؛ فأنت الغني الكريم، ومن رَحْمَتِكَ؛ فأنت أرحم الراحمين، وَمن فَضْلِكَ؛ فأنت الصمد سيد المُعطين، وَمن رِزْقِكَ؛ فأنت الرزاق ذو القوة المتين .

ابسط علينا من بَرَكَاتِكَ، وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ، وَرِزْقِكَ، فأعز دولتنا الناشئة، واحفظ ديننا ومدينتنا وشعبنا .

إذا ما أنعمتَ علينا من بَرَكَاتكَ، وَرَحْمَتكَ، وَفَضْلكَ؛ فالكلُ مكرمٌ مُعَزٌ .. لا غنى لنا عنك، ولا عنى لدولتنا من فضلك .

***

" اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ؛ الَّذِى لاَ يَحُولُ، وَلاَ يَزُولُ." .

فغايتنا رضاك، ومبتغانا الجنة، نسألك في ميدان جهادنا هذا؛ النعيم المقيم في الفردوس الأعلى، ذلك النعيم الذي لا يحول أبدًا، ولا يزول أبدًا . فما جئنا نكابد الوغى إلا ابتغاء رضاك والجنة .

ما جئنا إلى ساحات الغبار نقاتل عن نعرة أو عصبية، بل جئنا هاهنا من أجل غاية سَنية، جئنا نضرب روابي الطغاة، من أجل روابي الإنسانية، جئنا نكسر أجنحة الظلم، من أجل أن يستظل الناس بأجنحة العدل. جئنا من أجل كلمتين؛ كلمة نضعها وأخرى نرفعها، فالأولى كلمة الباطل والأخرى كلمة الحق؛ ولتكون دومًا **"كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "**

***

" اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ، وَالأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ."

فأنت ترى حالنا، بين غريب وفقير، مع ضعف العدة، وقلة الزاد، والكفر مجتمعٌ على الإيمان . . .

فنسألك أيضًا من نعيم الدنيا، من الرخاء والأمن .

فعماد المجتمعات في المجال العمراني : الغنى والأمن، فإذا هما غابا من مجتمعٍ زال على أثرهما النظام، وفسد بسببهما الناس، فلا أنجع من طريقةِ بث الفقر والرعب في تحطيم الشعوب وإفساد النفوس .

إن سياسية التجويع والتخويف هي وسيلةٌ حربيةٌ قذرةٌ يمارسها أعداءُ الأمةِ في الداخل والخارج على الشعوب الإسلامية . وذلك لتذل وتخنع، وتضل وتخطع، وليحصل لها من القناعة الفكرية بعدم صلاحية الإسلام، وبحيث يجدون الغوث والمعونة دومًا من أناس لا يدينون دين الحق.

***

"اللَّهُمَّ إِنِّى عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ " .

و قد ابتُلينا بالهزيمة، وحُرمنا النصر، فنعوذ بك من ذل الهزيمة، وعتو النصر .. نعوذ بك انتكاسة المنهزمين، وغرور المنتصرين.

***

" اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِى قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ . " .

حبب إلينا الإيمان، اجعله شهوتنا واجعل فيه شرتنا، وزينه في قلوبنا، كما تُزين السماء المظلمة بالشموس النيرة.

فبين الحُب الإيماني الذي في النفس، والزينة الربانية التي في القلب؛ يعيش المسلم يرفل في ظلال الله، يسعد بلذة الإيمان وحلاوته، يرتع في جنة الرب التي سكبها في نفس المؤمن.

حينها يتحول الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ إلى أشباح مرعبة يفر منها المؤمن فراره من الأسد، أو تفر هي منه فلا مكان لها في قلوب حية بالإيمان، ذاكية بلهيب الشوق الذي لا يفارقها حتى تقر بالفردوس الأعلى .

وبين أوبة النفس إلى الإيمان ونفرتها من الكفر والفسوق والعصيان – تتحقق للإنسان صفة الرشاد، وينضم إلى زمرة الراشدين التي عزت في كثير من الأزمنة، تلك

الصفة التي كان أحد الأنبياء يهتف بها في قومه، يرثي قلتها فيهم، قائلاً : ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨]

***

" اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ مَفْتُونِينَ ".

فأحسِن عاقبتنا وخاتمتنا، وتوفنا على المنهج، وأحيينا بـه، وألحقنـا بإخواننـا الـذين ماتوا عليه، غير خزايا من ذنب أو كبوة ، ولا مفتونين من كَرب أوفتنة .

أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، اجعل الإسلام منهج حياتنا، ودستور نظامنا، اجعل صلاتنا ومحيانا ومماتنا لك وحدك لا شريك لك، اجعل الإسلام في نفوسنا وخارج نفوسنا، في بيوتنا وخارج بيوتنا، في بلادنا وخارج بلادنا، واجعله عاليًا قائمًا من فوقنا ومن تحتنا، وعـن أيماننا وعن شمائلنا، ومن بين أيدينا ومن خلفنا، اجعلنا نحيا به، ونعمل له، ونموت في سبيله، ونُعبث في زمرته.

وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، فلا تفرق بيننا وبينهم في الدنيا ولا في الآخرة .

***

"...اللَّهُمَّ قَاتَلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ؛ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رَجْزَكَ وَعَذَابَكَ.. اللَّهُمَّ قَاتَلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ "[1] .

فقد جاءوا يحادونك، ويعادون رسـولك، وقـد عزمـوا عـلى استئـصال الإسـلام واعتقال المسلمين . ولم يكفهم ما فعلوه بالمستضعفين من قبـل، فـلا يزالـون يقـاتلون المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم، كما أخبرت ربنا، سبحانك، أنت أصدق القائلين .

إنها الحقيقة القرآنية الخالدة التي قلتَ فيها – تباركت وتعاليت – :

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧]

✍ **أما أهل الكتاب الذين كذّبوا محمدًا – ﷺ – وحاربوه فقد قلتَ فيهم – سبحانك - :**

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة:٨٢]

***

(١) أخرجه أحمد (١٥٨٩١)، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة .

لا غنى عنك في معركتنا مع الباطل، فأعنَّا وأيدنا على أئمة الباطل .

وأنت أعلم بدخائلهم مِنَّا، وقد علمتَ ما فعل الوثنيون في مكة من قتل وتحريق وتهجير في ضعفاء المسلمين، وعلمتَ ما فعلته يهود في المدينة، من غدر وخيانة، ودعم للوثنية، وإفساد في الأرض، فضلاً عن محاولة قتل خير البرية .

***

وأتم الدعاء ..

وطابت النفوس ..

"ثم ركب فرسه ورجع إلى المدينة".....

***



١ـ احرص على : الدعاء وقت الشدة . والشكر بعد المحنة . وتثبيت المؤمنين عند الغُمة.

٢ـ الدعاء بمثل هذا الدعاء في ثنايا ركعتين في جوف الليل .



إجلاء بني النضير
ربيع الأول ٤ هـ - أغسطس ٦٢٥ م

يوم الرجيع وبئر معونة :

العامان الثالث والرابع كانا أشبه - إلى حد ما - بعام الحزن في المرحلة المكية؛ غير أن الحزن الذي كان في هذين العامين طال جميع المسلمين؛ فلم يخل بيت من قتيل أو جريح عقب مأساة أُحد؛ ومما زاد الحزن حزنًا، أن حدثت مآسيَ أخرى كانت في ذيل أحد !

فبعد معركة أحد؛ تجرأ العربُ على المسلمين بشكل مريع، ولا أدل من ذلك من حادثتي " **الرجيع** " و " **بئر معونة**" في شهر صفر سنة ٤هـ، فقد قَتل الأعرابُ الأجلاف نحو ثمانين من الصحابة القراء وهم في طريقهم لممارسة شعيرة الدعوة إلى الله في بعض القبائل. ولم يتمكن النبيُ -ﷺ- من تأديب هؤلاء الأعراب الذين غدروا بالصحابة إلا بعد فترة.

ولم يزل المسلمون في المدينة المنورة؛ يتناقلون مشاهد البطولة التي سطرها القراء بدمائهم؛ وكيف قال "**خبيب بن عدي**" لجموع الغادرين : أنه يحب أن يُقتل ولا أن يشاك محمدٌ بشوكة في قدمه، وكيف حفظ الله جثمان " **عاصم بن ثابت** " بالنحل؛ فلم يستطع أحدٌ من الغادرين أن يظفر بجثمانه لينال المكافأة التي فرضتها بعض عائلات قريش لمن يأتي برأس عاصم الذي قتل صنديدًا من صناديد الشرك يوم بدر.

وفي حادثة بئر معونة؛ عندما ذهب الصحابي الجليل حرام بن ملحان برسالة النبي -ﷺ- إلى عدو الله " **عامر بن الطفيل** "؛ فلما وقف حرام بن ملحان بين يدي هذا الغادر لم ينظر في رسالة النبي -ﷺ-؛ وأمر رجلاً فطعن حرام بن ملحان بالحربة من الخلف، فلما نفذت فيه ورأى الدم، قال حرام : الله أكبر ! فزت ورب الكعبة!

ثم استنفر الطاغيةُ بعض القبائل المتوحشة؛ فأجابته رعل وزكوان وعصية ومالوا على الدعاة ميلة واحدة فقتلوهم جميعًا؛ ولم ينج من هذه المجزرة سوى عمرو بن أمية الضمري؛ فقد نجا بأعجوبة، وفي طريقه للعودة إلى المدينة؛ نزل في ظل شجرة؛ إذ جاء رجلان من بني كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يظن أنه أصاب ثأرًا

من أصحابه، "وَإِذَا مَعَهُمَا عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللهِّ -ﷺ- لَمْ يَشْعُرْ بِهِ فَلَمّا قَدِمَ أَخْبَرَ رَسُولَ اللهِّ -ﷺ- بِمَا فَعَلَ فَقَالَ لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لأَدِيَنّهُمَا"[1].

***

✍ **قنوت النوازل :**

ولم يزل رسولُ الله -ﷺ- يقنت في صلاته يدعو على القبائل التي شاركت في قتل الدعاة، حتى نزل وحيًا يبشرُ الناسَ بالثواب العظيم الذي لقيه شهداء الرجيع وبئر معونة، فترك النبي -ﷺ- حيئنذ قنوته، وقد شرّع بذلك سنة القنوت في النوازل العامة من حروب وزلازل ومصائب.

***

✍ **يقتلون الضيفان :**

ثم شرع النبي -ﷺ- في جمع دية هذين القتيلين، فخرج رسول الله -ﷺ- يومًا في نفر من أصحابه فِيهِمْ أَبُو بكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيّ - رِضْوَانُ اللهِّ عَلَيْهِم - فصلى فى مسجد قباء، ثم أتى بنى النضير، يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِك الْقَتِيلَيْنِ اللّذَيْنِ قَتَلَهما الصحابيُ الجليل "**عَمْرُو بْنُ أُمَيّةَ الضّمْرِيّ**"، لِلْجِوَارِ الّذِي كَانَ رَسُولُ اللهِّ -ﷺ- عَقَدَ لَهُمَا، وإنما يطالبهم النبي بمساعدته في هذه الدية وفق بنود الدستور الذي كتبه معهم، والذي يقتضي تعاون كل الفصائل في أمر الديات .

فَلَمّا أَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِّ -ﷺ- يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِك الْقَتِيلَيْنِ قَالُوا : نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، نُعِينُك عَلَى مَا أَحْبَبْت، مِمّا اسْتَعَنْت بِنَا عَلَيْهِ. ثُمّ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا : إنّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ - وَرَسُولُ اللهِّ -ﷺ- إلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ قَاعِدٌ -: فَمَنْ رَجُلٌ يَعْلُو عَلَى هَذَا الْبَيْتِ فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحُنَا مِنْهُ ؟ وقالوا فيما بينهم: نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة، فنبيعهم من قريش، فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ عَمْرُو بْنُ جَحّاشِ بْنِ كَعْبٍ ، أَحَدُهُمْ فَقَالَ: أَنَا لِذَلِكَ![2]..

وهذا المشهد يُظهر لك أن الغدر والخيانة في جبلات اليهود أشبه بالدم الذي يجري في العروق، مثلهم كمثل السوسة؛ لا تحيا إلا على النهش والنخر.

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٢١ .

(٢) ابن هشام ٢ / ١٨٩، الحلبي ٢/ ٣٨٧ .

مصارحة :

فَقَالَ لَهُمْ سَلاَمُ بْنُ مِشْكَمٍ: لا تَفْعَلُوا ! فَوَاَللّهِ لَيُخَبّرَنّ بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ.. يا قوم أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر، والله لئن فعلتم ليخبرن بأنا قد غدرنا به، وإن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه، فلا تفعلوا !

لكن غَلبت شياطينهم عقلاءهم ، فَصَعِدَ عَمْرُو بْنُ جَحّاشٍ – لعنه الله – لِيُلْقِيَ الصَخْرَةً عَلَى النبي – ﷺ –(١).

ورغم أن الغدر ليس من شيم الحلفاء الشرفاء إلا أن اليهود درجوا على نقض العهود وأدمنوا الخيانة والخسة حتى مع أبناء وطنهم وحلفائهم ..

ومواقف التاريخ تؤكد في كل مرة أنهم أهل غدر وخيانة ..

وصدق الله إذ يقول فيهم : ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٥٦] .

اكتشاف المؤامرة

فلما هم القوم بالغدر، وقد أشرف **"ابن جحاش"** بالصخرة، وقد أوشك أن يلقيها على رأس النبي – ﷺ –، إذ بالوحي يأتى رَسُولَ اللّهِ – ﷺ – فيخبره بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ، فَقَامَ فورًا – كأنه يريد حاجة – وَخَرَجَ رَاجِعًا إلَى الْمَدِينَةِ(٢) .

فبينما اليهود على ذلك – ينتظرون أن يعود النبي – ﷺ – إلى مكانه بعد أن يقضي حاجته لينفذوا جريمتهم الشنعاء – وقد دأبوا – عليهم لعائن الله – على سفك دماء الأنبياء والمرسلين – إذ جاءَ جاءٍ من اليهود من المدينة، فلما رأى إخوانه من اليهود يتآمرون على قتل النبي – ﷺ – قال لهم: ما تريدون ؟ قالوا: نريد أن نقتل محمدًا ونأخذ أصحابه، فقال لهم: وأين محمد ؟ قالوا: هذا محمد قريب، فقال لهم صاحبهم: والله لقد تركت محمدًا داخل المدينة، فسقط في أيديهم(٣) .

وأيقنوا أن النبي أُخبر بما هموا به .. !

---

(١) انظر : زاد المعاد ٣ / ١١٥ .

(٢) ابن هشام ٢ / ١٨٩ .

(٣) الصالحي ٤ / ٣١٨ .

واستبطأ الصحابةُ النبي - ﷺ -، فلما يئسوا، قال أبو بكر: ما مقامنا هاهنا بشئ ! لقد توجه رسول الله - ﷺ - لأمر -، فقاموا في طلبه، وحينئذ قال حيي بن أخطب : "**لقد عجل أبو القاسم، كنا نريد أن نقضي حاجته ونقريه**" وندمت يهود على ما صنعوا (١) .

وطفق أصحاب رسول الله يبحثون عنه، وفي طريقهم لَقُوا رَجُلاً مُقْبِلاً مِنْ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ، فَقَالَ رَأَيْته داخلاً الْمَدِينَةَ . فَأَقْبَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ - ﷺ - حَتّى انْتَهَوْا إلَيْهِ - ﷺ - فَأَخْبَرَهُمْ الْخَبَرَ، بِمَا كَانَتْ الْيَهُودُ أَرَادَتْ مِنْ الْغَدْرِ بِهِ (٢).

وعليك أن تلحظ أن اليهود قتلوا عددًا من أنبياء بني إسرائيل الذين هم أقرب إليهم من نبي العرب - ﷺ -؛ فليس بمستغرب إذنْ ما هموا به وأجمعوا عليه.

✍ **إمهال العدو ليتأهب للجلاء :**

ثم بَعَثَ إلَيْهِمْ رَسُولُ اللّهِ - ﷺ - في رسالة يحملها محمد بن مسلمة الأوسي، فأقبل عليهم ووبخهم - رضوان الله تعالى عليه -، وقال: إن رسول الله - ﷺ - أرسلني إليكم يقول لكم :"**اخْرُجُوا مِنْ الْمَدِينَةِ ، وَلَا تُسَاكِنُونِي بِهَا ، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وَقَدْ أَجّلْتُكُمْ عَشْرًا ، فَمَنْ وَجَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِهَا ، ضَرَبْتُ عُنُقَهُ**"(٣) .

وأخبرهم - في تقرير تفصيلي - بما هموا به من ظهور عمرو بن جحاش على ظهر البيت ليطرح الصخرة، فسكتوا ولم يقولوا حرفاً ، فَأَقَامُوا أَيّامًا يَتَجَهّزُونَ(٤) .

وهكذا أمهلهم النبي - ﷺ - هذه المدة؛ ولم يقابل الغدر بالغدر، وغيره من حكام الدنيا يميلون ميلة واحدة على الفصيل الغادر.

✍ **دبركي :**

✍ **دور المنافقين في تثبيت الأعداء!**

وعزم اليهود على الخروج، لولا أن جماعة المنافقين ثبتتهم، وبعث عبد الله بن أبي بن سلول - زعيم المنافقين - إلى إخوانه اليهود برسالة قال فيها : أَنْ اُثْبُتُوا وَتَمَنّعُوا ، فَإِنّا لَنْ

---

(١) الصالحي ٤ / ٣١٨، ٣١٩ .

(٢) ابن هشام ٢ / ١٨٩ .

(٣) ابن هشام ٢ / ١٩١ .

(٤) الحلبي ٢/ ٣٨٧ .

نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم . [ابن هشام ٢ / ١٩١]..

✍ **وقال :** لا تخرجوا من ديارِكُمْ، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة، وحلفاؤكم من غطفان ، وطمع رئيسهم حيّ بن أخطب فيما قال له ابن سلول، وبعث إلى رسول الله -ﷺ- يقول: إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك [ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١١٥] .

✍ **وفي هذه الشراكة التي كانت بين النفاق واليهودية قال الله تعالى :**

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر:١١]

✍ **وقال مبينًا هشاشة هذا التحالف :**

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[الحشر:١٢]

✍ **عاقبة الغدر:**

ولما جاء إلى النبي خبر رفض اليهود مغادرة المدينة .. قال :" الله أكبر !!"، فقال أصحابه : الله أكبر [ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١١٥]

وأمر رسول الله -ﷺ- بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم. وأمر أبا لبابة على المدينة وابن أم مكتوم على الصلاة [ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣].

ثم سار بالجيش الإسلامي، وحملت مع رسول الله -ﷺ- قبة من خشب ، عليها مسوح أرسل بها سعد بن عبادة رضي الله عنه [الصالحي - ٤ / ٣٢٢]..

وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، حتى نزل الجيش الإسلامي بهم، ووصل رسول الله -ﷺ- إلى أرض العدو، وصلى بجنوده العصر بفناء العدو [الحلبي ٢/ ٣٨٧].

ولما جاء وقت العشاء رجع رسول الله -ﷺ- إلى بيته في عشرة من أصحابه عليه الدرع وهو على فرس، واستعمل على العسكر علي بن أبي طالب(١)، وبات المسلمون

(١) ويقال أبا أبكر .

يحاصرونهم ويكبرون حتى أصبحوا ثم أذن بلال بالفجر، فغدا رسول الله - ﷺ - في أصحابه الذين كانوا معه فصلى بالناس، ودخل القبة، وكان رجل من يهود يقال له غزول، وكان أعسر رامياً يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره، فوصل نبله تلك القبة، فأمر بها فحولت. وفي ليلة من الليالي فُقد عليٌ ـ رضي الله تعالى عنه ـ قرب العشاء، فقال الناس: يا رسول الله ما نرى علياً، فقال: **"دعوه، فإنه في بعض شأنكم"**، فعن قليل جاء برأس الرجل الذي يقال له **" غزول "** الذي وصل نبله قبته ، كمن عليّ حين خرج يطلب غرة من المسلمين ومعه جماعة، فشد عليه فقتله وفرّ من كان معه، فأرسل رسول الله -ﷺ -مع عليّ أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة، فأدركوا أولئك الجماعة الذين كانوا مع غزول وفروا من عليّ فقتلوهم [الحلبي ٢/ ٣٨٧] .

وحَاصَرَهُمْ المسلمون سِتّ لَيَالٍ، وفيها نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ [ابن هشام ٢ / ١٩٠].

إحراق بعض زروع العدو

وخلال فترة الحصار أَمَرَ رَسُولُ اللهّ -ﷺ - بِقَطْعِ النّخِيلِ وَالتّحْرِيقِ فِيهَا ، واستعمل على قطع النخل أبا ليلى المازني وعبدالله بن سلام. وكان أبو ليلى يقطع العجوة وعبدالله يقطع اللين [الحلبي ٢/ ٣٨٧].فَنَادَوْهُ أَنْ يَا مُحَمّدُ قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنْ الْفَسَادِ ، وَتَعِيبُهُ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ فَمَا بَالُ قَطْعِ النّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا [ابن هشام ٢ / ١٩١]؟

ولما قطعت العجوة شق نساء اليهود الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل [الحلبي ٢/ ٣٨٧] .

وقال اليهود من خلف الحصون للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون، وحينئذٍ وقع في نفوس بعض المسلمين من ذلك شيء [الحلبي ٢/ ٣٨٧].

فأنزل الله : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر:٥]

وكان جميع ما قطعوا وحرقوا ست نخلات [الحلبي ٢/ ٣٨٧].

شأن الإعلام اليهودي دومًا؛ تضخيم الصغير، وتصغير الضخيم !

وفي هذا الموقف جواز إحراق مزارع العدو إذا تترس بها .

كما أن القول بإباحة قطع شجر العدو إذا اقتضت المصلحة؛ هو مذهب جمهور الفقهاء .

✍ **إسلام يَامِينُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَأَبُو سَعْدِ بْنُ وَهْبٍ :**

وخلال فترة الحصار، أسلم مِنْ بَنِي النّضِيرِ رَجُلانِ يَامِينُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَأَبُو سَعْدِ بْنُ وَهْبٍ، أَسْلَمَا عَلَى أَمْوَالِهِمَا فَأَحْرَزَاهَا [ابن هشام ٢ / ١٩٢].

قال أحدهما لصاحبه: والله إنك لتعلم أنه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–فما ننتظر أن نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا، فنزلا من الليل وأسلما فأحرزا أموالهما.

ثم قال رَسُولَ اللهّ –ﷺ–:لِيَامِينَ :" **أَلَمْ تَرَ مَا لَقِيتُ مِنْ ابْنِ عَمّك ، وَمَا هُمْ بِهِ مِنْ شَأْنِي ؟"**. فَجَعَلَ يَامِينُ بْنُ عُمَيْرٍ لِرَجُلٍ جُعْلاً– وهو عشرة دنانير– عَلَى أَنْ يَقْتُلَ لَهُ عَمْرَو بْنَ جِحَاشٍ الذي أراد أن يلقي الحجر على رسول الله ، فقتله غيلة فسر بذلك النبي [ابن هشام – ٢ / ١٩٢]

وهو مشهد قلما نراه في الحروب، أن ينتقل بعض الجنود من خصم إلى خصم . إن حالة من التأثر ويقظة الضمير غيرت من توجه هذين الجنديين (**يَامِينُ وابْن وَهْبٍ**) – من هول قيامهم بمقاتلة رسولٍ من رسل الله ..

✍ **الاستسلام :**

ولا زال عبدالله بن أبي ابن سلول يبعث لبني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم، فانتظروا ذلك، ولم يحصل لهم منه شيء، وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا يقولان لحيي : أين نصرُ ابن أبيّ الذي زعمت؟ فيقول حيي: ما أصنع، هي ملحمة كتبت علينا [الحلبي ٢/ ٣٨٧].

وانتظر يهود النضير – طيلة فترة الحصار–، النصرة والمدد الذي وعدهم إياه ابن سلول، ومنتهم به قريظة هي الأخرى، وكذلك غطفان، فقد دب الرعب في قلوب الخائنين، فَاعْتَزَلَتْهُمْ قُرَيْظَةُ وَخَانَهُمْ ابْنُ أُبَيّ وَحُلَفَاؤُهُمْ مِنْ غَطَفَانَ ، وَلِهَذَا شَبّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قِصّتَهُمْ وَجَعَلَ مَثَلَهُمْ " **كَمَثَلِ الشّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمّا كَفَرَ قَالَ إِنّي بَرِيءٌ مِنْكَ"** [ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١١٥]

ولما اشتد الحصار على اليهود– وهم أهل جبن وخور– وَقَدْ قَذَفَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ الرّعْبَ، أَرْسَلُوا إلَيْ النبي –ﷺ– : نَحْنُ نَخْرُجُ عَنْ الْمَدِينَةِ.. فَأَنْزَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا عَنْهَا بِنُفُوسِهِمْ وَذَرَارِيّهِمْ وَأَنّ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ الْإِبِلُ إلّا السّلَاحَ وَقَبَضَ النّبِيّ –ﷺ –

الْأَمْوَالَ و السّلَاحُ والأرض والديار، ووَجَدَ مِنْ السّلاح خَمْسِينَ دِرْعًا ، وَخَمْسِينَ بَيْضَةً وَثَلاثَمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَيْفًا، وَكَانَتْ بَنُو النّضِيرِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللهّ -ﷺ - لِنَوَائِبِهِ وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يُخَمّسْهَا لِأَنّ اللهّ أَفَاءَهَا عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ [ابن القيم : زاد المعاد – ٣ / ١١٥ ، ابن هشام ٢ / ١٩١] .

✍ **قَالَ مَالِكٌ** : خَمّسَ رَسُولُ اللهّ – ﷺ –قُرَيْظَةَ ، وَلَمْ يُخَمّسْ بَنِي النّضِيرِ. لِأَنّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُوجِفُوا بِخَيْلِهِمْ وَلَا رِكَابِهِمْ عَلَى بَنِي النّضِيرِ كَمَا أَوْجَفُوا عَلَى قُرَيْظَةَ وَأَجْلَاهُمْ إلَى خَيْبَرَ [ابن القيم : زاد المعاد – ٣ / ١١٥].

✍ **يخربون بيتوهم :**

ولما عزم اليهود على ترك المدينة، صاروا ينقضون العمد والسقوف، وينزعون الخشب حتى الأوتاد، وينقضون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون حسداً وبغضاً [الحلبي ٢/ ٣٨٧].

وهذا شأن اليهود في عصرنا أيضًا؛ فلا يتركون مغتصبة (**أو مستوطنة**) إلا إذا خربوها وأتلفوا بناياتها، وقد فعلوا ذلك لما تركوا مدينة " **طابا** " في سيناء .

***

وخرج بنو النضير– من ديارهم – مظهرين التجلد: وخرجت النساء على الهوادج وعليهن الديباج والحرير وقطف الخز الأخضر والأحمر وحلي الذهب والفضة، مَعَهُمْ الدّفُوفُ وَالْمَزَامِيرُ وَالْقِيَانُ يَعْزِفْنَ خَلْفَ الرجال وَإِنّ فِيهِمْ لأمّ عَمْرٍو المطربة، تغني، بِزُهَاءٍ وَفَخْرٍ مَا رُئِيَ مِثْلُهُ مِنْ حَيّ مِنْ النّاسِ فِي زَمَانِهِمْ !! [ابن هشام ٢ / ١٩١].

فجعلوا يمرون قطارا في أثر قطار، وقد تحملوا على ستمائة بعير [الصالحي ٤ / ٣٢٤].

ونادى أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، ورفع مسك جمل[1] وقال: هذا مما نعده لخفض الأرض ورفعها، فإن تكن النخل قد تركناها فإنا نقدم على نخل بخيبر [الصالحي ٤ / ٣٢٤].

---

(١) المسك : الجلد

والحق، أنهم يحسنون دومًا مثل هذه الأدوار الدعائية؛ وهم سادة الإعلام في كثير من الأصقاع .

إذ لعل هذه الهيئة التي خرجوا بها تحرز لهم شيئًا معنويًا في أوساطهم، وشيئًا دعائية في غيرهم .

***

فَكَانَ أَشْرَافُهُمْ مَنْ سَارَ مِنْهُمْ إِلَى خَيْبَرَ : سَلامُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ وَكِنَانَةُ بْنُ الرّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ ، وَحُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ . فَلَمّا نَزَلُوهَا دَانَ لَهُمْ أَهْلُهَا .

والباقون ساروا إلى الشام: إلى أذرعات [الحلبي ٢/ ٣٨٧]

وقد حزن المنافقون على رحيل إخوانهم اليهود، علمًا أن أهل النفاق هم أهل بلبلة وإرباك لا يفلحون إلا في الكلام، وهم أولى بالناس بالظاهرة الكلامية التي تحدث في المجتمعات؛ فلعلك ترى مجتمعًا الكل فيه يعمل وينتج؛ إلا فصيل واحد يتكلم ويتكلم، وهو فصيل النفاق.

***

لقد استخدم النبي -ﷺ- أسلوب الحصار للضغط على اليهود من أجل الخروج، ولم يستخدم فيهم أسلوب سفك الدماء، وإن كانوا قد شرعوا جميعًا في جريمة اغتيال النبي -ﷺ-، وهي جريمة في نظر جميع القوانين الوضعية لا عقاب لها سوى الإعدام، ولو تواطىء الآلاف في هذا الشروع الذي لم يفض إلى قتل رئيس الدولة .

لذا نحن نعتبر أن ما فعله النبي -ﷺ- مع يهود النضير مثالٌ رائع ساطع في رحمة الحاكم المسلم بجماعة من جماعات أهل الذمة التي خرجت على القانون .

ثم أرنِي حاكمًا واحدًا من حكام زماننا عفا عن فصيل شرع في قتله !

✍ تعميق الإيثار بين جند الله :

أما عن الأموال التي خلفتها النضير؛ فلم يستول عليها النبي -ﷺ- وقد أفاء الله بها عليه .

بل نحن لم نر أثرًا واحدًا دل على امتلاك رسول الله -ﷺ- لخزينة مالية خاصة به، وقد كان زعماء العرب والعجم يمتلكون من الخزائن الخاصة ما تغنى به الشعراء .

لكنْ صاحب الخلق العظيم قسّم هذه الأموال على فقراء المسلمين؛ وقد كان أغلبهم من المهاجرين، وقد كانوا لا يزالون عالة على الأنصار، وعبئًا شديدًا على كواهلهم .

***

✍ **ثم تأمل هذه المشهد العظيم في الإيثار:**

أرسل النبي ـ ﷺ ـ إلى ثابت بن قيس بن شماس، فقال النبي: **"ادع لي قومك"**، قال ثابت: الخزرج يا رسول الله ؟ قال رسول الله – ﷺ –: **" الأنصار كلها ! "** فدعا له الأوس والخزرج، فتكلم رسول الله – ﷺ – فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، من إنزالهم في منازلهم، وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم. ثم قال لهم: **"إنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ وَأَقَمْتُمْ عَلَى مُوَاسَاتِهِمْ فِي ثِمَارِكُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَعْطَيْنَاهَا لِلْمُهَاجِرِينَ دُونَكُمْ وَقَطَعْتُمْ عَنْهُمْ مَا كُنْتُمْ تُعْطُونَهُمْ مِنْ ثِمَارِكُمْ"** [ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣]

✍ **فقالوا- وما أجمل ما قالوا -:** بل اقسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت! ! .

✍ **وتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ. فقالا:** يا رسول الله بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، بل نحب أن تقسم ديارنا وأموالنا على المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم وخرجوا حباً لله ولرسوله، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها.

✍ **ونادت الأنصار- تؤكد كلام القائدين -:** رضينا وسلمنا يا رسول الله ! فقال رسول الله – ﷺ – : **"اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار. [وأبناء أبناء الأنصار]"** [الحلبي ٢/ ٣٨٧].

وأنزل الله تعالى فيهم ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الحشر:٩]

فكان الرسول أكرم من الأنصار .فَأَعْطَاهَا رَسُولُ اللهِ الْمُهَاجِرِينَ، على ألا يأخذوا من أموال إخوانهم بعد هذا الفيء، فَاسْتَغْنَوْا بِهَا أَخَذُوا وَاسْتَغْنَى الْأَنْصَارُ بِمَا رَجَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ ثِمَارِهِمْ [ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣].

فقال أبو بكر رضي الله عنه– وقد هزه كرم الأنصار وإيثارهم -: **"جزاكم الله يا معشر الانصار خيرًا"** وجادت قريحته بشيء من الشعر يمدح فيه الأنصار [الصالحي ٤ / ٣٢٥].

***

✍ **جائزة تكريمية :**

وأعطى النبيُ –ﷺ – سعدَ بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ سيفَ بن أبي الحقيق، وكان سيفا له ذكر عند اليهود. وإنما مُنح سعد – رضوان الله عليه – هذا السيف على سبيل الجائزة والتكريم، فقد كان يطعم الجيش الإسلامي في غزو النضير، وهو صاحب القبة الخشبية، التي جُعلت مقرًا متحركًا لرصد تحركات العدو.

***



١ـ مدارسة سورة الحشر .

٢ـ مطالعة أحكام الفيء في كتب الفقه.



زواج النبي ـ ﷺ ـ من زينب بنت خزيمة رمضان سنة ٤ هـ ـ ٦٢٥ م

تزوج النبيُ ـ ﷺ ـ هذه المرأة الصالحة وهي في سن الستين[1]، بينما كان هو في الخامسة والخمسين !

فهذه لطمةٌ على أقفيةِ الذين يخوضون في عرض النبي ـ ﷺ ـ ويقولون شهواني؛ وكأنما يريدون نبينًا عنينًا !

***

هي زينب بنت خزيمة الهلالية، وهي قرشية، من بني عبد مناف، وهي أخت ميمونة لأمها.

كانت زينب ـ رضي الله عنها ـ تحت عبد الله بن جحش ـ رضي الله عنه ـ، فاستشهد في أحد، فتزوجها رسول الله ـ ﷺ ـ تكريمًا لها وجبرًا لخاطرها . وقيل : إنها تزوجت من عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث ، وهو ابن عمها[2].

***

تقدم النبي ـ ﷺ ـ لخطبتها، فزوجه إياها قبيصةُ بن عمرو الهلالي ، وأصدقها رسول الله ـ ﷺ ـ أربع مائة درهم ..

***

✍ **حب المساكين :**

وكانت ـ رضي الله عنها ـ تُدعى في الجاهلية أم المساكين، لكثرة إنفاقها على المساكين، وشدةِ حبهم لها .

وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ـ ﷺ ـ : " **أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي؛ أَطْوَلُكُنَّ يَدًا** "، قَالَتْ :فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ أَيَّتُهُنَّ أَطْوَلُ يَدًا، قَالَتْ :فَكَانَتْ أَطْوَلَنَا يَدًا؛ زَيْنَبُ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا، وَتَصَدَّقُ[3]. أي كَانَتْ تَعْمَلُ وَتَتَصَدَّقُ فِي سَبِيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ .

---

(١) هذا على خلاف بين أهل السير، فبعضهم قال دخل بها وهي بنت ثلاثين، الراجح عندنا ما أثبتناه.

(٢) انظر : الروض الأنف (٤ / ٤٢٨)، والأصح عندي أنها كانت لابن جحش، واحتمال أنها تزوجت منهم جميعًا ـ واحدًا بعد الآخر ـ لا يصح بحال.

(٣) مسلم :٤٤٩٠ .

وهذا ينطبق أيضًا على زينب بنت جحش، فهي أول من ماتت بعد رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت تنفق وتتصدق كثيرًا .

***

ماتت ـ رضي الله عنها ـ بعد زواجها من النبي ـ ﷺ ـ بنحو ثلاثة أشهر في ربيع الآخر سنة ٤هـ ، فكانت أول نسائه موتاً، ولم يصب رسول الله ـ ﷺ ـ منها ولداً.

وصلى عليها النبي ـ ﷺ ـ، ودفنت بالبقيع [1] .

***

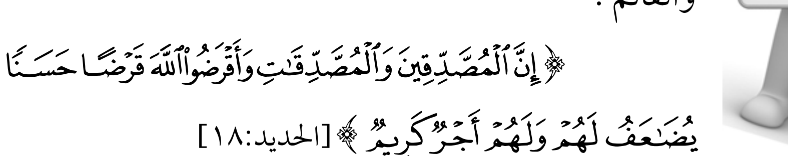
هذا، ولم تذكر المصادر التي ترجمت لهذه المرأة العظيمة شيئًا كثيرًا، سوى ما عُرف عنها في الجاهلية والإسلام من حبها للمساكين، وإنفاقها عليهم، وهذا لعمرو الله خيرُ ما يُؤثر عن الإنسان، فالصدقة الخالصة المتجردة لها حُسن الذكر في الدنيا وعظيم الزخر في الآخرة.

***



١ – ـ مشروع سيدة البر .

٢ – يا حبذا صناعة مثل هذه الرموز الخيرية في كل مكان، فنحن نريد رجل البر، ونريد ـ كذلك ـ الأخت المسلمة ـ الرمز النسائي الخيري ـ التي تصل أياديها البيضاء على القاعد والقائم .



﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد:١٨]



(١) انظر : السيرة الحلبية،٢ / ٤٨٣ .

غزوة ذات الرقاع

كانت هذه الغزوةُ في إطارِ حملةِ النبيِ ـ ﷺ ـ لمعالجةِ آثارِ مأساةِ أُحـدٍ، إذ طمَعـتْ القبائـلُ الهمجيـةُ في المسلمينَ؛ وظنوا أن شـوكةَ المسلمين كُسرت بعـد أحد، ومما زاد الطينةَ بلةً أنْ عدى الأعرابُ على جماعتين مـن الدعاةِ إلى الله كـانوا في طـريقهم لـدعوة بعـضِ القبائـلِ إلى الإسلام؛ فكانت مأساةُ يوم الرجيع ومذبحةُ بئر معونة؛ فقَتل العربُ في شهرٍ واحد نحو ثمانين صـاحبيًا، ومـن ثـم كانـت محصلةُ قتلى المسلمين في أحد والرجيع وبئر معونة زهاء مائةٍ .

وبعدما فرغ النبيُ ـ ﷺ ـ من تأديب يهود النضير؛ أي بعد شهر ونصف من إجلاء بني النضير؛ توجه النبي ـ ﷺ ـ بجيشه نحو هذه القبائلِ الغادرةِ، (**قبائل محارب وبني ثعلبة**)، الذين فتكوا بالصحابة القراء الأبرياء.

***

واستعمل النبيُ ـ ﷺ ـ على المدينة أبا ذر الغفاري ـ رضي الله عنـه ـ ! وذلـك مـن عجائب التربية النبوية؛ أن أمَّر النبيُ على المدينة المنورة رجلاً من غير الأوس والخزرج، بل هو في عرف الجاهلية ينتسب إلى قبيلة من الأعراب ممن عُرف عنهم قطع الطريق . وهو بذلك ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إنما يريـد أن يطبـق قولـه : " **وَلَـوْ اسْـتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهَّ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا**"[مسلم : ٣٤٢١].

هكذا القيادة أوالإمامة أوالإمارة؛ لا معنى فيها للعرق، ولاقيمةَ فيها للأصل، ولا قيمة فيها للّون، فحسبُ القائدِ: العلمُ والجسمُ اللذان يُعينانه على القيادةِ بكتـاب الله، وأيما عبدٌ مُجَدَّعٌ قَدِر على إقامةِ كتاب الله؛ فهوأحقُ بالإمامة من شريف حسيب قرشيٍ لم تكتمل فيه شروط الإمامة.

ذلك درسٌ لهؤلاء الطَّغامِ اللئام الـذين احتكـروا الوظـائف والمناصـب لحسابهم ولأحسابهم، الذين أضاعوا الأمانة عندما وَسدوا الأمرَ لغير أهله، ممـن هـم في عـداد السفهاء، وترى الواحدَ منهم يتمرغُ في النعيم والأُبهة وهو لا يكادُ يفقه شيئًا عن عمله الذي أنيط به ظلمًا؛ ومع ذلك كلِّه تراه يتكلمُ في أمور العامة كالرويبضة، فاكتسى مـا ليس من أثوابه، واحتسى ما ليس من أكوابه.

✍ **والله يقول :**

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء:٥٨]

***

✍ **سلاح الرعب**

سار النبيُ -ﷺ- في سبعمائةِ مقاتلٍ، فلما وصل إلى ديار هذه القبائل، دب الرعبُ في أرض الظالمين، وخافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأموالهم، هلعًا وفزعًا، وهكذا الجبنُ أخو العار، كما الغدر أخو الشنار .

وهكذا ، انتصر المسلمون بالرعب .

وصدق رسول الله -ﷺ- : " **نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ** " [البخاري :٣٢٣].

***

✍ **صلاة الخوف**

وعسكر النبي -ﷺ- في ديارهم، ليؤكد النصرَ، وليبثَ الرعبَ، ولما كان العدو بالجبال؛ شرع اللهُ تعالى حيئنذ صلاةَ الخوف لضرروة القتال، حيث يصلي المسلمون الفرائض الخمسة في أوقاتهن بصورة أشبه بصلاة القصر؛ غير أن فئةً تحرس، وفئةً تصلى، فالإمام يُصلي بطائفةٍ ركعتين فإذا هَمَّ بالوقف للركعة الثالثة تأخروا ودخلَ الآخرون لتكونَ الركعةُ الثالثة للإمام هي ركعتُهم الأولى، وفي ذلك نزلت الآية :

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾[النساء:١٠٢]

يدلُ هذا على أهمية الركن الثاني من أركان الإسلام، الصلاة، فلوا كان ثمةَ تهاونٌ لرفعها الله عن كاهل المجاهد الذي يقاتل عن بَيضَةِ الدين، وثغر الوطن .

ثم هو درسٌ آخرٌ في ضرورةِ ارتباطِ المجاهدِ بالله تعالى دومًا ولاسيما في ساحات القتال، ليتصفَ المجاهدُ بالربانية دومًا؛ التي هي شرطٌ أساسٌ في جند الله .

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨]

***

هذا، وفي هذه الغزاةُ، أربعةُ مشاهد، غايةٌ في الروعةِ والجمال :

✍ **المشهد الأول : تجلدٌ وتجردٌ**

✍ **وفيه يقولُ أبو موسى :**

"خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ فِي غَزْوَةٍ، وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا، وَنَقِبَتْ قَدَمَايَ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، وَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الْخِرَقَ؛ فَسُمِّيَتْ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ، لِمَا كُنَّا نَعْصِبُ مِنْ الْخِرَقِ عَلَى أَرْجُلِنَا .. قَالَ أَبُو بُرْدَةَ : وَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا ثُمَّ كَرِهَ ذَاكَ، قَالَ : مَا كُنْتُ أَصْنَعُ بِأَنْ أَذْكُرَهُ ! كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ عَمَلِهِ أَفْشَاهُ ! " [البخاري: ٣٨١٦].

وهو كما ترى مشهدٌ باسق في التجلد، سامقٌ في التجرد، وهاتان الصفتان برزت في الصحابة ـ رضوان الله عليهم جميعًا ـ بجلاءٍ؛ فقد بلغ بهم الجهدُ وطولُ السفرِ مبلغًا صعبًا؛ فساروا مسافاتٍ طوالاً؛ على قلة المركب، فقد كان الستةُ يتعاقبون الظَّهْرَ الواحدة، وهذا معناه أن الواحدَ منهم ـ رضوان الله عليهم ـ يمشي خمسةَ ساعاتٍ كوامل ويركب ساعةً واحدةً فقط، ولا زالوا على هذه الحال حتى فسدتْ نعالهُم، ونَقِبت أقدامهُم، وسقطت أظافرُهم، فطفقوا يخصفون عليها من رقاع الخِرَق، ولسانُ حالِ أحدهم : أملي، الموتُ في سبيل الله ! أيتها الدنيا أنتِ طالقٌ ـ طلاقًا لا رجعة فيه ـ ! اللهم تقبل مني نفسي في رضاك !!

وبعد أن قص أبو موسى هذه القصةَ، نَدِمَ ، وكَرِهَ أن يقص عن نفسه، تورعًا وزهدًا، وخشيةً من ضياع الثواب، وقال ـ في تحسر ـ: مَا كُنْتُ أَصْنَعُ بِأَنْ أَذْكُرَهُ ! كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ عَمَلِهِ أَفْشَاهُ !

شأنه شأن المخلصين الذين نعرفهم من فلتات ألسنتهم.

ترى كثيرًا منهم؛ يبالغون في إخفاء أعمالِهم وجهادِهم؛ حتى إذا خرجت مثلُ كلمة أبي موسى هذه؛ يتحسرُ المخلصُ حيئنذٍ تحسرَ المؤمنِ إذا واقع ذنبًا.

هؤلاء هم الأتقياء الأخفياء، يعملون لله، ويجاهدون في سبيل الله، لا ليُرى مكانُهم في الصفوف، أو ليذكرَهم الناسُ بالمدائح التي تؤدي إلى الحتوف.

هؤلاء هم المجاهدون حقًا. ثم إن الداهيةَ الدهياء، والمصيبةَ الرعناء؛ أن يجهادَ المجاهدون فيسرقُ ثمرتَهم القاعدون !

***

المشهد الثاني : حراسة الثغور

وفي ليلة من ليالي الرعب هذه، سبى بعضُ المسلمين امرأةً مشركةً؛ فحلفَ زوجهُا أن يُهْرِيقَ فِي المسلمين دَمًا ، فَخَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ الجيشِ الإسلامي، حتى نزل الجيشُ منزلاً، وكانت الحراسةُ ليلتئذ من نصيب عَمّارِ بْنِ يَاسِرٍ ـ من المهاجرين ـ وَعَبّاد بْنِ بِشْرٍ ـ من الأنصار ـ، وقد خرجا إلى فم المعسكر أولَ الليل، فقَالَ عباد لعمار: أَيّ اللّيْلِ تُحِبُّ أَنْ أَكْفِيكَهُ : أَوّلَهُ أَمْ آخِرَهُ ؟ قَالَ : بَلْ اكْفِنِي أَوّلَهُ [انظر : ابن هشام ٢ / ٢٠٧]

ومن ثم نام عمار، وقام عبادٌ ـ رضي الله عنه ـ يحرس ويصلي في آن واحد، فكانت هذه فرصةُ المشركِ، فَرَمَى بِسَهْمٍ فأصاب عبادًا في جنبه، فنزعه وكأنما هي شوكةٌ تافهةٌ، ولم يخرج من صلاته، وواصل قيامه !

ثُمّ رَمَاهُ المشركُ بِسَهْمٍ آخَرَ، فَنَزَعَهُ عبادٌ، وألقاه على الأرض، وَثَبَتَ قَائِمًا، وواصل قيامه !

ثم عَادَ لَهُ المشركُ بالسهم الثالث، فرماه، فأصاب عبادًا! فلم يخرج عبادٌ من صلاته، بل نزعه وركع وسجد، ثم أيقظ عمارًا.

فقَالَ عمارٌ : سُبْحَانَ اللهّ ! أَفَلا أَهْبَبْتَنِي أَوّلَ مَا رَمَاك ؟

قَالَ :كُنْت فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتّى أُنْفِدَهَا ، فَلَمّا تَابَعَ عَلَيّ الرّمْيَ رَكَعْتُ فَأَذِنْتُك ، وَأَيْمُ اللهّ لَوْلا أَنْ أُضَيّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهّ ـ ﷺ ـ بِحِفْظِهِ لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِدَها ! [انظر :ابن هشام ٢ / ٢٠٧].

أغلبُ الظنِ أن هذه الصحابي وصل إلى درجة من الخشوع والاستمتاع بالقيام وبتلاوة القرآن مبلغًا جعله لا يبالي بتلك **(الوخزات)** التي كان يشعرُ بها في قيامه.

بل كنا نقرأ الرعبَ في قلبِ الرامي نفسِه؛ شديدًا، شدةَ هذا الخشوعَ الذي عايشه عبادٌ ـ رضي الله عنه ـ .

فما أحوجنا لخشوع عبادٍ بين صفوف العُباد !

وما أحوجنا لمثل تلك النفسِ الزكيةِ الذاكيةِ المتقدةِ التي لا تؤثرُ فيها ضرباتُ الأعداء قيدَ أُنْمُلَةٍ !

وهذا الموقفُ فيه إشارةٌ لطيفة، أنهم - رضوان الله عليهم - أحرصُ الناس على الوقت؛ فلم يكتفِ عبادٌ بالحراسة بل جمع لها "**القيام**"، استثمارًا للوقت، رغم ما بهم من ضنك وعوز، وقد علمتَ سبب اسم الغزوة.

***

✍ **المشهد الثالث : شجاعة وثقة :**

وفي طريق العودة إلى المدينة، نزل الجيشُ الإسلامي - حين أدركته **الْقَائِلَةُ** - **فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ** - وهو نبات شوكي - **فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ** - ﷺ - **وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاهِ؛ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ** - ﷺ - **تَحْتَ سَمُرَةٍ** (1)**؛ فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ .**

قَالَ جَابِرٌ :

فَنِمْنَا نَوْمَةً ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَدْعُونَا فَجِئْنَاهُ فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : "**إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي، وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ، وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ لِي : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قُلْتُ : اللَّهُ ! [فسقط السيفُ من يده] فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ!**"، ولَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - [البخاري : ٣٨٢٢] .

إنّ أصحاب الرَسالات ليسوا في مأمن من رزية الاغتيال . فها هو سيد الدعاة يكابد محاولاتِ الاغتيال في كل عام مرةً أو مرتين .

وهو مع ذلك كلِّه يمضي في طريق الدعوة على ثقةٍ بنصر الله، سواءً عاش الداعيةُ أو مات.

ثم أنت ترى مدى هذه الثقةِ العجيبة التي ظهرت في ردة فعل رسول الله - ﷺ - في هذا الموقف الخطير، حينما فتح عيناه، وإذا بسيفه في يد عدوه، وقد شد الأعرابيُ عليه بالسيف صلتًا، فما أسهلها من قتلة !

أنتَ رأيت لقطةً طبيعية لتلك النفسِ الزكية، فلو كانت نفسُ ملكٍ من ملوك الدنيا، أو قائدٍ من قادة الباطل - لظهرت ملامحُ أخرى، هي ملامحُ الخوفِ والهلعِ والجزع .

---

(١) شجرة .

إن كلمةَ (الله) التي خرجت من فم رسول الله ـ ﷺ ـ لهي بألف ألف كلمة (الله) خرجت من فم غيره؛ فتلك التي خرجت من فم النبي ـ ﷺ ـ إنما خرجتْ من سويداء قلبٍ خاشع عظيم؛ يقدر قدر (الله)، يثقُ في الله، مطمأنٌ به، يعلم جيدًا أن اللهَ لن يخذل الدعوة وإن قُتل الداعية، وما له لا يعبأُ بمصرعه، وقد كتب الله النصر لدينه .

فليتَ كلمةَ (الله) تنطقُ بها القلوبُ قبل أن تنطق بها الألسنةُ !

وليتَ المسلمَ يرقدُ ـ كما رقد النبي ـ على ثقةٍ في الله، ويستفيقُ على ثقةٍ في الله، كما استفاق عليها النبي ـ ﷺ ـ، وقد امتلىء قلبُه العظيم بفيض عارم من الإكبار والإعظام لجناب الله، والعورافِ الجسامِ لسنن الله !

وعفا النبيُ ـ ﷺ ـ عن هذا الأعرابي . فخلقُ العفوِ، سجيةٌ طبيعية في تلك النفسِ الزكية.. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]..

هذا السيفُ الذي سقط من يد الأعرابِي، لهو سيفٌ جديرٌ أن يمزق جميعَ كتابات المستشرقين الذي افتروا فريةَ أن الإسلامَ انتشر بحد السيف !

✍ المشهد الرابع : تفقد الإخوان :

وفي طريق العودة ـ أيضًا ـ، نظر النبي ـ ﷺ ـ في جيشه فلم ير جابرَ بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ، وقد كانت سنة النبي ـ ﷺ ـ أن يتفقد أصحابه دومًا في المنشط والمكره .

وجابرٌ ـ رضي الله عنه ـ أهلٌ لهذه العناية في هذه الأيام بالذات؛ فقد قُتل أبوه في معركة "**أُحدٍ**"، وهو سيدٌ من سادات الأنصار، وقد خلّف وراءه تبعةٌ ثقيلة تَحَمَّلها ابنه الأكبرُ هذا وحده، وترك الأبُ لولده مهمةَ رعاية البنات اليتم، وقد بلغ عددهن سبعًا، على فقر وشظف، وكان أجدر بغير جابرٍ أن يتخلف عن مثل هذه الغزوة، متعللاً بهذه المسؤولية الأسرية الصعبة، ولو تخلف مثل جابر لكان له في ذلك ألفُ عذر .

ولكنها أسرة مسلمةٌ مجاهدة، وربها مجاهدٌ ابن مجاهد، ومن يشابه أباه فما ظلم .

لقد رق النبيُ ـ ﷺ ـ وهو صاحبُ القلبِ الرؤوف ـ لحال جابر وآل جابر وبيت جابر، فيبدو أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يلحظه بعين رحمته الشفيقة بين الفينة والأخرى، كما ينظر أحدنا لولده شفقةً من حينٍ إلى آخر؛ حتى لم يجده مرةً في صفوف الجيش، وقد

جعل الجيش يمضي وجابرٌ يتأخرُ به جملُه العليل .. ويكأنَ العلةَ قد أصابت جابرًا في كل بيته حتى جملَه !

فإذا النبيُ ـ ﷺ ـ يُدرك ذلك، فيؤخرُ جمله ليلحق بجابر في آخرِ الجيش، فأدركه، وعلم ما حل بجمله من علة، فقال النبي ـ ﷺ ـ :

"أَعْطِنِي هَذِهِ الْعَصَا مِنْ يَدِكَ " !

قال جابر: فَنَخَسَهُ بِهَا نَخَسَاتٍ، ثُمَّ قَالَ النبي ـ ﷺ ـ : " ارْكَبْ "، فَرَكِبْتُ فَخَرَجَ، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ يُوَاهِقُ نَاقَتَهُ مُوَاهَقَةً !

ثم دار هذا الحديث الرقيق الرفيق، الذي يعبر عن نفس زكية عظيمة كانت بين جنبي محمد ـ ﷺ ـ، تبين لك كيف كان حرصه على المؤمنين، وكيف كان يتذرع الذرائع من أجل أن يخدمهم، ويصنعُ الصنائع من أجل أن يكرمهم :

قال رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ : "أَتَبِيعُنِي جَمَلَكَ هَذَا يَا جَابِرُ ؟ "

قال جابر: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! بَلْ أَهَبُهُ لَكَ !

✍ **قَالَ :** **" لا وَلَكِنْ بِعْنِيهِ "**

✍ **قال جابر :** فَسُمْنِي بِهِ !

✍ **قَالَ :** **" قَدْ قُلْتُ أَخَذْتُهُ بِدِرْهَم " !!**

✍ **قَالَ :** لا إِذًا يَغْبِنُنِي رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ!!

✍ **قَالَ :** **"فَبِدِرْهَمَيْنِ"**

✍ **قَالَ جابر :** لا

ولم يزل هذا الحديث الفكه هكذا، ورسول الله ـ ﷺ ـ يرفع له في سعر الجمل حتى بَلَغَ الأُوقِيَّةَ .فقَالَ جابر : فَقَدْ رَضِيتُ .

فقَالَ رسول الله ﷺ ـ : **"قَدْ رَضِيتَ ؟ "**

✍ **قال:** نعم .. هو لك

✍ **قال :** " قَدْ أَخَذْتُهُ "

ثم انتقل الحوار الكريمُ إلى مجال آخر، وقد تحدث النبي إلى جابر كما يتحدثُ أحدنا إلى أخيه أو صديقه، حديثَ الرجل للرجل، مع ظرف وطرف ولطف :

فقال النبي ـ ﷺ ـ لجابر:

" يَا جَابِرُ هَلْ تَزَوَّجْتَ بَعْدُ ؟ "

✍ **قَالَ:** نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهَّ

✍ **قَالَ: " أَثَيِّبًا أَمْ بِكْرًا "**

✍ **قَالَ:** بَلْ ثَيِّبًا

✍ **قَالَ: " أَفَلا جَارِيَةً تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ ! "**

✍ **قَالَ:** يَا رَسُولَ اللهَّ إِنْ أَبِي أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ، وتَرَكَ بَنَاتٍ لَهُ سَبْعًا، فَنكَحْتُ امْرَأَةً جَامِعَةً، تَجْمَعُ رُءُوسَهُنَّ، وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ.

✍ **قَالَ: "أَصَبْتَ إِنْ شَاءَ اللهَّ"**

✍ **ثم قال النبي ـ ﷺ ـ:**

" أَمَا إِنَّا لَوْ قَدْ جِئْنَا صِرَارًا [موضع قرب المدينة] أَمَرْنَا بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ، وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَسَمِعَتْ بِنَا، فَنَفَضَتْ نَمَارِقَهَا " !

قَالَ: وَاللهَّ يَا رَسُولَ اللهَّ، مَا لَنَا مِنْ نَمَارِقَ !

✍ **قَالَ: "إِنَّهَا سَتَكُونُ ! فَإِذَا أَنْتَ قَدِمْتَ فَاعْمَلْ عَمَلاً كَيِّسًا ! "**

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥].

✍ **قَالَ جابر:** فَلَمَّا جِئْنَا صِرَارًا أَمَرَ رَسُولُ اللهَّ ـ ﷺ ـ بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ؛ فَأَقَمْنَا عَلَيْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَلَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللهَّ ـ ﷺ ـ دَخَلَ، وَدَخَلْنَا، ... فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخَذْتُ بِرَأْسِ الْجَمَلِ فَأَقْبَلْتُ بِهِ حَتَّى أَنَخْتُهُ عَلَى بَابِ رَسُولِ اللهَّ ـ ﷺ ـ ثُمَّ جَلَسْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَرِيبًا مِنْهُ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهَّ ـ ﷺ ـ فَرَأَى الْجَمَلَ، فَقَالَ: **"مَا هَذَا"**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ هَذَا جَمَلٌ جَاءَ بِهِ جَابِرٌ، قَالَ: **" فَأَيْنَ جَابِرٌ"**، فَدُعِيتُ لَهُ، قَالَ: **" تَعَالَ ! أَيْ يَا ابْنَ أَخِي ! خُذْ بِرَأْسِ جَمَلِكَ فَهُوَ لَكَ ".**

✍ **فَدَعَا بِلَالاً، فَقَالَ: "** اذْهَبْ بِجَابِرٍ فَأَعْطِهِ أُوقِيَّةً**"**، فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَأَعْطَانِي أُوقِيَّةً وَزَادَنِي شَيْئًا يَسِيرًا.

✍ **قَالَ جابر:** فَوَاللهَّ مَازَالَ يَنْمِي عِنْدَنَا، وَنَرَى مَكَانَهُ مِنْ بَيْتِنَا ... [انظر: أحمد: ١٤٤٩٥، شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن].

نفسٌ عظيمة؛ وسعت المؤمنين رحمةً، وصدق الله العظيم: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]

***

هكذا كانت هذه الغزوة، مترعةٌ بدروس جليلـة، دروسٌ في الـشجاعة والبـسالة، والتجرد والتجلد، في أهمية الصلاة، وفي ضرورةِ استشعارِ المسلمِ لخطرهـا، في فـضل حراسة الثغور، وقيام الليل والخشوع، في فضلِ تفقدِ الإخوانِ، والمشاركة في إصـلاحِ معايشهم، وإزالة كرباتهم، مواساتهم في محنهم .

توصيات عملية

١ـ راقب قلبك دومًا في الإخلاص والتجرد، ولا تـتكلم عن أعمالك الصالحة إلا لضرروة أو مصلحة .

٢ـ شاركْ في رحلة سيرة مع بعض الرفاق، يُتدارس فيهـا غزوةُ ذاتِ الرقاع.

٣ـ اعقد مدارسة قرآنية حول سورة الكهف، تلـك التـي كان قام بها عبادٌ ليلة حراسته للعسكر.

٤ ـ تفقد إخوانك، وشـارك في إصـلاح معيـشتهم، ولـو بالدعاء لهم بظهر الغيب.



غزوة بني المصطلق (المريسيع)

نصران وفتنتان في هذه الغزوة، أما النصر الأول فكان على ذلك النصر العسكري على حققه المسلمون على قبيلة بني المصطلق تلك التي تعاونت مع قريش في حربها على المسلمين يوم أحد، ومن ثم تأتي هذه الغزوة في إطار الغزوات والسرايا التأديبية التي أطلقها النبي ـ ﷺ ـ بعد معركة أحد .

أما النصر الثاني، هو إسلام تلك القبيلة، بعد أن أطلق المسلمون سراح أسرى بني المصطلق، إذ لما تزوج النبي ـ ﷺ ـ من جويرية بنت الحارث بن ضرار زعيمِ بني المصطلق، أطلق المسلمون من في أيديهم وقالوا : أصهار رسول الله ! فكان لهذا الموقف الجماعي أثرٌ نفسيٌ كبير على بني المصطلق أدى لدخولهم في الإسلام.

أما الفتناتان؛ فالأولى؛ تلك الملاحاة التي حدثت بين بعض المهاجرين وبعض الأنصار، وقول المنافقين على إثرها : "لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ".

والثانية، فتنة الإفك، حيث خاض المنافقون ـ لعنهم الله ـ في عرض رسول الله، واتهموا عائشة أم المؤمنين بالزنى مع صحابي جليل .

***

هذا هو الموجز، وهاكم التفصيل ...

....

هزيمة بني المصطلق

وصلت المعلوماتُ إلى النبي ـ ﷺ ـ تفيد أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق يجمع العدة والعتاد لغزو المدينة، إذ لم يكتفوا بتلك المشاركة الآثمة مع قريش في معركة أحد، ويبدو أن نتائج أحد قد أغرت هؤلاء لخوض حرب جديدة .

ولكن النبي ـ ﷺ ـ باغتهم قبل أن يباغتوه، ونزل بساحتهم قبل أن ينزلوا بساحته، فخرج في شعبان من العام الخامس للهجرة ـ على خلاف مشهور بين العلماء في تاريخ

هذه الغزوة ـ، فسار النبي ـ ﷺ ـ بجيشه حتى وصل إلى ماء لهذه القبيلة اسمه (**المريسيع**)، وتصافَّ الفريقان للقتال، وأراد النبي ـ ﷺ ـ أن يدعوهم إلى الإسلام قبل القتال كما هو ثابتٌ في سنته الكريمة، فأرسل إليهم عمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هو شخصٌ تعرفه العربُ وتعرف مكانته في الجاهلية ـ فلما دنا منهم، نادى فيهم أن قولوا : لا إله إلا الله، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، فأبوا، فتراشق الجيشانِ بالسهام ساعةً، ثم حملَ عليهم المسلمون حملةً واحدة؛ فهزموهم بإذن الله، فريقًا يقتلون، ويأسرون فريقًا، ومنحهم الله مغانمَ كثيرةً؛ ألفي بعيرٍ، وخمسةَ آلافِ شاةٍ، فضلاً عن السبي، الذي كان في رهطٍ من آل الحارث بن ضرار الذي قصد حرب المسلمين، وكانت جويريةَ ابنته من نصيب رجلٍ من الأنصار، هو ثابت بن قيس، وذلك بعد أن قسّم النبي ـ ﷺ ـ هذه الغنائم في الجيش.

✍ **إسلام بني المصطلق**

حدث بعد ذلك أنْ أتت جويريةُ ـ رضي الله عنها ـ إلى النبي ـ ﷺ ـ تستعين به في فك رقبتها من ثابت بن قيس، فقالت له : **"يَا رَسُولَ اللهَّ ! أَنَا جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ، سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنْ الْبَلاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ ـ أَوْ لِابْنِ عَمٍّ لَهُ ـ فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي ؛ فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى كِتَابَتِي "** .

✍ **فقال لها النبي ـ ﷺ ـ :**

"فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ "

✍ **قَالَتْ :** وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهَّ ؟

✍ **قَالَ : " أَقْضِي كِتَابَتَكِ، وَأَتَزَوَّجُكِ "** .

✍ **قَالَتْ : "نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهَّ !**

✍ **قَالَ: "قَدْ فَعَلْتُ"**

✍ **قَالَتْ عائشة :**

"وَخَرَجَ الْخَبَرُ إِلَى النَّاسِ، أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ـ ﷺ ـ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ، فَقَالَ النَّاسُ : أَصْهَارُ رَسُولِ اللهَّ ـ ﷺ ـ !! فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ "

✍ **قَالَتْ عائشة: "فَلَقَدْ أَعْتَقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَمَا أَعْلَمُ امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا !** "[أحمد: ٢٦٣٦٥ وغيره، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم ٣٩٣١].

وحدث على إثر ذلك ـ كما هو ثابت في كتب السير ـ أن أسلم بنو المصطلق تأثرًا بأخلاق المسلمين.

ولعلك تلحظ أنهم لم يسلموا لما تصافَّ الجيشان وقد دعاهم عمر للإسلام حقنًا لدمائهم، فرفضوا .

وهَاهُمْ أولاءِ قد أسلموا جراء هذا الموقف الأخلاقي الجماعي من الشعب المسلم .

إنه درسٌ يُعليَ من شأن الترغيب على الترهيب ـ على أهميتهما معًا ـ، ويبين الطريق المثلى للولوج إلى قلوب كثير من الناس؛ بالحكمة والموعظة الحسنة والأخلاق الإسلامية العملية .

ثم إن الحديث عن الأخلاق، يختلف عن العمل بالأخلاق، في التأثير على الناس، فالذي يعمل بأخلاق الإسلام أقوى أثرًا بين الناس من الذي يفرد الخطب الطوال في حث الناس على الأخلاق. لذا كان قولنا : عاملٌ أفضل من ألف قائل، وليس الحكيم يلقن الناس الحكمةً متونًا، إنما هو الذي يفعلها سلوكًا .

وإذ كان فعل الفرد له أثرٌ كبير في جماعة القائلين، فما بالك بأثر الجماعة العاملة ؟ هذا الذي تحقق في هذا الموقف عندما أعتق المسلمون جميعًا ما في أيدهم من أسرى بني المصطلق .

ثم هو موقفٌ يؤكد لك مدى احترامِ المسلمين لنبيهم، وفضلهم في ذلك على الأمم الأخرى التي أهانت أنبياءهم فضلاً عن أنبياء غيرهم .

وهذا التوقير الذي أمرنا الله به، يحتاج منا إلى مزيد من التفعيل في واقعنا المعاصرِ، ومن ذلك توقيرُ منهج النبي ـ ﷺ ـ والاقتداءُ به حكامًا ومحكومين .

وحدث في هذه الغزوة في ثنايا هذين الفتحين الكبيرين، أنْ كانت فتنتين كادتا أن تأتيَ على الشعب المسلم، وتجره إلى حرب أهلية تدمرُ كلَ شيء، لولا اللهُ، ثم حكمةُ النبي ـ ﷺ ـ .

✍ **فتنة جهجاه وسنان :**

فَبَيْنَا المسلمون على ماء المريسيع، وَرَدَتْ وَارِدَةُ النَّاسِ وَمَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَجِيرٌ لَهُ مِنْ بَنِي غِفَارٍ ، يُقَالُ لَهُ جَهْجَاه بْنُ مَسْعُودٍ يَقُودُ فَرَسَهُ فَازْدَحَمَ جَهْجَاه وَسِنَانُ بْنُ وَبَرٍ الْجُهَنِيّ الخزرجي، فَاقْتَتَلَا ، فَصَرَخَ الْجُهَنِيّ : يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ، وَصَرَخَ جَهْجَاه : يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ فَغَضِبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ، وقال قولته : أَمَا وَاللهِ { لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الْأَعَزّ مِنْهَا الْأَذَلّ ، ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُمْ هَذَا مَا فعَلْتُمْ بأَنْفُسِكُمْ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلادكُمْ، وقَاسَمْتُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ أَمَا وَاللهِ، لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوّلُوا إِلَى غَيْرِ دَارِكُمْ. فَسَمِعَ ذَلِكَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ فَمَشَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ وَذَلِكَ عِنْدَ فَرَاغِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ مِنْ عَدُوّهِ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ ، فَقَالَ : مُرْ بِهِ عَبّادَ بْنِ بِشْرٍ فَلْيَقْتُلْهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ :"**فَكَيْفَ يَا عُمَرُ، إِذَا تَحَدّثَ النّاسُ أَنّ مُحَمّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، لا، وَلَكِنْ أَذّنَ بِالرّحِيلِ**"، وَذَلِكَ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ يَرْتَحِلُ فِيهَا ، فَارْتَحَلَ النّاسُ . [ابن هشام ٢ / ٢٩١]

وَقَدْ مَشَى عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ حِينَ بَلَغَهُ أَنّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ، قَدْ بَلّغَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُ فَحَلَفَ بِاللهِ مَا قُلْت مَا قَالَ، وَلا تكَلّمْت بِهِ .ـ وَكَانَ فِي قَوْمِهِ شَرِيفًا عَظِيمًا ـ ، فَقَالَ مَنْ حَضَرَ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ مِنْ الأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِهِ : يَا رَسُولَ اللهِ، عَسَى أَنْ يَكُونَ الْغُلامُ قَدْ أَوْهَمَ فِي حَدِيثِهِ، وَلَمْ يَحْفَظْ مَا قَالَ الرّجُلُ ـ حَدَبًا عَلَى ابْنِ أُبَيّ ابْنِ سَلُولَ ، وَدَفْعًا عَنْهُ [ابن هشام ٢ / ٢٩١].

ولما التقى النبي ـ ﷺ ـ بأسيد بن حضير، قال لَهُ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ : "**أَوَ مَا بَلَغَك مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟**" قَالَ : وَأَيّ صَاحِبٍ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : "**عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ**"؛ قَالَ : وَمَا قَالَ ؟ قَالَ: "**زَعَمَ أَنّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَن الأعَزّ مِنْهَا الْأَذَلّ**"، قَالَ: فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ تُخْرِجُهُ مِنْهَا إِنْ شِئْت . هُوَ وَاللهِ الذّلِيلُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ ! ثُمّ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ : ارْفُقْ بِهِ فَوَاللهِ لَقَدْ جَاءَنَا اللهُ بِك ، وَإِنّ قَوْمَهُ لَيَنْظِمُونَ لَهُ الْخَرَزَ لِيُتَوّجُوهُ، فَإِنّهُ لَيَرَى أَنّك قَدْ اسْتَلَبْتَه مُلْكًا. [ابن هشام ٢ / ٢٩١].

ثُمّ مَشَى رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ بِالنّاسِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتّى أَمْسَى ، وَلَيْلَتَهُمْ حَتّى أَصْبَحَ، وَصَدْرَ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ حَتّى آذَتْهُمْ الشّمْسُ، ثُمّ نَزَلَ بِالنّاسِ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ وَجَدُوا مَسّ الأَرْضِ فَوَقَعُوا نِيَامًا ، وَإِنّمَا فَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ لِيَشْغَلَ النّاسَ عَنْ الْحَدِيثِ الّذِي كَانَ بِالأَمْسِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ أُبَيّ [ابن هشام ٢ / ٢٩١].

وجاء عَبْدُ اللهِ بن عبد الله بن أُبي إلى النبي ـ ﷺ ـ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّك تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيّ فِيمَا بَلَغَك عَنْهُ، فَإِنْ كُنْت لا بُدّ فَاعِلاً؛ فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إلَيْك رَأْسَهُ، فَوَاَللهِ لَقَدْ عَلِمَتْ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرّ بِوَالِدِهِ مِنّي ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ فَلا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيّ يَمْشِي فِي النّاسِ فَأَقْتُلَهُ فَأَقْتُلَ مُؤْمِناً بِكَافِرٍ فَأَدْخُلَ النّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ: **" بَلْ نَتَرَفّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ، مَا بَقِيَ مَعَنَا ."** [ابن هشام ٢ / ٢٩١].

وَجَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إذَا أَحْدَثَ الْحَدَثَ، كَانَ قَوْمُهُ هُمْ الّذِينَ يُعَاتِبُونَهُ، وَيَأْخُذُونَهُ، وَيُعَنّفُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ لِعُمَرِ بْنِ الْخَطّابِ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِمْ : **" كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ ! أَمَا وَاَللهِ لَوْ قَتَلْته يَوْمَ قُلْتَ لِي اُقْتُلْهُ، لأُرْعِدَتْ لَهُ آنُفٌ لَوْ أَمَرْتهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلْته "**؛ قَالَ عمر : قَدْ وَاَللهِ عَلِمْتُ لأَمْرُ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ أَعْظَمُ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي [ابن هشام ٢ / ٢٩٢].

وهي قصة تظهر لك حكمة منقطعة النظير، بعد نظر، وصبر . فبحكمته ـ ﷺ ـ جنى تعاطف عشيرة ابن أبي، وفي بعد نظره رأيتَ ما قال عمر، وفي صبره رأيتَ كيف سكتَ حتى تكلم القرآنُ ففُضح عدو الله ابن أبي.

***

فتنة الإفك :

ونتركُ أُمنا الطاهرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقص القصة ـ والحديث في صحيح البخاري ـ فتقول:

١ـ كَانَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ مَعَهُ .. فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا [**هي هذه الغزوة**] فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا..

٢ـ حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ؛ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ ـ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ ـ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ؛ فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي، أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ (**جَزْعِ ظَفَارِ**) قَد

انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ[1]، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ[2] مِنْ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلا مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي[3] الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ ..

٣ـ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ، مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ[4] حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي[5] بِجِلْبَابِي وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، وَهُمْ نُزُولٌ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ .

٤ـ فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ :" **كَيْفَ تِيكُمْ**"[6] ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ

---

(١) يُهبَّلن: – بضم التحتانية وتشديد الموحدة – أي: لم يكثر عليهن اللحم، يقال: هبّله اللحم إذا كثر عليه وركب بعضه بعضاً. [محمد بن محمد العواجي: مرويات الإمام الزهري في المغازي، (١ / ٤٥٥)] .

(٢) العُلقة: – بضم المهملة وسكون اللام – من الطعام: أي البلغة منه/ النهاية ٣/ ٢٨٩، والنووي على مسلم ١٧/ ١٠٤ . [محمد بن محمد العواجي: مرويات الإمام الزهري في المغازي، (١ / ٤٥٥)] .

(٣) أي قصدته .

(٤) أي: قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٥) أي سترته، والتخمير: التغطية .

(٦) تيكم: – بالمثناة المكسورة – وهي للمؤنث مثل ذاكم للمذكر، الفتح ٨/ ٤٦٥، قال الحافظ: واستدلت عائشة بهذه الحالة على أنها استشعرت منه بعض جفاء ولكنها لما لم تكن تدري السبب لم تبالغ في التنقيب عن ذلك حتى عرفته. الفتح ٨/ ٤٦٥ . [محمد بن محمد العواجي: مرويات الإمام الزهري في المغازي، (١ / ٤٥٧)]

حِينَ نَقَهْتُ فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا، وَكُنَّا لا نَخْرُجُ إِلا لَيْلاً إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ (١) قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا ... فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ (وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ) فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا(٢)، فَقَالَتْ : تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ : لَهَا بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ ! وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ ؟ قُلْتُ : مَا قَالَ ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي..

٥- فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: "كَيْفَ تِيكُمْ"، فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقُلْتُ: لأُمِّي :يَا أُمَّتَاهُ مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ ؟ قَالَتْ : يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا ! فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا ؟ فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي ..

٦- وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ وَلا نَعْلَمُ إِلا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بَرِيرَةَ فَقَالَ : أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟ قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ !

٧- فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ! مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلا مَعِي، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأوسي فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ فَإِنْ كَانَ مِنْ الأَوْسِ

---

(١) الكنف: - بضمتين - جمع كنيف وهو الساتر، والمراد به هنا المكان المتخذ لقضاء الحاجة، الفتح ٨/ ٤٦٥. [محمد بن محمد العواجي: مرويات الإمام الزهري في المغازي، (١ / ٤٥٧)]

(٢) المرط: كساء من صوف

ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ . فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْخَزْرَجِ .. وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلاً صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لا، تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ..

٨- فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى إِنِّي لأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: **"أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ، ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ"**.. فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- مَقَالَتَهُ، قَلَصَ[1] دَمْعِي، حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لأَبِي أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- عَنِّي فِيمَا قَالَ، فَقَالَ أَبِي : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ -ﷺ-، فَقُلْتُ لأُمِّي : أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- فِيمَا قَالَ، قَالَتْ أُمِّي : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقُلْتُ -وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لا أَقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ كَثِيرًا- : إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ لا تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي فَوَاللَّهِ لا أَجِدُ لِي

---

(١) قَلَصَ دمعي: - بفتح القاف واللام ثم المهملة -: أي: استمسك نزوله فانقطع، ومنه قلص الظل، وتقلص إذا شمر.

قال القرطبي: **"سببه أن الحزن والغضب إذا أخذ أحدهما فقد الدمع لفرط حرارة المصيبة"** الفتح ٨/ ٤٧٥.

[محمد بن محمد العواجي: مرويات الإمام الزهري في المغازي، (١ / ٤٦٥)]

وَلَكُمْ مَثَلاً إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨] ، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ، وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي ..

٩ـ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ مَجْلِسَهُ وَلا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ وَهُوَ يَضْحَكُ فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ يَا عَائِشَةُ : أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ ! فَقَالَتْ لِي أُمِّي : قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ وَاللَّهِ لا أَقُومُ إِلَيْهِ فَإِنِّي لا أَحْمَدُ إِلا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ [النور:١١]

الْعَشْرَ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي..

١٠ ـ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ : وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢]

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ : بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا .

١١ـ " وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ:" مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ "، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلاَّ خَيْرًا ! قَالَتْ عَائِشَةُ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ"[البخاري :برقم ٣٨٢٦] ..

***

✍ قَالَ حَسّانُ بْنُ ثَابتٍ يعتذر لعَائِشَةَ - رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا – بعد أن نزلت براءتها:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

عَقِيلَةُ حَيّ مِنْ لُؤَيّ بْنِ غَالِبٍ ... كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ

مُهَذّبَةٌ قَدْ طَيّبَ اللهُ خِيمَهَا ... وَطَهّرَهَا مِنْ كُلّ سُوءٍ وَبَاطِلِ

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْت الّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ ... فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إلَيّ أَنَامِلِي

وَكَيْفَ وَوُدّي مَا حَيِيتُ وَنُصْرَتِي ... لِآلِ رَسُولِ اللهّ زَيْنُ الْمَحَافِلِ

لَهُ رَتَبٌ عَالٍ عَلَى النّاسِ كُلّهِمْ ... تَقَاصَرَ عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ

فَإِنّ الّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَائِطٍ ... وَلَكِنّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَاحِلِ

***

✍ دروس من القصة :

لقد علا قدر أم المؤمنين بعد هذه المحنة، فنزلت فيها آيات من لدن ربِ العالمين، براءةً وشهادةً وتكريمًا لأم المؤمنين، تتلى آناء الليل وآناء النهار إلى قيام الساعة.

و كَوْنُ القرآنِ يَنزلُ منه شيئًا في هذه القضية لهو دليلٌ واضح وصريح على خطورة التعرض لأمهات المؤمنين، وقد قال الله ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور:١٧] ، فلا عذر بعد ذلك لمن وقع في عائشة ـ رضي الله عنه ـ، إلى قيام الساعة.

وأبانت هذه القصةُ نبوة النبي ـ ﷺ ـ وبشريته في موقف واحد، وشُرع على إثر هذه الحادثة حد القذف، ونزلت توصيات عزيزة في أهمية الحرص على سمعة المسلمين ووجوب محاربة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، والحث على النفقة على الأقارب وإن أساءوا، وهذا كلُّه من بركات أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنه ـ.

***

ألا فليعلمَ الذين يحبون أن تشيعَ الفاحشة في المجتمعِ الإسلامي؛ أن الله فاضحهم، وأن الله لاعنهم، ولهم الدمار في الدنيا والآخرة !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور:١٩]

ألا فليعلم المسلمون أن في أعناقهم أمانة نحو المسلمات، ألا وهي حماية أعراضهن، وإعفافهن، وأداء حقوقهن !



١ـ مدراسة سورة النور

٢ـ مدارسة ترجمة السيدة عائشة رضي الله عنها

٣ـ راقب لسانك ما دام فيك، فلا تذكر مسلمًا بما يكره



غزوة الخندق (الأحزاب) شوال ٥هـ - فبراير ٦٢٧ م

تحركات اليهود واستعدادات المسلمين

✍ **"أحجار على رقعة الشطرنج"**

بعد معركة بني النضير [٤ هــ] – التـي أجـلى فيها المسلمون يهود النضير إلى خارج المدينة، بعدما خانوا، وعزموا على اغتيال النبي –ﷺ – تحرك وفد يهودي يجوب الجزيرة العربية لتجهيز أكبر جيش عـربي لاستئـصال الإسلام والمسلمين وقتل الرسـول واحـتلال المدينـة ونهـب خيراتها.

ونجح اليهود في إعداد هذا التحالف العربي الذي دخلت فيه أهم قبائل العرب ..

وقد كان على رأس هذا الوفد اليهودي نخبة من من زعماء اليهود مـمَّن يحقـدون على المسلمين حتى النخاغ، وكان منهم :

١ -سَلامُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ النّضْرِيّ

٢ -حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ النّضْرِيّ

٣- كِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ النّضْرِيّ

٤ – هَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الْوَائِلِيّ

٥ – أَبُو عَمّارٍ الْوَائِلِيّ.

٦ -وَسَلام بْن مِشْكَمٍ [ابن القيم: زاد المعاد – ٣ / ٢٤٠]

وانضمت إلى هذا التحالف اليهودي الوثني أهم قبائل العرب : قريش وغطفان، و فزارة ومرة، وأشجع واتجهت جيوش الأحزاب نحو المدينة ..

وهكذا كان اليهود وراء تحالف الأحزاب، فجابوا وساحوا في الجزيرة، وانصاعت لنفثهم القبائل، فكانت قبائل العرب أحجارًا على رقعة الشطرنج اليهودية .

✍ **اليهود يدعمون العقائد الوثنية:**

وتروي كتب السير، قصةَ خروج اليهود إلى مكة لدعوة قريش إلى حرب رسول الله –ﷺ –، وهي عجيبة من عجائب الدهر؛ أن يتصعلك أهلُ كتابٍ عند أهل وثـنٍ، وأن يتحبب أتباع دين سماوي إلى أصحاب دين وثني، وأن يستعين اليهود بالوثنية لضرب الإسلام .

ولقد وجد صناديد مكة الفرصة سانحة بهذه الزيارة اليهودية؛ أن يضفوا الشرعية على عبادة الأصنام، وأن يحصلوا على شهادة من علماء بني إسرائيل على سلامة الدين الوثني، وأحقية اللات والعزى ومناة وقطعان الأصنام بالعبادة .

✍ **فقالت قريش** :

" يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الأول، وَالْعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ ؟ " .

فقال زعماء اليهود وعلماء بني إسرئيل :

" بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ..!! " [ابن هشام ٢ / ٢١٤] .

وهكذا سجل التاريخ هذه المَعرة اليهودية، وصور هذه العورة الإسرائيلية، في هذا المشهد المخزي من أناس – يدَّعون انتسابهم لموسى – خانوا الشرائع السماوية، ودلسوا الأمانة العلمية، وشهدوا زورًا وكذبًا بصحة دين الأصنام وأحقيته على دين خير الأنام.

✍ **وهم الذين قال الله فيهم، مسجلاً هذه المساندة اليهودية لدين الأوثان :**

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [النساء:٥١]..

إنه العار الذي لحق بالأمة اليهودية صاحبة الكتاب السماوي، لـمَّا تحالفت مع الوثنية ضد التوحيد، ومع الأعداء ضد أبناء الوطن .

✍ **الزحف نحو المدينة :**

وخرجت جيوش التحالف وقد أجمعت أمرها على إفناء المسلمين، وتألفت هذه الجيوش على النحو التالي :

١-جيش قريش، تحت قيادة أَبِي سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: (٤٠٠٠ جندي) .

٢-جيش غَطَفَان ، بقيادة عُيَيْنَة بْنُ حِصْنٍ ، وفِيهم بَنو فَزَارَةَ

٣- جيش بَنِي مُرّةَ، ، بقيادة الْحَارِث بْنُ عَوْفِ (**٤٠٠ جندي**)، وهي من بني غطفان.

٤ – جيش أَشْجَعَ ، بقيادةَ مِسْعَر بْنُ رُخَيْلَةَ (٤٠٠ **جندي**).

٥- جيش بني أسد، بقيادة طليحة بن خويلد (٤٥٠٠ **جندي**)

٦- جيش بني سليم، بقيادة سفيان بن عبد شمس (٧٠٠ **جندي**)، وقد التحقوا بجيش التحالف في (**مُرَّ الظهران**)[انظر: ابن هشام ٢ / ٢١٥] ..

ومن ثم تجاوز عددهم عشرة آلاف ، وكانت القيادة العامة لأبي سفيان .

إن هذا التجمع الوثني الكبير – في هذا الوقت – يشي بمدى الجهد الكبير الذي بذله اليهود، علاوة على تلك الأطماع التي ظهرت وسال لعاب أصحابها، فالمدينة بالنسبة لأعراب الجزيرة صيد ثمين وغنيمة ضخمة، كما أن إفناء المسلمين هدف أسمى بالنسبة للوثنين واليهود على حد سواء .

✍ أهمية الشورى والأفكار المستحدثة في الحرب:

ورُفعت إلى النبي –ﷺ – التقريرات الاستخباراتية، التي تفيد بتحرك جيوش التحالف صوب المدينة، فاسْتَشَارَ الصّحَابَةَ، ما العمل ؟ وهو النبي المصطفى الذي يتنزل الوحي عليه من السماء .. فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خَنْدَقٍ يَحُولُ بَيْنَ الْعَدُوّ وَبَيْنَ الْمُدِينَةِ، وهي حيلة دفاعية يستخدمها الفرس، والحكمة ضالة المؤمن فأنى وجدها فهو أحق الناس بها .

إن درس الشورى يأبى الغياب بين فصل وآخر من فصول سيرة الرسول ..

إن الشورى ثمرة نضيجة من ثمرات الدعوة الإسلامية، نراها ماثلة حية في أحداث السيرة في ظلال النبوة وتحت قبة الوحي وبين يدي الرسول الصادق المصدوق، لتتوكد فريضة الشورى- تلك الفريضة الغائبة المجهولة – في نفوس المسلمين والمتمسلمين، حكامًا ومحكومين، ولنعرف أن جو الاستبداد ضَيِّقٌ لا يتسع، وهَمٌ لا ينفرج، والجور والعسف لا يصنع عقولاً إنما يصنع أقفية.

✍ تكريم العقول المبُتكِرة

طفق الناس يهتفون لسلمان، افتخارًا به، وسرورًا بفكرته، فقال المهاجرون : سَلْمَانُ مِنّا ؛ وَقَالَتْ الأَنْصَارُ : سَلْمَانُ مِنّا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- سَلْمَانُ مِنّا أَهْلَ الْبَيْتِ [ابن هشام ٢ / ٢٢٤] .

وهو الرد المعهود من القيادة الإسلامية التي شرعت في تكريم أصحاب الابتكارات وأصحاب الاختراعات .

لقد نال سلمان هذه المرتبة الشرفية، واستحق هذا الوسام النبوي الرفيع؛ لأنه أعمل عقله في خدمة الإسلام، واخترع وابتكر، وأبدع ما ينفع المسلمين، وفكر، وفكر، وفكر، ولم ينخذل ولم يتضعضع، فكان من زمرة آل البيت ـ رحمهم الله ـ .

وانظر .. كيف تهيج العقول وتستوي على سوقها، فتَنتج وتبدع في جو الشورى، وبيئةِ الحوار بين الراعي والرعية، وتُربةِ التفاهم بين القائد وجنده !

هذه هي سمة البيئة الشورية في المجتمعات؛ بيئة جاذبة للعقول، تحتضن أصحاب المواهب والأفكار . وليست بيئة طاردة للعقول قاتلة للفهوم .

✍ أيها المسؤول .. ابدأ بنفسك !

فلما أصدر النبي –ﷺ – قراره بضرب الْخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِينَةِ ، عَمِلَ فِيهِ–ﷺ – بنفسه – مشاركةً، و تَرْغِيبًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي الأجر، وتحميسًا لهم ، وتواضعًا منه –ﷺ – فلا يليق بالقائد المسلم أن يجلس في رغد ولهو على الفراش اللين الدافىء من خلف جنوده الذين يتضاغون جوعًا ويرتعدون من البرد شمال المدينة حيث أعمال الحفر ..

وفي ذلك، الدرس الأوفى؛ لأصحاب المسؤوليات في العمل الجماعي الدعوي؛ أن يتقوا الله في أنفسهم وإخوانهم والدعوة، فتجد أحدهم يلقي على إخوانه التكاليف الثقال؛ وليس له من الأمر إلا القعود وقيل وقال. أو تراه يتكلف ويتعمَّل، ويتصنع المشاركة ثم ينستل من بينهم، تاركًا الجَمل بما حمل، ولا حياء ولا خفر، وبعد العمل تراه قد خرج من جحره؛ ليلقي نظرياته في العمل وينظّر تنظير العلماء، ويعَّقب تعقيب الحكماء، عما كان وعما ينبغي، وهو الخطيب المصقع والمتحدث المِفْلق، لكن .... دون مشاركة جادة ومعاونة فاعلة.

✍ فقه الاستئذان

وَعَمِلَ الأبطال في أعمال حفر الخندق؛ فَدَأَبَ فِيهِ القائد وَدَأَبُوا . وَأَبْطَأَ عن المجاهدين فِي عَمَلِهِمْ ذَلِكَ رِجَالٌ مِنْ الْمُنَافِقِينَ، وَجَعَلُوا يُوَرّونَ بِالضّعِيفِ مِنْ الْعَمَلِ، وَيَتَسَلّلُونَ إلَى أَهْلِيهِمْ – هربًا من أعمال الحفر – بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْ رَسُولِ اللّهِ

-ﷺ- ولاإِذْنٍ . وَجَعَلَ الرَّجُلُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إذَا نَابَتْهُ النَّائِبَةُ مِنْ الْحَاجَةِ الَّتِي لا بُدّ لَهُ مِنْهَا ، يَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِّ -ﷺ- وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي اللّحُوقِ بِحَاجَتِهِ فَيَأْذَنُ لَهُ – في رحمة وعفو – فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ رَجَعَ إلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَمَلِهِ رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ وَاحْتِسَابًا لَهُ

فَأَنْزَلَ اللهُّ تَعَالَى فِي أُولَئِكَ مِنْ الْمُـؤْمِنِينَ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٦٢] [انظر : ابن هشام ٢ / ٢١٥، ٢١٦].

وفي هذا دلالة على أهمية الاستئذان إذا ما أراد الجندي الانصراف عن العمل الجماعي لضرورة أو لحاجة .. فلا يجوز له – شرعًا ولاخُلقًا ولا عُرفًا– أن يتحول عن العمل الجماعي إلى العمل الفردي – أي من المصلحة العامة إلى المصلحة الخاصة – إلا بموافقة صريحة من القائد .

وفي ذلك المشهد درسٌ لهؤلاء الهزليين والكُسالى الذين يتخلفون عن المصلحة العامة لحساب مصلحتهم الشخصية، ويقدمون مستحب الفرد على واجب الأُمة، ويُبطئون عن إخوانهم بغير عذر ولا إذن، ويُوَرّون بالعمل المتصنع الضعيف الشكلي، ويتسللون إلى بيوتهم ومصالحهم الشخصية تسلل الثعالب، هربًا من الأعمال، وتهربًا من الأعباء، وفرارًا من المصلحة العامة – تالله إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه، وفاسدٌ ما هم عليه، وهم أحوج إلى التوبة والأوبة من العبد الآبق !

✍ **ولهؤلاء نقول:** إن الله تعالى لم يذرأكم في هذه الأرض عَبَثاً، ولم يتركك فيها سُدًى، ولا يريد منكم من رزق فتَقْسمون، ولا قصور فتفخرون، ولا مراكب فتمرحون، وما بَيْنَ أحدكم وبين الجَنة والنار إلا الموتُ يأتيه اللحظة، أو بعد لحظة؛ وإنَّ طموحاتٍ تَنْقُصها اللحظةُ، ومشاريعًا دنيوية تَهْدِمها اللحظة، لجديرة بقِصَر العمر، وهوان الدنيا..

فياها حَسْرَةً على كلّ ذي غَفلة !

أهمية الأدب الحماسي

عن سهل بن سعد – رضي الله عنه – قال :

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ – فِي الْخَنْدَقِ وَهُمْ يَحْفِرُونَ، وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَادِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ –: **"اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ والأنصار"** [البخاري، برقم:(٣٧٨٩)].

وعن أنس قال :

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ – إِلَى الْخَنْدَقِ، فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ :

"اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَهْ.. فَاغْفِرْ للأنصار وَالْمُهَاجِرَهْ"

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ : نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا.. عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا.

فكَانَ النَّبِيُّ –ﷺ – يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنَهُ أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ [البخاري : برقم (٣٧٩٥)]

وكان من بين المجاهدين رجل من الْمُسْلِمِينَ يُقَالُ لَهُ جُعَيْلٌ .. فسَمّاهُ رَسُولُ اللهِّ –ﷺ – عَمْرًا ..

فطفق الصحابة يرددون مرارًا :

سَمّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرَا ... وَكَانَ لِلْبَائِسِ يَوْمًا ظَهْرَا

فَإِذَا مَرّوا " **بِعَمْرٍو** " قَالَ رَسُولُ اللهِّ –ﷺ –: " **عَمْرًا !"**

وَإِذَا مَرّوا " **بِظَهْرٍ** " قَالَ رَسُولُ اللهِّ–ﷺ – : " **ظَهْرًا** " [ابن هشام ٢ / ٢١٧]

وعن الْبَرَاءَ قَالَ :

كَانَ رَسُولُ اللهِّ–ﷺ – يَوْمَ الأحْزَابِ يَنْقُلُ مَعَنَا التُّرَابَ وَلَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

وَاللَّهِ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

[إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا]

إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ أَبَيْنَا أَبَيْنَا . [البخاري :(٣٧٩٥)، ومسلم : (٣٣٦٥)]

إذا أردتَ أن تهدم شَعبًا فسلط عليه الأدب الرقيع، والشعر الرخيص، وقصص الجنس، وروايات العهر، وقصائد الخمر، فالأدب الخليع لا يقل ضرواة في الهدم من الصواريخ !

وإذا أردنا أن نؤسس جيشًا، ونبني أُمةً ، - وقد قال الله تعالى : " **وأعدوا** " – فإن من تمام الإعدادِ تربيةَ الجنود على الأدب الإسلامي الجهادي، والشعر العربي الحماسي، وأناشيد الشجاعة، ومقالات الإباء، وقصص البطولة .. و"**حرض المؤمنين**"! .

وفي هذه الغزوة، وقد بدأ الحصار، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتتطايرت الظنون والشكوك ، وساحت الأضاليل والأباطيل – نرى القائد العظيم والرئيس الحكيم يثَّبت جنده ويربط على قلوبهم ويشد على أيديهم مستخدمًا في ذلك القصيدة الحماسية والطرفة الظريفة، والترنيمة اللطيفة .

ومثل هذا أيضًا، يدلل على قدرة القائد في الجمع بين الجد والترويح عن النفس، لاسيما في كربة الحرب وشدة الضنك..

✍ **وإنشاد الأناشيد والأشعار الجهادية في ثنايا المحن دائمًا تحقق عدة فوائد ، أهمها :**

(١) الترويح عن الجنود ..

(٢) إلهاب مشاعر المسلمين بشكل إيجابي نحو العقيدة والوطن

(٣) تقوية الصلة بين الجنود وقاداتهم، فضلاً عن الجنود وبعضهم .

✍ **الالتفاف حول شعار جهادي**

✍ **فلقد كَانَ شِعَارُ الجيش الإسلامي يَوْمَ الْخَنْدَقِ :**

" **حم ، لا يُنْصَرُونَ**"[ابن هشام ٢ / ٢٢٦]

إن الشعار الإسلامي أو الهتاف الحماسي رغم رمزيته له أهمية في تنظيم الجيش وحشد الجنود وبثِّهم .

ولعمرو الله .. إن صيحة الشعار تهز القلوب وتنشط بها الجوارح، وتدمع بها العيون، وبها يتحرك الجنود نحوها أو انطلاقًا منها .

وينبغي أن يتسم الشعار بالقوة ووضوح الهدف.

إن شعارات العمل الإسلامي مهمة، تحتاج دومًا إلى تجديد وتفعيل وهمة. وشرح مغزاها للناس، وتبيين علاقتها بأهداف العمل، وتأكيد أخلاقيتها فلا سَبَ فيها ولا شتم .

الصبر على الشظف

الصبر على قلة الزاد، من الآداب الهامة التي ينبغي أن يتربى عليها جند الله، ليكون الصبر وقودًا لهم في ساح القتال، تلك الساعات التي يكابد فيها الجند الحر والعطش، والجوع والشظف..

ولقد ضرب الصحابة أروع المثل في الصبر على قلة الزاد، " **فكانوا يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنْ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ، وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ !!**" [البخاري : (٣٧٩١)]

قال جابر- مشيرًا إلى أيام الخندق - :" **وَلَبِثْنَا ثلاثة أَيَّامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا**"[البخاري : (٣٧٩٢)].

وقال واصفًا حال قائدهم-ﷺ -

"**لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ -ﷺ - خَمَصًا شَدِيدًا**"[البخاري :(٣٧٩٣)]

ولقد بلغ منه -ﷺ - الجوع مبلغًا عظيمًا، يوم الخندق، حتى ربط على بطنه ليقاوم الجوع، قال أبو طلحة: "**شكونا إلى رسول الله-ﷺ - الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله-ﷺ - عن حجرين**" [الترمذي : (٢٣٧١)]!

البطن مَهلكة المسرفين، ومدرسة المُقلِّين.

فلا تكن -أخي -أسير الجُوع، صرَيع الشِّبع .

فربمًا صوم يوم أعانك على جوع يوم، فالجوع رغبة منك، دربة على الجوع رغمًا عنك .

ورب دولة صائمة وقاها الله لباس الجوع، فأحرى بشعب قضيته الكبرى الأكل والشرب أن يتوب وأن يصوم .

وليس تاريخ محمد -ﷺ -إلا تاريخ شدائد ومِحَن، ومجاهدة في هداية البشر، ومراغَمَة لكيان الفساد . فهو يجاهد رغم جوعه، ويعمل رغم جوعة، ويدعو رغم جوعه .

****

✍ **هكذا كانت الحلقة الأولى في غزوة الأحزاب ..**

١-أبانت تلك الحلقة كيف يخطط اليهود للإيقاع بالأمة الإسلامية، وحقيق أنهم أشد الناس عداوة للمسلمين، وشعارهم دومًا " **ليس علينا في الأميين سبيل** "، فهم يسعون دومًا أن يجعلوا من الكرة الأرضية رقعة شطرنج هم محركو أحجارها، ولو بالتحالف مع عبَّاد الأوثان . فأوصيك – أخي – ببغض اليهود .

٢- وأنت قد رأيت – أخي القارىء – كيف كانت البيئة الإبداعية التي كان الصحابة يحبرون فيها في ظلال دولة الشورى، وكيف كان الإبداع متساوقًا مع الحرية، وكيف كان النظام الإسلامي يدعم أصحاب المواهب ويشجع المبتكرين . فأوصيك – أخي – بصناعة البيئة الشورية الإبداعية في بنيان العمل الجماعي . لتقر الأعين بعباقرة ونوابغ في خدمة الإسلام .

٣- وعلمتَ، كيف أن القائم على ثغر من ثغور الإسلام؛ لا ينام عن إخوانه، ولا يتهرب من مهامه، ولا يَكتنُّ في كِسر بيته وإخوانه يكابدون قيظ الحَرِ. وما أقبح التخلف والإهمال في أبناء الصحوة الإسلامية ! أحَسِبَ هؤلاء أنهم كعامة الناس ؟ فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود! فعليك – أخي – بغرس قيمة المشاركة وقيمة الإستئذان.

٤- وعلمتَ أهمية فنون الأدب في معركتنا مع العدو، فكم من قصيدة أحيت الجهاد في قلوب موات، وكم من أنشودة شدا بها المجاهدون حتى بلغوا بها المعالي، فعليك بأشعار الشجاعة عند المتنبي، وديوان الحماسة لأبي تمام، وقصائد الزهد لأبي العتاهية وغيرها من الأدب القديم، إضافة إلى الكتابات الأدبية الجهادية ما مضى منها وما استجد.

٥- وعلمتَ كيف كان حال الصحابة من شظف وجوع، فالاخشيشان سمة من سمات المجاهدين، والمترفون لا يقيمون حضارة، ولا تقوى أياديهم الناعمة على حمل السلاح ، فهيا، هيا .. نغرس التربية الجهادية في نفوسنا وفي نفوس ذوينا .

توصية عملية

حضور دورة تدريبية عن العمل الجماعي

الحصار ... بشارات وكربات

هذه الحلقة درس في علاقة الراعي برعيته والقائد في كتيبته، ودرس ثاني في أهمية التبشير بالنصر، وبث روح التفاءل في نفوس الجند، ودرس ثالث في بركات الجهاد وكرامات المجاهدين، ودرس رابع في فضل المكائد الحربية، ودرس خامس في حرب الرسائل، ودرس أخير – في هذه الحلقة – حول تدارك الثغرات والثلمات فقد يُأتى المجتمع الحريز من ثغرة هينة ومعظم النار من مستصغر الشرر.

✍ **القائد بين جنوده :**

✍ **قال جابر - رضي الله عنه - :**

إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ [**أي صخرة**] شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ – ﷺ – فَقَالُوا هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ فَقَالَ: " **أَنَا نَازِلٌ**" ..

ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ- وَلَبِثْنَا ثلاثة أَيَّام لا نَذُوقُ ذَوَاقًا- فَأَخَذَ النَّبِيُّ –ﷺ –الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ – أَوْ أَهْيَمَ–، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ. فَقُلْتُ لامْرَأَتِي :رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ –ﷺ –شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ !فَعِنْدَكِ شَيْءٌ ؟

✍ **قَالَتْ:** عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ [**وهي أنثى المعز**].

فَذَبَحَتْ الْعَنَاقَ، وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ –ﷺ –وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ [أي الحجر الذي تُوضَعُ عليه القِدْرُ] قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلانِ. قَالَ : "**كَمْ هُوَ ؟**".. فَذَكَرْتُ لَهُ .. قَالَ : "**كَثِيرٌ طَيِّبٌ**" .. قَالَ: " **قُلْ لَهَا لا تَنْزِعْ الْبُرْمَةَ ولا الْخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ**" .. فَقَالَ: " **قُومُوا**".. فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ !! فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ ! جَاءَ النَّبِيُّ–ﷺ – بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ..

✍ **قَالَتْ :** هَلْ سَأَلَكَ؟

✍ **قال :**نَعَمْ

فلما أقبل رسول الله –ﷺ – بأهل الخندق

✍ **قَالَ : "ادْخُلُوا وَلا تَضَاغَطُوا"** ..

[قَالَ جابر: فَجَلَسَ وَأَخْرَجْنَاهَا (**يعني الشويهة**) إِلَيْهِ . قَالَ فَبَرّكَ وَسَمّى اللّهَ] [ابن هشام ٢ / ٢١٨]

فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ قَالَ : **"كُلِي هَذَا، وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ"**..[البخاري : (٣٧٩٢)].

في هذا المشهد، نرى نبينا –ﷺ – بين جنوده، في خدمة جنوده، في أول المشهد وآخره ..

فكان في خدمتهم لما عَرَضَتْ عليهم صخرة شَدِيدَةٌ، فقال في تواضع جم :**" أنا نازل"**، وتحرك بمعوله الكريم صوب الصخرة؛ لينسفها نسفًا، وهو أشجع الشجان، وأقوى الرجال.

وكان في خدمتهم في آخر المشهد، لما جاء جابر وقد أعد **" طعيم"** – على حد قوله – لرسول الله –ﷺ –، فما كان من القائد أن أطعم جنوده بنفسه، ووقف يوزع لهم الطعام بشخصه، حتى إذا ما أكلوا وشبعوا أكل هو.. !

إنها القيادة الرشيدة التي تهوى إليها الأفئدة بمثل هذه السلوكيات الكريمة، والأخلاق الحميدة، فما كان النبي–ﷺ – ليرضى أن يَطعم طعامًا قبل رجاله، وهو الذي يصَّبرهم على العوز، وليس من أخلاقه أن يجلس إلى الموائد الشهية الفاخرة خلسة من وراء جنوده، أو أن يتميز عنهم في طعام أو شراب ..

وهذا درس لقادة الدعوات الذين أفلحوا في التنظير، ولم يفلحوا في كسب احترام جماهير المدعويين، ونجحوا كواجهة دعائية ولم ينجحوا كقدوة تربوية، وأجادوا وأبانوا العلم والفكر والدعوة، وفشلوا فشلاً ذريعًا في نصب راية الدعوة في ميدان الحياة، فضلاً عن مجتمع الدعاة الأقران. وخليق بجميع الدعاة كبارًا وصغارًا؛ أن ينزلوا إلى ساحة المدعويين وإلى ميدان العمل ومشاركة الناس همومهم وتحطيم صخور أحزانهم بمعاول الإيمان والقرآن، وليَقُلْ ذلك الداعي الساكن في البرج العاجي : **" أنا نازل "** ، أي إلى الشارع والحي والمجتمع، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

إن الفطنة والألمعية والجهبذة لن تفلح ما دامت نائمة في رؤوس العلماء والدعاة ولم تخرج إلى واقع الحياة ! كزير الماء الذي أُحكم غلقة ولم يشرب منه أحد .

✍ **أهمية التبشير بالنصر والفتوحات وقت المحن :**

إن من أخلاقيات القيادة الإسلامية في ميادين القتال، التبشير بالنصر والتفاؤل بالظفر، والعمل الإعلامي الجاد المتواصل في بث روح الثقة في نصر الله ومدده ..

ففي مشهد الكدية التي عَرَضَتْ على الرجال، وَقَامَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ - وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ، ليحطم الصخرة التي أرهقت الجنود، قَالَ :

"تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" ..

فَنَدَرَ ثُلُثُ الْحَجَرِ ! وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ قَائِمٌ يَنْظُرُ ! فَبَرَقَ مَعَ ضَرْبَةِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ - بَرْقَةٌ .. ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ، وَقَالَ :

"تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" ..

فَنَدَرَ الثُّلُثُ الآخَرُ، فَبَرَقَتْ بَرْقَةٌ !! فَرَآهَا سَلْمَانُ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ، وَقَالَ:

" تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " ..

فَنَدَرَ الثُّلُثُ الْبَاقِي، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ-ﷺ - فَأَخَذَ رِدَاءَهُ وَجَلَسَ ..

قَالَ سَلْمَانُ : يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُكَ حِينَ ضَرَبْتَ مَا تَضْرِبُ ضَرْبَةً إِلا كَانَتْ مَعَهَا بَرْقَةٌ !!

✍ **قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ -:**

" يَا سَلْمَانُ .. رَأَيْتَ ذَلِكَ ؟؟ "

فَقَالَ: إِي، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللهِ !

فقَالَ النبي -ﷺ - : **" فَإِنِّي حِينَ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الأولَى رُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ كِسْرَى وَمَا حَوْلَهَا، وَمَدَائِنُ كَثِيرَةٌ، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ"**

قَالَ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ يَا رَسُولَ اللهِ : ادْعُ اللهَ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا وَيُغَنِّمَنَا دِيَارَهُمْ... !!

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ-ﷺ - بِذَلِكَ .

✍ **قال : " ثُمَّ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الثَّانِيَةَ فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ قَيْصَرَ، وَمَا حَوْلَهَا، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ"**

قَالُوا يَا رَسُولَ اللهَّ : ادْعُ اللهَّ أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا وَيُغَنِّمَنَا دِيَارَهُمْ ...

فَدَعَا رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- بِذَلِكَ

" ثُمَّ ضَرَبْتُ الثَّالِثَةَ فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ الْحَبَشَةِ، وَمَا حَوْلَهَا مِنْ الْقُرَى، حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ"

فقَالَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- عِنْدَ ذَلِكَ: **" دَعُوا الْحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ"**[النسائي: (٣١٢٥)، وصححه الألباني].

أرأئيتَ هذا النبي العظيم وهو في كُربة الحرب وقد تكالب القاصي والداني عليه ووأشكت المدينة أن تكون كَلئًا مباحًا للأعراب واليهود – تراه كالطود الشامخ والعَلَم الراسخ يثَّبت الأرض من حوله، ويرَّسخ الإيمان في جنده، وينشر أحاديث البشائر، وأخبار الفتوحات، وأناجيل النصر، وفتح أوربا وأسيا وأفريقيا .. فيثَّبتَ الجند، ويخفف عنهم .. وهو بهذه الأحاديث التي تُحيي النفوس؛ يسلِّيهم، ويُخَّفض عنهم، ويخفض جناحه لهم، ويَرؤفُ بهم، ويرحمهم .

فما أحوجنا إلى الداعية المُبشر لا المنفر، المُيَّسر لا المُعسِّر، المعتدل لا المتنطع، المتوسط لا المتكلف.

الداعية الذي يغرس في نفوس الناس والنشء بذار الإيمان والثقة بنصر الله، والذي يؤكد للناس مرارًا أن الدائرة للإسلام وأن الله متم نوره وأن الغلبة لدينه والعاقبة لأوليائه والتمكين لجنوده والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

✍ بركات ومعجزات :

وعندما ينهمك الرجال في العمل الجهادي الخالص، سرعان ما يُعايشون كرامات المجاهدين وبركات الجهاد، تلك البركات التي تجعل من القليل كثير، وتجعل من طعام الواحد ما يكفي لمئات ..

✍ قَالَتْ بْنت بَشِير بن سعد :

دَعَتْنِي أُمّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ ، فَأَعْطَتْنِي حَفْنَةً مِنْ تَمْرٍ فِي ثَوْبِي ، ثُمّ قَالَتْ : أَيْ بُنَيّةُ، اذْهَبِي إلَى أَبِيك وَخَالِك عَبْدِ اللهّ بْنِ رَوَاحَةَ بِغَدَائِهِمَا ، قَالَتْ فَأَخَذْتهَا ، فَانْطَلَقْت بِهَا ، فَمَرَرْتُ بِرَسُولِ اللهّ-ﷺ- وَأَنَا أَلْتَمِسُ أَبِي وَخَالِي ، فَقَالَ : **"تَعَالَيْ يَا بُنَيّةُ مَا هَذَا مَعَك** ؟ قالت : يَا رَسُولَ اللهّ هَذَا تَمْرٌ بَعَثَتْنِي بِهِ أُمّي إلَى أَبِي بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ وَخَالِي عَبْدِ اللهّ بْنِ رَوَاحَةَ يَتَغَدّيَانِهِ. قَالَ:

" **هَاتِيهِ**"، قَالَتْ :فَصَبَبْته فِي كَفّيْ رَسُولِ اللهّ–ﷺ – فَمَا مَلأَتْهُمَا ! ثُمّ أَمَرَ بِثَوْبِ فَبُسِطَ لَهُ، ثُمّ دَحَا بِالتّمْرِ عَلَيْهِ فَتَبَدّدَ فَوْقَ الثّوْبِ، ثُمّ قَالَ لإِنْسَانِ عِنْدَهُ: " **اُصْرُخْ فِي أَهْلِ الْخَنْدَقِ : أَنْ هَلُمّ إلَى الْغَدَاءِ !** ".. فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ عَلَيْهِ فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْهُ! وَجَعَلَ يَزِيدُ!حَتّى صَدَرَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ عَنْهُ وَإِنّهُ لَيَسْقُطُ مِنْ أَطْرَافِ الثّوْبِ!![ابن هشام ٢ / ٢١٨] .

وفي هذا المشهد على ما فيه من المعجزة الحسية المُبِينة، أنْ أنمى اللهُ الطعام في يدي رسول الله –ﷺ – بهذا الشكل العجيب، فطعمَ طعامُ الكف الجيشَ عن بكرة أبيه – وفي ذلك تثبيت للقلوب في هذه الظروف التي قال فيها المناقون : " **ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا** " ... ـ إلى جانب هذا المشهد الإعجازي نرى نرى مشهد البركات التي يصبها الله صبًا للمجاهدين، تلك الكرمات التي تتجلى في مشاهد الجهاد، وهي كرمات لن تعدمها ساحات الوغى ما دام المجاهد أقبل إلى الله بقلب صادق منيب.

وكلاهما – مشاهد المعجزات للنبيين ومشاهد الكرامات للمجاهدين – تتنزل ليربط الله على قلوب المؤمنين، ويمددهم بين الفينة والأخرى بمدد من عنده، حتى يمنحهم أكتاف العدو. فاصْدقْ جاهدك، يصدقكَ الله في التثبيت .

✍ الحصار:

لَمّا فَرَغَ رَسُولُ اللهّ –ﷺ – مِنْ الْخَنْدَقِ ، أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ حَتّى نَزَلَتْ بِمُجْتَمَعِ الأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ ، بَيْنَ الْجُرُفِ وَزُغَابَةَ فِي عَشْرَةِ آلافٍ، منهم بَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ، حَتّى نَزَلُوا بِذَنَبِ نَقْمَى ، إلَى جَانِبِ أُحُدٍ [ابن هشام ٢ / ٢١٩] .

فلما تقدموا، وكانت مفاجئة الخندق، قَالُوا : إنّ هَذِهِ مَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَعْرِفُهَا [ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٤٠]

وَخَرَجَ رَسُولُ اللهّ –ﷺ – وَالْمُسْلِمُونَ حَتّى جَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إلَى سَلْعٍ ، فِي ثَلاثَةِ آلافٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، فَضَرَبَ هُنَالِكَ عَسْكَرَهُ وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ. وقد اسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمّ مَكْتُومٍ .. وَأَمَرَ بِالذّرَارِيّ وَالنّسَاءِ فَجُعِلُوا فِي الآطَامِ [أي الحصون][ابن هشام ٢ / ٢١٩، ٢٢٠].

لقد ظهرت أهمية الحيل الحربية في هذا المشهد، وتبيَّن رجحان فكرة سلمان، وظهر لنا كيف أن عقل رجل واحد قد يُنجّي أُمة من الهلاك كما في مثال حيلة الخندق التي كانت ثمرة تفكير رجل من المسلمين. فكم من عقل سعدت به البشرية دهورًا وكم من عقل تعست به الأرض قرونًا !

ولقد ظهر للمتبصر كيف أن تعب ساعة قد يريحَ دهرًا، وكسل لحظة قد يُتعبَ زمنًا، فهؤلاء الصحاب تعبوا أشد التعب في حفر الخندق فكان في ذلك مفازتهم، ولو تأخروا عن هذا العمل الشاق الهام لكان في ذلك هلاكهم . فلا تكسل أبدًا، وتحيل كل حيلة – شرعية – في نصرة الإسلام .

✍ **حرب الرسائل :**

وأراد المشركون أن يشنوا حربًا نفسية برسالة توبيخية استفزازية.. فأرسل أبو سفيان رسالة مكتوبة إلى رسول الله – ﷺ – جاء فيها :

" باسمك اللهم، فإني أحلف باللات والعزى.. وأساف ونائلة وهبل، لقد سرتُ إليك في جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبداً حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، ولك مني يوم كيوم أحد" .

✍ **فأرسل له رسول الله - ﷺ - جوابه فيه:**

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى صخر بن حرب، فقد أتاني كتابك، وقديماً غرك بالله الغرور. أما ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأسافاً ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك يا سفيه بني غالب "[الحلبي : السيرة الحلبية ٢/ ٦٢٨]

لا يخفى عليك خطر حرب الرسائل بين الجيوش، ولا تَغيب عن ناظريك تلك الحروب الكلامية التي يتلاحاها الخصوم في كل عصر ومَصر، وإن شئت فشاهد القنوات الإخبارية العالمية؛ لترى أثر الكلمة، ووقع اللفظة في الاقتصاد والعلاقات وتحريك دفة الصراعات .

ومن ثم أراك تدرك حكمة النبي –ﷺ– في الرد على رسالة أبي سفيان هذه، على ما عُرف عن الأخير بالغوار البعيد في الدهاء والخِبِّ وجلائل الخُطط، وكيف قام النبي –ﷺ– بتفنيد خطاب أبي سفيان، فقرة فقرة، وجُملة جملة، فدمغه فإذا هو زاهق قد زوى أثره، وصاحبه أسيف حسير، كمن ألقى قنبلة مسيَّلة للدموع في جهةٍ فتلقفها القوم سراعًا قبل انفجارها؛ فرُدتْ عليه فانفجرت فيه .

✍ **بل تراه – ليردعه - ينكأ له جرحه القديم في بدر، قائلاً : " وقديماً غرك بالله الغرور "**. وتراه يلوذ بحول الله ولا يتكبر فيقول : " **أما ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه"** ، وتراه يستبشر لجيشه ويثبط عدوه فيقول : " **ويجعل لنا العاقبة"** .. وينفث الرعب في قلب أبي سفيان ومَن خلفه، فيقول : **"وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأسافاً ونائلة وهبل"** .. ويوبخه قائلاً : " **حتى أذكرك ذلك يا سفيه بني غالب** " .... هكذا يَلْقم القائد هذه المحاولات التي تهدف إلى زعزعة النفوس وخلخلة القلوب، فيردها على العدو وبالاً كالحريق المتسعر .

✍ **الحراسة وتدارك الثغرات ومتابعتها :**

وكان الرسول –ﷺ – يختلف إلى ثلمة في الخندق. تقول عائشة رضي الله عنها: وكان يذهب إلى تلك الثلمة، فإذا أخذه البرد جاء فأدفأته في حضني، فإذا دفيء خرج إلى تلك الثلمة ويقول: ما أخشى أن تؤتي المسلمون إلا منها، فبينما رسول الله –ﷺ– في حضني صار يقول : **"ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثُّلْمَةَ الليلة"**، فسمع صوت السلاح، فقال رسول الله –ﷺ –:" من هذا؟".

✍ **فقال سعد بن أبي وقاص: "سعد، يا رسول الله أتيتك أحرسك !".**

✍ **فقال:" عليك هذه الثلمة فاحرسها"** ..

ونام رسول الله –ﷺ – حتى غط، وقام في قبته يصلي لأنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة [الحلبي ٢/ ٦٢٨]

ثم خرج من قبته، فقال: **"هذه خيل المشركين تطيف بالخندق"** .. ثم نادى :" **يا عباد بن بشر"** ..

✍ **قال:** لبيك

✍ **قال :"هل معك أحد ؟ "**

✍ **قال:** نعم أنا في نفر حول قبتك يا رسول الله .

وكان ألزم الناس لقبة رسول الله -ﷺ يحرسها- فبعثه يطيف بالخندق، وأعلمه بأن خيل المشركين تطيف بهم [الحلبي ٢/ ٦٢٨]..

ولما استأخر المشركون الفتح، تَيَمّمُوامكَانًا ضَيّقًا مِنْ الْخَنْدَقِ ، فَضَرَبُوا خَيْلَهُمْ فَاقْتَحَمَتْ مِنْهُ فَجَالَتْ بِهِمْ فِي السّبْخَةِ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَسَلْعٍ ، وَخَرَجَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – عَلَيْهِ السّلامُ – فِي نَفَرٍ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتّى أَخَذُوا عَلَيْهِمْ الثّغْرَةَ الّتِي أَقْحَمُوا مِنْهَا خَيْلَهُمْ ، فسدوا هذه الثغرة [ابن هشام ٢ / ٢٢٤].

إن في ذلك لعبرة لمن احتاط تمام الاحتياط ثم ترك في جُنته ثُلمة ولو بمقدار قيد أنملة ...

وهو درس يشي باهتمام رسول الله -ﷺ- بثغور الوطن، ويحث المسلمين على الرباط والحراسة في سبيل الله فيقول : **"ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثُّلْمَةَ الليلة"**..

وهو القائل : **" عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهَّ "** [الترمذي : ١٥٦٣، عن ابن عباس، وصححه الألباني].

✍ **والحراسة في سبيل الله كالجهاد سواء بسواء، فقال** - ﷺ - :

" رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهَّ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللهَّ أَوْ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا " [البخاري : ٢٦٧٨ ، عن سهل بن سعد] .

وتراه يقطع نومته إلى الصلاة تارة وإلى جنوده تارة أخرى محذرًا إياهم قرصنة من العدو ، قائلاً : **"هذه خيل المشركين تطيف بالخندق"** . . ثم نادى :**" يا عباد بن بشر"** – ليكلفه بمهمة المتابعة، فكان جواب الجندي لقائده – في رباط وجأش – :

" لبيك " !!!

هكذا لبَّاه . فالجندي المسلم يرى طاعته لقائده عبادة يُثاب عليها، فتره يجيب قائده بأطايب الإجابات مثل : **" لبيك "** ، و**" سمعًا وطاعة"** ..

وهكذا كانت الحراسة في سبيل الله عبادة عظيمة، وسد الثغرات الحربية عبادة عظيمة ، وسرعة استجابة الجندي لقائده عبادة عظيمة .

إن هذا الجيل الفريد عاش العبادة بكل معانيها وفي كل مناحيها ... حتى النخاع.

فلقد تعلموا الحراسة في سبيل الله كما يتعلم أحدهم الصلاة، وتريضوا على سد الثغرات الأمنية كما يتريض الطفل للصيام، ولم يكن يُثْني أحدُهم عِطْفه – في قِحة – عند تلقي التعليمات والتكليفات، بل كانت كلمة الطاعة تنطق بها كل ذرة في أنفسهم . لبيك ، لبيك ....

***

ياشباب ! قد كثرت ثُّلمات الأُمة فمن الحارس ؟ وقد كثرت ثغرات المسلمين فمن الفارس ؟ فامضوا إلى كتيبة التوحيد منيبين، في مجتمع الإيمان والإخاء منضبطين، ولا تُفزعنكم رسائل العدو ونفثه ونفخه، أنتم أقوياء بالله ولو حاصركم أهل الأرض !



تطبيق هذا الحديث الشريف : " **عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** "



بطولات الخندق

هذه هي الحلقة الثالثة في غزوة الأحزاب . فيها وقفةٌ حول حَلَبَةِ البِراز بين علي بين أبي طالب وعمرو بن ود، وبيان حرمة أكل ثمن الموتى، وبيان القتل الخطأ الذي لا دية فيه، والعروج على فضل الصلاة والدعاء والابتهال إلى الله وقت المحن والنكبات، والوقوف على مشهد الخونة من أبناء الوطن الواحد الذين تحالفوا مع العدو الغازي وتخابروا ضد الأحلاف وأذْعروا قومهم...

✍ **مبارزة عليٍ بن أبي طالب عمروَ بن ود :**

" كَانَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدّ قَدْ قَاتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ حَتّى أَثْبَتَتْهُ الْجِرَاحَةُ فَلَمْ يَشْهَدْ يَوْمَ أُحُدٍ ؛ فَلَمّا كَانَ يَوْمُ الْخَنْدَقِ خَرَجَ مُعْلِمًا لِيُرِيَ مَكَانَهُ فَلَمّا وَقَفَ هُوَ وَخَيْلُهُ قَالَ: مَنْ يُبَارِزُ ؟ ..

فَبَرَزَ لَهُ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَمْرُو: إنّك قَدْ كُنْت عَاهَدْت اللّهَ أَلا يَدْعُوك رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إلَى إحْدَى خَلّتَيْنِ إلا أَخَذْتَهَا مِنْهُ ".

✍ **قَالَ لَهُ:** أَجَلْ ..

✍ **قَالَ لَهُ عَلِيّ** : فَإِنّي أَدْعُوك إلَى اللّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ وَإِلَى الإِسْلامِ.

✍ **قَالَ :** لا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ.

✍ **قَالَ :** فَإِنّي أَدْعُوك إلَى النّزَالِ.

✍ **فَقَالَ لَهُ:** لِمَ يَا ابْنَ أَخِي ؟ فَوَاَللّهِ مَا أُحِبّ أَنْ أَقْتُلَك .

✍ **قَالَ لَهُ عَلِيّ :** لَكِنّي وَاَللّهِ أُحِبّ أَنْ أَقْتُلَك !!

فَحَمِى عَمْرٌو عِنْدَ ذَلِكَ فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَقَرَهُ، وَضَرَبَ وَجْهَهُ، ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيّ فَتَنَازَلا وَتَجَاوَلا ، فَقَتَلَهُ عَلِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . وَخَرَجَتْ خَيْلُهُمْ مُنْهَزِمَةً حَتّى اقْتَحَمَتْ مِنْ الْخَنْدَقِ هَارِبَة " [ابن هشام ٢ / ٢٢٤] .

ذاك الإمام السيد الضرغام في إحدى صولاته .. إنه مشهد يُحيي البطولة الحقة في النفوس، بعدما زاغ الناس بمفهوم البطولة إلى ساحات الملاعب والمراقص، فصار "**البطل** " هو اللاعب الذي يركل الكُرة في الشِباك، وصار " **رأس الحربة** " و " **المُهاجم** " الذي سقط مخ رأسه إلى مخ ساقه؛ فالكل ينظر إلى موضع قدمه لا إلى

موضع عقله؛ فذلك هو البطل المزعوم، ومثله بطل الفيلم وبطل التمثيلية وبطل المسرحية... وكثر هؤلاء الأبطال في ميادين الخلاعة والخلابة ممن تُرسم له التصاوير على الملابس، وأكياس البطاطس المقلي، وعُلب الحلوى ..وهؤلاء الأبطال الباطلون إذا تدبرتَ أمرهم تجدهم في أخلاقهم من السَّفلة والحشوة، وطغام الفَسَقة، ورعاع الناس، يحاربون كل فضيلة ويمحقون في نفوس الناس كل قيمة كريمة .

نحن في مسيس الحاجة لإحياء معاني البطولة الإسلامية، والشجاعة الحربية، والأعمال الخيرية في شتى ميادين الحياة،، فهذه هي البطولة التي تَبني ولا تهدم، وليست كتلك البطولة المزيفة التي تحرك الغرائز .

وفي مشهد البطولة الذي نراه هذا، نرى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يقف – وهو الشاب الصغير – أمام سيد فرسان العرب وأجلدهم وأشدهم بأسًا، حيث قام عليٌّ له لـمّا قال مرارًا : " **مَنْ يُبَارِزُ ؟** .." ولم يقم له أحد.

فانبرى له الأسد، ودعاه إلى الإسلام فأبى، فدعاه إلى النزال ، وقال: "**لِمَ يَا ابْنَ أَخِي؟ فَوَاَللّهِ مَا أُحِبّ أَنْ أَقْتُلَك !**"، قال ذلك استصغارًا لعلي، ولصداقة قديمة كانت بين عمرو بن ودّ وأبي طالب.

فقال الهَيْصَرُ المقدام– في شجاعة وحماسة – : " **لَكِنّي وَاَللّهِ أُحِبّ أَنْ أَقْتُلَك !!** " ..

فاغتاظ عمرو بن ود، وظن الناسُ أن الفتى هالك أمام شَيخ فرسان العرب ، ولكن سرعان ما بدى عليٌّ الغضنفرَ الهَصُوُر، وخصمه هو الضيغم الصغير ...

***

وذكر ابن إسحاق أن المشركين بعثوا إلى رسول الله –ﷺ – يشترون جيفة عمرو بعشرة آلاف، فقال رسول الله –ﷺ –:

"**هو لكم ولا نأكل ثمن الموتى**" [السيرة الحلبية ٢/ ٦٢٨]

ولما أقبل علي – رضي الله عنه – بعد قتله لعمرو بن عبد ود على رسول الله – ﷺ – وهو متهلل، قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هلا سلبته درعه، فإنه ليس في العرب درع خير منها؟ قال: إني حين ضربته استقبلني بسوءته فاستحييت يا ابن عمي أن أسلبه [ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢٠٥]

✍ **وثمة عدة دروس نستخلصها من موقف مقتل عمرو بن ود أحد طغاة العرب في الجاهلية:**

- أن المقاتل المسلم هو داعية إلى الحق قبل أي اعتبار حربي، فقد بدأ بالحوار الدعوي مع خصمه الذي تحدى المسلمين بالمبارزة، وعرض عليه المقاتلُ المسلم أن يدخل في الإسلام قائلاً : " **فَإِنِّي أَدْعُوك إِلَى اللهِّ وَإِلَى رَسُولِهِ وَإِلَى الْإِسْلَام**" .. وهو أمر يؤكد على أن القتال في الإسلام ليس عبارة عن قتال من أجل السلب أو النهب إنما القتال في الإسلام يتسم برسالته الدعوية التي تُعلي من قدر العقيدة والأخلاق على أي مصلحة عسكرية ..

- وفي قول المقاتل المسلم لطاغية العرب : " فَإِنِّي أَدْعُوك إِلَى النّزَالِ"، دلالة على ما ينبغي أن يتصف به المسلم من الشجاعة والرغبة والاستعداد في منزالة الطغاة في ساح الحروب وغيرها لتخليص البشرية منهم !

-أن حُسن الأخلاق الحربية واحترام آدمية الأعداء لهي من أبرز صفات المقاتل المسلم، فنرى أن عليًا لما قتل عمرو بن ود وانكشفت عورته، قال علي بن أبي طالب – معللاً سبب عدم أخذ سلب عمرو –"إني حين ضربته استقبلني بسوءته فاستحييت يا ابن عمي أن أسلبه" .. صور رائعة في احترام حقوق الإنسان، وفي سمو أخلاق الجنود الإسلاميين في ميادين القتال .

✍ **لا نأكل ثمن الموتى !**

ولما حاول عدو الله نوفل بن عبد الله اقتحامَ الخندق، ومات مقتولاً فيه، عندما أصر على اقتحامه في فرقة من المشركين – سأل المشركون المسلمين جثته بمال يعطونه المسلمين، فأرسل المشركون إلى النبي –ﷺ -: أن ارسل إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفاً [الحلبية ٢/ ٦٢٨].. فتعفف رسول الله عن هذا المال الخبيث، ونهاهم عن ذلك وكرهه !! وقال: " **ادْفَعُوا إِلَيْهِمْ جِيفَتَهُمْ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الْجِيفَةِ خَبِيثُ الدِّيَةِ**"[أحمد: (٢٢٣٠)]

وفي رواية قال: " ولا نمنعكم أن تدفنوه، ولا أرب لنا في ديته" [الحلبية ٢/ ٦٢٨]. فلم يقبل منهم شيئًا، وخلى بينهم وبينه ..

وفي رواية : عن عن عكرمة أن نوفلاً تردى به فرسه يوم الخندق فقُتل فبعث أبو سفيان إلى النبي -ﷺ- بديته مائة من الإبل فأبى النبي -ﷺ- وقال : **"خذوه فإنه خبيث الدية خبيث الجثة"** [ابن أبي شيبة (٣٦٨٢٤)]

وفي رواية قالﷺ : " **هو لكم ، لا نأكل ثمن الموتى** " [البيهقي : دلائل النبوة (١٣٢٠)]

✍ **قال السرخسي : " وإنما كره هذا لئلا يُنسب إلى المسلمين ما لا يليق بمكارم الأخلاق، فقد كان عليه السلام يقول: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "** [شرح السير الكبير ١/ ٤٨٤].

وبهذا الموقف يكون لرسول الله –ﷺ– السبق في تحريم أكل ثمن الجثث، وهو بذلك يظهر لأعدائه الجانب الأخلاقي في الحروب..

✍ **شأن القتل الخطأ بين المسلمين في أرض المعركة :**

عن جابر – رضي الله عنه – قال :

خَرَجَتْ طَلِيعَتَانِ لِرَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- مِنْ الْخَنْدَقِ لَيْلاً فَالْتَقَتَا تَحْتَ اللَّيْلِ وَلا يَشْعُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ الْعَدُوُّ فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ جِرَاحَاتٌ وَقَتْلَى .ثُمَّ تَنَادَوْا بِشِعَارِ الإسلام فَكَفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ .

✍ **فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ :**

"جِرَاحَاتُكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَهُوَ شَهِيدٌ "[السرخسي : شرح السير الكبير ١ / ١١٤]

ولذلك يقول بعض العلماء : " **إِذَا الْتَقَتْ السَّرِيَّتَانِ لَيْلاً مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَكُل وَاحِدَةٍ تَرَى أَنَّ صَاحِبَتَهَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَاقْتَتَلُوا فَأَجْلَوْا عَنْ قَتْلَى ثُمَّ عَلِمُوا ، فَلا شَيْءَ عَلَيْهِمْ مِنْ دِيَةٍ وَلا كَفَّارَةٍ .لأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ السَّرِيَّتَيْنِ بَاشَرَتْ دَفْعًا مُبَاحًا ، فَقَدْ قَصَدَتْ كُلُّ سَرِيَّةٍ إِلَى الأخْرَى ، وَإِنَّمَا قَتَلَتْهَا الأُخْرَى دَفْعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ .وَذَلِكَ دَفْعٌ مَأْمُورٌ بِهِ شَرْعًا فَلا يَكُونُ مُوجِبًا دِيَةً ولا كَفَّارَةً** "[شرح السير الكبير ١ / ١١٤] .

وهؤلاء المؤمنون الذي كانت بَيْنَهُمْ جِرَاحَاتٌ وَقَتْلَى، قد كتب الله لهم جميعًا الثواب الجزيل، وإنما الأعمال بالنيات، فجراحاتهم التي تمخضت عن سيوف

بعضهم هي في سبيل الله وهم إخوانٌ، وقد رفع الله عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وما استُكْرِهوا عليه، فلا يجدنَّ مسلمٌ في نفسه من أخيه مَوْجدة جراء هذه الجراحات التي هي في سبيل الله كتلك الجراحات التي تسبب فيها العدو، فهذه في سبيل الله وتلك في سبيل الله . والمؤمنون أخوة، ويتسامحون فيما بينهم في الكبير والصغير ما دام عن غير قصد أو عمد .

✍ **وفي الأثر: " للمسلم على أخيه المسلم ثلاثون حقاً لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو [أولها]: يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته ، ويقبل معذرته ...."**

وقوله -ﷺ-: " **وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَهُوَ شَهِيدٌ**" .. فجعل من قُتل بسلاح أخيه عن خطأ وغير عمد شهيدًا بإذن الله؛ كمن قُتل بسيف العدو، سواء بسواء، لا فرق بين هذا وذاك قيد أُنملة .

إنَّ في ذلك لدرسٌ في وحدة الصف، وجمع الشمل، ورأب الصدع، وتقوية بنيان المسلمين.

✍ **أهمية اللجوء إلى الله لفك الحصار:**

✍ **فقد دَعَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عَلَى الأَحْزَابِ فَقَالَ :**

"**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمْ الأَحْزَابَ! اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**" [البخاري :(٣٨٠٦)]

وكان يدعوا قائلاً: "**اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**"[أحمد (١٠٥٧٣)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم ٢٠١٨]

وكان يقول: "**اللهم ادفع عنا شرهم، وانصرنا عليهم، واغلبهم لا يغلبهم غيرك**" [الحلبية ٢/ ٦٢٨] .

لقد تعودنا من رسول الله –ﷺ– مشهد التضرع والخضوع والتذلل إلى الله، في مثل هذه المواقف، إنه – وهو الرسول المُؤيّد – يرفع يديه إلى السماء، يمرِّغُ وجهه لجبار السماوات ليّمكنه من رقاب جبابرة الأرض، يتذلل لمالك الملكوت ليُذل له ملوك الدنيا..

إنَّه من يتق ويصبر ولله يخضع، ويضرع، يرفع عنـه الـبلاء، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

إن هذا هو شأن القادة الإسلاميين مع الله، في العسر واليسر، كـانوا قـادة وقـدوة، وسادة وأسوة، ليس من شيمتهم العربدة واللهو والغفلة، إنما من شيمتهم قيام الليـل وصيام النهار، ودعاء المضطر .

✍ **أهمية الصلاة وقت الحرب :**

فعَنْ النَّبِيِّ -ﷺ -أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ:" **مَلأَ اللهُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُـورَهُمْ نَـارًا كَـمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلاة الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ**" [البخاري : (٣٨٠٢)].

وقد جعل عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَـتْ الـشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ - : "**وَاللهَّ مَا صَلَّيْتُهَا !!**" .. قال جَابِرِ بْنِ عَبْـدِ اللهَّ: فَنَزَلْنَـا مَـعَ النَّبِيِّ -ﷺ - بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ لِلـصَّلاة، وَتَوَضَّـأْنَا لَهَـا، فَـصَلَّى الْعَـصْرَ بَعْـدَمَا غَرَبَـتْ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ [البخاري : الأحزاب (٣٨٠٣)] .

فلا يخفى عليك في هذا الدرس أهميـة الـصلاة في جميـع أوقـات المـسلم وأنفـسها وأشدها، بل تزداد أهمية الصلاة أكثر وأكثر في ساعات القتال، فالمسلم أحوج ما يكون فيها إلى الله، وهي رَوح له وريحان في وقت تتطاير فيه الرقاب، ويفر فيه الـشجعان إلا من ثبته الله، وأحرى بالصلاة وسيلة لذلك، فمن أراد الثبات فعليه بعماد الدين .

انظر كيف حزن الصحابة حزنًا شديدًا على صلاة العصر التي فاتتهم في يوم من أيام الخندق حيث الحصار والبرد، والنَّفح واللَّفْح، فلم تفوتهم صلاةٌ واحدة أيامَ الأحزاب سوى هذه الصلاة، فما بال أقوام ضيَّعوا ركن الإسلام في المنشط فضلاً عن المكره، وفي اليسر فضلاً عن العسر .. إن هؤلاء قد حادوا عن سبيل المؤمنين . فأولى لهم...!

✍ **قريظة تخون الدولة الإسلامية**

وفي أثناء الحصار المضروب على المدينة المنورة، انشق فصيلٌ من فصائل المدينة عـلى القيادة والشعب والوطن .. وكان الأصل – حسب بنود الوثيقة المكتوبة بـين فـصائل

المدينة – أن جميع أبناء الوطن على شتى نِحَلهم ومللهم يتحدون لصد أي عدوان خارجي، ولكنَّ قريظة خانت؛ فخيبها الله !

فقد خرج عدو الله حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ النّضْرِيّ ، حَتّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ الْقُرَظِيّ، زعيم بني قريظة، وصَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهِمْ مع الدولة الإسلامية، فقال حُيَي لكعب :

" ...وَيْحَك يَا كَعْبُ جِئْتُك بِعِزّ الدّهْرِ، وَبِبَحْرِ طَامّ [1]، جِئْتُك بِقُرَيْشٍ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا، حَتّى أَنْزَلْتهمْ بِمُجْتَمَعِ الأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ، وَبِغَطَفَانَ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا حَتّى أَنْزَلَتْهُمْ بِذَنَبِ نَقْمَى إلَى جَانِبِ أُحُدٍ ، قَدْ عَاهَدُونِي، وَعَاقَدُونِي عَلَى أَنْ لا يَبْرَحُوا حَتّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمّدًا وَمَنْ مَعَهُ " ..

فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ : جِئْتنِي وَاَللّهِ بِذُلّ الدّهْرِ وَبِجَهَامٍ قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ فَهُوَ يَرْعَدُ وَيَبْرُقُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ ! وَيْحَك يَا حُيَيّ ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمّدٍ إلّا صِدْقًا وَوَفَاءً .

فَلَمْ يَزَلْ حُيَيّ بِكَعْبٍ يَفْتِلُهُ فِي الذّرْوَةِ وَالْغَارِبِ [2] حَتّى سَمَحَ لَهُ عَلَى أَنْ أَعْطَاهُ عَهْدًا وَمِيثَاقًا : لَئِنْ رَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ ، وَلَمْ يُصِيبُوا مُحَمّدًا أَنْ أَدْخُلَ مَعَك فِي حِصْنِك حَتّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَك . فَنَقَضَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَهْدَهُ وَبَرِئَ مِمّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللّهِ – ﷺ – [ابن هشام ٢ / ٢٢٠]

هنا نرى مشهد الذين أُشربوا حُب الخيانة – كما أُشربوا عبادة العِجل الذهبي – وكيف أثبتوا للتاريخ أنهم لا عهد لهم ولا ذِمَّة ، وأن الله صدق فيهم قوله : ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:١٠٠]، ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٥٦]، فالخيانة تجري في عروق اليهود جريان الماء في النهر، فلا بقاء لهم – بزعمهم – إلا بالخيانة؛ فليس عليهم – بزعمهم – في الأميين سبيل!

---

(١) الطام: البحر العظيم .

(٢) الذروة والغارب : أعلى الشئ وأصله.

وأنتَ – حفظك الله – ترى كيف يفتخرُ هذا الرِعْدِيدةُ الخائن " **حُيي** " بخيانته وكيف جمع جيوش الوثنية لحرب الدولة الإسلامية التي يعيش اليهود في وافر ظلالها آمنين لهم ذمة الله ورسوله . ثم تأمل شهادة الأعداء، والحق ما شهد به الأعداء، إذ قال كعب : **"وَيْحَك يَا حُيَيّ ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمّدٍ إلّا صِدْقًا وَوَفَاءً" !!!** ثم لازال الأول يزين للثاني الغدر ونقض العهد، حتى اتفق لهم الرأي على ذلك، فهم لا يتفقون إلا على خراب الأرض وفساد الشجر والثمر، فخاب وخسر من وثّقهم أو وثَقَ لهم.

✍ الدبلوماسية الإسلامية وقت الأزمات :

ولمّا انْتَهَى إلَى رَسُولِ اللّهِ –ﷺ –خبر نقض العهد من قريظة، بَعَثَ رَسُولُ اللّهِ –ﷺ – وفدًا دبلوماسيًا إلى ديار بني قريظة لتحري الخبر، ولتجديد العهد، ولتحذيرهم من مغبة نقض العقد، أوالتعاون مع العدو المحتل، وكان على رأس هذا الوفد المبارك القيادات الإسلامية الآتية :

١ – سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، سَيّدُ الأَوْسِ .

٢ –سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، سَيّدُ الْخَزْرَجِ

٣ – عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، الشاعر

٤ – خَوّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ ،من بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ .

فَقَالَ لهم نبي الحكمة –ﷺ –: **" انْطَلِقُوا حَتّى تَنْظُرُوا ، أَحَقّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ أَمْ لا؟ فَإِنْ كَانَ حَقّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلا تَفُتّوا فِي أَعْضَادِ النّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنّاسِ "** [ابن هشام ٢ / ٢٢١] .

فَخَرَجُوا حَتّى أَتَوْهُمْ؛ فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، ورفع الوفد الإسلامي إلى القائد العام–ﷺ – التقرير التالي :

١ – نَالُوا مِنْ رَسُولِ اللّهِ –ﷺ –، فسبوه علنًا أمام الوفد.

٢ –نقضوا العهد، بل أنكروه، وَقَالُوا : مَنْ رَسُولُ اللّهِ ؟ لا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمّدٍ ولا عَقْدَ.

٣ – شَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَشَاتَمُوهُ– وَكَانَ رَجُلاً فِيهِ حِدّةٌ – فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ : دَعْ عَنْك مُشَاتَمَتَهُمْ فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى مِنْ الْمُشَاتَمَةِ .

ثُمّ أَقْبَلَ سَعْدٌ وَسَعْدٌ وَمَنْ مَعَهُمَا ، إلَى رَسُولِ اللهّ -ﷺ- فَسَلّمُوا عَلَيْهِ ثُمّ قَالُوا : **"عَضَلٌ وَالْقَارّةُ"** ؛ أَيْ كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالْقَارّةِ بِأَصْحَابِ الرّجِيعِ ، خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهّ -ﷺ- :

"اللهُّ أَكْبَرُ ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ !!" [انظر : ابن هشام ٢ / ٢٢١]

وهكذا تأكدت الخيانة، فلم يُجد مع اليهود رفق ولا لطف، حتى بعدما أرسل النبيُ ـﷺـ إليهم وفده الكريم ليردهم إلى الرشد، ويجدد معهم العهد، فنحن أهل وطن واحد، والشرائع والأعراف تأمرنا بالتضامن لصد هجوم المعتدين، ولكن أبى غيهم أن يستجيبوا لنداء العقل والأخلاق، بل ران على قلوبهم زَبدُ الخيانة .

وكانت نصيحة القائد الحكيم ألا يفتَ الوفدُ في أعضاد المسلمين؛ فلا يجهروا بنبأ الخيانة اليهودية، وأن يلحنوا له لحنًا و يُعَرِّضوا بكلمة يعرف منها رسول الله -ﷺ- نقض اليهود للعهد .

إن القائد الإسلامي يخشى الفتنةَ على شعبه، ويخشى عليهم أن يَدُبَ الخوفُ والفزعُ في قلوبهم، إنه يريد شعبه دائمًا راسخ الإيمان، ساكن الواجدان، فكم من شعب أكله الفزع ، وكم من جيش هزمه الرعب قبل اللقاء. إن الهزيمة النفسية قد تكون أشد وطأة من الهزيمة العسكرية أو ممهدة لها وميسرة لها.

ولكن خبر الخيانة اليهودية انتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم، ليمحص الله المؤمنين ويكشف ضغائن المنافقين، فظهر على إثر ذلك المثبطون والمتشائمون والجبناء الذين يزيدون في تسعير الفتنة وتأجيج الأزمة، والمائِقون والمرجفون الذين يصيدون في الماء العكر، وهؤلاء جميعًا قال الله فيهم :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾

[الأحزاب:١٢].

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب:١٨، ١٩].

✍ **قال الحارث المخزومي :**

إن الوشاة قليلٌ إن أطعتهم ... لا يرقبون بنا إلاً ولا ذمما

إن على المسلم في مثل هذه النوازل أن يدفع هـذه الأراجيـف ولا يـدعها تفـت في النفوس، وعليه أن ينف الوشاية والشائعات وأن يذب عن أعراض المجاهدين خاصة قيادة المسلمين وإمـامهم، ولا يَلـجّ في شيء مُلتَـبس حتـى يتبـين لـه الـصواب فيـه، وتَسْتَوضحَ له الحقيقة.. وعليه أن يسهم في كل ما هو من شأنه تثبيت الناس وتشجيع المقاتلين، واستنفار الهمم، والتشمير للمجد، والذود عن حياض سيد المرسلين :

فمِن يَحْمي حِمَى الإسْلام أمْ مَن ... يَذُبّ عن المَكارم أو يذُود ؟

***

دارات هذه الصفحة التي بين يديك – أخي – بـين شـجاعة عـلي بـن أبي طالـب، ونكسة المُعوقين الفاشـلين . وبـين أخلاقيـات الحـرب عنـد المـسلمين – حتـى أنهـم ليتعففون عن أكل ثمن الموتى – وبين خيانات اليهود الثابتة المتكررة عبر حقب الزمن وكان حال القيادة الإسلامية – على مدار هذه الصفحة التي تقرأها – هو حال الحكيم المتضرع العابد. فقد رأيتَ النبـي ـ ﷺ ـ يُـصَرّفُ الأمـور في المعركـة الداخليـة، وفي المُحاصرة الخارجية، بحكمة فائقة وعبقرية فذة، وهـو في أثنـاء ذلـك النبـي الخاشـع المبتهل لربه، مع الإِهْراع إلى الصلاة بين ساعة وأخرى .

توصية عملية

مدارسة حول خيانات اليهود عبر العصور



اشتداد الحصار ثم انصراف الأحزاب

لقد كان وقع الخيانة اليهودية شديد على المسلمين، إذ بخاينة قريظة صار المسلمون بين عدوين، عدو وَثَنِي من خارج المدينة يتحين الفرصة لاقتحام الخندق، وعدو داخلي خائن، نَقَضَ العهد، يتربص بالمسلمين الدوائر .. وَعَظُمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَلاءُ، وَاشْتَدّت المحنة، وظنت العرب أن الإسلام قد حان قطافه، وظَنّ الْمسلمون كُلّ ظَنّ، وَنَجَمَ النّفَاقُ، واعتاص الإيمان، وكثر الشقاق، واشتد الخوف والفزع .

✍ **وقال المنافقون** : **"كَانَ مُحَمّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَأَحَدُنَا الْيَوْمَ لا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إلَى الْغَائِطِ "** [ابن هشام – ٢ / ٢٢٢] .

✍ **وقالَ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيّ المنافق : " يَا رَسُولَ اللّهِ إنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ مِنْ الْعَدُوّ [وَذَلِكَ عَنْ مَلأ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ] فَأْذَنْ لَنَا أَنْ نَخْرُجَ فَنَرْجِعَ إلَى دَارِنَا ، فَإِنّهَا خَارِجٌ مِنْ الْمَدِينَةِ "** .. وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارًا [ابن هشام – ٢ / ٢٢٢].

✍ **ويتكفل القرآن الكريم بتصوير هذه الحال السيئة، بكل دقة، فيقول الله تعالى :**

﴿ **إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا** ﴾ [الأحزاب:١٠،١١]

وفي وبئة هذه الحمئة، وفي شدة هذه المعمعة؛ يُقعقعُ صوتُ النبي –ﷺ – كالهيثم الهصور : **"اللهُ أَكْبَرُ ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ "**!!! [ابن هشام ٢ / ٢٢١].

الله أكبر من اليهود وأسيادهم الوثنيين عبّاد الحجارة ! الله أكبر كل من حِلفٍ تحالف على الخير، والله أكبر من كل حزب تَحَزَبَ على الإسلام . الله أكبر!

وأبشروا يا معشر المسلمين، فقد كتب الله الغلبة لرسوله وللمؤمنين، فلَيَبْلُغنَّ هذا الدينُ ما بلغ الليل والنار، وإن مُلك هذه الأمة سيعود ويقود !

وهكذا يهتف المسلمُ الصادق في الناس في أيامنا هذه التي ساد فيها العدو وغلب : **"الله أكبر "** ، فالمسلم لا يخشى إلا الله ولا يخشى في الله لومة لائم ... **" أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ "** .. فالمؤمن بعثه الله مبشرًا بالنصر والتمكين، لا منفرًا ولا معسرًا ؟

✍ **خلصاء الأنبياء في مثل هذا الميدان :**

وشرَعَ الرسول -ﷺ- يتابع أخبار بني قريظة من حين إلى آخر بعدما نقضوا العهد، فلا يأمن أن ينقضّوا على ضعفاء المسلمين أو أن يُعملوا النهب والسلب في المدينة، وقد عهدهم أهل غدر وخيانة . فأرسلَ الزبيرَ يخبره بخبرهم .

وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يَوْمَ الأَحْزَابِ : "**مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟** "، يقصد قريظة فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا.. ثُمَّ قَالَ : "**مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟** ".. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا.. ثُمَّ قَالَ : " **مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟** " .. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا ..

✍ **فقَالَ النبي** -ﷺ- :" **إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**" [البخاري : (٣٨٠٤)].

والحواريون هم خلصاء الأنبياء وأنصارهم، قيل لناصر نبيه حَوارِيٌّ، إذا بالغ في نُصْرَتِه تشبيهاً بأنصار عيسى عليه السلام .

✍ **وعن عبد الله بن الزبير، قال :**

كُنْتُ يَوْمَ الأَحْزَابِ جُعِلْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ فِي النِّسَاءِ، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا أَنَا بِالزُّبَيْرِ عَلَى فَرَسِهِ يَخْتَلِفُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثلاثًا، فَلَمَّا رَجَعْتُ قُلْتُ: يَا أَبَتِ رَأَيْتُكَ تَخْتَلِفُ.. قَالَ : أَوَهَلْ رَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ . قَالَ :كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ : "**مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ ؟** "، فَانْطَلَقْتُ، فَلَمَّا رَجَعْتُ، جَمَعَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- أَبَوَيْهِ فَقَالَ: "**فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي** " [البخاري : (٣٤٤٢)] !

في مثل هذه الميادين يظهر الحواريون وخلصاء النبي -ﷺ-، ليس في ميدان الكلام والجدل، إنما في ميدان الجهاد والعمل . ومن أجل هذه الخدمة الجسيمة التي أداها الزبير وقيامه على هذا الثغر العظيم ومتابعة هذه الثُّلمة الخطيرة؛ نال الزبير هذا الوسام العظيم : " **إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**"، "**فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي** " !!!

فأحرى بكل مسلم أن يدرك ما أقامه الله عليه من ثغور المسلمين. ولا يستقل دوره، ولا يَقُلْ: إني فردٌ، بل ليقلْ : إني على ثغر.

وهكذا كان الأبناء يرون مكان الآباء .. الإبن " **عبد الله** " في الحصن يلحظ أباه " **الزبير** " يتردد بين الشمال حيث الخندق والجنوب حيث قريظة، يتابع خبر القوم، ويترصد للمسلمين من أخبار اليهود، هكذا كان الآباء يملئون إعجاب الأبناء، وهكذا نشأ الأبناء في بيئة الجهاد والعمل لهذا الدين.

هذه هي أعمال الآباء واهتماماتهم في صدر الإسلام، فما هي اهتمامات الآباء في زماننا، وكيف ينظر الأبناء إلى آبائهم ؟ لا جرم أن فساد الشباب في زماننا يرجع – في أغلب الأحيان – إلى فساد الآباء أو إلى تخلي الآباء عن دورهم في التربية الحسنة، أو نشوء الأبناء في بيئة فاسدة، والأرض الفاسدة لا تنبت إلا فاسدًا .

✍ **وَاللّهِ لا نُعْطِيهِمْ إلا السّيْفَ !**

ولمّا اشْتَدّ عَلَى المسلمين الحصار ؛ بَعَثَ رَسُولُ اللهِّ – ﷺ – إلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ ، وَإِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ، وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ ، فتفاوض معهما على عودة غطفان إلى ديارها، وترك حصار المدينة، والتخذيل بين جيوش التحالف، مقابل أن يمنحه رسول الله ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ، فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا الصّلْحُ، وأُحضرت الصحيفة والدواة؛ ليكتب عثمان بن عفان – رضي الله عنه – الصلح، وَلَمْ تَقَعْ الشّهَادَةُ وَلا عَزِيمَةُ الصّلْحِ، إلا الْمُرَاوَضَةُ فِي ذَلِكَ . فَلَمّا أَرَادَ رَسُولُ اللهِّ – ﷺ – أَنْ يَفْعَلَ بَعَثَ إلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمَا ، وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ.. [انظر : ابن هشام ٢ / ٢٢٣، والحلبي ٢/ ٦٢٨] .

✍ **فقالا له:** يَا رَسُولَ اللهِّ .. أَمْرًا تحِبّهُ فَنَصْنَعُهُ ؟ أَمْ شَيْئًا أَمَرَك اللهُّ بِهِ لا بُدّ لَنَا مِنْ الْعَمَلِ بِهِ؟ أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا ؟

✍ **قَالَ : "بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ ، وَاَللهِّ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إلا لأَنّنِي رَأَيْت الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلّ جَانِبٍ، فَأَرَدْت أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إلَى أَمْرٍ مَا"..**

✍ **فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ** : يَا رَسُولَ اللهِّ ، قَدْ كُنّا نَحْنُ وَهَؤُلاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشّرْكِ بِاَللهِّ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، لا نَعْبُدُ اللهَّ وَلا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إلا قِرًى [**أي ضيافة**]، أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللهُّ بِالإِسْلام وَهَدَانَا لَهُ وَأَعَزّنَا بِك وَبِهِ، نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا ؟ ! وَاَللهِّ، مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاَللهِّ لا نُعْطِيهِمْ إلا السّيْفَ، حَتّى يحَكُمَ اللهُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ !!

✍ **فقَالَ رَسُولُ اللّهِ – ﷺ –:" فَأَنْتَ وَذَاكَ "** .

فَتَنَاوَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الوثيقة فَمَحَا مَا فِيهَا مِنْ الْكِتَابِ، ثُمّ قَالَ: لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا [ابن هشام ٢ / ٢٢٣].

وفي هذا المشهد العجيب الذي نزل فيه رسـول الله -ﷺ- عـلى رأي جنـده رغـم تباين رأيه مع رأيهم؛ نرى أنموذج القائد الحكيم الذي عرف دوافـع كـل جـيش مـن جيوش الأحزاب، فمنهم من جاء طلبًا للثأر، ومنهم من يحارب الإسلام عن عقيـدة، ومنهم من يُحارب ليأكل ويسلب، وهؤلاء كغطفان، فأراد رسول الله -ﷺ- أن يدفع شر هؤلاء بلعاعة من الدنيا، وأن يستخدمهم كأداة للتخذيل وبث الفرقة بين جيـوش الأحزاب، فهو لا زال يفكر في وسيلة ناجعة للتخذيل والتفريق بين العدو، ولكن الله اختار وسيلة أخرى ليست جيشًا بل فردًا هو نعيم بن مسعود، وسنعرفه في فقرة تالية.

وفي هذا المشهد نرى الأريحية والسهولة في اتخـاذ القـرار بـين القائـد وأهـل الحـل والعقد، إذ رأيتَ أن القائد اتخذ قرارًا صحيحًا لدفع الأحزاب، بينـما رأى أهـل الحـل والعقد رأيًا هو الأنسب لطبيعة الأنصار القتالية، فنزل القائد على رأيهم دون تعسف أو استئثار بالرأي، وهو من هو، هو النبي المصطفى، الذي لا ينطق عن الهوى؛ ليقـرر أن الشورى فوق الجميع، مفازةً ونجاةً للكبير والصغير والشيخ والرضيع.

وانظر إلى إباء هؤلاء الأنصار رضي الله عنهم، ورفضهم الضيم والـذل والـدون.. هؤلاء البواسل يضربون المثل للأمة ألا ترضى بالمذلة، ويضربون المثل القارص لهؤلاء الذين رضوا أن يكونوا في ركاب العدو، وقد باعوا أوطانهم وأعراضهم بثمن بخس، كهؤلاء الذين يُفاوضون على مقدسات المـسلمين مـن أجـل حفنـة مـن الـدولارات يأكلونها من العدو ويخرجون للأمة برداء الحكماء الحصفاء، وهم والله الجهلاء السخفاء الخلعاء وهيهات! لا يدفع الضَّيمَ الذَّليلُ، ولا يُدْرَكُ المجدَ الخائنُ العميلُ !

حركة (نُعَيْمٍ) فِي تفريق جيش التحالف:

وفي ظل هذه الظروف الشديدة القاسية، يأتي النصر من حيث لا يحتسب المتقون.

فقد أسلم نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودِ أحد زعماء غَطَفَانَ !!

كانوا بالأمس يفاوضهم رسول الله -ﷺ- على الرجوع إلى ديارهم فيرفـضون إلا الرجوع بنصف ثمار المدنية .. والآن ساقهم الله إلى الإسلام من غير عناء ولا تفـاوض ولا كلفة ! إنها قدرة الله !

✍ **فأتى نعيم رسول الله- ﷺ - فقال:**

يَا رَسُولَ اللهِّ، إِنّي قَدْ أَسْلَمْت ، وَإِنّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلامِي ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتّ!

✍ **فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ – ﷺ – :**

"إنّمَا أَنْت فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، فَخَذّلْ عَنّا إنْ اسْتَطَعْت ، فَإِنّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ" .

فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَكَانَ لَهُمْ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيّةِ فَقَالَ: يَا بَنِي قُرَيْظَةَ، قَدْ عَرَفْتُمْ وُدّي إيّاكُمْ، وَخَاصّةً مَا بَيْنِي وبَيْنَكُمْ .

✍ **قَالُوا :** صَدَقْت ، لَسْت عِنْدَنَا بِمُتّهَم .

✍ **فَقَالَ لَهُم:** إنّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَحَوّلُوا مِنْهُ إلَى غَيْرِهِ ، وَإِنّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ، فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً أَصَابُوهَا ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلادِهِمْ وَخَلّوْا بَيْنَكُمْ وبين محمد..فلَا تقُاتلِوُا معَ القَوْمْ حتَىّ تأْخُذُوا منِهْمُ رهَناً منِ أَشْرافهِمِ يكَوُنوُنَ بأِيَدْيِكمُ ثِقَةً لكَمُْ، عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمّدًا حَتّى تُنَاجِزُوهُ.

✍ **فَقَالُوا لَهُ:** لَقَدْ أَشَرْت بِالرّأْيِ . . [ابن هشام ٢ / ٢٢٨]

ثُمّ خَرَجَ حَتّى أَتَى قُرَيْشًا ، فَقَالَ لأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ : قَدْ عرَفَتْمُْ ودُيّ لكَمُْ وَفِرَاقِي مُحَمّدًا ، وَإِنّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْت علَيَّ حَقّا أَنْ أُبْلِغَكمُوُهُ نُصْحًا لكَمُْ فَاكْتُمُوا عَنّي ..

✍ **فَقَالُوا :** نَفْعَلُ .

✍ **قَالَ:** تَعْلَمُوا أَنّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمّدٍ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إلَيْهِ إنّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا ، ، فَهَلْ يُرْضِيك أَنْ نَأْخُذَ لَك مِنْ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ وغَطَفَانَ رجالاً منِ أَشْرافهِمِ فنَعُطْيِكهَمُ فتَضَربِ أَعْنَاقَهمُْ ثمُّ نكَوُنُ معَكَ علَىَ منَْ بقَيَِ مِنْهُمْ حَتّى نَسْتَأْصِلَهُمْ ؟ فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ أَنْ نَعَمْ فإَنِ بعَثَتَْ إليكمُْ يهَوُدُ يلَتْمَسِوُنَ منِكْمُْ رَهْنًا منِْ رِجَالكِمُْ فلا تَدْفَعُوا إلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلاً وَاحِدًا. [ابن هشام ٢ / ٢٢٨]

ثُمّ خَرَجَ حَتّى أَتَى غَطَفَانَ ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ ، إنّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي ، وَأَحَبّ النّاسِ إلَيّ ولا أَرَاكُمْ تَتّهِمُونِي ..

✍ **قالوا :** صَدَقْت ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتّهَم .

✍ **قالَ :** فَاكْتُمُوا عَنّي ؛ قَالُوا : نَفْعَلُ فَمَا أَمْرُكَ ؟

ثُمّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ وَحَذّرَهُمْ مَا حَذّرَهُمْ [ابن هشام ٢ / ٢٢٨]

✍ **وصدق رسول الله** –ﷺ– :"**الحرب خدعة**"[البخاري : (٢٨٠٥)]، أي قد تنقلب دفة القتال بحيلة أو خدعة، والحيلة تُجزىء ما لا تُجزىء القوة، وهو يشير أيضًا إلى جواز الكذب على العدو وإيقاعه في الفخ والاحتيال عليه بحيلة .

وعلى أثر حيلة "**نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ**"؛ انخذلت جيوش التحالف، ودبت الفرقة بينهم، وهو الخير للمسلمين . فإذا انتفت الثقة من جماعة انتفت على أثر ذلك قوتهم وذهبت ريحهم.

وبعث الله الريح والملائكة على جيوش التحالف فزاد ضعفهم، واشتدت رغبتهم في الرحيل، وعزموا على ترك المدينة، وفي ذلك يقول الله تعالى – ممتنًا على عباده – :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[الأحزاب:٩].

وهنا نرى العناية الإلهية، ويد الله تحرك رحى الحروب، ويُرسل سبحانه الريح والشواظ على من يشاء فلا ينتصر أحد إلا بإذنه، ويُؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .. إن هذه المعية الربانية لا تُستنزل إلا بالتقوى والتضرع إلى الله، كما في بدر، "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم" . وفي ذلك أيضًا درسٌ للأمة كلها؛ إذا عرفت ربها في الرخاء عرفها الله في الشدة .

ثم أنتَ ترى في هذا المشهد أهميةَ " **دور الفرد المسلم** " في خدمة الإسلام، فهذا نُعيم وهو رجل واحد جنَّب الأمة الإسلامية شرًا مستطيرًا .. إن لنعيم – رضي الله عنه – فضلاً ويدًا على كل مسلم منذ يوم الأحزاب وحتى قيام الساعة ! هذه هي حركة نعيم فما هي حركتك أنت ؟!

✍ **انصراف الأحزاب :**

ولَمّا انْتَهَى إلَى رَسُولِ اللهّ –ﷺ– مَا اخْتَلَفَ مِنْ أَمْرِهِمْ ،وَمَا فَرّقَ اللهُ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ، دَعَا حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ، فَبَعَثَهُ إلَيْهِمْ لِيَنْظُرَ مَا فَعَلَ الْقَوْمُ لَيْلاً .

✍ **قَالَ حُذَيْفَةُ** : وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- بِالْخَنْدَقِ وَصَلَّى رَسُولُ اللهِ -ﷺ- هُوِيًّا مِنْ اللَّيْلِ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا، فَقَالَ : "مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ، ثُمَّ يَرْجِعُ، أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ ؟" .. فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ ..!

فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ ، دَعَانِي رَسُولُ اللهِ -ﷺ- فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنْ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي ؛ فَقَالَ :

"يَا حُذَيْفَةُ اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ ، فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ، وَلا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا ."

✍ **قَالَ** : فَذَهَبْت فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ؛ لا تُقِرُّ لَهُمْ قِدْرًا وَلا نَارًا وَلا بِنَاءً . فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ : لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْت بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ إِلَى جَنْبِي ، فَقُلْت : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : فُلانُ بْنُ فُلانٍ!

✍ **ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ** :يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنَّكُمْ وَاَللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ ! لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفُّ[1]، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمْ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ شِدَّةِ الرِّيح مَا تَرَوْنَ، مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ بِهِ عَلَى ثَلَاثٍ، فَوَاَللهِ مَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إلا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- إِلَيَّ " **أَنْ لا تُحْدِثَ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي** " لَقَتَلْته بِسَهْمٍ .

ورَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ - ﷺ - وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ[2] لِبَعْضِ نِسَائِهِ مَرَاجِلُ [**والمراجل هو الثياب اليمني**] . فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رِجْلَيْهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنِّي لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ؛ أَخْبَرْته الْخَبَرَ . وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ ، فَانْشَمَرُوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلادِهِمْ [ابن هشام ٢ / ٢٣٢].

ويُعبر هذا المشهد عن مدى المعاناة التي كان الصحابه يعانونها، إذ لما دعاهم رسول الله ـﷺ ـ إلى ترصد الأحزاب، على أن يكون الراصد رفيق رسول الله ـﷺ ـ في الجنة - فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الصحابة ، **"مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ"** ..!

---

(١) الكراع: الخيل، والخف : الإبل

(٢) المرط: - بكسر الميم - كساء من صوف

لقد كان الواحد منهم يُكلَفُ بحفر ثلاثة أمتار مكعبة يوميًا من الخندق، أيام الحفر، ثم هو يكابد شدة البرد، وشدة الجوع، وشدة الحرب، وشدة الحصار .. لقد بلغ التعب منهم مبلغًا عظيمًا. وفي هذا الجو نرى رسول الله -ﷺ- قائمًا يصلى قانتًا يتضرع لربه، فلما لم يقم لأمره هذا رجلٌ، وجّهَ التكليف صوب حذيفة، قال حذيفة:" **فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدّ مِنْ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي** " .. وكذلك الجندي المسلم لا ينفك عن إجابة القائد إذا كلفه، ولا بد له من القيام للأمر إذا دعاه القائد، فطاعته واجبة، ومن أطاع الأمير المسلم في معروف فقد أطاع الله . وكان نص التكليف الذي حفظه حذيفة عن قائده عن ظهر قلب :"يَا حُذَيْفَةُ اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ ، فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ، وَلا تُحْدِثَنّ شَيْئًا حَتّى تَأْتِيَنَا ." فاستجاب الجندي لأمر قائده استجابة حَرفية، فذهب، ودخل في جيش المشركين، ونظر ما يصنعون، وكان في استطاعته أن يقتل أبا سفيان؛ ولكنه وعى التكليف جيدًا ولا زال صوت رسول الله يتردد في أذنيه :"**لا تُحْدِثَنّ شَيْئًا** " .. قال حذيفة : " **وَلَوْلا عَهْدُ رَسُولِ اللهِّ** -ﷺ- **إلَيّ أَنْ لا تُحْدِثَ شَيْئًا حَتّى تَأْتِيَنِي لَقَتَلْته بِسَهْمٍ**" .

وانظر - أخي - لقد سمَّى التكليف عهدًا، فقال : " **وَلَوْلا عَهْدُ رسول الله** -ﷺ- **إلَيّ**"، إنه يُعلي من شأن تعليمات الأمير، فليست تكليفات الأمام كتكليفات بعضنا لبعض في النصح والبر ونحو ذلك، إنها عهدًا وعقدًا وميثاقًا، فعلاقة القائد بجنده والأمير بجيشه، علاقة الرأس من الجسد، وما بينهما من وشيجة الإيمان أقوى من العروة الوثقى.

ولقد كان اختيار رسول الله -ﷺ- اختيارًا موفقًا .. إن القائد يعرف جنوده وإمكاناتهم ومستويات نبوغهم وذكاءهم .. فتأمل مثلاً، لما قَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ : لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْت بِيَدِ الرّجُلِ الّذِي كَانَ إلَى جَنْبِي ، فَقُلْت : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : فُلانُ بْنُ فُلانٍ!

لقد تصرف حذيفة بحكمة في السرعة، وسرعة في الحكمة، وبادر هو بالسؤال عن جليسه، فانشغل الجليس بتعريف نفسه؛ فلم يفتضح أمر حذيفة؛ لقد كان المسلم دومًا أريبًا لبيبًا .

✍ **شُكر الله على النصر:**

فلما فَصَلَ حذيفة إِلَى رَسُولِ اللهِ -ﷺ- إذا هو قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِـرْطٍ لِـبَعْضِ نِـسَائِهِ، فلما رآه النبي، أدخله إِلَى رِجْلَيْهِ، وَهو الرحمة المهداة، وَطَرَحَ عَلَيه طَرَفَ المِرْطِ، ليُدفء حذيفة، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، يخفض لهم الجناح، فـلا يـرون منـه إلى مكـارم الأخلاق ، ثُمّ رَكَعَ وَسَجَدَ -ﷺ- وحذيفة متلفع بطرف المرط، بين رجلي النبي – من خلفه –، فلما أتم الصلاة، أخبره حذيفة الخـبر، وأن الأحـزاب في ارتحـال، وقـد أتـى جبريلُ النبيَ – قبيل ذلك – فبشره أن الله يرسل عليهم ريحاً وجنوداً، وأعلم رسول الله -ﷺ- أصحابه بذلك وصار يرفع يديه قائلاً :

" **شكراً ! شكراً !!**" [الحلبي ٢/ ٦٢٨]. وهنا قَـالَ النَّبِـيُّ -ﷺ- مبـشرًا : " **الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِم**" [البخاري: (٣٨٠١)، عن سليمان بن صُرَد].

✍ **وأخذ يردد مرارًا :**

" **لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْـدَهُ، فَـلا شَيْءَ بَعْدَهُ**"[البخاري : (٣٨٠٥)].

فهي ساعة يمتحن الله فيها الدولة المنتـصرة؛ أتـشكر أم تكفـر، فمـن النـاس مـن يرزقهم اللهُ النصرَ وقد كانوا من قبل إلى الله يتضرعون، فلما جـاءهم نـصر الله إذا هـم ينسون ويبغون، وينسبون الفضل إلى أنفسهم، ويقولون في أبواق الأعـلام : نجحـت قواتنا .. وانتصرنا بفضل شجاعتنا .. بفـضل سـلاحنا.. وينـسون صـاحب الفـضل وواهب الرزق، سبحانه، يُعز من يشاء ويذل من يشاء ، وهو القائـل : " **لأن شـكرتم لأزيدنكم** " .

✍ **معاقبة بني قريظة** (١) **:**

ولما انكشفت الغمة، ورجعت الأحزاب، تنفس المـسلمون الـصعداء، ورجـع النَّبِيُّ -ﷺ- مِنْ الْخَنْدَقِ وَوَضَعَ السِّلاحَ وَاغْتَسَلَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ: قَـدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ ؟ ! وَاللهِ مَا وَضَعْنَاهُ !فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ! قَالَ: " **فَإِلَى أَيْنَ ؟**" قَالَ: هَا هُنَا، وَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ. [البَخاري، برقم :(٣٨٠٨)]

---

(١) طالع بالتفصيل ما كتبناه عن غزوة بني قريظة في كتابنا " **غزوات الرسـولﷺ دروس في آداب الحـرب والسلام** "

✍ **وقال**: إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم حصونهم. فدعا رسول الله ﷺ عليًا- رضي الله عنه فدفع إليه لواءه وبعث بلالاً فنادى في الناس.. [ابن سعد ٢ / ٧٤]

✍ **فقَالَ النَّبيُّ** - ﷺ - **للمسلمين** - :

"لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ" .. فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمْ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ -ﷺ- فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ[البخاري، برقم :(٨٩٤)]

وتحرك الجيش الإسلامي تعلوه القوة والمهابة زاحفًا نحو بني قريظة، قال أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْغُبَارِ سَاطِعًا فِي زُقَاقِ بَنِي غَنْمٍ مَوْكِبَ جِبْرِيلَ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ - حِينَ سَارَ رَسُولُ اللهِ- ﷺ -إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ" [البخاري : (٣٨٠٨)] .

واستخلف رسول الله-ﷺ - على المدينة عبد الله بن أم مكتوم و سار إليهم في المسلمين وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرسًا، فحاصرهم خمسة عشر يومًا أشد الحصار، ورموا بالنبل فانجحروا فلم يطلع منهم أحد، فلما اشتد عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله- ﷺ -: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر. فأرسله إليهم فشاوروه في أمرهم فأشار إليهم بيده أنه الذبح ثم ندم فاسترجع وقال: خنت الله ورسوله! فانصرف فارتبط في المسجد ولم يأت رسول الله-ﷺ - حتى أنزل الله توبته، ثم نزلوا على حكم رسول الله [ابن سعد ٢ / ٧٤]. فوكل أمرهم إلى سعد بن معاذ حليفهم . وارتضت قريظة به حكما ..

لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ، بَعَثَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ - وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ، فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ فَلَمَّا دَنَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: **" قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ"**.. فَجَاءَ فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللهِ - ﷺ - فَقَالَ لَهُ : **"إِنَّ هَؤُلاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ "** [البخاري: (٢٨١٦)] ..

✍ **قَالَ سعد: " فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ "** .

✍ **فقَالَ النبي** -ﷺ- :**" لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ"** [البخاري (٢٨١٦)]

✍ **قال عطية القرظي** :عرضنا على رسول الله -ﷺ- يوم قريظة فكان من أنبت قُتل ومن لم ينبت خلي سبيله فكنت فيمن لم ينبت فخلي سبيلي [ابن ماجه، وصححه الألباني (٣٩٧٤)].

وعن عائشة قالت :لم يقتل من نسائهم تعني بني قريظة إلا امرأة إنها لعندي تحدث تضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله -ﷺ- يقتل رجالهم بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة ، قالت : أنا قلت وما شأنك؟ قالت : حدث أحدثته .. قالت : فانطلق بها فضربت عنقها فما أنسى عجبًا منها أنها تضحك ظهرا وبطنا وقد علمت أنها تقتل [أبو داود (٢٦٧١)، وحسنه الألباني] .

***

لقد كانت غزوة الأحزاب موعظة ورحمة لقوم يؤمنون بناموس الله : "**إن مع العسر يسرًا**".. وليعلم المسلمُ أن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الخير، وعند تناهي الكرب يكون الفرج، وعند تضايق الحال يكون الرخاء؛ شريطة أن يَصْدُق المسلمُ ربه، ويثبت ويصبر ويطيع، و"**سيجعل الله بعد عسر يسرًا**"، وينشر الله رحمته وهو الولي الحميد .

✍ **قال محمد بن بشر الخارجي:**

إن الأمور إذا اشتدت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كل ما رتجا

وكانت هذه الغزوة درسًا عظيمًا في قوة هذا الدين أمام جحافل الباطل، وأن أهل الأرض لو اجتمعوا وتحزَّبوا وتحالفوا على هدم هذا الدين، فلن يَتَأتى لهم ذلك، إلا ما يصيب الرجلُ الفسلُ من البحر، إذا ألقى فيه قبس من نار يريد بذلك أن يجففه !

وكانت درسًا بليغًا في أهمية " **الفرد المسلم** " فقد رأيت ما فعل نعيم...

ومن ثم أوصيك أن تبحث وتسعى إلى عمل يتمخض عن خدمة جليلة للإسلام . فابحث وابحث . وتَعَلَّمْ وتَعَلَّمْ . واعمل واعمل واعمل . فدينك دينك، لحمك دمك !

✍ **توصية عملية :**

مدراسة سورة الأحزاب

إسلام ثمامة بن أثال

✍ **عن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ :** بَعَثَ النَّبِيُّ -ﷺ- خَيْلاً قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ -ﷺ- فَقَالَ : " **مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟**" .

✍ **فَقَالَ:** عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ ! إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ .

فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ له:

" **مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟** " .

✍ **قَالَ:** مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ !

فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ:

" **مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟** " .

فَقَالَك عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ !

✍ **فَقَالَ : " أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ "** ..

فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ! يَا مُحَمَّدُ ! وَاللهِ، مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ. وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي، وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ ، فَمَاذَا تَرَى ؟

فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، قَالَ لَهُ قَائِلٌ : صَبَوْتَ ؟ ! قَالَ : لا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، وَلا، وَاللهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ -ﷺ- [البخاري : ٤٠٢٤]

✍ **حول القصة**

كانت سرية محمد بن مسلمة – رضي الله عنه – هي أول عمل عسكري بعد غزوة الأحزاب وقريظة، وقد تحركت هذه السرية [**في المحرم من العام السادس للهجرة**] في

مهمة عسكرية ضد بني القرطاء في أرض نجد .. وفي طريق عودة السرية؛ تم أسر ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، والصحابة لا يعرفونه، فقدموا به المدينة وربطوه بسارية من سواري المسجد، فلما خرج إليه رسول الله -ﷺ- قال :

"أَتَدْرُونَ مَنْ أَخَذْتُمْ ؟ هَذَا ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الْحَنَفِيّ ، أَحْسِنُوا إِسَارَهُ" [ابن هشام ٢/ ٦٣٨]

ورجع رسول الله -ﷺ- إلى أهله، فقال لهم :

"اجْمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ فَابْعَثُوا بِهِ إِلَيْهِ" .. وقد أمر -ﷺ- بِلِقْحَتِهِ (١) أَنْ يشرب ثمامة من حليبها.

ولازال رسول الله -ﷺ- يتودد إليه ويتردد عليه، ويدعوه إلى الإسلام، ثم أمر أصحابه بفك أسر ثمامة.

فذهب ثمامة من تلقاء نفسه إلى نخل قريب من المسجد النبوي - ولم يذهب إلى أهله - ومن تلقاء نفسه - أيضًا -، اغتسل غُسل المسلمين، فلقد هزته الأخلاق المحمدية هزّا عنيفًا، فملكت عليه زمام قلبه، وأسرته في أسر جديد !

ثم قدم إلى المسجد هذه المرة على قدم وساق، بنفسه، قد هطلت على وجهه مُزنة الإيمان، وتهللت أساريره بشاشة ووضائه، وإذا به ينطق كلمات ما أجملها ! صدّرها بشهادة التوحيد، وثنَّاها بكلمة حق، وأعقبها بكلمة حب، وختمها باستئذان، فقد قصد العمرة، وكأنما هو جندي من أجناد الدعوة الإسلامية في عشية أو ضحاها، فأذن له قائده الذي أسره مرتين ! رهبًا ثم رغبًا، ثم علَّمه أستاذه صفة العمرة على منهج التوحيد، ولقنه التلبية خالية من الشرك، ناقية طيبة .

وانتشر خبر إسلام ثمامة، سيد اليمامة، فلما قدم مكة، عيره رجلٌ قرشيٌ قائلاً : أصبوت ؟! أي أكفرت بدين الآباء ؟ ! فقال - قولة من أُطعم غضارة الإيمان - : **"لا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهَّ -ﷺ-"** . وهكذا يعلنه هويته بين ظهراني قريش - فهو السيد القوي صاحب العزيمة - ويعتز بدينه، ويفتخره بعقيدته، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين..

---

(١) ناقته .

✍ **ثم يأخذ قراره، ويعلن موقف اليمامة المسلمة، من قريش الجائرة،** :

" **وَلا، وَاللهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ** -ﷺ" .

فهي المقاطعَة لمن حاد الله ورسوله ..

المقاطعة لمن حاربوا الإسلام ..

المقاطعة لمن عذَّبوا المسلمين وفتنوهم في دينهم ..

فقد أيقن ثمامة أن واضع المعروف في غير أهله؛ كالزراع في السَّبَخ، أو كالمُسْرِج في الشمس ..وأن التعاون التجاري أولى به قبائل أخرى ذات أخلاق سجيحة.

لقد لقنهم ثمامة الدرس، وأصاب المَفْصَل فيهم، وشَل اقتصادهم، وجعل عيشهم رَنَق، وعذبهم أُجاج، وحلوهم صَبْر.. حتى أصابهم الضنج والضجر، فأرسل وجهاء قريش إلى رسول الله -ﷺ - يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام .

✍ **أدلة أخرى على شرعية المقاطعة الاقتصادية لمنتجات الأعداء :**

وإن المقاطعة الاقتصادية لبضائع الأعداء يدخل فيها -أيضًا- قول النبي-ﷺ - جاهِدوُا المشْرِكِينِ بَأمِوَالكِمُ وأيَديكُمْ وَألَسِنَتِكُمْ " [النسائي : ٣٠٤٥، عن أنس، وصححه الألباني ،حديث رقم : ٣٠٩٠ في صحيح الجامع].

والجهاد بالمال، ذلكم الفريضة -له وجهان :

وجه إيجابي بدفع المال، لتجهيز الجيش الإسلامي المحارب في الميدان أو المرابط في الثغور .

ووجه سلبي بمنع المال، أي بعدم شراء بضائع الأعداء، وقطع أي تعامل تجاري مع العدو ..

✍ **هذا، وقد قال الله تعالى :**

﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥]

وهذا نص صريح يأمر الله فيه بالتضييق على المعتدين، وحصرهم، وبذل شتى السبل الشرعية لدفع عدوانهم ..

✍ **قال القرطبي :**" (واحصروهم) أي :امنعوهم من التصرف في بلاد الإسلام، حتى تضيقوا محلهم الواسع [تفسير القرطبي ٦/ ٣٢٠]..

✍ **وقال ابن كثير:**

" (وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع " [ابن كثير: ٤/ ١١١].

✍ **وقال الطبري :**

" (واحصروهم)، يقول: وامنعوهم من التصرف في بلاد الإسلام " [تفسير الطبري ١٤/ ١٣٤].

✍ **وقال الشيخ أبو بكر الجزائري :**

" (وأحصروهم) : أي حاصروهم " [أيسر التفاسير ٢/ ٦١].

والحاصل أن الحصار العسكري والحصار الاقتصادي يدخلان في قوله تعالى **"واحصروهم"**..

والحصار الاقتصادي له أوجه كثيرة أدناها الامتناع عن شراء بضائع العدو، أو منع إجراء أي اتفاقات تجارية معه على الصعيدين الفردي أو الجماعي ..

ولقد استخدم أعداء الإسلام – في العهد النبوي – الحصار الاقتصادي و الحصار العسكري ضد المسلمين، ومثال للأول : حصار شعب أبي طالب، حيث قاطع المشركون المسلمين مقاطعة شاملة وكُتبت بذلك وثيقة علقت في جوف الكعبة، واستمر هذا الحصار من المحرم من العام السابع من البعثة وحتى المحرم من العام العاشر من البعثة .

ومثال للثاني، معركة الخندق في شوال من العام الخامس من الهجرة، حيث قدم المشركون في عشرة آلاف وحصروا المدينة قرابة شهر ..

✍ **مواقف من السيرة النبوية**

ولقد استخدم رسول الله – ﷺ – نفس السلاح الذي استخدمه أعداء الإسلام في حربهم ضد المسلمين..

فمارس – ﷺ – أسلوب الحصار العسكري والحصار الاقتصادي أو المقاطعة أوالحصر الوارد في الآية الكريمة سالفة الذكر، في أكثر من موقف سيرته المباركة .. وأهم هذه المواقف :

✍ **الموقف الأول :** حصاره ليهود بني قينقاع في معركته معهم في ١٥ شوال سنة ٢هـ/ ٩ إبريل ٦٢٤. جراء ما صدر منهم من جريمة نكراء، قد تواطئوا فيها على كشف عورة سيدة مسلمة في مكان عام. وتواطئهم في قتل رجل مسلم، دافع عن عرض السيدة المسلمة وحاول رد العدوان

✍ **الموقف الثاني :** حصاره –ﷺ– ليهود بني النضير في معركته معهم في ربيع الأول سنة ٤ هـ/ أغسطس ٦٢٥م ... بعد أن خططوا لعملية اغتيالٍ للنبي –ﷺ–

✍ **الموقف الثالث :** حصاره –ﷺ– ليهود بني قريظة –لعنهم الله– في معركته معهم في (ذي القعدة ٥ هـ/ إبريل ٦٢٧ م)، بعدما خانوا أهل المدينة وتحالفوا مع المحتل أثناء معركة الأحزاب.

✍ **الحكم الشرعي في التعامل التجاري مع العدو**

✍ **وبناءً على ما سبق نقول :**

١- إن الأصل في طعام أهل الكتاب هو الحِل، لقوله تعالى : ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ [المائدة:٥].

ومن ثم فلا جناح على المسلمين في التعامل التجاري معهم، ما داموا لم يقاتلوا المسلمين.

قال الله تعالى : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]

٢- بيد أنه لا يجوز التعامل التجاري أو عقد اتفاقات اقتصادية مع الأعداء أو المحاربين للمسلمين أو المحتلين للأرض الإسلامية فضلاً عن حرمة شراء منتجات العدو وتوزيعها وشحنها واستيرادها .

قال الله تعالى :

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة:٩]

وتحريم الشراء منهم – في هذه الحالة – لعلة وجيهة، ولسبب بيِّن، وهو أن التعاون التجاري يقوي أعداء المسلمين، فإذا كانت النكاية في إعداء المسلمين فريضة، فإن تقويتهم كبيرة من الكبائر ، وهي كالخيانة العظمى، سواء بسواء .

ومن ثم لايجوز التعامل التجاري مع مصنع أو شركة أو مؤسسة تابع للعدو حتى ولو لم تمد الجيش المعتدي المحارب بمعونة أو سلاح ..

٣- أما إذا وُجد " **مصنع** " أو " **شركة** " للعدو تصرف سهمًا من الأرباح لدعم الجيش المعتدي على المسلمين - كما هو الحال في شركات صهيونية مثل " **ببسي** " و " **كوكا كولا** " و " **ما كدونالدز**"- تخصص نسبة من أرباحها للجيش الصهيوني ولبناء المستوطنات الصهيونية على أرض المسلمين – فإن حرمة التعامل معها أشد، وذنبها أشنع، وإثمها أفجع . وذلك لأن المسلم – في هذه الحالة الأخيرة – يساهم بماله في قتل إخوانه .

فشركة " **ماكدونالدز** " – على سبيل المثال – تخصص ريع أيام معينة في السنة لصالح الجيش الصهيوني، وهذا في جميع فروعها، ومعنى ذلك أن المسلم الذي اشترى طعامًا من هذا المطعم؛ فإنه قد شارك يقينًا في قتل مسلم أو أسر مسلم أو هدم مسجد في فلسطين !



١ -أن تعمل على إحياء "**المقاطعة**" كلما ماتت وإيقاظها كلما نامت، أحيها في الناس من حولك، أيقظها في نفوس التجار والمستهلكين .. إن ذلك من الولاء والبراء لله ولرسوله وللمؤمنين، ونصرة المظلوم واجبة، والجهاد بالمال فريضة..

٢- أن تطالب أولياء الأمور والساسة والقادة بأن يساندوا شعب فلسطين المسلم، فهم – أي أولياء الأمور – أولى الناس بالتبعة، وأن يجلو حوبتة المستضعفين، ويكشفوا كربة المكروبين، لاسيما والمسلمون في بقاع الأرض – كما قال معاوية بن أبي سفيان : " **بين شريد نادّ، وخائف منقمع، وساكت مكعوم، وداع مخلص، وموجع ثكلان..**".

٣- أن تحذِّر سفهاء الأحلام الذين جعلوا من مقاطعة الأعداء بدعة، من مغبة ظلمهم لأخوانهم بهذا القول الشنيع، فالخَرَس خير من الخِلابَة، والبكَمُ خير من البَذاء. ألا يرعووا ! ألا يتخوفون قارعة تحل بهم جراء تقصيرهم !

٤- أن تحذِّر من خطورة الاعتراف بأي حق مزعوم للصهاينة في فلسطين، فالاعتراف لهم بذلك خيانة، والسكوت عن ذلك أشر من الدياثة، ولقد أصدر علماء الأزهر فتوى في الأول من يناير عام ١٩٥٦ جاء فيها :

أ)لا يجوز الصلح مع اليهود أعداء الله، مغتصبي فلسطين

ب) لا يجوز الدخول معهم في مشروعات استثمارية ....

ج)لا يجوز الدخول في تحالفات مع الدول التي تدعم الكيان الصهيوني..

٥- أن تنشر قوائم المنتجات المحرمة، والمقرر مقاطعتها، انشرها بين الناس، علّقها، انسخها، مستخدمًا كافة وسائل التواصل والاتصال والنشر والطبع، فأحرى بك ألا تَطعم طعامًا من صنع أعدائك، وهم يقتلون إخوانك، وإخوانك يتَضاغَوْن جوعًا من الحصار، قد قرحت أشداقهم، وجفت بطونهم، ونَقَّ عظامهم، وقد ضعضتهم النوائب، وعقرتهم المصائب . فكن للضعفاء كالظَّليم الرامح عن فراخه .

٦- أن تهتم بقضية المسلمين في فلسطين وفي غيرها من بلدان الإستضعاف، وقد جاء في الأثر : "**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**"، فتستطيع أن تنشر القضية الفلسطينية فيمن حولك.. انشر قضية إخوانك المستضعفين وحث الناس على دعمهم، والجهاد بالنفس والمال واللسان في سبيل الله، .. ومع كَلال الحَدُ ونضيض الوفرُ عند إخوننا، يشتد علينا واجب النجدة، وفرض النصرة .. ذكّر أهلك وأولادك وأقاربك، حث أصحابك وزملائك، راسل الصحف والمجلات ومواقع الشبكة العنكبوتية، شارك بمقالة أو بمشاركة صغيرة ..شارك في المنتديات والمدونات، أو صمم مدونة بنفسك على الإنترنت تبث منها القضية، وذكر شباب المسلمين بقضية فلسطين، شارك – قدر استطاعتك – في جميع الفعاليات المعنية بالقضية الفلسطينية من مؤتمرات وندوات ومحاضرات، إن هذه الفعاليات تعطي دعمًا معنويًا كبيرًا لشعبنا في فلسطين.

القسم التاسع

الفتــح

صلح الحديبية
ذو القعدة ٦ هـ - مارس ٦٢٨م

نحو مكة

رأى النبيُ -ﷺ- في منامه أنه دخل هو وأصحابُه البيتَ الحرامَ آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون شيئًا. ومعلومٌ أن رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، فقصها النبي -ﷺ- على أصحابه، ففرحوا بها، وأمرهم أن يتجهزوا للخروج إلى مكة معتمرين، فخرج من المدينة يوم الاثنين، غُرّةَ ذي القَعْدَة في السنة السادسة للهجرة، في ألف وأربعمائة، ولم يخرج بسلاح كثير، إلا سلاحَ المسافر.

وخرجت معه جماعةٌ من الأعراب وجبن أكثرهم، لخطورة الرحلة، وظنوا أن رسولَ الله -ﷺ- مقتولٌ في هذه الرحلةِ لا محالةَ، فقد ذهب إلى الموت بقدميه - بزعمهم -، وعلقوا تخلفهم عن رسول الله -ﷺ- على شماعة الانشغال بالتجارة وتربية العيال، وقد فضحهم الله تعالى، فقال :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح:١١،١٢].

الشورى :

تحرك رسول الله -ﷺ- بأصحابه، أمامه الهدي، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة (**أي من آبار علي**)، حتى تعلمَ العربُ عامةً وقريشٌ خاصةً أنه جاء معظمًا للبيت، قاصدًا العمرة، وأنه لا يريد قتالاً، ومن ذي الحليفة أرسل النبيُ -ﷺ- رجلاً من أصحابه يجمعُ له المعلوماتِ عن قريش.

وسار النبيُ -ﷺ- مُحرمًا - حتى إذا كان قريبًا من عُسْفَان - وهي تبعد عن مكة مسافةَ ثمانين كيلوا مترًا تقريبًا - أتاه هذا الرجل (**الاستخباراتي**) فقال للنبي -ﷺ- :

إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ، وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ، وَمَانِعُوكَ.

✍ **هنالك قال النبي ـ ﷺ ـ :**

" أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ ! أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنْ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ ؟" .

✍ **قَالَ أَبُو بَكْرٍ:** يَا رَسُولَ اللهِ ،خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ، لا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ، وَلا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ!

فَقَالَ : **"امْضُوا عَلَى اسْمِ اللهِ"** [البخاري: برقم ٣٨٦٠]

تلحظ في هذا المشهد أن النبيَ ـ ﷺ ـ طلب المشورةَ كما هي سنته الكريمة، وقد قال أبو هريرة : **"مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَكْثَرَ مَشُورَةً لأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ"**(١) .

وتلحظ أيضًا أن رأيَ النبيِ ـ ﷺ ـ هو الهجومُ على ذراري القوم؛ فينشغلوا بأنفسهم عن صد المسلمين عن البيت الحرام، وتكونَ رقبةً مشركةً قد قطعها الله.

واستشار النبيُ ـ ﷺ ـ أصحابه في ذلك، فأشار أبو بكر بغير هذا الرأي، ونصح قائده بالدخول السلمي، وذلك لحساسية الزمان والمكان، فالزمان شهرٌ حرام، والمكانُ أرضٌ حرام، ولكن مَنْ صَدَّنَا عَنْ البيت قَاتَلْنَاهُ !

فنزل النبي ـ ﷺ ـ على رأي أبي بكر.

وفي ذلك إشارة إلى لين عريكته ـ ﷺ ـ مع جنده، وخفضه جناحِه لهم، وسعةِ صدرِه لمقترحاتهم، كما أن هذا السلوكَ الكريم الذي صدر من النبيِ ـ ﷺ ـ هو تطبيق عملي لأمر الله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وهو أمرٌ لكل ولي أمر، الرئيسِ والوزير، و القائدِ والغفير، الأبِ في أسرته، الناظرِ في مدرسته، المديرِ في إدارته، ينادي الحقُ ـ تبارك وتعالى ـ عليهم جميعًا : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

***

✍ **طريقة أخرى :**

لا زال النبي ـ ﷺ ـ في طريقه إلى مكة .

---

(١) مسند أحمد (٣١/ ٢٤٤) .

وفي بعض الطريق، قال الرسول ـ ﷺ ـ: " **إِنَّ خَالِدَ بْـنَ الْوَلِيـدِ بِـالْغَمِيمِ فِي خَيْـلٍ لِقُرَيْشٍ، طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ** "[البخاري : ٢٥٢٩]، أي طريقًا أخرى، حتى لا يحدث قتالاً أو صدامًا .

✍ **موقف القصواء !**

وسلك المسلمون طريقًا وعرًا في الشعاب، حتى إذا أوشـك الركـب الكـريمُ عـلى دخول الحرم من ثنيةٍ مرتفعة تطل على مكة؛ بركت ناقةُ النبي ـ صلى الله علي وسلم ـ .

✍ **فقال الصحابة :** حَلْ حَلْ ! فَأَلَحَّتْ، ولزمت مكانها .

✍ **فَقَالُوا :** خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، أي حَرَنَتْ مِنْ غيرِ علةٍ، وعصت من غير تعلة.

فَقَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ مدافعًا عن ناقته الكريمـة ـ مبينًـا سـبب فعلهـا ـ:" **مَـا خَـلأتْ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ**"[البخاري : ٢٥٢٩].

إنها شعرت بمهابة الموقف، أن تكون داخلةً نحو بيت الله ، بغيةَ الفساد في حرم الله، خافت أن يكون أصحابُ محمدٍ ـ ﷺ ـ؛ كأصحاب أبرهة، الذين جاءوا بجيشٍ عَرَمْرَم، وأرادوا كيـدًا لبيـت الله الحـرام، فجعـل الله كيـدهم في تـضليل ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[الفيل:٣،٥].

الناقة تخشى عاقبةَ الظلم، تخشى أن تسير مـع الظلَمـة، فـما بالـك بمـن يـساندون الظلمة، ويدافعون عن الظلمة، وينضمون إلى حزب الظلمة ؟

***

ثُمَّ قَالَ النبي ـ ﷺ ـ : "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً، يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ، إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا** "[البخاري : ٢٥٢٩].

ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ.

✍ **معجزة البئر :**

وواصل المسلمون مسيرهم، حتى نزلوا الحديبية ـ وهـي الآن في مـدخل مكـة ـ، فنزلوا على ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا[1] .. يأْخذونه قليلاً قلـيلاً، لقلتـه، كـما

---

(١) أَي يأْخذونه قليلاً قليلاً

يتعامل أحدنُا مع الماء القليل في سفره، فَلَمْ يُلَبِّثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ عن آخره، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ نبي الرحمةِ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فامتلأ البَئر بالماء، معجزةً من الله لنبيه، وما زال يَجِيشُ لَلمسلمين بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ"[انظر : البخاري : ٢٥٢٩].



قراءة حديث صلح الحديبية في صحيح البخاري



رسل قريش

✍ **إرسال بديل بن ورقاء :**

أما المشركون، فقد عقدوا مجلسًا استشاريًا في دار الندوة، وأجمعوا على صد المسلمين عن البيت الحرام حتى ولو جاءوا قاصدين العمرة، وفي ذلك قال الله ـ تعالى ـ من قبل :

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال:٣٤]

✍ **وقال ههنا :**

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح:٢٥] .

واتفقت قريشٌ على إرسال سفيرٍ تلو الآخر إلى النبي ـ ﷺ ـ بهدف المماطلةِ تارةً، وجس النبض تارةً، والاستفزازِ تارةً أخرى .

وأرسلوا من ضمن ما أرسلوا بُدَيْلَ بْن وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيّ، فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وكانوا نصحة لرسول الله ـ ﷺ ـ، ومعلومٌ أن خزاعةَ هي أقربُ القبائلِ لبني هاشم، وكان بينهم حلفًا في الجاهلية.

فلم قدم بديل بن ورقاء، أخبر المسلمين أنه ترك قريشًا وقد تجهزت عن بكرة أبيها لحرب المسلمين، وقال بديل للنبي ـ ﷺ ـ محذرًا :

"هم مُقَاتِلُوكَ، وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ" !

فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ـ ﷺ ـ: **" إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمْ الْحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ؛ فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ؛ فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهَّ أَمْرَهُ "** [البخاري : ٢٥٢٩].

يا لها من كلماتٍ، تنمُ عن قلبٍ عظيم، وهمةٍ عالية، وإصرارٍ شديد، وشجاعةٍ وبسالةٍ وجسارةٍ .

أكد مقصدَه، بأنه لم يأتِ إلا لأداء العمرةَ ... (**فلماذا المنعُ ؟**)

و تحدث عن واقعِ قريشٍ، وأنها قد أتعبتها الحروبُ.

ثم هو يعرض عليهم الهدنةَ إن شاءوا، حتى يتفرغَ للدعوة السلمية.

ثم يقول ـ في صلابة تهدُ الجبالَ الراسيةَ ـ : فَوَالَّذِي نَفْسِي، بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا، أي هذا الدين، حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، أي رقبتي مقتولاً، ومع ذلك**"لَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ"** .

***

✍ **إرسال عروة بن مسعود :**

ثم أرسلت قريشٌ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ ـ سيدَ ثقيفٍ ـ أسلم بعد ذلك، فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ فَقَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ. أي: إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ !

✍ **فَقَالَ عُرْوَةُ :** أَيْ مُحَمَّدُ ! أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ، وَإِنْ تكُنِ الأُخْرَى؛ فَإِنِّي وَاللهِ لا أَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَوْشَابًا مِنْ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ ..

✍ **فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ :** امْصُصْ بِبَظْرِ اللاتِ ! أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ ؟

✍ **فَقَالَ :** مَنْ ذَا ؟ قَالُوا أَبُو بَكْرٍ، قَالَ : أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلا يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لأَجَبْتُكَ !

واستكمل عروةُ حوارَه مع النبي ـ ﷺ ـ فَكُلَّمَا تكَلَّم النبي ـ ﷺ ـ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، كعادة بعض العرب من التبسط في الحديث، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ لحراسته، وَمَعَهُ السَّيْفُ، وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ يداعبها؛ ضَرَبَ المغيرةُ يد عروةَ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ في حزم : أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ!

✍ **فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ :** مَنْ هَذَا ؟

✍ **قَالُوا : [هَذَا ابْنُ أَخِيك] الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ!**

✍ **فَقَالَ :** أَيْ غُدَرُ ! أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ !

وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ أَمَّا الْإِسْلَامَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ ..

وقد تكفل عروة بسداد مع على ابن أخيه من دية، لذلك قال : " **أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ**" .

✍ **حال الصحابة مع النبي ـ ﷺ ـ:**

ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ بِعَيْنَيْهِ، ينظر صنيعهم مع النبي ـ ﷺ ـ يبجلونه غاية التبجيل، ويوقرونه غاية التوقير.

✍ **قَالَ عروةُ بعد ذلك : " فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ نُخَامَةً إِلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ؛ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ،وَجِلْدَه،ُ وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ ! "** "[البخاري : ٢٥٢٩].

لقد تأثرَ عروةُ بهذه المشهدِ تأثرًا كبيرًا، وهزه هزًا عنيفًا، فرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، مدهوشًا، مُعجبًا بصنيع الصحابةِ ـ رضي الله عنه ـ مع النبي ـ ﷺ ـ، فَقَالَ ـ يحدث قريشًا ـ :

" أَيْ قَوْمِ ! وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ، إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ؛ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا ." [البخاري : ٢٥٢٩] .

هذا كان صنيعُ الصحابة، مع النبي ـ ﷺ ـ، إذا أمرهم ابتدروا أمره :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[الأنفال:٢٤]

[فيا ويحك، يا من حججت بيت الله، وزرت قبر رسول الله ـ ﷺ ـ، ثم انقلبت على عقبيك، فلم تعدل بين أولادك، وشهدت الزور، وغصبت الأرض، وهتكت العرض !]

✍ **كان حال الصحابة مع النبي ـ ﷺ ـ :"إِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ"**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحُجُرات:٢،٣]

أفٌ لك، يا من ترفع صوتك على حديث رسول الله ـ ﷺ ـ، ترى الواحد منهم يصخب في كلامه، ويعلوا صوتُه في المساجد، كلامُ رسول الله يتلى، فلا أدب، ولا إنصات، ويعلم الله تعالى أن هذا الرعديدَ لو جلس في مكتب مسؤول أو وزير أو غفير، لجلس متأدبًا، متخشعًا، خافض الطرف، ناكس الرأس.

✍ **إرسال الحليس :**

ثم أرسلت قريشٌ الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ، وكان إذاك سيدُ الأحابيش، وكان رجلاً متحنثًا يعظم الهدي .

فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهَ ـ ﷺ ـ : " هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ" فَبُعِثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ، أكبره، وقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهَ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ !

فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قريش قَالَ : رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ، وَأُشْعِرَتْ، [أي جُهزت للنحر عند محلها] في فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنْ الْبَيْتِ !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج:٢٥]

ولازال رسول الله ـ ﷺ ـ واقفًا على حدود مكة، وقومُه يمنعونه من دخول وطنه، يرحبون بالشعراء ، ويصدون الأنبياء، كما هو حال أقوامٍ؛ يفتحون البلد للراقصين والمخارقيق، وإذا ما قدم الداعيةُ فتشوه، وسرقوه، وأهانوه !

إرسال مكرز الغادر

ثم أرسلتْ قريشٌ رجلاً فاجرًا، يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى المسلمين، قَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ وهو الخبير بمعادن الرجال ـ :

" هَذَا مِكْرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ "



احرص على توقير النبي ـ ﷺ ـ بحسن الإنصات لحديثه، وبكثرة الصلاة عليه، وبنفح الكيد عنه .



المبادرات النبوية

✍ **المبادرة الأولى :**

دَعَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ الْخُزَاعِيَّ، فبَعَثَهُ إِلَى قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ وَحَمَلَهُ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ، يُقَالُ لَهُ الثَّعْلَبُ، لِيُبَلِّغَ أَشْرَافَهُمْ عَنْهُ مَا جَاءَ لَهُ، فَعَقَرُوا بِهِ جَمَلَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- وَأَرَادُوا قَتْلَهُ فَمَنَعَتْهُ الْأَحَابِيشُ، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللهِ -ﷺ-[١] .

✍ **المبادرة الثانية :**

وأرسلت قريش بأَرْبَعِينَ من الرجال، وأَمَرُوهُمْ أَنْ يُطِيفُوا بِعَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- لِيُصِيبُوا لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا، فَأُخِذُوا أَخْذًا، فَأُتِيَ بِهِمْ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- فَعَفَا عَنْهُمْ وَخَلَّى سَبِيلَهُمْ و قَدْ كَانُوا رَمَوْا فِي عَسْكَرِ رَسُولِ اللهِ-ﷺ- بِالْحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ[٢].

✍ **المبادرة الثالثة:**

ثم أرسل النبي -ﷺ- عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ إلى قريشٍ، مندوبًا عنه، ليؤكد لهم حسن مقصد المسلمين، ورغبتهم الجادة في أداء العمرة .

وقال له : **"اذهب إلى قريش فأخبرهم أناّ لم نأت لقتال أحد وإنما جئنا زوارا لهذا البيت، معظمين لحرمته، معنا الهدي ننحره وننصرف"**[٣] .

وَبَعَثَهُ بذلك إِلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ، يُخْبِرُهُمْ بذلك[٤] .

في هذه المبادرات النبوية الحكيمة نرى فيها قدرةَ القيادةِ الإسلامية على استخدام سياسةِ ضبطِ النفسِ بمهارةٍ فائقة .. فلو تسرعت القيادةُ في مثل هذه المواقفِ الثلاثةِ بالرد المسلحِ على استفزازات العدو؛ لتحول **" حادثُ الحديبية"** في التاريخ إلى ملحمة دموية ومأساة ضخمة في أرض الحرمِ .

إن استخدامَ رسولِ الله -ﷺ- لسياسةِ ضبط النفس في هذه المواقف الثلاثة بالذات يُعد من أهم الأسباب المباشرة لنجاح صلح الحديبية..

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣١٤ .
(٢) ابن هشام ٢ / ٣١٤ .
(٣) ابن سعد ٢ / ٩٧ .
(٤) ابن هشام ٢ / ٣١٤ .

إشاعة مقتل عثمان :

فَخَرَجَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمّ أَجَارَهُ حَتّى بَلّغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللهّ - ﷺ -، فَانْطَلَقَ عُثْمَانُ حَتّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظَمَاءَ قُرَيْشٍ ، فَبَلّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللهّ - ﷺ - مَا أَرْسَلَهُ بِهِ ، فَقَالُوا لِعُثْمَانِ حِينَ فَرَغَ مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِ اللهّ - ﷺ - إلَيْهِمْ: إنْ شِئْت أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ .

فَقَالَ ـ يبجل النبي ـ : **" مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللهّ - ﷺ - ." !!**

ليضرب المثل كيف تكون علاقة الجندي بقائده أمام الأعداء.. إنها علاقة التوقير والإجلال للقيادة الإسلامية حال غيبتها أمام أعداء الله ..

ثم إن قريشًا احتبست عثمانَ عندها، ، فَبَلَغَ رَسُولَ اللهّ- ﷺ - وَالْمُسْلِمِينَ أَنّ عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ قَدْ قُتِلَ[1].وانتشرت الشائعة .. ويبدو ـ والله أعلَم ـ أن هناك أطرافًا حاقدةً أشاعت ذلك، تبغي من وراء ذلك نشوب الحرب والفتنة .

ولا شك أن انتشار الشائعات دائما ما يشتد حال الأوقات الحرجة والمواقف الفاصلة وساعات الفتن ..

ومن ثم كان على المسلم التثبتَ والتحفظ على هذه الإشاعات ..

وكان على القيادة الإسلامية الاستفادة من موجة الشائعات – التي هي من صنع المغرضين- ..

وكيف استغلها قائدنا الحكيم - ﷺ - ؟

إنه انتهز هذه الفرصة في توحيد الصف، وتقوية العزم، وأخذ البيعة على الموت . ولذلك كانت إشاعة مقتل عثمان في صالح المعسكر الإسلامي مئة بالمئة !

بيعة الرضوان

فقَالَ رَسُولَ اللهّ - ﷺ - حِينَ بَلَغَهُ أَنّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ :

"لَا نَبْرَحُ حَتّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ" .

فَدَعَا رَسُولُ اللهّ- ﷺ - النّاسَ إلَى الْبَيْعَةِ فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرّضْوَانِ تَحْتَ الشّجَرَةِ، فَكَانَ النّاسُ يَقُولُونَ: بَايَعَهُمْ رَسُولُ اللهّ - ﷺ - عَلَى الْمَوْتِ وعَلَى أَنْ ألا يفرروا . وَلَمْ يَتَخَلّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَهَا، إلَا الجَدُّ بْنَ قَيْسٍ ـ وكان منافقًا ـ.

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣١٥ .

ثُمّ أَتَى رَسُولَ اللهِ –ﷺ –أَنّ الّذِي ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ عُـثْمَانَ بَاطِـلٌ[١]، وإنـما هـي شـائعة مغرضة .

✍ **وعن يَزِيدَ بْنِ أبي عُبَيْدٍ قَالَ : قُلْتُ لِسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ:** عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعْتُمْ رَسُولَ اللهِ –ﷺ – يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ قَالَ: **" عَلَى الْمَوْتِ"**[٢] .

قال النبي –ﷺ – في فضل هذه البيعة :

" لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ"[٣]

وفي ذلك نزل قول الله تعالى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح:١٨]



طالع تفسير سورة الفتح



(١) ابن هشام ٢ / ٣١٥ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٨٥١) .

(٣) مسند أحمد (١٤٧٢٥) عن جابر، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير(٩٣٥٤) .

الصلح

ثم أرسلتُ قريشٌ سُهَيْلَ بْنُ عَمْرٍو، خطيب قريشٍ المِصْقَع، ومفاوضُها النحرير .

فلَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ : " **لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ** " [البخاري : ٢٥٢٩] .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يتفائل بالأسماء.

واتفقا الطرفان على عقد هدنة، شريطة أن تنص على ما يحفظُ لقريش ماءَ وجهها أمامَ العربِ، فكانت الشروطُ مجحفةً، متحاملةً في ظاهرها على المسلمين، ولكن جعل الله ـ جل وعلا ـ في هذه الشروط الفتح المبين.

✍ **فقال سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو**: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ الْكَاتِبَ فَقَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ : " **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** "

✍ **قَالَ سُهَيْلٌ : "أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ"** أي في الجاهلية .

✍ **فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ** : وَاللهِ لا نَكْتُبُهَا إِلا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

✍ **فَقَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ: " اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ "** .

✍ **ثُمَّ قَالَ النبي ـ ﷺ هذا "مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ"** ...

✍ **فقاطعه سهيلٌ قائلاً** : وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ الْبَيْتِ وَلا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ !

✍ فَقَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ وَاللهِ ـ : " **إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ** ".

وفي هذا درسٌ للذين يتنطعون في الشكليات والمظاهر، ويتمسكون بشعار القضية، ولا يستمسكون بقضية الشعار.

✍ **ثم قال النبي ـ ﷺ ـ : " عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ"** فَقَالَ سُهَيْلٌ : وَاللهِ لا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ .فَكَتَبَ.

✍ **ثم قال سُهَيْلٌ** : وَعَلَى أَنَّهُ لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا !

✍ **قَالَ الْمُسْلِمُونَ :** سُبْحَانَ اللهَّ ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا ؟

✍ **مأساةُ أبي جندل بن سهيل**

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ : هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ، أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ !

✍ **فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- :" إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ "** .

✍ **قَالَ سهيلٌ : " فَوَاللهَّ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا "** .

فأخذ النبي -ﷺ- يشفع شفاعةً حسنة - وهو سيد الأكرمين - ويهيب بسهيل، أن يرحم ولده، ويتركه مع المسلمين.

✍ **فقال سهيلٌ: " مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ " !**

✍ **فقَالَ الرحمةُ المهداة : " بَلَى فَافْعَلْ "**، أي اتركه، وأجزه لي .

✍ **قَالَ سهيلٌ:** مَا أَنَا بِفَاعِلٍ .

ألح عليه الرسول -ﷺ- أن يترك له أبا جندل، ولكن دون جدوى :

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]

✍ **فقَالَ أبُو جَنْدَلٍ** : أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ . .

وَكَانَوا قد عذبوه عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللهِّ، وقيدوه، واعتقلوه في بيت من البيوت .

والمسلمون يبكون لبكاء أخيهم أبي جَندل .

فاشتد الأمرُ على عُمَر بْن الْخَطَّابِ - يتحسر لحال المسلمين، نبيهم محظورٌ من دخول مكة، وهي وطنه وبلده، والمسلمون ماكثون أيامًا لا يُأذن لهم لأداء العمر، ثم كانت هذه البنود المجحفة الظالمة، ثم يأتي الرجل مسلمًا من قريش؛ فيرد لقومه يعذبونه ويجلدونه .

فأقبل عمر على النبي -ﷺ- فقال :

أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهَّ حَقًّا ؟

✍ **قَالَ : "بَلَى "**

✍ **قال :** أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟

✍ **قالَ :** "**بَلَى**"

✍ **قال :** فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا ؟

✍ **فقالَ رسول الله ـ ﷺ ـ :** "**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**" .

✍ **قال عمر:** أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ ؟

✍ **فقال النبي ـ ﷺ ـ :** "**فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ ؟**"

✍ **قالَ :** لَا

✍ **فقالَ النبي ـ ﷺ ـ:** "**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ**" !

ثم أقبل عمر ـ رضي الله عنه ـ على أبي بكر، فقال له نحو من قوله لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال الصديق ـ رضي الله عنه ـ :

إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ .

***

سحائب الحزن تخيم على النفوس، ورسول الله ـ ﷺ ـ يكتب كتاب الصلح مع سهيل، فلما تم الاتفاقُ، وكُتب العقدُ، وشهد الشهودُ، التفت النبيُ ـ ﷺ ـ إلى أصحابه قائلاً :

"**قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا**" .

فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ؛ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنْ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ ؟ اخْرُجْ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ.

فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ، فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا.

وحَلَقَ رِجَالٌ ، وَقَصَّرَ آخَرُونَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: "**يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ**" .

✍ **قالُوا :** وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

✍ **قالَ :** "**يَرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ**".

✍ **قَالُوا :** وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟

✍ **قَالَ : "يَرْحَمُ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ ".**

✍ **قَالُوا :** وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟

✍ **قَالَ :"وَالْمُقَصِّرِينَ "** (١) .



مدارسة حول أخلاقيات التفاوض



(١) ابن هشام ٢ / ٣١٩، وأحمد : برقم : ٣٣١١، وصححه الألباني .

على إثر الصلح

نزول سورةِ الفتح :

وانصرف النبي -ﷺ- من الحديبية قافلاً إلى المدينة، وفي الطريق نزلت السورةُ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:١،٢]

فقال : نزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا !

فقال رجل :يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : أي والذي نفسي بيده إنه لفتح .

فتحًا مبينًا ظاهرًا، وسيدخل الناسُ في دين الله أفواجًا، وسيخضع لهذا الدين ملوكُ أوربا وآسيًا، ولن يتركَ اللهُ اللهُ **"بَيْتَ مَدَرٍ، وَلا وَبَرٍ إِلا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلامَ وَذُلاً يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ"**[1]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩]

ويا جنـدَ الله : ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩]

قدوم نسوةٌ مؤمناتٌ:

وجَاءَ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ، من قريش إلى المسلمين، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠]

---

(١) جزء من حديث تَميِمٍ الدَّارِيِّ، في مسند أحمد : ١٦٣٤٤، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: ٣ .

فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ.

✍ **جماعة أبي بصير:**

وفي المدينة، جاء أَبُو بَصِيرٍ وهو رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُوَ مُسْلِمٌ، وقد أراد الرجل أن يعيش بين إخوانه المسلمين، فَأَرْسَل المشركون فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا للنبي ـ ﷺ ـ: الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فسلم النبيُ ـ ﷺ ـ أبا بصير إلى الرجلين ـ بناءً على نص الاتفاقية ـ ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ : وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ فقال : أَجَلْ وَاللهِ، إِنَّهُ لَجَيِّدٌ لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ.

✍ **فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ :** أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ.

فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، أي مات، وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ حِينَ رَآهُ:

" لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا " .

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ قَالَ : قُتِلَ، وَاللهِ صَاحِبِي، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ.

فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ !

✍ **فَقَالَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ: " وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ " .**

ثم خرج أبو بصير، حَتَّى موضعًا قرب البحر الأحمر، وقد كون جماعة من المسلمين الذين هربوا من سلطان المشركين، وقد انفلت إليه أبو جندل بن سهيل.

فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، وذلك لعلمهم أن النبي ـ ﷺ ـ سيردُهم، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فلا يسمعون بقافلة تجارية لقريش تمر، إلى اعترضوا لها، فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ.

وباتت هذه الجماعة الإسلامية التي لا تنضوي تحت لواء دولة الرسول ـ صداعًا في رأس قريش، فأرسل المشركون إلى النبي ـ ﷺ ـ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ، وَالرَّحِمِ، لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، وهنا أَرْسَلَ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ إِلَيْهِمْ، أن ينضموا إلى المسلمين في المدينة، فقدموا إليه طائعين فرحين .

ـ أبان لك حادث صلحِ الحديبية، أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان حاكمُ دولةٍ، وأنه حارب، وسالَـم. فكان خير رئيس، وخير مقاتل، وخيرُ مسالم :

وَإِذَا أَخَذْتَ الْعَهْدَ أَوْ أَعْطَيْتَهُ ... فَجَمِيعُ عَهْدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفَاءُ

ـ أبان لك هذا الحادث أن مع العسر يسرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن العاقبة للمتقين، وأن الدائرة على الكافرين، وأنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، وأن الشروط التي وضعوها لأنفسهم هي التي قيدتهم، وأن البنود التي كتبوها هي التي دمرتهم .

ـ وعلمتَ أن من أجل فردٍ مسلم قامت الدنيا ولم تقعد، وبايع الصحابةُ النبي ـ ﷺ ـ على الموت، فكانت بيعة الرضوان من أجل افتقاد عثمان، فلك الله يا سيدَ المسلمين، لم تفرط في دماءِ المؤمنين، فلم يكن رسولُ الله ـ ﷺ ـ يتهاون في دماء شعبه، فلم يكن يومًا جبانًا ولا خائنًا

ـ ارسم مشاهد الحديبيةِ في ذهنك : أرأيت المخلفين الجبناء، الذين قالوا : شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا ؟ أرأيت رسول الله هو يقول : " **أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ** " ؟

أرأيت الناقةَ الكريمة، وقد بركت على الأرض، خشية أن تدخل على البيت وهي ظالمة، ألم تر معجزةَ البئر، وكيف فاضَ بالماء، كرامةً ومعجزة ، كلمةُ رسول الله ـ ﷺ ـ ترن في أذنك : ؛ " **فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ** "، ترى فمَه الشريفَ ينطق بها في حسم، ثم ترى شفتيه مضمومتين في حزم وإصرار. صوتُ المغيرةِ : أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ قبل ألا تصل إليك . الصحابةُ لا يُحدون النظر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ إجلالا لـهَ . عثمانُ في الحبس عند قريش، الصحابةُ تحت الشجرة يبايعون على الموت، المشركون يرفضون كتابةَ بسم الله الرحمن الرحيم، يكرهون كلمةَ محمدٍ رسولِ الله، رسولُ الله ـ في طريق العودة إلى المدينة يتغنى بسورة الفتح.

ارسم هذه التصاويرَ في خلَدك، احفرها حفرًا، وانحتها نحتًا، ثم سل نفسك، هذا الجهدَ المضني الذي بذله رسول الله ـ ﷺ ـ كان لمن ؟ وآلت ثمرتُه لمن ؟

نعم، كان من أجلك أنت ! وثمرته وصلت إليك أنت ! فماذا فعلنا أنا أونت ؟

ليت شعري ! أم حسبت أننا نزاحمُ الصحابةَ بالمناكب؛ بركيعات رمضانَ المترنحة، وبجنيه بخيلٍ، خرجًا كرهًا، وحُمل كرهًا :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢]



ارسم مشاهدَ هذه الرحلة في قلبك ، ثم سل نفسك دومًا، قل لها : بأي شيء ستلحقين بالأحبة، محمدٍ وصحبِه ؟



مكاتبة الملوك

بعدما عقد النبي -ﷺ- هدنة الحديبية- بينه وبين مشركي مكة الذين حاربوه على مدار ثمانية عشر عاماً أو أكثر، أراد النبي -ﷺ- استثمار هذه الفترة في مراسلة زعماء وأمراء وملوك العالم .. لينتقل بالدعوة بعد صلح الحديبية من مرحلة الإقليمية إلى مرحلة العالمية .

✍ إلى ملك مصر والإسكندرية

هذا، ولنتأمل أحد هذه النماذج المشرقة، ولتكن رسالة النبي -ﷺ- إلى الملك المقوقس .. فكتب النبي -ﷺ- إلى جُرَيْج بن مَتَّي الملقب بالمُقَوْقِس ملك مصر والإسكندرية، رسالة نصها:

"**بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط.. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط،** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:٦٤]" [البيهقي : دلائل النبوة، ج ٥، ص ٤]

واختار لحمل هذا الخطاب رجلاً ذو لسان وحكمة هو حاطب بن أبي بَلْتَعَة

وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب – رضي الله عنه – للمقوقس، فهذه البعوث كانت تعرف هدفها جيداً كما أنها بلغت حداً من الفقه والحصافة يستحق الإعجاب البالغ.

✍ **قال حاطب:** إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ..وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به!

✍ **فقال المقوقس:** إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهي عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوي، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي -ﷺ- فجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد : فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك"[البيهقي : دلائل النبوة، ج ٥، ص ٤].

ولم يزد على هذا ولم يسلم، فتزوج رسول الله -ﷺ- مارية، فأنجبت له طفل ـ سماه إبراهيم، أما سيرين، فقد تزوجها حسان بن ثابت – رضي الله عنه –

✍ إلى زعماء العالم

وتابع رسول الله -ﷺ- حملته العالمية ، فطفق ينتقي أفصح الخطباء والشعراء والدبلوماسيين من أصاحبه، ويبعثهم رسلاً وسفراء إلى الممالك والإمارات والدول والقبائل في أسيا وأفريقيا وأوربا يدعو العالَم المظلم إلى الله:

(١) فبعث دحية بن خليفة الكلبي – وكان أنيقًا وسيمًا –، إلى قيصر ملك الرومان، واسمه هرقل.

(٢) وبعث عبد الله بن حذافة السهمي – وكان راسخ الفكر والإيمان متحدثًا بليغًا – إلى كسرى ابرويز بن هرمز، ملك الفرس.

(٣) وبعث عمرو بن أمية الضمري – وكان لبقًا ذكيًا–، إلى النجاشي ملك الحبشة، ثم بعثه النبي-ﷺ -مرة أخرى إلى مُسَيْلِمَةَ الْكَذّابِ مدعي النبوة ، برسالة، وَكَتَبَ إلَيْهِ بِكِتَابٍ آخَرَ مَعَ السّائِبِ بْنِ الْعَوّامِ أَخِي الزّبَيْرِ فَلَمْ يُسْلِمْ .

(٤) وبعث – فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ -عمرو بن العاص – داهية العرب –؛ إلى جَيْفَرٍ وَعَبْدِ اللهّ ابْنَيْ الجُلَنْدَى الْأَزْدِيّيْنِ ، ملكي عمان.

(٥) وبعث سليط بن عمرو إلى هوذة بن علي، الملك على اليمامة، وإلى ثمامة بن أثال، الحنفيين.

(٦) وبعث العلاء بْنَ الْحَضْرَمِيّ إلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيّ مَلِكِ الْبَحْرَيْنِ.

(٧) وبعث شجاع بن وهب الأسدي، من أسد خزيمة، إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني، وابن عمه جبلة بن الأيهم، ملكي البلقاء من عمال دمشق للرومان.

(٨) وبعث الْمُهَاجِرَ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ الْمَخْزُومِيّ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ الْحِمْيَرِيّ أحد زعماء اليمن، وقال: سأنظر .

(٩) وبعث العلامة الفقيه معاذ بن جبل إلى جملة اليمن، داعياً إلى الإسلام، فأسلم جميع ملوكهم، كذى الكلاع وذي ظليم وذي زرود وذي مران وغيرهم.

(١٠)وَبَعَثَ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللهِّ الْبَجَلِيّ، إلَى ذِي الْكَلاعِ الْحِمْيَرِيّ وَذِي عَمْرٍو يَدْعُوهُمَا إلَى الْإِسْلَام فَأَسْلَمَا وَتُوُفّيَ رَسُولُ اللهِّ –ﷺ– وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ.

(١١) وَبَعَثَ عَيّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِيّ برسالة إلَى الْحَارِثِ وَمَسْرُوحٍ وَنُعَيْمٍ بَنِي عَبْدِ كُلَالٍ زعماء من حِمْيَرَ .

(١٢) وَبَعَثَ إلَى فَرْوَةَ بْنِ عَمْرٍو الْجُذَامِيّ يَدْعُوهُ إلَى الْإِسْلَام .وكَانَ فَرْوَةُ عَامِلًا لِقَيْصَرَ بِمَعَانَ فَأَسْلَمَ وَكَتَبَ إلَى النّبِيّ –ﷺ– بِإِسْلَامِهِ وَبَعَثَ إلَيْهِ هَدِيّةً مَعَ مَسْعُودِ بْنِ سَعْدٍ وَهِيَ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ وَفَرَسٌ وَحِمَارٌ وَبَعَثَ أَثْوَابًا وَقَبَاءً مِنْ سُنْدُسٍ مُخَوّصٍ بِالذّهَبِ فَقَبِلَ –ﷺ– هَدِيّتَهُ وَوَهَبَ لِمَسْعُودِ بْنِ سَعْدٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيّةً وَنشًا [انظر هذه البعوث في : ابن هشام ٤/ ٢٥ ،وابن سعد ١ / ٢].

وأسلم سائر هؤلاء الزعماء العالميين حاشا قيصر وكسرى وهوذة والحارث بن أبي شمر.

وهكذا، أحدث الرسول –ﷺ– هذه الحركة العالمية لتوصيل رسالة الإسلام وترسيخ قيمة عالمية هذا الدين في نفوس أبناء الأمة إلى يوم القيامة.. وتواصَلَ مع قيادات ورموز العالم آن ذاك..

أدلة العالمية

لا ينتطح عنزان عالمية الإسلام . قد ثبتت عالميته بالكتاب والسنة وفعل النبي ـﷺ ـ بشكل لا يدع مجالاً للشك. يكفي أن تنظر إلى كتاب الله فترى كم النصوص التي تنوه مرارًا على عالمية الإسلام . و يكفي أن تنظر – نظرة أخرى – إلى الكرة الأرضية، وترى كيف انتشر الإسلام شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، فلا تضع أصبعك على موضع في

مجسم الكرة الأرضية إلا وتجد نسبة تعداد للمسلمين في كل رقعة من الغبراء والخضراء.

✍ **أما عن نصوص القرآن فإليك أدلة العالمية – أو بعضها - :**

✍ **الدليل الأول :** "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً" [الأعراف:١٥٨]

✍ **الدليل الثاني :** "تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً" [الفرقان:١]

✍ **الدليل الثالث :** " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " [سبأ :٢٨]

✍ **الدليل الرابع :** " وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " [آل عمران:٨٥]

✍ **الدليل الخامس :** "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ {٨٧} وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ {٨٨}"[ص]

✍ **الدليل السادس :**"وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " [الأنبياء :١٠٧]

وأما عن أدلة عالمية الإسلام من السنة النبوية فحسبك حديث " أعطيت خمسًا ".

فعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – أن رسول الله –ﷺ – قال :

"أُعْطِيتُ خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأرض مَسْجِدًا وَطَهُورًا- فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاة فَلْيُصَلِّ-، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ – وَلَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلِي – ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً " [البخاري: ٣٢٣]

وقد أشار إنجيل برنابا إشارة صريحة إلى عالمية الإسلام ، فجاء في الفصل الثالث والأربعين:

" الحق أقول لكم إن كل نبي متى جاء فإنه يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسلوا إليه ، ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه ،

وسيأتي بقوة على الظالمين ، ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزي الشيطان لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلاً : انظر فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيماً ، هكذا سيفعل نسلك" [برنابا، الإصحاح ٤٣]

✍ **وفي الفصل السادس والتسعين أجاب يسوع :" لعمرو الله الذي تقف بحضرته نفسي؛ أني لستُ فيها مسيا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض، ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله، فينجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً ، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله ، الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبدد الأصنام وعبدة الأصنام . وسينزع من الشيطان سلطته على البشر وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً "**[برنابا، الإصحاح ٩٦] .

✍ **العالمية .. من أول يوم !**

ولقد كان مبدأ (**عالمية الإسلام**) واضحًا جليًا في أذهان المسلمين الأوائل، أيام مكة، وكانت نصوص العالمية بينة في القرآن المكي، وكان منها قول الحق تبارك وتعالى في سورة الأعراف –المكية – : "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً" [١٥٨] .

ومن ثم شرع رسول الله –ﷺ – في غرس هذا المبدأ في نفوس أتباع الدعوة في كثير من المشاهد. ومن هذه المشاهد التي دلت على أصالة هذه القيمة – حديث خباب بن الأرث عن يوم من أيام الإضهاد في مكة، حيث قال: "شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهَّ –ﷺ – وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ! أَلا تَدْعُو اللهَّ لَنَا ! فقَالَ رسول الله –ﷺ – : " **كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ؛ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهَّ ! لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلا اللهَّ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ** " [البخاري : ٣٣٤٣]

فلا تمام لهذا الدين، إلا بالعالمية، حين يمتد الإسلام شرقًا وغربًا، فيأمن الغريب والمسافر من صنعاء إلى حضرموت .. لا يخاف لصًا ولا قاطعًا، حيث بسط الإسلامُ الأمنَ في ربوع العالم .

✍ **وتأمل قول رسول الله :** **"مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ"** .. إن رسول الله في مكة حينما حدّث بهذا الخبر، وكان من الأولى – في زعم البعض – أن يقول – على سبيل المثل – **"من مكة إلى الطائف"** ! والحق أن رسول الله يتحدث بهذا الحديث وهو لا يفرق بين أرض وأرض، فكل الأرض بساط للإسلام، وأن الإسلام سينشر سلمه وأمنه بين صنعاء وحضرموت، وسينشر سلمة وأمنه بين مكة والطائف، وسينشر سلمه وأمنه بين القاهرة والقدس، وسينشر سلمه وأمنه بين المدينة المنورة وواشنطن .

ولَمَّا مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْهُمْ أَبُو جَهْلٍ فَقَالُوا : يَا أَبَا طَالِبٍ، ابْنُ أَخِيكَ يَشْتِمُ آلِهَتَنَا يَقُولُ وَيَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ ؛ فَأَرْسِلْ إِلَيْهِ، فَانْهَهُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ ... فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ... قَالَ أَبُو طَالِبٍ :**" يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ قَوْمَكَ يَشْكُونَكَ، يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَشْتُمُ آلِهَتَهُمْ وَتَقُولُ وَتَقُولُ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ "** .

✍ **فَقَالَ :** **" يَا عَمِّ إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ !!!"**

✍ **قَالُوا:** وَمَا هِيَ ؟؟ نَعَمْ ! وَأَبِيكَ عَشْرًا !!

✍ **قَالَ :** لاإِلَهَ إِلَّا اللهُ [أحمد : ٣٢٤٤، عن ابن عباس]

إنه يعلّم الأمة؛ أن (**لا إله إلا الله**) منهج حياة، وشرعة قويمة، مَن أخذها بحقها، ساد العالم وقاد الأمم، عربًا وعجمًا، شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، حينها تُحْمُل أموالُ الجزية قناطير مقنطرة، من أطراف الكرة الأرضية إلى بيت مال المسلمين، ثم تخرج هذه الأموال من بيت مال المسلمين تتفرق كأشعة الشمس بين القرى والبلدان في أنحاء الكرة الأرضية، فتشبع جوعة الفقير، وتجبر كسرة المسكين، وتذهب لوعة المحروم، فتمحو الفقر المُدْقع، والذل المُضْرع.

✍ **دروك في العالمية**

ومن العجب، جَلَد الفاجر وعجز الثقة؛ فأنت ترى بعض النصارى ينشرون دينهم المُحرّف في أدغال أفريقيا وفي غابات أسيا، ويزعمون أن (**المسيحية**) دين عالمي، وهو

الدين الذي نص (**الكتاب المقدس**) أن صاحبه (**يسوع**) بُعث لخراف بني إسرائيل وحدهم.

وعلى النقيض، ترى بعض المسلمين، قد ناموا عن تبليغ دعوة الإسلام العالمية إلى الزنجي والهندي، والأبيض والأسود، والغربي والشرقي، وانشغلوا بالحرث والنسل، وتبعوا أذناب البقر، رضوا بالزرع، وشطحوا في التجارة ..

وترى رجل الأعمال الأمريكي (**كريك وينن**) وغيره ينفقون ملايين الدولارات على نشر كتب التنصير والتحريف في ربوع العالم بشتى اللغات الحية، في حين أن أربعين قناة فضائية جنسية – تُبث على القمر الأوربي – مملوكة لرجال أعمال عرب (**مسلمين**) .

ولم أعجب مثل عجبي من صاحب فن أو لعبة رياضية، ترى أحدهم يسعى ويكابت الصعاب لينتقل بفنه من المحلية إلى العالمية، ولينشر موهبته من بلدته إلى الجوزاء في السماء وإلى الحيتان في البحار، ولا يعير اهتمامًا لدينه، بُلَّغ أم لم يُبَلغ، وقد أهمته نفسه، والمهم في نفسه أن الموهبة تبلغ، وتسود، وتُلهي الناس، وتشغل الإعلام العالمي قبل المحلي .

ووا حر قلباه ممن قلبه شبم ! يرون الرياضة عالمية والفن عالميًا، ولا يرون الإسلام أهلاً للتبليغ، أو ظنوا أن مهمة نشر الإسلام إلى العالم ليست مهمتهم، وليست من اختصاصهم!

هؤلاء، هذا حالهم مع الإسلام ! فكيف حالك ؟



١ -أن تنشر قيمة (**عالمية الإسلام**) وترسخها في نفوس إخوانك وأصحابك لاسيما الإعلاميين منهم .

٢ -أن تبشر بالانتصار العالمي للإسلام، وتصدع بأحاديث رسول الله في ذلك، التي منها : " **إِنَّ اللهَّ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا** "[مسلم: ٥١٤٤، عن ثوبان]، وحديث : " **لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ** [أي الإسلام] **مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، ولا يَتْرُكُ اللهُّ بَيْتَ**

مَدَرٍ وَلاوَبَرٍ؛ إلا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ؛ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلامَ، وَذُلا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ" [أحمد: ١٦٣٤٤، عن تميم الداري ، وهو في السلسلة الصحيحة برقم : ٣].

٤- أن تشارك في إعادة بناء الخلافة الإسلامية التي غيّبها أعداء هذا الدين، وأن توقظ مفهوم (**الوحدة الإسلامية العالمية**) في نفوس الناس، وأن تبشر الناس بمقدم الخلافة الراشدة، فقد أخبر الصادق المصدوق بذلك .

فعن حذيفة أن رسول الله - ﷺ - قال :

"تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةٌ علىَ منِهْاَجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ . "ثُمَّ سَكَتَ [أحمد : ١٧٦٨٠، وهو في السلسلة الصحيحة].

فعهد النبوة هو عهد رسول الله - ﷺ -، وعهد الخلافة الراشدة هو عهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم -، وعهد الملك العضوض - وهو عهد توريث الحُكم - فهو عهد مُلك بني أمية والدولة العباسية والدولة العثمانية وغيرها من الدول وأنصاف الممالك.

أما عهد الملك الجبري فهو عهد ما بعد إسقاط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤، حيث توالت أنظمة الظلم والفساد والاستبداد وبلغت في ذلك مبلغًا يندى له جبين التاريخ .. وبقي العهد الأخير الرشيد الرغيد، على منهاج سيد المرسلين، هذا والله أعلم بمقصود هذا الحديث العجيب !



حلف المطيبين وحلف الفضول

أعشى بن قيس

" كأس وغانية .. يفعلان بالأمة المحمدية ما لايفعله ألف مدفع "...!

هكذا قال أعداء هذا الإسلام، وهكذا أوضحوا أسهل الطرق التي يُؤتى منها الشباب المسلم .

وإغراء الشباب بالغانية والكأس لصدهم عن سبيل الله؛ ليست نظرية حديثة، بل قديمة، والدليل هذا الموقف من السيرة :

***

أبو بصير أعشى بن قيس بن ثعلبة، - واسمه ميمون بن قيس- شاعر من شعراء العرب المشهورين، وكان يفد على ملوك فارس ، وخرج إلى رسول الله -ﷺ - يريد الإسلام، وقال يمدح النبي -ﷺ - في قصيدة مطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاك لَيْلَةَ أَرْمَدَا ... وَبِتّ كَمَا بَاتَ السّلِيمُ مُسَهّدَا

وَمَا ذَاكَ مِنْ عِشْقِ النّسَاءِ وَإِنّمَا ... تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ صُحْبَةَ مَهْدَدَا

قال ابن قتيبة في " طبقات الشعراء " : " وكان الأعشى جاهلياً قديماً وأدرك الإسلام في آخر عمره، ورحل إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- في فترة صلح الحديبية، فسأله أبو سفيان بن حرب عن وجهه الذي يريد، فقال: أردت محمداً. قال: **إنه يحرم عليك الخمر والزنى والقمار**. قال: أما الزنى فقد تركني ولم أتركه، وأما الخمر فقد قضيتُ منها وطراً، وأما القمار فلعلي أصيب منه عوضاً. قال: فهل لك إلى خير من هذا؟ قال: وما هو؟ قال: بيننا وبينه **هدنة** فترجع عامك هذا، وتأخذ مائة ناقة حمراء، فإن ظفر بعد ذلك أتيته، وإن ظفرنا كنت قد أصبت من رحلتك عوضاً. فقال: لا أبالي! فأخذه أبو سفيان إلى منزله وجمع عليه أصحابه وقال: يا معشر قريش، هذا أعشى قيس ! ولئن وصل إلى محمد ليضربن عليكم الأرض قاطبة ! فجمعوا له مائة ناقة حمراء، فانصرف فلما صار بناحية اليمامة ألقاه بعيره فقتله. انتهى. [عبد القادر البغدادي : خزانة الأدب ١/ ٦٢، وانظر : ابن هشام ١/ ٣٨٦، ٣٨٧] .

هذه القصة، تبين لك كيف كان أعداء هذا الدين قديمًا وحديثًا يستخدمون سلاح " **الشهوة** " في الحرب على الإسلام وصد الشباب عن الدين. وقد علم أعداء هذا الدين سواء كانوا من الوثنيين أو اليهود أوالمنافقين، أوالنصارى من بعدهم، أن كأسَ خمرٍ، وامرأةً بغيًا، وطاولةَ قمارٍ، تفعل بالشباب الأفاعيل، وتدع الحليم حيران .

وهكذا - في عصرنا – لا زالت هذه الأسلحة الغريزية ـ الكأس والغانية والطاولة ـ، في حرب ناعمة، بالمخدرات وبالجنس وبالقمار، حربٌ تدور رحاها؛ تستهدف العقل المسلم، تستهدف العفة والفضيلة، تستهدف الشاب المسلم والفتاة المسلمة.

***

✍ السلاح الأول : كأس

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[المائدة:٩٠]

فالخمر أم الخبائث، وقد قدمها الله في التحريم على الأنصاب – التي هي من الكفر- والأزلام – التي هي من الشرك -! ومن الخمر يتفرع كل مخدر ومسكر ومفتر، من السيجارة مرورًا بالقات والحشيش وحتى الهروين.. وكلها وسائل لقتل النفس!

وكم من شاب ضل بعد هدى؛ بعد جرعة خمر، أو لَقمة سيجار، أو شمة هروين! إن أم الخبائث أبت على شاربها ألا أن يقع في كل الفواحش والكبائر، فكان فيما مضى أن امرأة حبست شابًا وخيرته بين الزنى بها، أو أن يرتشف معها خمرًا، أو أن يقتل غلامًا بعينه ، فأبى، فشددت حبسه، فانصاع لها، فشرب الخمر ظنًا منه أنه ارتكب أقل المحظورات، فلما شرب سكر، فلما ثمل زنى بها وقتل الغلام !

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾[النور:٢١]

✍ السلاح الثاني : غانية

فالصور التي تعرض الأجسام المكشوفة، والأفلام التي تزين الفاحشة، والأغاني التي تروج للرذيلة؛ كلها وسائل لصد الشباب عن الإسلام، والدفع به في طريق العهر والخنا، والدعر والزنى .

وترى اليهود يرسلون الغانيات – الحاملات لفيرس نقص المناعة – إلى بلاد المسلمين، وذلك ليمارسن الجنس مع أكبر قدر من الشباب، وينقلن للأمة الأمراض الفتاكة، والمصائب الهدامة، وقد تحدثت الصحف عن هذا المخطط الصهيوني كثيرًا، ولقد القت السلطات المصرية القبض على العديد من الفتيات الإسرائيليات الحاملات لفيرس نقص المناعة في صحبة شبان مسلمين في شرم الشيخ والغردقة وأسوان.

وإلى جانب اليهود؛ ههنا أشباه اليهود، من المنافقين، والعلمانيين، ممن تملكوا زمام الإعلام، فهم يقومون بالحرب على الفضيلة نيابة عن الصهانية، فعاثوا في العقول الفساد، ونشروا الفجور والعري، وزينوا الرقص والعشق، وأفردوا المساحات الطويلة لتلميع الساقطات، وتخليد الفاسقات، وتشجيع الداعرات، والاسم فنانات !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النور:١٩].

أما ضحايا هذا السلاح الرعيب، فهم شباب الجنس، وحيوانات بشرية في صورة مخانيث، جسمًا موهونًا مترضضا، التاث بلوثة الميوعة، والتَجَّ في وحلة الخنوثة. يقطع سَرَاةَ نهاره في الخلاعة، وساعات ليله في الرقص والطبل والزمر، مع فلانة وعلانة، والجري وراء الفنانة والداعرة، والربيطة والعاهرة، والتسكع في الطرقات بالسيارات، وبالتكاتك مع الساقطات، في صحبة النوكى والحمقى، وأهل المجون والفجور.

✍ السلاح الثالث: القمار

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩١]

والقمار هو كل لعب بين متسابقين على مال يُجمع منهم، ويوزع على الفائز، ويُحرم منه الخاسر، ومن أنواع القمار : الورق، والنرد، والياناصيب، والمراهنة، وقد أثبت العلم الحديث أن مدمن القمار يتشابه في النشاط الذهني مع مدمن المخدرات، وأن إدمان القمار يؤدي إلى أمراض نفسية وخيمة، ولقد سمعنا كثيرًا عن حوادث انتحار الخاسرين الذين تجردوا من كل ما يملكون على موائد القمار، واقرأ ـ إن شئت ـ رواية المقامر للأديب الروسي " **فيودور دوستويفسكي** " لتتعرف على نفسية المقامر المُعقدة الغريبة المهزومة.

هذا، فضلاً عن كون القمار وسيلة من وسائل هدم الاقتصاد، ونشر البطالة، وانتشار العداوة.

ولفساد الميسر وخطره على الاقتصاد، فقد حرمه بعض زعماء العرب في الجاهلية، ومنهم الأقرع بن حابس التميمي؛ فقد حاربه، ومنعَ ممارسته، ثم جاء الإسلام بتقريره [انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ١/ ١٧٨].

ويقول النبي -ﷺ- في أشهر ألعاب القمار :" **من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله**" [ابن ماجة (٣٧٦٢) عن أبي موسى، وحسنه الألباني]. وقال أيضًا : " **مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ؛ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ**"[مسلم:٤١٩٤]

ويقول -ﷺ- : " **ثمن الخمر حرام، و مهر البغي حرام، و ثمن الكلب حرام، والكوبة حرام**[1]**، وإن أتاك صاحب الكلب يلتمس ثمنه ، فاملأ يديه ترابًا ، و الخمر و الميسر، وكل مسكر حرام**" [الطبراني (الكبير) : ١٢٦٠١، وهو في السلسلة الصحيحة :١٨٠٦].

وما اجتمعت صحبةٌ صالحة على نرد، وما لـمَّ القمارُ شمل الأقران، وما دخل الصفاء على خلة الطاولة ..

إن أهل طاولة القمار؛ هم جماعة ساقطة، وصحبة فاسدة، وصداقة زائفة، تجمع خِساس الناس، وسفهاء المجتمع ، يتناقضون بناء الود، ويتعاطون الحسد، ويتراقبون الدُّول، يحقدون على الفائز، ويلمزون الخاسر، يتعايبون، ولأنفسهم يغتابون، ولا يحبون لبعضهم خير، مولوعون بالمسابقة في الشر . في الرخاء تعرفهم بالتحاسد، وفي الضراء تعرفهم بالتخاذل.

✍ **خطر التسويف !**

وفي هذه القصة أيضًا، درسٌ بليغ في خطر التسويف، فهذا الشاعر العجوز قطع السهول والحزون قاصدًا رسول الله -ﷺ-، لكن ... حال التسويف بينه وبين غايته، وقد أُلقيت عليه حبالةُ الخمر فأبى، وقال : أما الخمر فقد قضيت منها وطرًا، ثم أُلقيتْ عليه حِبالة الجنس فأبى، وقال: أما الزنى فقد تركني ولم أتركه، ثم ألقيتْ عليه حبالة القمار فتردد ! وقال : أما القمار فلعلي أصيب منه عوضاً.

---

(١) وهي النرد في رأي ابن الأثير .

فلما تلجلج قصده، واضطرب أمره؛ أراد أبو سفيان أن يلقي عليه الحبالة الأخيرة، ليستحكم له الصيد، فقال :ترجع عامك هذا، وتأخذ مائة ناقة حمراء !؟

فسال لعابُ الشاعر !

فأعطاه أبو سفيان جرعة التسويف، فقال : فإن ظفر [أي محمد] بعد ذلك أتيته، وإن ظفرنا كنت قد أصبت من رحلتك عوضاً.

فانهزم الشاعر الكبير، فأخذه أبو سفيان كما يأخذ أحدنا القط الوديع لمحبسه، ثم جمع أبو سفيان أصحابه، وحذرهم من مغبة انضمام شاعر فحل كالأعشي إلى الجماعة المسلمة، فقال أبو سفيان : **"ولئن وصل إلى محمد ليضربن عليكم الأرض قاطبة."** .

فالجيش الذي ينضم إليه شاعرٌ، فكأنما ضُم إلى الجيش كتيبة خشناء أو وزراة إعلام، فالشاعر في العرب كان بمثابة الصحيفة من الصحف، أو المذياع أو التلفاز أو غير ذلك من وسائل الإعلام .. ولقد كان رسول الله -ﷺ- يغتبط اغتباطًا عظيمًا بإسلام الشعراء، وكان يهش لهم ويبش، فيحمس المسلمين منهم، ويتلطف إلى المشركين منهم، أملاً في إسلامهم.

ولقد جمع المشركون المال للشاعر، فقبض المال على أن يعود في عام قابل، فيقدم إلى محمد، ـ ﷺ ـ فلما انصرف وصار بناحية اليمامة ألقاه بعيره فقتله ! فياحسرتاه على سوء الخاتمة ! ويا ويل تلك النفس التي عاشت على حرف السين : سأفعل .. سأصلي .. سأتوب .. سأجاهد ..س، س، س .. ولكن لا تفعل حتى تَهلك .

مات، وخسر الدنيا والآخرة، فلم ينتفع بنوقه الحمر، ولم يظفر بدين الحق، إذنْ فهو الخاسر الذي أهلكه التسويف، والخائب الذي أهلكته حبالات الصائد ـ الواحدة تلو الآخرى ـ، وقد أصابت هذا الشاعر حبالة المال .. ومن الشباب من يسقط في حبالة الخمر والمخدرات، ومنهم من ترى ثغرته في النساء والبنات، ومنهم من تجد نقطة ضعفه في القمار والسهرات، ومنهم من يُؤتى من قبل المال والعقارات، ومنهم من يُؤتى من جميع هذه الأبواب، فنسأل الله أن يحفظنا من شرها جميعها،جميعًا .

***

التسويف مواعيد الشيطان، والتسويفات عُلالات نفوس المنهزمين، وأحلام المحرومين، وخيالات النائمين .. أدبْ نفسك – أخي – بسرعة المبادرة في الخيرات، وأحكمها بالمسارعة في كسب الحسنات، ولا تغرنك السلامة المنْطوية على الهلَكة، واقطع عنك التسويف قبل أن يقطعك !

ومن أسرع بقول، حقيقٌ أن يسرع بفعل، وقبيح أن يسوف، وقد ذم الله الذين يقولون ما لا يفعلون، والتسويف في الخير اغترار، فالدنيا ساعة، لا تحتمل التسويف، ولا تقبل التأجيل، وإنجاز الخير سعادة، وفواته تعاسة، فإذا تخالجتك الأمور، فاشتغل بأعظمها خطرًا، وأعظمها قدرًا، فإنما فقه الأولويات في العبادة عبادة، ومن أراد أن ينغص حياته فليسوّفْ كل خير، ومن أراد أن يعيش في حَبرة وسعادة فليظفرْ بكل وسيلة من وسائل الخير، من صلة وبر وعبادة، وجهاد وبذل وطاعة.

ثم، لا تؤاخين مسوفًا، وإلا لك النَّغيص في الدنيا، والخسران في الآخرة، فشأن أقران السوء تسويف الخير وإسعاف الهوى، والتسويف كالمرض المعدي، والداء العَيَاء، يتنقل بين الأقران كما يتنقل الزكام من المزكوم إلى الصحيح، لا انْفغام له إلا بنفحات الاستغفار والتوبة، والهرب من المسوف أحق منك بالهرب من سم الأساود!

***

✍ **قال الشاعر - في التسويف- :**

كم يكون الشتاء ثم المصيف ... وربيع يمضي ويأتي خريف

وانتقال من الحرور إلى الظل .. وسيف الردى عليك منيف

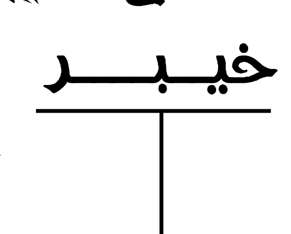
يا قليل البقاء في هذه الدار ... إلى كم يغرك التسويف



١ـ شارك في حملة دعوية ضد الخمور والمخدرات والقمار

٢ـ ارسل عدة رسائل عبر الجوال تحث على أخلاق الفضيلة وغض البصر والعفة

٣ ـ اقرأ فصلاً عن " **خطر التسويف** " في كتاب من كتب الرقائق والتربية.



فتح خيبر

✍ **المحرم ٧ هـ - مايو / يونيو ٦٢٨ م**

عندما ضُربت معاقلُ اليهـود في المدينـة؛ باتـت خيبرُ[1] معقلَ الدس والمؤمرات اليهودية، وحسبك أن منها خرجت حركة الأحزاب، حيث خرج اليهود منهـا يدورن على القبائـل لجمـع الجيـوش لغـزو المدينـة في العـام الخامس .

فانتهز رسول الله ـ ﷺ ـ فرصة تفرغِه من مشركي قـريش في القضاء النهائي على الوجود اليهودي .

فقد أثبتت التجارب أن اليهودَ لا ينعم لهم جارٌ، ولا يهنأ لهم حليف.

وفي أواخر المحرم من العام السابع للهجـرة؛ خـرج إلـيهم النبـي ـ ﷺ ـ في ألـف وستمائة مقاتل.

✍ **شعار هذه الغزوة:**

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَكَانَ شَعَارُ أَصْحَابِ الرّسُولِ – ﷺ – يَوْمَ خَيْبَرَ : يَا مَنْصُورُ ، أَمِتْ أَمِتْ[2]

✍ **الشّعر الجهادي :**

وفي الطريق، والجيشُ الإسلامي زاحف نحو اليهود، وفي بعض الليل قـال رجـلٌ لعامر بن الأكوع :

يَا عَامِرُ أَلا تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ ؟

✍ **وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلاً شَاعِرًا، فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ، يَقُولُ :**

اللَّهُمَّ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أَبْقَيْنَا .. وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا .. إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَبَيْنَا

وبَالِصيِّاح عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ – ﷺ –**"مَنْ هَذَا السَّائِقُ ؟ ".**

---

(١) تقع مدينة خيبر على بعد ١٧٠ كم شمال المدينة المنورة .

(٢) ابن هشام (٢ / ٣٣٢) .

✍ **قَالُوا:** عَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ.

✍ **قَالَ:** " يَرْحَمُهُ اللهُ" ..

✍ **قَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ** : وَجَبَتْ يَا نَبِيَّ اللهِ! لَوْلَا أَمْتَعْتَنَا بِه [1]!

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ لا يترحم على إنسانٍ إلا مات شهيدًا ببركة دعاء النبي ـ ﷺ ـ .

وفيه دلالة على استحباب إنشاد الأشعار الجهادية التي تحمس الجنود، وتلهب المشاعر، وتقوي القلوب. وقد قال النبي ـ ﷺ ـ : " **إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**"[2].

✍ **الذِّكر:**

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ :

لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ خَيْبَرَ، أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وَادٍ فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ : اللهُ أَكْبَرُ ! اللهُ أَكْبَرُ ! لا إِلَهَ إِلا اللهُ !

✍ **فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ :**

"ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ " .

قال أبو موسى : وَأَنَا خَلْفَ دَابَّةِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ فَسَمِعَنِي وَأَنَا أَقُولُ : لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ

✍ **فَقَالَ لِي : "يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ "**

✍ **قُلْتُ :** لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ

✍ **قَالَ :" أَلا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ ؟"**

✍ **قُلْتُ :** بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي !

✍ **قَالَ : " لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ"**[3]

✍ **الدعاء قبل الهجوم !**

وَلَمَّا دَنَا النَّبِيّ – ﷺ – من خيبر، وَأَشْرَفَ عَلَيْهَا قَالَ :

" قِفُوا" !!

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥) .

(٢) البخاري : ٤٧٤٩ .

(٣٣) البخاي : ٣٨٨٣ .

فَوَقَفَ الْجَيْشُ، وساد الصمت، ماذا سيفعل قائدُ المسلمين ؟

توجه إلى القبلة، ونادى رب العالمين، الذي بيده النصر:

قال - ﷺ - :

" **اللّهُمّ رَبّ السّمَاوَاتِ السّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ .. وَرَبّ الأَرَضِينَ السّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ .. وَرَبّ الشّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ .. فَإِنّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا ، وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَشَرّ أَهْلِهَا وَشَرّ مَا فِيهَا .. أَقْدِمُوا بِسْمِ اللّهِ**"(١) .

صفة الإغارة على العدو :

عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

أَنَّ رَسُولَ اللهَّ - ﷺ - أَتَى خَيْبَرَ ليلاً وَكَانَ، إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتْ الْيَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ، وَمَكَاتِلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا : **مُحَمَّدٌ** وَاللهَّ ! **مُحَمَّدٌ** وَالْخَمِيسُ(٢) !

فَرَجَعُوا هَارِبِينَ إِلَى حُصُونِهِمْ(٣)، وهذا من جبنهم المعروف، وقد قال الله فيهم : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة:٩٦]

وفي هروبهم إلى حصونهم، دلالة على كونهم لا أرب لهم في القتال المباشر، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ [الحشر:١٤]

هنالك قَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - :

" [**اللهُّ أَكْبَرُ**](٤) **خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**"(٥)

إذ أن هروب العدو هو بداية النصر.

أهم حصون خيبر :

أولاً حصون منطقة النطاة والشق - منطقة الشمال الشرقي من خيبر:

١ - حصن ناعم [أشد الحصون، وقد استغرق فتحه عشرة أيام، وفيه قُتل محمود بن مسلمة - رضي الله عنه -، وكان حامل الراية عند فتحه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه] .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٨٣ ، وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة، ٣٤٠ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر(٣٨٧٦) .

(٣) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٨٣ .

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٧) .

(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٦) .

٢ ـ حصن الصَّعْب بن معاذ : [وكان حامل راية الجيش الإسلامي فيه، الحباب بن المنذر ـ رضي الله عنه ، وقد فتحه المسلمون بعد ثلاثة أيام، وغنم المسلمون طعامًا وكانوا في مخمصة] .

٣ ـ حصن قلعة الزبير [وفيه قطع المسلمون الماء عن اليهود، وفتح بعد ثلاثة أيام]

٤ ـ حصن أُبي [وقد فُتح من يومه].

٥ ـ حصن النِّزَار [وقد فُتح من يومه].

✍ **ثانيًا : حصون منطقة الكتيبة :**

١ ـ حصن القَمُوص [وهو حصن بني أبي الحقيق، وَأَصَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُمْ سَبَايَا ، مِنْهُنّ صَفِيّةُ بِنْتُ حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ ، وَكَانَتْ عِنْدَ كِنَانَةَ بْنِ الرّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ ، وَبِنْتَيْ عَمّ لَهَا[1]] .

٢ ـ حصن الوَطِيح .

٣ ـ حصن السُّلالم .

✍ **تسابق الصحابة:**

✍ **عَنْ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:**

كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْه- تَخَلَّفَ عَنْ النَّبِيِّ -ﷺ- فِي خَيْبَرَ وَكَانَ رَمِدًا ، فَقَالَ: أَنَا أَتَخَلَّفُ عَنْ النَّبِيِّ -ﷺ-!!

فَلَحِقَ بِهِ، فَلَمَّا بِتْنَا اللَّيْلَةَ الَّتِي فُتِحَتْ..

✍ **قَالَ: " لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ[2] يُفْتَحُ عَلَيْهِ "[3]** .

فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رسولِ اللهِ -ﷺ- كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا.

✍ **فَقَالَ: " أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ"** .

✍ **فَقِيلَ** : هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ !

---

(١) انظر : ابن هشام (٢ / ٣٣٠) .

(٢) صحيح البخاري – كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٨)، عن سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٣) صحيح البخاري – كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٧) .

✍ **قَالَ** : "فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ"

فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ.

✍ **فَقَالَ عَلِيٌّ** :يَا رَسُولَ اللهَّ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا.

✍ **فَقَالَ : "انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهَّ فِيهِ، فَوَاللهَّ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُّ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"**(١) .

فَخَرَجَ مَرْحَبٌ وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي مَرْحَبُ

شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فَبَرَزَ إِلَيْهِ عَلِيّ وَهُوَ يَقُولُ أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ

كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

فَضَرَبَ مَرْحَبًا فَفَلَقَ هَامَتَهُ وَكَانَ الْفَتْحُ . وَلَمَّا دَنَا عَلِيّ - رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ - مِنْ حُصُونِهِمْ اطَّلَعَ يَهُودِيّ مِنْ رَأْسِ الْحِصْنِ ، فَقَالَ مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : أَنَا عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .

فَقَالَ الْيَهُودِيّ : عَلَوْتُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى .

✍ **مخمصة :**

جاءت جماعة من المسلمين، تشتكي قلة الطعام، فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَ رَسُولِ اللهَّ -ﷺ- شَيْئًا يُعْطِيهِمْ إِيّاهُ، فَقَالَ :

" اللّهُمّ إنّك قَدْ عَرَفْت حَالَهُمْ، وَأَنْ لَيْسَتْ بِهِمْ قُوّةٌ، وَأَنْ لَيْسَ بِيَدِي شَيْءٌ أُعْطِيهِمْ إيّاهُ، فَافْتَحْ عَلَيْهِمْ أَعْظَمَ حُصُونِهَا عَنْهُمْ غَنَاءً، وَأَكْثَرَهَا طَعَامًا وَوَدَكًا"

فَغَدَا النّاسُ فَفَتَحَ اللهُّ - عَزّ وَجَلّ - حِصْنَ الصّعْبِ بْنِ مُعَاذٍ ، وَمَا بِخَيْبَرِ حِصْنٌ كَانَ أَكْثَرَ طَعَامًا وَوَدَكًا مِنْهُ(٢) .

---

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٨) .

(٢) ابن هشام (٢ / ٣٣٢) .

✍ **تحريم الحمر الأهلية :**

✍ **قال سَلَمَة بْن الْأكْوَع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :**

فَأَتَيْنَا خَيْبَرَ فَحَاصَرْنَاهُمْ حَتَّى أَصَابَتْنَا مَخْمَصَةٌ شَدِيدَةٌ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَتَحَهَا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا أَمْسَى النَّاسُ مَسَاءَ الْيَوْمِ الَّذِي فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ أَوْقَدُوا نِيرَانًا كَثِيرَةً ، فَقَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –:

"مَا هَذِهِ النِّيرَانُ ؟ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُوقِدُونَ ؟ ".

✍ **قَالُوا** : عَلَى لَحْمٍ .

✍ **قَالَ :** " عَلَى أَيِّ لَحْمٍ ؟ " .

✍ **قَالُوا:** لَحْمِ حُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ .

✍ **قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –: " أَهْرِيقُوهَا وَاكْسِرُوهَا"** .

✍ **فَقَالَ رَجُلٌ:** يَا رَسُولَ اللهِ أَوْ نُهَرِيقُهَا وَنَغْسِلُهَا.

✍ **قَالَ :** "أَوْ ذَاكَ"

✍ **ونادى المنادي** :

"إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ"[1]..

✍ **الذب عن أعراض الشهداء:**

✍ **قال سَلَمَة بْن الْأكْوَع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :**

فَلَمَّا تَصَافَّ الْقَوْمُ كَانَ سَيْفُ عَامِرٍ قَصِيرًا فَتَنَاوَلَ بِهِ سَاقَ يَهُودِيٍّ لِيَضْرِبَهُ وَيَرْجِعُ ذُبَابُ سَيْفِهِ فَأَصَابَ عَيْنَ رُكْبَةِ عَامِرٍ ، فَمَاتَ مِنْهُ .

✍ **قَالَ :** فَلَمَّا قَفَلُوا . قَالَ : سَلَمَةُ رَآنِي رَسُولُ اللهَّ –ﷺ– وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي. قَالَ : **"مَا لَكَ ؟"** .

✍ **قُلْتُ لَهُ : " فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي زَعَمُوا أَنَّ عَامِرًا حَبِطَ عَمَلُهُ "**

✍ **قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ –: " كَذَبَ مَنْ قَالَهُ، إِنَّ لَهُ لَأَجْرَيْنِ "** ، وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، **" إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ"**[2].

---

(١) انظر : البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥) .

(٢) صحيح البخاري – كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥) .

إن الدرس الأخلاقي البارز في هذا المشهد يكمن في مسئولية القيادة الإسلامية في الدفاع عن أعراض الشهداء ودحض الشبهات التي أثارها المتشككون حولهم .. ليبقى الشهيد هوالأنموذج الأعظم والمثال الأكبر في التضحية والبذل والفداء .

✍ **التحذير من الانتحار:**

✍ **عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :**

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ -الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ - إِلَى عَسْكَرِهِ وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً، إِلا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ..

✍ **فَقِيلَ :** مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ .

✍ **فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ** -ﷺ - :

"أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ " !

✍ **فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ :** أَنَا صَاحِبُهُ.

✍ **قَالَ :** فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ.

✍ **قَالَ :** فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ سَيْفَهُ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: **" أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ"**. قَالَ:**" وَمَا ذَاكَ ؟"** .

✍ **قَالَ:** الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا، أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ.

✍ **فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - عِنْدَ ذَلِكَ - :**

"إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[1].

وقال : **"قُمْ يَا فُلَانُ فَأَذِّنْ أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا مُؤْمِنٌ، إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ"**[2] .

---

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨١)، (٣٨٨٥) .

(٢) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٢) .

إن إقدام بعض الجنود على الانتحار في ساح القتال بسبب الجراحات أو نحو ذلك يسبب انتكاسة نفسية وانهزام وجداني للجيش ، ولما في ذلك من تعدي على بنيان الله الذي أودعه أمانة في عنق الإنسان المكلف .. لذا حرمة الشارع الحكيم الانتحار عامة وشدد على تحريمه في مواطن القتال لما في ذلك من أثر سلبي على النفوس .. اللهم إلا العمليات الاستشهادية التي تحدث نكاية في العدو وقد أجازها جمهور العلماء في القديم والحديث .

أعمال بطولية :

١ـ علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة :

خَرَجَ مَرْحَبٌ الْيَهُودِيّ مِنْ حِصْنِ خَيْبَرَ قَدْ جَمَعَ سِلاحَهُ وَهُوَ يَرْتَجِزُ، وَيَقُولُ : مَنْ يُبَارِزُ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ -ﷺ - : **"مَنْ لِهَذَا ؟ "**

فَقَالَ مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ : أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللهّ، أَنَا وَاَللهّ الْمَوْتُورُ الثّائِرُ قَتَلُوا أَخِي بِالأَمْسِ (**يَعْنِي مَحْمُودَ بْنَ مَسْلَمَةَ**) :

قَالَ :" قُمْ إلَيْهِ، اللّهُمّ أَعِنْهُ عَلَيْهِ ".

فَلَمّا دَنَا أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ، دَخَلَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ، فَجَعَلَ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَلُوذُ بِهَا مِنْ صَاحِبِهِ، كُلّمَا لاذَ بِهَا مِنْهُ اقْتَطَعَ صَاحِبُهُ بِسَيْفِهِ مَا دُونَهُ مِنْهَا حَتّى بَرَزَ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ وَصَارَتْ بَيْنَهُمَا كَالرّجُلِ الْقَائِمِ، مَا فِيهَا فَنَنٌ[1].

ثم حَمَلَ مرحب عَلَى مُحَمّدٍ فَضَرَبَهُ فَاتّقَاهُ بِالدّرَقَةِ [2] فَوَقَعَ سَيْفُهُ فِيهَا فَعَضّتْ بَهْ فَأَمْسَكَتْهُ ، وَضَرَبَهُ مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَتَلَهُ .

قَالَ الْوَاقِدِيّ : وَقِيلَ إنّ مُحَمّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ضَرَبَ سَاقَيْ مَرْحَبٍ فَقَطَعَهُمَا، فَقَالَ مَرْحَبٌ : أَجْهِزْ عَلَيّ يَا مُحَمّدُ فَقَالَ مُحَمّدٌ : ذُقْ الْمَوْتَ كَمَا ذَاقَهُ أَخِي مَحْمُودٌ، وَجَاوَزَهُ وَمَرّ بِهِ ـ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فَضَرَبَ عُنُقَهُ، وَأَخَذَ سَلَبَهُ فَاخْتَصَمَا إلَى رَسُولِ اللهّ ـﷺ ـ فِي سَلَبِهِ، فَقَالَ:مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ : يَا رَسُولَ اللهّ مَا قَطَعْتُ رِجْلَيْهِ ثُمّ تَرَكْتُهُ إلا لِيَذُوقَ الْمَوْتَ، وَكُنْت قَادِرًا أَنْ أُجْهِزَ عَلَيْهِ .

---

(١) أي غصن

(٢) ما يشبه الآن : " **الزمزمية** " للشرب

فَقَالَ عَلِيّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: صَدَقَ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ رِجْلَيْهِ.

فَأَعْطَى رَسُولُ اللهِ- ﷺ -مُحَمّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ سَيْفَهُ وَرُمْحَهُ وَمِغْفَرَهُ وَبَيْضَتَهُ وَكَانَ عِنْدَ آلِ مُحَمّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ سَيْفُهُ فِيهِ كِتَابٌ لَا يُدْرَى مَا فِيهِ حَتّى قَرَأَهُ يَهُودِيّ فَإِذَا فِيهِ

هَذَا سَيْفُ مَرْحَبْ

مَنْ يَذُقْهُ يَعْطَبْ [1] !

٢ـ أبو الْيُسْرِ كَعْبَ بْنَ عَمْرٍو

في ليلة من ليالي المعركة، إذْ أَقْبَلَتْ غَنَمٌ لِرَجُلٍ مِنْ يَهُودَ تُرِيدُ حِصْنَهُمْ، والمسلمون يحاصرونهم، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- :

"مَنْ رَجُلٌ يُطْعِمُنَا مِنْ هَذِهِ الْغَنَمِ ؟ "

✍ **قَالَ أَبُو الْيُسْرِ**: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ !

✍ **قَالَ :" فَافْعَلْ "**

✍ **قَالَ** : فَخَرَجْت أَشْتَدّ مِثْلَ الظّلِيمِ [2] فَلَمّا نَظَرَ إلَيّ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- مُوَلّيًا قَالَ :

" اللّهُمّ أَمْتِعْنَا بِهِ "

✍ **قَالَ** : فَأَدْرَكْتُ الْغَنَمَ وَقَدْ دَخَلَتْ أُولاهَا الْحِصْنَ فَأَخَذْت شَاتَيْنِ مِنْ أُخْرَاهَا ، فَاحْتَضَنْتهمَا تَحْتَ يَدَيّ ثُمّ أَقْبَلْت بِهِمَا أَشْتَدّ، كَأَنّهُ لَيْسَ مَعِي شَيْءٌ حَتّى أَلْقَيْتهمَا عند رسول الله -ﷺ- فَذَبَحُوهُمَا فَأَكَلُوهُمَا .

فكَانَ أَبُو الْيُسْرِ مِنْ آخِرِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- موتاً فكَانَ إذَا حَدّثَ هَذَا الْحَدِيثَ بكَى ، ثُمّ قَالَ أُمْتِعُوا بِي ، لَعَمْرِي، حَتّى كُنْت مِنْ آخِرِهِمْ هُلْكًا [3] .

✍ **صَفِيّة أم المُؤْمِنِين**

لَمّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- الْقَمُوصَ ، حِصْنُ بَنِي أَبِي الْحُقَيْقِ أُتِيَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- بِصَفِيّةَ بِنْتِ حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ ، وَبِأُخْرَى مَعَهَا ، فَمَرّ بِهِمَا بِلَالٌ وَهُوَ الّذِي جَاءَ بِهِمَا عَلَى قَتْلَى مِنْ قَتْلَى يَهُودَ فَلَمّا رَأَتْهُمْ الّتِي مَعَ صَفِيّةَ صَاحَتْ .وَصَكّتْ وَجْهَهَا وَحَثّتْ التّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا ؛ فَلَمّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- قَالَ:

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٨٣، ويعطب يعني يهلك .

(٢) ذكر النعام، لسرعته .

(٣) ابن هشام - (٢ / ٣٣٥) .

" أَعْزِبُوا عَنِّي هَذِهِ الشَّيْطَانَةَ "

وَأَمَرَ بِصَفِيَّةَ فَحِيزَتْ خَلْفَهُ . وَأَلْقَى عَلَيْهَا رِدَاءَهُ، فَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - قَدْ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - لِبِلالٍ :

" أَنُزِعَتْ مِنْك الرَّحْمَةُ يَا بِلالُ ، حِينَ تَمُرُّ بِامْرَأَتَيْنِ عَلَى قَتْلَى رِجَالِهِمَا ؟ "(١)

وَكَانَتْ صَفِيَّةُ قَدْ رَأَتْ فِي الْمَنَامِ وَهِيَ عَرُوسٌ بِكِنَانَةِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ أَنَّ قَمَرًا وَقَع حِجْرُهَا . فَعَرَضَتْ رُؤْيَاهَا عَلَى زَوْجِهَا ؟ فَقَالَ : مَا هَذَا إلا أَنّك تَمَنّيْنَ مُلْكَ الْحِجَازِ مُحَمّدًا ، فَلَطَمَ وَجْهَهَا لَطْمَةً خَضّرَ عَيْنَهَا مِنْهَا . فَأُتِيَ بِهَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ - وَبِهَا أَثَرٌ مِنْهُ فَسَأَلَهَا، مَا هُوَ ؟ فَأَخْبَرَتْهُ هَذَا الْخَبَرَ(٢) .

التعفف :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ :

كُنَّا مُحَاصِرِي خَيْبَرَ فَرَمَى إِنْسَانٌ بِجِرَابٍ فِيهِ شَحْمٌ، فَنَزَوْتُ لِآخُذَهُ فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا النَّبِيُّ - ﷺ - فَاسْتَحْيَيْتُ(٣) .

فإذا كانت من سمات جند الله الصبر على المخمصة حال الحروب، حيث قلة الزاد، فإن عليهم أيضًا أن يتخلقوا بأخلاق العفة والقناعة، والتعفف عما سقط من غنيمة حتى تضع الحرب أوزارها .. إنه خطر محدق ومصيبة محققة أن ينشغل الجند بسفاسف الأمور وسقط الغنائم أثناء طاحونة الحرب ..

صلح ورحمة

لما استسلم اليهود، صالحهم النبي ، وأعطاهم الأرض ، يَعْمَلُوا فيها وَيَزْرَعُوهَا، وَلَهُمْ شَطْرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا(٤) .

وفي هذه المصالحة - بهذا الشكل - رحمة وعفو كبيرين بأهل خيبر ..

فهم في الحقيقة يستحقون الإعدام، فهم قد خانوا النبي ﷺ وغدروا وتحالفوا مع مشركي قريش سرًا، وأصبحت قيادات خيبر والفصائل اليهودية الأخرى عملاء

---

(١) ابن هشام (٢ / ٣٣٦) .

(٢) ابن هشام (٢ / ٣٣٦) .

(٣) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٩٢) .

(٤) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩١٧) .

وجواسيس لمشركي مكة وغطفان ..كل هذا إلى جانب أنهم السبب الرئيسي في تحزيب جيوش الأحزب، من كل حدب وصوب..

ولما أقدمت امرأة منهم على محاولة اغتيال النبي -ﷺ- حيث أهدت لِرَسُولِ اللهَّ -ﷺ -شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ[1].. وتُوفي اثر هذه المحاولة الفاشلة أحد الصحابة .. لم ينقلب رسول الله -ﷺ- على أهل خيبر ولم يعمل فيهم القتل - كما يفعل بعض الزعماء في مثل هذه المواقف - إنما أثبت الصلح وأقر العهد .

قدوم جعفر وأصحابه :

وفي ثنايا هذا الفتح قدم جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ومهاجرة الحبشة، فقسم لهم النبي ـﷺ ـ من غنائم خيبر .

و" **لما قدم جعفر من الحبشة عانقه النبي ـﷺ ـ**"[2] .

وقد قال النبي ـﷺ ـ يومها :

" **والله ما ادري بأيهما افرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر** " [3]

"**وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ـﷺ ـ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري يطلب توجيههم إليه، فأرسلهم النجاشي على مركبين، وكانوا ستة عشر رجلاً، معهم من بقي من نسائهم وأولادهم، وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك**"[4] .

وقد سأل النبي ـﷺ ـ جعفرًا عن أعجب شيء رآه في الحبشة،

فقَالَ جعفر : رَأَيْتُ امْرَأَةً عَلَى رَأْسِهَا مِكْتَلٌ فِيهِ طَعَامٌ، فَمَرَّ فَارِسٌ يَرْكُضُ فَأَذْرَاهُ فَقَعَدَتْ فَجَمَعَتْ طَعَامَهَا ، ثُمَّ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : وَيْلٌ لَكَ يَوْمَ يَضَعُ الْمَلِكُ كُرْسِيَّهُ فَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ـﷺ ـ تَصْدِيقًا لِقَوْلِهَا : "لاَ قُدِّسَتْ أُمَّةٌ ـ أَوْ كَيْفَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ ـ لاَ يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا حقه مِنْ شَدِيدِهَا غَيْرَ مُتَعْتَعٍ[5]."[6].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩١٨) .

(٢) أخرجه أبو يعلى في " مسنده " (٣/ ٣٩٨/ ١٨٧٦) ، وهو في السلسلة الصحيحة ٦ / ٣٣٢ .

(٣) أخرجه البيهقي في " السنن" (٧/ ١٠١) ، حسنه الألباني في تحقيق فقه السيرة، ٣٤٧ .

(٤) الرحيق المختوم ٢٩٢ .

(٥) أي من غير أن يُصيبه أَذًى يُقْلِقُه .

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط : ٥٢٣٤، وصححه الألباني انظر حديث رقم : ٤٥٩٧ في صحيح الجامع.



ارسم خريطة توضح حصون خيبر



التجرد

عَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ أَنَّ رَجُلاً مِنْ الأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ- فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ .

فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ- بَعْضَ أَصْحَابِهِ..

فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَة [خيبر] غَنِمَ النَّبِيُّ -ﷺ- سَبْيًا فَقَسَمَ، وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ [**أي يرعى الإبل لهم**] فَلَمَّا جَاءَ؛ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ: مَا هَذَا ؟ قَالُوا: قِسْمٌ، قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ -ﷺ- .

فَأَخَذَهُ ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ -ﷺ- فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ !

✍ **قَالَ** -ﷺ- : " **قَسَمْتُهُ لَكَ** " .

✍ **قَالَ:** مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ ! وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا- وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - بِسَهْمٍ فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ !

✍ **فَقَالَ النبي** -ﷺ- : " **إِنْ تَصْدُقْ اللهَ يَصْدُقْكَ** " .

فَلَبِثُوا قَلِيلاً، ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ- يُحْمَلُ، قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- : " **أَهُوَ هُوَ ؟ !** "

✍ **قَالُوا :** نَعَمْ .

✍ **قَالَ :** " **صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ !** " .. ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ -ﷺ- فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ -ﷺ- ثُمَّ قَدَّمَهُ، فَصَلَّى عَلَيْهِ فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ: "**اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ ! خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ، فَقُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ !**"[النسائي : ١٩٢٧،وصححه الألباني]

✍ **معنى التجرد :**

في اللغة: جَرَدَ الشيءَ يجرُدُهُ جَرْداً وجَرَّدَهُ قشَره... والجُرْدَةُ بالضم أَرض مستوية متجرِّدة... والسماءُ جَرْداءُ إِذا لم يكن فيها غَيم .. والتجرُّدُ التعرِّي [انظر : لسان العرب ٣/ ١١٥].

وفي الشرع، أن يتخلص المرء من هواه، وأن يَخلص نفسه لله، وأن يصطبغ بصبغة الله .

وإن شئت فقل : التجرد : أن تجعل نفسك وقفًا لله .

✍ **التجرد ومثال في الملائكة**

والملائكة مثال لمن تجرد لمحض الخير، قال الله تعالى فيهم : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] ولذلك يقول الإمام الغزالي :

"**التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين؛ فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان، والمتجرد للشر شيطان..**" [الإحياء ٣/ ١٠٥].

✍ **التجرد ومثال في الحج**

والحج من أهم العبادات التي يستشعر فيها المسلم المعنى الحقيقي للتجرد، فهو يترك الأهل والوطن، ويتجرد من ثيابه، فيرتدي ثوبًا أشبه بالكفن، ويؤدي مناسك لا يعلم حكمتها إلا الله، ويستشعر المسلم معنى التجرد في طوافه الخالص لله بالكيفية التي أرادها الله، وفي التلبية التي يهتف بها الحاج معلنًا تجرده لله وبراءته من الشريك والنظير .. وفي ذلك كله التجرد من شهوات النفس ومطالب الهوى.

✍ **وقفة تجرد :**

في هذا المشهد السالف، نرى صورة من روائع التجرد لله، وصورة رجاله الذين صدقوا الله فصدقهم، فنالوا الجنة عن موقف تجردت فيه قلوبهم لله تمام التجرد، دون سابقة أعمال مأثورة أو تاريخ دعوي تليد، فقط دخلوا الجنة بوقفة وقفوها.

ومثاله الصحابي الذي دخل الجنة ولم يسجد لله سجدة، حيث انتقل من صفوف الكفر إلى صفوف الإيمان في ميدان المعركة، فشهد شهادة الحق، فقاتل، فقُتل، هكذا في دقائق معدودات !

فما الكبير الدالف، والسقيم المدنَف، وغيرهما، ممن عاشوا في الإسلام دون أن يقدموا له شيئًا يذكر ! أو انغمسوا في يَمِ المعصية مع قليل توبة، أو طُحنوا في طاحونة التجارة وتغذية البطون، وإشباع الفروج، والإمعان في نعيم زائل، فإما أن تمحصهم فُجاءات الأمور، وبَغَتات الحوادث، وإما أن تسكرهم سكرة الموت، فلا يرون أنفسهم إلا في عرصات القيامة حيث حساب ولا عمل، ونَدَمٍ حيث لا ينفع الندم !

✍ **هذا المتجرد :**

هذا الأعرابي، عزم عزمة صادقة، وعرف غايته الكبرى وهي الجنة، وعرف السبيل إليها، وهو الجهاد، وأيقن أن الشهادة في سبيل الله هي أقصر الطرق وأيسر السبل إلى

جنات عدن، فعقد في نفسه أسمى غاية، هي الموت في السبيل الله، وأخذ العهد على نفسه في ذلك، واتبع رسول الله -ﷺ - من أجل الوصول إلى الغاية عبر هذه الوسيلة.. **"أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا- وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - بِسَهْمٍ فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ !"** .. لقد كان طموحه في منتهى السمو، وهدفه في منتهى الوضوح، ومنهجه في الحياة في غاية الغضارة، وأوضح من الشمس في رابعة النهار ..

أن يُرمي بسهم في حلقه .. فيموت .. فيدخل الجنة ..

✍ **من تمام التجرد :**

لقد جاء هذا الأعرابي بقسمه في الغنيمة إلى رسول الله -ﷺ ، مستغربًا، وقائلاً :

" مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ !"

وكأنه يرى أن من الغَثَارة والحماقة أن يتلهي بغنيمة دنيوية، فيضيع فيها الوقت، وتمر فيها ساعات تأخره عن غنيمته الكبرى التي طمح إليه . فبين لرسول الله -ﷺ - أنه لم يكن قد عاهد على نعيم دنيوي قط، بل كانت عزمته للجنة، الجنة فحسب.

ويكأن القاصد البصير لا ينظر إلى الفتات !

✍ **الطريق إلى التجرد :**

إن التجرد مرتبة عالية، ودرجة سامية، لا يتسنى لإنسان أن ينالها إلا بمجاهدة ..لا ينبغي أن ينالها نهِمْة لا يشبعون، أو غلْمة لا يتعففون.

لَرَجُلٌ ألزم نفسه الطاعات وألجمها عن الشهوات وصرفها عن الشبهات أحق أن ينال مرتبة التجرد.

✍ **قال الشاعر:**

لا تحسبنَّ المجدَ تمرًا أنت آكله * لن تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصبرَ**

✍ **وقال المتنبي مخاطبًا نفسه:**

تُرِيدينَ إتيانَ المعالي رخيصةً * و لا بد دون الشهدِ من إبْرِ النَّحلِ**

فانظر كيف كانت بداية هذا الأعرابي، من أول يوم أسلم فيه، لقد كانت حياته صدقًا مع الله، فتأملْ - بارك الله فيك - أول الحديث، وتذاكرْ ما تحته خط :

"أَنَّ رَجُلاً مِنْ الأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ .

فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ -ﷺ- بَعْضَ أَصْحَابِهِ..
فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ -ﷺ- سَبْيًا ..."

لقد كان بادىء أمر هذه الأعرابي: إيمان، واتباع، وهجرة، وجهاد .. !

فلم يزل يجاهد نفسه في الإيمان، بحسن الاعتقاد، وكمال اليقين، وجمال التوكل.

ولم يزل يجاهد نفسه في الاتباع، بحسن التأسي، وتمام الاقتداء بخاتم الأنبياء -ﷺ-.

ولم يزل يجاهد نفسه في الهجرة، فحمل نفسه حملاً، عن الشهوات والشبهات، وانتقل بنفسه من أرض الكفر إلى أرض الإيمان .

ولم يزل يجاهد نفسه في ساح الوغى، يكابد معمة القتال، يركض إلى الله ركضًا، بغير زاد إلا التُقى وعمل الرشاد .

وهكذا، لم يزل يجاهد في الله، حتى هداه سبيل التجرد، فكان له ما كان من الشهادة والكرامة .

✍ **جائزة التجرد :**

وكانت جائزة هذا الأعرابي المتجرد عبارة عن حزمة من التكريمات النبوية والتشريفات المحمدية، فكانت له هذه المناقب :

✍ **المنقبة الأولى :** أن صدّقه رسول الله -ﷺ- ، فقال: " **صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ** ".

✍ **المنقبة الثانية :** أن كفنه النَّبِيُّ -ﷺ- فِي جُبَّته.

✍ **المنقبة الثالثة :** أن قدَّمه النَّبِي -ﷺ- فَصَلَّى عَلَيْهِ .

✍ **المنقبة الرابعة :** أن دعا له النَّبِيُّ -ﷺ- فقال: "**اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ**" .

المنقبة المنقبة الخامسة : أن شهد له النبي بالشهادة، قال : "**فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ**" .

أيها المتجرد، أبشر بهذه الخماسية !

✍ **توصية عملية :**

استشعر حلاوة التجرد لله تعالى من كل الألقاب والأحساب والأنساب والأحزاب، استحضر في أعمالك وأقوالك أنك لله وحده لا شريك له .

سرية
غالب بن عبد الله الليثي
رمضان سنة ٧ هـ

غالب بن عبد الله الليثي، صحابي زاهد، شجاع، كان يستعمله النبي ـ ﷺ ـ كعينٍ له لجمع المعلومات (**رجل مخابرات**).

وكان غالب ـ رضي الله عنه يقول : **" أيها الناس احمدوا الله على ما أبلاكم، وسلوه يزدكم، وادعوه يجبكم "**[1] .

***

وفي هذا الشهر الكريم من العام السابع للهجرة، بعث النبيُ ـ ﷺ ـ هذا الصحابي الجليل في مائة وثلاثين جنديًا، إلى بعض قبائل غطفان، وهي في هذا الوقت من ألد أعداء الإسلام، وقد شاركوا في معركة الأحزاب مع المشركين سنة ٥ هـ.

إذنْ فهو درس تأديبي من قائد الأمة لإعداء المسلمين .

***

✍ **ذاتية ومبادرة وإيجابية**

✍ **وكان دليل هذه السرية:** يسار مولى رسول الله ـ ﷺ ـ

والسبب في كونه دليل السرية، أنه بادر وتطوع قائلاً للنبي ـ ﷺ ـ: يا نبي الله اني قد علمت غِرة من بني عبد بن ثعلبة [**من غطفان**]، فأرسل معي إليهم، فأرسل معه غالبًا في هذه السرية [2].

فهي الذاتية المفتقدة، والمبادرة الجادة، والإيجابية المعهودة عن صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ.

***

فزحفوا نحو ساحات الغادرين من بني غطفان، وهجموا عليهم جميعاً، ووقعوا في وسط محالهم، وقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعمًا وشاء، ولم يأسروا أحدًا.

***

---

(١) سليمان بن موسى الكلاعي : الاكتفاء (٤ / ١٨٧) .

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد٦ / ١٣٣ .

✍ **قصة المتعوذ :**

وفي هذه السرية قتل أسامةُ بن زيد نَهِيكَ بن مِرْدَاس بعد أن قال : لا إله إلا الله! فلما قدموا وأخبر النبي ـﷺ ـ، كبر عليه ، وقال : "**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللهُ**؟" فقال : إنما قالها متعوذاً ، قال :" **فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟** "[1] .

وفي رواية : قَالَ : " مَنْ لَكَ بِلا إِلَهَ إِلا اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ !!"فَمَا زَالَ يُكَرِّرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، حَتَّى تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ أَسْلَمَ يَوْمَئِذٍ، وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أُعْطِي اللهَ عَهْدًا أَلاَ أَقْتُلَ رَجُلاً يَقُولُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ـﷺ ـ : "بَعْدِي ؟ " ، فَقَالَ أُسَامَةُ: بَعْدَكَ[2].

فالله وحده يعلم السرائر، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [النمل:٧٤]



لا تخض في عقائد المسلمين .



(١) انظر : أحمد ٥ / ٢٠٧ وغيره.

(٢) زاد المعاد، (٣ / ٣١٦) والقصة في البخاري، على خلاف بين أهل السير في أي السرايا موضعها، وقد تابعتُ في ذلك ابنَ سعد فيما ذهب .

عمرة القضاء
ذو القعدة ٧هـ

أقام النبي ـ ﷺ ـ بالمدينة شهرين فقط بعد غزوة خيبر، ثم استعمل على المدينة عُوَيْفَ بْنَ الأَضْبَطِ الدّيلِيّ، وهو حديث عهدٍ بإسلام[1]، ثم خرج النبي ـ ﷺ ـ في ذِي الْقَعْدَةِ مع ألفين من أصحابة لأداء عمرة القضاء، مكانَ عمرةِ الحديبية التي لم تتم، وقد رجع عن عامه ذلك حسب بنود الاتفاق.

***

✍ **لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً :**

خرج المسلمون متسلحين بكامل سلاحهم، وكأنما هم ذاهبون لقتال لا لعمرة، وذلك من باب الحيطة والحذر، والاستعدادِ لأي مواجهة أو غدر من المشركين، وفي نفس الوقت تغيير نياتهم إن كانوا قد عزموا على الخيانة .

وأحرم النبي ـ ﷺ ـ من ذي الحليفة، وساق معه الهدي،ستين بدنة[2]، ينحرها في مكة، فلما كان قريبًا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه.

وما إن اقترب المسلمون من مكة بهذا المنظر المهيب، والأسلحة والتلبية، وفي مقدمة المسلمين مائتا فارس بقيادة محمد بن مسلمة؛ حتى سمع المشركون فتأبطوا شرًا، وضربوا أَخماساً لأَسْدَاسٍ فأرسلوا خبيثهم مِكْرِزَ بْن حَفْصٍ ـ وكان نذلاً رذلاً ـ في نفر من قريش، ليخوفوا المسلمين..

فأقبل مكرز على رسول الله ـ ﷺ ـ بوجه عابس كابس، في موضع يسمى **"بطن يأجج"** يبعد عن مكة بثمانية أميال.

فقالوا له: يَا مُحَمّدُ، وَاَللهّ مَا عَرَفْت صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا بِالْغَدْرِ تَدْخُلُ بِالسّلاحِ الْحَرَمَ عَلَى قَوْمِك، وَقَدْ شَرَطْت أَلّا تَدْخُلَ إلّا بِسِلَاحِ الْمُسَافِرِ السّيُوفُ فِي الْقُرُبِ .

---

(١) علمًا أنه أسلم في العام الماضي، عام الحديبية [انظر: أسد الغابة (١ / ٨٨١)]، وليس السبق لمن سبق إنما السبق لمن صدق.

(٢) البَدَنةُ بالهاء تقع على الناقة والبقرة والبعير الذَّكر مما يجوز في الهدْي والأَضاحي وهي بالبُدْن أَشْبَه ولا تقع على الشاة سمِّيت بَدَنةً لِعِظَمِها وسِمَنِها وجمع البَدَنةِ البُدْن وفي التنزيل العزيز والبُدْنَ جعَلْناها لكم من شعائِرِ الله [لسان العرب (١٣ / ٤٧)]

فقال رسول الله -ﷺ - : **"لَا نَدْخُلُهَا إِلَّا كَذَلِك"**.. ثُمّ رَجَعَ مكرز سَرِيعًا بِأَصْحَابِهِ إِلَى مَكّةَ فَقَالَ :إنّ مُحَمّدًا لا يَدْخُلُ بِسِلاحٍ وَهُوَ عَلَى الشّرْطِ الّذِي شَرَطَ لَكُمْ[1] .

ووضع الرسول ـﷺ ـ السلاح خارج الحرم وأبقى عليه، مائتي فارس بقيادة محمد بن مسلمة، وهم على أتم الاستعداد لمواجهة أي حركة غدر من المشركين، فالمسلمون محرمون، ولو مال المشركون عليهم ميلة واحدة وهم في الحرم؛ لأبادوا المعتمرين جميعًا .

***

ودخل رسول الله ـﷺ ـ مكة، وطنَه، التي أُخرج منها منذ سنين، ها هو اليوم يدخلها معتمرًا زائرًا كالغريب، وقد وَقَّت له المشركون ثلاثة أيام فقط ويخرج .

الواحدُ منا إذا نزل مكةَ المكرمة؛ لا يكفيه فيها ثلاثةُ أيام ، ففي ذلك مشقة كبيرةٌ، ولن يتسنى له أن يشبع قلبه من طول النظر إلى البيت، وكثرة التنفل والطواف، والشرب من ماء زمزم، وزيارة الأماكنِ المباركة في مكة .

أما هؤلاء القُساةِ، الذي عقّوا ولدهم، وتنكروا لسيدهم وابن سيدهم، فقد وقتوا له ثلاثةَ أيام ، وهم بعد ذلك في حل من أمره.

***

✍ **الحرب النفسية :**

وأشاعت قريشٌ شائعةً باطلةً؛ أن **"مُحَمّدًا وَأَصْحَابُهُ فِي عُسْرَةٍ وَجَهْدٍ وَشِدّةٍ"**[2].

✍ **قال ابن عباس** : صَفّوا لَهُ عِنْدَ دَارِ النّدْوَةِ لِيَنْظُرُوا إلَيْهِ، وَإِلَى أَصْحَابِهِ، فَلَمّا دَخَلَ رَسُولُ اللّهِ ـﷺ ـ الْمَسْجِدَ اضْطَبَعَ بِرِدَائِهِ، وَأَخْرَجَ عَضُدَهُ الْيُمْنَى ، ثُمّ قَالَ:

"رَحِمَ اللّهُ امْرَأً أَرَاهُمْ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوّةً !"[3].

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]

والهزيمة النفسية للعدو، قوة !

إنه يطوف بالبيت، يعبد الرب، ويرهبُ العدو، كذا المسلم دومًا، قوتُه تنبع من عبادته، كلما استذل للرب، أذل العدو، وكلما خاف الربَ، خاف منه العدو .

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٧٣٤)، طبقات ابن سعد (٢/ ١٢١).

(٢) ابن هشام – (٢ / ٣٧٠) .

(٣) ضعفه الألباني في تحقيق فقه السيرة، ٣٦٤ .

ثُمّ اسْتَلَمَ ـ ﷺ ـ الرّكْنَ ، وَخَرَجَ يُهَرْوِلُ وَيُهَرْوِلُ أَصْحَابُهُ مَعَهُ، حَتّى إذَا وَارَاهُ الْبَيْتُ مِنْهُمْ وَاسْتَلَمَ الرّكْنَ الْيَمَانِيّ ، مَشَى حَتّى يَسْتَلِمَ الرّكْنَ الأَسْوَدَ، ثُمّ هَرْوَلَ كَذَلِك ثَلاثَةَ أَطْوَافٍ وَمَشَى سَائِرَهَا [١] .

فكانت سُنّة.

عند ذلك قال المشركون بعضهم لبعض : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا، إنهم لينفرون نفر الظَّبْي [٢]

***

لقد كان مشهدًا مهيبًا عجيبًا، عندم دخل المسلمون الحرم .

وي ! كيف كانت مشاعرهم عندما وقعت أعينُهم على الكعبة التي حرموا رؤيتَها .

✍ **لقد رقت القلوب، وانهمرت الدموع، وخشعت الأصوات** :

لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك !

ولأول مرةٍ ترفع تكبيرةُ التوحيد، وتخفض تكبيرة الشرك، مكة تهتز هزًا بتكبير القلوب الموحدة الصادقة، ولكأني أنظر إلى جنبات مكة، شوراعها وأزقتها، ومنازلها سهولها وحزونها، تهتز طربًا بتكبير رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابِه الكرام .

الرسول ـ ﷺ ـ يطوف، وأصحابه الكرامُ حوله، متوشحون السيوف، محدقون برسول الله ـ ﷺ ـ، يخشون عليه، يلبون في خشوع، على وجوههم نضرةُ الإيمان، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ ـ رضي الله عنه ـ آخِذٌ بِخِطَامِ نَاقَتِه الشريفة : يَقُولُ

خَلّوا بَنِي الْكُفّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... خَلّوا فَكُلّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ

يَا رَبّ إنّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ ... أَعْرِفُ حَقّ اللهِّ فِي قَبُولِهِ [٣]

وكبار المشركين فوق الجبال حقدًا وغمًا، أن يروا المسلمين يطوفون بالبيت، وعامة الناس جلسوا فوق البيوت وعلى الطرق، ينظرون إلى الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ

---

(١) ابن هشام (٢ / ٣٧٠) .

(٢) السيرة الحلبية -(٢ / ٧٨١) .

(٣) ابن هشام (٢ / ٣٧٤) .

وبعضهم عند دار الندوة، يتأملون طوافًا رائعًا لم يُر مثلُه قط، ينظرون عبادةً خاشعة لم تعهد في ذلك الحرم الذي يطوف به الجاهليون على مر القرون عرايا يصفرون ويصفقون، ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥]

يتأملون حُبَ أصحاب محمد محمدًا ـ ﷺ ـ، في إعجاب وإكبار .

✍ **حتى قال بعض المشركين :** والله لم أر اللهَ قط يُعبد حق العبادة كاليوم.

سعى المسلمون بين الصفا والمروة.. فكانوا فيه أشد جلَدًا وقوةً من الطواف .

وحانت الصلاة، فاعتلى بلالٌ ـ رضي الله عنه ـ الكعبةَ، فأذن، فكانت هي المرةُ الأولى التي يرن فيها الأذان في أركان مكة، فشق نورُ الأذان أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا.

✍ **فقال عكرمة بن أبي جهل:** لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول!

✍ **وقال صفوان بن أمية:** الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا [1].

✍ **وعامّة قريش، في تأثر :**

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحِجر:٢]

✍ **لكن :**

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]

أما المسلمون المستضعفون والذين يكتمون إيمانهم في مكة، في فرحة عارمة أنْ رأوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ في وطنه الأول، يطوف بين أظهرهم.

***

✍ **الزواج من قرشية :**

وأراد النبيُ ـ ﷺ ـ أن يتخذ ذريعةً للتأثير على قريش، وتحريك القلوب، واستجاشة الذكريات، فنكح منهم امرأةً، هي السيدةُ مَيْمُونَـةُ بِنْـتُ الْحَـارِثِ القرشية، خطبها، وأمهرها، وعقد عليها، بين ظهرانيهم، يريد بذلك أن يكسر من سورتهم، ويحرك بهذه الزيجةِ نياط قلوبهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٤٣٨).

✍ **الطرد :**

وانقضت المدةُ التي قررتها قريشٌ، وفي اليوم الثالث أرسل صناديدُ مكةَ إلى النبي -ﷺ- سهيلَ بن عمرو، وحُوَيْطِبَ بْن عَبْدِ الْعُزّى، فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وكانت قريشٌ قد وَكلت سُهيلاً بالتفاوض عام الحديبية، ووكلت حويطبًا بإخراج النبي -ﷺ- فور انتهاء المدة.

✍ **فقالوا له :** قد انقضت المدة !

✍ **فَقَالَ النّبِيّ -ﷺ- في أدب رفيع، وذوق لا حد له :**

" وَمَا عَلَيْكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُونِي، فَأَعْرَسْت بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، وَصَنَعْنَا لَكُمْ طَعَامًا فَحَضَرْتُمُوهُ "(١) ، وإنما أراد تأليفهم بذلك .

✍ **قَالُوا :** لا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِك، فَاخْرُجْ عَنّا !

***

ليست أرضُك ولا أرض أبيك، بل هو أحقُ الناسِ بها، وهو أكرمُ من مشى عليها.

ألا ليت شعري : ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص:٨٥].

***

لعمر الله ! إن المشركين تشددوا في إخراج النبي -ﷺ- من مكة في هذه العمرة؛ خشيةً منهم على عامة المشركين، أن يُفتتنوا بأخلاق المسلمين، وخشوعهم، وبعذب حديث المصطفى ﷺ ، وحلو منطقه، وجميل بيانه، وعظيم أخلاقه، وكريم شمائله، فما إن تقع عليه عيناك حتى يأسرَ قلبَك أسرًا .

لقد فعلت هذه العمرةُ بهم الأفاعيل، فنثرتهم شذر مذر، وفرقتهم شَغَرَ بَغَرَ، حتى أتت أُكلها، فأسلم بسببها : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، فكان فتحًا مبينًا للإسلام .

***

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٤٣٨) .

✍ **ابنة حمزة :**

وخَرَجَ رَسُولُ اللهّ ـ ﷺ ـ، وقد علمت مكةُ بخروج المسلمين، فتنفس الصناديدُ الصعداءَ، وأفرخ رَوْعُهم .

✍ **وتبعته ابنةُ حمزةَ بن عبد المطلب تنادي:** يا عم يا عم!

فالتفت إليها ـ ﷺ ـ بعيون قد ملأها الحنان والشفقةُ، وتناولها علي ـ رضي الله عنه ـ فأخذها بيدها وقال لفاطمة: دونكِ ابنةَ عمك.

✍ **فحملتها، فاختصم فيها عليٌ وزيدٌ وجعفرُ، فقال علي:** أنا أخذتها وهي ابنة عمي.

✍ **وقال جعفر:** ابنةُ عمي وخالتُها تحتي .

وقال زيد: ابنة أخي [**وقد آخى رسول الله ـ ﷺ ـ بين زيدٍ وحمزةَ**].

فقضى بها النبي ـ ﷺ ـ لخالتها وقال: " **الخالة بمنزلة الأم** "(١)

***

عاد المسلمون إلى ديارهم في المدينة، وقد أدوا عمرتهم، وقد صدقهم الله وعده:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧].

***

ها قد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ في هذه العمرة، وكيف كان صنيع أهلِ مكة معه، دخل إليهم كالغريب، وخرج عنهم كالغريب، ولم يقبلوا أن يمكث في وطنه فوق ثلاثة أيام، بل وكّلوا له من يخرجه إذا انقضت المدة، ولعلهم قد سمحوا له بإداء العمرة لا مروءة ولا شهامة إنما فعلوا ذلك خوفًا من كلام العرب، وخشيةً على سمعة قريشٍ بين القبائل، وهم الذين يتفاخرون على الناس بأنهم يقرون الضيف، ويسقون الحجيج، ويصلون الرحم .

***

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٤٤٢) .

هل أحسست بالغصة التي كانت في حلوق المسلمين جراء هذا التنكر والإيذاء ؟

هل استشعرت الكمد الذي كابده رسولُ الله ـ ﷺ ـ من قومه، وهم يقولون له :

" لا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِك، فَاخْرُجْ عَنّا ".

هذا الذي تزدحم الخلائق حوله يوم القيامة، طلبًا لشفاعته، فيقول : أنا لها ! أنا لها[1] !

لم ييأس قط ، ولم تتسلل الهزيمةُ النفسية إلى قلبه، ويقول بكل بإيمان وثقة :

"بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[2]



١ـ استحضر قصة عمرة القضاء وأنت تطوف بالبيت العتيق .

٢ـ ابحث في التراجم عن : عُوَيْفَ بْنَ الأَضْبَطِ الدّيِلِيّ ـ رضي الله عنه ـ .

٣ـ استحضر شعورَ النبي ـ ﷺ ـ عندما قال له قومه :**" لا حَاجَةَ لَنَا فِي طَعَامِك، فَاخْرُجْ عَنّا "**؛ ولتخرجْ من هذا التفكر بصنيعةٍ عملية تخدم بها الإسلام.



---

(١) البخاري : ٦٩٥٦ .

(٢) البخاري (٢٩٩٢) ، ومسلم (١٧٩٥) .

معركة مؤتة
جمادى الأول ٧ هـ ـ أغسطس ٦٢٩م

سببها أن رسول الله ـ ﷺ ـ أرسل الحارث بن عمير الأزدي ـ رضي الله عنه ـ برسالة إلى زعيم بُصْرَي بالشام . فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني ـ وكان زعيمًا عربيًا مواليًا للرومان ـ فاعتقله، وأوثقه، ثم قدمه فضرب عنقه .

ولم يُقتل لرسول الله ـ ﷺ ـ غيرُه من الرسل والسفراء.

وهي جريمة نكراء في أعراف جميع الشرائع والملل والقوانين، توجب قيام الحرب والقصاص.

وقد وَجَدَ ـ ﷺ ـ لذلك وَجْدًا شديدًا؛ فالرسل لا تُقتل، ومن يفعل ذلك يُعير بالغدر وقلة المروءة.

فجهز النبي ـ ﷺ ـ جيشًا للقصاص من دولة كبيرة قتلت رجلاً مسلمًا، وفي ذلك دلالة على عظم قدر الفرد المسلم في دولة الإسلام، فله كرامة، وله حرمة، ومن أجل حريته تجيش الجيوش، ومن أجل دمه تُكَتَّبُ الكتائب، فما أعظم نظامَ الإسلامِ إذا حكم، وما أكرم شريعةَ الله إذا طُبقت !

وكان الجيش في هذه الغزوة، ثلاثة آلاف، وكان أميرهم زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ .

و قال النبي ـ ﷺ ـ: **" إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ"**(١)

✍ توصية الجيش:

ثم وصى رسول الله ـ ﷺ ـ المجاهدين قائلاً: **"أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، أغزوا باسم الله، في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم الى إحدى ثلاث: فإما الاسلام، وإما الجزية، وإما الحرب.."**(٢) .

---

(١) البخاري : ٣٩٢٨ .

(٢) المغازي (٢/ ٧٥٧-٧٥٨).

✍ **توديع الجيش :**

قال ابن هشام : **"فَلَمَّا حَضَرَ خُرُوجُهُمْ [أي المقاتلين] وَدَّعَ النَّاسُ أُمَرَاءَ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِمْ "**(١) .

ويبدو من ذلك أن السُنة النبوية تقتضي أن يشهد الناسُ توديعَ الجيوشِ الإسلامية، لما في ذلك من شحذ همم المقاتلين، وفي هذه السرية خرج النبي ـ ﷺ ـ بنفسه الكريمة يودع الجيش، ويحمسهم، ويوصيهم .

✍ **من مناقب عبد الله بن رواحه :**

وفي أجواء التوديع، بكَى عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ ، فَقَالُوا : مَا يُبْكِيك يَا بْنَ رَوَاحَةَ ؟ فَقَالَ :أَمَا وَاَللّهِ مَا بِي حُبّ الدّنْيَا، وَلا صَبَابَةٌ بِكُمْ، وَلَكِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ـ ﷺ ـ يَقْرَأُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزّ وَجَلّ، يَذْكُرُ فِيهَا النّارَ : {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبّكَ حَتْمًا مَقْضِيّا } فلست أَدْرِي كَيْفَ لِي بِالصّدَرِ بَعْدَ الْوُرُودِ(٢) .

ثم قَالَ الْمُسْلِمُونَ :صَحِبَكُمْ اللهُ، وَدَفَعَ عَنْكُمْ، وَرَدّكُمْ إلَيْنَا صَالِحِينَ !

✍ **فَقَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ :**

لَكِنّنِي أَسْأَلُ الرّحْمَنَ مَغْفِرَةً ... وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزّبَدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرّانَ مُجْهِزَةً ... بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتّى يُقَالَ إذَا مَرّوا عَلَى جَدَثِي ... أَرْشَدَهُ اللهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا(٣)

✍ **ثُمّ إنّ الْقَوْمَ تَهَيّئُوا لِلْخُرُوجِ فَأَتَى عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَسُولَ اللّهِ ـ ﷺ ـ فَوَدّعَهُ ثُمّ قَالَ :**

فَثَبّتَ اللهُ مَا آتَاك مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالّذِي نُصِرُوا
إنّي تَفَرّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً ... اللهُ يَعْلَمُ أَنّي ثَابِتُ الْبَصَرِ
أَنْتَ الرّسُولُ فَمَنْ يُحْرَمْ نَوَافِلَهُ ... وَالْوَجْهَ مِنْهُ . فَقَدْ أَزْرَى بِهِ الْقَدَرُ(٤)

---

(١) سيرة ابن هشام (٢ / ٣٧٣) .
(٢) سيرة ابن هشام (٢ / ٣٧٣) .
(٣) سيرة ابن هشام (٢ / ٣٧٣) .
(٤) سيرة ابن هشام (٢ / ٣٧٣) .

✍ **مجلس شورى :**

ثم مضى الجيشُ الإسلاميُ قدمًا نحو الشمال، حتى نزلوا " **مَعَانَ**" مِنْ أَرْضِ الشّامِ ، فَبَلَغَ المسلمين أَنّ هِرَقْلَ قَدْ نَزَلَ "**مَآبَ**"، مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ، فِي مِئَةِ أَلْفٍ مِنْ الرّومِان، وانضم إليهم عرب الشمال الموالين لهم في مئة ألف أيضًا، فكانت عدتهم جميعًا مئتا ألف .

فَلَمّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمُسْلِمِين، فأَقَامُوا عَلَى "**مَعَانَ**" لَيْلَتَيْنِ، يبحثون، ويُفَكّرُونَ فِي أَمْرِهِمْ، وتشاوروا في ذلك مرارًا :

✍ **فَقَالَ طائفةٌ منهم** :نَكْتُبُ إلَى رَسُولِ اللهِّ ـ ﷺ ـ فَنُخْبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُوّنَا ، فَإِمّا أَنْ يُمِدّنَا بِالرّجَالِ وَإِمّا أَنْ يَأْمُرَنَا بِأَمْرِهِ فَنَمْضِيَ لَهُ[1] .

✍ **فَشَجّعَ النّاسَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَقَالَ** :يَا قَوْمِ، وَاَللّهِ إنّ الّتِي تكْرَهُونَ لَلّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ : الشّهَادَةُ .. وَمَا نُقَاتِلُ النّاسَ بِعَدَدِ وَلا قُوّةٍ وَلا كَثْرَةٍ، مَا نُقَاتِلُهُمْ إلا بِهَذَا الدّينِ الّذِي أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ، فَانْطَلِقُوا، فَإِنّمَا هِيَ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ إمّا ظُهُورٌ وَإِمّا شَهَادَةٌ[2] .

فحركت مشاعرهم هذه الكلمات وثبتتهم، وجمعت رأيهم على المضي نحو النصارى الذين قتلوا رسول رسول الله ـ ﷺ ـ .

لابد أن يشتمل الجيش على الخطباء المجاهدين، الذين تخرج من قلوبهم الكلمات الملهبة التي توقظ النفوس، وتشحذ العزائم، وتثبت الأقدام، وتحقق الصبر .[**فإذا كان الصبر كان النصر**].

***

وأخذ عبد الله بن رواحه ـ رضي الله عنه ـ يواصل التشجيع، فأخذ ينشد في الجيش :

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَجَإٍ وَفَرْعٍ ... تُغَرّ مِنْ الْحَشِيشِ لَهَا الْعُكُومُ

حَذَوْنَاهَا مِنْ الصّوّانِ سِبْتًا ... أَزَلّ كَأَنّ صَفْحَتَهُ أَدِيمُ

أَقَامَتْ لَيْلَتَيْنِ عَلَى مَعَانٍ ... فَأَعْقَبَ بَعْدَ فَتْرَتِهَا جُمُومُ

فَرُحْنَا وَالْجِيَادُ مُسَوّمَاتٌ ... تَنَفّسُ فِي مَنَاخِرِهَا السّمُومُ

---

(١) ابن هشام – (٢ / ٣٧٥) .

(٢) ابن هشام – (٢ / ٣٧٥) .

فَلَا وَأَبِي مَآبَ لَنَأْتِيَنْهَا ... وَإِنْ كَانَتْ بِهَا عَرَبٌ وَرُومُ
فَعَبَّأْنَا أَعِنَّتَهَا فَجَاءَتْ ... عَوَابِسَ وَالْغُبَارُ لَهَا بَرِيمُ
بِذِي لَجَبٍ كَأَنَّ الْبَيْضَ فِيهِ ... إِذَا بَرَزَتْ قَوَانِسُهَا النُّجُومُ
فَرَاضِيَةُ الْمَعِيشَةِ طَلَّقَتْهَا ... أَسِنَّتُهَا فَتَنْكِحُ أَوْ تَئِيمُ[1]

***

لِقَاءُ الرّومان :

فَمَضَى النَّاسُ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِتُخُومِ الْبَلْقَاءِ، كانت الحرب على أرض مُؤْتَة[2]، وبدأت المعادلة الصعبة، ثلاثة آلاف في مواجهة مئتي ألف، إن صمود المسلمين في هذه المعركة العجيبة لهو من أعاجيب الدهر وأغاريب الزمان .

أما القائد زيد بن حارثة، فقاتل في بسالة منقطعة النظير حتى قُتل..

فأخذ الرايةُ جعفر ـ رضي الله عنه ـ، فقاتل في ثبات كالجبل الأشم حتى أرقهقه القتال، فنزل عن فرسه وعقره، وقاتل حتى قُطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، فقُطعت، فاحتضنها بعضديه، وكأنما الرايةُ عنده أكرم من روحه، فلم يزل يرفعها حتى شُق نصفين، فبأدله الله بيديه جناحين في الجنة، يطير بهما أينما شاء.

وَكان ـ رضي الله عنه ـ يقاتل وهُوَ يَقُولُ :

يَا حَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا ... طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابُهَا
وَالرّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا ... كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا[3]

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن عمر :

كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلَى وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ[4] .

ولما قتُل جعفرٌ ـ رضي الله عنه ـ أخذ الراية عبد الله بن رواحه وهو على فرسه، وتقدم، فجعل يتردد، فَجَعَلَ يَسْتَنْزِلُ نَفْسَهُ، وَيَتَرَدّدُ بَعْضَ التّرَدّدِ ثُمّ قَالَ ـ يشجعها ـ :

---

(١) ابن هشام – (٢ / ٣٧٥) .
(٢) ابن هشام (٢ / ٣٧٧) .
(٣) ابن هشام (٢ / ٣٧٨) .
(٤) البخاري : ٣٩٢٨ .

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهْ ... لَتَنْزِلِنّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ
إنْ أَجْلَبَ النّاسُ وَشَدّوا الرّنّهْ ... مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنّهْ
قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنّهْ ... هَلْ أَنْتِ إلّا نُطْفَةٌ فِي شَنّهْ [١]

✍ **وَقَالَ أَيْضًا :**

يَا نَفْسُ إلّا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيَتْ
وَمَا تَمَنّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيت إنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيت [٢]

ثُمّ نَزَلَ، فَلَمّا نَزَلَ أَتَاهُ ابْنُ عَمّ، بقطعة لحم، فَقَالَ : شُدّ بِهَذَا صُلْبَك ، فَإِنّك قَدْ لَقِيت فِي أَيّامِك هَذِهِ مَا لَقِيت، فَأَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ ثُمّ انْتَهَسَ مِنْهُا نَهْسَةً، ثُمّ سَمِعَ، جلبلة وَحَطْمَةَ فِي نَاحِيَةِ من نواحي العسكر، فألقى اللحم من يده، ثُمّ أَخَذَ سَيْفَهُ، فَتَقَدّمَ فَقَاتَلَ حَتّى قُتِلَ[٣] .

✍ **فقه القيادة :**

ثمّ أَخَذَ الرّايَةَ **ثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ** العجلاني ـ رضي الله عنه ـ : فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اصْطَلِحُوا عَلَى رَجُلٍ مِنكُمْ، قَالُوا : أَنْتَ . قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ .

وهذا من نزاهته ـ رضي الله عنه ـ وعلمه بأن في الجيش من أحق بالقيادة منه، فليت الملوك والأمراء يطبقون ذلك .

ولو طبق المسلمون هذه القاعدة واحده لصلح حالُ الأمة .

ولو طبقت الجماعات الإسلامية هذه القاعدة لصلحت دعواتهم واستقامت .

✍ **قال ابن هشام :** فَاصْطَلَحَ النّاسُ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، فَلَمّا أَخَذَ الرّايَةَ دَافَعَ الْقَوْمَ. وَحَاشَى بِهِمْ، ثُمّ انْحَازَ وَانْحِيزَ عَنْهُ حَتّى انْصَرَفَ بِالنّاسِ[٤] .

✍ **من معجزات النبي ـ ﷺ ـ :**

عَنْ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : أن النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا، وَابْنَ رَوَاحَةَ، لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ، فَقَالَ : " أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ

---

(١) ابن هشام (٢ / ٣٧٨) .
(٢) ابن هشام (٢ / ٣٧٨) .
(٣) انظر : ابن هشام (٢ / ٣٧٨) .
(٤) انظر : ابن هشام (٢ / ٣٧٨) .

أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ[**وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ**] حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ [١].

سمى النبيُ ـ ﷺ ـ انسحابَ الجيشِ الإسلامي في هذه المعركة فتحًا. وذلك لجسامة المهمة، وقلة العدة أمام هذه الجيش النصراني العرمرم، وقد كان القتال في أرضهم، ومع ذلك كان فتحًا في لأسباب :

١ـ أن المسلمين أسقطوا هيبةَ الرومان في المنطقة .

٢ـ أن عدد قتلى المسلمين أقلُ بكثير من عدد قتلى النصارى، فقد كان قتلى المسلمين لا يتعدى ثلاثةَ عشر ، بينما قُتل من النصارى نحو ثلاثةِ آلاف ـ في بعض الأقوال ـ .

٣ـ أن مهابة المسلمين زادت في نفوس العرب خاصةً، والأمم الأخرى عامةً، وذلك لأنه لم يسبق أن أحدًا تجرأ على حرب دولة عظمى إلا دولةٌ عظمى مثلها..

٤ـ مقتل قائد جيوش العرب الموالين للرومان، وهو مَالِكُ بْنُ زَافِلَةَ، وكَانَ قُطْبَةُ بْنُ قَتَادَةَ الْعُذْرِيّ ـ رضي الله عنه ـ الّذِي كَانَ عَلَى مَيْمَنَةِ الجيش الإسلامي قَدْ حَمَلَ عَلَى مَالِكِ بْنِ زَافِلَةَ هذا فَقَتَلَهُ، وفي ذلك قَالَ قُطْبَةُ بْنُ قَتَادَةَ :

طَعَنْتُ ابْنَ زَافِلَةَ بْنِ الْإِرَا ..ش برمُحٍ مَضَى فِيهِ ثُمّ انْحَطَمْ

ضَرَبْتُ عَلَى جِيدِهِ ضَرْبَةً ... فَمَالَ كَمَا مَالَ غُصْنُ السّلَمْ

وَسُقْنَا نِسَاءَ بَنِي عَمّهِ ... غَدَاةَ رقوقين سَوْقَ النّعَمْ

٥ـ بزوغ نجمِ قائدٍ عسكري عالمي كبير ـ هو خالد بن الوليد ـ الذي زلزل، عروش الرومان، وقد كان مصدر رعب مريع لطواغيت أوربا .

٦ ـ غنائم المسلمين في هذه الغزوة، تدل على ذلك، وقد أبانت قصة "**الحميري**" التي في صحيح مسلم[٢] شيئًا من الغنائم التي غنمها المسلمون في هذه الغزاة، وسنذكرها في ختام الغزوة.

✍ قدوم الجيش:

لَمّا اقترب الجيش الإسلامي من المدينة، تلقاهم رَسُولُ اللّهِ ـ ﷺ ـ وَالْمُسْلِمُونَ . وَلَقِيَهُمْ الصّبْيَانُ، يَشْتَدّونَ، وَرَسُولُ اللّهِ ـ ﷺ ـ مُقْبِلٌ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى دَابّةٍ فَقَالَ :

---

(١) البخاري : ٣٩٢٩.

(٢) انظر : مسلم : ٤٦٦٩.

" **خُذُوا الصّبْيَانَ فَاحْمِلُوهُمْ ، وَأَعْطُونِي ابْنَ جَعْفَرٍ** "(١)

فَأَتَى بِعَبْدِ اللهِّ فَأَخَذَهُ فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَجَعَلَ النّاسُ يَحْثُونَ عَلَى الْجَيْشِ التّرَابَ، وَيَقُولُونَ : يَا فُرّارُ ! فَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِّ ! فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِّ ـ ﷺ ـ :

" **لَيْسُوا بِالْفُرّارِ، وَلَكِنّهُمْ الْكُرّارُ إنْ شَاءَ اللهُّ تَعَالَى** "(٢) .

✍ **وصية النبي ـ ﷺ ـ بآل جعفر :**

قَالَتْ أسماء بنت عميس امرأة جعفر ـ رضي الله عنه ـ :

لَمّا أُصِيبَ جَعْفَرٌ وَأَصْحَابُهُ دَخَلَ عَلَيّ رَسُولُ اللهِّ ـ ﷺ ـ وَقَدْ دَبَغْت أَرْبَعِينَ مَنًا، وَعَجَنْت عَجِينِي ، وَغَسَلْت بَنِيّ، وَدَهَنْتهمْ، وَنَظّفْتهمْ . فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِّ ـ ﷺ ـ:

" **ائْتِينِي بِبَنِي جَعْفَرٍ ؟** "

✍ **قَالَتْ :** فَأَتَيْته بِهِمْ فَتَشَمّمَهُمْ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ!

✍ **فَقُلْت :** يَا رَسُولَ اللهِّ، بِأَبِي أَنْت وَأُمّي مَا يُبْكِيك ؟ أَبَلَغَك عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ ؟

✍ **قَالَ : "نَعَمْ، أُصِيبُوا هَذَا الْيَوْمَ" .**

✍ **قَالَتْ :** فَقُمْت أَصِيحُ، وَاجْتَمَعَتْ إلَيّ النّسَاءُ وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِّ ـ ﷺ ـ إلَى أَهْلِهِ .

✍ **فَقَالَ : "لا تُغْفِلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا، فَإِنّهُمْ قَدْ شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ"**(٣)

✍ **حزنُ النبي ـ ﷺ ـ على قادة مؤتة:**

✍ **عن عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت :**

لَمَّا جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ ـ ﷺ ـ قَتْلُ ابْنِ حَارِثَةَ، وَجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ، جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ يُعْرَفُ فِيهِ الْحُزْنُ .

قَالَتْ عائشة : وَأَنَا أَنْظُرُ مِنْ صَائِرِ الْبَابِ ـ شَقِّ الْبَابِ ـ فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ نِسَاءَ جَعْفَرٍ ...وَذَكَرَ بُكَاءَهُنَّ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَذْهَبَ فَيَنْهَاهُنَّ، فَذَهَبَ فَأَتَاهُ، فَذَكَرَ

---

(١) ابن هشام (٢ / ٣٨٢) .

(٢) ابن هشام (٢ / ٣٨٢) .

(٣) ابن هشام (٢ / ٣٨٠) .

أَنَّهُنَّ لَمْ يُطِعْنَهُ، فَأَمَرَهُ الثَّانِيَةَ، أَنْ يَذْهَبَ فَيَنْهَاهُنَّ فَذَهَبَ، ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ : وَاللهِ لَقَدْ غَلَبْنَنَا يَا رَسُولَ اللهِ .

✍ **فقَالَ : "اذْهَبْ فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ مِنْ التُّرَابِ" .**

✍ **قَالَتْ عَائِشَةُ :** فَقُلْتُ : أَرْغَمَ اللهُ أَنْفَكَ ! وَاللهِ مَا تَفْعَلُ مَا أَمَرَكَ رَسُولُ اللهِ ـ ﷺ ـ وَمَا تَرَكْتَ رَسُولَ اللهِ ـ ﷺ ـ مِنْ الْعَنَاءِ[1].

قلتُ : لعل النبي ـ ﷺ ـ قال ذلك ـ **"اذْهَبْ فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ مِنْ التُّرَابِ"** ـ لـمَّا أفرطن في العويل على جعفر، أو بلغه أنهن فعلن بفعال الجاهلية في مثل هذه المصائب من لطمٍ وشق ونحوهما .

✍ **توقير الأمراء :**

في هذه الغزوة قتل رجل من حمير رجلاً من الرومان، فأراد المسلمُ أن يأخذ سلب الرومي، وكان سلَبًا في ذهب كثير، فمنعه خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ وقد استكثر هذا السلب الثمين لفرد واحدٍ .

فلما وصل الجيش إلى المدينة، رفع عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ القضيةَ إلى النبي ـ ﷺ ـ،أي أن خالدًا أخذ سلَب هذا الحميري .

✍ **فَقَالَ النبي ـ ﷺ ـ لِخَالِدٍ :**
"مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلَبَهُ"

✍ **قَالَ :** اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ !

✍ **قَالَ : "ادْفَعْهُ إِلَيْهِ" !**

إلى هنا قد أدى عوف بن مالك ما عليه من تبليغ شكاية الحميري .

ولكن عوف ـ رضي الله عنه ـ صنع أمرًا أغضب رسول الله ـ ﷺ ـ إذ أخذ عوف برداء خالد ـ رضي الله عنه ـ وقَالَ : هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ[2] ـ ؟

---

(١) البخاري ٣٩٣٠ .

(٢) وكان عوف قد راجع خالدًا حينما أخذ سلب الحميري، وذكره أن رسول الله ـ ﷺ ـ قضى بالسلب للقاتل.

✍ **فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- فَاسْتَغْضَبَ، وَقَالَ:**

" لا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ ! لا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ ! هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمَرَائِي ؟ إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرْعِيَ إِبِلا أَوْ غَنَمًا فَرَعَاهَا، ثُمَّ تَحَيَّنَ سَقْيَهَا فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا فَشَرَعَتْ فِيهِ، فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ، وَتَرَكَتْ كَدْرَهُ ، فَصَفْوُهُ لَكُمْ، وَكَدْرُهُ عَلَيْهِمْ "[1] .

✍ **قال النووي** : **"ومعنى الحديث أن الرعية يأخذون صفو الأمور فتصلهم أعطياتهم بغير نكد وتبتلي الولاة بمقاساة الأمور، وجمع الأموال على وجوهها وصرفها في وجوهها، وحفظ الرعية والشفقة عليهم والذب عنهم وإنصاف بعضهم من بعض ثم متى وقع علقة أو عتب في بعض ذلك توجه على الأمراء دون الناس "**[2] .

" وفي الحديث دليل على أن للإمام أن يعطي السلب غير القاتل لأمر يعرض فيه مصلحة من تأديب أو غيره " [3].



١ـ اكتب بحثًا عن الشهداء الثلاثة .

٢ـ اجمع ما قيل من الشعر في غزوة مؤتة، [**ففيه من المعاني الكثيرة في الشجاعة والفداء والتضحية**].

٣ـ توقير أمراء الدعوة، وعلمائها، ومشايخها .



---

(١) مسلم : ٣٢٩٧ .

(٢) شرح النووي على مسلم (١٢ / ٦٥) .

(٣) عون المعبود (٧ / ٢٧٩) .